

للعارف بالله

الإمام عبد الوهاب الشعرانى

رضى الله عنـــه

تقديم وتحقيق وتعليق

للأستاذ الدكتور

منيع عبد الحليم محمود

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

وعميد كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر بالقاهرة

الجزء الأول

مكتبة الإيمان

للطباعة والنشر والتوزيع

٤ ش أحمد سوكارنو – العجوزة

ت : ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

رقم الإيداع : ١٠٥٤٥ / ٢٠٠٣ م
الترقيم الدولي I.S.B.N.
977-5260-31-0



مقدمـــــة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد سيد الخلق أجمعين .

فإن كتاب الأخلاق المتبولية يمثل دراسة تاريخية لمرحلة من المراحل المتعددة التى يربها التصوف الإسلامى فى قواعده وأسسه ومظاهره . ولا يكون بدعا من القول إذا قلنا أننا نعتبر هذا الكتاب أحد قمم الكتب التى تحدثت فى موضوع الأخلاق عند الصوفية . وليس معنى هذا أن الأخلاق الصوفية منفصلة فى مظهرها أو فى جوهرها عن الأخلاق النابعة من الكتاب والسنة . بل إننا نرى أنها التطبيق السليم والحقيقى لها فى حالة توافقها معها ولذلك آثرنا فى هذه المقدمة الحديث عن الأخلاق الإسلامية أساساً وتطبيقاً ، أساسا ممثلا فى شهادة التوحيد وفضيلتى التوبة والإخلاص وتطبيقاً ممثلا فى عباد الرحمن . وسنجد أننا بهذه المقدمة قد بينا المنهج الصوفى للأخلاق وعليه تقاس هذه الأخلاق ، وبينا أيضاً عدم تناقضه فى أى من أفكاره وتطبيقاته عن الأخلاق النابعة من الكتاب والسنة النبوية الشريفة .

مدخل إلى الأخلاق الإسلامية

إن الحديث عن الأخلاق الإسلامية هو حديث عن المقربين ، والوصول إلى القرب من الله تعالى ، ليس بالأمر السهل ، إنه يحتاج إلى كثير من المجاهدة من أجل تزكية النفس ، ولن يصل الإنسان إلى تزكية النفس ، إلا إذا تحرر من متاع الدنيا ، ومتاع الدنيا بينه الله تعالى بقوله :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١).

ويعقب الله سبحانه وتعالى على ذلك بقوله :

﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ .

والعدول عن متاع الدنيا إلى حسن المآب عند الله سبحانه وتعالى – وهو عدول عن النقص فى اتجاه نحو الكمال – له ثمنه من الجد فى العبادة ، والأخذ بالعزائم .

إن ثمنه هو ما عبر عنه الإمام أبى حامد الغزالى فى إجمال مجمل :

(تقديم الهمة ، ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق كلها ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى) (٢) .

وكل ذلك يتعارض مع ما زين للإنسان من متاع الدنيا .

لابد منذ المبدأ – من (رياضة وإرادة) على حد تعبير ابن سينا . إرادة صارمة فى محاولة القرب من الله تعالى : مصدر الكمال ومصدر التجليات ، ولابد من اتجاه الكيان الإنسانى – فى صورة قوية إلى الحق سبحانه وتعالى.

والحديث عن الأخلاق الصوفية الإسلامية – إذن – إنما هو حديث عن : ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، وهو إذن حديث لقليل من الآخرين إنه حديث للمجتبين من عباد الله :

---

(١) آل عمران آية : ١٤

(٢) إحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال (للإمام أبى حامد الغزالى) .

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) .

متى بدأ هذا الاتجاه فى الإسلام ؟

إنه بدأ مع شروق حياة رسول الله ﷺ .

إن الأنبياء يصطنعهم الله تعالى لنفسه (٢) ، ويصنعهم على عينه (٣) ، وهم جميعاً بأعينه (٤) .

ونحن حينما نقرأ سيرة رسول الله ﷺ نجد حديثاً من أحاديثه ﷺ يلخص سيرته قبل مولده .

يقول رسول الله ﷺ :

(إن الله تعالى خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقهم وخير الفرقتين ، ثم تخير القبائل ، فجعلنى فى خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً) (٥) .

أما بعد مولده ﷺ فإننا نقرأ فى السيرة الشريفة هذه الحادثة الرمزية حادثة شق الصدر ، وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفولة المبكرة : لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته وبينما هو يلعب مع الغلمان – على ما يروى الإمام مسلم – أتاه جبريل عليه السلام ، فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعنى مرضعته – أن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنين تقريباً ، فلما كان ابن عشر

---

(١) سورة الشورى آية : ١٣

(٢) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى (واصطنعتك لنفسى) .

(٣) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى (ولتصنع على عينى) .

(٤) يقول الله تعالى عن سيدنا محمد ﷺ (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) .

(٥) رواه الترمذى عن العباس بسند صحيح .

سنين ، تكرر حادث شق الصدر ، فقد روى الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم وابن عساكر ، عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة ﷺ كان جريئا أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأل عنها غيره فقال :

يا رسول الله ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال :

لقد سألت أبا هريرة ، إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟

قال : نعم

فاستقبلانى بوجوه لم تر لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلىّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا .

فقال أحدهما لصاحبه : اضجعه ، فأضجعانى بلا قسر ولا هصر .

وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره .

فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : أعدوا وأسلم . فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة على الكبير .

وإن المغزى الواضح لهذه الحادثة إنما تزكية للنفس فى بواكير الحياة الإنسانية، وفى بواكير الحياة الروحية ، وذلك أنه إذا استخرج حظ الشيطان من القلب أصبح القلب طاهراً ، ليس للشيطان عليه من سبيل .

مراحل الطريق إلى الله :

وأول مراحل الطريق إلى الله التوبة الصادقة ، التى تنتزع – فى قوة – حظ الشيطان من القلب .

وتمضى السنون برسول الله ﷺ ، وليس للشيطان عليه من سبيل .

إنه فى طهر الملائكة ﷺ إلى أن كانت الليلة المباركة :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١).

وهى ليلة القدر .

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ، سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (٢).

وكان ذلك فى رمضان – يقول سبحانه :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (٣) .

وكانت الكلمات الأولى من الوحى

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (٤) .

وكانت إقرأ رمزا لكل الأعمال التى يأتيها الإنسان ، وذلك أنه يجب على الإنسان أن تكون أعماله (باسم ربك) ما يأتى منها وما يدع .

ومما يبين الاتجاه هذا الذى بدأ منذ مشرق الرسالة ، قول الله فيما بعد:

﴿ وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ (٥) .

فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق محرم على المؤمن .

ويقول الله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا

---

(١) الدخان آية : ٣ – ٦

(٢) سورة القدر بتمامها .

(٣) البقرة آية : ١٨٥

(٤) سورة العلق آية : ١

(٥) الأنعام آية : ١٢١

ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (١).

فما أهل به لغير الله فسق ،وما ذبح على النصب فسق ،وكل ما كان لغير الله فهو فسق محرم ،كما جاءت به الآيات الكريمة ،وكانت على الطريق المشروع.

أما الطيبات : فهى ما اتجه الإنسان بها إلى الله سبحانه ، إنها ما كانت باسم الرب ، ما كانت باسم التربية الإلهية ، ما كانت باسم المربى ، ويشرح الله تعالى ذلك فى الآيات الكثيرة التى نذكر منها بحسب الترتيب القرآنى مبينا فيها الاتجاه إلى الله وإسلام الوجه له سبحانه :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ (٣) .

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤).

﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّه عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ (٥) .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (٦) .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ ﴾ (٧).

---

(١) سورة المائدة آية : ٣

(٢) البقرة : ١١٢

(٣) النساء : ١٢٥

(٤) الأنعام : ٧٩ .

(٥) لقمان : ٢٢ .

(٦) الروم : ٣٠ .

(٧) الروم : ٤٣ .

ويجمل الله تعالى كل ذلك فيقول :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١).

أن تكون الحياة : نوما ويقظة ، قولا وصمتا ، حركة وسكونا ، خالصة لله تعالى ، بل والممات أيضاً يكون خالصا لله فى سبيله .

وينبثق عن كل ذلك فى صورة حتمية :

فضيلة الإخلاص : ولقد تحدث الإسلام – قرآنا وسنة – عن الإخلاص لله وحده فى صورة مستفيضة ومن ذلك الآيات القرآنية الكريمة الآتية :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (٢) .

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (٣).

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (٤) .

وفى السنة المطهرة :

ما روى عن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

(من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض) (٥).

وعن معاذ بن جبل أنه قال – حين بعث إلى اليمن – يا رسول الله أوصنى ؟

قال ﷺ : (أخلص دينك يكفك العمل القليل) (٦).

---

(١) الأنعام (١٩٢ – ١٩٣) .

(٢) الزمر : ٢ – ٣ .

(٣) غافر : ٦٤ .

(٤) البينة : ٥ .

(٥) رواه ابن ماجه والحاكم .

(٦) قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

ولقد سئل رسول الله ﷺ – فيما رواه البيهقى – عن الإيمان ، فقال : (الإخلاص) [(١)].

ويروى الإمام مسلم ﷺ عن أبى هريرة رضوان الله عليه أن رسول الله ﷺ قال :

(إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم)[(٢)].

وروى البزار – بإسناد لا بأس به – أن رسول الله ﷺ قال : فيما يرويه عن ربه ، أن الله تبارك وتعالى يقول :

(أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكاً فهو لشريكى ، وأيها الناس أخلصوا أعمالكم فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ولا تقولوا : هذا لله وللرحم فإنها للرحم وليس لله منها شئ ولا تقولوا : هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شئ) [(٣)].

وكل ما ذكر تجمعه كلمة واحدة هى الإسلام .

وسواء نظرنا لكلمة إسلام من الوجهة اللغوية ، أو نظرنا إليها من الوجهة الدينية ، فإنها تشتمل على كل المعانى التى ذكرناها . أما من الوجهة اللغوية ، فيقول ابن الأنبارى (المتوفى سنة ٣٢٨ هـ) :

المسلم : معناه المخلص لله عبادته من قولهم : سلم الشئ لفلان خلص له ، فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى .

أما من الوجهة الدينية ، فقد سئل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال :

(أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) .

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال :

(الإيمان : الإخلاص) .

ولا يخرج كل ذلك عن كلمة الإخلاص : لا إله إلا الله .

---

(١) رواه البيهقى .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه وابن ماجه فى سننه .

(٣) أخرجه البزار والبيهقى .

وكلمة الإخلاص توضحها سورة الإخلاص :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ، (الذى يستعان به ويلجأ إليه ، ويقصد فى اليسير من الأمور والعظيم منها) ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .

ويتناسق مع كلمة الإخلاص ، وسورة الإخلاص ، موضحاً ومفسراً قوله تعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (١) .

ويتناسق مع كل ذلك موضحاً أيضاً ومفسراً :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

كل ما فى الكون من : حركة وسكون ، وقول وعمل ، وفكر وحال :

الكيف من كل ذلك والكم والزمن والمكان .

(وهو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن) .

وتأتى أحاديث مستفيضة فى بيان كلمة الإسلام منها :

ما روى عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن رب العزة سبحانه :

يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا.

يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ؛

يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ؛

يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ؛

يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم :

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ؛

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم : كانوا على أتقى قلب رجل واحد

---

(١) فاتحة الكتاب .

(٢) آل عمران أية ٢٦ .

منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً !

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

كنت خلف النبى ﷺ ، يوما فقال : يا غلام إنى أعلمك كلمات :

(احفظ الله يحفظك – احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله – وإذا استعنت فاستعن بالله ، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرونك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) [1] .

وفى رواية :

احفظ الله تجده أمامك ، وتعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر ؛ وأن الفرج مع الكرب ؛ وأن مع العسر يسرا .

وكل هذا من معانى : (لا إله إلا الله) .

ولا إله إلا الله : هى التوحيد والإسلام طابعه وشعاره هو التوحيد .

التوحيد :

توحيد الله فى ذاته ، وتوحيده فى قوله :

أما ذاته فهى أحديته ، وأما أفعاله فهو سبحانه فى حكمته السامية :

﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [2] .

وليس لأحد من الأمر معه شئ ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائـــه وهـــو

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) القصص آية : ٦٨

أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وإليه يرجع الأمر كله وإليه المصير .

والإسلام إذن هو : (إسلام الوجه لله) ، إنه (إسلام الذات لله) وهو (إياك نعبد وإياك نستعين) وهو : (لا إله إلا الله) وهو : (التوحيد) .

وإذا كان الإمام الشبلى يعرف التصوف بقوله : (بدؤه معرفة الله ، ونهايته توحيده) .

فإن هذا هو المراد فى الخلق الإسلامى ، إن بدؤه معرفته تعالى على أساس من العلم – وفى جو من المعرفة الصادقة .

معرفته : أحدا عالما مريدا قادراً

معرفته : جليلاً – جميلاً – معرفته : هيبة وأنسا تذوب من هيبته الجبال ، ويأنس به عباده الذين أنعم عليهم .

ونهايته توحيده : (لا إله إلا الله) .

وتوحيد الله سبحانه وتعالى يتفاوت فيه الناس إلى ملايين ملايين الدرجات .

إن منهم من يقول : (لا إله إلا الله) .

ومنهم من يقتنع بأن (لا إله إلا الله) .

ومنهم من يؤمن بأن (لا إله إلا الله) .

ومنهم من يعتقـد أن (لا إله إلا الله) .

ولكن الذروة ، ذروة الإيمان والإسلام ، ذروة العقيدة وذروة السلوك أيضاً هى : (أشهد أن لا إله إلا الله) .

وهؤلاء الذين يشهدون أن : (لا إله إلا الله) إنما يشهدونها مع ملائكته سبحانه : (شهد الله أنه : لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

إنهم يشهدون التوحيد ؛ وشهادة التوحيد هى قمة الإيمان ، وهى قمة التدين وهم بطبيعة الأمر قلة : (ثلة من الأولين ؛ وقليل من الآخرين) .

وإذا كان الإمام الكتانى يعرف التصوف فيقول أنه : (صفاء ومشاهدة)

فإن تعريفه يتناسق مع : (أشهد ألا إله إلا الله) .

وهذه القمة هى الهدف الأخير ؛ وهى الغاية التى تعز على من رامها إلا بالجهد المتواصل ومع توفيق الله سبحانه لا يصل إليها إلا من اجتباهم الله سبحانه وتعالى :

إنه لا يصل إليها إلا المقربون ، ومع صعوبتها الشامخة ؛ فإن باب الله مفتوح أمام الذين يسيرون على صراطه ليدخلوا فى إطار من أنعم عليهم .

أشهد أن لا إله إلا الله : كيف نرتقى إلى هذه القمة .

إن الله سبحانه وتعالى يأمر فيقول :

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ) (١)

ويذكر سبحانه قول سيدنا إبراهيم :

(إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي) (٢) .

(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي) (٣) .

كيف نهاجر إلى الله ؟

يقول رسول الله ﷺ :

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) (٤) .

ولقد سئل رسول الله ﷺ فى حديث طويل رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح : أى الإيمان أفضل ؟

قال : الهجرة .

فقيل له : وما الهجرة ؟

قال : أن تجهر السوء .

فقيل له : أى الهجرة أفضل ؟

---

(١) الذاريات آية : ٥٠

(٢) الصافات آية : ٩٩

(٣) العنكبوت : ٢٦

(٤) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمر وقال حديث صحيح .

فقال : الجهاد .

وعن أم أنس رضى الله عنها أنها قالت : يا رسول الله أوصنى :

قال : (أهجرى المعاصى فإنها أفضل الهجرة ، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد ، وأكثرى من ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشئ أحب إليه من كثرة ذكره) [١] .

وفى رواية لهما عن أم أنس :

(واذكرى الله كثيراً فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها) [٢] .

وتبدأ هذه الهجرة بالنية :

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب ﷺ :

(إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) [٣].

أن يهجر الإنسان السوء فى النية ، وأن يصبح القلب سليما :

عن أبى هريرة ﷺ عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر الله قلوبكم) [٤] ، وأن يهجر السوء فى الأعمال فتصبح أعماله دائما مجردة عن الإثم وأن يجاهد فذلك أفضل الهجرة .

والجهاد فى سبيل الله هو جهاد أوسع وأشمل مما تحتمله الكلمة :

إنه جهاد النفس لتتزكى ، وجهاد الأسرة لتستقيم ، وجهاد فى المجتمع ليهتدى إلى التى هى أقوم ، وجهاد الأعداء فى كافة المجالات .

(والمؤمنون أشداء على الكفار رحماء بينهم) .

ولقد فسر رسول الله ﷺ الجهاد بكل هذه الألوان منه وذلك أول الطريق .

---

(١) رواه الطبرانى باسناد جيد .

(٢) قال الطبرانى : أم أنس هذه يعنى الثانية ليست أم أنس بن مالك .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

والذهاب إلى الله هجرة دائمة إليه ، إنه هجرة :

من ظلمات الكفــر إلى نور الإيمان

ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة

ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق

ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة

ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف

ومن ظلمات الهوى إلى نور اليقين

ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول والقوة

ومن ظلمات الكون إلى شهود نور المكون

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض ، إلى غير ذلك مما لا يحصره العدد [١].

والنهج الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى الأمة بالذات هو :

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّه ﴾ .

وتعليل الفرار : ﴿ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

يقول الإمام الصاوى فى ذلك :

قوله تعالى : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّه ﴾ مفرع على ما علم من توحيد الله ،والمعنى: حيث علمتم أن الله واحد لا شريك له ، وأنـــه الضـــار النافـــع المعطـــى المانـــع فالجأوا إليه ، واهرعوا إلى طاعته .

والفرار مراتب :

ففرار العامة من الكفر والمعاصى إلى الإيمان والطاعة ، وفرار الخاصة من

---

(١) أنظر لطائف المنن للإمام ابن عطاء الله السكندرى .

كل شاغل عن الله : كالمال والولد ، إلى شهود الله والإنهماك فى طاعته ، فلا يصرف جزء من أجزائه لغير الله ، فكما أن الله فى خلق العبد واحد ، فليكن العبد فى إقباله على ربه واحدا ، يحيث لا يجعل فى قلبه غير حب ربه (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) .

كيف يفر الإنسان إلى الله ؟

ما هو المنهج ؟

إن هذا المنهج رسمه الله سبحانه وتعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم ، موجزاً أحياناً فيكون :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

أو : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) .

أو : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ (٣) .

ونحب أن نتحدث فى شئ من التفصيل الموجز عن منهج أجمله القرآن فى آيات محددة من الكتاب الكريم :

يقول الله تعالى فى سورة الزمر : تلك السورة التى أخرج النسائى عن عائشة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها كل ليلة ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤).

---

(١) النحل آية : ٩٧ .

(٢) الأعراف آية : ٩٦ .

(٣) فصلت آية ٣ – ٣٢ .

(٤) الزمر آية : ٥٣

عن أبى عبد الرحمن المزنى يقول سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية) :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ إلى آخر الآية ، فقال رجل : يا رسول الله فمن أشرك ؟ فسكت النبى ﷺ ثم قال : (ألا ومن أشرك) ثلاث مرات [١] .

وجاء فى مسند الإمام أحمد : أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ شيخ كبير يدعم على عصا له فقال : يا رسول الله : إن لى غدوات وفجرات ! فهل يغفر لى؟

فقال ﷺ : ألست تشهد أن : لا إله إلا الله ؟

فقال : بلى أشهد أنك رسول الله ؛

قال ﷺ : قد غفر لك غدراتك وفجراتك .

إن الله سبحانه وتعالى يفتح الطريق واسعاً أمام الطالبين مغفرته ، الراجين رحمته ؛ لأن لا يقنط أحد من رحمة ربه ، فإنه :

﴿ لا يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلا الضَّالُّونَ ﴾ .

ولا ييأس من روحه تعالى ، فإنه :

﴿ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

فإذا كان الحج المبرور يطهر الإنسان من ذنوبه حتى يخرج منها ، كيوم ولدته أمه كما قصت السنة المطهرة على هذا ، وروت الكتب الصحاح، فإن الجو الإسلامى كله مفعم بفتح أبواب الرحمة أمام عباد الله المخلصين :

(من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) [٢] .

(من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه) [٣] .

والإسلام يجب ما قبله .

---

(١) تفرد به الإمام أحمد فى مسنده .

(٢) اخرجه الإمام أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم فى صحيحيهما .

وتبين لنا سورة الزمر فى آياتها الكريمة مقدار رحمة الله الواسعة وترسم لنا الطريق لذلك ؛

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ (١) .

فالطريق إلى مغفرة الله ورحمته هو التوبة الخالصة النصوح ، وهى الإنابة إلى الله سبحانه وتعالى أى : التوبة فى أسمى درجاتها .

وإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى ، وبعد أن يندم الإنسان على ذنوبه ويخرج منها ويتبرأ ترسم له الآية التى تتلو ذلك طريقه :

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢) .

وأحسن ما أنزل إلينا من ربنا هو القرآن الحكيم – إنه :

(يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين) .

مهيمن على غيره ، مبين للحق فيما يختلف فيه أهل الكتب السماوية .

ثم يتلو ذلك آيات ثلاث تبين موقف الإنسان الذى لم يتب أو الذى تاب ولم يتبع :

(أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين)

أو تقول : لو أن الله هدانى لكنت من المتقين .

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣).

وكل ذلك لا جدوى منه والـرد عليـه واضـح حاسـم مـن الله سبحانـه وتعالى: ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤)

---

(١) الزمر آية : ٥٤ .

(٢) الزمر آية : ٥٥ .

(٣) الزمر آية : ٥٦ : ٥٨

(٤) الزمر آية : ٥٩ .

ويبين الله حالة هؤلاء يوم القيامة فيقول :

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (١) ؟

لا شك أن فيها مثوى للمتكبرين مثوى يختلف ويتفاوت باختلاف درجاتهم فى الكبرياء والمعاصى وتفاوتهم فيها .

ويختم الله سبحانه هذه الآيات التى ترسم المنهج وتبين المصير بالنسبة للذين تابوا ، وأنابوا ، واتبعوا الذكر الذى نزل عليهم من ربهم ، بقوله تعالى :

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢)

فى هذا المنهج الواضح نتبين رحمة الله الواسعة الشاملة العامة ، التى لا تضيق بمن لجأ إليها ، فلا يأس ولا قنوط من غفران الله سبحانه وتعالى ويكفينا قول رسوله ﷺ (أنا نبى التوبة) (٣).

فإذا كانت التوبة الصادقة هى أول الطريق ، فإن لها من المكانة فى الجـــو الإسلامى ما يتناسب مع تأثيرها فى حسن الخلق .

وبعد : فإن الآيات القرآنية التى أجملت المنهج تحدثت بعد التوبة عن :

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ .

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ .

ولقد رسم رسول الله ﷺ منهج العمل وبين ثمرته ، روى الإمام البخارى بسنده عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه :

(من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته

---

(١) الزمر آية : ٦٠ .

(٢) الزمر آية : ٦١ .

(٣) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد ومسلم عن أبى موسى ، وأخرجه الطبرانى ونصه : (أنا محمد وأحمد ، والمقفى والحاشر ، ونبى التوبة ونبى الرحمة) .

كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعيذنه) .

والتوبة الصادقة تثمر العمل ، ولكن هذا العمل يتفاوت فى درجاته ، ولقد أبان الله سبحانه وتعالى درجات من العاملين :

فمنهم ظالم نفسه .

ومنهم مقتصد .

ومنهم سابق بالخيرات .

وهؤلاء السابقون بالخيرات بين الله سبحانه وتعالى ما لهم عنده فقال :

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير) .

(وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) .

(الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب)

ولقد بين الله سبحانه وتعالى فى سورة الواقعة طبقات الناس بالنسبة للهداية والاتباع ، فقال سبحانه :

وكنتم أزواجاً ثلاثة – أى أصنافاً ثلاثة :

(أ) فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة .

(ب) وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة .

(جـ) والسابقون السابقون ، أولئك المقربون) أ . هـ

وهؤلاء المقربون ليسوا بالكثيرين ، إنهم على حد التعبير القرآنى :

﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾.

ويتحدث الله سبحانه وتعالى عن النعيم الذى أعد للمقربين فيقول بعد ذكرهم فى السورة نفسها فى الآية الخامسة عشرة وما بعدها :

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾ .

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ .

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ .

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ .
﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنْزِفُونَ ﴾ .
﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾ .
﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾.
﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ .
﴿ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ .
﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .
﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً ﴾ .
﴿ إِلاَ قِيلاً سَلاماً سَلاماً ﴾ .

أما أصحاب اليمين فإنهم :

﴿ ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ ﴾ .

وهنا لم يقل القرآن الكريم وقليل من الآخرين كما ذكر فى المقربين ، وذلك لأن المقربين صفوة الصفوة وهم بحكم ذلك أقل عددا .

ويصف الله سبحانه وتعالى - فى السورة نفسها - النعيم الذى أعده لأصحاب اليمين فيقول - فى الآية الثامنة والعشرين وما بعدها .

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ .
﴿ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴾ .
﴿ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴾.
﴿ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ .
﴿ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴾.
﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾ .
﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾.
﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴾.
﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ .
﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ﴾ .

﴿ عُرُباً أَتْرَاباً ﴾ .

﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ .

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب الشمال وما أعد لهم من عذاب فيقول:- فى الآية الثانية والأربعين وما بعدها .. بعد قوله :

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ .

﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾.

﴿ وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ﴾ .

﴿ لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ .

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾ .

﴿ وكانوا يقولون : أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ .

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾ .

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ .

﴿ لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ﴾ .

﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ .

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴾

﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ .

﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ .

وفى السورة الجميلة سورة الإنسان ، والتى تسمى أيضاً : سورة الأبرار ، يتحدث سبحانه وتعالى عن الأبرار فيقول فى الأسلوب القرآنى الجميل - المعجز فى الآية الخامسة وما بعدها :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ .

﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ .

﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴾ .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ .
﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴾ .
﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ .
﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴾ .
﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴾ .
﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً ﴾ .
﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ .
﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ .
﴿ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ﴾ .
﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً ﴾ .
﴿ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ .
﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً ﴾ .
﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ .
﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴾ .
﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً ﴾ . أ هـ .

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن الأبرار فى سورة المطففين فيقول :
فى صورة من الأسلوب العالى فى الآية الثامنة عشرة وما بعدها :

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾.
﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴾
﴿ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴾
﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾
﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾
﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴾
﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾

﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾
﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾
﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾
﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾

ومهما كانت منزلة الأبرار من الرفعة والتفاضل فإن المقربين يتفضل الله عليهم بأكثر .

يقول الإمام الألوسى عند قوله تعالى :

﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

(قال ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وأبو صالح : (يشرب بها المقربون صرفا وتمزج للأبرار) .

ومذهب الجمهور : أن الأبرار هم أصحاب اليمين ، وأن المقربين هم السابقون كأنهم إنما كان شرابهم صرف التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحى القيوم ، فهى الرحيق التى لا يقاس بها رحيق ، والمدامة التى تواصى على شربها ذوو الأذواق والتحقيق :

((على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم))

ـ ونعود إلى التوبة من جديد :

إذا صدقت نقلت الإنسان مباشرة إلى (أهل اليمين) ومن أهل اليمين من يلتزم أداء الواجبات وترك المنهيات ، ويكتفى بذلك ، وهذا يصدق عليه قول رسول الله ﷺ : (أفلح إن صدق) .

روى الإمام البخارى بسنده عن طلحة بن عبيد الله يقول : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ؟

فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات فى اليوم والليلة .

فقال : هل على غيرها ؟ ، قال : لا إلا أن تطوع .

قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص

قال رسول الله ﷺ : (أفلح إن صدق) .

وهذا المؤمن وأمثاله والقريب منه ، يستمرون طيلة حياتهم بتوفيق الله من: (أهل اليمين) .

ولكن التوبة الصادقة تقود الإنسان أحيانا إلى أداء الواجبات والانتهاء عن المنهيات ثم العمل فى قوة فى سبيل الله ، فتكون التوبة ثمرة إرادة لا تلين فى الاتجاه إلى الله وتكون ثمرة الإرادة الصادقة .

والتوبة النصوح : رياضة يتجه بها الإنسان إلى الله تعالى .

ويتوافر فى هؤلاء ، ما عبر عنه ابن سينا عن العارفين ، من أن طريقهم يتلخص فى : (رياضة وإرادة) .

والرياضة هنا : عبادة خالصة لوجه الله تعالى ، مصحوبة عادة بصوم إنهم اللذين ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (١) .

وهم : ﴿ الَّذِينَ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .

ويعقب الله سبحانه وتعالى على وصفهم الطيب هذا بقوله :

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢).

وهم الذين : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٣) .

ولقد وصف الله سبحانه طريق المتجهين إليه عدة مرات فى القرآن الكريم :

وصف طريقهم ووصف ما ينتظرهم فى الدنيا والآخرة من ذلك ما يقوله سبحانه :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ

---

(١) الكهف آية : ٢٨

(٢) السجدة آية : ١٦ ؛ ١٧

(٣) النور : ٣٧ : ٣٨

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ_ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١).

والوصفان : الأول والثانى : يقف عندهما أصحاب اليمين ، أما المقربون فإنهم أيضاً حامدون – وقد أمر الله تعالى بالحمد – فقال سبحانه :

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ (٢) .

والحمـد لله آخـر دعـاء أهـل الجنة ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣)

ولأهل الحمد بيوت فى الجنة ، روى (الإمام الترمذى وحسنه) بسنده عن أبى موسى الأشعرى ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته :

قبضتم ولد عبدى ؟

فيقولون : نعم .

فيقول : فماذا قال عبدى ؟

فيقولون : حمدك واسترجع .

فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتاً فى الجنة وسموه بيت الحمد) (٤) .

وروى الإمام مسلم بسنده عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

(إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها) .

وكما يختم الإنسان عمله بالحمد ، فإنه يبدأه أيضاً بالحمد ، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد فهو أقطع) .

والحامدون هم أول من يدعى إلى الجنة : أخرج بن مردويه ، وأبو الشيخ ،

---

(١) التوبة : ١١٢

(٢) النمل : ٥٩

(٣) يونس آية : ١٠

(٤) رواه الترمذى .

والبيهقى فى الشعب ،عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : قال رسول الله ﷺ : (أول من يدعى إلى جنة الحمادون الذين يحمدون على السراء والضراء) .

وجاء عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبى إذا أتاه الأمر يسره ، قال : (الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : (الحمد لله على كل حال) .

ـ والمقربون أيضاً سائحون :

والواقع أن الاختلاف فى معنى السياحة هما لا مبرر له ، وذلك أنها تتضمن كل ما قيل فيها ، ويتصف المقربون بكل ما قيل فيها : إن السائحين هم الصابرون ، وقد جاء عن عائشة رضى الله عنها : (سياحة هذه الأمة الصيام) ، لأنه رياضة روحية ينكشف بها كثير من أحوال الملك والملكوت ، فشبه الإطلاع عليها بالإطلاع على البلدان ، والأماكن النائية ، إذ لا يزال المرتاض يتوصل من مقام إلى مقام ويدخل من مدائن المعارف إلى مدينة بعد أخرى على مطايا الفكر [1] .

والسائحون المهاجرون :

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد : أن السائحين هم المهاجرون وليس فى أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة .

وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عكرمة : أنهم طلبة العلم ، لأنهم يسيحون فى الأرض لطلبه .

والسائحون هم المجاهدون :

أخرج الحاكم وصححه ، والطبرانى ، غيرهما ، عن أبى أمامة ، أن رجلاً استأذن رسول الله ﷺ فى السياحة فقال :

(إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله)

والمقربون راكعون ساجدون : إنهم راكعون ساجدون فى صلواتهم وهاتــان

---

(١) تفسير الألوسى جـ١ ص ٣١ .

الصفتان رمزان للخضوع والخشوع لله تعالى ، وكما أن من معانى السجود وضع الجهة على الأرض فى الصلاة فإن من معانيه الخشية ، والخضوع ، والسجود بهذه المعانى كلها من سمات المقربين الأصيلة ، يقول سبحانه : (واسجد واقترب) أى اقترب من الله سبحانه وتعالى بسجودك ، سجود الجبهة ، وسجود القلب الذى تسجد بسجوده الجوارح ، وإن للقلب سجودا يعرفه الصوفية ، وإذا سجد القلب سجدت الجوارح ، ولا يتأتى مع سجود القلب والجوارح أن يقترف الإنسان المعصية ، وإذا سجد القلب فمعنى ذلك حسن الخاتمة بتوفيق الله تعالى ، وذلك أنه إذا سجد فإنه لا يرفع من سجوده إلا بلقاء الله تعالى ، وما دام ساجدا فإنه هو والجوارح فى جو دائم من رضاء الله تعالى ، لأنه هو والجوارح فى جو دائم من خشية الله تعالى، ويقول رسول الله ﷺ :

(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) (١)

وكثرة السجود طريق إلى الجنة :

روى الإمام مسلم هذا الحديث اللطيف الرائع :

عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى – خادم رسول الله ﷺ وهو من أهل الصفة ﷺ قال :

كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته فقال : سلنى ؟

فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة .

فقال : أو غير ذلك ؟

قلت : هو ذاك .

قال ﷺ : (أعنى على نفسك بكثرة السجود) .

وذلك يعن : أعنى على نزعاتك وأهوائك بسلوكك طريق الخشية وآصل مظهر له : السجود ، فإذا ما وصل الإنسان إلى السجود فقد وصل إلى منتهى التواضع لله سبحانه وتعالى ، إنه وصل إلى العبودية فى أظهر مظاهرها ، ووصل

---

(١) وتمام الحديث : فأكثروا فيه من الدعاء ، وهو حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه والنسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه .

فى الوقت نفسه إلى أقرب ما يكون العبد من ربه وعندئذ يترتب على ذلك مسئوليته فتكون :

(الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) .

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى - ﷺ : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) .

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لايفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من عوامل خيرية الأمة الإسلامية : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١).

ولقد لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان عدة رسل منهم : داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام ، لأنهم ما كانوا ينهون عن المنكر فقال سبحانه:

﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ، كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢).

وثمرة السجود الحقيقى إذن : ﴿ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه .

(٢) المائدة آية : ٧٨ ، ٧٩

وإنه لمن الملاحظ الواضح أن المدارس الصوفية الصادقة التى تسمى الطرق مهمتها الأولى : الدعوة إلى الله المتضمنة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهؤلاء المقربون من دورهم الأصيل ما عبر الله سبحانه وتعالى عنه بقوله :

﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّه ﴾ .

ورسول الله ﷺ يقول :

(لا تزال طائفة من أمتى قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها) [1] .

وفى روايـــة : لا تزال طائفـــة مـــن أمتـــى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة [2].

ولكن الأسلوب القرآنى المعجز بدأ كل هذه الصفات بأعظم صفة للمقربين، إنه سبحانه قبل أن يشرع فى تعداد صفاتهم التى بدأها بقوله : (التائبون) قال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْه حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالأنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِه مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [3] .

إن المؤمن فى عقد الإيمان باع نفسه وماله لله ، وهذا العقد بينه وبين الله :

فالمؤمن هو البائع !

والشارى هو الله ! والمبيع هو النفس والمال !

والثمن هو الجنة ، أى على هذا النوع من النعيم الذى بلغ من النفاسة إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !

أما مكان التسليم فإنه المعركة ، ورسول الله ﷺ يقول :

(الجنة تحت ظلال السيوف) .

وليس من شروط هذا العقد أن يستشهد المقاتل ، كلا !

فمن قاتل وانتصر وعاد سالما فله الجنة ، ...

---

(١) رواه ابن ماجه

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك

(٣) التوبة آية : ١١١

إن الجنة للمقاتل سواء استشهد أو انتصر وعاد إلى بيته ...

ولقد روى الحسن ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : فيما يتعلق ببيع النفس :-

(إن فوق كل برّ برّ حتى يبذل العبد دمه ، فإذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك ﴾

وقال الشاعر – عن بيع النفس :-

الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود !

وقال الحسن : مر أعرابى على النبى ﷺ وهو يقرأ هذه الآية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ... ﴾

فقال : كلام من هذا ؟

قال : كلام الله .

قال : بيع والله مربح ، لا نقيله ولا نستقيله – فخرج إلى الغزو واستشهد ، ولقد سجل الله هذا العقد فى التوارة والإنجيل فقال :

(وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به) .

ولأجل ذلك حينما سمع الصحابة هذه الآية الكريمة قالوا :

(ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل) .

أما التقدير الصادق لهذا العقد ، فإنه الذى قرره الله سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ وذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وإذا وقف أهل اليمين – بعد التوبة – عند العبادة المفروضة أو عندها وعند سنتها الراتبة فإن المقربين – وقد ذكرنا من صفاتهم مع العبادة المفروضة، أنهم:

﴿ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّه ﴾ .

وقد يتساءل إنسان :

أليس للمقربين صفات أخرى غير هذه ؟

والواقع أن للمقربين صفات جميلة أخرى كثيرة ، ولكن صفاتهم فى جوهرها الأصيل تنطوى فى صفة (الساجدون) حين تفهم من السجود ، سجود القلب

وسجود الجوارح بسجوده ، وكل هذه الصفات تتبلور فى تفسير رسول الله ﷺ للإسلام .

(أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) .

وتتبلور فى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وتتبلور فى التوحيد الذى يتناسق معه الشبلى فيعرف التصوف بأنه (بدؤه معرفة الله ونهايته توحيده) ، ولكنها تتبلور فى صورة هى قمتها وهى :

(أشهد أن لا إله إلا الله) .

هذه الشهادة التى معها الإمام الكتانى يعرف التصوف بأنه : (صفاء ومشاهدة) .

ومن اجتباهم الله تعالى تقودهم توبتهم العميقة إلى الذكر ، وإذا كان لأركان الإسلام نفلها وسنتها : صلاة التطوع وصيام التطوع ... الخ فإن نفل الركن الأول منها : الذكر ، ذكر الله تعالى بكل طرقه وذكره سبحانه عن طريق الصلاة على رسول الله ﷺ ، وذلك أنه سبحانه وتعالى أمر بها .

والركن الأول هو : (أشهد أن لا إله إلا الله سبحانه وتعالى ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ ، وكما أن الركن الأول أهم الأركان وأساسها ، فإن نفله أهم السنن ، ومن هنا كان اهتمام الإسلام بالذكر اهتماما لا حدود له .

يقول الإمام القشيرى وهو من زعماء الصوفية وكبار كتابهم : (والذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه) ، ثم يستدرك الإمام القشيرى ليكون أكثر دقة فيقول (بل هو العمدة فى هذا الطريق) .

ثم يحسم الأمر حسما فيقول : (ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر) .

أما عن حدود الذكر فإن الإمام القشيرى يقول : ومن خصائص الذكر :

أنه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله ؛ إما فرضا ، وإما ندبا ، والصلاة وإن كانت اشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الأوقات . والذكر بالقلب مستدام فى عموم الحالات . أ . هـ .

وللإمام الصاوى الرجل العالم الصالح صاحب الحاشية المباركة على تفسير

(الجلالين) توجيهات نفسيه فيما يتعلق بالذكر ، إنه يقول :

ولا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ، فربما ذكر مع غفلة يجر لذكر مع حضور ، لأنهم شبهوا الذكر بقدح الزناد ، فلا يترك الإنسان القدح لعدم إيقاده من أول مرة مثلا ، بل يكرر حتى يوقد فإذا ولع القلب نارت الأعضاء فلا يقدر الشيطان على وسوسته ، لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴾ [١] .

وخفت العبادة على الأعضاء ،فلا يكون على الشخص كلفة فيها، قال العارف:

إذا رفع الحجاب فلا ملالة بتوفيق الإله ولا مشقة

ويكفى الذاكر من الشرف ، قول الله تعالى فى حديث قدسى :

(أنا جليس من ذكرنى) [٢].

وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٣].

ويقول الإمام النووى : (الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان)

والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان جميعا ، فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل ، ثم لا ينبغى أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء، بل يذكر بهما جميعا ويقصد وجه الله تعالى وقد قدمنا عن الفضيل رحمه الله : (أن ترك العمل لأجل الناس رياء) .

ولو فتح الإنسان عليه باب الملاحظة للناس ، والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لا نسد عليه أكثر أبواب الخير ، وضيع على نفسه شيئاً عظيما من مهمات الدين ، وليس هذا طريقة العارفين . [٤] أ . هـ

---

(١) الأعراف آية : ٢٠١ .

(٢) رواه الديلمى عن عائشة مرفوعا ، وأخرجه أبو الشيخ عن محمد بن نضر الحارثى ، ورواه الحاكم وصححه عن أنس بلفظ الله تعالى : (عبدى أنا عند ظنك بى ، وأنا معك إذا ذكرتنى) وروى أحمد وابن ماجة بسند صحيح : (أنا مع عبدى ما ذكرنى) .

(٣) الأنفال آية : ٤٥ .

(٤) حاشية الصاوى على الجلالين جـ ١ ص ٩٣ .

وهؤلاء جميعاً يتسابقون القرآن ، ويتناسقون معه وذلك أن القرآن الكريم لم يعين للذكر وقتا معينا ، وذلك أن جميـع الأوقـات صالحـة للذكـر ، يقـول الله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾.

لقد جعل الله سبحانه جميع آناء الليل والنهار صالحة للذكر : يقول بن عباس فى قوله تعالى :﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ﴾[1]

يقول : أى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، والسفر والحضر ، والغنى والفقر ، والمرض والصحة ، والسر والعلانية .

والآيات فى القرآن كثيرة تبين أن ذكر الله مستحب فى جميع الأمكنة والأزمنة وفى هذا المعنى يقول فى أوصاف أولى الألباب :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ، رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ، رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [2] .

وأما عن ذكر اللسان وذكر القلب فإن صاحب الرسالة القشيرية يقول :

(فإذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه : فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه).

وإذا كان المسلمون يتابعون القرآن ويتناسقون معه فى موضوع الذكر ، فإنهم فى كل ذلك يقتدون برسول الله ﷺ ويتخذونه قدوة ، وهو إمام الذاكرين وإمام كل المقبلين على طريق الله تعالى ولم يصل ولن يصل إنسان إلى الله تعالى منذ أرسل صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يرث الله الأرض من عليها إلا عن طريقه ﷺ .

---

(١) النساء آية : ١٠٣ .

(٢) آل عمران آية : ١٩١ – ١٩٤

صفـــات عبـــاد الرحمـــن

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ [1] .

وبعد أن ذكر الله فى الآية السابقة جعله الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ، ناسب بعد ذلك أن يتكلم على أوصاف المؤمنين ومدى طاعتهم لله سبحانه وتعالى ، وشكرهم وذكرهم وحسن عبادتهم واجتنابهم للمحرمات .

وعباد الرحمن : مبتدأ خبره ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ ، أو خبره الموصول بعده ، وعباد جمع عبد ، كبحار جمع بحر ، من العبودية وهى الرضا بما يفعله الرب .

وقال الراغب : العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ويمكن اعتبار المعنيين فى تفسير العبادة ، لأن الرضا بما يفعله الرب هو غاية التذلل.

﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ﴾ وهو صفة لمصدر محذوف ، أى مشيا هونا ، أو حال من فاعل يمشون ، أى يمشوا هينين فى غاية التواضع والسكينة ، لا يخفقون بنعالهم ولا يضربون الأرض بأرجلهم غرورا وخيلاء .

والهون مصدر بمعنى اللين ، ووضعه موضع الصفة زيادة فى المبالغة .

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ﴾ لما بين الله حال المؤمن فى خاصة نفسه ذكر حاله مع أفراد المجتمع ، وأن الحلم هو مثال من أمثلة الأخلاق الإسلامية التى يجب أن تتبع ، والمراد أنه إذا هاجمهم أحد من الناس أو اعتدى عليهم لم يردوا السيئة بالسيئة ، ولم يعتدوا عليه اعتداء بهيميا ، ولكنهم دائما خلقهم الحلم والترفع مع الإيمان والثقة فى أن الله سينتقم من هؤلاء الجاهلين ، وهذا ما فيه من السعادة فى الآخرة والأولى ، وليس معنى ذلك أن الحلم يؤخذ به فى جميع الأمور وجميع الحوادث ، فإن الغضب لأمور الشريعة والدين والعرض

---

(١) الفرقان آية : ٦٣

والكرامة يجب على الإنسان ، فإن تعرض المؤمن للهوان والضياع ، فالغضب لهذا مما يوجب عليه .

وسلاما : مصدر وضع موضع التسليم ، ومؤكد لفعله المضمر ، والتقديم نسلم منكم تسليما ، والمعنى إذ واجههم السفهاء بالشئ من القول والفحش من اللسان ، قالوا لهم : سلاما ، أى تسليما منكم وهو سلام متاركة وبعد ، لا سلام تحية .

لقد تضمنت الآية الكريمة صفتين من أهم صفات المؤمنين وأجلها :

أولاهما : السكينة ، والثانية التواضع ، ونجد ذلك فى كثير من الأحاديث النبوية التى تحض على ذلك وتحث عليه فذكر منها :

عن ابن مسعود ﷺ قال :

كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول :

(اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) [(١)] .

وعن السيدة عائشـــة رضـــى الله عنهـــا وأرضاهـــا قالـــت : (مـــا ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما نيل منه شئ قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شئ من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى) [(٢)].

وعن عياض ﷺ الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد) [(٣)] .

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(ما أنقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا وما تواضع أحد

---

(١) أخرجه الشيخان فى صحيحيهما .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه .

لله إلا رفعه الله) [١].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال :

لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : أن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة :

قال : (إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس) [٢] .

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ ، عن النبى ﷺ قال : احتجت الجنة والنار فقالت النار : فى الجبارون والمتكبرون .

وقالت الجنة : فى ضعفاء الناس ومساكينهم ، فقضى الله بينهما أنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء ، وأنك النار عذابى أعذب بك من أشاء ، ولكلتيكما على ملؤها) [٣].

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) [٤] .

ثم يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾ [٥].

البيتوتة : أن يدركك الليل ، نمت أو لم تنم ، قال الزجاج : كل من أدركه الليل قيل بات وإن لم ينم ، كما يقال بات فلان قلقا .

وقياما جمع قائم كصيام جمع صائم ، أو مصدر أجرى مجراه .

وسجداً جمع ساجد كضرب فى ضارب وهو خبر ليبيتون .

قال العلامة الجمل فى حاشيته على الجلالين :

ويضعف أن تكون تامة ،أى يدخلون فى البيانات، وسجدا حال، ولربهم متعلق بسجدا :وقدم للفاصلة والتخصيص ،أى يبيتون ساجدين قائمين لربهم سبحانه .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

(٣) أخرجه الإمام مسلم .

(٤) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

(٥) الفرقان آية : ٦٤ .

وذكروا هذا الوصف دون لفظ الجلالة للإشارة إلى قيامهم بخدمة سيدهم وغامرهم بإحسانه ومربيهم .

وتخصيص البيتوتة : لأن العبادة فى الليل أحمز وأبعد عن الرياء .

وعندى أن تقديم سجدا على قياما لأن السجود أكمل درجات الخشوع ، ولأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد .

وهذا الوصف من الآية للمؤمنين هو وصف لحالهم مع ربهم ، بعد أن وصف فيما سبق حالهم فى تعاملهم مع الخلق ، فإن كل هم هؤلاء العباد هو إحراز رضا الله سبحانه وتعالى ، والتقرب منه ، سواء فى معاملتهم مع الناس ، أو مع الله سبحانه وتعالى ، بخلاف غيرهم الذين يقضون الليل فى اللهو والفراغ ، والبعد عن الله سبحانه وتعالى :

ورد عن الشيخان عن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له :

(لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)

وروى الشيخان عن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال :

(نعم الرجل عبد الله ، لو كان يصلى من الليل ، قال سالم : فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلا) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قال قال رسول الله ﷺ:

(يا عبد الله لا تكن مثل فلان ، كان يقوم الليل فترك قيام الليل) (١) .

وعن عبد الله بن سلام ﷺ أن النبى ﷺ قال :

(أيها الناس افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيـام ، تدخلوا الجنة بسلام) (٢) .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ ، كان ينام أول الليل ، ويقوم آخره فيصلى [١] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال:

(أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوما ويفطر يوما) [٢]

وعن أبى هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ :

(أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) [٣] .

وعن أنس ﷺ عنه قال : كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن ألا يصوم منه ، ويصوم حتى نظن ألا يفطر منه شيئا .

وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته ، ولا نائما إلا رأيته [٤] .

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ، إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ [٥].

بعد أن مدح الله سبحانه وتعالى عباده بقيام الليل وسجودهم له ، ذكر خوفهم وخشيتهم من عقابه وعذابه فهم لم يفتروا بعبادتهم إياه ، ولم يروا فيها سبباً لدخولهم الجنة ، بل يرون أن النجاة من عذاب الله يكون بفضل الله وبرحمته.

والغرام – كما فى الصحاح – الشر الدائم والعذاب ، وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ .

قال أبو عبيد : أى هلاكا ولزاما أ .هـ

وقال الزمخشرى : أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه .

(٥) الفرقان آية : ٦٥ ، ٦٦ .

والمعنى والذين يقولون فى أغلب وأعم أوقاتهم طالبين من الله ومتضرعين إليه سبحانه وتعالى ، وأن لا يكون جزاؤهم جهنم ، فقد قال الله سبحانه وتعالى معبراً عن هذا المعنى :

(والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون) [(١)] .

وهذا مدح لهم لأنه تحقيق لإيمانهم بالجزاء .

أحاديث فى وصف عذاب جهنم :

أخرج الترمذى والبخارى فى تاريخه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ :

(لجهنم سبعة أبواب منها باب لمن سل السيف على أمتى) .

وروى الطبرانى فى الأوسط : أن جبريل جاء إلى النبى ﷺ فقال :

(يا جبريل مالى أراك متغير اللون ؟)

فقال : ما جئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافح النار ، فقال ﷺ :

(يا جبريل : صف لى النار أو انعت جهنم) :

فقال جبريل : إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة لا يضئ شررها ولا يطفأ لهبها .

(والذى بعثك بالحق نبيا : لو أن قدر ثقب إبرة : فتح من جهنم لمات من فى الأرض كلهم جميعاً) .

(والذى بعثك بالحق : لو أن خازنا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من فى الأرض كلهم جميعاً : من قبح وجهه ونتن ريحه) .

(والذى بعثك بالحق : لو أن حلقة من حلق سلسل أهل النار الذى نعت الله فى كتابـــه : وضعت على جبال الدنيا : لا رفضت : وما تقارن : حتى تنتهى إلى الأرض السفلى ، فقال رسول الله ﷺ :

(حسبى يا جبريل : لا يتصدع قلبى فأموت) .

---

(١) المؤمنون آية : ٦٠.

قال : فنظر رسول الله ﷺ ، إلى جبريل وهو يبكى : فقال تبكى يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذى أنت به ؟

فقال : وما لى لا أبكى : وأنا أحق بالبكاء : لعلى أكون فى علم الله : على غير الحالة التى أنا عليها ، وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به إبليس ، فقد كان من الملائكة وما أدرى لعلى أبتلى بما ابتلى به هاروت وماروت .

قال : فبكى النبى ﷺ : وبكى جبريل : فما زالا يبكيان حتى نودى : أن يــا جبريل ويــا محمد : إن الله آمنكما أن تعصياه : فارتفع جبريل ، وخرج رسول الله ﷺ : فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون .

فقال : أتضحكون وتلعبون ووراءكم جهنم ، فلو تعلمون ما أعلم : لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولما أسقم الطعام والشراب ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون إلى الله عز وجل :

(فنودى : يا محمد : لا تقنط عبادى : إنما بعثتك مبشراً ولم أبعثك معسراً).

فقال ﷺ سددوا وقاربوا .

وأخرج أحمد والطبرانى وابن حبان : فى صحيحه : والحاكم وصححه :

(أن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت) .

تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعون خريفا .

وأن فى النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموها أربعين سنة .

وأخرج الترمذى وابن حبان فى صحيحه : والحاكم وصححه : عنه ﷺ : فى قول الله تبارك وتعالى (كالمهل) قال : كعتر الزيت .

فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه فيه .

وأخرج الترمذى : وقال حسن صحيح غريب :

إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلــت ما فى جوفه حتى يمرق من قدميه : وهو الصهر : ثم يعاد كما كان : والحميم الماء الحار : الذى يحرق .

وقال الضحاك : الحميم يغلى منذ خلق السموات والأرض إلى يوم القيامة يسقونه : ويصب على رؤوسهم .

وقيل ما يجتمع من دموع أعينهم فى حياض النار فيسقونه :

وقيل غير ذلك : وهو المذكور فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (١) .

وأخرج أحمد والترمذى ، وقال غريب ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم : عن رسول الله ﷺ فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ، يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ (٢).

قال يقرب إلى فيه : فيكرهه ، فإذا أدنى منه : شوى وجهه ، وقعت فروة رأسه : فإذا شربه قطع أمعاءه : حتى يخرج من دبره ، قال الله عز وجل :

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ .

وقال جل ذكره :

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ ﴾ (٣) .

أخرج الترمذى : وقال حسن صحيح : أنه ﷺ قرأ هذه الآية :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ هى(٤).

فقال ﷺ : لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا : لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه .

وفى رواية : فكيف بمن ليس له طعام غيره ؟)

وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما : فى قولــه تعــالى : (وطعامــا ذا غصة): شوك : يأخذ بالحلق : لا يدخل ولا يخرج .

أخرج الشيخان : ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام : للراكب المســرع:

---

(١) سورة محمد آية : ١٥ .

(٢) إبراهيم آية : ١٦ ، ١٧

(٣) سورة الكهف آية ٢٩ .

(٤) آل عمران آية ١٠٢ .

والمنكب : مجمع رأس الكتف والعضد .

وأخرج مسلم : ضرس : أو قال : ناب الكافر مثل أحد : وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (١) .

لقد مدح الله فى الآية الماضية عباد الرحمن بأنهم يخافون يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار ، وأنهم يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه وهم يعتبرون هذه الدنيا وسيلة إلى غيرها من نعيم الآخرة ، وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لا يهتمون بهذه الدنيا فلم يسرفوا فيها ، والمقصود بالإسراف هنا جميع أنواع الإسراف فى الملذات الحلال أى حبها حبا شديد الدرجة الإسراف فيها .

ولم يقتروا : الأقتار هنا يشمل حب الدنيا أيضاً ، فإن البخل حب للأموال ومحاولة الخلود فى الحياة الدنيا ، والإبقاء عليها إلى أبد الآبدين .

ولكنهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء ، لم يسرفوا فى محرم ، ولا فى شهوات ، ولم يقتروا على حلال ولا على صدقة وزكاة .

وتساعد على هذا المعنى الأحاديث التالية :

أخرج أحمد والطبرانى عن أبى الدرداء : عن النبى ﷺ قال : (من فقه الرجل أفقه فى معيشته) .

واخرج ابن ماجه فى سننه عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

(إن من السرف : أن تأكل كل ما اشتهيت)

ومما يساعد على المعنى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ (٢)

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (٣) .

---

(١) الفرقان آية : ٦٧ .

(٢) الإسراء آية : ٢٩ .

(٣) الفرقان آية : ٦٧ .

﴿ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

وإذا كانت هذه الآيات فيها دلالة قوية ومبينة عن أن الإسلام هو دين الوسطية ، فإن الأحاديث التالية ، تبين معنى الآية التى فى أيدينا بتوضيح لا يدع مجالا لشك ، وتبين النموذج الذى يجب أن يحتذى إسلاميا بالنسبة للفظ (قواما).

روى البخارى ﷺ قال ، قال رسول الله ﷺ :

(أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟

قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال :

فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخذ) .

وروى الشيخان عن عدى ابن حاتم ﷺ أن رسول ﷺ قال :

(اتقو النار ولو بشق تمرة) .

وروى الشيخان عن جابر ﷺ قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال:لا

وروى الشيخان عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما :

(اللهم أعط منفقا خلفا) .

ويقول الآخر : (اللهم أعط ممسكا تلفا) .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله تعالى : انفق يا بن آدم ينفق عليك (متفق عليه)

وروى الشيخان ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله ﷺ : أى الإسلام خير ؟

فقال : (تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) .

وروى الشيخان عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال :

(لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحـق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها) .

---

(١) الإسراء آية : ١١٠ .

عن أبى إمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

(يا ابن آدم أن تبذل الفضل خير لك وأن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى) [١] .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ، إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً، وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾ [٢] .

والذين لا يشركون بالله سبحانه وتعالى إلها آخر ، يجعلونهم شركاء له فى العبادة ، ولا يقتلون أحد إلا إذا كان يستحق القتل شرعا ، كما فى حالة الجهاد فى سبيل الله ولا يطؤون فرجا محرما عليهم ، والزنا فى عرف اللغة والشرع : إدخال المكلف الطائع حشفته فى قبل مشتهاة حالا أو ماضيا بلا ملك أو شبهة أو تمكينه من ذلك أو تمكينها فى دار الإسلام ، فعلم أنه لا زنا للصبى والمجنون – أى موجب للحد – ومن أكرهه السلطان ، ولا للمولج فى دبر أو فى فرج صغيرة غير مشتهاة أو ميتة أو بهيمة ، ولمن كان فى دار الحرب ، ولا لمن زنا مع شبهة ، وهو من أمهات الكبائر ، ولذا قرنه الله بالشرك وقتل النفس فى هذه الآية .

وقد جاء الله سبحانه وتعالى بنفى هذه الجملة من المعاصى عن المؤمن كمناسبة لما ذكره الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين من الاعتدال فى النفقة فكان الاعتدال بالبعد عن المعاصى هو الأولى ذكره بعد ذلك .

يقول العلامة زادة فى حاشيته على البيضاوى :

كأنه جواب عما يقال : ما الفائدة فى نفى هذه القبائح عن الموصوفين بالخصال المرضية السابقة ، مع أنهم يبعد منهم ارتكاب : هذه القبائح فلا وجه إذاً

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ، والطبرانى فى المعجم الكبير .

(٢) الفرقان آية : ٦٩ – ٧١

لنفيها عنهم ، لأنه إنما يحسن نفى صفة عن أحد إذا كانت الصفة المنفية مما يتوهم ثبوتها له ؟

وتقرير الجواب أن الاتصاف بالفضائل السابقة لا يستلزم الاجتناب عن هذه القبائح ، فإن الموصوف بتلك الصفات قد يتدين بالشرك ويقتل النفس بغير الحق ويتلبس بالزنا .

فبين الله أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب الكبائر أيضاً ، إلا أنه خص من الكبائر أمهاتها ، واشعر بذلك أن الأجر المذكور فى قوله ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ ﴾ موعود للجامعين بين ذلك .

(وفى هذا النفى تعريض بما كان عليه الكفار ، كأنه قيل وعباد الرحمن هم: الذين لا يدعون مع الله ، وأنتم تدعون ، ولا يقتلون نفساً بغير حق وأنتم تقتلون، ولا يزنون وأنتم تزنون ، ويحسن النفى تعريضاً وإن لم يكن النفى عنه مظنة لثبوت المنفى له) .

ويقول الإمام الألوسى :

والمراد من نفى هذه القبائح عنهم التعريض به لما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم وإلا فلا حاجة إليه بعد وصفهم بالصفات المتقدمة من حسن المعاملة ، وإحياء الليل بالصلاة ، ومزيد خوفهم من الله لظهور استدعائها واستلزامها نفى ما ذكر عنهم .

ومن هذا يعلم هل ما قيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التحلية على التخلية ، فكأنه قيل : الذين طهرهم الله وبرأهم مما أنتم عليه من الاشراك ، وقتل النفس المحرمة ، كالموؤدة والزنا .

وقيل : إن التصريح ينفى الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا ، أو لإظهار كمال الاعتناء والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما فى سلكه .

وقد صح فى رواية الشيخين والترمذى عن ابن مسعود قال : سألت رسـول الله ﷺ : أى ذنب أكبر ، فقال :

(أن تجعل لله تعالى ندا وهو خلقك) .

قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك .

قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك ، فأنزل الله تصديق ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ : الآية ﴾ .

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناساً من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا :

(إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت :

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ الآية ﴾ ونزلت :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا : الآية ﴾ .

وجاز أن يقال فى وجه تقديم التخلية على التحلية : كون الأوصاف المذكورة فى التخلية أوفق بالعبودية التى جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية ، ومزيد الانقياد ، والخوف والاقتصاد فى التصرف ، بما اذن المولى بالتصرف فيه ، ولا يأبى هذا قصد التعريض بما ذكر فى التخلية ويؤيد هذا القصد التعقيب بقوله عز وجل (ومن يفعل ذلك : الآية) أ . هـ

فإذا فعل أحد هذه الأمور التى تقدمت يلاقى عذابا عظيما فيضاعف له هذا العذاب ويخلد فيه مهانا ، بالذنوب التى اقترفها ، لأنه ضاعف الذنوب فضوعفت له العقوبة .

ومن تاب عن الشرك ، وآمن بالله وبرسوله ، وكتابه ، وعمل عملا صالحا ، بدل الأعمال السيئة التى اقترفها ، فأولئك يتجاوز الله عن سيئاتهم التى عملوها ويغفر لهم ، وكان الله غفوراً رحيما عن السيئات ، رحيما بتبديلها بالحسنات ، ومن تاب عن جميع المعاصى وعمل صالحا يكفر به عن سيئاته ، فإنه يرجع إلى الله عصمته وسبل هدايته ورشاده ، ينجيه من عقاب الله ومن عذابه .

التوبــــة

وإذا كان لنا أن نتعرض بشئ من التفصيل لموضوع التوبة باعتبارها التى يكفر بها الله سبحانه وتعالى ما ارتكبه عباده العاصون من الذنوب ، فإننا نذكر الآيات القرآنية التى تتعلق بهذا .

التوبة : كالتوب والمتاب ، مصدر تاب ، أى رجع إلى الله تعالى ، وتحول عن المعصية إلى الطاعة : قال تعالى :

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ (١) ﴾ وقال :

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٢) ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (٣) ، وهى واجبة على العبد لظاهر قوله تعالى :

﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤) ﴾ .

وهى ماحية للذنوب :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُم ﴾ (٥) .

الأحاديث المتعلقة بالآيات :

الشـرك : عن زيد بن أسلم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(من غير دينه ، فاضربوا عنقه) أخرجه مالك : قال :

(الأمر عندنا ، أن من خرج من الإسلام إلى الردة : أن يستتاب فإن تاب ، وإلا قتل .

---

(١) غافر آية : ٣

(٢) الرعد آية : ٣٠

(٣) النساء : ١٧

(٤) النور آية : ٣١

(٥) التحريم آية : ٨

قال : ومعنى قوله ﷺ : (من ترك دينه فاقتلوه) ، أى من خرج من الإسلام إلى غيره ، لا من خرج من دين غير الإسلام إلى غيره كمن خرج من يهودية إلى نصرانية ، أو مجوسية ومن فعل ذلك من أهل الذمة : لم يستتب ولم يقتل .

وعن أنس رضي الله عنه : أن ناساً من عكل وعرينه قدموا على النبى ﷺ : وتكلموا بالإسلام وقالوا يا رسول الله :

إنا كنا أهل ضرع ، ولم نكن أهل ريف : واستوخموا المدينة فأمر لهم بذود وراع ، وأمرهم أن يخرجوا فيه : فشربوا من ألبانها وأبوالها : فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة ، كفروا بعد إسلامهم . وقتلوا راعى النبى ﷺ ، واستاقوا الذود ، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم ، فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم وتركوا فى ناحية الحرة : حتى ماتوا على حالهم [1] .

القتـــل : عن سعيد بن العاص رضي الله عنه ، عن بن عمر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما)

وقال عمر رضى الله عنهما :

(إن من ورطاط الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حل [2]) .

وأخرج أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (الإيمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) [3] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها: لأنه أول من سن القتل) [4]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) أخرجه الخمسة .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه .

(٣) أخرجه البخارى فى التاريخ ، وأبو داود فى سننه ، والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة، وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن الزبير وعن معاوية .

(٤) أخرجه الخمسة .

لا يحل دم أمرئ مسلم ، شهد أن لا إلا الله وأنى رسول الله : عدى ثلاث: الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه ، والمفارق للجماعة [١] .

الزنـا : روى عن بعض الصحابة : أنه قال : إياكم والزنا فإن فيه ست خصال : ثلاثة فى الدنيا وثلاثة فى الآخرة : فأما التى فى الدنيا فنقصان الرزق ، وقطع الأجل ، وسواد الوجه .

وأما التى فى الآخرة فغضب الله وشدة الحساب ، ودخول النار .

وروى أن موسى عليه السلام قال : يا رب مالى من زنا ؟ قال الله تعالى ألبسه درعا من النار ، لو وضع على جبل شاهق لأصبح رماداً .

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبى ﷺ : أنه قال : من لاط لا يجد رائحة الجنة، وأن رائحتها التوبة من مسيرة خمسمائة عام .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال :لا ينظر الله تعالى إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة فى دبرها [٢].

وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به [٣] .

وجاء فى الحديث الشريف عن ابن عمر ﷺ :

قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ : فقال يا معشر المهاجرين ، خمس خصال : إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن .

لم تظهر الفاحشة فى قوم قط : حتى يعلنوا بها إلا فشى فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا [٤] ... الحديث .

وعن أبى هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال :

لعن الله سبعة من خلقه : من فوق سبع سمواته : وردد اللعنة على واحـد

---

(١) أخرجه الخمسة

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى فى سننيهما وابن ماجه وأحمد والحاكم والبيهقى .

(٤) أخرجه الحاكم والبيهقى .

منهم ثلاثا ، ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه قال :

ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من عمل عمل قوم لوط ، ملعون من ذبح لغير الله ، ملعون من أتى شيئاً من البهائم ، ملعون من عق والديه ، ملعون من جمع بين امرأة وابنتها ، ملعون من غير حدود الأرض ، ملعون من ادعى لغير مواليه .

التوبـــة : عن أبى هريرة ﷺ : قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(والله أنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة) (١) .

عن أبى حمزة أنس بن مالك الأنصارى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضل فى أرض فلاه) (٢) .

وفى رواية لمسلم : (الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاه ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى منها فأتى شجرة فاضجع فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك : إذا هو بها : قائمة عنده ، فأشد بخطامها ثم قال من شدة الفرح :

(اللهم أنت عبدى وأنا ربك : أخطأ من شدة الفرح) (٣) .

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾ (٤).

ذكر الله سبحانه وتعالى نوعين من الذنوب يجتنبها المؤمن ويبعد عنهما عباد الرحمن بعد أن ذكر حكم التوبة من السيئات .

هاتان الصيغتان هما : شهادة الزور ، وعدم الاهتمام باللغو والتجاوز عنه .

وقد ركز الله سبحانه وتعالى على شهادة الزور نظراً لدخولها فى كثير من الأحكام الشرعية التى تحتاج إلى الشهادة كالزنا والقتل والسرقة وغيرهم .

وأيضاً ركزت الآية على اللغو الذى يدخل فيه الكــذب ، والقــول الفــاحش،

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه .

(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

(٣) مسلم فى صحيحه .

(٤) الفرقان آية ٧٢ .

وانتهاك حرمات المسلمين .

والمعنى المراد :

والذين لا يشهدون شهادة الزور ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه لينصب على أنه صفة له .

ولا يحضرون مواضع الكذب أو الغناء مأخوذ من الشهود والأول من الشهادة :

لأنه مساعدة لأهل الباطل على ما هم فيه ووجودهم معهم دليل على استحسانه والرضا به ، وعلى المؤمن أن يترفع بنفسه عن مخالطة أهل الشر ومشاركتهم فى باطلهم ، لأن من حام حول الحمى : يوشك أن يقع فيه [(١)].

ويصح أن يكون المراد من الزور : كل شئ باطل ، مائل عن الحق ، من الإزوار كالشرك ، والكذب ، والغناء ، والنياحة وغيرها ، أى لا يشهدون مجالسها ومجامعها .

وإذا مروا : مصادفة واتفاقا بما يجب أن يلقى ويهمل لعدم نفعه وخيريته " مروا كراماً " منصرفين عنه غير ملتفتين إليه ، صيانة لسمعهم ونفوسهم ، وأن تتجه إلى مالا خير فيه من اللغو الذى يسبب الانقطاع عن الله تعالى ، فهم يكرمونها من تعرفه والوقوف عليه ، وعدم الخوض فيه ، لأن ترك ذلك من حسن إسلام المرء :

وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند حلبها تكرماً كأنها لا تبالى بما يؤخذ منها : لغزارة لبنها :

وأخرج ابن أبى حاتم ، وابن عساكر ، عن إبراهيم بن ميسرة ، قال بلغنى :

---

(١) عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الحلال بين وأن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات أستبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمىً ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) .

أن ابن مسعود ﷺ : مر بلهو معرضاً ولم يقف ، فقال النبى ﷺ :

لقد أصبح ابن مسعود (وأمسى كريماً) ثم تلى إبراهيم ابن ميسر :

(وإذا مروا باللغو مروا كرماً) وقيل اللغو ، هو ما يستهجن من القول : وكرمهم إذا مروا به : التعبير عنه عند ذكره بطريق الكتابة والإيماء إليه ، من غير تصريح بلفظه الذى وضع له : كلفظ النكاح ، والفرج ، وغير ذلك مما تنبوا عنه الأسماع وتنفر منه :

وقيل المراد باللغو : الزور ، وهو الأمر بالباطل : ذكر تارة بأنه زور كبطلانه ، ومرة بأنه لغو لأنه لا فائدة فيه ، وأصل الكلام : وإذا مروا به فوضع الظاهر موضع المضمر : أى والذين لا يحضرون الباطل : وإذا مروا به اتفاقا أعرضوا عنه .

وأنت تعلم أن شهادة الزور نوع من الكذب الفاحش الذى يدخل فى المعاصى كلها ، ومرتكبة فاسد المروءة ، خبيث الطعمة ، خبيث الغرض آثم قلبه ، يبدل الحق باطلا والباطل حقاً ، ليبيع دينه وكرامته وآخرته بدنيا ذاهبة ، وعرض يسير، وسيرة سيئة فى الناس ، فأهون به وبمكانته الذليلة الوضيعة عند الله والناس وإنك لتعجب كثيراً لهذه الفئة التى كثر سوادها ، والتى تنصب نفسها لأداء هذه الشهادة الفاجرة ، ويتكلف بعضهم الصلاح والتقوى ليتصيد قلوب العامة وأموالهم حتى إذا دعى لأداء هذه المهمة جاد بنفسه لنصرة الضلال ، وخطى هذه الخطوات فى سبيل الشيطان .

وأما الاشتغال باللغو فهو مضيعة للوقت الذى هو رأس مال المؤمن ، وعليه أن يستغله فى طاعة الله من قبل أن يأتيه الموت ، فيضيع من يده أو يقول : رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب ، فأصدق وأكن من الصالحين .

ولو علم العبد قيمة ما ينفقه من الزمن على الكلام الذى يحبط عمله – كالغيبة ، والتفوه بما يقبح ذكره والتصريح به – لما فرط فى لحظة واحدة من عمره ، ولما تبرع للهو وإخوان السوء بشئ من هذا المال الذى هو فى قدرة على استثماره وتنميته .

- **وهذه الأحاديث فيما اشتملت عليه الآية :**

١ - عن أبى بكرة ﷺ ، قال رسول الله ﷺ

(ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ؟

قلنا : بلى يا رسول الله : (قال الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررهما حتى قلنا ليته سكت) [١].

٢ - وعن أيمن بن خريم " بن فاتك " قال : قال رسول الله ﷺ :

عدلت شهادة الزور إشراكا بالله تعالى ، ثم قرأ :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ، حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [٢] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده : والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه [٣]) .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ :

(من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت الناس الذى يحب أن يؤتى إليه [٤]) .

وعن ابن مسعود ﷺ : قال : قال رسول الله ﷺ :

(وما كان المؤمن بالطعان ولا الفاحش ولا البذئ) .

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

(ما كان الفحش فى شئ إلا شأنه ولا كان الحياء فى شئ إلا زانه) [٥].

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذى ، والآية رقم ٣٠ ، ٣١ من سورة الحج .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه مسلم فى صحيحه .

(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن صفوان بن سليم ﷺ قال : قلنا يا رسول الله :

(أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم

قلنا أفيكون بخيلا ؟ قال نعم

قلنا أفيكون كذابا ؟ قال : لا) [١] .

وعن مالك أنه بلغه أن ابن مسعود ﷺ قال :

(لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب ، فينكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه ، فيكتب عند الله من الكذابين) [٢] .

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال : (أن الصدق يهدى إلى البر وأن البر يهدى إلى الجنة وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً .

وأن الكذب يهدى إلى الفجور ، وأن الفجور يهدى إلى النار ، وأن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) [٣].

وعن بهز بن حميم عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ :

(ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم ، فيكذب ، ويل له) [٤] .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

(يكون فى آخر أمتى أناس دجالون كذابون : يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم ، فإياكم وإياهم لا يضلونكم ويفتنونكم) [٥]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

(نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم [٦] ، والتحريش بينها إغراء بعضها ببعض) .

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

(٢) رواه مالك فى الموطأ .

(٣) رواه مالك فى الموطأ .

(٤) أخرجه أبو داود والترمذى .

(٥) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه .

(٦) أخرجه أبو داود والترمذى .

وعن بردة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

(من لعب بالنرد شير : فإنما صبغ يده فى دم خنزير) .

(النرد شير) هى المعروفة اليوم بالطاولة .

وعن عائشة رضى الله عنها : أنها أرسلت إلى قوم سكان فى دارها عندهم نرد : لأن لم تخرجوها وإلا أخرجتكم من دارى ، وأنكرت ذلك عليهم ، أخرجه مالك .

وعن محمد بن المنكدر قال :

بلغنى أن الله تعالى يقول يوم القيامة :

(إن الذين كانوا ينزهون بأسماعهم عن اللهو ، ومزامير الشيطان ؟ أدخلوهم فى رياض المسك ، ثم يقول للملائكة عليهم السلام أسمعوهم حمدى ، وأخبروهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . [(١)]

قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ [(٢)]

اعلم أنه تعالى وصف عباده فى الآية السابقة بأنهم عباده المعرضون عن الدنيا التى تحول دون إقبالهم على ربهم ، ولذلك فهم لا يشهدون الزور وهم يكرمون أنفسهم عن سماع اللغو إذا مروا به .

وفى هذه الآية نعتهم بأنهم متوجهون إلى عمل الآخرة التى يريدونها ويسعون لها سعيا .

فالآية الأولى منبئة عن أنهم لا يرجون حرث الدنيا ونصيبها وهذه تفيد أنهم يبتغون حظ الآخرة وجزاءها .

والمعنى : والذين إذا ذكروا بآيات القرآن المشتملة على العبر والمواعظ لم يعلموا عمل الكافرين والمنافقين ، من عدم الانتفاع بها والاستفادة منها ، بل

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود .

(٢) الفرقان آية : ٧٣ .

يقبلون عليها كل الإقبال لتعيها آذانهم وترعاها أبصارهم ، فالنفى متوجه إلى القيد كما هو الأكثر عند العرب والمراد إثبات الغرور ونفى أن يكونوا عند حصوله منهم صما وعميانا ، والتعبير به دون لم يكبوا لإفادة شدة تأثرهم بالقرآن ، فهم حين يسمعونه يخرون عليه متدبرين فيه ، متأثرين به ، والخرور السقوط على غير نظام ، وترتيب ، ويجوز أن يراد بهذه الآية معناها اللغوى ، أى العلامة الدالة على قدرة الله المنبتة فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ كما فى قوله تعالى فى حق أضدادهم :

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[1]

قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ [2] .

تقدم فى الآية السابقة ، أن الله تعالى وصف المؤمنين بأنهم حريصون على مرضاته وطاعته ، وذكر هنا أنهم يسألونه تعالى أن يقر أعينهم بصلاح أزواجهم وذرياتهم وأن يجعلهم أئمة فى الدين فهم يطلبون السعادة لأتباعهم بعد ما حصلوها لأنفسهم .

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم :

(ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا بالجمع وقرأ باقى السبعة وذرياتنا بالأفراد ذهابا إلى قصد الجنس) .

والمعنى : والذين يقولون فى دعائهم : ربنا هب لنا من جهة أزواجنا وذرياتنا سرورا عظيماً ، وفرحا جزيلا ، بأن توفقهم للعمل الصالح ، والإخلاص فيه ابتغاء وجهك ، ورجاء ثوابك ، وخوفا من عقابك ليكونوا عونا لنا على عبادتك ، ولتطيب الحياة بالسكون إليهم ، والعيش معهم ، قانتين لربهم مطيعين ،

---

(١) يوسف آية : ١٠٥.

(٢) الفرقان آية : ٧٤ .

وليقوى طمعنا فى أن يكونوا معنا فى الجنة ، كقوله تعالى :
﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ ﴾ (١) .

ولأن استجابة هذا الدعاء منا مع تذكيرهم والقيام على إصلاحهم وإرشادهم تحقق لنا الخروج من عهدة التقصير ، لأننا مسئولون عنهم ومطالبون بعهدهم ، والمراد : أن عباد الرحمن لا يريدون أن تقر أعينهم بأن تحوز أزواجهن وذريتهم مظاهر الدنيا من المال والجمال ، ولكن الذى يملأ قلوبهم بشراً وحبوراً أن يكونوا على جانب عظيم من الدين متمسكين به لا يحيدون عنه ، ولا يخطئون طريقه .

ولا شك أن فى ذلك هناءة الأسرة ورفاهيتها والفوز بشرف الآخرى والأولى، ومن ابتدائية متعلقة بتهب ، أى هب لنا من جهتهم أو بيانية بناء على صحة تقدم المبين بالكسر وهو الأزواج والذرية على المبين بالفتح وهو قرة أعين ، والقرة مأخوذة من القر ، وهو البرد ، لأن دمعة السرور باردة ، بخلاف دمعة الحزن فهى حارة ، أو من القرار إذ السرور بالشئ يستقر نظره فيه لا ينتقل عنه إلى ما دونه .

والتنكير للتعظيم ، أى قرة عظيمة الشأن ، وتنكير أعين لأنه لا طريق لتنكير المضاف إليه ، للقاعدة المستمرة من أن المضاف إلى واحد من المعارف يكون فى مرتبته والمتتبع لأسلوب القرآن يرى أنه يجمع العين بمعنى الباصرة على أعين دائما، وبمعنى الجارية على عيون كذلك .

﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ .

أى اجعلنا أئمة يقتدى بهم فى الدين ، بأن تعلمنا وتوفقنا لصالح العمل ، حتى نصلح لرياسة المسلمين وقيادتهم إلى الله على منهج القرآن والسنة .

وإنما قال : إماما بالإفراد للدلالة على الجنس فى قوله تعالى :
﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ (١) طِفْلاً ﴾ أو المراد واجعل كل واحد منا إماماً .

---

(١) الطور آية : ٢١ .

وإنما لم يقل : وعباد الرحمن الذين يمشون ويبيتون لربهم إلى آخره ، ويقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم بإسقاط الموصلات السبعة للدلالة على أن ما ذكر فى الصلة من الأمور الهامة الجليلة التى يجــب أن تقصــد لذاتــها ، وأن يجعل لها موصوف مستقل بها غير تابعة بما قبلها عناية واهتماما بشأنها .

وذكر العاطف فى قوله : والذين يبيتون وما بعده ، لجعل الاختلاف العنوانى بمثابة الاختلاف الذاتى .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ (٢).

لما ذكر سبحانه وتعالى أوصافهم السيئة ، وأثنى عليهم ببلوغ النهاية فى الطاعة ، وإحراز شرف العبودية ، التى يجب أن يسعى إليها ويتنافس فيها ، بين ما أعده لهم من الجزاء ، وحسن المثوبة ، والكرامة فى الدار الآخرة ، على صبرهم عن الشهوات ، وعلى مشاق التكاليف ، لينبه على أن صفقتهم رابحة ، وأنهم لهم تجارة لن تبور ، وأنهم هم الفائزين .

وقرأ حمزة ، والكسائى ، وشعبه ، عن عاصم :

﴿ وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾ بفتح الياء والقاف ، بينهما لام ساكنة .

وقرأ الباقون : يلقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة .

والمعنى فأولئك الذين تقدم نعتهم بما لا مزيد عليه من الخلال الكريمة ،الدالة على منزلتهم ، وخضوعهم لله تعالى ، يجزون الغرفة بما صبروا ، أى يدخلون أعلى منازل الجنة ، جزاء لهم بسبب صبرهم على امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، ورياضة النفس ، وجهاد الأعداء ، وأذى المشركين وغير ذلك.

والغرفة الدرجة العالية من المنازل ، وكل بناء مرتفع ، وهى اســم جنــس قصد به الجمع ، ليوافق قوله تعالى :

---

(١) من الآية رقم ٥ من سورة الحج

(٢) الفرقان آية ٧٥ ، ٧٦

﴿ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ [١] ﴾ ، وقيل الغرفة اسم للجنة ، وأولئك مبتدأ ، وما فيه من معنى البعد للتنبيه على علو درجتهم ، وبعد منزلتهم فى الفضل . ويجزون خبره ، والجملة لا محل لها من الإعراب مستأنفة لبيان أنواع إحسان الله تعالى عليهم بعد وصفهم بما ذكروا على القول الثانى وهى فى محل رفع خبر لعباد الرحمن على القول الأول ، والباء سببية وما مصدرية ، وحذف مفعول صبروا ليعم كل ما تقدم ، وغيره ليكون ذلك أبلغ فى مدحهم ، وأدل على مزيد انقيادهم له تعالى .

وإنما لم يقل فعلوا لأن ما معنا أدخل فى باب الثناء عليهم لأنهم عالجوا أنفسهم وراضوها على فعل الخير وترك الشر ، حتى ذللت لهم وانقادت .

﴿ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾ أى دعاء بالتعمير ودوام البقاء ، وسلاماً من الآفات والعلل ، وأصل التحية من قولهم : حياك الله وأبقاك ، وهى مشتقة من الحياة . والمراد : أن الله تعالى يجمع لهم بين سكنى الجنة والانتفاع بما فيها .

وبين هذه المقالات السارة . وفاعل التحية والسلام : إما الله عز وجل لقوله تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ [٢] .

وإما الملائكة كقوله تعالى :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [٣] .

وإما بعضهم مع بعض كما هو الظاهر من قوله تعالى :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [٤] .

---

(١) سبأ آية : ٣٧ .
(٢) سورة يس آية : ٥٨ .
(٣) الرعد آية ٢٢ : ٢٣
(٤) يونس آية : ١٠

والغرض من هذا الكلام : إدخال الفرح على قلوبهم ، وتهنئتهم بما وصلوا إليه من الدرجات العلى ، لا أن الداعى يطلب لهم ما ليس حاصلا إذ بقاؤهم فى الجنة ثابت من غير تحية ولا دعاء ، ونعيمهم دائم خالص من شائبة الضرر خالدين فيها حال من فاعل يلقون مفيد : لأن ما هم فيه من الخير والتكريم بدعاء الملائكة لهم بالسلام وتحيتهم أبدى لا انقضاء له :

﴿ حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾ أى ما أحسنها ، أو حسنت بمعنى نعمت ، فيها ضمير مبهم تقديره هى . والتأنيث باعتبار الجنة . ومستقراً نصبا على التمييز .

وهذه أحاديث فى ما أعده الله للمؤمنين فى الجنة .

وفقنا الله للعمل لها :

عن أبى سعيد الخدرى ﷺ : عن النبى ﷺ قال :

أن أهل الجنة ليتراءون أهل القرن من فوقهم : كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم .

(قالوا يا رسول الله : تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟)

قال بلى (والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله . وصدقوا المرسلين) [١] .

وعن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

إذا دخل أهل الجنة الجنة . ينادى مناد : أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً

وأن لكم أن تصحوا فلا تشقوا أبدا .

وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا .

وأن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدا . [٢]

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(إن آدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمن ، فيتمنى ويتمنى : فيقول له هل تمنيت ؟ فيقول : نعم . فيقول له : فإن لك ما تمنيت ومثله معه) [٣] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه الإمام مسلم .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه .

عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة : فيقولون لبيك : ربنا وسعديك ، والخير فى يديك .

فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى ، يا ربنا فقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟

فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شئ أفضل من ذلك ؟

فيقول : أجل عليكم رضوانى فلا أسخط بعده أبداً (١) .

وعن جرير بن عبد الله ﷺ قال : كنا عند رسول الله ﷺ : فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر : لا تضامون فى رؤيته (٢) .

وعن صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

إذا دخل أهل الجنة الجنة : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيد بكم ؟

فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟

فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم (٣)

وعن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(إن أهل الجنة ليتراءون بالغرف فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء) (٤) .

وعنه ﷺ قال :

شهدت من النبى ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال فى آخر حديثه :

(فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ، ثم قرأ :

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه

(٤) متفق عليه .

(تتجافى جنوبهم عن المضاجع : إلى قوله تعالى :

﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (١)

وعن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

إنى لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها ، أو آخر أهل الجنة دخولا من النار حبوا ، فيقول الله عز وجل :

أذهب فادخل الجنة ، فيأتيها : فيخيل إليه أنها ملئ : فيرجع : فيقول الله عز وجل :

(إذهب فأدخل الجنة ، فإن لك مثل الدنيا عشرة أمثالها ، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا) .

فيقول : أتسخر بى ؟ أو تضحك بى ؟ وأنت الملك ؟

قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ : ضحك حتى بدت نواجذه ، فكان يقول ذلك أدنى أهل الجنة منزلة (٢) .

وعن أبى موسى ﷺ : أن النبى ﷺ قال :

(إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ، ولا يرى بعضهم بعضاً)(٣)

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى ﷺ قال :

(إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام ما يقطعها) (٤) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه والآية رقم ١٦ ، ١٧ من سورة السجدة .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه ، والبخارى فى صحيحه ، والترمذى فى سننه عن أنس ، وأخرجه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد ، وأخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم والترمذى عن أبى سعيد ، وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة .

وعن أبى هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال :(لقاب قوسين فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب) [١] .

وعن انس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :

(إن فى الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة : فتهب ريح الشمال فتحسر فى وجوههم وثيابهم فيزدادوا له حسناً وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالا :

فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً ، فيقولون : (وأنتم والله، لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً) [٢].

﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾ [٣].

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فيما تقدم جزاء المؤمنين ووصفهم قبل ذلك بالصفات المنبئة عن العبودية الحقة ، والإخلاص فى خدمته تعالى ، وامتثال أوامره، والبعد عما نهاهم عنه .

عقب ذلك بذكر أن ما يدعوهم إليه من العبادة ، ليس لمنفعة ترجع إليه ، إذ هو الغنى عنهم ، وعن طاعتهم ، بل وعن كل مخلوق كائنا من كان ، وإنما يرشدهم بهذا الدين إلى ما يفيدهم ، ويحقق لهم السعادة الأبدية .

فعلى جميع الناس أن يعقلوا هذه الرحمة ، ويقدروها حق قدرها ، فيعبدوه وحده ، لا يشركوا به شيئاً .

ويتبعوا هذا النور الذى أنزل لهدايتهم وصلاح أمرهم فى الدنيا والآخرة :

والمعنى : قل يا (محمد) لكل الناس متحدثاً معهم عما حصل من جنسهم من خير وشر ، وحتى يتبين لهم أن السبب فى ظفر البعض بتلك الخيرات الكثيرة والمقامات الرفيعة ، هو تمسكهم بالإسلام وما يحث عليه من فضائل .

(ما يعبؤا بكم ربى لو لا دعاؤكم) ، أى شئ يعبؤا بكم ، وأى اعتداد يعتـد

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه .

(٣) الفرقان آية : ٧٧ .

بكم ، ولولا عادتكم له تعالى ، فإنكم إنما خلقتم لطاعته ، والإقرار له بالألوهية والوحدانية .

كما قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١).

وإلا فقد شاركتم البهائم فى هذا الوجود الخسيس القاصر على جمع الطعـــام والشراب ، وتلبية الشهوات وعواطف الشر ، ونبذ العقل والتفكير فى أمر المعاش والمعاد ، على ضوء الحكمة والبصر بعواقب الأمور ، وأصل العبء الثقل :

تقول ما عبأت بفلان ، أى ما أعددت له ما يكون ثقلا على ، وما استفهامية منصوبة على المصدرية ، كما مر تقديره وذكر الرب مضافا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لإفادة ، أن هذا الكلام من جملة تربيته تعالى لعباده ، وأن الرسول ﷺ مأمور من قبله تعالى ، بأن يقول : وليس عليه إلا الإتباع والدعاء بمعنى العبادة ، وهو مصدر مضاف إلى الفاعل .

وقال الزجاج : أى وزن يكون لكم عنده تعالى : لولا عبادتكم وجواب لولا محذوف ، والتقدير لولا دعاؤكم لما اعتد بكم لدلالة ما قبله عليه .

وقيل المعنى : ما يصنع بكم ربى ، لو لا دعاؤه إياكم إلى الإسلام ، فالدعاء بمعنى الدعوة وهو مضاف إلى المفعول .

وقيل ما يصنع بعذابكم ، لو لا دعاؤكم ، معه آلهة ، كقوله : تعالى :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ﴾ (٢)

وقيل : ما يعبؤا بكم بعذابكم لولا دعاؤكم إياه ، وتضرعكم إليه فى الشدائد ، كقوله : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٣) .

ويصح أن تكون ما نافية ، أى لا يعبأ بكم : ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ﴾ هو بيان الحـــال

---

(١) الذاريات آية : ٥٦ .

(٢) النساء آية : ١٤٧.

(٣) العنكبوت آية : ٦٥ .

من كفر بين المخاطبين ، بعد بيان حال من آمن منهم .

والمعنى : فقد كذبتم بما أنزلته عليكم أيها الكفرة ، وعصيتم أمرى واتبعتم غير سبيل المؤمنين : ومثل ذلك ما يقول الملك لمن خرج على أمره ، إن من عبادتى أن أحسن إلى من يطيعنى ، وقد عصيتنى ، فسوف ترى ما سينزل بك من العقاب بسبب عصيانك .

فإنه تعالى قال :

قــد أعلمتكم بأن حكمى ألا أعتد بعبادى إلا لعبادتهم ، فقد خالفتم بتكذيبكــم حكمى . فسوف يكون لزاماً ، أى يكون أثر التكذيب ، أو جزاؤه لازماً ، يحيق بكم، فلا مفر لكم منه ولا خلاص ، وذلك فى الآخرة ، وقيل اسم يكون هو العذاب وعدم التصريح بالاسم ، لتفخيم شأنه والتنبيه على أنه من الهول والشدة بحيث لا يمكن وصفه :

وقانا الله أسبابه ونجانا من موجباته وعصمنا من الزيغ بعد الهداية والضلال بعد الهدى .

ترجمة العارف بالله الإمام
عبد الوهاب الشعرانى

هو الإمام أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعرانى .

وقد أرخ لنفسه فى كتاب لطائف المنن : يقول : أحمد الله تعالى حيث جعلنى من أبناء الملوك ، فإنى بحمد الله تعالى عبد الوهاب بن أحمد بن على بن محمد زوغا بن الشيخ موسى . جدى السلطان السادس بن السلطان أحمد بن السلطان سعيد بن السلطان فاشين بن السلطان محيا بن السلطان زوغا بن السلطان ريان ابن السلطان محمد بن موسى ابن السيد محمد بن الحنفية بن الإمام على بن أبى طالب ﷺ ونعرف من الترجمة أن هؤلاء السلاطين كانوا فى المغرب الأقصى .

ونعرف أيضاً أنه كان له جداً متصوفاً : يقول الإمام الشعرانى .

كان جدى السابع الذى هو السلطان أحمد سلطانا بمدينة تلمسان فى عصر الشيخ أبى مدين المغربى ، ولما اجتمع به جدى موسى قال الشيخ أبو مدين : لمن تنتسب ؟

قال : والدى السلطان أحمد .

فقال له : إنما عنيت نسبك من جهة الشرف .

فقال : أنتسب إلى السيد محمد بن الحنفية .

فقال له : ملك وشرف وفقر – لا يجتمعن .

فقال : يا سيدى قد خلعت عدا الفقر (التصوف) فرباه .

فلما كمل فى الطريق أمره بالسفر إلى صعيد مصر ، وقال له : اسكن بناحية هو فإن بها قبرك فكان الأمر كما قال .

نشأته : نشأ الإمام الشعرانى ﷺ فى (ساقية شعرة) بعد أن انتقل والده من (هو) إليها ، وكان ميلاده فى عام ٨٩٨ هـ ببلدة فى القليوبية تسمى (قلقشندة) ثم حمل إلى ساقية شعرة بعد ذلك .

وقضى طفولته بعد ذلك فى حفظ القرآن الكريم ، ومتون الكتب ومنها كتاب الأجرومية ومتن أبى شجاع .

يقول الإمام الشعرانى :(ومما من الله تبارك وتعالى به على وأنا صغير ببلاد الريف حفظ القرآن وأنا ابن ثمان سنين وواظبت على الصلوات الخمس فى أوقاتها).

ومرت به الأيام وهو يتلقى العلم ولا ينشغل عنه فى أى شئ فقد رزق الإمام الشعرانى بالقناعة التى تجعله يكتفى باليسير من أمور الدنيا فى سبيل تلقى العلم وفهمه ودراسته .

ـ حضور الإمام الشعرانى للقاهرة :

وتوفى والد الشعرانى ووالدته ، وهو ما بعد صغير فحضر للقاهرة لتلقى العلم فى الجامع الأزهر الذى كان عامراً بالشيوخ العظام فى ذلك الوقت ودروس العلم فيه لا تنقطع ، ثم انتقل إلى جامع الغمرى وكان كسواه من مساجد مصر تقام فيه الحلقات لتدريس العلم .

وكان فى ذلك لا يترك أحدا من العلماء إلا قابله ليأخذ عنهم العلم ويستفيد مما عندهم من المعارف .

وليس معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكن يتولاه برعايته بل إننا نرى كثير من الإمدادات الإلاهية تأتيه وترعاه .

يقول الإمام الشعرانى : قمت ليلة فوجدت قساوة فى قلبى لم أعرف لها سبباً. فقيل لى فى المنام : إن أردت حياة قلبك التى لا موت بعدها ، فاخرج عن الركون إلى الخلق ومت عن هواك وإرادتك ، فهناك يحييك الله عز وجل حياة لا موت بعدها ، ويغنيك غنى لا فقر بعده ويعطيك عطاء لا منع بعده ، ويريحك راحة لا تعب بعدها ويعلمك علما لا جهل بعده ويطهرك طهارة لا نجاسة بعدها ، ويرفع قدرك فى قلوب عباده فلا تحقر بعدها . قد ذهبت أيام المحن بأجمعها ، وأتت أيام المنن بأجمعها ، وهناك يتحرك عليك الحساد من كل مكان فعليك بالصبر .

ويحدثنا الإمام الشعرانى عن فترة وجوده بمسجد الغمرى يقول : أقمت فى جامع سيدى محمد الغمرى وحنن الله تعالى علىّ شيخ الجامع وأولاده فكنت بينهم كأنى واحد منهم ، آكل مما يأكلون وألبس مما يلبسون فلا يجازيهم عنى إلا الله ،

فأقمت عندهم حتى حفظت متون الكتب الشرعية وآلاتها ، وحللتها على الأشياخ ، ولم أزل بحمد الله محفوظ الظاهر من الوقع فى المعاصى ، معتقداً عند الناس ، يعرضون على كثيراً من الذهب والفضة ، فتارة أردها ، وتارة أطرحها إباحة فى صحن الجامع فليتقطها المجاورون .

وكان الإمام الشعرانى قد أقام فى الأزهر خمس سنوات ثم تركه إلى مسجد الغمرى وأقام به سبعة عشر عاما ، وكانت تلك الفترات هى أخصب الفترات فى حياته تلقيا روحيا عن أولياء الله وأخذاً للعلم من علماء الأزهر وغيرهم وبدأ ظهور نجمه فى تلك الفترة حيث أقبل عليه الناس إقبالا عظيما .

ثم انتقل الإمام الشعرانى من مسجد الغمرى ، يقول فى تعليل ذلك : وذلك أن جماعة من أهل جامع الغمرى آذونى كثيراً بغير إذن الشيخ أبى الحسن الغمرى، وحلفوا على مصحف أنهم لا يحضرون معى فى مجلس الذكر والصلاة على رسول الله ﷺ فيه ، وصاروا يضربون كل من جلس عندى من المجاورين ، ولم يبق معى فى السهر سوى الناس الغرباء ، فرأى الشيخ (أحمد) المذكور النبى عليه السلام وهو يقول له : (قل لعبد الوهاب ينتقل إلى مدرسة خوند بين الصورين فإنها مباركة) .

لقد كان انتقاله إلى مدرسة أم خوند هو بداية ظهور مدرسة الشعرانى الصوفية التى كان لها صيتها الواسع فى مصر بل فى العالم الإسلامى وتربى فيها كثير من المريدين الذين قضوا حياتهم فى العلم والعمل فكانوا خير هداة لعصرهم ولعصور بعدهم بما خلفوه من تراث هو من قمم الفكر الصوفى الإسلامى .

ولكن قد يثور بنا سؤال ؟ من هم المشايخ الذين تلقى عنهم الإمام الشعرانى طريق العلم والعمل ؟

لقد تلقى الإمام الشعرانى من عدد كبير من العلماء نذكر منهم :

١- الشيخ نور الدين الطرابلسى .

٢- الشيخ شهاب الدين بن الشلبى .

٣- الشيخ شمس الدين القرى الكبير .

هؤلاء بالنسبة للفقه الحنفى .

١ - الشيخ عبد الرحمن الأجهورى .

٢ - الشيخ شمس الدين اللقانى .

٣ - الشيخ شرف الدين الخطاب .

بالنسبة للمذهب المالكى .

ودرس بقية المذاهب على شيوخ متعددين نذكر منهم الشيخ جلال الدين السيوطى والشيخ زكريا الأنصارى وغيرهم .

حيث أن العلماء فى ذلك العصر كانوا يطلعون على أغلب المذاهب .

على أن العلماء الذين تأثر بهم الإمام الشعرانى فى التصوف كانوا من الكثرة بمكان : ولكن كان لبعضهم ، كبير التأثير على حياته وهم :

١ - سيدى إبراهيم المتبولى صاحب الكتاب الذى بين أيدينا والذى ألفه الإمام الشعرانى من شدة إعجابه وتأثره به رغم أنه لم يقابله فقد توفى قبل أن يلتقى به الشعرانى ولكنه سمع من تلامذته .

٢ - سيـدى نـور الـدين الشونـى : صـاحب الحضـرات ومجالس الصلاة على الرسول ﷺ .

٣ - سيدى على الخواص : وكان له تأثير كبير على الإمام الشعرانى نراه فى استشهاده بكثير من كلامه بل وألف عنه كتابا خاصا عنه هو : درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص .

٤ - شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصارى : له كتب فى الفقه وحواشى على الرسالة القشيرية والأربعين النووية .

يقول عنه الإمام الشعرانى : إنه أحد أركان الطريق فى الفقه ، والتصوف وقد خدمته عشرين سنة فما رأيته قط فى غفلة ، ولا اشتغال بما لا يعى لا ليلا ، ولا نهاراً .. وكان يصلى الفرائض قائما . ويقول : لا أعود نفسى الكسل ، وكان لا يأكل إلى من خبز الخانقاه ، ويقول : واقفها كان من الملوك الصالحين ، وأوقف وقفها بإذن النبى ﷺ .

٥- سيدى على نور الدين المرصفى : وكان له مؤلفات منها :

(أ) منهج السالك إلى اشرف الممالك .

(ب) كشف غوامض المنقول فى مشكل الآيات ، والآثار ، وأخبار الرسول .

(جـ) مبانى الطريق فى مبادئ التحقيق .

٦- الشيخ محمد الشناوى : ستأتى ترجمته فى الكتاب .

ولكن هل كان الإمام الشعرانى يقتصر على التلقى عن هؤلاء العلماء ؟

الواقع – لا – فإن الإمام الشعرانى قد قرأ كثيراً من الكتب منها :

فى التفسير : ١- تفسير البيضاوى .

٢- تفسير الخازن .

٣- تفسير ابن عادل .

٤- تفسير القرطبى .

٥- تفسير ابن كثير .

٦- تفسير الجلال السيوطى المسمى بالدر المنثور .

٧- تفسير الإمام الواحدى البسيط .

٨- تفسير الزمخشرى بحواشيه .

٩- تفسير ابن النقيب وهو فى حوالى مائة مجلد .

١٠- كتاب الإنصاف للعراقى .

فى الحديث : ١- الكتب الصحاح الستة .

٢- صحيح ابن خزيمة .

٣- صحيح ابن حبان .

٤- مسند الإمام أحمد .

٥- موطأ الإمام مالك .

٦- معاجم الطبرانى الثلاثة .

٧- كتاب جامع الأصول لابن الأثير .

٨- الجامع الكبير الإمام جلال الدين السيوطى.

٩- دلائل النبوة للبيهقى .

١٠- كتاب الهدى النبوى لابن القيم .

وفى الفقه الحنفى : ١- كتاب شرح الكنز .

٢- كتاب شرح القدورى .

٣- شرح الهداية وتخريج أحاديثها للحافظ الزيلعى .

٤- كتاب فتاوى قاضى خان .

أما الفقه المالكى : فقد طالع :

١- كتاب المدونة الكبرى واختصرها .

٢- كتاب الموطأ للإمام مالك .

٣- شرح مختصر الشيخ خليل .

٤- وطالع كتب ابن عرفة ، وابن فرجون .

هذا بعض مما قرأه الإمام الشعرانى من الكتب ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر بل إن بعضها قد قرأه عدة مرات كما يترجم لنفسه وليس هذا بكبير على صاحب المدرسة الصوفية الضخمة .

ـ **مؤلفات الإمام الشعراني وآثاره** : تبلغ مؤلفات الإمام الشعرانى عدد ضخم من الكتب بين مؤلفات وحواشى واختصارات بعضها مطبوع وبعضها مخطوط . تذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١- الأنوار القدسية فى بيان آداب العبودية .

٢- لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار .

٣- الرسالة .

٤- كشف الغمة عن جميع الأمة .

٥- كشف الحجب والران عن وجه أسئلة الجان .

٦- مدارج السالكين إلى رسوم طريق العارفين .

٧- تنبيه المفترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا سلفهم الظاهر .

٨- زبدة العلم المشهورة (المسمى بالدرر المنثورة)

٩- اليواقيت والجواهر .

١٠- درر الغواص على فتاوى الخواص .

١١- المنح السنية على الوصية المتبولية .

١٢- لواقح الأنوار القدسية فى بيان العهود المحمدية .

١٣- الطبقات الوسطى .

١٤- الطبقات الصغرى .

١٥- البحر المورود فى المواثيق والعهود .

١٦- مختصر إرشاد الغافلين من الفقهاء إلى إرشاد صحبة الأمراء وتسمى بالمنن الصغرى .

١٧- سلوك المحققين .

١٨- منتخب الكبريت الأحمر فى علوم الشيخ الأكبر

١٩- كتاب لباب الإعراب المانع من اللحن فى السنة والكتاب .

٢٠- كتاب مختصر المدونة للإمام مالك .

٢١- كتاب التتبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص .

هذا قليل من كثير مما للإمام الشعرانى من فضل على العالم الإسلامى رحمه الله رحمة واسعة وأجزل ثوابه وجزاه عنا خير الجزاء ،

الأستاذ الدكتور
منيع عبد الحليم محمود
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
وعميد كلية أصول الدين جامعة الأزهر
بالقاهرة

مدخــل الكتــاب



وبه ثقتى

أحمد الله رب العالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين ، واشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله سيد الأولين والآخرين ، اللهم فصل وسلم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين . وعلى آلهم وصحبهم أجميعن .

(وبعد) فهذا كتاب نفيس ، صغير الحجم ، عظيم القدر ، جمعت فيه جملة صالحة من أخلاق سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله تعالى شيخ مشايخنا الشيخ إبراهيم المتبولى المحمدى صاحب الزاوية ببركة الحجاج [١] بمصر المحروسة ، التى أخذها مشايخنا عنه وذكروا أنه أخذها من حضرة رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة [٢] بالشروط المعروفة بين القوم كما سيأتى بيانه فى الكتاب إن شاء الله تعالى . وهى أخلاق شريفة لا يكاد الإنسان يجدها عند غالب فقراء [٣] هذا الزمان.

فأحببت تقييدها فى هذه الطروس رجاء النفع بها خوفا أن تذهب بذهاب أهلها والأعمال بالنيات . وقد قال العلماء بالله تعالى كل من لم يفتح الله تعالى على قلبه بالعلوم الغريبة الجديدة فليس له أن يؤلف كتابا ، لأن غاية ملاك هذا أنه جمع بين كلام الناس وجعله مؤلفا . وقد كان الشيخ أبو مدين [٤] ﷺ يقول

---

(١) يطلق عليها فى الوقت الحالى اسم بركة الحاج وهى قرية على مشارف القاهرة كانت تتجمع فيها القوافل المسافرة للحج .

(٢) من عقائد الصوفية جواز رؤية الرسول ﷺ يقظة ومشافهة .

(٣) يقصد بفقراء هذا الزمان طائفة الصوفية فى عصره حيث أن لقب فقراء كان يطلق عليهم ولا يقصد به الفقر المادى كما هو الغالب على هذا الإصطلاح فى العصر الراهن .

(٤) يقول عنه الإمام الشعرانى فى الطبقات الكبرى : هو من أعيان مشايخ المغرب وصدور المربين وشهرته تفى عن تعريفه واسمه شعيب وهو مدفون بتلمسان بأرض المغرب فى جبانة العبادلة وقد ناهز الثمانين وقبره ظاهر يزار . وكان سبب دخوله تلمسان أن أمير=

لأصحابه إذا حكوا له كلاما عن أحد من سلف (لا تطعمونا القديد وأطعمونا اللحم الطرى) أى أسمعونا الكلام الذى ورد على قلوبكم من حضرة الله عز وجل لأن هذا هو النافع المفيد لنا ماليس عندنا . وما دَرَجَ السلف الصالح إلا على تأليف ما لم يسبقهم أحداً إليه وكانوا يقولون : من أراد جمع كلام الناس فليدل المريدين على الأصول التى أخذ مؤلفه ويسترح من التعب فى الكتابة وتضييع الزمان وتسويد الورق . فهذا كان السبب فى تأليفى لهذا الكتاب ليدوم النفع به على ممر الزمان ويكون نائبا عنى فى النصح بعد موتى أسوة العلماء (والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه) [(١)] فاسع يا أخى فى تجميع مقام التخلق بها على يد شيخ صادق ولا يضرك غرابتها منه حيث غرابة طريقها فإنها أخلاق محررة على الكتاب والسنة وأخلاق السلف الصالح كتحرير الذهب والجوهر كما سبق إن شاء الله تعالى . لا يقدح فى معانيها إلا جاهل أو معاند أو مائل عن طريق الحق لأجل غرضه الفاسد ، وإن كان كلام البشر من الأمة لا يخلو عادة عن خطإ وسهو ولكن الحكم للأغلب فافهم .

وقد تلقيت هذه الأخلاق التى أذكرها فى هذا الكتاب عن نحو سبعين شيخا من أصحاب سيدى الشيخ إبراهيم المتبولى ﷺ وعنهم أجمعين ، كشيخنا وقدوتنا إلى دخول حضرة الله تعالى الأمى المحمدى صاحب الكشوفات والمعارف

=المؤمنين لما بلغه خبره ، أمر باحضاره من بجاية ليتبرك به ، فلما وصل إلى تلمسان قال ما لنا وللسلطان الليلة نزور الإخوان ثم نزل واستقبل القبلة وتشهد وقال ها قد جئت ها قد جئت وعجلت إليك ربى لترضى ، ثم قال : الله الحى وفاضت روحه ﷺ . وأجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بين يديه وكان ظريفا جميلا متواضعا زاهداً ورعاً محققا مشتملا على كرم الأخلاق ﷺ .

ومن كلامه : (ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها) .

وكان يقول : الجمع ما أسقط تفرقتك ومحا إشارتك والوصول استغراق أوصافك وتلاشى نعوتك.

وله كلام كثير فى علوم التصوف والأحوال .

(١) هذه جملة من حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه والحاكم فى المستدرك وأبو يعلى فى مسنده عن أبى هريرة ﷺ

والتصريف العظيم فى مصر وقراها الشيخ على الخواص [(١)] ﷺ ، وكسيدى وشيخى العارف بالله تعالى الذى انتهت إليه الرياسة فى تربية المريدين فى مصر: الشيخ على المرصفى [(٢)] رحمه الله تعالى ، وكسيدى العارف بالله تعالى المجذوب الصاحى صاحب الكشفات [(٣)] والمعارف والكرامات والخوارق سيدى الشيخ عبد القادر الدشطوطى [(٤)] ﷺ وكسيدى الشيخ العالم العامل الورع الزاهد الذى كان

---

(١) كان سيدى على الخواص البرلسى أمياً لا يقرا ولا يكتب ومع ذلك كان الإمام الشعرانى يعتز بأستاذيته له ويذكر دائما أقواله : والواقع أنه من خلال كتابات الشعرانى عنه نشعر أنه كان على قدم كبير فى التصوف بل يصل إلى مقام الأستاذية فيه .

ومن أقواله : آفة العقل الحذر ، وآفة الإيمان الإنكار ، وآفة الإسلام العلل ، وآفة العمل الملل، وآفة العلم النفس ، وآفة الحال الأمن ، وآفة العارف الظهور ، وآفة العقل الجور ، وآفة المحبة الشهوة ، وآفة التواضع المذلة ، وآفة الصبر الشكوى ، وآفة التسليم التفريط، وآفة الغنى الطمع ، وآفة العز البطر، وآفة الكرم السرف الزائد ، وآفة البطالة الفقر ، وآفة الكشف التكلم ، وآفة الإتباع التأويل ، وأفة الأدب التفسير ، وآفة الصحبة المنازعة ، وآفة الفهم الجدال ، وآفة المريد التسلل على المقامات ، وآفة الإنتفاع التسلق، وآفة الفتح الإلتفات، وآفة الفقيه الكشف ، وآفة المسلك الوهم ، وآفة الدنيا شدة الطلب ، وآفة الآخرة الإعراض .

(٢) هو الشيخ على نور الدين المرصفى كان من أساتذة الإمام الشعرانى توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة وكان على قدم كبير فى التصوف ومن أقواله : إذا وقع من المريد شئ مذموم عند شيخه وهو محمود عند غيره فالواجب عليه عند أهل الطرق رجوعه إلى كلام شيخه دون كلام غيره وإن قام للمريد أن كلام شيخه معارض لكلام العلماء أو دليلهم فعليه بالرجوع إلى كلام شيخه وأولى إذا كان من الراسخين فى العلم .

(٣) فى المخطوط جاءت الكلمة وكانت شبه ممسوحة بلفظ كشفات ولكن الأصح أن تكون صاحب الكشوف أو الكشف .

(٤) هو الشيخ عبد القادر الدشطوطى وكان يسمى بين الأولياء (صاحب مصر) وحج ﷺ ماشيا حافيا وعمر عدة جوامع بمصر وكان السلطان قايتباى يمرغ وجهه على أقدامه .

ومن أقواله : كل من قال السعادة بيد أحد غير الله كذب وإنى كنت جهدان فى الدنيا يضرب بى المثل فحصل لى جاذب إلاهى وصرت أغيب اليومين والثلاثة ثم أفيق أجد الناس حولى وهم متعجبون من أمرى ثم صرت أغيب العشرة أيام والشهر لا آكل ولا أشرب فقلت : اللهم إن كان هذا واردا منك فاقطع علائقى من الدنيا ، فمات الأولاد ووالدتهم والبهائم ولم=

اشتغاله بنفع الأمة ليلا ونهاراً سيدى محمد المنير [١] الذى حج إلى بيت الله الحرام اثنين وستين حجة منها أربعين ماشياً ويركب جماله العاجزين ﷺ وكان من الجماعة الذين يشفعون فى الموقف بعرفات كل سنة فى عصاه الحجاج، وكسيدى الشيخ العابد الناسك المقبل على عبادة ربه ليلا ونهاراً وصيفاً وشتاءاً سيدى محمد بن عنان [٢] خادم الحجرة المحمدية من طريق الروحانيات فلا يدخل على رسول الله ﷺ من الأحياء والأموات إلا بإذنه ﷺ ، وكسيدى الشيخ الصالح الوارث المحمدى الشيخ أبو بكر [٣] الحديدى ﷺ وكانوا يشتمونه بخانه الفقراء بمصر ، وكسيدى الشيخ الصالح العابد الناسك الأمى المحمدى سيدى محمد العدل [٤] بنواحى البحر الصغير بمصر وكانوا يسمونه جليس رسول الله ﷺ على الدوام لما هو عليه من الطهارة الظاهرة والباطنة ﷺ . وكسيدى الشيخ العالم

= يبق أحد دون أهل البلدة فخرجت سائحا إلى وقتى هذا فهل كان هذا فى قدرة العبد قلت له لا ، توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

(١) هو العارف بالله الشيخ محمد المنير ﷺ من أصحاب الشيخ إبراهيم المتبولى ﷺ .
وكان ﷺ أكثر أوقاته يحج على التجريد ماشيا وعلى كتفه ركوة يسقى الناس منها وكان يكره الكلام فى الطريق من غير سلوك ولا عمل ويقول : هذا بطالة ومكث نحو ثلاثين سنة يقرأ فى الليل ختمة وفى النهار ختمة ، توفى ﷺ سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

(٢) هو الشيخ محمد بن عنان وكان من الزهاد العباد وكان يضرب به المثل فى قيام الليل وفى العفة .
وكان ﷺ يقول : الفقير ما رأس ماله فى هذه الدار إلا قلبه فليس له أن يدخل على قلبه من أمور الدنيا شيئا يكدره . توفى فى صفر سنة خمس وتسعمائة.

(٣) هو الشيخ أبو بكر الحديدى : وكان من أكرم الناس وكان إذا دعا شخصا لطعامه ولم يرض يكشف رأسه ويمشى خلفه حتى يجيبه توفى بالمدينة المنورة سنة خمس وعشرين وتسعمائة ودفن بالبقيع .

(٤) هو الشيخ محمد العدل الطناحى : كان ذا سمت حسن وقبول تام بين خاصة الناس وعامتهم وأصل تسميته العدل أن شخصا رأى رسول الله ﷺ فى المنام فقال له : قل لمحمد العدل الطناحى يتبع سنتى وينفع الناس فاشتهر بالعدل .

الصالح الأمى المحمدى سيدى الشيخ محمد السروى [١] صاحب الكرامات والخوارق من كان يطير فى الهواء ويمشى على الماء جهاراً إلى أن يغيب عن العيون ثم يأتى ويداه مخضوبتان بالدم ويقول : توجه إلينا شخص قد أسره الفرنج فى البحر المالح فخلصناه منهم بعد أن قتلنا كذا وكذا نفس من الكفار ﷺ .

وكسيدى الشيخ عبد الحليم بن مصلح [٢] قطب زمانه فى التواضع والكرم والإيثار وخدمة الضعفاء والمساكين وكان ينفق من الغيب بمشاهدتى له حين يقبض الذهب والفضة من الهوى ﷺ وكان لا يختص عن الفقراء بشئ وربما عملت له عياله الدجاجة فيفرقها على نحو سبعين نفسا ويقول :

إن الله تعالى يكره العبد العامل المتميز عن أخيه ﷺ .

وكسيدى الشيخ العالم الزاهد قوام الليل وصوام النهار الشيخ يوسف الحرثى كان يسمع لعشرة من الأطفال القرآن ويرد على كل واحد الغلط واللخبة لا يشغله واحد عن الآخر وهذا المقام من التخلق بأخلاق الله عز وجل خلعه عليه .

وكسيدى وشيخى العارف بالله تعالى مربى المريدين الشيخ محمد الشناوى الأحمدى وكان دأبه قراءة القرآن والذكر ليلا ونهاراً لا يفرغ من الذكر إلا ويستفتح القرآن ولا من القرآن إلا ويستفتح الذكر وقد لازمته عشرين يوماً وليلة فما رأيته نام مضجعاً ليلاً ونهاراً ﷺ .

---

(١) هو الشيخ محمد السروى : وكان يكره للمريد قراءة الأحزاب والأوراد ويقول : نحن ما نعرف إلا لا إله إلا الله بعزم وهمة ويقول : مثال أرباب الأحزاب مثال شخص من اسافل الناس اشتغل بالدعاء ليلا ونهار أن الله تعالى يزوجه بنت السلطان .

وتعليقنا على ذلك أنه يطلب عدم الكسل والتوانى والاعتماد على القراءة المسترخية دون عزم وهمة فى العبادة سواء كانت لقراءة الأوراد أو غيرها .

توفى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة .

(٢) هو الشيخ عبد الحليم بن مصلح المنزلاوى : كان كثير التواضع والإزدراء لنفسه وكان لا يسأله فقير إلا أعطاه حتى يخرج بعمامته ولبسه الكامل فيرجع بالفوطة فى وسطه وعمر عدة مساجد وكان له جامع بالمنزلة فيه فقراء وفيه سماط على الدوام ومارستان للضعفاء من الفقراء والغرباء والمستضعفين توفى ﷺ سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

وكسيدى وشيخى العابد الزاهد المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهاراً منشئ جميع مجالس الصلاة على رسول الله ﷺ فى مصر وقراها واليمن والقدس والشام ومكة والمدينة ومكث فى مجلس الصلاة على رسول الله ﷺ فى جامع الأزهر فى بلد سيدى أحمد البدوى رحمه الله مدة ثمانين سنة كما أخبرنى عن ذلك فى مرض موته ﷺ وقال : عمرى- الآن مائة سنة وإحدى وعشرين سنة ، وكان من أصحاب الخطوة وكانوا يرونه كل سنة فى عرفات ولو لم يكن له من المناقب إلا الذكر فى حضرة رسول الله ﷺ صباحاً ومساءاً لكان فى ذلك كفاية فى علو شأنه ، فإنى لما حججت سنة ثلاث وستين وتسعمائة حضرت مجلس نائبه وتلميذه الشيخ عبد الله اليمنى فى الروضة الشريفة وكان كلما فرغ من مجلس الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وذكر الله يقول : بأعلا صوته الفاتحة للشيخ نور الدين الشونى فيقرؤها الحاضرون ورسول الله يسمع ، وهذه مناقبه ما سمعنا بمثلها لأحد من الأولياء إلى عصرنا هذا . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكسيدى ومولانا الشيخ زكريا الذى ما كان جليسه يضبط عليه ساعة غفلة عن مصالح دينه ودنياه وما كنت أمثله إذا جالسته إلا بالإمام الشافعى لما هو عليه من الخفر والحرمة والهيبة والوقار وما خطر ببالى شئ بين يديه إلا وأخبرنى به.

وكان مجاب الدعوة جاءه شخص قد عمى سنين وقال له : أدع الله تعالى أن يرد على بصرى فدعا له فرد الله عليه بصره ثانى يوم ﷺ .

وكسيدنا ومولانا شيخ الإسلام العامل بعلمه المقبل على شأنه الحافظ للسانه الشيخ برهان الدين بن أبى شريف ﷺ .

وكسيدنا ومولانا شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين القلقشندى .

وكشيخنا العالم الصالح الشيخ كمال الدين الطويل شيخ الإسلام الذى بشره سيدى إبراهيم المتبولى ، وهو دون سن التمييز وقبل أن يقرأ القرآن بأنه يصير شيخ الإسلام .

وكالشيخ العالم والعامل الورع الزاهد الشيخ عبد الحق السنباطى .

وكالشيخ الصالح الذى كان يجتمع بالحضرة عليه السلام كثيراً الشيخ يوسف الكردى .

وكالشيخ الصالح أحمد الغزاوى الذى كان يصلى المغرب كل ليلة بمكة المشرفة مع سيدى إبراهيم المتبولى ، وغيرهم ممن ذكرناهم فى كتاب الطبقات رضى الله عنهم أجميعن .

وقد ذكرت نبذة من كلام جماعة من تلامذة هؤلاء أيضاً كسيدى عمر البجاى المغربى المدفون بحوش عبد الله بن وهب بالقرافة .

وكسيدى الشيخ العباس الحرمتى .

وكالشيخ سليمان الخضيرى .

وكالشيخ الكامل الراسخ سيدى فضل الدين الأحمدى تلميذ الشيخ على الخواص ووارثه فى عدة مقامات .

وقد خدمت بحمد الله تعالى جميع هؤلاء الأشياخ ، وقرأت عليهم كتب الشريعة فقه وتفسير وحديث وتصوف وغير ذلك حتى درجوا كلهم إلى رحمة الله تعالى وهم عنى راضون ، وذلك من أكبر نعم الله تعالى على .

ولما درجوا أظلمت مصر وقراها فإن بعضهم كان كالشمس ، وبعضهم كان كالقمر ، وبعضهم كان كالنجوم يهتدى بهم فى ظلمات الجهل ليلا ونهاراً .

فلما خفت على نسيان الناس أحوالهم وأخلاقهم ولم أعلم أحد من تلامذتهم دون لهم كلاماً ولا أخلاقاً وضعت هذا الكتاب كالمبين لما اندرس من أخلاقهم وخفى من أنوارهم .

فلا تظن يا أخى أنهم كانوا على صورة بعض من برز فى هذا الزمان بالمشيخة بغير حق فيخطئ الطريق ويسئ الظن بالصادقين رضى الله عنهم .

ووالله ما كنت أمثل سيدى محمد بن عنان وسيدى عمر البحاى وسيدى أبا عباس الحرمتى إلا كأن احدهم بشر الحافى.

وما كنت أمثل سيدى على الخواص إلا كأنه معروف الكرخى .

وما كنت أمثل سيدى على الرمصفى إلا كأنه الإمام أبو القاسم الجنيد .

وما كنت أمثل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف إلا كأنه إمام الحرمين .

وما كنت أمثل سيدى على النبتبتى إلا كالفضيل بن عياض .

وما كنت أمثل الشيخ عبد الحق السنباطى إلا كأنه الشيخ أبو إسحاق الشيرازى .

وما كنت أمثل سيدى الشيخ محمد المنير رحمه الله إلا كأنه سهل بن عبد الله التسترى .

وما كنت أمثل أخى أفضل الدين إلا كأنه الشيخ نجم الدين الكبرى ، أو الشيخ محى الدين بن العربى فى تحقيق العلوم .

فطوبى لعبد نظر لأحد من هؤلاء إليه ولو مرة واحدة فى عمره أو نظر هو إلى أحد منهم حيناً من الدهر .

وقد كان سهل بن عبد الله التسترى يقول [1] .

من أولياء الله من إذا مر على قوم من العصاة فسلم عليهم أو سلموا عليه فرد عليهم السلام غفر الله لهم جميعا ذنوبهم وأمنهم من عذابه ، ومنهم من لا تأكل النار من جالسهم ولو فى وقت من الأوقات أو حضر جنازتهم انتهى .

فإياك يا أخى إذا عملت شيخاً فى هذا الزمان أن تظن بنفسك أنك على قدم واحد من هؤلاء الأشياخ الذين أدركناهم فى الصف الأول من القرن العاشر أو يخطر ذلك ببالك .

وإن كان ولابد لك من رؤية نفسك فلا تظن بنفسك ذلك إلا بعد مرورك على أخلاقهم التى ذكرناها عنهم فى هذا الكتاب ورؤيتك نفسك متخلقاً بها .

---

(١) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى : أحد أئمة الصوفية لم يكن له نظير فى وقته فى المعاملات والورع .

وكان صاحب كرامات ، لقى ذا النون المصرى بمكة سنة خروجه إلى الحج .

توفى كما قيل ، سنة ثلاث وثمانين ومائتين وقيل : ثلاث وسبعين ومائتين .

ومن قوله : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء ، طاعة كان أو معصية فهو عيش النفس وكل فعل يفعله بالاقتداء فهو عذاب على النفس .

ولعلك يا أخى تجد نفسك منسلخة من غالبها كما تنسلخ الحية من ثوبها ، وربما تأثرت من واضعها غاية التأثر لكشفها لك ما لبسته نفسك عليك ولإظهاره للناس نقائصك بعد أن كانوا سلموا لك دعوى أنك من الصالحين جهلا بأخلاقهم فإن هذه الأوراق التى رقمناها فى هذا الكتاب كالسيف القاطع لعنق كل مدع الطرق فى هذا الزمان لما فيها من الموازين والمحكمات التى تفلس المدعين للطريق مما لا يكاد أحدهما يجده الآن فى رسالة أحد من أهل العصر .

وها هى كلها بين يديك فى مصر وقراها فليطالع فيها من يشك فى قولى يعرف صدق قولى فإنى والله ناصح للإخوان ما أنا متعنت .

وأود لجميع إخوانى أن يتخلق أحدهم بمثل هذه الأخلاق ليفوز برضى الله تعالى عنهم فى الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى .

واعلم يا أخى أن كل من تخلق بأخلاق هذا الكتاب كان معدوداً من متصوفة القوم وكأنه صحب جميع الأشياخ الذين أخذوها عن سيدى إبراهيم المتبولى عن رسول الله ﷺ وانتفع بصحبتهم .

وقد من الله عز وجل على بالتخلق بها فلم أذكر فى هذا الكتاب إلا ما تخلقت به وربما وجدت ذلك الخلق عزيزاً فأنبه على عزته بنحو قولى : وهذا الخلق لم أجد له فاعلا من أقرانى إلا القليل .

وربما ظن بعض من لا علم عنده بأحوال الفقراء أن ذكرى لذلك أنما هو من باب الافتخار للنفس واحتقاراً للأقران ، معاذ الله أن أقصد ذلك .

وقد نظر بعض علماء العصر فى مسودة هذا الكتاب فقال : هذه الأخلاق لا تكون إلا للأنبياء وأنكر أن أحداً يقدر على التخلق بها فى هذا الزمان حين ظن بنفسه أنه من العلماء العاملين ولم يقدر على التخلق بها فذوقه صحيح وحكمه غير صحيح على أن جميع ما ذكرته فيه إنما هو من أخلاق المريدين سيأتى بسطه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى :

ولم أذكر فيه شيئاً من أخلاق العارفين إلا استشهاداً .

كما أنى لم أذكر فيه شيئاً من أخلاقى إلا ما أذن لى فى إفشائه بين الإخــوان

ليقتدوا بى فيه كما أوضحته فى مقدمة كتاب المنن الكبرى ، فإن كل من دعا إلى خير ولم يكن هو متخلقاً به قبل الناس ربما قالوا بلسان الحال والمقال : كيف تدعونا إلى التخلق بشئ عجزت أنت عن التخلق به مع علمك وصلاحك وقدم هجرتك ؟ فيقل نفع الناس به عادة وإن كان ذلك ليس بشرط الداعى إنما هو كمال فافهم .

وقد ذكرت فى التقرير مراراً أن سبب ذكرى للأخلاق التى تخلقت بها وعدم كتمى لها لما سمعته من جماعة من الإخوان حين أمرتهم بالزهد فى الدنيا والتورع فى المطعم والملبس والمنطق وغير ذلك فقالوا لى : أرنا أحداً تخلق بذلك حتى نقتدى به وها هى معى كلها بين يديك فتأثرت لذلك غاية التأثير وشرعت بعون الله تعالى فى ذكر بعض ما من الله تعالى به على .

وقلت لهم : انظروا فى هذه الأخلاق فكل خلق رأيتمونى متخلقاً به فاتبعونى فيه وما لم أتخلق به فأنا وإياكم فيه على السواء .

فهذا هو سبب ذكرى للأخلاق التى كان الأولى بنا كتمها عادة لولا حرصى على حصول الخير للإخوان فإياك أن تظن بى سوءاً أو تنازعنى فى قصدى فتقع فى الإثم ، لوقوعك فى أعراض الفقراء بغير علم ولا غرض صحيح . .

وأعلم يا أخى أن تخلق المريد بأخلاق العارفين إنما يصح منه بعد انتهاء سيره فى المقامات كما أن تخلق العارفين بأخلاق رسول الله ﷺ لا يكون إلا بعد انتهاء السير كذلك وطول المجاهدة فيوفق الله تعالى المريد فى بداية أمره لرعاية اقواله ﷺ ثم فى وسط سيره لحال الاقتداء بأعماله ﷺ وأحواله فيثمر له ذلك الأخذ فى طريق التوصل إلى مقام النهاية ليقدر على التحلق بنظير أخلاقه ﷺ على وجه الاحتياط .

وفى الحديث : تخلقوا بأخلاق الله – أى بنظيرها فى الاسم فقط – دون التخلق بالكنة .

والحقيقة فإن ذلك لا يصح لأحد من الخلق ولو ارتفعت رتبته .

وقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالــت :

كان خلقه القرآن [١] .

ولم تقل كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى أدبا منها مع الله عز وجل فصح حينئذ تخصيصه بقوله ﷺ فى حقها .

" خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء " [٢]

وكان السهروردى [٣] رحمه الله يقول :

فى قول عائشة كان خلقه القرآن شئ غامض وإنما خفى عن الأخلاق الربانية فاحتشمت مع الحضرة الإلهية أن تقول كان متخلقاً بأخلاق الله عز وجل وعبرت بالمعنى بقولها كان خلقه القرآن من سبحات الجلال وستراً للحال وهذا من شدة وفور علمها وكمال أدبها .

قال : وبين قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [٤]﴾

---

(١) حديث السيدة عائشة رضى الله عنها (كان خلقه القرآن) أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث طويل من طريق قتادة وأخرجه أحمد فى مسنده عن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن .

وأخرجه بن جرير عن سعيد بن هشام وغيرهم .

(٢) حديث : خذوا شطر دينكم : قال ابن حجر : لا أعرف له إسناداً ولا رأيته فى شئ من كتب الحديث إلا فى النهاية لابن الأثير ولم يذكر من خرجه ، وذكر الحافظ ابن كثير أنه سأل عنه الذهبى فلم يعرفه

(٣) هو الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردى رضى الله تعالى عنه ويلقب بضياء الدين ونجيب الدين ونسبه ينتهى إلى أبى بكر الصديق ﷺ يقول الإمام الشعرانى (انعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء بالاحترام وأوقع الله عز وجل له القبول التام فى الصدر المهابة الوافرة فى القلوب .

ومن قوله أول التصوف علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبه ، فالعلم يكشف عن المراد والعمل يعين على الطلب والموهبة تبلغ غاية الأمل .

وأهل التصوف على ثلاث طبقات مريد طالب ومتوسط طائر ومنته واصل فالمريد صاحب وقت والمتوسط صاحب حال والمنتهى صاحب يقين .

(٤) سورة الحجر آية : ٨٧

وبين قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) مناسبة مشعرة بقـول عائشـة : كان خلقه القرآن انتهى .

وكان سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله يقول :

من السر الأكبر أن قلب العارف يصير بدوام الإقبال على الله تعالى ودوام ذكره بالقلب واللسان بمثابة العرش والعرش قلب الكائنات فى عالم الخلق والحكمة وهناك يرتقى إلى ذكر الذات ويصير بحراً مواجاً من نسمات القرب ويجرى فى جداول أخلاق النفس صفاء النعوت والصفات ويتحقق العارف بالتخلق بأخلاق الله انتهى .

وكان الشيخ أبو القاسم الكركانى يقول : إن الأسماء التسعة وتسعين تصير أوصافا للعارف (٢) انتهى .

ونقل ذلك أيضا عن الشيخ الكبير أحمد بن الرفاعى(٣) ولفظه :

إذا بلغ العبد الكمال صار صفة من صفات الحق جل وعلا انتهى .

ولعل المراد من قول هذين الشيخين رضى الله عنهما : أن العارف يأخذ من

---

(١) سورة القلم آية : ٤

(٢) يقصد التخلق بأخلاق الله تعالى .

(٣) هو الشيخ أحمد بن أبى الحسن الرفاعى رضى الله عنه منسوب إلى بنى رفاعة قبيلة من العرب وسكن أم عبيدة بارض البطائح فى العراق إلى أن توفى بها وكان على قدم كبير فى علوم التصوف وشرح أحوال الصوفية ، وتخرج بصحبته جماعة كثيرة وتتلمذ له خلائق لا يحصون وهو أحد من قهر أحواله وملك أسراره وكان له كلام عال على لسان أهل الحقائق وقد سئل عن وصف الرجل المتمكن فقال هو الذى لو نصب له سنان على أعلى شاهق جبل فى الأرض وهبت الرياح الثمان ما غيرته .

وكان يقول : من لم ينتفع بأفعالى لم ينتفع بأقوالى .

ويقول : طريقنا مبنية على ثلاثة أشياء لا نسأل ولا نرد ولا ندخر .

وكان إذا رأى على فقير جبة صوف يقول له : يا ولدى أنظر بزى من تزييت وإلى من قد انتسبت قد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأتقياء هذا زى العارفين فاسلك فيه مسالك المقربين وإلا فاتركه .

كل اسم إلهى وصفا يناسب ضعف بشريته وقصورها مثل أن تأخذ من اسم الله تعالى الرحيم معنى من الرحمة على قدر قصور البشر . وكل إشارات المشايخ فى الأسماء والصفات التى هى أعز علومهم على هذا المعنى والتفسير وكل من توهم بذلك شيئاً من الحلول تزندق وألحد (١) فتأمل ذلك فإنه نفيس .

واعلم يا أخى أننى حيث قلت : ومن أخلاقهم كذا وكذا فمرادى بمرجع الضمـــير إلى المريدين الصادقين كهؤلاء المشايخ الذين قدمنا ذكرهم ممن كان مريدا لسيدى الشيخ إبراهيم المتبولى ﷺ دون مطلق المريدين من تلامذه الأشياخ الذين هم من سلسلة الإمام أبى القاسم الجنيد (٢) فإن أخلاق هؤلاء تنزل

---

(١) يقصد بذلك نفى تهمة الحلول عن صوفية وأن مقصود كلام بعضهم عندما يقول (أنا الحق) أو غيرها من العبارات التى تشعر بالحلول والإتحاد إنما هو تخلق بخلق الله سبحانه وتعالى ومن تصور غير هذا فهو اتهام باطل.

(٢) هو الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد : سيد طائفة الصوفية وإمامهم .

أصله من نهاوند ومولده ومنشأة بالعراق .

وكان فقيها على مذهب (أبى ثور) وكان يفى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، صحب السرى السقطى والحارث المحاسبى ومحمد بن على القصاب .

سئل مرة عن العارف فقال : من نطق عن سرك وأنت ساكت ومن أقواله : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

ويقول : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال الجنيد : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ .

وقيل للجنيد : من أين استفدت هذا العلم ؟

فقال : من جلوسى بين يدى الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة .

وأومأ إلى درجة فى داره .

وكان الجنيد يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ، ويصلى أربعمائة ركعة ثم يعود إلى بيته.

وقال أبو بكر العطوى : كنت عند الجنيد حين مات فرأيته ختم القرآن ... ثم ابتدأ من البقرة... وقرأ سبعين آية . ثم مات رحمه الله .

توفى سنة سبع وتسعين ومائتين .

عن درجة من بينه وبين رسول الله ﷺ رجـل واحد فقـط وهـو سيـدى إبراهيم ﷺ [١] .

وربما كان تلامذة هؤلاء الأشياخ لا يعرفون شيئاً من أخلاق هذا الكتاب إما جهلا به لكونه من غير طريقهم أو لكون سببه لم يكن فى عصرهم وكل مؤلف لا يذكر فى مؤلفه إلا ما يحتاج إليه أهل عصره إذ الأخلاق فى كل عصر بحسب حدوث الوقائع الواقعة من أهله فترى رسالة القشيرى [٢] مثلا لا يغنى عنها كتاب القوت لأبى طالب المكـى [٣] ، ولا الرعايـة للحارث المحاسبـى [٤] ، ولا الحلية لأبى نعيـم [٥] وترى كتاب الأحياء [٦] لا يغنى عنه كتاب عوارف المعارف للسهرودى [٧] ، كما لا تغنى هذه الكتب كلها عن كتابنا هذا لأنه أسلوب غريب كما يعرفه من نظر فيه وربما أكرر فيه الخلق الواحد مرارا بقصد الاعتناء به لا ذهولا ولا نسياناً لكن بعبارة أخرى وربما استشهد به فى أبواب متعددة تتميما للفائدة كما فعل الإمام البخارى وغيره وقد رتبته على عشرة أبواب وخاتمة

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى أن سيدى إبراهيم المتبولى تلقى الطريق عن سيدى رسول الله ﷺ مباشرة أما بقية المشايخ كالإمام أبى القاسم الجنيد فإن طريقهم كان نتيجة سلسلة من الرجال حتى يصلوا إلى سيدنا رسول الله ﷺ فعلى ذلك فإن مريدى الشيخ إبراهيم المتبولى هم أرفع درجة من مريدى بقية المشايخ لأنهم ليس بينهم وبين سيدنا رسول الله ﷺ إلا شخص واحد سيدى إبراهيم المتبولى .

(٢) رسالة القشيرى هى الرسالة القشيرية للإمام (أبى القاسم عبد الكريم القشيرى) ولقد ألف الإمام القشيرى هذا الكتاب تصحيحا وتوضيحاً للفكرة الصوفية فى سلامتها ونقائها ودافع عن كثير من القضايا التى يثيرها الناس حول التصوف بالتأريخ لرجال التصوف وشرح أحوالهم.

(٣) كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى وهو كتاب فى بيان حال الصوفية وأخلاقهم .

(٤) الرعاية لحقوق الله للحارث بن أسد المحاسبى وهو كتاب كسابقه .

(٥) كتاب حلية الأولياء لأبى نعيم الاصفهانى وهو تأريخ لرجال التصوف وبيان أحوالهم وأخلاقهم .

(٦) كتاب إحياء علوم الدين لإمام أبى حامد الغزالى .

(٧) وهو كتاب كسابقيه فى بيان أحوال الصوفيه ومقاماتهم .

وضمنت كل باب منه جملة من الأخلاق فى معان مختلفة فإنى ألفته بحسب الوقائع والحوادث ولم يتفق لى أن أختم كل نوع إلى شكله كما يفعل المؤلفون فى الفقه والأصول والنحو وغيرها وخصصت الخاتمة بذكر جملة صالحة مما قاساه أهل الله تعالى من تحمل البلايا والمحن والأذى من الخلق تشجيعاً للإخوان على التحمل وعدم مقابلة أحدهم من آذاه بسوء طول عمرهم فإن كل من صدق فى طلب فلابد له من أن ينجذب على الآذى له جماعات كثيرة من الأشقياء الأنس والجن لينفروه عن طريق أهل الله تعالى .

وأما الكذب فى طلبه فقد كفى إبليس المؤنة لاحباط عمله بالرياء والنفاق فلم يحوجه لأن يسوس لأحد بالأذى له لأنه لم يدخل الطريق ولا شمها فأكرم به من كتاب جاء على حين فترة من موت الأشياخ الذين أدركناهم فى النصف الأول من القرن العاشر مجددا لما اندرس من معالم طريقهم كما هى سنة الله تعالى فى عباده فى كل عصر .

فتجدد كل عالم ما اندرس من علوم العلماء قبله إما بإيضاح معانيها وإما بأن يرحج خلاف ما رجحوه بأدلة أخرى لم يطلع عليها من قبله فلا يقال : أى فائدة لتأليف فلان الكتاب الفلانى وقد سبقه الناس إلى ذكر ما فيه لأنا نقول لا يغنى مؤلف عن مؤلف لأن كل متأخر لابد أن يكون فيه تعقيب لكلام المتقدم بذكر قيد أو شرط كما هو مقرر بين العلماء [١] .

وأسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يحفظ هذا الكتاب من كل حاسد وعدو يدس فيه ما ليس من كلامى مما يخالف ظاهر الشريعة لينفر الناس عن النظر فيه كما فعلوا ذلك فى كتاب العهود [٢] وثارت فتنة فى جامع الأزهر وغيره وما خمدت

---

(١) فيما سبق توضيح من الإمام الشعرانى لمنهجه فى تأليف الكتاب .

(٢) هو كتاب البحر المورود فى المواثيق والعهود ، ألفه الإمام الشعرانى فى بيان المواثيق والعهود التى أقرها مشايخ الصوفية على مريدهم وألزموهم باتباعها ، وقد أثار ذلك الكتاب ثائرة العلماء فى عصره نتيجة الدس الذى ورد على الكتاب وكان من ضمن الدس أنه جعل نفسه أحد الأئمة المجتهدين وقد دافع الإمام الشعرانى عن نفسه دفاعاً مريراً ضد الذين=

إلا بإرسال نسختى السالمة من الدس التى عليها خطوط العلماء كما بينته فى خطبة العهود فالله تعالى يغفر لهؤلاء الحسدة ما جنوه آمين اللهم آمين والحمد لله رب العالمين . فتأمل يا أخى فى أخلاق هذا الكتاب بين الاعتبار والإنصاف تعرف الصادق من الفقراء من غيره .

وكذلك أقول فى غالب الأخلاق فاعرض يا أخى ما ذكرناه لك فى هذا الخلق على مريدى عصرك تعرف حالهم وحالك وذلك لأن الصادقين اختفوا من شدة فساد الزمان وما ظهر إلا بعض المدعين لرسوم أهل الطريق من أمثالنا . بل سمعت سيدى الشيخ أبا السعود الجارحى [1] ﷺ مع شدة ما كان عليه من المجاهدة والإقبال على الله تعالى ليلاً ونهاراً يقول : من أراد أن ينظر إلى مدع كذاب على الله تعالى فلينظر إلىّ . وكان يقول : والله إن لحيتى هذه لم تبلغ مقام مريد انتهى .

فإذا كان هذا قول هذا الشيخ فكيف يكون حال أمثالنا ، والله إن أمثالنا لمن المغرورين .

وسيأتى فى الكتاب مواضع أنه لابد أن يتقدم الدجال الأكبر جماعة من الدجاجلة ليمهدوا له الطريق فيظهر أحدهم الباطل فى صورة حق إذ الدجل فى اللغة هو تمويه الباطل بصورة الحق فطالب يا أخى نفسك وإخوانك بالتخلق بهذه الأخلاق ترى قدمك فى مقام الإرادة وبعدك عنه ولو تأمل أحدنا حاله بعين التحقيق

=اتهموه بالكفر والزندقة فى بعض الأحيان ، وقد أثرت هذه الحادثة فى نفس الإمام الشعرانى ويبدو ذلك من ذكره لها بألم فى بعض كتبه

(١) هو الشيخ أبو السعود الجارحى : أحد تلامذة الشيخ شهاب الدين المرحومى ﷺ وكان للشيخ أبو السعود كثير من المريدين والأتباع وكان الملوك والوزراء يحضرون بين يديه خاضعين وعملوا بأيديهم فى عمارة زاويته فى حمل الطوب والطين .

ومن قوله :لا تجعل لك قط مريدا ولا مؤلفا ولا زاوية وفر من الناس فإن هذا زمان الفرار . وقال يوما لفقيه من الجامع الأزهر متى تصير هاء الفقيه راء . توفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة .

لوجد نفسه لم تشم من طريق القوم رائحة إنما هى دعاوى وجلاس فقط والقلب خراج .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول : لا تنظروا إلى جلاسّ فقراء هذا الزمان فانظروا إلى أفعاله وأقواله وأحواله وخذوا الطريق عن المتخلق بأخلاقها لا عن المتجلسين بجلاس أهلها وإياكم أن تقفوا مع إذن أشياخ هذا الزمان لتلامذتهم أن يلقنوا الذكر فإن تلقين الذكر ليس بإذن فى إرشاد المريدين وإنما هو رواية سند . وسمعته يقول : جاء رجل إلى سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ يطلب الطريق إلى معرفة الله تعالى فقال له : تريد مشيخة سوقية ولا مشيخة بيتية؟ فقال : يا سيدى بينوا ذلك لنا حتى نعرف المراد من ذلك فقال المشيخة السوقية أن أجلسك بجلاس الفقراء الظاهر من لباس الصوف وإرخاء العذبة وآذن لك بالجلوس على السجادة فتصير تخبط عندى وتصطاد الدنيا بذلك وكل من نازعك فى مريد حوله إحسان وبرّ قامت عليه القيامة منك ومن زبانيتك ومن كان هذا حاله فهو من إخوان الشياطين وهو حال أكثر المدعين للطريق فى هذا الزمان.

وأما المشيخة البيتية فأن تجلس عندى على قدم الاتباع للسنة المحمدية تخلقاً وتحققاً فلا تدع مأموراً إلا وفعلته ولا منهياً إلا واجتنبته ولا معروفاً إلا عملته ثم ترى نفسك بعد ذلك كله أنك قد استحقيت الخسف بك والمسخ بصورتك وأنك لو سجدت على الجمر لله تعالى من افتتاح الوجود إلى انتهائيه لا تؤدى شكر ذرة واحدة مما تفضل الله تعالى به عليك من الحلم وعدم معاجلتك بالعقوبة ثم تعكف بقلبك على حضرة الله عز وجل فلا تلتفت لغيره من نعيم الدارين حتى تلقاه فهذه هى المشيخة البيتية فقال الرجل : لا طاقة لى بهذا الطريق فقال له سيدى إبراهيم : فاذهب إلى عمل الحرف والصنايع ولا تزاحم الصادقين بالدعاوى الكاذبة فقال : سمعاً وطاعة انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : والله لو أن أحدنا شم رائحة مقام فسقة الزمان الماضى لا دعى القطبية الآن وسمعته مراراً يقول : قد صار

الموت اليوم تحفة للمؤمن فقد ذهب الصادقون وبقى الكاذبون على الله حتى أننى عددت من ادعى القطبية الكبرى فوجدتهم عشرة أنفس فى مصر .

وسكت على ذلك أتباعهم لجهل أحدهم بمقام القطبية فإن له ألف علامة كل علامة تحتها ألف علامة وله ألف عالم كل عالم له ألف عرش وألف كرسى وألف سبع سموات وألف سبع أرضين مضروب ذلك فى ألف ألف ألف / ألف ألف ألف ألف ألف ألف الف عشر مرات لا يعطى أحد للقطبية حتى يعرف جميع عوالم هذه العروش والكراسى والسموات والأرضين بأسمائهم وأعمارهم وأعمالهم انتهى .

وسمعته يقول : جاء رجل إلى سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ فقال : يا سيدى لقد أعطانى الله تعالى الاطلاع على عدد من كان فى ظهر آدم من الذرية لا يزيدون واحداً ولا ينقصون عنه وأعطانى علم عدد ما يخرج من النبات والأزهار فلا يخرج نبات ولا زهر ولا ورق إلا ويعلمنى الله به ، فقال : وعزة ربى قد أعطانى الله ذلك وأنا ابن أربع سنين فلم التفت إلى ذلك لأننا لم نخلق ذلك وإنما خلقنا للعمل بالكتاب والسنة واقتفاء أثر الأئمة فقال له إنسان إن هذه الأمور من علم الله لم يبلغنا أنه أعطى علمها لسيد المرسلين مع جلالته فقال : ألا تقرأ قوله تعالى : ﴿ ولا يُحيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ ﴾ وهذا مما شاء قال: وقد نزلت وأنا صغير إلى تخوم التخوم بعد أن جاوزت سبعمائة ألف ألف أرض وصعدت إلى العلو حتى جاوزت ألف ألف عرش دون العرش العظيم واطّلعت على مدائن لا تحصى كل مدينة أوسع من هذه الدنيا انتهى .

ويؤيد ذلك قول سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله : إن الله تعالى خلق بحراً من رمل تجرى بين السماء والأرض منذ خلق الله الدنيا إلى يوم القيامة لله تعالى بعدد كل رملة منه مدينة قدر دنياكم هذه وفى كل مدينة جميع ما فى الدنيا من العوالم و الأحكام : قال : ولله تعالى فى كل مدينة أنبياء وأولياء ومؤمنون وكفار وأطال فى ذلك . ثم قال : وهذه الأمور لا يثبتها ويؤمن بها إلا من ثبته الله تعالى بالقول الثابت .

وكـــان يقـــول : لا يكـــون الفقيـــر عندنا رجلا حتى يعرف ثمانين ألف أمة

بأسمائهم وأنسابهم وأعمالهم الإنس والجن عالم واحد منهم انتهى .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى صاحب أخلاق هذا الكتاب يقول : لا يكمل الفقير عندنا فى الصفا حتى يصير يعرف أعمال جميع العباد من حسن وقبح فلا تخفى عليه ما يفعلونه فى قعور بيوتهم ، فقيل له : ومن أين تعرف ذلك وما ثم وحى ؟ فقال : يعرف الفقير ذلك من رؤية أنف أحدهم فإذا رأى أنفه عرف جميع ما فعله طول عمره حتى كأنه كان حاضراً معه .

وكان يقول : إذا صفى قلب الفقير صار مهبط الوحى (١) ومحل الأنوار وإذا تكدر كان محل الظلمة ومهبط الشياطين .

وكان يقول : قد أعطانى الله تعالى مـــن الأخـــلاق المحمديـــة على لســـان محمد ﷺ ما لم يعط لأحد من أولياء عصرى .

وكان يقول : آخى رسول الله ﷺ بينى وبين سيد أحمد البدوى (٢) وقال : يا إبراهيم لو علمت أحداً أكبر قوة من أحمد البدوى فى الأولياء لآخيت بينك وبينه .

وكان يقول :أعطانى الله تعالى مقاماً لم يعط لأحد مـــن الأوليـــاء (٣)= وهـــو

---

(١) محلا للتجليات الإلهية

(٢) هو أبو فراج السيد أحمد البدوى : ولد ﷺ بمدينة فاس بالمغرب لأن أجداده انتقلوا أيام الحجاج إليها حين كثر القتل فى الشرفاء فلما بلغ سبع سنين سمع أبوه قائلاً يقول له فى منامه: يا على انتقل من هذه البلاد إلى مكة المشرفة فإن لنا فى ذلك شأنا وكان ذلك سنة ثلاث وستمائة : فنزلوا بمكة وتلقاهم أشرفها بالترحيب ولقب فيها السيد أحمد البدوى بالبدوى لكثرة ما كن يتلثم وقرأ القرآن وحفظه ومن شجاعته لقب فى مكة أيضاً بالعطاب ثم تغيرت أحواله واعتزل عن الناس ولازم الصمت، ثم توجه إلى مدينة طنطا وفى الطريق إليها مر بالعراق لزيارة الأولياء هناك وفى طنطا ربى كثيرا من المريدين وكانت مدرسته الصوفية هناك ذائعة الصيت فى جميع الأقطار ولا زالت طريقته ومريده منتشرون فى جميع أنحاء العالم الإسلامى وكان من كبار العلماء فى التصوف والفقه والحديث وكان يدرس لتلامذته هذه العلوم ويحضهم على الجهاد فى سبيل الله حيث كانت الحملات الصليبية فى ذلك العصر مستمرة .

سماطى الذى تمد كل سنة على فلا يتخلف عنه أحد من الأولياء الأحياء والأموات فيحضرون مع رسول الله ﷺ فيأكلون فيه طعاماً روحانياً جبرا لخاطرى ونقباء هذا السماط الخضر (١) وإلياس (٢) وعمار بن ياسر (٣) والمقداد ربيب الأسود وأبو هريرة انتهى .

وقد ذكرت ذلك لسيدى الشيخ عبد القادر الدشطوطى فقال :

صدق سيدى إبراهيم وقد حضرت هذا السماط مراراً أنا والشيخ على الخواص وجماعة من أصحاب سيدى إبراهيم رضي الله عنه وكان سيدى إبراهيم يقول : كنت أرى النبى ﷺ وأنا صغير فى المنام فكانت أمى (٤) تقول لى : يا إبراهيم كل الناس يرونه فى المنام ولا تكون رجلا إلا إن صرت تراه فى اليقظة ويحدثك وتشاوره على أمورك كما يشاور المريد شيخه (٥) قال : وما وصلت هذا المقام حتى قطعت مائتى ألف مقام وسبعة وأربعون ألف مقام وتسع مائة وتسعين مقاماً فقيل له وكذلك الحكم فى غيركم لا يصل إلى مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ يقظة إلا بعد مجاوزة جميع هذه المقامات ؟

فقال : نعم لا يصح لأحد مقام الأخذ عنه ﷺ إلا بعد مجاوزتها .

وكان يقول رضي الله عنه : أعطانى الله تعالى معرفة ذنوب كل من توضأ من مطهرة من زوية (٦) غسالة أعضائهم فأعرف غسالة الكبائر والصغائر والمكروهات

= (٣) يقصد خصوصية معينة .

(١) صاحب القصة المعروفة فى سورة الكهف .

(٢) من الأنبياء الوارد ذكرهم فى القرآن .

(٣) من الصحابة .

(٤) يبدو أن أم سيدى إبراهيم المتبولى كانت من النساء الصالحات لمعرفتها هذه بمقامات الأولياء .

(٥) تريد منه أن يكون شيخه سيدنا رسول الله ﷺ مباشرة دون واسطة من أحد فيتعامل معه كما يتعامل المريد من شيخه وهذا من أعظم مقامات الأولياء حيث أن التعامل مباشرة سيدنا رسول الله ﷺ يقربهم من مرتبة الصديقية وهى من أعظم المراتب فى نظرهم .

(٦) يقصد من جانب غسالة أعضائهم .

وخلاف الأولى فأفرق بينهما . وكان يقول : وعزة ربى هؤلاء الذين يتكلمون فى طريق المحبة كعمر ابن الفارض (١) لم يعطوا من سر الله عز وجل ما يعطى شارب ناموسة (٢) . وكان يقول وعزة ربى كل فقير لم يمد صاحب الوليمة التى حضرها بالبركة الخفية طول عامه ويتحمل عنه جميع البلايا النازلة عليه فى ذلك العام فليس له أن يمد يده إلى لقمة (٣) . وكان يقول : إياكم أن تروا نفوسكم كبرتم فتفطموا عن الرضاع من ثدى الإمداد الإلهية (٤) وكان ﷺ يجوع حتى تعصب على بطنه الحجر ويطعم طعامه للمحتاجين إليه . وكان إذا شكى أحد إليه ضرب العزوبة يعطيه خيطا يشده فى وسطه فلا تنشر له جارحة حتى يتزوج (٥) وإن طلب أن يكون ذلك دائما يمسح بيده على ظهره فلا يشتاق إلى نكاح حتى يموت.

وكـــان إذا شكـــى أحـــد إليه فقراً أو ديناً يقول له اذهب إلى الخص الذى فى

---

(١) كان من أكابر أولياء مصر وضريحه مشهد بجبل المقطم وكان من أبناء الوزراء كان يعتزل الناس بوادى المستضفين بالمقطم ويقيم فيه الشهور . ولا يرجع إلا إكراما لوالده . ومع ذلك كان لا يجد الفتح الذى يتمناه فقال له أحد الأولياء أنه لن يفتح عليك إلا بمكة فتوجه إليها وفتح عليه هناك . ثم عاد إلى مصر وأقام فيها . له اشعار مشهورة اشهرها تائية بن الفارض التى قيل أن الفتوحات المكية شرح لها بناء على الخلاف بين المؤرخين: هل قابل سيدى عمر بن الفارض الشيخ الأكبر محى الدين ابن عربى أم لا .

(٢) يقصد تعظيم سر الله وبيان أفضليته فى العلم عن سيدى عمر بن الفارض فإن مقدار شارب ناموسة من سر الله من أعظم الدرجات عند الأولياء فهو مدح فى نفس الوقت لسيدى عمر بن الفارض .

(٣) هذا يقارب قول سيدى أبى الحسن الشاذلى عندما قيل له أن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية : بقوله : كان يقبلها ليجازى بأكبر منها فهذا القبول يعد إكراماً للمهدى أكبر من قيمة هديته بمراحل كبيرة فلا يكون قبول الهدايا معترفا به عند الصوفية إلا بهذه الشروط وكذلك حضور الوليمة .

(٤) فإن نفس المريد قد ينتابها الغرور إذا ظهرت عليها الفتوح فى أول الطريق وبالذات الكرامات .

(٥) أى لا يشعر برغبة جنسية حتى يتزوج .

الغيط فارفع الحصا وخذ حاجتك فيرفعها فيجد قناة من ذهب تجرى من علو وتنزل فى سفل فيأخذ منها حاجته ومناقبه كثيرة ﷺ .

مقدمـــة الكتـــاب

مقدمة فى بيان عدة أمور يتعين على مطالع الكتاب الوقوف عليها قبل الخوض فيه بغير فهم ليعرف اطلاع القوم

إعلم يا أخى أن مرادنا بالأخلاق المحمدية حيث أطلقناها فى هذا الكتاب وغيره ما يعم الصريح والمستنبط من نص أو قياس كما أطلق العلماء لفظ الشريعة على ما يشمل الصريح والمستنبط وكما أطلقوا مذهب المجتهد على ما صرح به وعلى ما فهمه المقلدون له من كلامه أى فكما يسمى ما ذكرناه شريعة ومذهباً كذلك يسمى ما استنبط العارفون من أخلاقه ﷺ بأخلاق المحمدية فافهم والله أعلم .

ولنبين لك يا أخى ما اشتملت عليه هذه المقدمة بأوضح بيان فنقول :

بيان كون طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة

اعلم أن القوم كلهم قد أجمعوا على أن من خرج عن السنة المحمدية قيد شبر فى ملبسه أو مأكله أو منامه أو قوله أو فعله فليس هو من القوم ولو تزيا بزيهم وهم برءاء منه فى الدنيا والآخرة كما تبرأ المجتهدون كذلك من كل قول يخالف ظاهر الكتاب والسنة وقالوا : إذا خالف قومنا ما صح عن رسول الله ﷺ فارموا بقولنا وأعملوا بقول رسول الله ﷺ [1] وكان الإمام أبو حنيفة [2] ﷺ يقول كثيراً لا ينبغى لمن لم يعلم دليلى أن يفتى بكلامى ، وتأمل يا أخى إذا كان علمـــاء

---

(١) وكذلك كان قول الأئمة الأربعة ومن تابعهم من الأئمة المجتهدون .

(٢) هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت : ﷺ ولد سنة ثمانين من الهجرة وتوفى ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين سنة وكان فى زمنه أربعة من الصحابة هم : أنس بن مالك– عبد الله بن أبى أوفى – سهل بن سعد – أبو الطفيل وهو آخرهم موتا .

وأكره ﷺ على تولى القضاء وضرب على رأسه ضرباً شديداً فلم يقبل ، وكان ﷺ حسن الثياب طيب الرائحة كثير الكرم حسن المواساة لإخوانه ، وكان ﷺ يقول : ما صليت قط إلا ودعوت لشيخى حماد ولكل من تعلمت منه علما أو علمته ، وكان الشافعى ﷺ يقول :=

الظاهر يخطئون بعضهم بعضاً مع إنهم فى مذهب واحد وشريعة واحدة ظاهرة للافهام فكيف لا يخطئون كلام من جاوز الفهم إلى الأمور الكشفية ومعلوم أن دائرة الكشف تبتدى من بعد دائرة الفكر والفهم فلا سبيل لصاحب الفكر أن يذوق من طريق الكشف إلا ما وافق صريح السنة ، مع أن العلوم الكشفية لا تأتى قط إلا موافقة للشريعة لأنها إخبار بالأمور على ما هى عليه فى نفسها كما هو الأمر فى الشريعة المطهرة ومن شهد خطأ فى الشريعة فذلك الخطأ راجع قطعاً إلى فهمه هو لا إلى الشريعة ويؤيد ذلك قول من قال : إن حكم الحاكم ينفذ ظاهراً وباطناً أى فى الدنيا والآخرة لكن ينبغى تقييده بما إذا حكم بصريح النص أما إذا حكم بما فهمه فقد يوافق الأمر الأخروى وقد يخالفه وقد تتبعت بحمد الله تعالى أدلة أقوال المجتهدين فرأيت القول لا يخلو من أن يكون مسنداً إلى آية أو حديث أو مفهوم لهما أو أثر أو قياس صحيح على أصل صحيح .

وقد كان أبو القاسم الجنيد ﷺ يقول : علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة وكل من لم يفهم القرآن والحديث لا يقتدى به فى طريقنا ولو كان على عبادة الثقلين قلت وإنما لم يذكر الجنيد رحمه الله القياس مع الكتاب والسنة لأنه لا يثبت وتعم دلالته إلا بالكتاب والسنة وكذلك الإجماع فى نفس الأمر والله أعلم وكان سيدى إبراهيم الدسوقى [1] ﷺ عنه يقول : من لم يحبس نفسه فى قمقم الشريعة ويختم عليها بخاتم الحقيقة فليس هو من أتباعنا ولو مشى فى ركابنا .

=الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه ، وكان لا ينام الليل وسموه الوتد لكثرة صلاته ، وصلى الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة . وكان عامة الليل يقرأ القرآن كله فى كل ركعة وكان يسمع بكاؤه حتى يرحمه جيرانه وختم القرآن فى الموضع الذى مات فيه سبعة آلاف مرة .

(١) هو العارف بالله تعالى : سيدى إبراهيم الدسوقى القرشى ﷺ من اجلاء مشايخ الصوفية . يقول عنه الإمام الشعرانى : هو من أجلاء مشايخ الفقراء أصحاب الحرف وكان من صدرو المقربين وكان صاحب كرامات ظاهرة ومقامات فاخرة ومآثر ظاهرة وبصائر باهرة وأحوال خارقة وأنفاس صادقة وهمم عالية ورتب سنية مناظره بهية وإشارات نورانية ونفحات روحانية وأسرار ملكوتية ومحاضرات قدسية ، له المعراج الأعلى فى المعارف=

وكان يقول أيضاً : أول من يتبرأ من الفقراء المبتدعة من السهروردية والقادرية والرفاعية وغيرهم مشايخهم يوم القيامة .

وسمعت سيدى على المرصفى ﷺ يقول : سبب ظن بعض الناس أن طريق القوم خارجة عن الشريعة بعدهم عن مخالطة أهلها ولو أنه خالطهم لوجدهم متقيدين بالكتاب والسنة .

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام [1] قبل اجتماعه بالقوم يقول : وهل ثم طريق يتقرب بها إلى الله تعالى غير ما بأيدينا من العلم ؟ فلما اجتمع بالشيخ أبى

= والمنهاج الأسنى فى الحقائق والطور الأرفع فى المعالى والقدم الراسخة فى أحوال النهايات واليد البيضاء فى علوم الموارد والباع الطويل فى التصريف الناقد ، والكشف الخارق عن حقائق الآيات والفتح المضاعف فى معنى المشاهدات ، وهو أحد من أظهره الله عز وجل إلى الوجود وابرزه رحمة للخلق وأوقع له القبول التام عند الخاص والعام وصرفه فى العالم ومكنه فى أحكام الولاية وقلب له الأعيان وخرق له العادات وأنطقه بالمغيبات وأظهر على يديه العجائب وصومه فى المهد ﷺ وله كلام كثير عال على لسان أهل الطريق .

ومن كلامه ﷺ : من لك يكن مجتهدا فى بدايته لا يفلح له مريد ، فأنه إن نام نام مريده وإن قام قام مريده وإن أمر الناس بالعبادة وهو بطال أو توبهم عن الباطل وهو يفعله ضحكوا عليه ولم يسمعوا منه وكان ينشد كثيراً إذا قيل له انصحنا وأرشدنا بمثالين من قول بعضهم :

ولا تعدلين الحراير حتى تكونى مثلهن يقبح على معلولة تصف دواء الناس .

وكان ﷺ يقول يجب على المريد أن لا يتكلم قط إلا بدستور شيخه إن كان جسمه حاضرا وإن كان غائبا يستأذنه بالقلب وذلك حتى يترقى إلى الوصول إلى هذا المقام فى حق ربه عز وجل ، فإن الشيخ إذا رأى المريد يراعيه هذه المراعاة رباه بلطيف الشراب واسقاه من ماء التربية ولاحظه بالسر المعنوى الإلهى فيا سعادة من أحسن الأدب مع مربيه ويا شقاوة من أساء .

(١) هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام كان من أجلاء شيوخ مصر والشام وكان مشهوراً بالفتيا وقول الحق حتى لقب بسلطان العلماء .

هاجر من الشام إلى مصر فى زمن المماليك وعندما رأى ظلمهم وجورهم بالرعية ، لم يتوانى عن الإفتاء ببيعهم لأنهم لم يعتقوا .

شارك مع الإمام أبى الحسن الشاذلى فى معركة المنصورة . =

الحسن الشاذلى [1] وقطع السلسلة الحديدية بالكراس أى صار يقول : من أدل دليل على أن القوم قعدوا على أساس الشريعة وقعد غيرهم على الرسوم ما يقع على يدهم من الكرامات والخوارق ولا يقع شئ من ذلك على يد أحد من الفقهاء إلا إن سلك طريقهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : كيف ينسب القوم إلى مخالفة السنة وهم مجمعون على أنه لا يجوز لأحد منهم الإقدام على فعل أو قول حتى يعلم مستنده من الكتاب والسنة ؟ فإن كان مثل هؤلاء لا يصح تسميتهم مبتدعة، فما بقى على وجه الأرض من المسلمين الآن سنى .

وكان سيدى على المرصفى يقول : من تأمل بعين الإنصاف وجد ما ينكـــره

=وهو صاحب القولة المشهورة عندما سمع حديث ابى الحسن الشاذلى (اسمعوا هذا الحديث الغريب العهد من الله).

(١) هو على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلى بالشين والذال المعجمتين هاجر من المغرب إلى مصر وأقام بالأسكندرية .

فى مبدأ حياته صاحب الشيخ نجم الدين الأصفهانى وسيدى عبد السلام بن شيش .

يقول عنه سيدى بن عطاء الله السكندرى فى كتابه الرائع لطائف المنن :

أنه قطب الزمان والحامل فى وقته لواء أهل العيان حجة الصوفية علم المهتدين زين العارفين أستاذ الأكابر ، زين الأسرار ، ومعدن الأنوار ، القطب الغوث الجامع أبو الحسن على الشاذلى رضى الله عنه . لم يدخل طريق القوم كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة ، وشهد له الشيخ أبو عبد الله بن النعمان بالقطبانية : جاء ﷺ فى هذا الطريق بالعجب العجاب وكان الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ﷺ يقول ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبى الحسن الشاذلى ﷺ ، ومن كلامه ﷺ عليك بالإستغفار وإن لم يكن هناك ذنب ، واعتبر بإستغفار النبى ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأتى ، هذا فى معصوم لم يقترف ذنبا قط وتقدس عن ذلك فماظنك بمن لا يخلو عن العيب والذنب فى وقت من الأوقات . وكان ﷺ يقول إذا عارض كشفك الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ودع الكشف وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها لى فى جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغى العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة .

بعض المجادلين على الصوفية جهل وجحد وعناد وحسد فإن حقيقة الصوفى أنه عالم عمل بعلم على وجه الإخلاص لا غير .

ويؤيده ما ورد عن السيد عيسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول : من عمل بما علم فهو من أولياء الله تعالى .

وكذلك يؤيده قول الإمام الشافعى (١) رحمه الله : إن لم تكن العلماء العاملون أولياء الله تعالى فليس لله ولى (٢) أنتهى .

فكذب والله وافترى من قال إن طريق القوم لم يأت بها كتاب ولا سنة وذلك أكبر علامة (٣) على جهل هذا القائل بالحقيقة والشريعة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ﷺ :

ابن عم رسول الله ﷺ يلتقى معه فى عبد مناف ، ولد ﷺ فى غزة بالشام ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين وعاش أربعا وخمسين سنة وأقام بمصر أربع سنين ونيفا ثم توفى بمصر ليلة الجمعة سنة أربع ومائتين .

نشأ ﷺ فى ضيق حال يجالس فى صباه العلماء ويكتب ما يستفيده فى العظام ونحوها لعجزه عن شراء الورق ، تفقه فى مكة على مسلم بن خالد الزنجى ، وفى المدينة لازم الإمام مالك بن أنس وقرأ عليه الموطأ وكان سنة عندما أتى الإمام مالك ثلاث عشرة سنة ثم رحل إلى اليمن واشتهر بها ، ثم رحل إلى العراق وناظر محمد بن الحسن وغيره ونشر علم الحديث ونصر السنة واستخرج الأحكام منها ورجع كثير من الناس إلى مذهبه ثم جاء إلى مصر فى آخر سنة تسع وتسعين ومائة ، وألف مذهبه الثانى .

قال الربيع بن سليمان : رأيت على باب دار الإمام الشافعى ﷺ سبعمائة راحلة تطلب سماع كتبه .

وكان الإمام الشافعى يقول : إذا صح الحديث فهو مذهبى .

وكان ﷺ يقول : وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألا ينسب إلى منه حرف .

(٢) لأن الولاية تكون نتيجة العمل ، وفى الحديث (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)

(٣) من أكبر العلامات .

بيان نفاسة طريق سيدى الشيخ إبراهيم المتبولى التى بنينا عليها غالب أخلاق الكتاب ﷺ وبيان بعض عقوبة من أنكر على أهل الطريق وبيان أن كل من لم يخالط القوم بعد عن معرفة اصطلاحهم فأخطأ طريق الصواب

وقد قال الشيخ أبو تراب النخشبى [١] ﷺ : إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة فى أولياء الله أى لأنه لو أقبل على حضرة الله لعرف أهلها ومن هو المقدم فيها وكان يحترمهم ضرورة فإنه ما عادى أحد أولياء الله وهو يعتقد ولايتهم أبداً وإنما يعاديهم حين يحجب عن مقامهم وحينئذ يرميهم بالنفاق والرياء والزندقة فأفهم .

وكان الشيخ أبو عبد الله القرشى [٢] أحد الرجال الأكابر من أولياء مصر : يقول من غضب من ولى لله عز وجل ضرب بسهم مسموم فى قلبه ولم يمت حتى تفسد عقيدته [٣] . انتهى .

وهذا من أكبر العقوبات لأن من ضرب فى قلبه بسهم مسموم لا يقدر أحد من الأطباء يداوى له مرضاً فيقاسى من العذاب ما لم يعذب به أحد من العالمين

---

(١) هو العارف بالله : أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبى : صحب حاتما الأصم وأبا حاتم العطار وهو من كبار مشايخ خرسان .
كان مشهوراً بالعلم والفنوة والزهد والتوكل الورع .
وكان يقول : لا ينبغى لفقير قط أن يضيف إلى نفسه شيئاً من المال قط ، ألا ترى إلى موسى عليه السلام حيث قال : هى عصاى وادعى الملك لها ، قال الله عز وجل له : ألق عصاك فلما قلب العين فيها لجأ وهرب فقيل ارجع ولا تخف .
توفى سنة خمس وأربعين مائتين .

(٢) هو الشيخ أبو عبد الله القرشي : كان جليل القدر ، وكان يعظم الفقراء أشد التعظيم ، ويقول إنهم انتسبوا إلى الله تعالى .
ومن أقواله : ما رأينا أحدا قط أنكر على الفقراء وأساء بهم الظن إلا ومات على أسوأ حال
وكان ﷺ عنه يقول : احتقار الفقراء سبب لارتكاب الرذائل .

(٣) وفى الحديث : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ....

إن كان فى أجله فسحةً ومن فسدت عقيدته صار لا يعتقد فى الله تعالى ولا فى رسوله ولا فى أوليائه خيراً فيجنى ثمرة سوء ظنه بالله وأنبيائه وأوليائه ، فلا أحد يأخذ بيده فى شدة ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، نسأل الله العافية من ذلك.
إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق .

كان سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ من أكابر الأولياء أصحاب الدوائر الكبرى (١) وكان يقول ، ليس لأحد من الأشياخ فى رقبتى منة فى طريقى وإنما المنة على لرسول الله ﷺ .

وكان فى بداية أمره يبيع الحمص المسلوق بالقرب من جامع الأمير شرف الدين خارج الحسينية ، ويأكل من كسبه ، ولا يقبل من أحد شيئاً ، ولو كان أعز أصحابه .

ومات أبوه وهو صغير ، فربته والدته ، وكانت من الصالحات ، ولها حال عظيم ، مع الله عز وجل .

ورأيت سيدى عليا الخواص ﷺ مع علو مقامه فى التصريف (٢) ، إذا جاءته حملة شديدة ، يذهب على قبر والدة سيدى إبراهيم ويحكى لها ذلك الأمر عند القبر فتقضى الحاجة ، وقبرها معروف بذلك إلى الآن .

وكان سيدى إبراهيم – وهو صغير – يرى رسول الله ﷺ فى المنام كثيراً ويحادثه فتقول له أمه : يا ولدى كل الناس يرونه فى النوم وإنما الرجل من يراه فى اليقظة .

فلا زال ﷺ يترقى فى المقامات ، حتى صار يجتمع به فى اليقظة ، ويشاوره فى أموره كلها كما يشاور التلميذ الصادق شيخه ، والولد الموفق والده ، ويعمل بإشارته ﷺ ، ولما عمر سيدى إبراهيم زاويته ببركة الحاج وغرس البستان الذى هناك صار كلما يحفر بئراً تنهال فشاور رسول الله ﷺ على ذلك فقال له : سأرسل

---

(١) من أصحاب المقامات العالية .

(٢) التصريف فى المصطلح الصوفى يقصد به أن الله سبحانه وتعالى يعطى أوليائه بعض التصرف فى الكون على ما يجرى به قدره .

لك على بن أبى طالب يخط لك بجريدة على جدار بئر أخى شعيب نبى الله التى كان يسقى منها الغنم – وكانت قد ردمت ولا يعلم أحد مكانها – فأصبح سيدى إبراهيم ﷺ قد خط له عليها ، فحضر فوقع على أساسها ، فهى دائرة يشرب منها الغيط إلى الآن [١] .

وأخبرنى سيدى الشيخ عبد القادر الدشطوطى ﷺ – وكان من أعز أصحاب سيدى إبراهيم – قال : قد خصّ الله تعالى سيدى إبراهيم المتبولى بخصيصة لم تكن لأحد من الأولياء وهى أن له كل سنة وليمة عظيمة يمد سماطها على سد اسكندر ذى القرنين فلا يتخلف عن تلك الوليمة أحد من الأنبياء والمرسلين وصالح المؤمنين .

قال : وقد حضرتها كذا كذا مرة ، وصحبت الخضر والياس من هناك وأخبرنى أن نقباء السماط هناك الإمام على وأبو هريرة والمقداد ابن الأسود وأعوانهما فيمتد من ذلك السماط الأحياء من الأولياء والأموات ، وقال : وأما حضور الأنبياء فإنما هو جبر خاطر منهم له .

فقلت لسيدى عبد القادر : فهل يسع سد اسكندر هؤلاء الخلائق كلهم ؟ فقال لى : نعم طول السد سبعمائة ميل وعرضه خمسة أميال انتهى .

وأخبرنى شيخ الإسلام زكريا [٢] رحمه الله قال : كان سيدى إبراهيم المتبولى من الراسخين فى العلم ، مع أنه كان أميا ، لا يعرف الخط ، وكان يحل مشكلات الكتاب والسنة بحسن عبارة ، وعاش مائة سنة وسبع سنين لم يغتسل قط من جنابة ، لأنه لم يتزوج ، ولم يحتلم ، وكانوا إذا قالوا له تزوج يقول : يا أولادى

---

(١) وهى لا زالت موجودة حتى الآن .

(٢) هو شيخ الإمام زكريا الأنصارى الخزرجى : كان من كبار علماء مصر سواء فى الفقه أو التصوف .

وله شرح على الرسالة القشيرية وشرح على الأربعين النووية وعلى تفسير البيضاوى وغيرهم من الكتب .

دفن بجوار الإمام الشافعى بعد وفاته فى شهر ذى الحجة سنة ست وعشرين وتسعمائة .

ليس فى ظهرى ذرية تخرج منه إلى الدنيا وهم أهوال يوم القيامة لم يدع له شهوة إلى الجماع قال : وكان إذا شكى إليه أحد العزوبية يقول له تريد أن تخمد شهوتك طول عمرك أو حتى تقدر على مؤنة النكاح ، فإن قال : طول عمرى ، مسح بيده على ظهره ، فلا يشتهى الجماع ، إلى أن يموت ، وإن قال : حتى أقدر على القيام على المرأة ، يشد له على بطنه بخيط ، ويقول ما دام هذا على بطنك لا تنتشر لك جارحه ، فإذا قدرت على التزويج فانزع الخيط ، قال : الشيخ زكريا وكنا لا نهمل من أحواله شيئاً فربما فعل فعلا باطنه حكمة وظاهره بدعة قال : وقد زرناه يوما وكان معى خمسة عشر من العلماء فشق لنا بطيخة بيده وصار يعطى واحداً ويدع أخر أو اثنين ، وبدأ بالجانب الأيسر فأراد بعض الفقهاء أن ينكر عليه ، فقلت له : لا تنكروا كتب لى أسماء من فرق عليهم على الترتيب ، وأسماء من أخرهم ، ففعل قال شيخ الإسلام فمن أعطاه أولا مات أولاً ، ومن أعطاه ثانياً مات ثانيا بعده وهكذا قال : وكان أعطانى آخر الكل فماتوا كلهم ولم يبق منهم غيرى وكانت تفرقته عليهم على حسب أعمارهم رضى الله عنهم .

وكان ﷺ يصلى الظهر دائما بالجامع الأبيض برملة لد [1] وكان بعض الفقهاء ينكر عليه عدم حضوره الجماعة معه فى مصر لجهله بحاله .

قال سيدى على الخواص : وقد أوصانى بذلك أنا والشيخ عبد القادر الدشطوطى فما تخلفنا عن صلاة الظهر فى هذا الجامع من حين أوصانا سيدى إبراهيم إلى وقتنا هذا ، قال : وقد حضرت مع الشيخ مراراً فى حياته ، وكان إمام الجامع نحيفاً بلا لحية ولونه كالزعفران فأمره بالدعاء لنا فدعا لنا وهكذا أخبرنى أيضاً الشيخ يوسف الكردى أحد أصحاب سيدى إبراهيم ـ وأخبرنى أيضاً : أنه اشتاق إلى أمه يوماً وهو مقيم عنده فى بركة الحاج ، فشاور سيدى إبراهيم ، فقال : إن شاء الله تزورها فى هذا اليوم قبل الغروب .

فتعجب من قول الشيخ ، ولم أجد بدا من تصديقــه ، فصليت معــه العصــر

---

(١) بلدة بالشام .

بالزاوية ثم دخلت خلوتى وردَدت الباب ، فبينما أنا أقرأ وردى ، إذ رأيت نفسى داخلا بلدنا ووالدى وأهلى يتلقونى بالأعلام والذكر فسلمت عليهم ودخلت على الوالدة ففرحت بى فرحاً شديداً ، وأقمت عند أهلى تسعة شهور ، أقرئ أطفالا وأخطب وأصلى بالناس ، وكان الإمام مريضاً ، فلما مضت على تسعة أشهر تحرك شوقى إلى سيدى إبراهيم ولم أقدر أقيم عند أهلى بعد ذلك فودعتهم وخرجت للسفر ، فشيعونى إلى المحل الذى كانوا تلقونى منه وزودونى فاكهة ففتحت عينى فإذا أنا جالس فى وردى فى الخلوة والفاكهة بين يدى ، فخرجت اسلم على الإخوان سلام المسافرين ، فضحكوا على فصرت أحلف لهم أنى كنت مسافراً ولم يصدقونى ، فعلم الشيخ بذلك فقال لى : اكتم ما رأيت قال : فكتمت ومكث الفقراء يضحكون زماناً ، ثم بعد سنة جائتنى أمى ووالدى من بلاد الأكراد بهدية للشيخ ، وقال للشيخ : قد عجزنا فى يوسف أنه يكمل عندنا سنته فلم نقدر عليه ، وقال : يكفى تسعة أشهر فتعجب الفقراء من ذلك فقال سيدى إبراهيم : لا تتعجبوا فإن القدرة صالحة لأعظم من ذلك : وأخبرنى سيدى على الخواص : أن شخصاً من الأولياء نزل من الهوى [١] وجلس بين يدى سيدى إبراهيم منادياً فقال: يا سيدى مما أعطانى الله تعالى أنه لا ينزل حيوان من بطن أمه من جن وإنس ووحش وطير وغير ذلك ولا تخرج ورقة من العود أو نبات من الأرض إلا ويعلمنى بذلك قبل ظهوره . فقال له سيدى إبراهيم : وعزة ربى هذا أمر قد أعطانيه الله عز وجل وأنا دون البلوغ فلم أقف معه ، وإنما الشأن يا ولدى فى الإقبال على ربك بحيث لا يكون لك عنه إعراض فى ساعة من ليل أو نهار ووالله إن قول العبد : سبحان الله مرة واحدة فضل من اطلاعه على ملكوت الدنيا والآخرة على التفصيل [٢] انتهى .

---

(١) الهواء .

(٢) يعتبر المتصوفة أن ظهور الكرامات وخوارق العادات على يد أى منهم دلالة على أنه لا زال فى مبدأ أمره بل إن كثيراً من المتصوفة الذين قطعوا فى الولاية مراحل كبيرة قد لا=

وقد بلغنا أن الله سبحانه وتعالى يقول فى بعض كتبه المنزلة : (يا عبدى لو سقت إليك ذخاير الكونين فنظرت بقلبك إليها طرفة عين فأنت مشغول عنا لا بنا) انتهى .

فتاب ذلك الولى وقبل رجل الشيخ وطار فى الهوى ونحن ننظره .

وأخبرنى أيضاً أن فقيراً كان فى زاوية سيدى إبراهيم على قدم الجد والاجتهاد فى العبادة فدعاه سيدى إبراهيم يوماً وقال لى : ما لى اراك كثير الأعمال ناقص الدرجات ؟ فقال : لأن والدى مات وهو ساخط على فقال له سيدى إبراهيم : هل تعرف قبره ؟ فقال : نعم ، فذهب بالولد إليه ، ونادى والده من القبر، فأجاب وانشق القبر وخرج مرعوباً لاعتقاده أن الساعة قد قامت فقال الشيخ : لا روعة عليك إنما دعوتك لترضى عن ولدك هذا .

فقال اللهم إنى اشهدك أنى قد رضيت عن ولدى .

فقال له : ارجع سالماً وسأله عن أحوال أهل القبور فأعلمه بأحوال بعضهم ، فبكى حتى بل الثرى ثم نزل والده إلى قبره ، وفاق ذلك الولد حتى صار من أهل الكشف التام من ذلك اليوم .

وأخبرنى الشيخ يوسف الكردى المتقدم ذكره قال : كنت أمشى خلف حمارة سيدى إبراهيم وهو ذاهب من مصر إلى بركة الحاج فتلقته امرأة وعانقت حمارته وقالت : يا سيدى ولدى أسره الفرنج ولا أعرف ولدى إلا منك .

فقال سيدى إبراهيم : هذه هى الكرامة إنما هى لسيدى أحمد البدوى فلم تطلق الحمارة فطأطأ الشيخ رأسه ساعة لحظة وقال : انظرى هل هذا ولدك ؟ فإذا هو يمشى نحوها فتلاقت هى وإياه وعانقته فقالت له : كيف جئت ؟ فقال : كنت جالساً فى دار التفتيش ففتحت عينى فإذا أنا أمشى بالقرب منكم .

وأخبرنى أيضاً أن سيدى إبراهيم رأى الصغار الذين يلعبون بالحمام فى

تجرى هذه الخوارق على يديهم ولا يقلون إليها بالا ، بل إن الاتجاه الأكبر عندهم هو فى التوجه إلى الله سبحانه وتعالى فيكونون له وبه فى كل لحظات حياتهم .

وفى الحديث : عبدى أطعنى تكن ربانياً .

طريق البركة فسلم على صغير منهم على رأسه زنط من أولاد الترك وقال : أهلا بشيخ الإسلام فتعجب الفقراء من تلقيبه بذلك .

قال الشيخ يوسف : فتبعت الولد حتى دخل مصر فعرفت بيت والده وصرت أتردد إليه كل قليل فاشغله والده بالقرآن والعلم فبرع حتى صار شيخ الإسلام .

وهو الشيخ كمال الدين الطويل الشافعى [1] ، وقد تولى مشيخة الإسلام أيام السلطان الغورى وقرأت أنا عليه العلم ولما دنت وفاته رأيت سيدى إبراهيم فى المنام وهو يقول لى : قل للشيخ كمال الدين يتهيأ للموت فقد دنا أجله فأرسلت له شخصاً أعلمه بذلك فقال : سمعاً وطاعة فعاش بعدها نحو شهر فتعجبت من اعتناء سيدى إبراهيم به فى صغره وعند وفاته حتى تهيأ للقاء الله ﷺ .

وأخبرنى سيدى الخواص قال : كنا مع سيدى إبراهيم فى وليمة على الخليج الحاكمى أيام النيل وهناك ولد لصاحب الوليمة فالتهى والده بالسماط فوقع الولد فى الماء فى الليل وكان عمره نحو ثلاث سنين ، فلم يتذكروه إلا آخر الليل، فأخبروا الشيخ بذلك فقال : اذهبوا إلى القنطرة تجاه جامع الظاهر تجدوه بجنب الجرف عائماً على الماء والروح فيه . فذهبوا فإذا هو حى ، كما قال الشيخ، لم يصبه أذى من الماء ، ببركة سيدى إبراهيم .

وكان ﷺ يلبس شملة الصوف الحمراء على عمامته ويقول : أتبرك بزى أخى أحمد البدوى فقد آخى رسول الله ﷺ بينى وبينه وأمرنى أن اصغر جرم خبزى كخبز سيدى أحمد .

وقـــال : وعزة ربى لو وجدت لك يا إبراهيم أحداً من الأولياء أكبــر فتـــوة

---

(١) هو شيخ الإسلام كمال الدين الطويل : كانت الأنوار تخفق على وجهه ، وكان إماماً فى العلوم والمعارف متواضعاً عفيفاً ظريفاً ، لا يكاد جليسه يمل مجالسته ، انتهت إليه الرئاسة فى العلم ، ووقفت الناس عند فتاويه ، وكانت كتب الإمام الشافعى نصب عينيه لا سيما كتب الأوزاعى والزركشى .

توفى فى أوائل حكم العثمانيين ودفن بتربته خارج باب النصر .

من أحمد البدوى لآخيت بينك وبينه ولكن ما ثم فى أولياء مصر بعد محمد بن إدريس (١) أكبر فتوة منه .

فقلت له : يا رسول الله فمن بعده فى الفتوة من أولياء مصر ؟ فقال السيدة نفيسه (٢) وبعدها الشيخ شرف الدين الكردى (٣) بالحسينية وبعده الشيخ عبد الله المنوفى (٤) انتهى .

وكان ﷺ عنه يعيب على من يشتغل بالأسماء الإلهية (٥) لعلة دنيوية ويقول: من فعل ذلك فهو كعبدة الأصنام بل عبدة الأصنام أكبر همة منهم لأنهم قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وهؤلاء عبدوا الله تعالى بالأسماء طلباً للقرب من الدنيا .

وكان يقول لأصحابه : لا تكبروا تفطموا وانظروا أنفسكم بغير الطفولية يدوم رضاعكم من الأمداد الإلهية بواسطة وبلا واسطة .

وكان يقول : لو احتجب عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسى من جملة المسلمين (٦) يعنى الكاملين .

---

(١) هو الإمام الشافعى .

(٢) هى السيدة نفسية بنت سيدى حسن الأنور بن سيدى زيد الأبلج بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم : ولدت رضى الله عنها بمكة وكان سنة خمس وأربعين ومائة ونشأت فى العبادة وتزوجت بإسحاق المؤتمن ورزقت منه بولدين القاسم وأم كلثوم ، وأقامت بمصر سبع سنوات وكان الإمام الشافعى يزورها ويصلى بها صلاة القيام فى رمضان بمسجدها توفيت سنة ثمان ومائتين .

(٣) هو الشيخ شرف الدين الكردى : المدفون بالحسنية وكان من اصحاب العارف بالله أبى السعود بن أبى العشائر وله مقام عظيم وكرامات مشهورة ، توفى سنة سبع وستين ومائتين .

(٤) هو الشيخ عبد الله المنوفى المالكى : يقول عنه الإمام الشعرانى : أنه الصالح العابد الزاهد الأوحد ذو الكرامات الكثيرة ، مات سابع رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، ودفن تجاه قبر السلطان قايتباى الآن بالصحراء .

(٥) يقصد بذلك علم الحرف وحساب الجمل .

(٦) بالنسبة لمقامه الصوفى .

وكذلك بلغنا مثل هذا القول عن الشيخ أبى العباس المرسى [١] ﷺ .

وكان سيدى إبراهيم إذا سألوه : من شيخكم فى الطريق ؟ يقول : شيخى أمى لأنها ربته فى الصغر .

وربما عنى بذلك رسول الله ﷺ .

وتارة يقول : شيخى أبونا إبراهيم الخليل [٢] .

وأجاب سيدى على الخواص عن ذلك فقال : ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ترجع إلى ملة محمد ﷺ لأنها فرع منها وإن كانت أما لها من وجه آخر من حيث قوله تعالى : (أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) [٣] وسألت سيدى عليا الخواص : هل بلغكم أن أحداً من الأولياء السابقين أخذ عن رسول الله ﷺ كما وقع لسيدى إبراهيم المتبولى ؟ فقال : نعم ما من ولى حق له قدم الولاية إلا ويصير يستمد من رسول الله ﷺ بلا واسطة ويستغنى عن جميع الوسائط فقلت

---

(١) هو الإمام العارف بالله سيدى أحمد أبو العباس المرسى ، يقول عنه سيدى أبو الحسن الشاذلى أنه أعرف

بطرق السماء منه بطرق الأرض ، ولد بمرسية باسبانيا والتقى بشيخه أبى الحسن الشاذلى بالمغرب ، وهاجر معه إلى مصر ، وكان يقال إنه لم يرث علم الشيخ أبى الحسن الشاذلى ﷺ غيره .

ومن أقواله (علوم هذه الطائفة علوم تحقيق ، وعلوم التحقيق لا تحتملها عقول عموم الخلق) وكان يقول فى معنى حديث : من عرف نفسه عرف ربه معناه : من عرف نفسه بذلها وعجزها عرف الله بعزه وقدرته .

وكان يقول : من أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ومن كان عبد الله فسواء عليه أظهره أو اخفاه ، توفى عام ست وثمانين وستمائة ، ودفن بالإسكندرية .

(٢) يقصد أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

(٣) أو ربما يقصد ما يسمى فى الإصطلاح الصوفى أنه (على قدم سيدنا إبراهيم عليه السلام) فإن الأولياء يربون على خلق نبى معين والجميع مستمدون من خلق رسول الله ﷺ باعتبار أنه (كان خلقه القرآن) كما ورد فى الحديث

له: حتى المجتهدين لأنه ما ثم أحد حق له قدم الولاية المحمدية إلا ويخرج عن التقليد لأن غايته الظن وعلوم الأولياء من علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ، وذلك فوق علوم الظن .

ومن اشتهر عنه من الأولياء أنه كان حنبليا أو حنفيا كالشيخ عبد القادر الجيلى وسيدى محمد الحنفى فذلك كان حاله قبل كماله وإلا فما ثم ولى كامل مقلد لغير رسول ﷺ أبدا .

قال : وممن بلغنا من المتقدمين أنه لم يكن له شيخ غير رسول الله ﷺ أربعة لا خامس لهم فى الشهرة وهم الشيخ عبد الرحيم القناوى (١) والشيخ أبى السعود بن أبى العشائر (٢) والشيخ أبو مدين (٣) والشيخ إبراهيم المتبولى رضى الله عنهم وأما من لم يشتهر بذلك بين العلماء فكثير .

قلت : وممن أدركته أنا من الأشياخ الذين اشتهر عنهم رؤية رسول الله ﷺ يقظة ومشافهة سيدى محمد المغربى (٤) شيخ الجلال السيوطى ، ولكنه كان يقول:

---

(١) هو العارف بالله ابو محمد عبد الرحيم المغربى القناوى ﷺ ، كان من أجلاء مشايخ مصر المشهورين وعظماء العارفين .

ومن أقواله : أدركت فهم جميع صفات الله تعالى إلا صفة السمع ، وكان يقول : الرضا سكون القلب تحت مجارى الأقدار بنفى التفرقة حالا وعلم التوحيد جمعاً فيشهد القدرة بالقادر والأمر بالآمر وذلك يلزمه فى كل حال من الأحوال .

(٢) هو العارف بالله أبو السعود بن أبى العشائر بن شعبان بن الطيب البادين ﷺ :

كان يزوره السلطان ، وتخرج بصحبته مشايخ لا حصر لهم ، وكان يسمع عند خلع نعليه كأنين المريض فسئل فى ذلك ؟ فقال هى النفس نخلعها عند النعال ، إذا اجتمعنا بالناس خشية التكبر ، وكان يقول:ينبغى للسالك الصادق فى سلوكه أن يجعل كتابه قلبه .

توفى ﷺ سنة أربع وأربعين وستمائة ، ودفن بسفح جبل المقطم .

(٣) هو الشيخ أبو ميدن المغربى السابق ذكره .

(٤) هو الشيخ محمد المغربى الشاذلى ﷺ : كان من الراسخين فى العلم ، أخذ التصوف عن الشيخ أبى العباس المرسى تلميذ العارف بالله شمس الدين الحنفى . =

المراد باليقظة انكشاف الحجاب عن القلب بطى المسافة بينه وبين رسول الله ﷺ كان يأتى إلى ذلك الولى لأن ذاته الشريفة منزهة عن كلفة المجئ والرواح فى البرزخ . قال : وهذا هو الحق الصراح ، وإن الكامل يراه ﷺ ملئ الوجوه بحسب عموم دعوته وسريان نور شريعته فلا يوجد نور شريعته فى مكان إلا وهو ﷺ حاضر فيه ، هكذا يدركه أهل الكشف .

وكذلك مما أدركته أنا من أهل هذه المقام الشيخ محمد بن داود (١) ، والشيخ على الخواص والشيخ أفضل الدين ، والشيخ جلال الدين السيوطى (٢) والشيخ على

=وكان ﷺ يقول : عندما سئل أن يصنف رسالة فى الطريق ؟ أصنف الطريق لمن هاتوا لى راغباً صادقاً إذا قلت له أخرج عن مالك وعيالك خرج فسكتوا ، وكان ﷺ يقول : الطريق كلها ترجع إلى لفظين سكتة ولفتة وقد وصلت (أى عدم الإلتفات لغير الله تعالى والإقبال على أوامر الله) .

(١) هو الشيخ محمد بن داود المنزلاى : كان يضرب به المثل فى اتباع الكتاب والسنة وخدمة الصوفية وطلبة العلم ، مدفون بالسمية قرية بالمنزلة .

(٢) هو الإمام جلال الدين السيوطى ، صاحب التآليف الكثيرة المشهورة ، منها الجامع الصغير فى الحديث وجمع الجوامع فى الحديث وتفسيره للجلالين مشهور وله آراء مشهورة فى جميع فنون العلم ومصنفاته قد تزيد على الخمسمائة مصنف .

ويقول عنه الشيخ عبد القادر الشاذلى فى مناقبه : كان الشيخ جلال الدين رحمه الله مجبولا على الخصال الحميدة فى العلم والعمل ، ولا يتردد على الأمراء والملوك ولا إلى غيرهم مدة حياته ﷺ ، وكان يظهر كل ما أنعم الله عليه [به] من العلوم والأخلاق ، ولا يكتم منها إلا ما أمر بكتمه ، عملا بقوله تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) .

وكان الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته ، ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها وارسل له السلطان الغورى خصيا والف دينار ، فرد الألف ، وأعتق الخصى ، وقال لقاصدة : لا تعد تأتينا قط بهدية فإن الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك ، وقال له مرة : إن بعض الأولياء كان يتردد على الملوك والأمراء فى حوائج الناس فقال : اتباع السلف الصالح فى عدم ترددهم ، أسلم لدين المسلم ، وكذلك فى رد أموالهم عليهم ، توفى سنة إحدى عشرة وتسعمائة .

النبتيتى الضرير [١] ، والشيخ محمد العدل ، الشيخ أحمد الزواوى [٢] ، والشيخ نور الدين الشونى [٣] والشيخ محمد الصوفى [٤] بنواحى الفيوم ، والشيخ عمر التواتى المغربى ، وورده فى الصلاة على رسول الله ﷺ فى كل يوم وليلة مائة ألف صلاة ، هكذا أخبرنى من لفظه ﷺ .

وأخبرنى الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمرى [٥] إن سيدى محمد الغمرى لما أراد أن يعمر جامعه برأس سوق أمير الجيوش بمصر أرسل خادمه يستـــأذن رسول الله ﷺ على لسان شخص كان يبيع لبن المعز فقال له : تعـــال غـــداً خـــذ

---

(١) هو الشيخ على النبتيتى الضرير ، كان من أكابر العلماء العاملين ، وكانت مشكلات المسائل ومعضلاتها ترسل إليه من الشام والحجاز واليمن وغيرها فيحلها بعبارة سهلة .

ومن قوله ، لا يجتمع الخضر عليه السلام بشخص إلا إن جمعت فيه ثلاث خصال ، فإن لم تجتمع فيه فلا يجتمع به قط ولو كان على عبادة الملائكة ، الخصلة الأولى ، أن يكون العبد على سننه فى سائر أحواله، والثانية أن لا يكون له حرص على الدنيا ، والثالثة أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام لا غل ولا غش ولا حسد ، توفى سنة سبع عشرة وتسعمائة .

(٢) هو العارف بالله أحمد الزواوى ، كان على درجة كبيرة فى الولاية ، ورده فى اليوم والليلة عشرين ألف تسبيحة ، واربعين ألف صلاة على الرسول ﷺ .

توفى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة .

(٣) هو العارف بالله الشيخ نور الدين الشونى ، شيخ الإمام الشعرانى فقد لازمه حوالى خمسا وثلاثين عاماً .

وهو أول من أنشأ مجالس الصلاة على رسول ﷺ

يقول عند الإمام الشعرانى ، وكان ﷺ حسن العشرة جميل الخلق كريم النفس حسن السمت كثير التبسم صافى القلب سموحاً كباطن الطفل سواء ، هذه صفة من صفات الخلة . وكان إذا نزل بالمسلمين هم أو غم لا يقرله قرار حتى يرتفع وكان لا يتفوه قط برؤية الرسول ﷺ وإنما يقول (رأى بعض الفقراء رسول الله ﷺ)

توفى سنة أربع وأربعين وتسعمائة .

(٤) هو العارف بالله تعالى الشيخ محمد الصوفى ؛ وكان مقيما بالفيوم ، وكان يأكل من عمل يده، ولا يقبل من أحد شيئاً كان يحل مشكلات الشيخ محى الدين بن عربى .

(٥) كان ﷺ من العلماء العاملين فقد كان يقرأ السبع القرءات ، وكان له صوت فى القـــراءة =

الجواب عند عتبة باب النصر بعد الفجر فجاءه فى الموعد فقال له : قل للشيخ : قال لك رسول الله ﷺ : عمر الجامع وتوكل على الله .

ففعل : فلا أدرى أكان سيدى محمد الغمرى [1] إذ ذاك لم يبلغ مقام الكمال أو أنه يشاور بالواسطة حياء من الرسول الله ﷺ .

ولعل الثانى هو الواقع ، فإن سيدى محمد هذا كان من المشهورين بالكمال ، حتى كانوا يسمونه فقيه الصوفية من كثرة متابعته السنة .

وقد قلت مرة لسيدى على الخواص رحمه الله : ما شروط الاجتماع برسول الله ﷺ يقظة على الوجه الذى قررناه بحيث يصير يراجعه ويسأله عن أحواله وعن الأحاديث التى قيل بضعفها هل قالها أم لا ونحو ذلك ؟ فقال : بين العبد وبين هذا المقام مائتا ألف مقام وتسعمائة وتسعة وتسعون مقاماً إلا واحداً ، فلابد لمن حق له مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ أن يجاوز المقامات كلها ، فهو أمر عزيز وجوده، فى هذا الزمان انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : كان سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ يقول : لا يكمل الرجل عندنا فى الطريق حتى يصير يستخرج جميع مذاهب المجتهدين من القرآن العظيم ، ثم يستخرج جميع أحكام القرآن من سورة الفاتحة، ثم يستخرج جميع علوم الفاتحة من أى حرف شاء من حروف الهجاء ،

= له تأثير كبير فى نفوس السامعين فى عصره ، ولما دخل مصر العثمانيون طلبوا إماما للسلطان فأجمع المصريون على الشيخ أمين الدين .

وكان زاهدا كريما ورعا يقضى حوائج الناس ومصالح الأرامل والمساكين ووقته كله كان فى عبادة الله سبحانه وتعالى على أى وجه كان .

توفى ﷺ سنة تسع وعشرين وتسعمائة .

(١) هو الشيخ محمد الغمرى ﷺ : كان من أصحاب سيدى أحمد الزاهد المقربين ، وكان من العلماء العاملين ، وكان مريديه يضرب بهم المثل فى الأدب والعلم ، وكان قد قسمهم إلى ثلاثة أقسام كهول وشباب وأطفال وجعل لكل قسم مكانا يخصه ولا يختلط بالآخر وكانوا لا يجتمعون إلا يوما واحدا فى الجمعة . فيتناقشون فيما وقع بينهم فى بقية الأسبوع .

توفى ﷺ فى نيف وخمسين وثمانمائة .

وهناك يصح له مقام الكمال والأخذ عن رسول الله ﷺ [١] ، وقال : وقد منَّ الله تعالى على بذلك ، فاستخرجت من سورة الفاتحة مائتى ألف علم .

وعلمت من كان فى ظهر آدم من السعراء حال كونهم ذرات فلا يزيدون على ما علمت ولا شخصاً واحداً ، كذلك أطلعنى الله تعالى على جميع ما يفعله كل عبد حين أرى أنفه فأعرف ما وقع فيه فى الماضى ، وما يقع فيه فى المستقبل ، من خير وشر .

قلت :ينبغى التسليم لكل من أدعى أن الله أطلعه على ذلك لأنه ادعى ممكنا[٢] والله أعلم .

وقد أدعى شخص مرة بأنه يجتمع برسول الله ﷺ يقظة .

فقال له سيد أفضل الدين : إن بينك وبين مقام الأخذ كذا كذا ألف مقام ومقصودى تخبرنا بعشر مقامات منها ، فتلجلج الشخص وما درى ما يقول .

فقال له : تب إلى الله يا أخى فإن هذا مقام الأكابر كسيد إبراهيم المتبولى وأضرابه ، انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

سمعت سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ يقول : وعزة ربى معى سبعون وظيفة وستفرق بعدى على سبعين رجلاً ويعجزوا عن القيام بها ، ومنها تحمل البلاء عن جميع أهل مصر وقراها ودوام السماط فى زاويتى ببركة الحاج ، والبلاء الذى يأتى من بلاد المشرق مدفوع عن أهل مصر فياويليهم إذا انقطع السماط من زاويتى وخربت .

قال سيدى على : فقلت له : فمن يأخذ بعدكم خدامة الحجرة النبوية [٣] ؟

فقال : هى لمحمد بن عنان فقلت له : وما محمد بن عنان هذا ؟ فقال : شـــاب

---

(١) يقصد بذلك ألا يصل أحد إلى الدرجات الكبرى فى الولاية إلا بعد مروره على هذه العلوم .

(٢) لأنه الذى يعرف تلك المقامات والعلوم كلها فقد وصل إلى قمة العلوم والتصوف فالولاية فالقطبانية فرؤية الرسول ﷺ

(٣) الخدمة الروحية .

يظهر من بلاد الشرقية لا يكون فى عصره أحد على قدمه فى العبادة وقيام الليل وحفظ الأنفاس مع الله تعالى إلا القليل ، فلا يدخل أحد من الأولياء حجرة رسول الله ﷺ بالروح ، أو بالجسم ، حتى يستأذنه انتهى .

ولا يلزم من ذلك أنه أفضل ممن يساويه من جميع الأولياء كما هو مشاهد فى نواب الملك إذا دخل عليه أمير كبير فافهم .

وقد كان سيـدى محمـد بـن عنـان من أصحاب الخطوة [١] والتطوير [٢]، فأخبرنى سيدى على المرصفى : أن سيدى محمد هذا كان لم يزل واقفاً بين يدى رسول الله ﷺ وهو معتمد على قضيب أخضر مع كونه فى عدة أمكنة أخرى ، ومن حين كان صغيراً وهو يغزو بلاد الفرنج كل ليلة ،يرجع إلى بلاده قبل الفجر، وسمعته يقول : لا يكون الفقير كاملاً حتى يطوف الشرق والمغرب ، وهو مضطجع على جنبه ، انتهى .

وسمعت سيدى محمد بن عنان ﷺ يقول : كان سيدى إبراهيم المتبولى يحث أصحابه على عمل الحرفة ، ويقول من لا كسب له فهو كالمرأة لاحظ له فى الرجولية [٣] .

وترك شخص مرة الحرفة وجلس عنده فى الزاوية ، فقال له الشيخ : لم تركت حرفتك ؟ فقال : رأيت مرة بومى [٤] عمياء فى طاقة فى سقف الزاوية ورأيت صقراً يأتها كل يوم بلحم فيطعمها ، فقلت فى نفسى أتوكل على الله فإنه لا يضيعنى .

فقال له : ولأى شئ تجعل نفسك كالبومة العمياء ؟ لم لا جعلت نفسك صقراً

---

(١) اى تطوى له المسافات .

(٢) أى من الأبدال .

(٣) وسادتنا الصوفية جميعا يحضون على العمل والتكسب وإقتداءاً بسنة رسول الله ﷺ ، وفى الحديث : أنه ذكر لرسول الله ﷺ رجلا زاهدا يستغرق الوقت كله فى العبادة . وأن أخوه هو الذى ينفق عليه فقال : (أخوه أعبد منه)

(٤) بومة .

تأكل من كسبك وتطعم غيرك [١] ؟ انتهى .

فإن قيل : فهل للعلوم والآداب التى يأخذها الولى عن رسول الله ﷺ على ما قررناه مرتبة الأحاديث الواصلة إلينا على يد الرواة من المحدثين [٢] .

فالجواب : ليس لها مرتبة الشريعة الظاهرة لعدم عصمة الولى فى كشفه ، لكن للمولى العمل بها فى نفسه بعد عرضها على قواعد الشريعة وليس له أن يأمر الناس بالعمل بها .

فإن قيل فإذن المدار على الشريعة الثابتة عندنا من طريق النقل ، فأى خصوصية لما أخده الولى عن رسول الله ﷺ بلا واسطة .

فالجواب : وجه الخصوصية فيه زيادة اليقين بصحة ما قال بعض العلماء إنه ضعيف من الأحاديث مثلا أو النقول إذ لايأتينا علم قط من طريق الكشف الصحيح إلا وهو مؤيد بالشريعة لأن سائر دوائر علوم الأولياء من باطن دائرة علم رسول الله ﷺ .

ومن المحال أو يوحى الحق تعالى إلى رسول الله ﷺ بأمر ثم يسارر أحدا من الأولياء من طريق الإلهام بخلافه . فافهم .

فهو فوق ما يراه النائم ودون شريعته الظاهرة .

وقد أجمع القوم كلهم على أن الشريعة التى بين أظهرنا أصح مما يأخذ الولى من طريق الإلهام عن الله تعالى بلا واسطة ، فإن إبليس قد يلبس على الولى ويقيم له سماء أو كرسيا أو عرشاً أو غماء مثلا بحسب ما يعرف أن مقام ذلك الولى يصل إليه فى مقام الأخذ ، وما كل ولى يعرف الفرق بين السماء المتحلية مثلا وبين المحققة .

---

(١) وما أروع هذا التشبيه .

(٢) يشرح هنا الإمام الشعرانى ما فهمه بعض الناس خطأ من أن السادة الصوفية إذا تعارضت عندهم الشريعة والحقيقة فضلوا الحقيقة بما يبين هنا خطأ هذا المفهوم .

وقد أقام إبليس مرة لسيدى الشيخ عبد القادر الجيلانى [1] عرشاً حين كان قلب الشيخ عرشيا وناداه منه : يا عبدى قد أسقطت عنك التكليف .

فناداه سيدى عبد القادر : اخسأ يا لعين فاضمحل ذلك العرش [2] ، فلو لا أن العناية حفت السيد عبد القادر لحصل له فتنة فى دينه .

وفى هذا القدر كفاية من التلويح بمقام سيدى إبراهيم وأصحابه فأقبل يا أخى على طلب التخلق بأخلاقه من غير توقف فإنهـا أخـلاق رسـول الله ﷺ بالأصالة والله أعلم .

وأما بيان الدهليز الذى يدخل العبد منه إلى مقام التخلق بأخلاق هذا الكتاب فهو السلوك على يد الشيخ كامل فى علم الشريعة والحقيقة .

ومحال أن يقدر الإنسان على صعود السطح العالى بلا سلم إلا أن تحصل له جذبة إلهية إذا علمت ذلك فاعلم يا أخى أن المريد لا يؤمر بالتخلق بأخلاق الكمال إلا بعد انتهاء سلوكه .

ومن هنا وحد الأشياخ وجوباً قصد المريد ونهوه عن الشركة فى القصد من

---

(١) هو عبد القادر بن موسى بن يحيى الجيلانى الحنبلى : يقول عنه صاحب الكواكب الدرية : من ذرية الحسن ﷺ ، الذى طار ذكره فى الآفاق وأجمع على إمامته أهل الخلاف والوفاق .

كان جرئ اللسان ثابت الجأش والجنان ، وله إقدام وتمكن أقدام . وكان فى الفقه إماما وفى التصوف لا يسام رفقه ولا يساما ، قد تضلع من الأصول والفروع ، وتقدم على غيره فى كل مشروع .

اعتراف له الفقهاء فى عصره بذلك وكذلك الصوفية وحسبك قول العز بن عبد السلام فى حقه (بلغت الإمام مبلغ القطب) ولد ببغداد سنة سبعين وأربعمائة ، ونشأ بها حتى شب فسلك طريق القوم وجد واجتهد . ولم يزل على ذلك الحال حتى طرقه الحال فنام فى البرارى والجبال إلى أن اتصف بالكمال ورزق القبول التام عند الخاص والعام ، فكان يأتيه الخليفة فمن دونه ، وعلى زيارته إياهم يعاقبونه فيأبى ولا يجيب .

توفى ﷺ سنة نيف وستين وخمسمائة ببغداد .

(٢) وهذا دلالة على عدم جواز التحلل من الشريعة عند الصوفية .

حيث أن ذلك يقنطه ويبطئ سيره إلى المقصود الأعظم الذى هو معرفة الله عز وجل .

وتأمل فى قول العلماء بحرمة عقوق الوالدين يعنى مخالفتهما فيما يطلبانه من الولد من المباحات . ثم لما أوجبوا عليه تعلم العلم الشرعى لم يلتفتوا إلى قولهما لو منعاه من ذلك لكون معرفة العبد مما يصحح عباداته ويقيم به شعار شريعة نبيه مقدماً على غرض الوالدين ، فما حرم على الولد العقوق إلا إذا كان مشتغلا بأمر مباح أو مستحب أو مفضولا بالنسبة إلى حق الوالدين .

وقد أجمع علماء الشريعة والحقيقة على وجوب مجاهدة النفس الأبية على يد شيخ حتى تخرج عن الرعونات النفسية وتنقاد إلى فعل الأوامر الشرعية على الوجه المأمور به شرعاً وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب اللهم إلا أن يحصل للعبد جذبة من جذبات الحق تعالى فإن مثل هذا قد لا يحتاج إلى شيخ ، وكذلك أجمعوا على أن علاج الأمراض الباطنة [1] واجب بدليل ما ورد فى الآيات والأخبار عن عقوبة من كان قلبه شئ من أمراض الباطن من حسد ، ومكر ، وكبر ، ونفاق ، وخداع ، وعجب ، ورياء ، وغل ، ونحو ذلك فى الدار الآخرة ، مع ما فى ذلك من منعه من دخول حضرة الله تعالى فى دار الدنيا ، ولو فى صلاته.

فيجب جزماً على كل مكلف أن ينظف باطنه من صفات الشياطين ، ويحلها بصفات الأنبياء ، والعلماء ، والصالحين .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول :

مقصود جميع الداعين إلى الله عز وجل من المريدين أن يطابقوا فى جميع عباداتهم بين ظاهرهم وباطنهم ليخرجوا عن صفات المنافقين ويتخلقوا بصفات المخلصين . فهذا معظم قصدهم . فطلبوا بتسليكهم أن يلحقوهم برائحة ما كان عليه السلف الصالح من الصدق والإخلاص فى جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة

---

(١) يقصد بالأمراض الباطنة وجود أهواء النفس فإنها تمنع المريد من الوصول إلى الله تعالى.

مع رؤية التقصير واتهام نفوسهم فى دعوى الإخلاص بعد ذلك . وهذا الذى ذكرناه من التخلص من صفات النفاق أمر لا يهتدى الإنسان بغير شيخ إلى الخروج منه . كما أنه لا يهتدى إلى الترقى إلى مقامات العارفين ولو كان على عبادة الثقلين .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : لو أن مريدا عبد الله تعالى كما بين السماء والأرض بغير شيخ فعبادته كالهباء المنثور ، لأنه لا يهتدى لمعرفة تطهيره من دسائس الأعمال الظاهرة ، فضلا عن الباطنة ، بل ولا يعرف الطريق الموصلة إلى ذلك ، حتى يطلب معرفة كيفية التطهير لأنه طريق القوم غالبها غيب غير محسوس . ولا يكاد يدركها إلا من كشف الله تعالى حجابه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

لو أن العبد قرأ ألف كتاب فى العلم ، ولا شيخ له فهو كمن حفظ كتب الطب مع جهله بالداء ، والدواء . فكل من سمعه ، وهو يدرس كلام الحكماء يقول : إنه لطبيب عظيم ، ثم إذ سأله عن اسم الداء وتنزيل الدواء عليه ، ولم يجد عنده معرفة بذلك يقول : إنه جاهل .

وكذلك حكم من يحفظ مثل كتاب الإحياء للغزالى بغير فهم ولا شيخ لا يعرف يتداوى من مرضه ولا يداوى غيره ، فعلم : أن كل من لم يكن له شيخ فى هذا الزمان يخرجه من ظلمات الشكوك والأوهام ويبغضه فى شهوات الدنيا التى تحجبه عن الله تعالى ، فيبدو عليه الإخلاص فى شئ من أعماله بل يرى الأعمال الخالصة وهى تقع على أيدى الصالحين فلا يقدر على الوصول إلى العمل بمثلها ، ولذلك جعلت لكل عهد من عهود كتابى المسمى بمشارق الأنوار الفرعية فى بيان الأخلاق المحمدية دهليزاً يدخل منه من يريد التخلق بذلك العهد وكثيراً ما أقول فيه : وهذا العهد لا يصح لأحد التخلق بشئ من أخلاقه إلا بعد السلوك على يد شيخ صادق .

فإن غاية أمر من لا شيخ له فى الإخلاص مثلا أن يرى نفسه قد خلصت من الشوائب الفادحة فى مقام الإخلاص من الرياء والعجب وحب الشهرة بالصلاح

وغير ذلك ، لكنه يطلب من الله الثواب على عمله .

ولو أنه تعالى أحبط عمله ولم يعطه ثواباً لتكدر فى نفسه ، وإيضاح ذلك أن كل من لم يسلك الطريق على يد شيخ حكمه حكم من يعبد الله على حرف (١) ، كما ورد فى حديث العابد (٢) الذى عبد الله تعالى فى جزيرة خمسمائة عام وقال له الحق تعالى : ادخل الجنة برحمتى فقال : بل بعملى .

---

(١) لأن هناك كثير من الأمور التى لا يفهمها المريد ولا يستطيع إيجاد تعليل لها مثل أمور الكشف المفاجئ أو الكرامات غير المنتظرة ، كل هذه الأمور لابد لها من مرشد أو خبير يوضحها لمريده ويأخذ بيده فى طريقه للوصول إلى الولاية ، وأغلب الأخطاء التى تقع لبعض الصوفية إنما تقع بسبب عدم وجود شيخ مرشد .

وتوجد عند الصوفية شروط كثيرة لهذا الشيخ لعل أهمها أن يكون عالما بأمور الدين تفسيراً وحديثاً وفقهاً ، وأيضاً ملتزماً لها ومتبعا سنة رسول الله ﷺ فى جميع أموره ، ثم بعد ذلك أن يكون متمكناً فى طريق القوم بما لا يناقض أحكام الشريعة الإسلامية .

(٢) حديث العابد الذى عبد الله خمسمائة سنة أخرجه الحاكم عن سليمان بن هرم عن محمد بن المنكدر عن جابر وقال : صحيح الإسناد . ونص الحديث:

عن جابر ﷺ قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : خرج من عندى خليلى جبريل آنفا . فقال : يا محمد والذى بعثك بالحق ، إن لله عبداً من عباده عبد الله خمسمائة سنة على رأس جبل فى البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعاً فى ثلاثين ذراعاً ، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية ، وأخرج له عينا عذبة بعرض الأصبع تفيض بماء عذب فيستنقع فى اسفل الجبل وشجرة رمان تخرج له فى كل ليلة رمانة ، يتعبد يومه فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام للصلاة فسأل ربه عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً وأن لا يجعل للأرض ولا لشئ يفسده عليه سبيلا حتى يبعثه الله وهو ساجد قال : ففعل فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فنجد له فى العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول له الرب : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى ، فيقول : رب بل بعملى . فيقول : أدخلوا عبدى الجنة برحمتى ، فيقول رب بل بعملى . فيقول الله : قايسوا عبدى بنعمتى عليه وبعمله ، فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة ، وبقيت نعمة الجسد فضلا عليه ، فيقول : أدخلوا عبدى النار فيجر إلى النار فينادى : رب برحمتك أدخلنى الجنة فيقول ردوه ، فيوقف بين يديه فيقول : يا عبدى من خلقك ولم تك شئياً ؟ فيقول: أنت يارب ، فيقول : من قواك لعبادة خمسمائة سنة ؟ فيقول : أنت يارب ، فيقول :=

فلو أن هذا العابد كان سلك الطريق على يد عارف لعرف من أول ما دخل فى الطريق أن العبد لا يدخل الجنة إلا برحمة الله دون عمله [1] ، وكان لزم الأدب مع الله تعالى فإن أول ما يتجلى العبد إذا اشتغل بالذكر ، توحيد الفعل لله ، ثم توحيد الملك لله ، ثم توحيد الوجود لله ، فإذا تجلى له توحيد الفعل لله تعالى ، وخرج كشفاً ويقيناً عن شهود كون الفعل له ، وخرج به أيضاً عن طلب الثواب عليه ، وعن الكبر ، والعجب ، الرياء ، ودخل فى قضاء الإخلاص لله ، وما بقى له عمل يعتمد عليه .

وأما من يشهد الفعل لنفسه فمن لازمه غالباً الوقوع فى سائر الآفات المحيطة له إذ لا يصدر عن الناقص إلا ناقص [2].

وسيأتى فى مواضع من هذا الكتاب أن من شرط الكامل أن يشهد أعماله كلها خلقاً لله تعالى وحده لا مدخل للعبد فيها سوى نسبة التكليف إليه لا غير .

وتأمل يا أخى لو أن جارك قام الليل ، أو صام النهار وأنت نائم مفطر لا ترائ قط بفعله ، ولا تعجب ولا ترى ، نفسك على الناس به لشهودك إن ذاك الفعل لغيرك لا لك . فكذلك من يوحد الفعل لله كشفاً لا يصح له دعواه لنفسه أبداً، فلابد للكامل من عينين : عين ينظر بها كون الفعل لله ، وعين ينظر بها نسبة الفعل لنفسه ، فيشكر من جهة تلك النسبة ، ويستغفر الله من حيث كسبه لما فيه من النقص .

ولذلك قالوا : من نظر بعين البصيرة وجد أعماله كلها رياء ونفاقا وأحوالـــه

= من أنزلك فى جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح وأخرج لك كل يوم رمانة وإنما تخرج مرة فى السنة ، وسألته أن يقبضك ساجداً ففعل؟ فيقول : أنت يارب ، قال : فذلك برحمتى وبرحمتى أدخلك الجنة ، أدخلوا عبدى الجنة فنعم العبد كنت يا عبدى فأدخله الله الجنة ، قال جبريل : إنما الأشياء برحمة الله يا محمد .

(١) فإن دخول الجنة يكون بالفضل ، وقول سيدنا أبى بكر الصديق ﷺ : (لا آمـــن مكـــر الله ولو كانت إحدى قدمى فى الجنة لأبرز دليل على هذا) .

(٢) لعلنا بالمقدمة التى وضعناها للكتاب قد شرحنا هذا القول فى مقام الإخلاص .

كلها دعاوى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يصح لعبد ذوق شئ من أحوال القوم إلا بعد أن يتجلى له التوحيد الكشفى .[١]

وهناك يطلب الشيخ ضرورة ليرقيه إلى المقامات التى شم روائحها بالتوحيد. وما دام لم يتجل له التوحيد فهو واقف مع نفسه لا يرى فوقه مقاماً لعدم شمه وزكامه . ولو أن أحدا دعاه إلى الرقى لا يجيب لاستحسانه حاله فهو كمن كان سائراً فى برية ومعه جراب من الفلوس الجدد ثم سار فإذا هو بكوم من فضة ، فأفرغ الجدد وملأه من الفضة ، ثم لما سار وجد كوما من ذهب ، فأفرغ الفضة وملأه من الذهب ، ثم لما سار وجد كوما من جواهر ، ومعادن ، كل فص يساوى مائة ألف دينار مثلاً ، فإنه يفرغ جرابه من الذهب ويملأه جواهر وفصوصا ومعادن ضرورة .

ولو أنك قلت له : لا تفرغ أبدا جرابك من الفلوس الجدد ودُم على حمله ولا تملأه فضه مثلا لا يجيبك ، وربما سفه عقلك ، كما أنه يسفه عقلك لو قلت له قبل رؤيته كوم الفضة مثلا : أفرغ جرابك من هذه الفلوس رجاء أنك تعثر على كوم فضه .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى ﷺ يقول : لا ينبغى لشيخ أن يأمر أحد برمى الدنيا حتى يمهد له بساطاً [٢] قبل ذلك ويعصف عليه ريح التوفيق ، فإن مثال من لا يرى ما يدعوه الشيخ إليه من الخير مثال قوم ركبوا سفينة ومعهم أموالهم وأمتعتهم فقال لهم رئيس المركب : إن فى غد يهيج ريح شديدة كل من لم يرم متاعه غرق فارموا متاعكم فى البحر فى هذا الوقت فلا يجيبه أحد ، ثم إذا جاء الغد وهاجت الريح يصير كل واحد يرمى متاع نفسه طلبا لسلامته من الغرق. ولو أنك قلت له : لا ترم متاعك وأغرق أنت فلا يجيبك .

---

(١) أى لا يرى نفسه فى أى شئ فلا فاعل إلا الله .

(٢) أى يمكنه فى طريق التصوف أولا فلا معنى لأمره بترك الدنيا وهو ممكن فيها دون أن يصل فى التصوف إلى مقام يمكنه من تركها .

فهكذا مثال من وقف على قدم الحجاب من الفقهاء وغيرهم انتهى .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : لو لم يكن من شرف الطريق إلا أن العبد لا يعرفها بغير شيخ ولو صار شيخ الإسلام لكان فيه كفاية فى علو مقدارها [١] . ثم يكفينا فى شرفها قول موسى للخضر عليهما الصلاة والسلام:

(هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشداً) .

فإن موسى عليه الصلاة والسلام مع سعة علمه وكونه نبياً ومرسلا طلب الإرشاد لطريق الحقيقة من الخضر [٢].وكذلك مما يدل على شرفها أن الإمام أحمد بن حنبل [٣] كان إذا توقف فى مسئلة سأل عنها الشيخ أبا حمزة البغدادى [٤] ،

---

(١) وكان الإمام الشعرانى رغم عمله وفضله يتخذ سيدى عليا الخواص شيخا له رغم عدم معرفته بالقراءة والكتابة .

وسيدى العز بن عبد السلام رغم شهرته الكبيرة فى الفقه كان يتخذ سيدى أبى الحسن الشاذلى شيخا له .

وكان شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصارى يتخذ سيدى إبراهيم المتبولى شيخا له .

(٢) وكلا العلمين آت من عند الله سواء الشريعة أو الحقيقة .

(٣) الإمام أحمد بن حنبل : صاحب المذهب المشهور فى الفقه وصاحب المسند فى الحديث ، رأى الله سبحانه وتعالى فى المنام ٩٩ مرة فلما كان فى المرة المائة قال : يارب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك فقال : بكلامى يا أحمد ، فقال الإمام أحمد بفهم أو بغير فهم . قال الله سبحانه وتعالى : بفهم وبغير فهم .

وكان ﷺ إذا جاءه حديث وحده لم يحدثه حتى يكون معه غيره .

وكان ﷺ يضرب به المثل فى اتباع السنة واجتناب البدعة .

وكان لا يدع قيام الليل قط .

(٤) هو أبو حمزة محمد بن إبراهيم البغدادى البزار : صحب السرى السقطى وحنا المسوحى ، وكان فقيها عالما بالقرآن ، وكان الإمام أحمد إذا جرى فى مجلسه شئ من كلام القوم يقول لأبى حمزة : ما تقول فى هذا يا صوفى؟

ومن أقواله : من المحال أن تحبه ثم لا تذكره ، ومن المحال أن تذكره ثم لا يوجدك طعم ذكره ، ومن المحال أن يوجدك طعم ذكره ثم يشغلك بغيره .

وقال له : ما تقول فى هذه المسئلة يا صوفى ؟ فيحل أبو حمزة إشكالها فيتعجب الإمام أحمد من ذلك .

وكان يقول كثيرا : إن القوم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة وعلوا الهمة، مع أنه كان يقول لولده قبل اجتماعه بأبى حمزة : يا ولدى عليك بالحديث وإياك ومجالسة هؤلاء الذين يقولون إنهم صوفية فإنهم جهلة (١) . ذكره ابن أيمن فى رسالته قال : ولما صحب الإمام أحمد أبا حمزة أرسل له أبو حمزة فى الليل ، جماعة من الفقراء الطيارة (٢) ، فنزلوا له من دور القاعة ، فتحادث معهم طويلا، وأظهروا له علوما ومعارف لم يسمع بها قط ، فاعترف بفضل أهل الطريق ، فلما أرادوا الانصراف قالوا له : يا أحمد اصعد معنا فى الهواء فقال : لا أطيق ، فقالوا له : قد أثقلك أكل الشهوات ، ثم صعدوا وهو ينظر فصار يتأسف قالوا : ولم يأكل أحمد بعد ذلك شهوة إلى أن مات ، وكان إذا ضعف من الجوع يأتدم بالشحم والعدس ، ويجعله فى جرة ويضعه فى النار ، حتى يستوى ، ثم يأكله .

وكان الإمام الشافعى : يجالس الصوفية كثيرا ، حتى صار يعرف اصطلاحهم فقيل له مرة : لم تجالس هؤلاء مع غنائك فى العلم عنهم ؟ فقال : إنى أسمع منهم فوائد لم أكن أعرفها ، وقيل له مرة : ماذا استفدت من مجالسة الصوفية ؟ فقال : استفدت منهم شيئين : قولهم : الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك ، وقولهم: إن لم تشغل نفسك بالخير شغلك غيره من الشر . انتهى .

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا (٣) ﷺ يقول : كل فقيه لا يعرف مصطلح القوم فهو كالخبز الحاف من غير إدام (٤). وكذلك يكفينا من شرف طريق القوم

---

(١) خوفا عليه أن يشتغل بطريق القوم ويترك الحديث وهو لا زال فى مقتبل عمره فإن علوم الحديث فى نظر الإمام أحمد أولى أن تتعلم ثم بعد ذلك له أن يدخل طريق الصوفية وهذا هو رأى الصوفية أيضاً .

(٢) من الذين تطوى لهم الأرض .

(٣) يقصد الشيخ زكريا الأنصارى .

(٤) ومصطلحات القوم جمعها الإمام القشيرى فى رسالته : الرسالة القشيرية .

إذعان الإمام أحمد بن شريح للجنيد واعترافه بفضله ، وذلك أن جماعة من طلبته تركوا حلقته وصاروا يحضرون حلقة الجنيد فتكدر من ذلك ، ثم إنه تنكر يوما وحضر الجنيد بين المغرب والعشاء فقالوا له : ماذا وجدت حال هذا الرجل ؟فقال: لم أفهم من كلامه شيئاً إلا أن صولة كلامه ليست بصولة مبطل ، ثم إنه أتى إليه بكرة النهار بقصد مناظرته ، فكان من جملة ما قال للجنيد : طريقنا أقرب إلى الله تعالى من طريقكم ، فقال له الجنيد : بلى طريق أصحابنا أقرب ، فقال له ابن شريح : ما الدليل على ذلك ؟ فقال : إن كل إنسان لا ينطق إلا بما هو الغالب على قلبه فخذ هذا الحجر وألقه فى حلقة هؤلاء الفقهاء فذهب بالحجر وألقه فى حلقتهم على غفلة ، فصاحوا كلهم : هذا حرام عليك .

فلما أخبر بذلك الجنيد فقال له : ألقه فى حلقة هؤلاء الفقراء ففعل فصاحوا بأعلى صوتهم : الله الله الله .

فرجع ابن شريح إلى قول الجنيد واعترف بفضله وتلمذ له فقال له الجنيد : طريقكم هى أساس الصوفية التى بنوا طريقهم عليه ، ولكنهم زادوا عليكم بكثرة الزهد والورع ومراعات أنفاسهم مع الله تعالى ، فلو راعيتم قلوبكم كما راعوا كنتم أنتم الصوفية وفهمتم اصطلاحهم من غير توقيف . انتهى .

وقد قالوا مرة لسيدى على بن وفا [1] رحمه الله : لم ساد الصوفية ؟ فقال لكونهم عملوا بما علموا ، فإن حقيقة الصوفى عالم عمل بعمله على وجه

---

(١) هو سيدى على بن محمد وفا : يقول عنه الإمام الشعرانى : كان فى غاية الظرف والجمال لم ير فى مصر أجمل منه وجها ولا ثيابا ، له نظم شائع وموشوحات ظريفة سبك فيها أسرار أهل الطريق ، وله عدة مؤلفات شريفة وأعطى لسان الفرق والتفصيل زيادة على الجمع وقليل من الأولياء من أعطى ذلك ، وله كلام عال فى الأدب ووصايا نفيسة نحو مجلدات .

ومن قوله : كان يقول فى قوله تعالى ، (والله متم نوره ولو كره الكافرون) فيا صاحب الحق لا تهتم بإظهار شأنك اهتماما يحملك على الإستعانة بالخلق ، فإنك إن كنت على نور الحق فهو يظهر بالله وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا ، وإن كنت على ظلمة الباطل فلا=

الإخلاص لا غيره ، وكذلك يكفينا فى شرف الطريق طلب الإمام الغزالى له شيخاً يدله على الطريق ، مع كونه كان قد لقب بحجة الإسلام ، وكذلك الشيخ عز الدين ابن عبد السلام طلب الشيخ مع تلقيبه بسلطان العلماء فكان شيخ الغزالى الشيخ أبو محمد الباذعانى ، وكان شيخ الشيخ عز الدين الشيخ أبو الحسن الشاذلى .

ولما ذاق الغزالى الطريق على يد شيخه قال : قد ضيعنا عمرنا فى البطالة يعنى بتأليفه الإحياء وغيره من كتب التصوف (١) .

ولما ذاق الشيخ عز الدين الطريق على يد الشاذلى صار يقول : مما يدلك على شرف طريق القوم ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق ولا يقع شئ من ذلك على يد فقيه ولو بلغ فى العلم ما بلغ إلا أن سلك طريقهم . (٢)

وحكى اليافعى فى كتابه المنهاج له قال : مكثت خمس عشرة سنة وأنا فى نزاع من نفسى فداع يطلب منى الدوام على الاشتغال بالفقه ، وداع يدعونى إلى الاشتغال بالذكر وآداب الطريق ، فبينما أنا يوما أمشى فى شارع من شوارع مدينة زبيد إذ لقينى شخص من أرباب الأحوال فقال : إلى كم أنت فى علاج ؟ أقبل على طريق أهل الله فإنها تجمع طريق الفقهاء وزيادة ــ وثمرتها أشرف ، فأجبته إلى ذلك ، فقال : اذهب معى حتى أوضح لك ثمرة طريق منهما ، قال : فمضيت معه إلى الزاوية ، فلما جلس أرسل النقيب إلى شخص من علماء البلد وأمر الفقراء أن لا يردوا عليه السلام على الفور ، فلما جاءوا به قال : السلام عليكم

=تتسبب فى إظهار ذلك وإشاعته فإنك لا تتمتع به إلا قليلا ، ثم الله أشد بأسا وأشد تنكيلا (أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع) (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه) فافهم .

ولد ﷺ سحر ليلة الأحد حادى عشر من محرم سنة إحدى وستين وسبعمائة كما أخبر عن نفسه ، وتوفى عام أحد وثمانمائة .

(١) يقصد أن الإمام الغزالى قد ألف هذه الكتب قبل أخذه الطريق على يد شيخ فلو كان وضعها بعد أخذه للطريق لربما كانت أروع من هذا وعلى وجه العموم فإن كتب الغزالى فى التصوف تعد من القمم فى هذا الباب .

(٢) مع أن السادة الصوفية يعتبرون ظهور الكرامات من علامات بدء الطريق عند المريد .

فلم يرد أحد عليه السلام فقال : هذا حرام عليك ، فقال له الشيخ : اجلس معنا يسيرا فجلس فقال الشيخ : الفقراء فى نفوسهم منك شئ ، فقال : وأنا أيضاً فى نفسى منهم أشياء وأشار بأصابع كفه كلها فقام وهو ساخط يسب الفقراء .

ثم إن الشيخ أرسل خلف فقير من فقراء البلد وأمرهم ألا يردوا عليه السلام ولا يفسحوا له ، فلما جاء وقال : السلام عليكم فلم يرد أحد عليه السلام فتبسم وأعاد السلام ثانيا وثالثا كل ذلك وهو يبتسم ثم جلس إنه عند نعالهم فقال له الشيخ : يا أخى الفقراء فى نفسهم منك شئ ، فقال : أنا أقول استغفروا الله ، ثم علق النعال فى عنقه وعلى رأسه . فقال الشيخ لليافعى : انظر ثمرة طريق الفقراء ورياضة نفوسهم ولومهم أنفسهم بمجرد إظهار إخوانهم التشويش وهى : تبسمه حين لم يردوا عليه السلام ثلاث مرات ؛ وجلوسه عند النعال ، ثم جعلها فى عنقه وعدم مطالبتهم بدليل على تشويشهم عليه ، بخلاف ما فعل الفقيه ، قال : فمن ذلك الوقت أقبلت على الاشتغال بطريق الصوفية ، حتى كان أمرى ما كان . وكنت قبل ذلك أقول : وهل ثم طريق يتقرب به إلى الله غير ما عليه الفقهاء ؟ ولا أكاد أسلم للصوفية فى شئ . انتهى .

ووقع لسيدى مدين [١] تلميذ سيدى أحمد الزاهد [٢] : أن جماعة من طلبة الشيخ عبادة المالكى [٣] تركوا الشيخ عبادة وتلمذوا لسيدى مدين ، فتكدر الشيخ عبادة لذلك وصار يحط على الصوفية ويقول :

---

(١) هو الشيخ مدين بن احمد الأشمونى ﷺ : أحد أصحاب العارف بالله الشيخ أحمد الزاهد وكان طريقه هو طريق الإمام الجنيد ﷺ وقد تفرعت عنه هذه السلسلة بمصر وقد أكمل سيدى مدين تلمذته على سيدى شمس الدين الحنفى ﷺ بعد وفاء سيدى أحمد الزاهد .

وكانت له الكرامات الظاهرة بمصر وكان ينفق على مريديه ويجمعهم عنده فى جميع الأوقات لمجالس الذكر وتلاوة القرآن ودروس العلم .

(٢) هو العارف بالله : أحمد بن سليمان الزاهد : كان صاحب علم كبير بالفقه وكان يقال : هو جنيد القوم – فقد كان أشهر صوفية عصره وقد أحيا كثير من علوم التصوف التى اندثرت فى ذلك الوقت وكان يمتحن المريد قبل أن يأخذ عليه العهد سنة أو أكثر .

وله أقوال كثيرة فى الوعظ فى المساجد فقد كان يكثر التردد عليها لوعظ الناس . =

هذا طريق لم يأت بها كتاب ولا سنة .

فلما عمل الشيخ مدين مولده الكبير وامتلأت الزاوية من العلماء والأكابر أرسل سيدى مدين خلف الشيخ عبادة ، وقال للقاصد : قل له : فلان يسألكم فى الحضور ليحصل له بركتكم ، فجاء الشيخ عبادة فأمر سيدى مدين الجماعة أن لا يفسحوا له ولا يقوموا ، فجلس فى صحن الزاوية متكدرا نادما على مجيئه فرفع سيدى مدين رأسه وقام إلى الشيخ عبادة ومسكه بيده وأجلسه بجنبه ولاطفه حتى خمدت أخلاقه ، ثم قال له : سيدى هل يجوز لمسلم أن يقوم فى مذهبكم لمشرك مع عدم الخوف من شره ؟ فقال : عندنا لا يجوز ومن قام له فسق .

فقال له سيدى مدين : فالله عليك أما تكدرت من عدم القيام لك ؟

فقال : نعم ، فقال : كيف تقوم لمن يقول لنا قوموا لى كما تقومون لله رب العالمين ؟

وقد قال رسول الله ﷺ : (من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار) [(١)] فدارت هذه الكلمة فيه ثم قام منتصبا ونادى بأعلى صوته : اشهدوا على يا جميع من حضر أننى أسلمت إسلاماً جديداً على يد سيدى مدين [(٢)] .

ثم قبل رجل الشيخ وتلقن عليه فى ذلك المحفل ، ولم يزل يخدم الفقراء عنده وترك جميع وظائفه إلى أن حضرته الوفاة ، فأوصى أن يدفن تحت عتبة تربة فقراء سيدى مدين بشوق الخشب ، ففعلوا ، فهو مدفون تحتها الآن تواضعاً للفقراء وهضمها لنفسه ، وكان يقول فى حياته : لو لا سيدى مدين لربما كنت من أهل النار الذين هم أهلها . انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : من فوائد الشيخ اختصار

= وتوفى ﷺ سنة نيف وعشرين وثمانمائة .

(٣)" أحد كبار علماء المذهب المالكى .

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وغيرهم عن سيدنا معاوية ﷺ .

(٢) يقصد بذلك أن علوم القوم أفضل مما هو فيه وإلا فهو مسلم ما دام يشهد الشهادتين .

الطريق على المريد وإراحته من شدة التعب من غير ترقى . فهو كما قال سيدى عمر بن الفارض رحمه الله فى حق من لا شيخ له : رضوا بالأمانى ، وابتلوا بحظوظهم ، وخاضوا بحار الحب دعواً فما ابتلوا ، فهم فى السرى لم يبرحوا عن مكانهم ، وما ظعنوا فى السير عنه وقد كلّوا :

وقال سيدى على بن وفا فى حقهم أيضاً تسبحوا من قبل أن يولدوا ، أى لأن أول عمر العبد ولادته فى الطريق ، فمن لم يدخل طريق القوم فكأنه فى بطن أمه لم يولد .

ومن كلام المسيح عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين : بحق أقول لكم : لن يلج ملكوت السموات والأرض من لم يولد مرتين انتهى .

فإذن حكم المريد بلا شيخ حكم من يريد أن يدخل فى زقاق لا يدرى هل ينفذ أم لا فهو يدخل فيه إلى آخره فإذا رآه مسدودا رجع ، ولو أنه كان سأل أحداً ممن له معرفة بالزقاق لقال له من أول دخوله : ارجع فإن هذا زقاق مسدود، ، فكان يريحه من التعب بغير منفعة ، ومثل ذلك واقع للمريد الذى لا شيخ له ، فإن أعماله فى الغالب كالدرب المسدود لاحتفافها بالعلل والآفات القادحة فى الإخلاص المانعة من الترقى فافهم انتهى .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى رحمه الله يقول : طلب الشيخ فى الطريق واجب على كل مريد ولو كان من أكابر العلماء ، وكان يقول : لو أن طالب العلم كان يأتى بالمأمورات الشرعية على وفق ما أمر به من الإخلاص لما احتاج إلى شيخ كما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، لكنه أتى بها محتفة بآفات وعلل تقدح فى صحتها أو قبولها .

فلذلك احتاج المريد إلى شيخ يبين له العلل والآفــات التــى فــى أعمالــه ، فلا يقال : لو كان علاج هذه الأمراض الباطنة واجباً لوضع السلف الصالح من التابعين والأئمة المجتهدين كتبا فى ذلك ، ولم نر لهم كتابا واحداً فى ذلك لأنَّا نقول : إن هذه الأمراض التى حدثت فى أهل زماننا لم تكن ظاهرة فى عصر السلف ولو أنها كانت ظاهرة فيه لاستنبط المجتهدون فى ذلك كتبا كما فعلوا فى

أحكام الدين الظاهرة بل أولى لما هم عليه من الخشية لله ومراعاتهم أنفاسهم معه تعالى ولا يقول عاقل قط : إن أحداً من الأئمة ينظر عند أحد كبرا أو نفاقاً أو رياء ويقره عليه أبداً : بل كان يستنبط له الدواء من الكتاب والسنة ليخرجه من تلك الكبائر التى توعد الله تعالى عليها بالنار ، وأيضاً فإن الأئمة المجتهدين رضى الله عنهم كانوا مشغولين بما هو أهم وأعم نفعاً للإسلام وللمسلمين وهو جمع أدلة الشريعة وتحريرها بعد تفرقها فى البلاد وظهور تناقضها ، وكان مع كل طائفة من الناس شئ منها .

ولا شك أن هذا أمرأهَّم من الاشتغال بعلاج بعض أمراض فى بعض الناس فلولا ، جمع الأئمة للأدلة والبحث عن ناسخ الأحاديث ومنسوخها وعامها وخاصها لما عرف أحد يمشى فى طريق الظاهر ولا الباطن ، لأن تلك الأدلة هى مادة موازين الأعمال والأقوال فى طريق الشريعة والحقيقة ، ثم لما تعددت أدلة الشريعة كما ذكرنا وتمهدت قواعدها قيَّض الله تعالى لطريق الباطن أقواماً كالحارث المحاسبى (١) وأبى طالب المكى (٢) وأبى القاسم القشيرى (٣) وغيرهم

---

(١) كتاب الرعاية لحقوق الله : للحارث بن أسد المحاسبى .
وهو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى .
يقول عنه صاحب الرسالة القشيرية (عديم النظر فى زمانه علماء ووورعا ، ومعاملة ، وحالا)
ويقول عنه التميمى : هو إمام المسلمين فى الفقه ، والتصوف ، والحديث ،والتفسير والكلام.
ويقول عنه الإمام الغزالى : المحاسبى خير الأمة فى علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال .
ومن كلامه : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة ، وسمى بالمحاسبى ، لأنه كان يحاسب نفسه عملا بقول رسول الله ﷺ (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) .

(٢) هو صاحب كتاب قوت القلوب وهو من أشهر المصنفات فى علوم التصوف وبيان أحواله ومقاماته .

(٣) هو الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى النيسابورى الشافعى (٣٧٦هـ) – (٤٦٥م) =

فصنفوا فى علاج أمراض الباطن كتباً واستدلوا على بطلان عبادة كل من لم يوافق باطن لظاهره فيها بأدلة قاطعة كحديث : (كل عمل ليس أمرنا فهو رد) فشمل الأعمال الظاهرة والباطنة .

فكما أبطل علماء الشريعة الصلاة لمخالفة أفعال الصلاة الظاهرة كذلك أبطلها علماء الحقيقة بمخالفة الأعمال الباطنة ، فإن قوله ﷺ (ليس عليه أمرنا) شامل.

لذلك فهل كان ﷺ يرائى بعبادته أن أو يتكبر بها أو يعجب ؟ لا والله .

فكما أنه معصوم : كذلك من يتبعه يكون محفوظا ، فامتحن يا أخى جميع أحوالك بهذا الميزان تجد جميع ما ورد من الثواب فى عمل من الأعمال إنما هو فى حق من أخلص فيه دون من دخله الدخل من الرياء والنفاق مثلاً ، فعلم من جميع ما قررناه أن يجب على من غلب عليه مرض من الأمراض الباطنة من عجب أو كبر أو حسد أورياء أو غل أو حقد أو مكر أن يطلب له شيخاً .

وإن لم يجده فى بلده وجب عليه السفر إليه ، وإن من رزقه الله تعالى سلامة الباطن من هذه الأمراض المهلكة كالأئمة المجتهدين وأضرابهم لا يحتاج إلى شيخ فى الطريق لأن هذا قد عمل بما علم وفق السنة ، وهذا هو غاية ما يطلب بالسلوك كما مر أول المبحث .

قال الإمام القشيرى رحمه الله : وأول ما حدثت هذه الأمراض الباطنة أواخر المائة الثالثة لقوله ﷺ :(خير القرون قرنى ثمّ الّذين يلونهم ثم الذين يلونهَم [(١)])

= ولد ﷺ سنة ست وسبعين وثلثمائة فى شهر ربيع الأول ؛ فى بلدة (إستوا) وكان سكانها من العرب الذين قدموا خرسان .

وهو عربى من قبيلة (قشير بن كعب)

ولقد ألف الإمام القشيرى كتاب الرسالة القشيرية ، توضيحاً وتصحيحاً للفكرة الصوفية فى سلامتها ونقائها .

وقد بين فى هذا الكتاب جانبين : الجانب الأول : سيرة رجال التصوف وبعض أقوالهم .

الجانب الثانى : مبادئ السوك ومناهجه .

توفى ﷺ فى السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٦٥ هـــ.

(١) رواه الحاكم فى المستدرك والطبرانى فى الكبير عن جعدة بن هبيرة . =

فمن شهد له ﷺ بالخيرية فقد حاز رتبة الكمال انتهى ، وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : كان لأهل القرن الأول كمال الإيمان ولأهل القرن الثانى كمال العلم ، ولأهل القرن الثالث / كمال العمل ثم تغيرت الأحوال والمراسم فى أكثر الناس فاجتمع رأى العلماء العاملين على تسمية كل من جاهل نفسه وتبع سلفه الصالح فى الأعمال والأقوال صوفيا ، ومن نزل عنه فى المقام عابداً ، ومن نزل عن ذلك عامياً ، وقاريا يعنى يتلوا القرآن ولا يطالب نفسه بالعمل بما فيه ، بل قنع فى الغالب بتلاوته والعمل ببعض أحكامه دون بعض ، ولم تزل الناس يتنازلون فى كل قرن إلى أن صاروا كما ترى ، وربما ادعى بعضهم أنه على قدم السلف فى أحواله لجهله بأحوالهم ، بل سمعت بعضهم يقول فى مجلسه: لو أدركت بحمد الله الفضيل بن عياض (١) وإبراهيم بن أدهم (٢)

= ورواه الترمذى والحاكم عن عمران بن حصين ، ورواه أحمد والترمذى عن ابن مسعود ، وغيرهم .

(١) هو الفضيل بن مسعود بن بشر التميمى : يقول عنه صاحب الرسالة القشيرية كان الفضيل شاطراً : يقطع الطريق بين ابيورد وسرخس .

وكان سبب توبته : أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها سمع تاليا يتلو (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) فقال يارب قد آن .

ثم أصبح بعد ذلك من كبار المحدثين والأئمة ، المهتدين ، وجاور الحرم ومن كلامه : (من خاف الله لم يضره شئ ومن خاف غيره لم ينفعه شئ) و (يهابك الخلق على قدر هيبتك) و (جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها) ، و (لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها ، كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه .

(٢) هو أبو اسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور : من كورة بلخ ﷺ كان من أبناء الملوك ، فخرج يوما للصيد ، فأثار ثعلبا أو أرنبا وهو فى طلبه ، فهتف به هاتف : يا إبراهيم ، ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت؟ ثم هتف به أيضا من (قربوس) سرجه : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت ، فنزل عن دابته.

وصادف راعيا لأبيه ، فأخذ جبة الراعى الصوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ، ثم إنه دخل البادية ، ثم دخل مكة ، وصحب سفيان الثورى . =

وسفيان الثورى [١] ومالك بن دينار [٢] وبشر الحافى [٣] لسلكتم الطريق ولكنا لم ندركهم فماتوا بحجابهم انتهى ، وهذا القول من قائله زور وبهتان ، وهو فوق الجنون بطبقات ، مع أنه أبلغنى أن هذا القائل بفطر فى شهر رمضان فى بيوت

= وكان من كلامه : أطب مطمعك ، ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار .
وكان عامة دعائه : اللهم انقلنى من ذل معصيتك إلى عز طاعتك .
فقال : أرخصوه ، أى : لا تشتروه .

(١) هو سفيان بن سعيد الثورى ولد سنة ٩٧هـ وتوفى بالبصرة سنة ١٦١هـ وكان عالما زاهداً ، وكان يسمى امير المؤمنين فى الحديث ، وكان إذا جالس للعلم وأعجبه منطقه ، يقطع الكلام – خوفا من الغرور – ويقوم ويقول : أخذنا ونحن لا نشعر ، وكان يملى الحديث ، ويقول : والله لو رآنى عمر بن الخطاب لضربنى بالدرة واقام لى ، وقال : (مثلك لا يصلح للحديث) وكان يقول للناس – إذا طلبوا منه الحديث :– والله ما رأى نفسى أهلا لإملاء الحديث ، وانتم أهلا لأن تسمعوه ، وما مثلى ومثلكم إلا كما قال القائل : (افتضحوا فاصلحوا) .

(٢) هو أبو يحى مالك بن دينار : كان يقول : لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة : لقاء الإخوان ، والتهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه .
وكان يقول فى دعائه : (اللهم لا تدخل بيت مالك بن دينار من الدنيا شئ) ، قال له بعض الولاة : إدع لنا ، فقال : كيف أدعو لكم وألف واحد يدعون عليكم .
وكان يقول : إذا تعلم العبد العلم ليعمل به كثر علمه ، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فجوراً وتكبراً واحتقاراً للعامة .
وتوفى ﷺ سنة إحدى وثلاثين ومائة .

(٣) هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافى : أصله من مرو وسكن بغداد ، ومات بها توفى سنة سبع وعشرين ومائتين .
قال أبو عبد الله بن الجلاء : رأيت ذا النون وكانت له عبارة ، ورأيت سهلا وكانت له إشارة ورأيت بشر بن الحارث وكان له الورع .
فقيل له : فإلى من كنت تميل ؟ فقال : لبشر بن الحارث أستاذنا .
ومن قوله : رأيت النبى ﷺ فى المنام ، فقال لى : يا بشر ، أتدرى لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ قلت : لا ، يا رسول الله ، قال : باتباعك لسنتى ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابى ، وأهل بيتى : هو الذى بلغك منازل الأبرار .

المكاسين [1] . ولو علمت أن يهتدى لقول مثلى : لبينت له أنه لا يصلح أن يكون تلميذا لأحد من هؤلاء الأشياخ الذين ذكرناهم ، وقد بلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يأكل الطعام حتى يفتشه إلى عاشر يد يتداول عليه فى الحل فإن لم يجد الأيدى العشرة تداولت عليه فى الحل امتنع من أكله وطوى ، وبلغ من ورعهم أن أحدهم لم يأكل من سمك الدجلة بعد أن نقص جندى سفرته فيها للسمك إلى أن مات .

وكان كل واحد يقول : يحتمل أن هذه السمكة أكلت من ذلك الفتات أو أحداً من أمهاتها ، وبلغ من ورعهم : أن أحدهم كان لا يأكل من زرع أرضه ، بعد أن دخلت بهيمته طين جاره فى المطر ورجعت إلى أرضه ؛ وفى قوائمها من طين الجار فاختلط بطينه وبلغ من ورعهم أنهم كانوا لا يمشون فى ظل عمارة أحد من الولاة أو حاشيتهم فضلا عن الجلوس فيه أو فى ذلك البناء .

وبلغ من ورعهم أن أحدهم كان لا يسقى دابته من بئر حفرها أحد من الظلمة إلا لضرورة كأبيار طريق الحجاز ونحوها مما تركه يفضى إلى الهلاك ، وبلغ من ورعهم أن جماعة إبراهيم بن أدهم كانوا يحصدون بالأجرة إلى آخر النهار ؛ ثم يردون تلك الأجرة على صاحبها ، ويقولون : نخاف أن تكون ما بذلنا طاقتنا وجهدنا فى الحصاد هذا اليوم ثم ينامون طاويين ، وجاءوا يوماً من الحصاد وكان باب فرنهم قد تهدم بعضه فوجدوا شخصا أصلحه لهم يخبزوا فيه ، بعد ذلك ، لأجل الطين الذى لطخه به .

وبلغ من ورعهم أنهم كانوا تركوا الأكل مما وصلت إليه يد بنى آدم مطلقا وصاروا يأكلون من حشيش البرارى إلى أن صار بدن أحدهم ترى خضرة البقل من ظاهره .

وبلغ من عقوبة أحدهم على شربه من ركوة جندى فى طريق الجحار أن قلبه قسى عليه ثلاثين سنة حتى صار لا يستلذ بعباده مع صيامه الدهر ثم نودى فى سره بعد ثلاثين سنة الآن قد خلصت من تبعة تلك الشربة ، وبلغ من ورعهم

---

(١) رجال الضرائب والجمارك لأنهم كانوا يشتهرون بالظلم فى ذلك الوقت .

أنهم كانوا يقولون لأصحابهم إياكم أن تقتدوا بنا فى جميع أحوالنا فإننا قد خلطنا فى أحوالنا وأعمالنا .

وبلغ من ورع جدى الشيخ على الشعراوى رحمه الله : أنه لم يأكل من عسل النحل ببلده إلى أن مات بعد أن قال له أهل البلاد المجاورة : أن نحل بلدكم يأكل زهر فواكهنا ، فاستفتى له والدى شيخ الإسلام يحيى المناوى فقال : هذا تنطع .

فقال له جدى : بل هو ورع ، فقال شيخ الإسلام : قد قال الله تعالى وهو المالك الحقيقى للنحل ﴿ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [١] . فقال له جدى : إن هذا محمول على الثمرات المباحة دون المملوكة وقد رأيت أهل الزهد لا يسمحون بذلك .

فقال شيخ الإسلام : إن الحق أطلق فقال جدى : للعبد أن يترك الحلال إذا شاء .

وكذلك بلغ الناس من خوف السلف من الله تعالى : أن أحدهم كانوا يشمون من جوفه رائحة الكبد المشوى منهم أبو بكر وعمر المشهود لهما بالجنة ، ومنهم سفيان الثورى والحسن البصرى [٢] وعطاء السلمى [٣] وكانوا إذا اسمعوا شيئا

---

(١) وتمام الآيات وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .

سورة النحل الآيات من : ٦٨ إلى ٦٩ .

(٢) هو أبو سعيد الحسن البصرى : كان والده من أهل ميسان فسبى فهو مولى الأنصار .

وكان قد غلب عليه الخوف حتى كأن النار لم تخلق إلا له وحده .

وكان يقول : ذهبت المعارف ، وبقيت المناكر ومن بقى من المسلمين فهو مغموم .

وكان يقول : ما من وسواس نبذ فهو من إبليس وما كان فيه إلحاح فهو من النفس فيستعان عليه بالصوم والصلاة والرياضة .

مات ﷺ وهو صائم سنة أربع وتسعين .

(٣) وهو عطاء السلمى : غلب عليه الحزن والخوف حتى مكث أربعين سنة على فراشه لا يستطيع القيام. =

من أحوال القبر أو يوم القيامة يمكث أحدهم الأيـام والليالـى يبكـى ولا يأكـل ولا يشرب ، وخرج الحسن البصرى فى جنازة فلما رآهم وهم ينزلون الميت صاح وخر مغشيا عليه فما رجعوا به إلى بيته إلا فى النعش ، وبكى عمر بن عبد العزيز [١] ليلة حتى جرت دموعه ونزلت من ميزاب غرفته .

وكان يغلب عليه البكاء فيصير يرش دموعه على الأرض حوله حتى يأتى الرجل فيظن أن ذلك ماء الوضوء ، وبكى الفضيل وبشر الحافى وسفيان الدم بعد نفاذ الدموع ، ولما مرض سفيان ذهبوا ببوله إلى حكيم من اليهود فقال : هذا بول رجل قد قطع الخوف من الله تعالى كبده ، ثم مات سفيان بعد ثلاثة أيام .

وكان السرى السقطى [٢] ﷺ كلما استيقظ من نومه يبادر إلى مسح وجهه بيده فقيل له فى ذلك : فقال أخاف أن يكون الله تعالى قد مسخ صورتى لسـوء ما أتعاطاه من الأعمال .

وكان معه مرآة لم يزل كل قليل ينظر وجهه فيها ويقول : إنى أخاف أن يحول الله صورتى صورة خنزير .

وكثيراً ما كان ينظر كل قليل إلى أنفه ويقول : إنى أخاف أن يكون وجهى قد أسود من المعاصى .

ولما مرض قال لأصحابه : اشتهى أن أموت ببلد غير بغداد مخافة أن لا يقبلنى قبرى فافتضح .

= وكان ﷺ كثير الدموع ، حتى كان الناس يظنون البلل الدى حوله من آثار الوضوء وهو من آثار الدموع

(١) خامس الخلفاء الراشدين .

(٢) هو أبو الحسن سرى بن المغلس السقطى : خال الجنيد واستاذه .

وكان تلميذ معروف الكرخى ، وكان أوحد زمانه فى الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد ، ومن كلامه: التصوف : اسم لثلاث معان : وهو الذى لا يطفئ نور معرفته نور ورعه .

ولا يتكلم بباطن فى علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة .

ولا يتحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله .

توفى السرى سبع وخمسين ومائتين .

وكذلك بلغنا عن شيخه معروف الكرخى (١) .

وكان مالك بن دينار لا يخرج مع الناس فى الاستسقاء ويقول أخاف أن يمطر السماء عليهم حجارة بسببى .

وأخرجوه مرة مكرها فقال : أنتم تستبطئون المطر وأن استبطئ الحجر .

وكان سفيان الثورى إذا مرت به سحابة وهو يملى الحديث يقطع التحديث، ويقول : اصبروا حتى تمر فإنى أخاف أن يكون فيها حجارة ترجمنا بها .

وطلب جماعة كرامة من سيدى عبد العزيز الديرينى (٢) ﷺ فقال : وهل ثم لعبد العزيز كرامة فى القرن السادس أعظم من أن الله تعالى يمسك الأرض تحت رجله إذا مشى ولم يخسفها به ؟ ثم قال : والله ما أرفع رجلى عن الأرض ثم أضعها وارى الأرض ثابتة تحتها وفى عينى قطرة انتهى .

وكان آخر من أدركته أنا على هذا القدم ، سيدى على الضريـــر النبتينـــى ، وشيخ الإسلام زكريا ، وسيدى على الخواص ، وسيدى محمد بن عنان ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، والشيخ على النجدى ، وأخى أفضل الدين .

كان كل واحد من هؤلاء ، يغلب عليه البكاء والخوف ، فيصير يتمرغ فى الأرض ، كالطير المذبوح .

وبلغ من هضمهم نفوسهم ، مع شدة إخلاصهم ، وكثرة أعمالهم : أن أحدهم

---

(١) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكوخى : كان من المشايخ الكبار ، مجاب الدعوة ، يستشفى بقبره

ومن كلامه : قال لى بعض أصحاب داود الطائى : إياك أن تترك العمل ؛ فإن ذلك يقربك إلى رضا مولاك، فقلت : وما ذلك العمل ؟

فقال : دوام طاعة ربك وخدمة المسلمين ، والنصيحة لهم .

وقيل له فى مرض موته : أوصى .

فقال : إذا مت فتصدقوا بقميصى ؛ فإنى أريد أن أخرج من الدنيا عريانا كما دخلتها عريانا ، توفى ﷺ سنة مائتين.

(٢) هو العارف بالله سيدى عبد العزيز الدرينى ﷺ : صاحب المصنفات الكثيرة فى التفسير ، والفقه ، واللغة ، والتصوف ، وتوفى ﷺ سنة سبع وتسعين وستمائة .

كان يقول من أراد أن ينظر إلى مرائى فلينظر إلى .

وقالت امرأة لمالك بن دينار يوماً : يا مرآئى ، فقال : لقد عرفت يا هذه اسمى الذى أضله أهل البصرة فلم يعرفوه .

وقال له شخص يوماً : يا شيخ السوء فقال : ما أبعدت عن صفتى .

وبلغ من شدة مراقبتهم الله تعالى وإقبالهم على عبادته : أن أحدهم كان يصلى الصبح بوضوء العشاء الأربعين سنة وأكثر .

وكان أحدهم يمكث السنة ، وأكثر لا يخطر فى نفسه الطعام ، إلا إن أحضروه بين يديه .

وقال أبو القاسم الجنيد مرة للشبلى [(١)] : يا أبا بكر إن خطر فى بالك من الجمعة إلى الجمعة غير الله فلا تعد قانتا فإنه لا يجئ منك شئ فى الطريق .

وكان لا يجتمع بالجنيد إلا يوم الجمعة فقط .

وكان سهل بن عبد الله التسترى رحمه الله يقول لى : منذ ثلاثين سنة أكلم الله تعالى والناس يظنون أنى أكلمهم .

ومكث الشيخ عبد القادر الجيلى فى بداية أمره سنة لا يأكل ولا يشرب ولا ينام كما أخبر بذلك عن نفسه .

---

(١) هو ابو بكر دلف بن جحدر الشبلى : بغدادى المولد والمنشأة ، واصله من (أسروشنة) صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته : حالا ، وظرفا ، وعلما .
مالكى المذهب ، عاش سبعا وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وقبره ببغداد .
ومن كلامه : ليس من احتجب بالخلق عن الحق كمن احتجب بالحق عن الخلق .
وقال : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا فانظر إلى نفسك ؛ فخذ كفا من تراب ، فإنك منه خلقت وفيه تعود .
وسأله رجل : أى الصبر اشد ؟ قال : الصبر فى الله ؟ قال : لا ، قال : الصبر مع الله ، قال: لا ، قال الصبر لله ، قال : لا ، قال : فأى شئ ، قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلى وأنشد .

الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليـك فإنـه لا يجمـل .

ومن أدركته على هذا القدم مرشد مكث خمسين سنة لم يزد على زبيبة كل يوما كما أخبر بذلك عن نفسه .

وكان الشيخ تاج الدين الذاكر [١] يمكث على الوضوء الواحد من يوم الجمعة إلى الجمعة .

وكان لا يدخل الخلاء إلا كل خمسة عشر يوما مرة ، وسائر وضوئه إنما هو تجديد كما أخبرنى بذلك خادمه الشيخ عبد الباسط الطلخاوى .

وكان يقول : كان الإمام الأوزاعى [٢] ﷺ لا يدخل الخلاء إلا كل شهر مرة فرقت بطنه فصار يدخل كل خمسة عشر يوماً مرة ، فكانت والدته تقول لأصحابه: ادعوا لعبد الرحمن فإنه مبطون .

وكانت هى كذلك لا تدخل الخلاء إلا فى كل ثلاثين أو أربعين يوماً . وكذلك بلغنا عن الإمام مالك [٣] والإمام البخارى [٤]= أنهما كانا لا يدخلان الخلاء إلا كل

---

(١) هو الشيخ تاج الدين الذاكر : كان ذا سمت حسن وتجمل بالأخلاق الجميلة .
وكان له كثير من المريدين والاعتقاد التام فى قلوب الناس جميعا ، وكان كثير الشفاعات ، لدى السلطان والأمراء، وكان يمكث السبعة أيام بوضوء واحد .
ومن كلامه : ليس القناعة أن يأكل الفقير كل ما وجد من يسير الخبز والأدم ، إنما القناعة أن لا يأكل إلا بعد ثلاثة لقيمات يقمن صلبه وأكثرها خمس .
وكان ﷺ عنه يقول : لا تصح الصحبة لشخص مع شيخه إلا إذا شرب من مشروبه واتحد به اتحاد الدم فى العروق .
توفى رحمه الله سنة نيف وعشرين وتسعمائة .

(٢) هو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى : ولد سنة ثمان وثمانين ومات سنة سبع أو خمسين ومائة ، وكان مولده ببعلبك ومات فى بيروت .
وكان ﷺ يقول : أدركنا الناس وهم أول ما يستيقظون ويصلون الصبح يتفكرون فى أمر معادهم وما هم صائرون إليه ، ثم يفيضون بعد ذلك فى الفقه والقرآن .
ودخل عليه المنصور وقال له : عظنى : فقال ما أحد من الرعية إلا وهو يشكو بليه أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها إليه .

(٣) هو الإمام مالك ابن أنس : إمام دار الهجرة ومحدثها الكبير وصاحب المذهب المالكى المعروف ، ولد سنة ثلاث وتسعين ومات سنة تسع وسبعين ومائة ، ودفن بالبقيع . =

ثلاثة أيام ، وكانا يقولان : والله استحينا من الله تعالى ، من كثرة ترددنا إلى الخلاء فى كل ثلاثة أيام .

وبلغ من حيائهم أنهم كانوا يرخون الطيلسان على وجوههم من الحياء ، حتى لا يراهم أحد من الناس ولا يرونه .

فقال لهؤلاء المدعين الذين جلسوا فى زماننا هذا بغير إذن من أشياخهم : بالله عليكم هل شممتم رائحة من ورع هؤلاء القوم أو خوفهم من الله أو هضمهم نفوسهم ؟ لا والله ما شم أحد منهم ذلك ، إنما هى دعاوى كاذبة .

ولو أن هؤلاء كان لهم شيخ لبين لأحدهم عيوبه ونقائصه ، وكان يخاف من الله تعالى أن يدعى كمال مقام الإسلام فضلا عن غيره .

وقد درج السلف الصالح الذين لم ندركهم ، ومن أدركناهم من مشايخ مصر على هضم نفوسهم مع شدة الاجتهاد فى العبادة ليلا ، ونهاراً ، حتى لو أنه قيل لأحدهم : غداً تقوم القيامة ما وجد زيادة من استغراقه الزمان كله بالعبادة .

ومع ذلك كان الحسن البصرى يقول : والله لو حلف حالف أن أعمال الحسن أعمال من لا يؤمن بيوم الحساب لقلت له : صدقت يا أخى لا تكفر عن يمينك .

= وكان ﷺ يقول : لا ينبغى للعالم أن يتكلم بالعلم عنه من لا يطيعه فإنه ذل وإهانة للعلم .

وكان يمشى فى أزقة المدينة حافيا ماشيا ، ويقول : أنا استحى من الله تعالى أن أطأ تربة فيها قبر رسول الله ﷺ بحافر دابة .

ومناقبه اشهر من أن تعرف .

(٤) هو محمد بن إسماعيل البخارى : إمام أهل الحديث وصاحب الجامع الصحيح كتاب الحديث المتفق عليه بين جميع علماء المسلمين ، ولد ﷺ ببخارى سنة أربع وتسعين ومائة ، ومات ﷺ عنه ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين ، ودفن بخرتنك ، قريه قريبة من سمر قند .

وكان ﷺ يقول : المادح والذام من الناس عندى سواء .

ومن أقواله : أرجوا أن ألقى الله تعالى ، ولا يطالبنى أنى اغتبت .

وربما قام فى الليل نحو العشرين مرة يقدح الزناد ويسرج ويكتب أحاديث .

ومناقبه اشهر من أن تعرف .

وسئل الإمام أبو حنيفة عن الأسود وعلقمة : أيهما أفضل ؟ فقال : والله ما نحن بأهل أن نذكرهم .

فكيف نفاضل بينهم ؟

وقال رجل لإبراهيم التيمى [(١)] : ما تقول فى هذه المسألة يا فقيه ؟ فقال إبراهيم : والله إن زمانا صار مثلى فيه ينادى بالفقيه لزمان سوء .

وبلغ مالك ابن دينار : أنّ بعض الناس يصفه بالصلاح ، فقال : والله إن زمانا صار مثلى فيه موصوفا بالصلاح ، لزمان ما بقى لأهله صلاح .

وكان ابن أبى رواد يقول : إذا ذكرت أحوال الصالحين بين أمثالنا افتضحوا.

فعلم من جميع ما قررناه من أحوال السلف الصالح : أن غالب هؤلاء المدعين الذين برزوا فى هذا الزمان عن طريق الصالحين بمعزل .

وما بسطت لك يا أخى هذا المحل إلا مبالغة فى زجر هؤلاء المدعين عن الدعوى لإرادة للطريق ، فضلا عن كونهم من المشايخ ، فضلا عن كون أحدهم قطبا .

وقد أفتى بعض المتأخرين بأنه لا يجوز لنا الاقتداء بغالب هؤلاء المشايخ الذين ظهروا فى النصف الثانى من القرن العاشر ، ولا الوقوف عند أقوالهم لجهلهم بقواعد طريق القوم ، فإن من قواعدها التضلع من الكتاب والسنة حتى يصير يقطع مشايخ الإسلام بالحجج فى مجلس المناظرة .

وأما هؤلاء فهم كما ترى لعجز أحدهم أن يقرأ مثل كتاب أبى شجاع فى الفقه، وعلم التصوف الذين يزعمونه ، فقد أجمع مشايخهم على أنه مشيد بالكتاب والسنة كما سيأتى بيانه أوائل ذكر الأخلاق ، فى الباب الأول إن شاء الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو إبراهيم التيمى : توفى فى سجن الحجاج سنة اثنتين وتسعين هـ .

قال الأعمش : قلت لإبراهيم التيمى ﷺ : بلغنى أنك تمكث شهر لا تأكل شيئاً ، فقال : نعم وشهرين ، وما أكلت منذ أربعين ليلة إلا حبة عنب ناولنيها أهلى فأكلتها ولفظتها فى الحال .

وكان يقول : إذا رأيت الرجل يتهاون فى التكبيرة الأولى فاغسل يديك منه .

وأما بيـان أن القـوم يبلغـون درجـة الاجتهـاد المطلـق

فاعلم رحمك الله أن هذا المقام يبلغه المريد فى حال سلوكه قبل أن يصل إلى درجة الكمال كما صرح بذلك الشيخ محى الدين فى باب صلاة الجنائز من كتاب الفتوحات فقال : وإذا بلغ المريد مقام الاجتهاد هل يعمل بما ظهر له أو يقف عند شيخه ؟ الذى أراه أنه يقف عند قول شيخه لارتفاع شيخه عن الظن بوصوله إلى علم اليقين ، أو عين اليقين ، أو حق اليقين انتهى .

ثم أن المريد يرتقى من مقام الاجتهاد فى الأحكام الظاهرة إلى الاجتهاد المطلق فى الأحوال الباطنة فلكل عبادة عنده شروط فى مقام الإسلام والإيمان والإحسان والإتقان يخالف، شروط المقام الآخر ، كما أن لهم فى مقام الاجتهاد فى طريق علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين أركانا وشروطا وسننا وآدابا تخالف ما فى العلم الآخر فللوضوء والصلاة والزكاة والصيام والحج فى كل مقام شروط وأركان تخصه لا يمكن العبد أن يرقى إلى ما بعد ذلك المقام حتى يعرف تلك الشروط والأركان .

وهذا أمر ما رأيت أحداً نبه عليه إلا إن كان ذلك وقع ولم يبلغنا ، ومن تأمله وجد كثيراً من مشايخ هذا العصر من قسم العوام ، وإنما فتحت لك يا أخى هذا الباب ليقل إنكارك على القوم إذا رأيت لهم كلاما لم تفهم معناه فتجعله من جملة ما استنبطوه باجتهادهم فى طريق الباطن من علم اليقين ، أو عين اليقين ،أو حق اليقين .

ولما صنعت كتابى المسمى بأسرار الطريق لم أجد له ذائقا من إخوانى إلا القليل فأشعت فى مصر إنى غسلته ، حتى سكنت نفوسهم مع أنه كله حقائق .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى لأحد الإنكار على شئ من كلام القوم إلا أن رآه مخالفا لصريح الأحاديث وقواعد الشريعة .

وكان شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول : لا يخلوا كلام القوم من ثلاثة أحوال : إما أن يوافق صريح السنة فهذا لا كلام لأحد فيه ، وإما أن يخالف

صريـح السنـة فهذا لا يجوز لأحد العمل به ، وإما أن لا يظهـر لنـا موافقته، ولا مخالفته فأحسن أحواله للوقف انتهى .

وحيث علمت أن فى القوم مجتهدين فى طريقهم فسلم لهم يا أخى ما أدى إليه اجتهادهم كما تسلم للمجتهدين فى الشريعة الظاهرة من غير مطالبتهم بدليل ، لاسيما ما حكوا فيه الإجماع ، وإياك أن تقول كما يقول القائل : هذا منزع صوفى كهيئة المتبرى منه فإن ذلك سوء أدب .

وإن كنت ولابد قائلا ذلك فقل عقبه : لا نطيق المشى عليه فإن ما شرطوه محمود بلا شك وكل عن مقام يتكلم .

فمما شرطوه فى صحة الوضوء والغسل أن لا يكون على عضو من أعضاء التظهير لمعة من المعصية الباطنة والظاهرة ولا بقية ميل إلى معصية : وذلك بالتوبة النصوح عند غسل كل عضو ليطهر العضو باطناً وظاهراً .

ومن كان عليه بقية ميل إلى تلك المعصية المتعلقة بذلك العضو فوضوءه باطل عندهم . ومما شرطوه فى الصلاة الخشوع ، وإن لا يشتغل عن شهود الحق تعالى بقلبه فيها إذا تدبر فى معانى الآيات .

وقالوا : إنما أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن ليجمع بذلك قلوبنا عليه لا ليفرقنا بوجه من الوجوه فآية تذهب بنا إلى الجنة ، وآية تذهب بنا إلى النار ، وآية تذهب بنا إلى تخيل قوم نوح ، وما جرى لهم ، وقوم موسى وما جرى لهم ، فإذا تخيلهم المصلى فى ذهنه حجب بذلك عن الله تعالى .

وإذا تعارض عندنا أمران راعينا الأفضل منهما ، ولاشك أن الإقبال على مشاهدة الحق تعالى أعظم من الإقبال على أحكامه وعباده .

وقد قالوا : من شأن النفس عدم القدرة على اشتغالها بمراعاة شيئين معا فى آن واحد بحيث لا يشغلها أحدهما عن الآخر . أ . هـ. فإن مد الحق تعالى بعض أوليائه بالقوة على مراعاة شيئين فى آن واحد فذلك فضل عظيم من الله تعالى .

ومما شرطوه أيضاً فى صحة الصلاة : أن لا يكون فى باطـن العبـد غـل،

ولا حقد ولا مكر ، ولا بغى ، ولا شحناء ولا ريــاء ، ولا نفــاق ، ولا عجــب ، ولا كبر ، بل يكون طاهراً مطهراً من هذه الأمراض كلها .

ويجمعها كلها محبة الدنيا ، فكل من رجح الذهب على التراب فصلاته باطلة عندهم إلا إن كان الترجيح من حيث الحكمة التى جعلها الله فيه دون التراب ، فإن الله تعالى شرف الذهب على التراب من حيث المعاملة به لا غير ، وإلا فالتراب أب للذهب وغيره من سائر ما خلق منه أو استخلص منه .

ويتفاوت الناس فى هذه الطهارة ، فمنهم من يؤاخذ بخطور شئ من أمراض الباطن على قلبه فى الصلاة ، ومنهم من يسامح بيسير الحقد أو العجب مثلا [١].

ومنهم من لا يسامح على صورة النجاسة الظاهرة على البدن على حد سواء بل مراعاة الطهارة منها فى الباطن أولى لأنها محل نظر الله عز وجل كما ثبت فى صحيح مسلم مرفوعا : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم [٢] .

ومنهم من يشترط فى صحة الحضور مع الله من حين يحرم إلى حين يسلم .

ومنهم من لا يشترط فى حقه إلا الحضور فى أكثرها فقط .

ومنهم من يسامح بالغفلة فى قيراط من أربعة وعشرين قيراطاً .

ومنهم من لا يسامح به وهكذا .

ومنهم من إذا سلم من صلاة الفرض يستمر معه الحضور مع الله الصلاة التى بعدها كالملامتية من الأولياء الذين هم على قدم ابى بكر الصديق ﷺ .

ومنهم من يستمر معه الحضور بعد سلامه إلى أواخر وقت تلك الصلاة .

ومنهم إلى الدرجة أو الدقيقة .

فعلم ، أن يصدق على من دام حضوره إلى الصلاة الآتية أنه من : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [٣] ويؤيده حديث (إن أحدكم فى صلاة ما انتظر

---

(١) ويكون السماح فى أول الطريق مثلا حتى تنتزع من المريد أمراض النفس تدريجيا .

(٢) وتمام الحديث (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

(٣) ويؤيده حديث (أن رسول الله ﷺ قال : ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع الدرجات . =

الصلاة، كما أن المراد بالذين هم على صلاتهم يحافظون من يفتح صــلاة أخــرى كلما حصل عنده غفلة عن الله .

وعلم أيضاً أن من يستمر معه الحضور إلى الصلاة الآتية لا يطالب بكثرة النوافل لأنه لا معنى للاشتغال بالقيام والجلوس فى حضرة الشهود ومعلوم أن سائر العبادات ما شرعت بالأصالة ، إلا ليحضر العبد فيها مع ربه ويصير مشاهداً له ، وهذا المعنى قد حصل له بصلاة الفريضة، ومن هذا قلت نوافل الملامتية [1].

وربما كان بعض من لا ذوق عنده بأحوال القوم يرجح العباد الذين يكثرون من النوافل على الملامتية ، مع أن كل ذرة من أعمال الملامتى يرجح على جبال العبادات من العباد .

اللهم إلا أن يكون من حصل له مقام الشهود داعياً إلى الله تعالى ، فله أن يقوم فى الحضرة ويصلى ، ويفعل جميع الأمور التى أمر الله تعالى بها مطلقاً ، ليقتدى به الناس ، فى ذلك ، ويتلذذوا بنعيم مشاهدتهم له تعالى ، ويشكروه على تأهيله لهم فى الوقوف بين يديه ، فإن ذلك أعظم نعيم فى الدارين ولولا نعيم مشاهدته فى الجنة ما أحبها أهل الله تعالى ، لأن غاية ما فيها أكل وشرب وجماع ونحو ذلك وليس هو مقصود القوم .

ولم علم ﷺ أن فى أمته من لا يطيق الدوام على الحضور مع الله تعالى من صلاة الفريضة إلى أختها : شرع لأمته النوافل فيما بين الفريضتين مصلحة لهم ليقع لهم شهوده بعد ذلك الحجاب الذى وقع لهم بعد سلامهم من الفريضة .

وشرع لهم قيام الليل وصلاة الضحى لبعد الزمن بين صلاة العشاء ، والصبح

=قالوا بلى : يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطأ إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط) رواه مسلم .

وروى الشيخان (عن أبى هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : لا يزال أحدكم فى صلاة مادامت الصلاة تجسه لا يمنعه أن ينقلب إلى أهله إلا الصلاة) .

(١) طائفة من الصوفية إلا أنهم يخفون أعمالهم من العبادة وغيرها عن الناس ويسترون عليها حتى لا يفرق بينهم وبين العامة فتبعد عنهم صفة الرياء .

وبين الصبح والظهر .

وأوجب الله تعالى ذلك على رسول الله ﷺ وجوب رحمة وتقريب لئلا يطول زمن الحجاب على أمته وليكون له ثواب كل من قام الليل أو صلى الضحى مثلا فإنه رأس الدعاة إلى الله تعالى ، واعتياد باطنه ﷺ أنه لا يمكنه مفارقة حضرة ربه ، ولو لم يوجب الحق تعالى عليه ذلك ، لأن ذلك نعيمه ﷺ فالألف سنة عنده فيها كلمحة ، وجميع ما سماه العلماء تكليفاً هو نعيم للخواص والكلفة فيه من حيث ما يحصل للخواص من عظيم هيبة الله ، وإجلاله لا من حيث مطلق القيام ، والركوع ، والسجود مثلا فإنه لا يتكلف لذلك إلا المنافقون الذين خذلهم الله تعالى وأضلهم على علم ولم يكن عندهم رائحة محبة الله ، نسأل الله العافية فقد بأن لك وجه تسميتها تكاليف في حق الخواص . والله أعلم .

ثم لما كان جميع الدعاه إلى الله أمناء الرسل على الأمم كان لهم مقام الاستحسان والاستنان فلهم أن يستنوا لتلامذتهم ويستحسنوا لهم ما يرونه أصلح لهم مما هو داخل تحت أصل ورد فى الشريعة .

فربما رأى الداعى إلى الله تعالى أنه لا يتحصل من صلاة المريد أربع ركعات من النافلة ثواب ركعة واحدة مثلا فقال له : صل قبل العصر ثمان ركعات أربع أصلية هى السنة وأربع كالجبر لها مثلا فلا ينبغى لأحد المبادرة إلى الإنكار على الشيخ ، كما لا ينبغى الإنكار على من أعاد صلاته بخلل ظاهر رآه فيها .

وفى الحديث (الصلاة خير موضوع فاستكثر من ذلك أو أقل [(١)]) فلا يسمى بدعة إلا ما لم يكن مندرجاً تحت أصل لأن مثل ذلك ، هو الذى ينكر ، لأنه زيادة لم يأذن بها الله فصور يا أخى كمال عبادة عبد ثم انهه عن الزيادة على المشروع التى تشق .

وقد سن الشيخ أبو مدين بالمغرب لأصحابه صلاة ركعتين بعد الطعام فهم يفعلونها إلى الآن وأقره على ذلك علماء المغرب لأنهما شكر الله على تلك النعمة.

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة : ونص الحديث : (الصلاة خير موضوع فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر) .

وسن الشيخ محى الدين بن العربى صلاة الاستخارة صباحاً ومساء لجميع ما يقع على يديه من الحركات والسكنات فى ذلك اليوم أو تلك الليلـــة ، وقـــال : من لم يقدر على فعلها كل يوم فليفعلها فى كل جمعة أو شهر أو سنة ويقول فى نيتها [١] : اللهم إن كنت تعلم أن جميع ما أتحرك فيه أو اسكن من وقتى هذا ، إلى مثله ، ومن الغد ، أو من الجمعة ، أو الشهر ، أو السنة ، خيراً لى فى حق نفسى ، وحق غيرى ، أو يتحرك فيه غيرى ، أو يسكن فى حق نفسه ، وغيره خيراً لنا ، فى ديننا ، ومعاشنا ، وعاقبة أمرنا ، عاجله ، وآجله ، فأقدره لنا ، ويسره لنا إلى آخر الدعاء .

ثم إن هذا الذى قررناه ، وبطلان الصلاة من الوضوء ، بعدم التوبة من الذنوب الظاهرة وتوبة القلب من الكبائر الباطنة ، هو فى مقام الإسلام الباطن ولهم فى مقام الإيمان ، والإحسان الباطن ، من شروط أخر أرقى من هذه كما أوضحناه فى كتابنا المسمى بالنور المبين فى بيان مقامات كمل العارفين [٢] . وهو كله يرجع إلى قولهم حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فما يتقرب به البر ، يستغفر منه المحسن .

وربما كان بعضهم يستغفر من حضوره مع الله تعالى ، وذلك لأن ما حضر مع الله تعالى حتى مثله فى ذهنه وأقام ذلك فى مخيلته ، وتعالى الله فى علق ذاته [٣] عن مثل ذلك ، فالكمال أن العبد يعبد ربه على الغيب فإنه اللائق بالتنزيه.

ومن هنا قال المحققون فى حديث : (اعبد الله كأنك تراه [٤]=) أنها حالة التعليم ثم إنه يترقى منها إلى حالة الكمال وهو أن يعبده على أنه تعالى هو الذى يرى عبده فيبقى مع نظره تعالى المحقق إليه لا مع نظره هو المتوهم .

---

(١) روى الترمذى وحسنه عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع) .

(٢) أتى ذكره فى المقدمة عند ترجمة الإمام الشعرانى .

(٣) يقصد فى حق ذاته .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : إياكم أن تنكروا على شيخ أمر تلميذه بتقديم صلاة النافلة على العلم لأنه طلب له الحضور مع الله تعالى حين رأى قلبه قد مات من طول الحجاب [1] ، وقليل من الناس من تحصل له الحضور مع الله تعالى حال مطالعة العلم أو الحضور مع الله تعالى فى العلم ولا يكون إلا للكمل الذين انتهى سلوكهم وعرفوا الله تعالى ، وثم من المريدين من لا يقدر على طول المكث فى حضرة الله تعالى ، فهو طول الليل والنهار يخرج ثم يدخل فيؤمر بالصلاة كلما دخل الحضرة ، كما قالوا فى الداخل إلى مكة : أنه يستحب له الإحرام بلبيك كلما دخل إلا أن يتكرر دخوله كحطاب وصياد ، ومنهم من يطول مكثه فى الحضرة ، ثم مرادنا بالحضرة الإلهية التى يدخلها الفقراء هو شهودهم أنهم بين يدى الله تعالى ، وهو ناظر إليهم ، فما دام أحدهم يشهد ذلك فهو فى الحضرة ، فإذا احتجب عنه هذا الشهود خرج من الحضرة فافهم .

---

(٤)= وتمام الحديث : روى الإمام البخارى : قال : حدثنا مسدد ، قال حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، أخبرنا أبو حيان القيمى عن أى زرعة عن أبى هريرة قال : كان النبى ﷺ بارزا يوما للناس

فأتاه جبريل فقال : ما الإيمان ؟

قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث .

قال : ما الإسلام ؟

قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان .

قال : ما الإحسان ؟

قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان ، فى خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم قال النبى ﷺ (إن الله عنده علم الساعة) الآية.

ثم أدبر ، فقال ردوه فلم يروا شيئاً .

فقال : هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم . .

(١) فترقيق للقلب وتصفيته أولى لكى يصبح وعاءاً صالحا لذلك العلم .

ومما شرطوه فى قبول الزكاة والصدقة عدم المن بها على من يأخذها من الفقــراء والمساكين وبقية الأصناف ولو بالقلب ، فمتى خطر له أن له فضلا على ذلك الأخذ ولو بالقلب فقد منّ وحبط عمله كما أطلقته الشريعة .

ومما شرطوه فى صحة الاعتكاف عدم خروج القلب من حضرة الله تعالى ، من حين يدخل فى الاعتكاف إلى أن يخرج ، ومتى مال إلى شهوة بقلبه وهو بين يدى الله ، أو حجب عن شهود أن الله يراه ، فقد بطل اعتكافه فيجب عليه تجديد النية إلا أن يكون ممن أعطاه الله تعالى القوة على الاشتغال بالله وبالخلق معاً لا يشغله الخلق عن الحق ، وعكسه بحكم الإرث لرسول الله ﷺ والله أعلم .

ومما شرطوه فى صحة الصوم عدم ارتكاب العبد مكروها فضلا عن المحرم، لأن شرط صحة الصوم أن لا يخرقه صاحبه بارتكاب ما يكرهه الله ، فيدخل الشيطان جوفه فينجسه ومعلوم أن الصوم صفة صمدانية مطهرة من الشوائب النفسانية والشيطانية فيقطعها كل شئ ليس هو من جنسها على حكم وزان [١] الصلاة عندهم فكما تقطع الصلاة نية الخروج منها كذلك يبطل الميل إلى فعل مكروه فيه فضلا عن فعله المحقق .

وقد أجمع القوم على أن الله تعالى ما فرض صوم رمضان ، إلا ليحفظ العبد من دخول الشيطان جوفه من العام إلى العام ، ومتى وقع الشخص فى مكروه أو حرام فقد خرق للشيطان خرقا يدخل منه إلى قلبه فيهلكه .

ثم لا يخفى أن الله تعالى ما فرض صوم رمضان إلا طهرة لبنى آدم وحفظاً من دخول الشيطان جوفهم بخرقه صومهم .

وأما الأنبياء وأكابر الأولياء فهم فى حجاب عن إبليس لعصمتهم أو حفظهم كما سيأتى إيضاحه فى الجواب عن أهل الحضرة الآلهية إن شاء الله تعالى .

ومما شرطوه فى صحة الإحرام بالحج وفعل تلك المناسك أن يفتح لعقدة الإحرام [٢] كل عقد يضاده مما يفعله منذ وعى على نفسه فلا يبقى عنده ميل من

---

(١) على قياس الصلاة عندهم .

(٢) نية الإحرام .

شهوة من الشهوات ، وأن يتجرد عن كل شئ دون الله حين ينزع المخيط ، وأن يزول عنه كل علة ظاهرة أو باطنة بالغسل للإحرام ، وأن يجد فى نفسه جواب التلبية بقوله تعالى : لبيك عبدى .

وأن يجزم إذا دخل الحرم بترك كل محرم أبداً ما عاش .

وأن يشرف عليه من الحق تعالى إذا أشرف على مكة حال يغيبه عن حسه إذا دخل البيت أو المسجد أو الحجر بحيث يصير لا يشهد سوى ربه من شدة القرب .

وأن يشهد عند رؤية الكعبة ما قصدت له وما مقامها فى الموجودات .

وأن يشهد فى رمله ثلاثا : هروبه من الدنيا حتى ينفصل عنها وينقطع عن محبتها بحيث يصير يتكدر كلما دخلت عليه ، ويشهد عند مشيه أربعاً الأمن مما هرب منه ليزداد شكراً بذلك .

وأن يجد فى نفسه الأمان من العذاب ، ومن الحجاب عن الله تعالى فى الدنيا والآخرة إذا صافح الحجر الأسود .

وأن يطلع على مكانته من ربه وقبول قصده حين يصلى ركعتين خلف المقام ويعرف معنى كون الحجر يمين الله حين يقبله .

وأن يسمع تكبير الملائكة إذا كبر الله سبعا على الصفا حتى يكبر معها ، ويجد حقيقة التكبير ذوقا ، وأن يتصفى من كل علة إذا نزل من الصفا إلى بطن الوادى.

وأن يرى فى هرولته فراره من الكون إلى الحق ، ثم يفر من فراره بوصوله إلى وجوده ، وأن يرى السكينة على المروة إذا وصل إليها فيأخذ منها حظه إن لم تكن تنزل عليه . وأن يتمنى على الله غير الحالة التى كان عليها من المعاصى وسوء الأدب إذا خرج إلى منى .

وأن يجد من الخوف من الله ما لم يكن عنده قبل ذلك إذا دخل إلى مسجد الخيف .

وأن يعرف الحالة التى خلق لأجلها ، والحالة التى تصـير إليهـا إذا وقـف

بعرفات ، ويعرف المعرف له هذه الأحوال ويرى المكان الـــذى إليـــه الإشـــارات وتقيس الأنفاس كلها هناك فى كل حال .

وأن يذكر الله تعالى عند المشعر الحرام ذكراً ينسيه ذكر ما سواه فى الدنيا والآخرة حتى يصير لا شغل له بما سواه .

وأن يذبح نفسه بسيف المخالفة إذا رجع إلى منى تقرباً إلى الله تعالى ، وأن يرمى جهله عنه بزيادة العلم الذى ظهر عليه عند رمى الجمرات ، وأن يحس بنقص أمله إذا حلق رأسه أو قصره .

وأن يكاشف بشئ من الحقائق عند طواف الزيادة ، ويرى زيادة الكرامات عليه إذا زار فإن فى الحديث (الحجاج والعمار زوار الله وحق على المزور أن يكرم زواره [١]) .

وان يعزم حين يحل من إحرامه ، على أكل الحلال الخالص أبداً ما عاش .

وأن يخرج عن نفسه وروحه بالكلية إذا طاف طواف الوداع انتهى .

فانظر فى نفسك يا أخى هل فعلت بهذه الشروط حين حججت أم أخللت بها فيكون عليك الحج ثانيا لتأتى بهذه الشروط ؟ وهذه شروط ذكرها السبكى [٢] ، وهى على قدر مقامه حين حج وإلا فللحج شروط أخرى أعلى من هذه الشروط فإن الأذواق تتفاوت وما أعلمتك بذلك إلا لتعرف أنى لم أبتدع هذه الشروط التى ذكرتها فى الوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وإنما أنا تابع لغيرى فى ذلك من القوم وأنى لم أخترع من عند نفسى شيئاً لم يذكره غيرى .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : غاية صوفية زماننا هذا أن

---

(١) فى الحديث (الحاج والغازى وفد الله عز وجل ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروا غفر لهم) رواه ابن ماجة عن أبى هريرة .

ويؤيد حديث : الحاج والمعتمر والغازى فى سبيل الله والمجمع فى ضمان الله دعاهم دعوة فاجابوه وسألوه فأعطاهم) الشيرازى فى الألقاب عن أبى هريرة .

(٢) من كبار علماء الشافعية .

يصلوا إلى العمل بظاهر الشريعة فضلا عن باطنها على وجه الظن .

وأما عملهم بالشريعة على وجه علم اليقين أو عين اليقين أو حـق اليقيـن فذلك كالمحال [١] .

وسمعته مرة أخرى يقول : ما ثم كامل فى طريق الولاية إلا وقد خرج عن تقليد غيره فى العلم ما عدى [٢] رسول الله ﷺ فيصير يأخذ العلم بالأحكام من حيث يأخذها المجتهدون .

وبعضهم لا يقنع بالظن فى عمله إنما يطلب الوصول إلى علم اليقين وحق اليقين التى هى علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فيصلون إليها بحكم الإرث للأنبياء لا استقلالا وهناك لا تزلزلهم الأدلة ولا يرجعون عن قول قالوه لظهور دليل آخر ولا يبدوا لهم فى الآخرة علم آخر خلافه لم يكن فى حسابهم .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على أحد من أهل الطريق إذا رأيتموه يتكلم بكلام يخالف ما فهمه بعض العلماء فإن دائرة الفهم واسعة وتربصوا فى ذلك القول وانظروا فيه فربما كانوا أخذوه من مفهوم الأدلة ولغة العرب تشهد لذلك [٣] .

وقد روى الطبرانى مرفوعاً (أن شريعتى قد جاءت على ثلاثمائة وستين طريقة ما من طريق يسلكها العبد المؤمن إلا نجا من النار) [٤] انتهى .

كل ذلك فتحا لباب التسليم للأئمة المجتهدين والعلماء العاملين فى طريق الظاهر والباطن ، فإن أعطاك الله تعالى يا أخى العلم بهذه الطريق كلها على وجه الكشف واليقين ونظرت فيها ولم تجد لذلك الكلام الذى قاله ذلك الشخص مسنداً

---

(١) يقصد بذلك أنهم غير موقنين إيقانا كاملا يصل إلى مرتبة علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين أى لم يصلوا فى الولاية إلى اليقين الكامل .

(٢) ما عدا .

(٣) فيجب التأنى فى ذلك وعدم الأخذ بظاهر القول فقد يكون له وجه آخر فى العربية أو غيرها من العلوم .

(٤) رواه الطبرانى مرفوعا .

يشهد له من جميع هذه الطريق فأنكره حينئذ كما تنكر على من خرق الإجماع على حد سواء .

وأعلم يا أخى أن علم التصوف ليس هو بأمر زائد على السنة ، وأقوال الأئمة ، هو مشيد بالأدلة ولكن غالب الناس لما قل اعتناؤهم بالعمل بمخالفة النفوس لم يمعنوا النظر فى أدلة كلام القوم كمـا يمعنـون النظـر فى المسائل الفقيهة، وإن كان عين الفقه هو عين التصوف ، وما ثم تمييز بين الطريقين إلا بالمقاصد فى الأعمال .

فالفقيه مثلا يطلب بعمله الثواب من الله عز وجل على أعماله من دخوله الجنة ، والحور ، والقصور ، والمآكل ، والمشارب .

والقوم يطلبون من الله ما يطلبونه إظهار الكفافة والحاجة من باب المنة والفضل لا من باب مقابله الأعمال بالثواب .

ثم إن منهم من يطلب من الحق مجالسته لا غير ، ومنهم من يستحى من ذلك ويقول أنزه ذلك الجمال البديع عن مجالسة مثلى [١]

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ما ثم عند المحققين حقيقة تخالف شريعة أبداً إنما كل واحدة تأتى مؤيدة للأخرى فى نفس الأمر ، حتى أنهم أجمعوا على قولهم : حقيقة بلا شريعة باطلة ، وشريعة بلا حقيقة عاطلة .

وكل من رأى بين الشريعة والحقيقة مخالفة فإنما هو لقصوره عن درجة الكمال كما هو مشهود بين القاصر من الفقهاء وبين القاصر من الفقراء ، فإن الحقيقة غاية مراتب الشريعة ولا يكمل الشريعة إلا بمراعاة الحقيقة .

فإذا صلى الإنسان ظاهراً وهو غير مقر بوجوبها عليه حملناه على المحامل الحسنة وأنه مقر بها ، ولو أنه قال لنا : أنا لا أقر بوجوبها على أبطلناها فى الحقيقة والشريعة .

ويظهر لك ذلك أيضاً فى بينة الزور فى نفس الأمر ، فإنه ينقد فيهـا حكـم

---

(١) فإن الصوفية يعبدون الله لذاته ولا يطلبون شيئاً من الثواب .

الحاكم بها ولو أنه صرح له الشهود بأنهم شهوداً زوراً لم ينفذ حكمه لا ظاهراً ولا باطناً .

وإذا كانت البينة صادقة نفذ حكمه ظاهراً وباطناً نظير الأعمال الخالصة والأعمال التى دخلها الرياء إذا جوزى العبد بها فى الآخرة ، فلا تخالف الشريعة الحقيقية إلا من حيث القصد فى الباطن لا غير ، ولم يتعبدنا الله تعالى بالإطلاع على القلوب فافهم .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ يقول : الشريعة كالشجرة والحقيقة كالثمرة فلابد لكل واحدة من الأخرى .

ولكن لا يدرك ذلك إلا من كمل سلوكه ، وأما غالب الناس فيشهدون الحقيقة مخالفة للشريعة كما نبه على ذلك السيد موسى عليه الصلاة والسلام بإنكاره الصورى أولاً على الخضر عليهما السلام .

ثم إنه لما ترقى فى درجة الحقيقة أقره ولم ينكر عليه ليعلم قومه بمرتبة الكمال فإن ظاهر الشريعة لا يبيح لنا خرق سفينة غيرنا بغير إذنه إذا خفنا أن يغصبها منه ظالم ولا قتل غلام إن خفنا أن يرهق أبويه طغياناً وكفراً فى المستقبل.

وكذلك القول فى الجدار ، فلولا أن موسى عليه الصلاة السلام علـم أن ما يفعله الخضر له وجه فى الشريعة وإلا كان دام على إنكاره عليه وكان لا يقبل للخضر عذراً .

فتأمل فى هذا المبحث فإنك لا تجده فى كتاب والحمد لله رب العالمين .

بيان نبذة صالحة من مصطلح القوم من حيث أخذهم بالعزائم دون الرخص ذكرناه هنا ليطلع عليه من يطالع هذا الكتاب قبل الخوض فيه بغير علم ؛ فربما بادر من لا يعرف مصطلحهم إلى الإنكار عليهم بغير علم

قال الله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ .

وقال تعـــالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ .

ويكون على علم كل من طالع فى هذا الكتاب أن طريق القوم محرره على الكتاب والسنة تحرير الذهب والجوهر كما مر أوائل الكتاب .

ولكن سبب مبادرة بعض المجادلين إلى الإنكار بعدهم عن مخالطة أهل الله عز وجل ، وإقبالهم على العلوم المتعلقة بالأحكام الظاهرة دون العلوم المتعلقة بأمراض القلوب ودوائها ، حتى لا تكاد تجد أحداً من طلبة العلم يتطلبها ، خلاف ما كان عليه السلف الصالح ممن أدركناهم كشيخ الإسلام زكريا وشيخ الإسلام برهان الدين بن أبى شريف [١] والشيخ شمس الدين السمانودى والشيخ جلال الدين بن قاسم المالكى [٢] .

وكانوا لا يقرءون أحداً العلم إلا أن رأوا نيته صالحة فى طلبه .

وكان الشيخ شمس الدين السمالودى يسأل الطالب ماذا تريد بالاشتغال بالعلم؟ فإن قال له : أريد أتولى القضاء يكف عن تعليمه ويقول له : اذهب فاقرأ على غيرى .

---

(١) هو الشيخ برهان الدين بن أبى الشريف الشافعى ﷺ : كان شيخاً للإسلام وكان عالما ورعا زاهداً عابداً ، متمكنا فى علوم الظاهر والباطن .

(٢) هو شيخ الإسلام الشيخ جلال الدين بن القاسم المالكى ﷺ .
كان كثير المراقبة لله فى أحواله ، وكانت أوقاته كلها معمورة بذكر الله عز وجل .
وكان يحفظ مدونة الإمام مالك وشرح مذهبه عن ظهر قلب .
وقد شرح مختصر خليل ورسالة أبى زيد القيروانى فى الفقه المالكى .

وهذا أمر قد أغفله غالب أهل هذا الزمان الآن لأمور يطول شرحها .

ومعلوم أن كل علمٍ أو عمل لا يبتغى به صاحبه وجه الله أى مرضاته فهو مضمحل .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : جميع ما ورد فى ثواب الأعمال إنما هو فى حق المخلصين فيها .

وأما غير المخلصين فقد توعدهم الشارع ﷺ بالنار ، فمن زعم أن له ثوابا فى علمه أو عمله الذى دخلته النية الفاسدة فقد افترى على الله الكذب ومثاله مثال التجار الذين يبيعون بالفلوس طول عامهم ثم ينادى عليها السلطان بإبطالها.

فلا تسأل يا أخى عما يقع لهم من شدة الندم .

فهذا مثال من يقصد بعمله وعمله غير الله ظهر له فساد نيته يوم القيامة انتهى .

إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق : من مصطلح القوم الذى ربما بادر المجادل إلى إنكاره أخذهم العهد على المريد بتركه المباح .

ويقول المجادل : كيف يأخذ هؤلاء العهد بترك المباح الذى جعله الشارع مباحاً ويخرجه عن حكمه إلى حكم المنهيات ؟ انتهى .

وهو إنكار بغير علم ، لأن جميع مشايخ الطريق إنما هم معدون لترقية المريد إلى المقامات العالية .

ومعلوم أن المباح من حيث هو مباح لا ترقى فيه لأحد لأنه حظ النفس تتنفس فيه من مشقة التكليف وحصول الملل من الطاعات .

ومن شأن النفس أنها تحب كل حالة لا تكون فيها تحت حكم أمر ولا نهى .

وفى المثل السائر يشيب العبد وفى خاطره أن يهرب من تحت حكم سيده هربة يكون فيها مطلق العنان لا تحجير عليه [1].

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ما جعل الله تعالـى المبـاح

---

(١) فيكون تركهم المباح هو بمحض إرادتهم فلا يشعرون بالاجبار الذى تكرهه النفس .

إلا تنفيراً لبنى آدم من مشقة التكليف حين ركب الله تعــالى فى ذواتهــم الملك من التكالف .

ولو أن الله تعالى لم يركب فى ذواتهم الملك لم يشرع لهم المباح كما فعل بالملائكة لأنهم لا يعرفون للملك طعماً فلذلك كانوا يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

قال : ولما كان القوم من شأنهم الأخذ بالعزائم دون الرخص طلباً للترقى كما هو معلوم من أحوالهم طلبوا من المريدين العمل على تقليل المباحات جهدهم ويجعلون مكان ذلك طاعة يثابون عليها .

فإن لم يجدوا طاعة نووا بالمباح خيراً من أكل وكلام ونحو ذلك ، كالتقوى على العبادات بأكل تلك الشهوة أو زوال العبوسة بمباسطة إخوانهم ببعض كلام، ونحو ذلك .

وقد أجمعوا على أن كل من مهد لنفسه ارتكاب الرخص دون العزائم لا يجئ منه شئ فى الطريق .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : لا يصح لمريد قدم فى الإدارة حتى يترك فعل المباحات ويجعل مكان كل مباح تركه مأموراً شرعياً من مندوب أو أولى ويجتنب المباح كأنه منهى عنه كراهة تنزيه ويجتنب المكروه كأنه حرام .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا يبلغ المريد مقام الصدق حتى يزيد فى تعظيم أمر الله ونهيه فيفعل المندوب كأنه واجب ويجتنب المكروه كأنه حرام ويجتنب الحرام كأنه كفر وينوى بجميع المباحات خيراً ليثاب على ذلك فينوى بالنوم فى القيلولة التقوى على قيام الليل ويتناول بعض الشهوات للمداوات لنفسه إذا نفرت من العبادات بالكلية فإن لسان حـــال النفـــس يقـــول لصاحبهـــا: كن معى فى بعض أغراضى وإلا صرعتك .

وفى الحديث مرفوعاً : (المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً ابقى) .

والمراد بالمنبت : هو الذى حمل دابته فوق طاقتها فى السفر حتـــى رقـــدت

فلا هو قطع الأرض ولا هو أبقى معها قوة يسير بها .

وكذلك ينوى بلباس الثياب الفاخرة إظهار نعمة الله عليه دون الحظوظ النفسانية .

وكذلك يأكل اللذيذ من الطعام والبارد الحلو من الشراب لأجل استجابة أعضائه ليشكر الله تعالى بعزم .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول لأصحابه : كلوا من أطيب الطعام واشربوا من ألذ الشراب وناموا على أوطأ الفراش وألبسوا ألين الثياب فإن أحدكم إذا فعل ذلك وقال الحمد لله يستجيب كل عضوا فيه للشكر بخلاف ما إذا أكل خبز الشعير بالملح ولبس العباة ونام على الأرض وشرب الماء المالح السخن وقال : الحمد لله : فإنه يقول ذلك وعنده اشميزاز وبعض سخط على مقدور الله عز وجل .

ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الأشميزاز والسخط الذى عنده يرجح فى الإثم على من تمتع بالدنيا بيقين ، فإن المستمتع بالدنيا فعل ما أباحه الله .

ومن كان عنده اشميزاز وسخط فقد فعل ما حرم الله .

وسمعت سيدى على الشاذلى رحمه الله ربيب الشيخ أبى المواهب يقول : طريقنا إظهار النعمة فى الملبوس وغيره دون التقشف لما فيه من رائحة عدم انشراح النفس به ، فثياب أحدنا كثياب الأغنياء وقلبه من أفقر الخلق إلى الله تعالى ، فلا يكاد أحد ينسبه إلى الفقر لما هو عليه من الفخامة وأكل الأطعمة الفاخرة .

وقد كان سيدى إبراهيم المواهبى ﷺ إذا أتاه دينار مثلا يشترى به لحماً ويطبخ ذلك اليوم ويدعو إخوانه فيأكلون ، فربما حضر أحد معهم فرأى طعامه أوسع من طعام التجار فيبسط لسانه فيه بغير حق ،والحال أنه أطيب نفساً وأخرج من صاحب المرقعة وفى الحديث :المعونة من الله تأتى على قدر المؤنة [1] .

---

(١) وفى الحديث : عن أبى هريرة ﷺ : قال : قال رسول الله ﷺ ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما ، اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا.

فربما أتت مثل هذا المعونة من الله السنة المتوالية لكونه يطعم الناس بكل ما دخل له كل يوم بيومه لا يبيت على دينار ولا درهم .

وكان سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : لا يكمل الفقير حتى يكثر من الطاعات بحيث لا يجده ساعة فى ليل أو نهار إلا وهو فى واجب وما ألحق به من المندوب والأولى أو فى اجتناب حرام وما ألحق به من المكروه وخلاف الأولى .

وسمعته مرة أخرى يقول : من شرط الصادق من الفقراء أن لا تجده فى غفلة عن عبادة ربه ، فإن سكنت جوارحه تحرك قلبه ، فلم يزل فى عبادة ظاهرة وباطنة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : يحتاج صاحب المباح أن يكون له عدة أعين : عين ينظر بها أنه من صدقات الحق تعالى عليه فيشكره على ذلك ، وعين ينظر بها إلى أنه يكون استدراجاً وحيالة للمكر الإلهى به فى هذا الدار فيخاف من فعله ، وعين ينظر بها إلى رؤية كونه استدراجاً وحيالة للمكر من باب سوء الظن بالله عز وجل فيستغفر منه ، وعين ينظر بها إلى أن المباح من جملة ما أختص به الحق جل وعلا فإنه هو الذى يفعل ما يشاء ولا يدخل تحت التحجير .

وأما العبد فشرفه كونه تحت تحجير سيده إما فى فعل مأمور به أو فى اجتناب منهى عنه .

وقد درج السلف الصالح كلهم على الخوف من المباح لكونها حالة يكون العبد فيها مع نفسه لا مع ربه غالباً فيكون كالبهيمة السارحة انتهى .

فاعلم ذلك وتأمله فإنك لا تجده فى كتاب .

ويعد أن علمت أن للقوم أخذ العهد على المريد بترك المباح لكونه لا ترقى فيه علمت من باب أولى أن لهم كذلك أخذ العهد على المريد أو فعل ما سكت عنه الشارع ﷺ ولم يصرح فيه بحل ولا إباحة ، لأن الشارع قد أمنهم على شريعته بعده ، وجعلهم نواباً عنه فى إرشادات الأمة ، فكثيراً ما ينهون المريد عن المباح تنزيها كما نهى رسول الله ﷺ فاطمة رضى الله عنها عن لبس الحرير والتحلى

بالذهب تنزيهاً من حيث أن ذلك من زينة الدنيا الفانية وقال لها : يا فاطمة من لبس الحرير والذهب فى الدنيا لم يلبسهما فى الآخرة [(١)] مع أنه ﷺ صرح فى الأحاديث الصحيحة بحل الذهب والحرير لإناث أمته .

وكما نهى ﷺ عائشة رضى الله عنها عن الأكل فى يوم واحد مرتين وقال لها يا عائشة أكلتان فى نهار واحد سرف والله لا يحب المسرفين .

مع أنه ﷺ أباح لأمته الجمع بين الغذاء والعشاء فى اليوم الواحد كثيراً .

وممن بلغنا أنه كان يأخذ بالتشديد من الصحابة عبد الله بن عباس وأبو ذر رضي الله عنهم فشدد عبد الله بن عباس [(٢)] على نفسه لما نزل الماء فى عينيه وقال له الأطباء : إن تركت السجود أمكننا مداواتك فاختار العمى على ترك السجود مع أنه لو أومأ بالسجود لكان ذلك كافياً له .

وحرم أبو ذر [(٣)] الادخار للقوات مع علمه بأن رسول الله ﷺ أدخر قوت عامهم .

وتبعهما أشياخ الطريق على ذلك التشديد فى حق أنفسهم وفى حق تلامذتهم فآخذوا المريد بأكله الشهوات المباحة لكونها توقفه عن الترقى .

وآخذوه بالنوم من غير ضرورة وبالأكل من غير جوع وبالكلام من غير حاجة وبمخالطة الناس إلا لضرورة فأرادوا أن يثاب مريدهم ثواب الواجبات فى سائر أحواله .

---

(١) وفى الحديث : عن حذيفة رضي الله عنه قال : إن النبى ﷺ نهانا عن الحرير والديباج والشرب فى آنية الذهب والفضة ، وقال : هن لهم فى الدنيا وهى لكم فى الآخرة متفق عليه .

(٢) هو الصحابى الجليل (عبد الله بن عباس) وكان يطلق عليه (حبر الأمة) لشدة علمه وفضله وجهاده فى سبيل الحق ، ويؤثر عنه كثير من الأحاديث عن سيدى رسول الله ﷺ وله تفاسير مشهورة لآيات القرآن الكريم يظهر فيها العلم والذكاء وسعة الأفق .

(٣) هو الصحابى اجليل أبو ذر الغفارى : قال عنه سيدى رسول الله ﷺ : رحم الله أبو ذر يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث يوم القيامة وحده .
وكان زاهداً عفيفاً يقول كلمة الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم .

فيأكل حين يجب عليه الأكل ويتكلم حين يجب عليه الكلام ، مثلا فإن نزل عن ذلك فلا ينزل عن الاستحباب فيأكل حين يستحب الأكل ويتكلم حين يستحب الكلام .

وكذلك آخذوا المريد بالنسيان وبالاحتلام وبمد الرجل فى ليل أو نهار إلا لحاجة .

وآخذوه بالخواطر ولو لم تستقر وغير ذلك مما هو مذكور فى كتبهم كرسالة القشيرى وعوارف المعارف ونحوهما .

ومما استدلوا به على مؤاخذتهم المريد بأكل الشهوات المباحة كون الحق جل وعلا نعى على الكفار شهواتهم بقوله : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ الآية ﴾ وقال : ما نعاه الله على أهل النار وأدخلهم إليها بسببه فنحن أولى بتركه والتباعد عنه .

ويؤيد ذلك ما قاله ابن مسعود [١] ﷺ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ قال : هو واد فى جهنم يقذف فيه الذين يتبعون الشهوات .

وفى زبور داود عليه الصلاة والسلام : يا داود حذر وأنذر قومك أكل الشهوات فإن قلوب أهل الشهوات غير محجوبة وكما أن أكل الشهوات يطرد العبد عن حضرة الله عز وجل فكذلك مد المريد رجله من غير حاجة بجامع سوء أدب [٢] .

ومما اشتدوا إليه فى مؤاخذة المريد بالنسيان : كون المريد لا يقع فى النسيان إلا لتساهله فى المقدمات، بدليل أن الإنسان لما تتوجه همته إلى تحصيل أمر يصير لا يكاد يأخذه نوم بل ينام يحلم بذلك طول ليلته .

ويؤيد ذلك قول علمائنا فى التيمم : إذا نسى الماء فى رجله أو أضله فيه وفتش عليه فلم يجده فتيمم أنه يقضى فى الأظهر ونسبوه إلى التقصير فى نسيانه

---

(١) هو الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود : كانت له صحبة طويلة بالرسول ﷺ واشتهر بأنه أحد القراء الكبار للقرآن الكريم ، وكان من الصحابة الذين أدلوا بنصيبيهم فى كثير من أمور الفقه والتفسير والحديث .

(٢) إذا كان يريد الترفع والتكبر ، وأيضا كون العبد بين يدى الله عز وجل .

أو إضلاله .

وكذلك يؤيده قولهم أيضاً : ولو صلى بنجس كان علمه ثم نسيه وجب القضاء على المذهب ، وقالوا : لو أتلف إنسان مال إنسان أو أكل طعامه نسياناً وجب عليه ضمانه والنظائر فى ذلك كثيرة ، مع أن قاعدة الشريعة التى أتى بها الشارع رفع حكم الخطأ والنسيان والإكراه عن الأمة إلا فيما استثنى .

وأجابوا عن حديث : (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان والأمر يستكرهون عليه [١]) بأن المراد رفع الإثم لا رفع الضمان .

والعلماء رضى الله عنهم أمناء الرسل على الشرائع والناس لهم تبع .

وذكر الشيخ محى الدين بن العربى فى الفتوحات المكية ما نصه : إنما آخذ القوم المريد بالنسيان ، لأن مبنى طريقهم على الحضور الدائم مع الله تعالى ، والنسيان فيها نادر ، والنادر لا حكم له مع أن قاعدة الشريعة رفع حكم النسيان عن الأمة إلا ما استثناه العلماء من ذلك لتذكرك ما نسيته من الصلاة وأركانها انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : نسيان الأكابر تشريع لقومهم كما أشار إليه خبر : إنما أنسى ليستن بى ليتسنن [٢] .

وأما نسيان الأصاغر فقد يكون للتساهل فى ذلك الأمر ، وقد يكون لغيره ، قال : وليتأمل من يعتذر من المريد عن النسيان ، وأنه لم ينس ذلك الأمر استهانة به لو أن شخصاً من الأكابر الصادقين وعده بألف دينار إن قام تلك الليلة للتهجد ، وإن لم يقم لم يعطه شيئاً : كيف يصير يحدث نفسه بذلك فى نومه ويقظته ؟ وإن خاف استغراقه فى النوم أوصى من يوقظه ولو بأجرة ، كل ذلك حرصاً على الدنيا الفانية ولاشك ولا خفاء أن ما وعد الله تعالى به قائم الليل من الأجر والثواب

---

(١) وتمام الحديث : (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) رواه الطبرانى فى الكبير عن ثوبان .

(٢) وفى الحديث (إنما أنا بشر أنس كما تنسون ، فإذا نسى أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

أفضل ، بل كل ذرة منه لا يقاومها ملك الدنيا كلها لأن كل ما فيه مرضاة الله لا يقابل بالأغراض الدنيوية وكم فات النائم من الغنائم وكأن غرض القوم من رياضة المريد والتضييق عليه : أن يحولوا قلبه إلى محبة الله والدار الآخرة ، ويقلب تلك الداعية التى عنده للدنيا إلى مرضات الله عز وجل .

وكما أنه يعطى الأجرة لمن يوقظه للتهجد مثلا لأجل الألف دينار : كذلك من باب أولى أن يعطى الأجرة لمن يوقظه ليناجى ربه عز وجل بارتفاع الوسائط وتبارز بذلك النعيم الذى لا يقاومه نعيم الدارين . فإن قال قائل : فما حكم من يقدم أعمال الدنيا على أعمال الآخرة فى اليقظة ؟ فالجواب : أن هذا لم يصح له قدم فى محبة الآخرة ، فلا يجئ منه شئ فى بدايات الطريق فضلا عن نهاياتها .

وقد سمعت سيد محمد المغربى الشاذلى رحمه الله يقول : لا يصح لمريد عندنا قدم فى طريق الله عز وجل إلا بعد أن يزهد فى شهوات الدارين ونعيمها ، وهناك أول سيرة فإن الناس ثلاثة أقسام : عوام وخواص وخواص الخواص فالعوام هو كل من يصبح والدنيا أكبر همه ، فلا يلتفت لورد بعد الصبح ولا غيره، والخواص من يقدم أعمال الآخرة على الدنيا طلباً للثواب الذى وعـده الله لـه ، وخواص الخواص من يعمل لله امتثالا لأمره لا خوفاً من عذابه ولا طمعاً فى ثوابه انتهى .

ومما استندوا إليه فى مؤاخذتهم المريد بالاحتلام كون الاحتلام لا يقع من مريد إلا بعد إطلاقه بصره فى النظر لما لا يحل له والتفكير فيه ، وإن وقع الاحتلام فى حلائله فلا بدله كذلك من إطلاق البصر الهين والتفكر فى كيفيه الاستمتاع بهن . ثم إن إبليس إذا رآه متفكراً فى ذلك وحيل بينه وبين شهوته أتاه بذلك الذى تعلق خاطره به فى النوم ليسخر به ويمنعه من الصلاة وتلاوة القرآن حتى يصح له التطهر وربما منعه من ذلك الليلة كلها لكونه احتلم بعد العشاء ولم يجد ما يتطهر به أو ما يصلح أن يتطهر به ، فعلم أن كل من لا يطلق بصره لا يقع منه احتلام .

وكذلك لم يبلغنا أن أحداً من الأنبياء احتلم . وكذلك من حفظ من الأولياء وذلك لعصمة الأنبياء وحفظ الأولياء من أن يلعب بهم الشيطان فى يقظة أو منام ، لكن لا يخفى أن لعبه بالمريدين فى النوم أخف من لعبه بهم فى اليقظة ، فينبغى لهم شكر الله على ذلك فافهم .

ثم إن قدر أنه وقع من أحد الأولياء احتلام فإنما يكون ذلك فى حليلته دون ما يحل له ، وسبب ذلك ما يتجلى لقلوبهم من عظمة الله عز وجل ، فيذهبون عن تدبير أبدانهم ، وقد وقع أن عمر بن الخطاب ﷺ احتلم مرة فى جارية له فاغتسل وقال لقد ابتلينا بهذا الأمر منذ ولينا أمر المسلمين واشتغلنا بمصالحهم انتهى .

وذكر سيدى على الخواص ﷺ : أن سيدى إبراهيم المتبولى لم يحتلم قط إلى أن مات بعد مائة وسبع سنين ، وكان يقول : من زعم أنه تاب من الزنا ثم احتلم بعد ذلك فيما لا يحل له فهو دليل على عدم توبته النصوح ، إذ من شرط التوبة النصوح أن لا يصير فى قلبه حلاوة لتلك المعصية التى تاب منها واحتلامه يدل على بقاء حلاوة تلك المعصية فى قلبه ، فلولا وجود تلك الحلاوة فى قلبه لما تفكر ولا احتلم انتهى .

ومما استندوا إليه فى مؤاخذتهم المريد بمد رجله بغير حاجة فى ليل أو نهار: كون العبد دائما بين يدى الله عز وجل إيماناً أو شهوداً شعر بذلك أم لم يشعر فطلبوا من المريد أن يواظب على عدم مد رجله بغير حاجة بحكم الإيمان بأنه بين يدى الله عز وجل حتى ينكشف عنه الحجاب بعد انتهاء سلوكه ويصير حجاب إيمانه كلا حجاب ، وهناك يكون دخول النار عليه أو ضربه بالسيف أهون عليه من مد رجله بغير حاجة .

وقد بلغنا عن السيد إبراهيم بن أدهم ﷺ أنه مد رجله فى ليلة بغير حاجة فسمع هاتفاً فى الحال يقول : يا إبراهيم تأدب فإنك بين يدى ربك جالس وما هكذا أحد يجالس الملوك ، فقال : فما مد إبراهيم بعد ذلك رجله فى ليل أو أنهار حتى مات انتهى .

وقد أخبرنى أخى أفضل الدين رحمه الله :إنه وقع له فى بدايته رقة حجاب (١) فصار يرى نفسه بين يدى الله لا يتحجب ذلك عنه قال : فصرت لا أنجوا (٢) أن أدخل الخلا ولا أكشف لى عورة عند الاستنجاء ولا يخرج لى بول ولا غائط من شدة الحياء من الله تعالى فما كنت إلا هلكت (٣) ، ثم إنى استغثت بالله عز وجل أن يسدل على الحجاب فأسدله على رحمة بى ، وكان رحمه الله بعد ذلك يقول : لولا أن الله تعالى حجب الخلق عن شهوده لما وقع أحد فى معصية ولكادوا يموتون كلهم من هيبته تعالى نحو يوم واحد انتهى .

وسمعت شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول إنما أخذ الفقراء المريد بتهمة الخلق له بالسرقة مثلا – وإن كان الشرع يقضى بعدم المؤاخذة على ذلك – لأنهم إنما أخذوه بتعاطى مقدمات التهاون بحقوق الناس فما آخذوه إلا بأمر محقق وقع منه ولو أنه خاف من حقوق الناس وتكرر منه ذلك لشهد الناس ببراءته وكذبوا من اتهمه انتهى .

فعلم من جميع ما قررناه إن طريق القوم كلها أدب وخير وأنها أجل الطرق ، خلاف ما يظنه بعض الأجلاف (الذين كشف حجابهم فالله تعالى يتفضل عليهم بالعفو) (٤) فإن الطعن فى طريق أهل الله طعن فى أخلاق الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين .

وقد قدمنا عن أبى تراب النخشبى ﷺ أنه كان يقول : إذا ألف القلب الأعراض عن الله صحبته الوقيعة فى أولياء الله ، أى لأنه لا يحترم جلساء الملك إلا من أقبل على الله ودخل حضرته من المتطهرين من الأدناس .

أما المتلطخون بشئ من المعاصى الظاهرة أو الباطنة من حسد ، وكبر ، وعجـب ، ونفـاق ، وريـاء ، وحقـد ، ومكر ، وحرص على الدنيا ، فلا يمكن

---

(١) حال من أحوال الكشف ورفع الحجاب .

(٢) لا يستطيع دخول الخلاء .

(٣) كاد أن يهلك .

(٤) عبارة فى مدح الصوفية .

الملائكة أحداً منهم يدخل حضرة الله أبداً .

ومعلوم أن أهل حضرة الله عز وجل ثلاثة أصناف : أنبياء وملائكة وأولياء .

وليس أحد من هؤلاء يحب الدنيا ويقع فى الحرص عليها أبداً وإن وقع من أحد من الأولياء شئ من ذلك فهو قبل كماله أو بعده ويتوب منه على الفور ليدخل حضرة الله تعالى التى هى قوت قلوبهم .

وقد انعقد إجماع أهل الله قاطبة على أن المعاصى الباطنة كالنجاسة الظاهرة على حد سواء فكما لا يصح صلاة من فى ثوبه أو بدنه نجاسة : كذلك لا تصح صلاة من فى قلبه نجاسة إلا ما عفى عنه العلماء فى دولة [1] الظاهر والباطن ليسير كبر أو عجب قياساً على يسير دخان نجاسة أو غبار زبل .

لكن هذا العفو إنما هو فى حق العوام من أهل الطريق .

أما الخواص فلا يسامحون نفوسهم بمثل ذلك كما لا يسامحونها فى ارتكابها المكروه أو خلاف الأولى .

فالكامل من طابق بين الظاهر والباطن فى التطهير من الأدناس .

وسيأتى فى الكتاب أن الشيخ أبا الربيع المالقى رحمه الله سمع تلميذه الشيخ الكامل أبا عبد الله القرشى يقول : اللهم لا تفضحنى بسريرتى على رءوس الخلائق فى الدنيا أو الآخرة .

فقال له : ولأى شئ تجعل لك سريرة تفتضح بها لم لا تطهر سريرتك كما تطهر ظاهرك لتطابق بين باطنك وظاهرك وتخرج عن صفة المنافقين انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول كثيراً : قد أجمع المحققون من أهل الله عز وجل على أن حضرة الله محرم دخولها على من بقى عليه بقية من ارتكاب المحظورات إلا بقدر ما يعفى من النجاسة الظاهرة .

فكما أجمعوا على أن من صلى وفى ثوبه أو بدنه نجاسة لا يعفى عنها أو ترك لمعة من غسل أعضاء طهارته لا تصح له صلاة وكذلك من صلى وفى

---

(١) فى دولة .

باطنه صفه تخفيه [1] بل النجاسة الباطنة عندهم أولى بالبطلان لأن القلب محل نظر الله تعالى من العبد .

وكان ﷺ يقول : من صلى وفى قلبه غل ، أو مكر أو حقد ، أو محبة للدنيا فينبغى له إعادة تلك الصلاة لأن أهل الله لا يعبدون بمثل هذه الصلاة لأنهم يشهدون أن تلطخ باطنهم بشئ من المعاصى الباطنة لتضخمهم بالنجاسة الظاهرة على حد سواء فلا يسقط عنهم الفرض فهى صلاة صورية لا حقيقة .

ولكن لما كان مبنى أحكام العامة على ظاهر الشريعة رحمة بهم حكمنا بصحة صلاتهم فى الظاهر وحسناتهم على الله تعالى بخلاف مبنى طريق القوم فإن مبناها على مطابقة الظاهر للباطن فى الدنيا والآخرة فإنهم قد خرقوا بصرهم إلى الدار الآخرة ورأوا بنور الكشف الأعمال التى تقبل هناك والأعمال التى لا تقبل حتى كأنه رأى عين لهم من هذه الدار ، ولكل مقام رجال .

فإن قال قائل : ما مرادكم بحضرة الله تعالى التى يمنع من دخولها من تلطخ بنجاسة ظاهرة أو باطنة ؟ فالجواب : المراد بحضرة الله تعالى حيث أطلقت بين القوم هى شعور العبد أنه بين يدى ربه عز وجل ويصير تعالى يراه، فما دام يتشعر ذلك فهو فى حضرة الله فإذا حجب عن هذا المشهد خرج من الحضرة سواء كان فى الصلاة أم خارجها .

وإذا خرج من الحضرة بطلت صلاته ، لأن من شروط صحة الصلاة عند أهل الله عز وجل دوام الحضور معه تعالى من حين يحرم بها إلى أن يسلم منها قال: وهذه هى حضرة الإحسان المشار إليها بحديث : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك [2]) .

كما مر تقديره مراراً

فعلم أن دخول هذه الحضرة إنما هو بالقلوب والأجسام تبع لها ، وعلم أيضاً أن من لم يتطهر من النجاسات الظاهرة والباطنة لا يقدر على دوام استحضاره أنه

---

(١) صفة مخفية .

(٢) ذكرنا الحديث بالكامل فيما سبق .

بين يدى الله تعالى أبدا ولو قدر أن تكلف ذلك زهقت روحه من تلك الحضرة وخرجت قهراً عليه بواسطة الملائكة الواقعين فى تلك الحضرة يعلمون الناس الأدب مع الله ، فلا يمكنون أحداً يشهد ، تعالى وهو متلطخ بحدث ظاهر أو باطن غيرة على جناب الحق جل وعلا ، بل لو خالف ولحظ جمال نور الحق تعالى فى تلك الحضرة من غير علم الملائكة مثلا احترق بشهاب من شهب الحضرة . أو طرد منها لو بقى جسمه كما يطرد الشياطين حين ترمى بالشهب من السماء ، فلهذا تسارع أهل [1] تعالى إلى تطهير قلوبهم ولم يعبأوا بطهارة ظاهرهم فقط دون باطنهم بل طهروا باطنهم من كل صفة نهاهم الشرع عنها ولو تنزيهاً ، حتى أن منهم من دخله عمل على عدم خطور معصية على قلبه السنه والسنتين .

وكان الشيخ سليمان الديلمى ﷺ يقول لى : منذ خمسين سنة ما أظن أنى ملت إلى معصية ظاهرة ولا باطنة انتهى .

وذلك لأن العبد ما دام عنده ميل إلى المعاصى فهى تخطر على قلبه ضرورة.

فإذا لم يكن عنده ميل ذهب الحظور ضرورة كما هو مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم من ثمرة تطهير العبد من المعاصى الباطنة عدم وقوعه بعد ذلك فى سوء الظن بأحد من المسلمين : قياساً على نفسه هو فإن كل صفة لم يتطهر العبد منها فمن لازمه سوء الظن بالناس غالباً إذ لو تطهر منها لم يبق عنده تصور لها .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول مراراً : لا يكمل العبد حتى يصل إلى مقام لا تخطر الفحشاء فيه على قلبه ، قال : ومن هنا أجمع الأشياخ على أنه لا يشترط فى الشيخ أن يكون يطلع على معاصى المريد الباطنة حتى يكاشفه بها ، بل أوجبوا على المريد أن يذكر هو أمراضه للشيخ ولا يحوجه إلى المكاشفة بها ، وأن قدر أن أحداً من الكمل أخبر مريده بشئ من عيوبه الباطنة فليس ذلك من باب قياس الشيخ المريد على نفسه وإنما ذلك من باب الإلهام إلـــى

---

(١) أهل الله .

الله تعالى بواسطة صدق المريد فى الطريق فافهم .

وسمعت سيدى عليا المرصفى رحمه الله يقول : محل حسن الظـن بالنـاس إنما هو فى الأعمال التى يحتمل الخير والشر من الأعمال القلبية المتعقلة بالنيات، أما الأقوال التى صرح الشارع بتحريمها فلا يجوز لمؤمن أن يحمل صاحبها على محمل حسن كشرب الخمر والأكل من الحرام فافهم .

وقد أجمع علماء الشريعة وعلماء الحقيقة على وجوب مجاهدة النفس الأبية حتى تنقاد لما يأمرها به أهل الله تعالى وينهونها عنه مما يمنع صاحبه دخول حضرة الله عز وجل ، ويصير يؤدى المأمورات من غير خلل فيها ظاهراً وباطناً بحسب مقامه ، لا يصح له ذلك إلا بأحد شيئين : إما جذب إلهى من الله تعالى بلا واسطة شيخ أو بواسطة شيخ قد تضلع من علوم الشريعة والحقيقة ، وهذا من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وسمعته ﷺ يقول أيضاً : قد أجمع العلماء كلهم على وجوب علاج أمراض الباطن حتى تخمد حركتها عن الاستعمال .

وأما زوالها فلا يصح إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأن الحق تعالى قد طهر طينتهم من الأكدار بسابق العناية لا بعمل عملوه ولا بخير قدموه .

وقد أنشد سيدى على بن وفاء فى حق الأنبياء رحمه الله عليهم الصلاة والسلام قال :

عبادك يا مولى الموالى الذين هم	عـبادك محفظـون حفـظ الحـبايب
من الذر لمن يظهر بصافى ذواتهم	سـوى نـورك الماحى لجنح الغياهب
مـياه صـفت ذاتاً ومجراً ومنبعاً	وصينت عن الأكدار من كل جانب انتهى

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : قد جعل الله تعالى فى طينة بنى آدم سائر الأضداد فجميع الصفات الحسنة والقبيحة تشرق وتغرب فى ذاتهم ، ولكن ما دامت العناية الربانية تحف العبد فجميع الصفات القبيحة خامدة متعطلة عن الاستعمال فإذا تخلفت عنه العناية تحركت للاستعمال وحمدت صفاته الحسنة،

ولذلك قال الله تعالى فى حق جميع الخلق ما عدا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون ﴾ لم يقل تعالى ومن يزول شح نفسه بل أبقى الشح فيها إلا أن العبد يوقى العمل به بعناية الله عز وجل انتهى .

وسيأتى بسط ذلك فى الأخلاق إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين ، وليكن ذلك آخر المقدمة .

ولنشرع بعون الله فى أخلاق رسول الله ﷺ الذى أخذها سيدى إبراهيم المتبولى رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ من طريق الكشف مصدرين ذلك بنبذة من أخلاقه ﷺ الثابتة من طريق النقل الظاهر استئناساً وتبركاً وتعطيراً للأكوان ، فأقول بالله التوفيق .

الباب الأول

الباب الأول

فى ذكر جملة من الأخلاق

كان رسول الله ﷺ ، أورع الناس [1] ، وأزهد الناس [2] ، وأعف الناس [3] ، وأعلم الناس [4] ، وأكرم

---

(١) روى الإمام مسلم ، عن سعد بن هشام أنه قال : قلت لعائشة رضى الله عنها : يا أم المؤمنين ، انبئينى عن خلق رسول الله ﷺ ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ! قالت : فإن خلق نبى الله ﷺ كان القرآن ، قال : فهممت أن أقوم ولا أسأل أحداً عن شئ حتى أموت، ثم بدا لى فقلت : أنبئينى عن قيام رسول الله ﷺ ؟ فقالت : ألست تقرأ (يا أيها المزمل) ؟ قلت : بلى ! قالت : فإن الله عز وجل افترض قيام الليل من أول هذه السورة ، فقام نبى الله ﷺ وأصحابه حولا ، وأمسك الله خاتمتها – أى آخر سورة المزمل – اثنى عشر شهراً فى السماء ، حتى أنزل الله فى آخر هذه السورة التخفيف – أى فى قوله تعالى (فاقرؤا ما تيسر منه) فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة .

(٢) روى الطبرانى بإسناد حسن عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل عليه السلام على الصفا ، فقال رسول الله ﷺ : (يا جبريل والذى بعثك بالحق ما آسى لآل محمد سفة من دقيق ، ولا كف من سويق) .

فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هذه من السماء أفزعته ، فقال رسول الله ﷺ : (أمر الله القيامة أن تقوم ؟) فقال – جبريل – لا ، ولكن أمر إسرافيل فنزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيل ، فقال : إن الله تعالى سمع ما ذكرت ، فبعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرنى أن أعرض عليك أن أسير معك جبال تهامة زمرداً ، وياقوتاً وذهباً وفضة ! فإن شئت نبياً ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ؟ فأومأ إليه جبريل أن تواضع ، فقال ﷺ : (بل نبياً عبدا) ثلاثا .

وقد ورد ما يشابهه فى ترغيب المنذرى وقال : رواه البيهقى فى الزهد وغير ، قال : ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً من حديث أبى هريرة .

(٣) روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : لم يكن النبى ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول (إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً) .

(٤) وفى الصحيحين – واللفظ – عن أنس رضى الله عنه : أن الناس سألوا نبى الله ﷺ حتى أحقوه بالمسألة ، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : (سلونى ، لا تسألونى عن شئ إلا=

الناس [١] ، وأحلم الناس [٢] ، وأعبد الناس [٣] ، وأبعدهم عن مواطن الريب ، لم يمس يده يد امرأة أجنبية قط تشريعاً لأمته واحتياطاً لهم [٤] .

وكـان ﷺ إذا وعـظ الناس يرسل الكلام فى حق كل الناس ، ولم يكن ينص فى وعظه على أحد معين خوفاً أن يخجله بين الناس فيقول : ما بال أقوام يفعلون كذا [٥] .

=بينته لكم) فلما سمع القوم أرموا أن يكون بين يدى أمر قد حضر ، فجعلت ألتفت يمينا وشمالا ، فإذا كل رجل لاف رأسه فى ثوبة يبكى ، فأنشأ رجل من المسجد كان يلاقى فيدعى لغير أبيه ، فقال : يا نبى الله من أبى ؟ قال: (أبوك حذافة) . ثم أنشأ عمر بن الخطاب ﷺ فقال : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، عائذا بالله من سوء الفتن .

فقال رسول الله ﷺ : (لم ار كاليوم قط فى الخير والشر ، إنى صورت لى الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط) .

(١) قال أنس ﷺ :كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس. رواه الشيخان. وروى مسلم عن أنس ﷺ قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً إلا أعطاه ، فجاء رجل – وهو صفوان بن أمية – فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، وفى رواية : من لا يخشى الفقر .

(٢) جرح سيدنا رسول الله ﷺ فى غزوة أحد وشج فى جبهته الشريفة ، وكسرت رباعيته ، وسال منه الدم ، ومع ذلك رفض أن يدعوا على المشركين عندما طلب منه الصحابة ذلك وقال : (إنما لم أبعث لعانا ، ولكن بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اغفر لقومى – وفى رواية : اللهم أهد قومى – فانهم لا يعلمون).

(٣) روى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه. وفى رواية عنها : أن نبى الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه .

وجاء فى رواية الصحيحين قالت عائشة : فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ؟ ؟ قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً)

(٤) وهذا من المؤكد لمن عصمه الله سبحانه وتعالى عن كل سوء ولا تغيب عن بالنا قصته عندما حاول شهود بعض اللهو فى مكة فعصمه الله سبحانه وتعالى من ذلك ، فكان رسول الله ﷺ دائماً الأمين على نفسه فلم يدنسها بسوء ، والأمين على غيره فما اعتدى على أحد قط إلا فى حد من حدود الله تعالى .

(٥) وهذا هو الملاحظ فى غالب أحاديث سيدى رسول الله ﷺ مثل قوله: يا معشر – إياكـم– =

وكان ﷺ أقنع باليسير من الدنيا ، وأيسرهم بلغه كان يكفيه اللعقه من الطعام والكف من الحشف [١] .

وكان يستحى من الله إذا أراد دخول الخلاء ، حتى كان يتقنع بردائه من شدة حيائه ﷺ ، وكانت الأرض تبتلع ما يخرج منه ﷺ [٢] .

وكان ﷺ أشفق الناس على أمته [٣] .

وكان يقول : اللهم لا ترنى فى أمتى سوءا ، وقد فعل الحق تعالى معه ذلك ، فلم يره فى أمته سوءا حتى توفاه الله عز وجل .

وكان ﷺ مغمضاً عينه عن رؤية زينة الدنيا ، فلم يمد عينيه إلى زينتها قط [٤].

وكان معصوماً من خائنة الأعين .

وكان ﷺ يستتر فى غسله من الجنابة وغيره ولم يغتسل عرياناً قط حياء من الله عز وجل ، وكان إذا طلب البراز يبعد عن الناس حتى لا يرى شخصه ﷺ [٥].

وكـــان ﷺ يلبس ما وجد فمرة شملة ومرة برد حبره يمانيا ومرة جبة صوف ما وجد من المباح لبس .

وكان إذا كساه أحد ثوبا لا بغيره عن هيئته من سعة أو ضيق ، ولبس مرة جبة ضيقة الكمين لا يستطيع أن يخرج يده من كمها إلا بعسر .

وكان إذا توضأ فيها أخرج يده من ذيلها ليغسلهما [٦] .

=أوصيك- احضروا - يا أيها الناس - نضر الله عبداً - استحيوا - يا غلام .

(١) سبق أن ذكرنا حديثاً فى زهده ﷺ واختياره أن يكون نبياً عبداً .

(٢) كان معروفاً عن الرسول ﷺ شدة الحياء من الله سبحانه فكان لا يكشف عورته على الإطلاق وقد ذكر الإمام السيوطى فى كتابه الخصائص الكبرى بعض ما يتعلق بهذا الشأن .

(٣) روى الطبرانى والبيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة ؓ ، أن النبى ﷺ قال : (إنما أنا رحمة مهداة) وعند الطبرانى : (بعثت رحمة مهداة) .

(٤) روى الترمذى عن أبى عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول ﷺ بمنكبى فقال : كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور .

(٥) وفى الصحيح : أنه حمل الحجر وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة فجعلهما فى إزاره فانكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بإزاره .

(٦) دلالة على أنه ﷺ كان سهلا هينا لينا .

بالإحسان إليهم [(١)] .

وكان يكرم ذووا رحمة من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم .

وكان ﷺ لا يقطع على أحد حديثه ، ولا يجفوا على أحد كلام ولا غيره ، ولو فعل معه ما يوجب الجفاء .

وكان ﷺ يقبل عذر المعتذر وإن كان مبطلا ويقول : (من أتاه أخوه متنصلا من ذنب فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلا ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض [(٢)])

وكـــان ﷺ يمزح مع النساء والصبيان [(٣)] ولا يقول إلا حقاً لقوله للعجز وهو مبتسم : (لا يدخل الجنة عجوز أى لأن أهل الجنة أبكار عرب [(٤)]) .

---

(١) روى البزار والطبرانى بإسناد حسن عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ : لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسله ، ولم يكن يرى ركبتيه – أو ركبته – خارجا عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه .

وروى الطبرانى بإسناد حسن عن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه حديثه على شر القوم ، يتألفه بذلك ، وكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أنى خير القوم ، فقلت : يا رسول الله أنا خير أم أبو بكر ؟ فقال : (أبو بكر) قلت : يا رسول الله أنا خير أم عمر؟ قال : (عثمان) .

وروى الترمذى وابن ماجه والبخارى فى الأدب المفرد عن على كرم الله وجه قال : استأذن عمار على النبى ﷺ فعرف صوته فقال : (مرحبا بالطيب المطيب) .

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك .

(٣) عن خارجة بن زيد أن نفراً دخلوا على أبيه زيد بن ثابت ﷺ فقالوا : حدثنا ببعض حديث النبى ﷺ فقال : وما أحدثكم ؟ كنت جاره ﷺ ، فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلى فآتيه ، فأكتب الوحى ؛ فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، كل هذا أحدثكم عنه ﷺ .

وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال : إن كان النبى ﷺ ليخالطنا – أى ليلاطفنا ويمازحنا – حتى يقول لأخ لى : (يا أبا عمير ما فعل النفير) .

(٤) رواه الترمذى عن الحسن البصرى .

وعربا : جمع عروب ، وهى المفصحة عن محبة زوجها .

وكان ضحكه ﷺ التبسم فقط ، من غير رفع صوت [١] .

وكان ﷺ يرى اللعب المباح فلا ينكره [٢].

وكان الأعراب يرفعون عليه الأصوات بالكلام الجافى فيحتمله [٣] .

وكان ﷺ لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفوا ويصفح [٤] .

ولـم يكـن لـه أنـاء يختص به عن خدمه وإمائه ، بل كان يأكل معهم فى أناء واحد تواضعاً معهم وتشريعاً للمتكبرّين من أمته [٥] .

---

(١) روى الإمام أحمد عن جابر بن سمرة ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ طويل الصمت ، قليل الضحك ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر واشياء من أمورهم ، فيضحكون ، وربما تبسم معهم . وروى الترمذى نحوه .

(٢) روى أبو داود وأحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجت مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره .
وأنا جارية – أى حديثة السن – لم أحمل اللحم ولم أبدن ، فقال للناس : (تقدموا) فتقدموا ، ثم قال لعائشة رضى الله عنها : (تعالى حتى أسابقك) فسابقته ﷺ فسبقته ، فسكت عن ، حتى حملت اللحم وبدنت وسمنت ، فخرجت معه ﷺ فى بعض أسفاره ، فقال ﷺ :(تقدموا)، ثم قال :(تعالى أسابقك) قالت عائشة رضى الله عنها : فسبقنى ، فجعل يضحك ﷺ ويقول: (هذه بتلك) .

(٣) ورد فى الصحيحين عن أنس ﷺ قال : مشيت مع رسول الله ﷺ وعليه برد – أى ثوب – نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذه – أى جذب الثوب – جبذة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثر فيه – أى فى عنقه – حاشية البرد ، من شدة جبذته . ثم قال – الأعرابى – يا محمد : مر لى من مال الله الذى عندك ، فالتفت إليه النبى ﷺ وضحك ، ثم أمر له بعطاء !

(٤) كان ﷺ يعفو ويصفح إلا إذا انتهكت حرمات الله فإنه يطبق حدود الله على الفور ، ومن عفوه وصفحه قوله يوم أحد بعد أن شج المشركون وجهه الشريف (اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون) .

(٥) ورد فى الصحيحين عن أنس ﷺ قال : خدمت النبى ﷺ – وفى رواية أحمـد : فى السفروالحضر – عشر سنين – وفى رواية لمسلم ، تسع سنين – فما قال لى أف قط ، ولا قال لشئ صنعته : لم صنعته؟ ولا شئ تركته : لم تركته ؟ =

وكان يجيب إلى الوليمة كل من دعاه ويشهد جنائز المسلمين من عرفه ، ومن لم يعرفه وكان منديله باطن قدميه ﷺ إذا [١] إذا أكل .

وكان له ﷺ إماء وخدم ، وكان لا يرتفع عليهم فى مآكل ولا مشارب .

وكان ﷺ مقبلا على عبادة ربه ليلا ونهارا لا يمضى له وقت إلا فى عمل طاعة لله عز وجل أو فيما لابد له معه مما يعود نفعه عليه وعلى المسلمين [٢] .

وكان ﷺ يخرج إلى بساتين أصحابه فيأكل من ثمارها ويحتطب ثم يحمل ﷺ الحطب إلى بيته تواضعا منه [٣] ﷺ .

= وفى رواية أبى نعيم : قال أنس : فما سبنى ﷺ قط ، ولا ضربنى من ضربة ، ولا انتهرنى، ولا عبس فى وجهى ، ولا أمرنى أمر فتوانيت فيه فعابنى عليه ، فإن عابنى عليه أحد من أهله قال : (دعوه ، لو قدر شئ كان) .

(١) روى الإمام أحمد عن بن عبد الله بن قيس ﷺ :أن رسول الله ﷺ كان يكثر زيارة الأنصار، خاصة وعامة ، فكان إذا زار خاصة أتى الرجل فى منزله ، ، وإذا زار عامة أتى المسجد .

وروى الترمذى والنسائى عن أنس ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ وسلم يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ، ويمسح رؤوسهم .

وروى البخارى فى الأدب المفرد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ زار أهل بيت من الأنصار ، فطعم عندهم طعاما ، فلما خرج – أى لما أراد أن يخرج – أمر بمكان من البيت فنفح له على بساط فصلى عليه ، ودعا لهم .

وروى الشيخان عن أبى موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: (إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار).

وعن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : (انطلقوا بنا إلى بن واقف نزور البصير) كان رجلا مكفوف البصر

(٢) ولعل قراءة متأملة لكتب السيرة تظهر لنا بوضوح هذا القول .

(٣) عن أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها : كان رسول الله ﷺ يخيط ثوبه ، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال فى بيوتهم .

وفى الرواية : ويرقع دلوه ؛ ويفلى ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه ، رواه أحمد وابن حبان وصححه ابن سعد.

وكـان لا يحقر مسكينا لفقره ، ولا يهاب ملكا لملكه ، ويدعوا هذا وهذا إلى الله عز وجل دعاء [١] وحدا .

وكـان ﷺ أرحم خلق الله على الإطلاق ، وأشفقهم على دين أمته ، وكان إذا سـبق لسـانه إلى شتم لأحد قال اللهم اجعلها عليه طهوراً وكفارة ورحمة ، ولم يلعـن ﷺ قط امرأة معيبة ولا خادما ولا بعيراً ، وكان إذا سئل أن يدعوا على أحد عـدل عن الدعاء ، عليـه ودعـا لـه ومـا ضرب ﷺ قـط امـرأة ولا خادمـاً ولا غيـرهما إلا أن يكـون فـى الجهاد أوفى حد من حدود الله فيأمر الجلاد بذلك تطهيـراً للمجلود . ودعى مرة خادمـاً لـه فلـم يجبه فقال : (والله لولا خشية القصاص يوم القيامة لأوجعتك بهذا السواك [٢]) .

وكـان ﷺ لا يأتـيه أحد من حر ولا عبد ولا أمة ولا مسكين يسأله فى حاجة إلا قـام معه وقضى حاجته ولو فى أقصى المدينة أوفى القرى التى خارجها جبراً لخاطره [٣] .

---

(١) روى الترمذى من حديث هند بن أبى هالة يصف النبى ﷺ : لا تغضبه الدنيا وما كان لها؛ فإذا تعرض للحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له ، لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ... الحديث

(٢) ويكفى قول الله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

(٣) عن أنس ﷺ عن النبى ﷺ قال : (الساعى على الأرملة والمسكين – أى الذى يسعى فيما ينفعهما – كالمجاهد فى سبيل الله ؛ وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ؛ وكالصائم لا يفطر) رواه الشيخان ؛ وابن ماجه بلفظ : (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله؛ وكالذى يقول الليل ويصوم النهار) .

على أن الذى يبين لنا خلق سيدنا رسول الله ﷺ بصورة موجزة وواضحة هى النصوص التالية : روى الترمذى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قال : سألت خالى هند بن أبى هالة ، وكان وصافاً عن حلية رسول الله ﷺ ؛ وأنا أشتهى أن يصف لى منها شئ أتعلق به فقال : كان رسول الله ﷺ فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ؛ أطول من المربوع ؛ وأقصر من المشذب ؛ عظيم الهامة رجل الشعر ، إذا انفرقت عقيقته فرقها وإلا فلا ، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره ؛ أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج=

وكان ﷺ لا يعيب قط مضجعاً وكانوا إن فرشوا له شيئاً جلس عليه وأضجع وأن لم يفرشوا له شيئاً جلس على الأرض وأضجع عليها .

وكان ﷺ هيناً لينا مع جميع أصحابه ليس بغظ ، ولا غليظ ، ولاصخاب ، فى الأسواق ، أى صياح فيها .

وكان ﷺ يبدأ كل من لقيه بالسلام من المسلمين ، وكان إذا أخذ بيده ﷺ أحد سايره حتى يكون ذلك الشخص هو الذى ينصرف .

وكان ﷺ إذا لقى أحداً من أصحابه صافحه ثم شابكه وشد قبضته على يده على عادة العرب .

وكان ﷺ لا يقوم عن مجلس ولا يجلس إلا على ذكر الله عز وجل .

وكان ﷺ إذا جائه أحد وهو يصلى خفف ﷺ صلاته ثم سلم منها وقال له: (ألك حاجة) فإن قال ؟ لا عاد إلى صلاته ، وإن كان له حاجة قضاها له بنفسه أو بوكيله .

وكان كثر جلوسه ﷺ أنه ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيده عليهما شبه الحبوة ، وكان ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس ، حتى أنه لم يكن يعرف من بين أصحابه : قال أنس ﷺ : وما رؤى ﷺ قط مادا رجليه يضيق بهما على أحد ، ولم يكن يمدهما إلا إن كان المكان واسعاً . ولما كان ﷺ لا يعرف من بين أصحابه كان الأعرابى إذا جاء سأل عن دينه ، لا يعرفه حتى يصير يسأل عنه فتكلم الصحابة فى عمل شئ يميزه ﷺ حتى تصير الأعراب تأتى إليه وتسأله ولا تحتاج إلى من يعرفه به ، فاتفق رأيهم على أن يبنوا له دكانا من طين ثم فرشوا له حصيراً من خوص النخل .

وكان ﷺ يجلس عليها حتى مات ، وكان ﷺ أكثر جلوسه إلى القبلة ويقول (هو سيد المجالس) ، وكانوا يجلسون بين يديه متحلقين .

=الحواجب ، سوابغ فى غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقن العرنين ، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم . =

وكـــان ﷺ يكـــرم كل من دخل عليه ، ويؤثره بالوسادة التى تكون تحته [(١)] ، فـــإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يقبلها ، وربما بسط ﷺ ثوبه أو رداءه لمن لم يكن بينه وبينه معرفة ولا قرابة ، ليجلسه عليه تأليفاً لقلبه .

وكـــان ﷺ لا يدخر عن الضيف شيئاً ، بل يخرج إليه كلما وجد وكان ربما لم يجد له ما يكرمه به فيصير يعتذر إليه تطبيباً لخاطره .

وكان كثيراً ما يخرج إلى بيوت أصحابه من غير دعوة ويتفقدهم إذا انقطعوا عن مجلسه وإذا رأى عند أحد منهم جفاءً أرسل إليه بهدية .

وكـــان ﷺ يـــداعب الحسن والحسين وربما أركبهما على ظهره وصار يمشى علـــى يديه ورجليه ويقول : نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما . وأخذ ﷺ مرة بـــيد الحسن بن على ووضع رجليه على ركبتيه وهو يقول حزقه حزقه برقه عين بقه هكذا كان أبو هريرة ﷺ يقول .

وكـــان ﷺ يعطى كل من جلس إليه حظه من البشاشة حتى يظن ذلك الجالس أنه أكرم عليه من جميع أصحابه .

وكـــان ﷺ يكنـــى أصحابـــه ويبتدئهـــم بالكنـــا [(٢)] ويدعوهم بها إكراما لهم واســـتمالة لقلـــوبهم وكـــان يكنـــى النساء اللاتى ولدن واللاتى لم يلدن ، ويكنى الصبيان يستلين بذلك قلوبهم .

= كث اللحية سهل الخدين ، ضليع الفم مفلج الأسنان دقيق المسربة كأن عنقه جيد دمية فى صفاء الفضة .

معتدل الخلق ، بادن متماسك ، سواء البطن والصدر ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، ضخم الكراديس ، أنور للتجرد ؛ موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجرى كالخط ، عار الثديين والبطن مما سوى ذلك ، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالى الصدر .

طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف أو قال : شائل الأطراف. خمصان الأخمصين ، مسح القدمين ينبو عنهما الماء إذا زال قلعا ، يخطو تكفيا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب وإذا التفت التفت جميعا .=

(١) زيادة فى أكرامه .

(٢) يقصد الكنية مثل يا أبا فلان .

وكان ﷺ أبعد الناس غضباً ، وأسرعهم رضى ، وكان أرأف الناس بالناس ، وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس .

وكـــان إذا قـــام من مجلسه يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنـــت أســـتغفرك وأتوب إليك ثم يقول : علمنيهن جبريل عليه السلام وقال : (هن كفارة لما وقع فى ذلك المجلس) .

وكان ﷺ قليل الكلام سمح المقالة ، يعيد الكلام مرتين أو أكثر ليفهم ، وكان كلامـــه كخرزات النظم ، وكان يكنى عن الأمور المستقبحة فى العرف إذا اضطره الكلام إلى ذكرها [1] ويعرض عن كل كلام قبيح .

= خافض الطرف ؛ نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ؛ جل نظره الملاحظة ؛ يسوق أصحابه؛ ويبدر من لقى بالسلام .

قال الحسن ﷺ : فقلت : صف لى منطق رسول الله ﷺ ؛ فقال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم فى غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير ، ليس بالجافى ولا المبين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق لم يقم لغضبه شئ حتى ينتصر له ؛ ولا يغضب لنفسه ؛ ولا ينتصر لها .

إذا أشار أشار بكفه كلها ؛ وإذا تعجب قلبها ؛ وغذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ؛ وإذا غضب أعرض وأشاح ؛ وإذا فرح غض طرفه ؛ جل ضحيكه التبسم ؛ يفتر عن مثل حب الغمام .

قال الحسن ﷺ : فكتمتها الحسين بن على زمانا ثم حدثته قد سبقنى إليه فسأله عما سألته عنه ووجدته قد سأله عن مدخله ﷺ ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يلغ منه شيئاً .

قال الحسين ﷺ : فسألت – عليا ﷺ – عن دخول رسول الله ﷺ ؟ فقال : كان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ثم جزأ جزأه بينه و بين الناس ، فيرد ذلك بالخاصة على العامة ، ولا يدخر عنهم شيئاً .

وكان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل باذنه وقسمه على قدر فضلهم فى الدين : فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ؛ ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم ، ويشغلهم فيمـــا =

(١) من كمال أدبه ﷺ مع أنه لا حياء فى الدين .

وكان ﷺ إذا سلم سلم ثلاث مرات ، وكان كثير البكاء ، لم تزل عيناه تهملان من الدموع كأنه حديث عهد بمصيبته ، قال أنس ﷺ : وكسفت الشمس مرة فجعل ﷺ يبكــى فى الصلاة وينفخ ويقول : (يا رب ألم تعدنى أن لا تعذبهم وأنا فيهم ، وإن لا تعذبهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك يا رب) .

وكان ضحك أصحابه عنده التبسم من غير صوت اقتداء به ﷺ وتوقيراً له . وكانــوا إذا جلسوا بين يديه كأنما على رءوسهم الطير من الهيبة والوقار ، وكان ﷺ أكثــر الـــناس تبسماً ما لم ينزل عليه قرآناً ، أو يذكر يوم القيامة ، أو يخطب خطبة موعظة .

وكـــان ﷺ إذا نـــزل بـــه أمر فوض أمره فيه إلى الله عز وجل وسأله الهدى واتباعه والبعد من الضلال واجتنابه ، ويبرأ من حوله ومن قوته (١) .

وكـــان أحـــب الطعـــام إليه ما كثرت عليه الأيدى (٢). وكان ﷺ يجلس للأكل كالعـــبد فيجمع بين ركبته وبين قدميه كما يجلس المصلى إلا أن الركبة تكون فوق

= يصلحهم والأمة من مسألتهم عنه وإخبارهم بالذى ينبغى لهم ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغه ؛ فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها : ثبت الله قدميه يوم لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره .

يدخلون رواداً ، ولا يفترقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة يعنى على الخير .

قال الحسين ﷺ : فسألت أبى – عليا ﷺ – عن مخرجه ، كيف كان يصنع فيه ؟

قال : كان رسول الله ﷺ يحزن لسانه إلا فيما يعنيه ، ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس . يحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة .

قال الحسين ﷺ : فسألت – عليا ﷺ – عن مجلسه ﷺ كيف كان ؟ فقال ! =

(١) هذا بعد اتخاذ الأسباب التى توصل إلى نجاح مقصوده بكل الوسائل والإمكانيات وبعد ذلك يفوض أمره إلى الله فى النتيجة ويدعوا الله لتيسير تحقيقها .

(٢) فقد كان من شدة كرمه ﷺ يدعو الناس إلى طعامه .

الـركبة والقـدم فوق القدم ، وكان كثيراً ما يقول إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلـس كما يجلس العبد ، وكان ﷺ لا يأكل الطعام الحار ويقول : (لأنه غير ذى بـركة فابردوه) ، (وإن الله لم يطعمنا ناراً) ، وكان ﷺ يأكل مما يليه ، ويأكل بأصـابعه الثلاث ، وربما استعان بالرابع وكان لا يأكل قط بأصبعين ويقول: (إنه فعل الشيطان) ، وكان ﷺ يأكل القثاء بالرطب والملح، وكان أحب الفاكهة الرطبة إلـيه الرطب والعنب ، وكان ﷺ يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر وربما يأكله بالرطب

= كان رسول الله ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله تعالى ، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا انتهى إلى قوم : جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك .

يعطى كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه فى حاجة : صابرة حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها ، أو بميسور من القول .

وقد وسع الناس منه بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده فى الحق سواء مجلسه مجلس : علم وحياء، وصبر ، وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تنثى فلتاته .

متعادلين ، بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ويؤثر ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

قال الحسين ﷺ : وسألت أبى – عليا ﷺ – عن سيرة النبى ﷺ فى جلساته ؟ فقال :

كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ، ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح – وفى نسخة صحيحة : ولا مداح ولا مزاح – يتغافل عما لا يشتهى .

ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، فقد ترك نفسه من ثلاث : المراء والإكثار وما لا يعنيه .

وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ، ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه .

وإذا تكلم أطرق جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ، فإذ سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم ؛ يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه . =

ويستعين باليدين جميعاً ، وكان ﷺ يأكل العنب خرطا يرى زواله على لحيته كحدر اللؤلؤ وهو الماء الذى يتقاطر منه .

وكان أكثر طعامه ﷺ التمر والماء وكان يجمع بين التمر واللبن ويسميهما : (الأطيبين) وكان أحب الطعام إليه ﷺ اللحم ويقول : إنه يزيد فى السمع ، وهو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة ، . وكان يكره إدمان أكل اللحم ويقول : إنه يقسى القلب ، وكان ﷺ يأكل الثريد باللحم والقرع ، ويحب القرع ويقول : (إنه شجرة أخى يونس) ، وكثيراً ما يقول لعائشة (إذا طبختى دباء فأكثرى من مرقتها فأنه يشد قلب الحزين) .

وكان ﷺ لا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين ، يقول له (لبيك) ، ولا يغضب لنفسه ، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل ، وكان ﷺ ينفذ الحق حيث كان ، وإن عاد ذلك عليه بالضرر ، أو على أصحابه ، وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع ، ويكتم ذلك عن أصحابه وأهل بيته تحملا للمشقة عنهم إذا علموا بجوعه ﷺ ، وكان ﷺ يأكل ما وجد ولا يرد ما قدم إليه من الحلال وكان لا يتورع قط عن مطعم حلال بل يأكل منه توسعه على أمته ، وكان ﷺ يأكل ما وجد فإن وجد تمراً دون خبز أكل أو لحماً مشوياً أكل أو خبز بر أكل أو خبز شعير أكل أو حلوى أو عسلا أكل أو لبناً دون خبز أكل واكتفى به ويقول . (ليس شئ يجزى عن الطعام والشراب غير اللبن) ، وكان ﷺ يأكل البطيخ ، والرطب ، ولحم الدجاج ، والطير الذى يصاد : وكان لا يشترى الصيد ولا يصيده ويحب أن يصاد له فيأتى به فيأكله ، وكان ﷺ إذا أكل اللحم لم يطأطئ رأسه إليه بل يرفعه إلى فيه ثم يأكله ، وكان ﷺ يأكل الخبز والسمن ، وكان يحب من الشاة الذراع والكتف ، وكانت عائشة تقول : لم يكن الذراع أحب إلى رسول الله ﷺ وإنما ذلك لكونه أعجل الأشياء نضجاً ، وكان يعجل به إليه لكونه كان لا يجد اللحم إلا غبا .

وكان ﷺ يعجبه طعام الدباء ويحب من التمر العجوة ، ودعى فى العجوة بالبركة وقال إنها من الجنة وشفاء من السم والسحر .

وكان ﷺ : يحب من البقول الهندبا والشمار والرجلة .

وكـان يكـره أكل الكليتين لمكانهما من البول ، وكان لا يأكل من الشاة سبعاً الذكر ، والأنثيين ، والفرج ، والدم ، والمثانة والمرارة ، والغدد ويكره لغيره أكل هذه المذكورات .

وكان يقول : (أطيب اللحم لحم الظهر) وكان ﷺ لا يأكل الثوم ولا البصل ، ولا الكرات وقال لعلى : (يا على كل الثوم نيا فإنه شفاء من سبعين داء ولولا أن الملك يأتينى لأكلته) .

وما ذم ﷺ طعاما قط بل إن اشتهاه أكله وإلا تركه .

وكـان لـه ﷺ قصعة يقال لها الغرا لها أربع حلق يحملها أربعة رجال بينهم وكان له صاع ومد وسرير قوائمه من ساج ، وكان له ﷺ ربعة يجعل فيها المرآة والمشط والسواك والمقراضين (وهما المقص والملقاط) .

وكان له ﷺ سبع أعنز منائح ترعاهن له أم أيمن حاضنته ﷺ .

وكـان ﷺ يعـاف الضب والطحل ولا يحرمها ، ويقول : (إن الضب لم يكن بـأرض قومـى فأجدنى أعافه) . وأما الطحال فإنما كرهه ﷺ لأنه مجمع أوساخ البدن وكان يلعق الصحفة بأصابعه ويقول : (آخر الطعام أكثر بركة) .

وكان يلعق أصابعه حتى تحمر .

وكـان لا يمسـح أصابعه بالمنديل حتى يلعقها واحدة واحدة ، وكان يقول : (إنه لا يدرى فى أى الأصابع البركة).

وكان ﷺ إذا أكل اللحم والخبز خاصة غسل يديه بالماء غسلا جيداً ثم يمسح بفضل الماء على وجهه .

وكـان ﷺ إذا شـرب لا يتنفس فى الإناء ، وإنما ينحرف عنه ، وأتوه مرة بإنـاء فـيه لـبن وعسـل فأبى أن يأكله وقال : (شربتان فى شربة) ، وإدامان فـى إناء واحد لا حاجة لى بهما ، أما إنى لا أحرم ذلك ولكنى أكره الفخر بفضول الدنيا ، والحساب على ذلك ، وأحب التواضع لربى عز وجل فى جميع أحوالى فإن من تواضع لله رفعه الله .

وكـــان ﷺ فـــى بيـــته أكثر حياء من العائق فى حيرها [١] ، وكان لا يسألهم طعامـــاً ولا يتشـــهاه عليهم ، إن أطعموه أكل وأطعم غيره وما أطعموه قبل ، ولو كان قليلا .

وكثيراً ما كان ﷺ يقوم ، فيأخذ ما يأكل ، وما يشرب بنفسه .

وكـــان ﷺ إذا اعـــتم أرخى عمامته بين كتفيه ، وفى أوقات كان يغرزها فى عمامـــته ، وفى أوقات كان لا يرخيها جملة ، هكذا قال بعضهم ، والجمهور على أنه ﷺ لم يترك العذبة حتى مات .

وكان كمه ﷺ إلى الرسغ ، وهو المفصل بين الكف والساعد .

ولبس ﷺ القبا ، والفرجية ، والجبة الضيقة الكمين فى سفره .

وكـــان ﷺ إذا أهـــدى إلـــيه ثوب يخالف هيئة ثيابه لا يغيره عن هيئته ، بل يلبسه على هيئته توسعة على أمته ﷺ كما مر فى الجبة الضيقة الكمين .

وكان له رداء طوله ستة أذرع فى عرض ثلاثة أذرع .

وكان إزاره ﷺ أربعة أذرع وشبرا فى عرض ذارعين وشبر .

وكـــان ﷺ يلبس الأبراد التى فيها خطوط حمرا [٢] ، وخضر [٣] ، وكان ينهى عن لبس الأحمر الخالص .

وكـــان لـه ﷺ [٤] سراويل ولبس النعل التى يسميها الناس الناسومه ، وكان له ﷺ بردان أخضران يصلى فيهما الجمعة والعيدين .

= ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته ؛ حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم ؛ ويقول : (إذا رأيتم طالب حاجة فأرفدوه) .

ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ؛ ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهى أو قيام وروى الطبرانى وغيره : قال الحسين رضي الله عنه : فسألت أبى عليا رضي الله عنه : كيف كان سكوته ﷺ ؟=

(١) يقصد فى خدرها .

(٢) حمراء .

(٣) خضراء .

(٤) يقصد وكان ﷺ (له) سراويل .

قال بعض العلماء ، ولم يلبس ﷺ البرد الأخضر الخالص للخضرة أبداً قالوا: وكـان أكثـر لباسـه ﷺ فى الجمعة البياض ، قالوا : وقوله أخضران أى فيهما خطوط .

وكـان ﷺ يتقنع بردائه تارة ، ويتركه أخرى ، وهو الذى يسميه الناس الآن الطيلسان أو البشنقة .

وكان أكثر لباسه ﷺ ولباس أصحابه ثياب القطن .

وكان له ﷺ عمامة قطرية وهى الغليظة من القطن .

وكان ﷺ يلتحى كثيراً بالعمامة من تحت الحنك على طريق المغاربة الآن فى بلاد مصر ، وكان يلبس الشعر الأسود .

ولبس ﷺ مرة بردة من الصوف ، فوجد لها رائحة الضأن فتركها .

قال أنس : وتوفى رسول الله ﷺ وله بردة تنسج عند النساج .

وكان ﷺ يحب الرائحة الطيبة ويكره الرائحة الخبيثة [(١)] .

وكان ﷺ يأكل من الكبد إذا شويت .

وكـان مـع أهـل بيـته فى الخدمة كأنه واحد منهم من حسن خلقه وحسن معاشرته .

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : لـم يكـن أحـد أحسـن خلـقاً مـن رسـول الله ﷺ كـنت إذا هويت شيئاً تابعنى عليه ، قالت : وكنت إذا شربت من السقاء يأخذه فيضع فمه على موضع فمى ويشرب .

وربما كنت حائضاً وكان ينهش فضلتى من اللحم الذى على العظم .

قالت : وكان ﷺ يتكئ فى حجرى ويقرأ القرآن .

قالت : وربما أكون حائضاً

وكـان ﷺ له غنـم ، وكـان لا يحب أن يزيد الغنم على مائة فإن زادت ذبح الزائد .

وكان ﷺ يبيع ويشترى ولكن كان شراءه أكثر من بيعه .

---

(١) سبق أن تحدثنا عن ذلك من قبل .

وآجر ﷺ نفسه قبل النبوة فى رعاية الغنم .

وكـــذلك آجـر نفســه لخديجــة رضى الله عنهــا فى سفره لتجارتها [١] .

واستدان ﷺ برهن ، وبغير رهن ، واستعار وضمن ووقف أرضاً له .

وحلــف ﷺ بالله تعالى فى أكثر من ثمانين موضعاً توسعة بذلك على أمته مع أنه كان أكثر الخلق تعظيماً لربه عز وجل .

ولو لا توسعته على أمته ما حلف ﷺ قط تعظيماً له .

وكان ﷺ يستثنى فى يمينه تارة ويكفرها أخرى ويمضى فيها أخرى [٢] .

وكــان ﷺ يثيب الشاعر على شعره إذا مدحه وضع الثواب [٣] فى حق غيره لــئلا يتجــرأ الشــعراء على المدح ويبالغوا فيه فيؤدى إلى الكذب بغير حق وأمر أن يحثى فى وجوه المداحين التراب وصورة ذلك أن الممدوح يأخذ تراباً بأصابعه من الأرض ثم يدريه بين يدى المادح على الأرض ويقــول لــه (ماذا تمدح فيمن خلــق مــن هــذا) ؟ لا أنه يرمى التراب فى وجه الشاعر فيوذيه بذلك كما فهمه بعضهم [٤].

= فقال : كان سكوتــه على أربــع : الحلــم ، والحذر ، والتقدير ، والتفكر ، وفى رواية: الحكم ، والحذر ، والتدبر ، والتفكر .

فأما تقديره ﷺ : ففى تسوية النظر ، والاستماع بين الناس ، وأما تذكره – أو قال تفكره – ففيما يبقى ويفنى .

وجمع له ﷺ الحلم والصبر ، فكان لا يغضبه شئ ولا يستفزه .

وجمع له الحذر فى أربع : أخذه بالحسن ، والقيام لهم فيما جمع لهم الدنيا والآخرة .

وفى رواية الطبرانى : وجمع له الحذر ﷺ فى أربع :أخذه بالحسن ليقتدى به، وتركه القبيح ليتناهى عنه ، واجتهاده الرأى فيما أصلح أمته ، والقيام فيما جمع لهم الدنيا والآخرة. =

(١) وكل هذا موجود فى كتب السيرة بتوسع .

(٢) يريد بذلك التشريع لأمته ﷺ والتيسير عليهم .

(٣) ربما يقصد المؤلف بذلك أنه يحول المدح على الآخرين .

(٤) ولم يفعلها رسول الله ﷺ : فإنه كان صاحب خلق رفيع وكيف بمن يستحــى مــن المدح ويتواضع لله أن يفعل ذلك .

وكان ﷺ يصارع لأجل معرفة مكايد حرب العدو [١] ، وصارع ركانه كما قاله بعضهم .

وكـان ﷺ يفلى ثوبه من القمل الذى يصعد على ثيابه من مواضع الفقراء ، ولم يكن ثوبه ﷺ يقمل [٢] .

وكان ﷺ أحسن الناس مشياً وأسرعهم فيه إذا مضى للصلاة حتى كأنه ينحط مـن صـيب من غير التراب [٣] ولا تعب منه ﷺ وكان أصحابه يمشون بين يديه وهـو خلفهم ويقول (دعوا ظهرى للملائكة) إذا سافر يكون ساقه أصحابه لأجل المنقطعين وإردافهم والنظر فى حالهم . [٤]

وكانت ثيابه ﷺ كلها مشمرة فوق الكعبين يشد وسطه إذا كانت طويلة وأكثر أحوالها أنه كان يفصلها قصيرة فلا يحتاج إلى تشمير .

وكان إزرار فوق ذلك إلى نصف الساق [٥]

وكـان قميصه ﷺ مسدود الأزرار وتارة كان يتزرر بالأزرار المعهودة وتارة بشوكة أو إبرة وربما أحدث التزرر فى الصلاة .

وكـان لـه ﷺ ملحفة مصبوغة بالزعفران وربما صلى بالناس فيها وحدها، وربما لبس الكساء الأسود ، أو المخطط ، وما عليه غيره ، وكان يلبس الكسـاء

= النص الثانى :

بعد وفاة ﷺ ، سمع سيدنا عمر بن الخطاب يبكى ويقول :

(بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد كان جذع تخطب الناس عليه ، فلما كثر الناس اتخـذت منبراً لتسمعهم،فحن الجذع لفراقك.حتى جعلت يدك عليه فسكن ، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتها) =

(١) فيضع خطط الحرب ويبعث الرسل لمعرفة أخبار عدوه .

(٢) فإن القمل كان يأتى ثوبه ﷺ من جلوسه مع الفقراء الناس وقضائه حوائجهم وأكرم به من قائد وراعى .

(٣) ربما يقصد من غير إثارة للتراب .

(٤) أى يسير فى القافلة يتتبع أحوال الضعفاء فيما .

(٥) لكى لا تتلوث بالنجاسات أو الأقذار

المرقع ويقول (إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد) .

وكان له ثوبان للجمعة خاصة كما مر سوى ثيابه فى غير الجمعة .

وربما لبس أزراراً واحداً ليس عليه غيره يعقد طرفيه بين كتفيه .

وربمــا أم بـــه الناس على الجنائز ، وربما صلى به فى بيته ويلتحف به إذا كـــان واســـعاً ، وربما كان ذلك الإزار هو الذى جامع فيه يومئذ ، وربما صلى فى اللـــيل فى وسطه أزار يرتدى بطرفه مما يلى هدبه ويلقى البقية على بعض نسائه لطوله ويصلى فيه .

وكان لا يتحرك بحركة ركوعه ولا سجوده ، وكان له كساء أسود ليس عنده غيره فاستكساه شخص فكساه له ﷺ .

وكـــان له ﷺ ملاءة مصبوغة بالزعفران كما مر وكانت تنقل معه إلى بيوت زوجاتـــه فترســـلها المرأة التى كان نائماً عندها لصاحبة النوبة [1] فترشها بالماء فيظهر رائحة الزعفران فينام معها فيها ﷺ .

وكـــان ﷺ كثيراً ما يخرج وفى إصبعه الخيط المربوط فى خاتمه فيستذكر به الشئ .

وكـــان يخـــتم بخاتمـــه علـــى الكـــتب ويقول : الخاتم على الكتاب خير من التهمة [2].

وكـــان ﷺ يلبس القلانس تحت العمائم ، وتارة يلبسها من غير عمامة وربما نـــزع قلنســـوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ، وصلى إليها ، وكانت صوفاً ، وتارة كان يجعلها قطناً محشوة مضربة ، ولم يبلغنا : أنه ﷺ لبس الزنط ، قـــال

رورى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : كان النبى ﷺ ، يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فحن الجذع ، فأتاه فمسح يده عليه) .

(بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن جعل طاعتك طاعته ، فقال عز وجل: [من يطع الرسول فقد أطاع الله]) .

(١) الزوجة التى سيبيت عندها ليلته تلك .

(٢) لأ لا يحدث تزوير فى المكتوب .

العلماء : وهذا يؤذن بأن طولها كان ثلثى ذراع حتى يصح كونها سترة للمصلى .

وكان له ﷺ عمامة تسمى السحاب فوهبها لعلى ﷺ فربما طلع على ﷺ وهى على رأسه فيقول ﷺ (إياكم على فى السحاب) .

وكان له ﷺ فراش من أدم حشوه ليف ، وطوله ذراعان أو نحوهما وعرضه ذراع وشبر ونحوه .

وكان لـه ﷺ عباءة تفرش لـه حينما تنقل تثنى لـه طاقين فيجلس عليها، وفرشتها لـه عائشة مرة بعد أن ثنتها أربع طاقات فنام ﷺ تلك الليلة عن الوقت الأول مـن ورده ، فقال أعيدوها طاقين فإن لبثها أو وطتها [1] كاد أن يمنعنى قيام ليلتى ، وكثيراً ما كان ﷺ ينام على الحصير وحده ليس فوقه شئ .

وكان له ﷺ مطهرة من فخار يتوضأ منها ويشرب .

وكـان الـناس يرسلون أولادهم الذين لم يبلغوا الحلم فيدخلون عليه ﷺ فلا يمـنعـون ، فـإذا وجـدوا فى المطهرة ماء شربوا منه ومسحـوا منـه على وجوههـم وأجسامهم يبتغون بذلك البركة [2].

وكـان ﷺ إذا صـلى الغداة جلس فى مجلسه فيجئ خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فسألوا به ﷺ أن يضع يده فى أوانيهم فيفعل وربما جاءوه فى الغداة الباردة فيغمس يده فى الماء .

وكـان ﷺ إذا بصق يتسارع الناس إلى تلقى بصاقه ونخامته بأكفهم ولا يقع له ﷺ نخامة على الأرض فكانوا يدلكون بتلك النخامة وجوههم وجلودهم طلباً أن

=بأبى أنت وأمى يا رسول !! لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم فقال عز وجل : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده : أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون . =

(١) ومعناها وطأها .

(٢) دليل على جواز التبرك بآثار الصالحين .

لا يمسهم النار يوم القيامة [1]، وكانوا يقتتلون على غسالة ماء وضوئه .

وكـــان أصـــحابه يتكلمون عنده بخفض صوت مع الهيبة والإطراق ، وكانوا لا يحدقون النظر إليه ﷺ ، ولا يحدقون بصرهم إليه تعظيماً له وتوقيراً [2] .

وكان ﷺ لا يؤذى من يؤذيه ولا يتكلم فيما لا يعنيه ، ولا يذكر أحداً بغيبة ولا يشمت بمصيبة .

وكـــان إذا بالغ أحد فى إيذائه صبر واحتمل ولم يقابله بنظيره ، وربما قال : (رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر) .

وكـــان ﷺ يكـــره مـــن يبلغه السوء عن أصحابه ويقول : (لا تبلغونى عن أصـــحابى إلا خيـــراً فإنـــى بشر أغضب كما يغضب البشر) وقسم مرة قسما بين أصـــحابه فلمـــا انصرف قال شخص من القوم : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالـــى ، فلمـــا رجع ﷺ أخبره شخص بما قيل فى حقه فقال رسول الله ﷺ : (لا تبلغونى عن أصحابى إلا خيراً فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر) .

وكان ﷺ إذا رأى أحداً يفعل مالا يليق لا يبـــادر إلى الإنكـــار عليـــه ولكـــن يثـــبت [3]= وينظر فإن رآه جاهلا علمه برفق ورحمة كما فى قصة الأعرابى الذى

=(يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول)

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار ، فماذا ؟ أى فليس ذلك – بأعجاب من أصابعك حين نبع الماء منها .

روى البخارى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : عطش الناس يوم الحديبية والنبى ﷺ بين يديه ركوة ، فتوضأ فجهش الناس ، فاسرعوا وتكاثروا نحوه .

فقال ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه ، كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا (قلت : كم كنتم=

(١) فهى من أزكى روح وأزكى جسد .

(٢) (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسرجاً منيراً) الأحزاب : ٤٦،٤٥ (من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) النساء آية ٨٠ ، (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) آل عمران : ٣١ .

دخل فبال فى المسجد فإنه نهى أصحابه أن يزعجوه عن بوله وقال : (إنما بعثتم ميســرين ولم تبعثوا معسرين) فلما فرغ الأعرابى من بوله كلمه بخفض صوت ، وقال (إنما جعلت المساجد للصلاة ، ولم تجعل للبول) .

وكــان ﷺ يــركب الحمار موكوفاً وعليه قطيفة ، وإذا مر على الصبيان سلم عليهم وباسطهم .

وأتــوه مرة برجل فأرعد من هيبته ﷺ فقال (هون عليك يا أخى فلست بملك ولا جبار ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) .

وكان ﷺ إذا جلس لا يتميز عن أصحابه بشئ ، فربما أتى الغريب فلا يعرفه تواضــعاً مع أصحابه وإجلالا لهم ، فأتاه يوماً أعرابى يسأله عن أمر دينه فصار يســأل ويقــول : أين محمد ؟ فتكلم الصحابة رضى الله عنهم فى شئ يميزه حتى لا يحــتاج الغريب إلى سؤال فأدى رأيهم أن يجعلوا له دكاناً من طين يجلس عليه ففعلوا وفرشوا له عليه حصيراً من خوص كما مر .

وكان من تواضعه ﷺ أنه لا يدعوه أحد من أصحابه إلا قال له : لبيك .

وكــان ﷺ مــع أصحابه على ما يريدون ويحبون فإن تكلموا فى أمر الآخرة تكلــم معهم أو فى أمر الدنيا تكلم معهم ؛ أو فى الطعام أو شراب تكلم معهم رفقاً بهم واستماله لخواطرهم .

وكان هيناً ليناً ﷺ .

= قال لو كنا مائة ألف لكفانا !! كنا خمس عشرة مائة) :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة ، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح!!

بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لئن كان عيسى بن مريم قد أعطاه الله إحياء الموتى ، فما أعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهى مشوية ، فقالت لك الذراع : لا تأكلنى فإنى مسمومة .=

(٣)- يتأنى .

وكان لا يزجر أصحابه إلا عن حرام أو مكروه .

و كــان ﷺ يسابق عائشة بالعدو والهرولة فيسبقها فإذا رآها غضبت تثاقل لها حتى تسبقه .

وكــان ﷺ معــتدل الخلــق فــى السمن ، ثم بدن فى آخر عمره ، ومع ذلك كــان [1] لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن قالت عائشة رضى الله عنها : وما مات ﷺ حتى كان أكثر صلاته النفل جالساً .

وكان إذا تعب من القيام يجلس فيقرأ وهو جالس فإذا قارب الركوع قام فقرأ ما كتب له ثم ركع .

وكان كثيراً ما يفتتح قيام الليل بركعتين خفيفتين ؛ ثم يطيل بعدهما ما شاء ؛ ويجعلهــا كالــنافلة التــى قــبل الفريضة ويكثر فيهما من الاستغفار أدباً مع ربه وتشريعاً لأمته ﷺ : انتهى ما ذكرناه من أخلاقه مع أصحابه ﷺ .

وكان من خلقه ﷺ تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه .

وكــان اسم رايته ﷺ العقاب ، وكانت سوداء ، وكان له راية أخرى صفراء، وآخرى بيضاء فيها خطوط سود .

وكــان اسم جفنته ﷺ الكافور ، واسم السكن [2]= ، واسم قضيبه الممشوق ، واســم قدحه الريان ، واسم ركوته الصادر ، واسم سرجه الراح ، واسم مقراضه الجامع ، واسم سيفه الذى يحضر به الحروب ذو الفقار ، وكان له أسياف أخر .

=يروى ابن سعد فى طبقاته :

(أخبرنــى سعــيد بــن محمــد الثقفى ، عــن محمــد بن عمر ، عن أبى سلمة قال : كان رسول الله ﷺ ، لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية ، فأهدت إليــه يهوديــة شــاة مصليــة فأكل رسول الله ﷺ منها هو وأصحابه ، فقالت : إنى مسمومة ، فقال لأصحابه : أرفعوا أيديكم ، فإنها قد أخبرت أنها مسمومة.

قال : فرفعوا أيديهم ، قال : فمات بشر بن البراء ، فأرسل إليها الرسول ﷺ فقال : ما حملك على ما صنعت ؟؟ فقالت : أردت أن أعلم إن كنت نبيا لم يضرك ، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك ، قال : (فأمر بها فقتلت) أ هـــ =

(١) لعلها كان .

وكان له ﷺ منطقة من أدم فيها ثلاث حلق فضة .

وكان اسم ناقته القصوى [١] وهى التى يقال لها العفينا .

=بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لقد دعا نوح على قومه فقال : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً) .

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا : فلقد وطئ ظهرك ، وادمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت : (اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله !! لقد اتبعك فى قلة سنك ، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً فى كثرة سنه ، وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل .

بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لو لم تجالس إلا كفئا لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفئا لك ما نكحت إلينا ، ولم لم تواكل إلا كفئا لك ما آكلتنا ، فقد والله جالستنا ونكحت إلينا ، وآكلتنا ولبست الصوف وركبت الحمار واردفت خلفك ، ووضعت طعامك على الأرض تواضعاً منك ﷺ .

النص الثالث :

بعد أن انتهى هرقل من اسئلته إلى أبى سفيان قال له :

سألته عن نسبه ؟ فذكرت أنه فيكم ذو نسب .

وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟

فذكرت أن : لا

فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يأتسى بقول قيل قبله .

فذكرت أن : لا .

قلت : لو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه .

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

فذكرت أن : لا

فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ! وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟

فذكرت : أن ضعفائهم اتبعوه .=

(٢)" غير موجوده بالأصل .

(١) يقصد ناقته القصواء .

وكـان اسم بغلته ﷺ دلدل ، واسم حمارة يعفور واسم شاته التى كان يشرب لبنها عينه .

وأمـا صفته ﷺ فلم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد ، بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده ، وإذا مشى مع الطويل ساواه .

وكان يقول : جعل الخير كله فى الربعة .

وكـان لـونه ﷺ أزهـر ، ولم يكن بالأسود ولا شديد البياض ، والأزهر هو الأبيض المشرب بحمرة .

وكان عرقه ﷺ أطيب من المسك الأذفر يعنى الخالص .

وكـان شعره ﷺ يضرب إلى منكبيه ، وفى بعض الأوقات إلى شحمة أذنيه ، وكـان مـائلا إلـى الصهوة ، وكان شيبه ﷺ فى رأسه ولحيته نحو ثمان عشرة شعرة .

وكان ﷺ صافى البشرة .

وكان إذا غضب أو رضى يرى رضاه وغضبه فى بشرته ووجهه .

وكان له ﷺ أواخر عمره ثلاث عكن : يغطى الأزار منها واحدة .

وكـان كفـه ﷺ ألين من الحرير ، وكانت رائحتها كرائحة كف العطار مسها بطيب أم لم يمسها ، إذا صافح شخصا يظل يومه ذلك كله يجد ريحها .

وكان ﷺ معتدل الخلق فى السمن ثم بدن أواخر عمره كما مر ، وكـان مـع

=وهم اتباع الرسل .

وسألتك : ايزيدون أم ينقصون ؟

فذكرت : أنهم يزيدون .

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .

وسألتك : أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

فذكرت أن : لا

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب .

وسألتك : هل يغدر ؟

فذكرت أن : لا =

ذلك لحمه متماسكا يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن انتهى .

وفـى هـذا القدر كفاية فى فتح باب التأسى به وبأخلاقه ﷺ والحمد لله رب العالمين إذا علمت فأقول وبالله التوفيق .

من أخلاق سيدى إبراهيم المتبولى وأخلاق أصحابه رضى الله عنهم أجمعين

أن يـربوا أصحابهم بالتدريج رحمة ربهم ، فيشغلوا المريد أولا بالعمل على جـلاء مرآة قلبه من الصدأ بكثرة ذكر الله تعالى ، وبالجد والاجتهاد فى السير إلى الحضرة الآلهية بالأعمال المرضية .

ولا يأمـروه بالـتخلق بالأخلاق العظيمة التى لا يقدر فى بدايته على التخلق بها، فإنها تبطئ عليه السير إلى مقام الكمال .

ثـم إذا انتهـى سلوك المريد إلى مقام الكمال فهناك يُصبغْ فى تلك الحضرة بالأخلاق المحمدية بالخاصية [(١)] من غير كلفة ولا مشقة .

ثـم إذا أمـر بالرجوع إلى الكون فلا يشغله بعد ذلك شئ منه ، لشهوده أن الحـق تعالى هو القائم بكل شئ ومع كل شئ ، فلا يعتزل عن شئ ولا يهرب من شئ ويقضى على نفسه بالجهل فى حال سيره [(٢)] .

= وكذلك الرسل لا تغدر .

وسألتك : بما يأمركم ؟

فذكرت : أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف .

فإن كان ما تقول حقا ؟ فسيملك موضع قدمى هاتين .

وقد كنت أعلم أنه خارج .. لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ..

(١) أى أخلاق الصوفية الكبار (الخاصة) .

(٢) كما فعل سيدى رسول الله ﷺ بالنسبة للتشريع فقد كان فرضه على المسلمين الأول بالتدريج مثل تحريم الخمر وغيرها من أمور التشريع .

وقـــد كـــان الحـــق تعالى قادراً على أن يعطى العبد هذه الأخلاق بغير انتهاء سـلوك ، ولكـــن ذلك لم يسبق به علمه ، إنما سبق أن يكون الستر والترقى على هذه الحالة (١) .

ولـــو أن العبد كان يشهد الحق تعالى خالقاً لكل شئ ، أحسن تقويم ومع كل شـــئ مـــا فـــر فى بدايته من شئ وصورة المنتهى (٢) صورة المبتدى (٣) ، ولكن المشهد مختلف.

ومـــن هـــنا جهـــل الـــناس مراتب الكاملين ، وظهر لهم الناقصون لتميزهم بالأعمال البدنية بخلاف الكاملين فإنهم إنما يتميزون بالأخلاق القلبية .

وســـمعت ســـيدى علـــيا الخواص رحمه الله يقول : إنما لم يؤمر المريدون بالـــتخلق بـــأخلاق القوم فى بدايتهم ، لضيقهم وعسر ذلك عليهم (٤) بخلافهم بعد انـــتهاء كمالهم ومجاهداتهم وفطامهم على يد شيخ صادق ناصح (٥) ، فلذلك كانوا لا يشـــغلون المـــريد فى بداية أمره إلا بالتوحيد سراً وجهراً ليلا ونهاراً (٦) ، فلا يـــزال أفـــراد العالم ينقص فى شهوده (٧) شيئاً فشيئاً كلما أكثر من الذكر إلى أن يصـــير لا يشهد إلا الله وحده ، كما هو الحال فى صورة وجود الله تعالى قبل خلقه الخلـــق (٨) ، فإن الله تعالى كان ولا شئ معه أصلا ، ثم إنه لما خلق أول مخلوق رأى ذلـــك المخلـــوق نفسه مع ربه فقط ، ثم لما خلق المخلوق الثانى صار يرى

---

(١) فإن السعى للوصول إلى الكمال مطلوب فى الشرع والأخلاق الفاضلة لا توهب ، صحيح أن للبيئة والمجتمع تأثير ولكن المطلوب من المسلم الدفاع عن دينه وأخلاقه ضد المجتمع المنحرف والبيئة المنحرفة .

(٢) لعله يقصد : وتكون صورة المنتهى هى صورة المبتدى .

(٣) أى صورة الكامل فى الطريق إلى الله تعالى وصورة المبتدئ فيه .

(٤) فإنهم لم يتخلصوا من شهوات الدنيا بعد .

(٥) فإنه يأخذ بيدهم ويرشدهم فى جميع المجالات .

(٦) أى ذكر الله تعالى .

(٧) فى وعيه .

(٨) فلا يرى إلا الله تعالى .

وقـد كـان الحـق تعالى قادراً على أن يعطى العبد هذه الأخلاق بغير انتهاء سـلوك ، ولكـن ذلك لم يسبق به علمه ، إنما سبق أن يكون الستر والترقى على هذه الحالة [١] .

ولـو أن العبد كان يشهد الحق تعالى خالقاً لكل شئ ، أحسن تقويم ومع كل شـئ مـا فـر فى بدايته من شئ وصورة المنتهى [٢] صورة المبتدى [٣] ، ولكن المشهد مختلف.

ومـن هـنا جهـل الـناس مراتب الكاملين ، وظهر لهم الناقصون لتميزهم بالأعمال البدنية بخلاف الكاملين فإنهم إنما يتميزون بالأخلاق القلبية .

وسـمعت سـيدى علـيا الخواص رحمه الله يقول : إنما لم يؤمر المريدون بالـتخلق بـأخلاق القوم فى بدايتهم ، لضيقهم وعسر ذلك عليهم [٤] بخلافهم بعد انـتهاء كمالهم ومجاهداتهم وفطامهم على يد شيخ صادق ناصح [٥] ، فلذلك كانوا لا يشـغلون المـريد فى بداية أمره إلا بالتوحيد سراً وجهراً ليلا ونهاراً [٦] ، فلا يـزال أفـراد العالم ينقص فى شهوده [٧] شيئاً فشيئاً كلما أكثر من الذكر إلى أن يصـير لا يشهد إلا الله وحده ، كما هو الحال فى صورة وجود الله تعالى قبل خلقه الخلـق [٨] ، فإن الله تعالى كان ولا شئ معه أصلا ، ثم إنه لما خلق أول مخلوق رأى ذلـك المخلـوق نفسه مع ربه فقط ، ثم لما خلق المخلوق الثانى صار يرى

---

(١) فإن السعى للوصول إلى الكمال مطلوب فى الشرع والأخلاق الفاضلة لا توهب ، صحيح أن للبيئة والمجتمع تأثير ولكن المطلوب من المسلم الدفاع عن دينه وأخلاقه ضد المجتمع المنحرف والبيئة المنحرفة .

(٢) لعله يقصد : وتكون صورة المنتهى هى صورة المبتدى .

(٣) أى صورة الكامل فى الطريق إلى الله تعالى وصورة المبتدئ فيه .

(٤) فإنهم لم يتخلصوا من شهوات الدنيا بعد .

(٥) فإنه يأخذ بيدهم ويرشدهم فى جميع المجالات .

(٦) أى ذكر الله تعالى .

(٧) فى وعيه .

(٨) فلا يرى إلا الله تعالى .

نفسه ، ورفيقه مع الحق ، ثم لما خلق المخلوق الثالث صار يرى نفسه ، ورفيقيه مع الحق .

وهكـــذا إلى انتهاء الأعداد فى الذهن ، ثم كلما صارت دائرة الخلق تتسع فى شهود العبد كذلك صارت دائرة الحق تضيق فى شهوده،إذ لا حلول ولا اتحاد [١] حتى ربما صار العبد لا يشهده إلا الخلق [٢].

فلمـــا انتهى الأمر إلى شهود هذه الكثرة التى حجبت العبد عن شهود عظمة ربـــه تعالـــى ، أرســـل الله تعالى رسله إلى الناس وأمرهم بالسلوك على مدرجة شرائع الرسل بالأعمال المرضية والأخلاق الذكية ، فصارت أفراد العالم تنقص فى شـــهودهم شـــيئاً فشيئاً ، حتى رجع العبد إلى حالته الأولى التى لم يكن معه هناك أحـــد إلا الله تعالى ، وهناك صحـــت لـــه مراقبته ومعاملته فإن المحجوب عن الله بشهود الخلق لا يهتدى لمعاملته ، ولا مراقبته انتهى [٣] .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : لو أن الأشياخ أمروا المريد بتأدية حقوق العباد فى حال سلوكه إلى حضرة ربه لا يقطع عن السير ، لأن حكم ذلـــك حكـــم من يحمل فى عنقه صخرات عظيمة ويطلب سفراً بعيداً نحو عشرين ســـنة مـــثلا ، فربما قطع على عدد حقوق العباد عمره كله ولم يصل إلى حضرة ربه، فلذلك قالوا لـــه : لا يعول على حق أحد من الخلق إلا إن كان عونا لك على السير وإياك أن تخالط الخلق ، أو تشفع ، أو تنام ، أو تكثر من الكلام ، أو تمسك شـــيئاً من الدنيا إلا لضرورة ، أو تأكل شهوة من الشهوات ، فإن ذلك كله يحجبك عن الله عز وجل [٤] .

---

(١) نفى للحلول والاتحاد .

(٢) من إنصرافهم عن الله تعالى .

(٣) وهذه هى مهمة الطريق الصوفى (صرف العباد عن شهود غير الله تعالى) .

(٤) وهذا كله فى مبتدأ الطريق إلى الله تعالى وقد يكون ذلك عند دخول المريد الخلوة ولكن الأمر لا يستمر فبعد أن تتم تصفية النفس يعود المريد لمباشرة المصالح الدنيوية ولكن فى هذه الحالة يكون قضاء هذه المصالح لله تعالى وليست بغرض شخصى وهذا يكـــون أكمل=

ولكــن إذا انتهــى ســيرك وعرفت الله تعالى المعرفة المعروفة بين القوم ، فهــناك لا يشــغلك شئ عن الله تعالى ، فترجع تخالط الناس ، وتأكل الشهوات ، وتمسك الدنيا بحذافيرها ، وتتكلم باللغو مع الخلق ، وغير ذلك بما كنت منهياً عنه فى حال بدايتك وتصير ترى الملك فى الأمور كلها لله تعالى . انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إياكم أن تنكروا على عارف بالله تعالــى إمساكه الدنيا أو نكاحه المنعمات ، أو بناءه الدور ، أو غرسه البساتين ، أو ركوبه الخيول المسومة ، أو أكله اللذيذ من الطعام أو الشراب ، ونحو ذلك فإن له مشاهد صحيحة فى ذلك [١] بخلاف المبتدى فإن كل شئ من هذه الأمور تحجبه عن الله وتوقفه عن السير إلى حضرته لضيقه وضعفه انتهى [٢] .

وأعلــم ذلــك يا أخى وأعمل عليه وأعرضه على مريدى زمانك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يشهدوا نفوسهم وتلامذتهم حال تربيتهم لهم أنهم كلهم من جملة تلامذة رسول الله ﷺ وهو الشيخ الحقيقى لهم

فإن جميع ما يربون به التلامذة إنما شرعه ﷺ صريحاً واستنباطاً كما مر فى خطبة الكتاب .

وكــأن لســان حــال كــل شيخ يقول لمريديه : يا أولادى إنما أربيكم بشرع نبــيكم ﷺ ، وأنــا مــبلغ لكــم شرعه الصحيح وما استنبط منه فأقول لكم : قال نبــيكم ﷺ : كــذا ، أو قد استنبط العلماء من شرع نبيكم كذا ، وليس لى من ذاتى شرع أتمشيخ عليكم به .

=حيث تكون النية كلها لله تعالى .

(١) وجهة نظر شرعية فى ذلك حيث أن يكون من الكاملين فنيته كلها لله ولا يشهد غيره ولا يقصد هذه الشهوات لذاتها .

(٢) فقد تطغيه هذه الأمور وتبعده عن الله تعالى .

وكـان سـيدى إبـراهيم الدسوقى ﷺ يقول لتلامذته : قد أمركم نبيكم بكذا ، أو نهاكم عن كذا .

فعلـم أن كـل شيخ غاب عن هذا المشهد الذى ذكرناه من شهوده وتلامذته مـن جملـة تلامـذة رسـول الله ﷺ فهو جاهل قليل الأدب ، وإنما الواجب عليه أن يجعـل جمـيع استمداده من رسول الله ﷺ بالأصالة ، ثم يصير يمد تلميذه من مـدد رسول الله ﷺ كما أن رسول الله ﷺ أعطى علم الأولين والآخرين ، ومع ذلك كـان يأتـيه جبـريل بالوحـى فيصغى إليه كأن ما علمه إلا منه إثباتاً للأسباب ، والوسائط (١).

وكـذلك قـال الله تعـالى : ﴿ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ (٢) ﴾ ، أى لا تسابق جبريل بما تعلمه منـا سابقـاً مـن الوجـه الخـاص بينـنا وبيـنك، بـل أصغ إليه كأنك ما علمته إلا منه ، هكذا رأيته فى كلام بعض العارفين (٣) انتهى .

وكـان سـيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ يقـول للمريـدين : استمعوا لأشياخكم ولا تطالبوهـم فى قبولكـم قولـهم بدليـل كمـا لا تطـالبون بذلك من قلدتموه من المجتهدين رضى الله عنهم ، فإن شيخكـم لـه مقام الأخذ عن رسول الله ﷺ بلا واسطة فإن فاته الأخذ من طريق النقل أخذ من طريق الكشف (٤).

وسـمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ما من شيخ تحق لـه قدم الولاية المحمدية إلا ويرى نفسه نائباً لرسول الله ﷺ فى جميع ما يأمر به وينهى

---

(١) فكل طريق فيه تحلل من الشريعة لا يسمى تصوفا بل هو بعد عن الله تعالى وكفر به والإمام الجنيد شيخ هذه الطائفة وإمامها يقول (علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة) .

(٢) سورة طـه آية : ١١٤ .

(٣) التفسير الظاهر المعروف هو لا تعجل به لكى تستطيع حفظه وتلقيه .

(٤) ولذلك يجب التسليم للشيخ تسليما كاملا فإنه كالطبيب أعرف بدخائل الأمراض من صاحبها نفسه .

عنه [١] ، ويرى الفضل فى ذلك لرسول الله ﷺ لا لنفسه .

ومـنهم من يصير يربى مريده وهو يشهد فى نفسه أنه دون ذلك المريد فى الدرجة كما هو معروف بين أهل الذوق منهم .

فاعلم ذلك وأعرضه على مريدى زمانك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم رميهم الدنيا وشهواتها من يدهم ومن قلبهم أول دخولهم فى الطريق

فلا يصير لهم ميل إلى شئ من الدنيا ، وذلك ليحصل لهم صحة بناء الأعمال الأخـروية فإنـه لا يصح لمريد أن يبنى فى الآخرة شيئاً من أعماله إلا بعد كمال الـزهد فـى ضرتها التى هى الدنيا وكل من تلون [٢] على شيخ أو أخذ عنه العهد وهو يميل إلى الدنيا فلابد أن يرجع من حيث جاء وترفضه الطريق [٣].

وكـان سيدى محمد المغربى الشاذلى شيخ الجلال السيوطى رضى الله عنهما يقـول : لا يصح لمريد قدم فى طريق أهل الله عز وجل إلا بعد أن يزهد فى الدنيا ونعيم الآخرة [٤] ، وهناك يبتدى فى سيره فى الطريق .

فـإذا رأيتم شيخاً يطلب الدنيا ويزاحم عليها ويتكدر لمفارقتها فاعلموا أنه لم يشم من طريق أهل الله تعالى رائحة ، بلى هو مدع كذاب ، انتهى .

فأعـرض يـا أخى ما ذكرناه على مريدى عصرك ، تعرف حالهم ، ولا تنس نفسك .

---

(١) أى خليفة له فى هذه الأوامر والنواهى .

(٢) لعله يقصد من تلقى .

(٣) فإذا كان هذا فى أول تصوفه فكيف يستمر بعد ذلك .

(٤) أى لا يطلب شيئاً إلا الله تعالى سبحانه وتعالى .

ومن أخلاقهم أن لا يصدوا [١] لأخذ العهد، ولا لإلباس الخرقة ولا لتلقين الذكر إلا بعد اجتماع شروط هذه المراتب

وكثيـراً ما سمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول : أربع مراتب زاحم الناس عليها فى هذا الزمان من غير قيام بشروطها : وهى أخذ العهد على المريدين، وتلقينهم الذكر ، وإلباسهم الخرقة ، وإرخاؤهم العذبة [٢] .

فقلت له : وما شرط من يأخذ العهد على المريدين ؟ فقال : من شرطه أن يزهد فى الدنيا ، ويتوب عن كل شئ يكرهه الله تعالى ظاهراً وباطناً ، وذلك ليقتدى به المريد ويهتدى بهديه ، فإن الراغب فى الدنيا الواقع فى المعاصى لا يصلح أن يكون داعياً إلى طريق الله عز وجل .

ومن هنا أجمعنا على عصمة الأنبياء لكونهم مشرعين بجميع أفعالهم وأقوالهم فلو أنهم صح فى حقهم شئ من المعاصى الحقيقة لصدق عليهم بشرائع المعاصى لقومهم [٣] ، ولا قائل بذلك .

فقلت له : هذا مقام عزيز فى غالب مشايخ هذا الزمان .

فقال : نعم هو مقام عزيز لأن صاحبه نائب لرسول الله ﷺ وخليفة له ، ومن شرط الخليفة أن يكون على صورة من استخلفه فى التنزه عن الرذايل الظاهرة والباطنة ، وإن لم يلحق به [٤] ، وجميع ما نقل عن بعض الأنبياء من اسم المعصية فهن أمور صورية لا حقيقية [٥] ، فيجرى الله تعالى على يديهم أموراً تشابه بعض ما يقع فيه قومهم ليروا قومهم كيف يتخلصون من المعاصى ، إذا وقعوا فيها ، مع كون الأنبياء منزهين عن سائر الرذايل بإجماع الأمة هذا

---

(١) لعله يقصد أيعطوا العهد ولا إلباس الخرقة .

(٢) فإن الواجب إختبارهم قبل التكالب عليهم .

(٣) لعله يقصد لوقعت عليهم شرائع المعاصى فى قومهم .

(٤) فإنه يحاول الوصول إلى كمال خلق رسول الله ﷺ .

(٥) بقصد التشريع والتيسير على الأمة .

اعتقادنا الذى نلقى الله تعالى به انتهى .

وقلت وسيأتى بسط ذلك قريباً فى الجواب عن أكابر أهل الحضرة الآلهية والله أعلم .

وسمعت سيدى محمد الشناوى [١] رحمه الله يقول : من شرط الداعى إلى الله تعالى أن تتساوى سريرته وعلانيته ، بل ترجح سريرته فى الخير على نيته ، وكذلك من شرطه أن يكون عفيفاً عن الدنيا غير ناظر إلى ما فى يدى من يدعوهم منها ، وهى الحكمة المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [٢].

قال بعض العارفين : الحكمة هى غناء الداعى عن مال المدعو فإنه إذا كان محتاجا إليه هان فى عينه ، ولم يبقى لكلامه فى قلبه موقع .

وأما الموعظة الحسنة فهى أن يمهد الداعى للمدعو بساطاً قبل أن يدعوه [٣] ويعلمه بماله فى ذلك من المصلحة فى الدنيا والآخرة ، حتى يكون ذلك المريد يشكر فضل مربيه على ما يرشده به من الخير ، لما يرى لنفسه فيه من الخط والمصلحة ، واعلم ذلك فإنه نفيس ولنرجع إلى تمام بقية الشروط .

فنقول قال سيدى على الخواص : وأما شرط من يلقن المريد كلمة لا إله إلا الله على وجه التحقيق دون التبرك : فهو أن يقدره الله تعالى أن يفرغ على المريد حال قوله له قل : لا إله إلا الله جميع أحكامها ، فلا يصير يحتاج بعد

---

(١) هو العارف بالله تعالى الشيخ محمد الشناوى : كان من الأولياء الراسخين فى العلم أهل الإنصاف والأدب .

ومن أقواله : ما دخلت على فقير إلا وأنظر لنفسى دونه وما امتحنت قط فقيراً .

وكان ﷺ إذا افتتح مجلس الذكر بعد صلاة العشاء لا يختمه فى غالب أمره إلا الفجر فإذا صلى الفجر جلس فى الذكر حتى الضحى .

توفى سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة ودفن بزاويته .

(٢) سورة النحل آية : ١٢٥ .

(٣) أى يمهد السبيل لدعوة المريد .

التلقــين إلـــى مطالعة كتاب ، بل يصير يعرف جميع أحكام الشريعة المتفرقة فى جميع مذاهب المجتهدين ويدرس الناس فيها ، وأما شرط من يرخى العذبة للمريد فى عمامته بأن يقدره الحق تعالى على أن يعطى ذلك المريد الذى أرخى له العذبة ســر النمو والزيادة فى كل شئ نظر إليـــه أو مســـه ، حتـــى أنه لو مد العمود ، أو الخشـــب امتد معه ، فيكون إرخـــاء العذبـــة لـــه إشـــارة إلى أنه من أصحاب هذا المقام من باب التحدث بالنعمة [١] .

قلــت : وممـــا يشـــهد لمشـــروعية العذبة ومقدارها وللبس الخرقة ما رواه البيهقـــى عـــن ابـــن عمر أن رسول الله ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف من كرابيس مصبوغة ، بسواد ، لما أمره على سرية عقد له اللواء فأخذها ﷺ فحلها ثم عممه بيده ، وأفضل موضع أربع أصابع أو نحو ذلك ، وقال : هكذا فاعتم فإنه أحسن وأجمل " . وروى أبو داود عن عبد الرحمن بن عوف قال : عممنى رسول الله ﷺ فسدلها بين يدى ومن خلفى [٢] . انتهى .

وأما شرط من يلبس المريد الخرقة من ثوب أو عمامة أو طاقية ، أو قلنسوة أو رداء فـــأن يقدره الله على نزع جميع الأخلاق الردية من ذلك المريد حال أمره له بنزع شئ مما عليه من الثياب [٣] ، ثم يفرغ عليه حال إلباســـه له تلك الخرقة جميع الأخلاق المحمدية التى هى من مقامه ، فلا يصير يحتاج بعد ذلك إلى علاج فى تحصيل خلق من الأخلاق انتهى .

قـــال السهرودى : وألباس الخرقة الزرقاء للمريد أولى عند الجمهور ،ولكن إن اختار الشيخ أن يلبس المريد غير الأزرق فلا اعتراض عليه ، لأن الأشياخ [٤]

---

(١) يقصد بذلك أن يكون الشيخ من الكمال والقوة بحيث يوصل مريده إلى هذه الأمور .

(٢) مذكور فى كتب السيرة والمغازى .

(٣) ويقصد الامام الشعرانى من ذكر ذلك أنه مأخوذ عن سيدى رسول الله ﷺ .
فلا يقصد المعنى الظاهر وهو مجرد التغيير فقط .

(٤) يقصد بذلك أن الأشياخ يحكمون العصر فى الأمور التى لم يرد فيها نص ولا كتاب من لدن الله تعالى أو رسولهﷺ .

بحكم الوقت فى كل ما لم يرد فى الشرع تصريح به ، وللشيخ أن يلبس المريد خرقاً على دفعات ، انتهى .

فعلم أم كل من لم يقدره الله تعالى على ما ذكرناه فى هذا المراتب : فليس له المزاحمة على مراتب العارفين (١) ، اللهم إلا أن يقصد بذلك التبرك أو التشبه بالقوم بشرط أن يعلم الناس بأنه متشبه بأهل الطريق لا متحقق بمقامهم فلا بأس بذلك .

وقد كان شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله إذا لقن أحداً يقول له : اسمع يا ولدى قولى ثلاث تشبهاً وتبركا برسول الله ﷺ وبالسلف الصالحين رضى الله عنهم ، ثم يلقنه بعد ذلك (٢) انتهى .

قلت : قد اختلف المحدثون فى إثبات لبس الخرقة من طريق الحسن البصرى عن على بن أبى طالب ، حتى أن الشيخ محى الدين بن العربى لبسها من يد الخضر عليه السلام ، ومن يد رسول ﷺ ، ليتصل سنده بها ، ولكن قد صحح الحافظ ضياء الدين المقدسى والجلال السيوطى اتصال سندها من على ، وأن رسول الله ﷺ ألبس أم خالد خميصة فيها خطوط صفر وسود وقال لها : (إبلى وأخلقى) ، وثبت فى الحديث : أنه ﷺ ألبس عبد الرحمن بن عوف عمامة ، وكذلك على رضى الله عنهما كما مر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم لتقبيل أحد يدهم فضلا عن رجلهم

فإن فى محبتهم لمثل ذلك ازدراء بإخوانهم ورضى بإظهار السيادة عليهم ، وما هكذا درج السلف الصالح رضى الله عنهم كما سيأتى بسطه فى مواضع من هذا الكتاب .

---

(١) استبعاد لكل من لا يقدر على هذه الشروط من جملة المشايخ المرشدين .

(٢) وذلك فى مبتدأ طريقه .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ يقول : لا ينبغى لفقير أن يمكن أحداً من تقبـيل يـده أو التمسـح بثيابه ، إلا إن صار فى مقام الحجر الأسود ، فقيل لـه ومـا مقام الحجر الأسود ؟ فقال : من مقام حفظ عهود جميع من استلمه ، ويحمل خطايا بنى آدم عنهم ، وفداؤهم بنفسه ، ولو أسود بذلك وجهه بين الناس .

ومـن مقامـه : أن يتطهر من تلويث قلبه بشئ من الأوهام ، حتى لا يصير يلتـبس علـيه أمـر فى الدنيا والآخرة ، وأن يتحقق بترك الشهوات كلها ، حتى لا يصير يقع فى شهوة تحجبه عن شهود الحق تعالى فى ساعة من ليل أو نهار .

ومـن مقامـه أن يكون مجالسته للناس مذكرة لهم بربهم وبنعمته عليهم ، حتى يبيض بذلك وجوههم وقلوبهم (١) ، ومن مقامه أن لا يخطر فى بالـه أن له مزية على من يقبل يده مثلا من جميع العصاة ، إلا من حيث الشكر لله الذى حماه مما وقعوا فيه ، ومتى غفل عن هذا المشهد فلا ينبغى له أن يمكن أحداً من تقبيل يده انتهى .

فلينظـر الـذى يمكـن الـناس من تقبيل يده فى نفسه ، فإن رأى فيها هذه الشروط فله أن يمكن الناس من تقبيل يده ، وإن كان الأولى له المنع من ذلك .

وسـمعت محمـد بـن عـنان وسيدى عليا الخواص رحمهما الله يقولان : لا ينبغى لفقير أن يمكن أحداً من تقبيل يده إلا بعد مجاوزته الصراط سالماً ، وكان أشد الناس كراهية لذلك .

وبالجملة فعلى العبد هضم نفسه ، وعلى المريدين التعظيم له من حيث كونه واسـطة لهم فيما بينهم وبين حضرة الله تعالى عز وجل ، التى يريدون أن يكونوا من أهلها ، والحمد لله رب العالمين .

فاعرض يا أخى ذلك على مريدى عصرك تعرف مقامهم ولا تنس نفسك والله يتولى هداك .

---

(١) حتى تكون حياته كلها لله تعالى ويتبع فى ذلك سنة نبيه ﷺ .

ومن أخلاقهم كثرة تفتيشهم كل ساعة من ليل أو نهار ليعلموا هل الحق تعالى راض عنهم أو ساخط عليهم

فيفرحوا ويستبشروا أو يندموا ويستغفروا ، ويعرفون ذلك بوزن الأعمال البارزة على يديهم بالكتاب والسنة ولا يخلوا عن ثلاثة أحوال إما موافقة أو مخالفة أو لا تظهر فيها مخالفة ولا موافقة .

فأولى أحوال هذه الوقف فإن كان أحدهم ممن يتوب من شهوات النفس المباحة رجع ذلك إلى قسم الذم ، فيستغفر صاحبه كما يستغفر من المكروه أو خلاف الأولى ، ثم لا يخفى أن أحدنا إذا رأى أفعاله مخالفة لظاهر الكتاب والسنة وندم واستغفر فليس هو على يقين من قبول توبته ورضى الله عنه أو مسامحته بذلك الذنب ، وحيث لا يقين فمن الأدب دوام الخوف والخجل من الله عز وجل . لأن الذنب قد يتحقق بمخالفة الشريعة ، وأما القبول للتوبة فليس مع أحدنا بذلك علم ، وقد بلغنا أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : يا داود قل لفلان العابد مالى لا أراك نائحاً على ذنبك أتظن أنك بتقادم عهدك به أنى قد غفرته لك ومن أخبرك عنى أننى قد غفرته ؟ انتهى ، وسيأتى قريبا أن ذنوب الأنبياء كلهم صورية لا حقيقة فافهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا أذنب أحدكم فليكثر من التوبة والاستغفار على الفور خوفاً من الإصرار فيطبع الله على قلوبكم فلا يصير تصح لها توبة من عدم الندم [1] ، قال : ولعل أحدنا يكون ربه ساخطا عليه على

---

(١) روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة) .

وروى الإمام مسلم الأغر بن يسار المزنى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة) .

وعن أبى حمزة أنس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (لله أفرح بتوبة عبده ممن أحدكم سقط على بعيره ، وقد أضله فى أرض فلاة) متفق عليه .

الـــدوام ، وذلـــك لتعاقب الأعمال القبيحة عليه فلا يتوب من ذنب إلا ويعقبه ذنب آخــر، وربما أسخط العبد ربه بالذنب الواحد اليوم ، واليومين ، وأكثر وهو مصر علـــيه من غير توبة ، فمثل هذا لا يزال الحق ساخطا عليه حتى يقع فى ذنب آخر يسخط به ربه ، فمثل هذا سخط الحق تعالى عليه دائم ، وربما كان نظر فى نفسه أنه من الصالحين فليتنبه الفقير لمثل ذلك (١)، فوالله لقد خلقنا لأمر عظيم ، نقص وخذلان وشيب وعيب ودعاوى عريضة بعد ذلك .

وقـــد كان السرى السقطى ﷺ على أعمال (٢) يعجز غيره عنها ، حتى قال : أبـــو القاســـم الجنـــيد كـــان السرى السقطى يقول لنا : يا أولادى عليكم بالأعمال الصالحة ، قبل أن تصيروا عاجزين مثلى (٣) ، قال الجنيد : وكنا مع ذلك لا نلحقه فـــى العمـــل وهـــو فى آخر عمره ، وقد أتت عليه ثمان وتسعون سنة فما رؤى مضـــطجعا إلا فى علة الموت ، قال الجنيد : وقد سمعته مراراً يقول لى :يا محمد لى منذ ثلاثين سنة وأنا أظن أن الله تعالى ينظر إلى نظر الغضب (٤) انتهى.

---

(١) يقول الإمام النووى : قال العلماء التوبة واجبة من كل ذنب ــ فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمى ، فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

الثانى : أن يندم على فعلها .

الثالث : أن يعزم أن لا يعود إليها أبدا .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى ، فشروطها أربعة ، هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفو وإن كان غيبة استحله منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقى عليه الباقى .

وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

(٢) لعله يقصد أنه يقوم بأعمال يعجز غيره عنها .

(٣) تواضعاً منه وتشجيعاً لهم .

(٤) من شدة ورعه وتقواه كان يعتقد أن كل أعماله لا تبلغ حق الله تعالى وأنه أقل المسلمين شأناً.

قلـت : وهذا القول من السرى ﷺ من باب الاتهام لنفسه وإلا فاعتقادنا فيه، بحسـب مـا تواتر عنه أنه كان مطهرا من الذنوب ، بل بلغنا عنه أنه كان يؤاخذ نفسه بخلاف الأولى فضلا عن المكروه لو لم يكن لـه مـن الفضل إلا كون الإمام الجنيد الذى أجمع القوم كلهم على فضله وجلالته من جملة تلامذته .

وسـمعت أخـى أفضل الدين رحمه الله يقول : إذا كان الشيطان يركب أحدنا كلمـا غفل عن ذكر الله تعالى مع طهارة سرائرنا فكيف لا يركب أحدنا إذا فعل ما يسخط الله عز وجل عليه ؟ فإنه دايماً واقف تجاه قلب العبد ، وكلما غفل عن الله استحوذ عليه ، وكلما ذكر الله تعالى ترك عنه ، قال فلو كشف لأحدنا لرأى إبليس يركبه وينزل عنه طول الليل والنهار كلما غفل وكلما ذكر الله تعالى .

وسـمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ما دام العبد مستحضرا أنه بـين يدى الله عز وجل فلا سبيل لإبليس عليه ، فإذا حجب عن هذا المشهد عبث بـه فاعلم يا أخى ذلك وأعمل عليه واعرضه على مريدى زمانك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم توطين نفوسهم على كثرة التعب فى المريد الذى تقدمت له صحبة بأحد من الفقراء الذين لا قدم لهم فى الطريق

كغالـب الأحمدية والبرهانية والمطاوعة فإن الحكم غالباً للداع الأول والداع الثانى طارئ [1] .

وقد صحبت بعض من صحب المطاوعة فذاب قلبى من التعب فيه فاقرر لـه معالم طريق الصوفية وقواعد طريقهم حتى أقول أنه ما عاد يخرج عنها ثم يرجع إلى قواعد المطاوعة فى أسرع ما يكون ، واعلم ذلك واعرضـه علـى مريـدى عصرك تعرف حالهم ولا تنس نفسك .

---

(١) أى أن المريد يتغلب عليه الإتباع لشيخه الأول مما يجعل من الصعب هدايته .

ومن أخلاقهم كثرة شفقتهم ورحمتهم على جميع عصاة هذه الأمة المحمدية من شربة الخمر والمكاسين وسائر من عليه تبعة للخلق

فإنه كالأسير لأصحاب الحقوق ومحبوس عن الجنة حتى يوفى ذوى الحقوق حقوقهم .

ولعـل غالـب النـاس لا يعد تبعات الخلائق بلاء ويعتقد أن البلاء إنما هو الأوجاع والآلام من زمانه وجذام وبرص ونحو ذلك وكان سفيان الثورى ﷺ يقول: إذا رأيـتم أحداً من أعوان الظلمة فاسجدوا لله شكرا فإنهم من أهل البلاء وبلاؤهم أعظم من البلاء فى الجسد انتهى .

وكـان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : البلاء فى الدين أشد من البلاء فـى الجسد فارحموا العصاه وأدعو لهم فإن غالب الناس لا يكاد يرحم أحداً منهم كما يرحم من ابتلى ببلاء فى جسده أو تحولت عنه نعمة ، وقد أطلق رسول الله ﷺ البلاء فى قوله :(ارحموا أهل البلاء) . فلم يخص بلاء دون بلاء انتهى .

ثـم أعلم يا أخى أنه لا فرق فى رحمتنا للعصاه بين أن يكون أحدهم متلبساً بالمعصية أوفى عقوبتها ولا يجوز لنا الشماتة به أو التشفى منه إلا على وجه أن ذلـك تطهيـر لـه من ذنبه فتفرح له بتلك العقوبة من حيث كونها مطهرة له من دنس المعصية لا لعلة أخرى [(١)] .

وقد روى الطبرانى مرفوعاً (من لا يرحم لا يرحم ومن لا يغفر لا يغفر لـه ومن لا يتب لا يتب الله عليه) ، وفى الحديث أيضاً : (ومن أتاه أخـوه متنصـلا

---

(١) روى الإمام مسلم عن أبى نجيد عمران بن الحصين الخزاعى رضى الله عنهما أن امرأة من جهينة ، أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت : يا رسول أصبت حداً فأقمه على فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال : أحسن إليها فإذا وضعت تأتنى ، ففعل فأمر بها نبى الله فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ! قال : تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟

من ذنب فليقبل ذلك محقا كان أو مبطلا فإن لم يفعل لم يرد الحوض) [١] .

وروى البيهقـــى : (أن بـــدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بالأعمال وإنما دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين) انتهى .

والظلمـــة والعصـــاة كلهـــم من المسلمين وما خرج إلا الكفار فإياك يا أخى وقـــولك لمن هو فى عقوبة ذنب فلان يستحق ذلك وأكثر فإنه تحصيل الحاصل مع أنـــه فـــيه رائحة الشماتة بالمسلمين ولولا عفو الله وحلمه لأهلك كل عاص على وجـــه الأرض عقب معصيته فضلا عن كونـــه يحبســـه أو يضـــربه مثلا ، وإياك والقســـاوة علـــى أحـــد من عصاة المسلمين ، فإن ذلك النافى أخلاق الصالحين . وعـــاملهم ظاهراً معاملة القاسى زجرا لهـــم وأنت راحـــم لهـــم فى الباطن عملا بالشريعة والحقيقة .

فقـــد قالـــوا : من نظر إلى الخلق بعين الشريعة مقتهم ومن نظر إليهم بعين الحقـــيقة رحمهم [٢] وقد كان أبو سليمان الدارانى [٣] يقول : اللهم إنك قد أدخلت فـــى قلبى الرحمة على العصاة فإن شئت أن تفدينى عنهم فافعل ، وانتهى ، وهذا مـــن أبـــى سليمان من باب إظهار النعمة وقياماً بما كلف به العبد من حمل هموم المسلمين ، وإلا فهو يعلم أن الله تعالى أرحم بالعصاة منه ، وقد رتب الله الأسباب علـــى مسبباتها وأمر العبد بالشفاعة عنده فى أخيه ، وجعل له الثواب فى مدافعته

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) فإنه بعين الحقيقة ينظر إليهم على أن الله غافر الذنب وقابل التوب ، وأنه يغفر الذنوب جميعاً ولو كانت مثل زبد البحر ؛ ولو لم يوجد مذنبون وعصاة يستغفرون ، لخلق الله من يذنب ويستغفر ، فإن الله يحب التوابين .

(٣) هو أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الدارانى توفى سنة خمس عشرة ومائتين .

ومن أقواله :

(من أحسن فى نهاره كوفئ فى ليلة ، ومن أحسن فى ليلة كوفئ فى نهاره ، ومن صدق فى ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالى أكرم من أن يعذب قلبا بشهوة تركت له).

وأيضاً : (ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة) . =

الأقدار الجارية عليه بالمعاصى ، وإن كانت متحتمه الوقوع فافهم ، وأعرض ذلك على مريدى عصرك تعرف حالك ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم مساعدة أحد من إخوانهم على توليه شئ من الوظائف التى لا خلاص لهم فيها بميزان الشرع الشريف الآن كالحسبة والقضاء

وهــذا الأمر ربما يخل به كثير من فقراء الزمان فيسعى لمن يتولى القضاء أو الحسبة مثلا عند الباشاه أو الدفتر [١] أو قاضى العسكر ، ولا ينظر لكونه يضر ذلك المتولى والساعى أم لا .

فينبغى لمن يريد مساعدة أحد فى توليه المناصب التى لا خــلاص فيهــا أن لا يبادر إلى مساعدته إذا سأله فى ذلك ، بل يتربص ويتروى ويشاور الإخوان فى ذلــك ، ثــم إن وثقوا كلهم بدينه وخيره وقلة بلصه [٢] وعدم أخذه الرشا [٣]، ولم يــروا فى البلد من هو أصلح لذلك منه فهناك يساعدونه على التولية من باب ظلم دون ظلم [٤].

فعلم أنه لا يجوز لأحد مساعدة القاضى مثلا إذا لم يثق بدينه [٥].

ولكن إن أراد مساعدته فليسأل الله تعالى فى إصلاح حاله فإن صلــح حالــه ساعده وإلا وكل أمر ذلك إلى ولى الأمر ، ولا ينبغى لنا مساعدته ولو ساق علينا السـاقات ، فإنــه كالطفــل الذى لا يدرى ما يضره ولا ينفعه ، ولا يقع فى توليه

=وقال : (أفضل الأعمال : خلاف هوى النفس) .

(١) ربما يقصد الدفتردار .

(٢) ربما يقصد قلة تهاونه أو شئ من أنواع التهاون فى الشرع .

(٣) يقصد الرشوة .

(٤) وكان سيدنا عمر لا يعطى الولاية لمن يطلبها ، ورفض سيدنا أبو حنيفة النعمان تولى القضاء ، وكذلك عدد كبير من الصالحين خوفا من عدم الحكم بما أنزل الله .

(٥) فإنه إذا لم يكن القاضى صالحا فسدت كثير من أمور المسلمين وانقطع العدل من حياتهم .

القضـا فـى هـذا الزمان إلا من لم يحتط لنفسه ، فإنه ولو كان ديناً يدخل عليه التلبـيس من الأخصام وغيرهم ، فيحتاج إلى حذق زائد ، لأنه فى النصف الثانى من القرن العاشر صاحب العجائب والغرائب .

وقد امتنع من توليه القضاء خلائق من السلف رضى الله عنهم ، كالإمام أبى حنيفة ، وصله بن أشيم [(١)] وسفيان الثورى ، والإمام الشافعى وغيرهم .

وأما الإمام الشافعى فدعاه المأمون إلى القضاء بالمشرق والمغرب فأبى .

وأمـا الإمـام أبـو حنـيفة فضرب وحبس ولم يتول ، وكان الذى دعاه إلى القضاء الخليفة المنصور .

وأما سفيان فهرب إلى بلاد اليمن متنكراً .

وأمـا صله بن أشيم فتحامق على الخليفة فتركه ، وكان من شهامته أنه لما دخـل علـى المنصور لم يسلم عليه ، بل قـال لـه : أيش طبخت اليـوم ؟ وكم عندك حمار [(٢)] ؟ فقال : أخرجوه عنى .

وقد كان سبق من الإمام أبى حنيفة ﷺ أنه قال : حين طلب للقضاء بعد موت القاضى شريح هو وسفيان وصله بن الأشيم وشريـك : إنى أخمـن لكم تخميناً : أمـا سفيان فيهرب ، وأما أنا فأجلس ولا ألى . وأما شريك فيقع ، وأما صله ابن أشـيم فـتحامق ، ويتخلص ، وكان الأمر كما قاله الإمام ﷺ قالوا : ولم يكن بعد القاضى شريح فى العلماء أعلم ولا أورع ولا أزهد من هؤلاء الأربعة رضـى الله عنهم .

ولما تولى أحمد بن شريح القضاء عاب عليه ذلك الشافعية وهجره تلميـذه

---

(١) هو صلة بن أشيم العدوى ﷺ : كان يقول : إذا مر بقوم يلعبون أخبرونى عن قوم أرادوا سفراً فقطعوا النهار فى اللعب شغلا عن الطريق وناموا ليلا متى يصلون مقصدهم .
ومات أخ له فى بلاد بعيدة فسبق شخص فأخبره ، فقال رضى الله عنه : (قد أخبرنى الله تعالى بذلك) ، قال تعالى : (إنك ميت وإنهم ميتون) .
وكان ﷺ يصلى حتى يزحف إلى فراشه ، ﷺ .

(٢) يقصد بذلك إدعاء الجنون حتى لا يولى القضاء .

أبو على حتى مات ، وقال : لم يكن هذا الأمر فى أصحاب الإمام الشافعى إنما كان فـى أصـحاب غيـره ، ولمـا مات ابن شريح طلبوا أبو على للقضاء فدخل بيته واختفى منهم فطينوا عليه الباب عشرين يوماً ثم فتحوا الباب فإذا هو قائم يصلى فأنشدوا فى ذلك :

وطينوا الباب على أبى على   عشرين يوماً ليلى فما ولى

وكـذلك بلغـنا عن الشيخ أبى الحسن الششترى المغربى صاحب الموشحات الـربانية ﷺ أن سـلطان المغـرب طلبه للقضاء ، لما أشتهر للناس من زهده ، وعفـته ، وسـعة علمه واعدهم ، إلى بكرة النهار ، ثم دخل الفجر إلى الحمام ، وأرمـى شعر لحيته وحواجبه بالنورة ، وخضب يديه ورجليه بالحناء ولبس ثوباً معصـفراً وجعل على رأسه طرطوراً ، فلما أتوه بالبغلة والغاشية ، خرج لهم على هـذا الحـال ، وركب البغلة وذهب إلى السلطان ، فقال : لا حاجة لنا بمثل هذا ، وعـرف السلطان أن ذلك إنما عمله جبلة حتى لا يتولى فبكى السلطان ورق لحاله وأطلقـه ، فمـن ذلـك الـيوم ، خرج الشيخ سائحاً فى الأرض يعمل الموشحات والزجل ، إلى أن مات كما أشار إلى ذلك فى أول ديوانه ، ولما بلغ علماء عصره ما فعله من الحيلة حمدوه على ذلك وعرفوا دينه .

وبلغنا عن الإمام أبى حنيفة أن المنصور (١) أخرجه من الحبس وقال له : لم لا تتولى وتنفع الإسلام ؟ فقال : لا أصلح لذلك ، فقـال لـه الخليفة : بلى تصلح، فقـال : لا يخلو إما أن أكون صادقاً فلا يصلح من قضاء وإمـا أن أكـون كاذبـا فالكاذب كذلك لا يصلح أن يكون قاضياً . انتهى . فأعجز الخليفة .

ولما طلبوا أبا قلابة للقضاء هرب إلى الشام وقال : ليس القضاة اليوم قضاة وإنما هم شرطيون ، ومن علامة ذلك : أن أحدهم يستغنى ويكثر ماله إذا تولـى، انتهى .

قلت : ويؤيد ذلك قول إمامنا الشافعى ﷺ : من ولى القضاء ولم يفتقر فهـو

---

(١) أحد خلفاء الدولة العباسية العظام ، بل يعتبر هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة .

لـص [١] .

ولمـا غضـب أحمـد بن طولون [٢] على القاضى بكار [٣] على القضاء كان يقضـى بـين الجن والإنس احتسابا وهو متخلل بالرداء وعلى رأسه قطعة لبد ، وكـان ابن طولون يعطيه كل سنة ألف دينار فيضعها عند أمه فى صندوق ، فلما وقـع بيـنه وبينه وحبسه قال لـه : يا بكار أين جوائزى ؟ فأرسل لأمه فحملوها لـه وكانـت أثنـى عشر ألفاً عدد السنين التى تولاها : فلم يزل القاضى بكار فى الحبس حتى مات فيه ، ولما حبس انقطع التحديث من مصر ، فمضى العلماء إلى ابـن طولـون وقالوا له : أطلقه لنا يوم فى الجمعة يملينا الحديث ثم يرجع إلى الحـبس فأبى، فسألوه ثانياً فأمر لهم بفتح طاقة من الحبس بقدر ما يرون وجهه فقـط . وكـان يلبس ويتطيب كل يوم جمعة ويقول للسجان : دعنى أجيب داعى ربى ثم أرجع ، فيقـول لـه : ما معى بذلك إذن فيرجع إلى داخل الحبس ويقول: اللهـم أشـهد . وبلغ من ورع القاضى بكار أن رسول الخليفة لما أتاه من بغداد يطلـبه للقضاء وجده يخبز فى الفرن فانتظره حتى خرج . فقـال لـه الرسول : قـف حتى أكلمك ، فقال : إن الرداء الذى على لوالدتى وقد استأذنتها أن أخبز فيه فقط . فقف حتى أدخل وأستأذنها فدخل ، فأذنت له ، وأخر مرة القضاء بين اثنين فـى جمل تنازعا فيه فمات الجمل بعد ساعة ، فوزن لهما ثمنه ، وقال : لو كنت حكمت لأحدهما به لمات على ذمته انتهى .

فإذا كان أهل الماية الثانية والثالثة من زمنه ﷺ قد امتنعوا من توليه القضاء مع إكراههم عليه وشدة ورعهم وزهدهم ولم يتقوا بخلاص نفوسهم فيه ، فكيـف بأهل النصف الثانى من القرن العاشر كما مر تقريره ؟

---

(١) أى أن المطلوب فى القاضى الورع الشديد فلا يأخذ الرشاوى ولا يتسامح مع الكبراء ويعطى كل ذى حق حقه.

(٢) من ملوك مصر نيابة عن الخلافة العباسية .

(٣) كان من كبار المحدثين والقضاة الأفاضل فى مصر فى زمن أحمد بن طولون ، تولى القضاة وكان مشهوداً له فيه بالعفه والشرف .

وقـد كـان قضـاة السلف يجوعون ، ويلبسون الثياب الخلقة ، ويرقعونها بالخيش لتعطلهم عن الكسب بالاشتغال بالقضاء بين الناس وعدم أخذهم مالا على القضاء [١] .

وكـان أحـدهم لا يجد غداء ولا عشـاء فى أكثر أيامـه ، وكانوا يصومون لـيكونوا فـى عبادة فيها رضى الله عنهم خوفاً أن يسوء خلقهم بالجوع فيلتبس عليهم الحكم رضى الله عنهم .

فعلـم مـن جمـيع ما قررناه أنه لا ينبغى لفقير أن يتوجه إلى الله تعالى فى تولـيه أحد من أصحابه ، إلا بطريق شرعى بعد تربص واستشارة ، فربما توجه الفقيـر إلـى الله فـى توليه من لا يصلح ؛ فأخذ الرشاء فى الأحكام ، وكان ذلك الفقير شريكا له فى الآثم لأنه كمن أعان ظالماً على ظلمه [٢] ، لا سيما إن كان قد أقسم على الله تعالى بأنبيائه ورسله حال توجهه إليه أنه يوليه .

وقـد كـان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إياكم أن تقسموا على الله تعالـى فـى توليته أحداً من أصحابكم شيئاً من هذه الوظائف المشحونة بالظلم ، فـتهلكوا نفوسكم وتهلكوا صاحبكم ، ولكن إن كان ولابد لكم من سؤال الله تعالى فقولوا : اللهم إن كان سبق فى علمك أن يتولى وهو أهل لذلك فوله ، وإن لم يكن أهلا لذلك فدبره فيما سبق به علمك ،وارزقه القناعة والعفة حال ولايته، وتسلموا من مشاركته فى الإثم . ثم من أقل ما يحصل لمن يتولى القضاء فى هذا الزمان :

---

(١) فكانوا يتفرغون للقضاء تفرغا تاما فلا يشغل فكرهم أى شئ غير القضايا التى تقدم إليهم فيمنعوا التفكير فيها أشد الإمعان .

(٢) روى البخارى عن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (أنصر أخاك ظالما أو مظلوما) فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوما ، أرأيت إن كان ظالما ، كيف أنصره ؟ قال : (تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره) .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (المسلم أخو المسلم ، لا يخونه ولا يكذبه، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام ، عرضه ، وماله ، ودمه ، التقوى هـا هنـا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم) .

أنه يصير كالعبد لمن سعى لـــه فى تلك الولاية ، ويزدرى ثيابه ومركبه وزوجته، ويطلب أعلى من ذلك لأجل مجالسة الأكابر ، ولا يصح لـــه ذلك إلا إن أخذ معلوماً على القضاء ، وربما وقع فى الحكم لبعض الأمراء بالباطل مراعاة لخاطره لاسيما أن كان ذلك الأمير ممن يحسن إليه عادة .

وقـــد رأيـــت قاضـــياً يـــبالغ فى مدح بعض الظلمة ويطعن فى بعض العلماء والصـــالحين ، فقلت لـــه : أعكس الحال يا أخى فصار يقيم البراهين على تفضيل ذلك الظالم ، نسأل الله العافية .

فاعـــرض يا أخى هذه الآفات على من تساعده فلعله يرجع عن طلب القضاء وقـــد زكيت مـــرة قاضيـــاً عند قاضى عسكر فظهرت قلة أمانته فلا تسأل يا أخى مـــا حصل لى من الندم ، وقد عزمت على أنى ما عدت أشفـــع لأحـــد فى توليـــه القضاء إلى أن أموت إلا أن خالطته مخالطة شديدة .

فاعـــرض يـــا أخى ما قررناه لك على مريدى زمانك تعرف مقامهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم المواظبة على قيام الليل ولا يتركون ذلك إلا لعذر شرعى دون الكسل

ويفتتحون قيام الليل بركعتين خفيفتين يقرءون فى الركعة الأولى بعد الفاتحة قـــوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُـــولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾ [١] ، وفى الركعة الثانية بعد الفاتحة ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً [٢] وَمَنْ يَكْسِـــبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِينـــاً ﴾ ويسمـــى هاتـــان

---

(١) سورة النساء آية ٦٤ .

(٢) سورة النساء آية ١١٠.

وتمامها : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما ، ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) .

الآيتان آيتى الاعتراف بالذنوب [١] .

وكـان سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ يصلى بعدهما ركعتين أخريين يقرأ فى كل منهما بعد الفاتحة [٢] سورة القدر مرة ، ثم سورة قل هو الله أحد [٣] ست مرات ، ثـم المعوذتين [٤] مرة واحدة ويقول : قد ورد فى ذلك حديث حسـن ، وأن مـن واظب عليهما حفظ الله تعالى عليه إيمانه حتى يلقاه [٥] وقد علمتهما لجماعة وهم الآن مواظبون عليها لكن بعد طلوع الشمس وارتفاعها كرمح .

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى ﷺ يقول : لأن يلقى أحدكم ربه بالإيمان الكامل عن النقص خير له من أن يلقاه بعبادة الثقلين وفى إيمانه ثلمة انتهى ..

ولعـل مراد الشيخ بالإيمان الكامل أى بالنسبة لمقام كل عبد ، وإلا فلا يكمل إيمان عبد حقيقة إلا إن كان لا يخل بشئ من الأمورات الشرعية ، ومتى خـل [٦]

---

(١) لأن فيهما الاستغفار والتوبة إلى الله ورسوله وفى كلتا الآيتين يجد الله توابا رحيما وغفور رحيماً .

(٢) عن أبى سعيد رافع بن المعلى ﷺ : قال لى رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد) ، فأخذ بيدى ، فلما أردنا أن نخرج قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن ، قال : (الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته) رواه البخارى .

(٣) عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال فى قراءة قل هو الله أحد : (والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن) رواه البخارى

(٤) عن عقبة بن عامر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (الم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ، قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس) .

(٥) لأنه سورة الفاتحة هى أم القرآن وتلخيص له وهى تقصر الإستعانة على الله وحده فى جميع الأمور .

وسورة القدر فيها تعظيم لكتاب الله وهو القرآن الكريم .

وسورة الإخلاص فيها تلخيص الإيمان فكثرة ترديدها فيه تثبيت لهذا الإيمان وتقوية له .

أما المعوذتين فإنها الإستعانة بالله لإبعاد أى سوء .

فكل هذه الآيات تقوى الإيمان وتحفظه .

(٦) لعله يقصد أخل .

بمأمور واحد صدق عليه نقص الإيمان فافهم .

وأما حكمة الركعتين الخفيفتين التى يقرأ فيهما آيتى الأعتراف فهو فتح باب الصفح أو العفو أو الرضى فيعرفوا بذلك أهل الحق أنه صفح عنهم أو عفى أو رضى عنهم قبل أن يتمثلوا بين يديه فى الصلاة حال التجلى الآلهى فيهما كالإدمان للوقوف الخاص بين يديه السالم من التفات القلب فيه لغير الله تعالى أو كالسنة التى قبل الفريضة .

وقد نقل الشيخ أحمد الزاهد أن رسول الله ﷺ كان يفتتح بهاتين الركعتين صلاة الليل ثم يطيل بعد ذلك ما شاء الله تعالى ، ولم يكن عليه ﷺ ذنب ولم يكن الحق تعالى غير راض عنه قبل فعلهما وإنما فعلهما تشريعاً لأمته .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ إذا فعلهما يصير يردد كل آية حتى يظن أن الله تعالى قبل استغفاره واستغفار نبيه فى حقه .

وكان إذا قرأ (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول) يمثل أنه بين يدى رسول الله ﷺ ويصير يقول :

اللهم إنى ظلمت نفسى فأغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، فإذا تم الورد قال : يا سيدى يا رسول الله ﷺ استغفر لى ربك فلا يزال يكررها حتى يفرغ الورد من العدد ثم يقول : اللهم إنى أسألك بك أن تقبل استغفار نبيك ﷺ فى حقى قاصداً بذلك مساعدة نبيه ﷺ من باب أعنى على نفسك بكثرة السجود ، وربما كان ﷺ يستحى من الله تعالى أن يسأله فى ذلك الوقت لكونه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها .

واعلم يا أخى أن كثرة تكرار سؤال المغفرة ليس هو من باب سوء الظن بالله تعالى ، ومن ظن ذلك فعليه الاستغفار من ذلك ، وإنما هو من باب عدم استحقاقنا لإجابة دعائنا .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول عن هاتين الركعتين : أنهما كالوقوف بعرفة بالنسبة للوقوف فى المسجد الحرام . انتهى ..

ثم إذا أحس العبد بأن الله تعالى قبل منه استغفاره واستغفار نبيه ﷺ بنور

الكشف أو بنور الإيمان من خلف حجاب ركع إذا ذاك لأن الركوع كالباب الأول من بـاب الملك بالنسبة للسجود ، ثم إنه يقوم من السجود وقد غلب على ظنه أن الله تعالى قد غفـر له غالب ذنوبه ، فيقوم للركعة الثانية ليغفر له بقية ذنوبه ، وإن كـان غلـب علـى ظنه مغفرتها كلها بالركعة الأولى قام الركعة الثانية شكراً لله ويكـون استغفاره فى الركعة الثانية إظهاراً للفقر والفاقة ، وقياماً بشعار العبودية كمـا هـو الحكم فى استغفار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ثم إذا قرأ قوله تعالى ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه إلى آخرها يصير يرددها حتى يغلب على ظنه من باب الإلهام أن الله تعالى قد قبل توبته ، وكيفية ذلك أن يقول :

اللهم إنى عملت سواءاً وظلمت نفسى وأنت العليم الحكيـم ، فأغفـر لـى ، فـلا يـزال يكررها حتى يفرغ الوارد ويغلب على ظنه أن الله تعالى قبل استغفاره عن بقيه ذنوبه التى لم تغفر فى الركعة الأولى ، ثم يقول :

اللهـم إنى قد اكتسبت الخطيئة والإثم ، وربما رميت به أحداً من البراء من عبادك زوراً وبهتاناً فأغفر ذلك لى من فضلك وإحسانك يا أرحم الراحمين .

وكان سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول :

إذا ظـن أحـدكم أن رسول الله ﷺ ممن غلب عليه الحياء من الله تعالى فى الـوقت أن يسأل الله لأحد المغفرة ، فمن الأدب الصبر حتى يخف عنـه ﷺ وارد الحـياء الشـديد من ربه عز وجل لألا يكون نبيه بسؤاله لـه فى ذلك الوقـت ثم لا بـأس باعتذاره لرسوله ﷺ بعد ذلك ويقول : يا سيدى يا رسول الله اعذرنى فى إلحاحـى علـيك أن تستغفر لى ربك ، فإنك رحمة بأمتك وأنا شخص مضطر إلى سؤال العفو عنى وليس لى وجه عنده إلا بواسطتك .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يقول :

ينبغى للعبد إذا سأل ربه أن يقبل استغفار نبيه فى حقه أن لا يقصـد بـذلك حظـه نفسه وإنما يقصد بذلك المسارعة إلى مساعدة نبيه ﷺ خوفاً أن لا يقبل الله تعالى فى ذلك الوقت استغفاره فى حق العبد فيخجل ﷺ ، انتهى .

فأعرض ذلك على مريدى عصرك ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يقرءوا قرآناً ولا حديثاً ولا يسبحون الله تعالى ولا يفعلون شيئاً من الأذكار إلا جالسين ماداموا قادرين على ذلك (١)

فإذا عجز أحدهم فليستأذن ربه بقلبه ثم يضطجع ويقرأ أو يذكر ، فإن حكم ذلك حكم من أرسل له السلطان مرسوماً يقرأ عليه ، فلا يليق به أن يكون مضطجعاً حال قراءته عليه إلا بعذر واضح يعذر بمثله (٢) .

فافهم وأعرض ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا نام أحدهم عن قيام الليل وفاته الوقوف فى تلك المواكب الشريفة والحضرات المنيفة أن يندم ويستغفر

ثم يشكر الله تعالى على العافية التى خلعها عليه حتى نام وشبع من النوم ، فإن فاته الخير من جهة ذلك التهجد فقد حصل له الخير من جهة شكر الله تعالى على العافية ، فإنه هو الذى يمكن تداركه بعد فوات وقوفه فى تلك المواكب (٣) ،

---

(١) إحتراماً لله عز وجل وتهيئة للنفس لكى تتلقى واردات الذكر ولكى تستغرق فيه فلا يخطر لها خاطر غيره .

(٢) يقول الله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم) .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه . رواه مسلم

(٣) يقول الله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) .

وقال تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) .

وقال تعالى : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له لم تصنع هذا يا رسول الله ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : (أفلا أكون عبداً شكوراً) متفق عليه . =

وإن كان الشارع ﷺ قد جعل الثواب لمن قضى ورد الليل قبل الزوال .

فافهم فليس حكم النائم حكم القائم ، وإنما قال ﷺ : فكأنما فعله فى الليل خيراً لمصيبة من حصل له ندم مع أن قوله : فكأنما هو التشبيه وذلك لا يقتضى المساواة من كل وجه .

وسيأتى فى الكتاب أن الأكابر كلهم يعظمون أوامر الله ويخافون من تأخيرها عن وقت الفضيلة حتى أن الخليل عليه الصلاة والسلام لما أمره الله بالاختتان بادر إلى الفأس فاختتن بها ولم يتمهل حتى يجد الموسى ، وقال : إن تأخير أمر الله عظيم، انتهى .

فلكل مقام رجال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا سافروا إلى بلاد الريف وخافوا أن يتبعهم الناس أن يسافروا ليلا تخفيفاً على أهل البلاد

وقد تساهل بعض إخواننا فى ذلك فما وصل بلاد الغربية حتى صار معه نحو خمسمائة نفس وممن كان يكره السفر فى النهار سيدى محمد بن عنان ، وسيدى محمد الشناوى وسيدى أبو الحسن الغمرى رضى الله عنهم فافهم ذلك (١) .

ومن أخلاقهم أن لا يظهروا الكسل والنوم بحضرة مريديهم فيمدونه بالنـــوم والكسل لأنه ليس للمريد مادة يستمد منها غير الشيخ ، فإن نام مد مريده بالنوم، وإن غفل عن الله مد مريده بالغفلة ، وإن أقبل على الدنيا مد مريده بذلك، وهكـــذا فى ساير الحركات والسكنات والصفات فاعلم ذلك (١) والحمد لله رب العالمين .

= وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال : رسول الله ﷺ (يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) متفق عليه .

وعن مسعود ﷺ قال : ذكر عند رسول الله ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح قال : (ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه أو قال : أذنه) متفق عليه .

(١) حتى لا يكلفوا الناس مشقة استقبالهم وتوديعهم والإعداد لمدة إقامتهم .

ومن أخلاقهم إذا قصر أملهم أو ضاق الوقت عن تأدية تلك العبادة عادة أن يبدأو بقراءة جوامع الكلم الواردة فى السنة أو بقراءة تلك الآيات والسور التى ورد تفضيلها على غيرها [٢]

أى من حيث تلاوة التالى لها لا من حيث المتلو لأنه كله فى مرتبة واحدة بالنظر لرجوعه إلى الذات ، وذلك كقراءة آية الكرسى أو آخر سورة الحشر أو ألهاكم التكاثر ، فإنه ورد أن كل واحدة من ذلك تعدل قرءاة ألف آية ، فمن صلى بآية الكرسى ، فكأنه قرأ فى صلاته بألف آية وفى الحديث : أنه يكون من المقنطرين [٣] يعنى الآخر ، وقد عددت الألف من أول البقرة إلى قريب من قوله تعالى فى الأنفال ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية وكذلك ورد أن سورة إذا زلزلزت تعدل ربع القرآن أو نصفه ، وسورة الكافرون تعدل نصف القرآن ، وسورة قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، لو قسم أرباعا أو أنصافا ، أو أثلاثا هكذا قال الشيخ محى الدين بن العربى [٤] رحمه الله ، وهذا الذى ذكرناه من

---

(١) لأن المريد يستمد حاله من حال شيخه فعلى حسب ما يفعله شيخه يكون فعل المريد وأيضاً فإن الشيخ هو الأستاذ والمريد التلميذ فعلى حسب ما يرى المريد من تصرفات أستاذه تكون تصرفاته لأن أصل العلاقة هو إلتزام المريد بتصرفات الشيخ .

(٢) مثل آية الكرسى وسورة يس والفاتحة والمعوذتين .

(٣) اى يكون ثوابه كبيراً .

(٤) هو الشيخ الأكبر سيدى محى الدين بن عربى : صاحب الفتوحات المكية وفصوص الحكم وغيرها من قمم الكتب – توفى ﷺ سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

يقول عنه الشيخ صفى الدين بن أبى منصور فى ترجمته له : هو الشيخ الإمام المحقق رأس أجلاء العارفين ، والمقربين ، صاحب الإشارات الملكوتية ، والنفحات القدسية ، والأنفاس الروحية ، والفتـــح المونق ، والكشف المشرق ؛ والبصائر الخراقة . والسرائر الصادقة ، والمعارف الباهرة ، والحقائق الزاهرة ؛ له المحل الأرفع من مراتب القرب فى منازل الأنس والمورد العذب فى مناهل الوصل ، والطول الأعلى من معارج الدنو ، والقدم الراسخ فى=

قراءة هذه الآيات والسور وأن لم يرد فهو من باب الحزم وربما كان الحق تعالى جعل ذلك اعتناء بأمة محمد ﷺ ، وكما قال الإمام مالك فى حكمة ، كون قيام ليلة القدر خيراً من ألف شهر : إن الله تعالى ، لما جعل أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، مع قصر أعمارهم أعطاهم فى كل قيام ليلة القدر فى كل سنة أجر نيف وثمانين سنة ، الذى هو العمر الغالب ، فمن قامها خمسين سنة مثلا كان كمن عبد الله تعالى نحو خمسمائة سنة .

ونظير ذلك ، قوله ﷺ : من أدرك ركعة من الوقت فقد أدرك [1] فإنه إنما جعل له ذلك جبرا لمصيبته حين فاتته فرط الحرص وإلا فمعلوم ، أن فضله دون فضل من أدركها كلها فى الوقت فضلا عن فضل من صلاها أول الوقت .

فعلم أن من غلب عليه النوم حتى كاد الفجر أن يطلع [2] فمن الحزم أن يصلى بآية الكرسى ويقل هو الله أحد وإضرابهما ، وكذلك القول فى جوامع الكلم

=التميكن من أحوال النهاية ، والباع الطويل فى التصرف فى أحكام الآية ، وهو أحد أركان هذه الطريق ﷺ .

ويروى الإمام الشعرانى : وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الإسلام بمصر المحروسة يحط عليه كثيراً ، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى ﷺ ، وعرف أحوال القوم صار يترجمه بالولاية والعرفان والقطبانية .

وللإمام الشعرانى كتاب (اليواقيت والجواهر) فى الرد على الشبهات التى أثيرت حول كتاب الفتوحات المكية لسيدى محى الدين ، وكذلك كتاب (تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر الأولياء) .

(١) رواه الشيخان .

(٢) فإن من أرسخ المعتقدات لدى الصوفية ضرورة الاستيقاظ قبل صلاة الفجر بوقت كاف للتهجد والصلاة والإستغفار .

ويقول الله تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) .

ويقول تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) الآية .

وقال تعالى : (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) .

وعن رسول الله ﷺ قال : لأفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم . =

فى الأوراد نحو سبحان الله وبحمده عدد خلقه إلى آخره وكذلك القول فى الصلاة على رسول الله ﷺ ومن أجمع صلاة وأخصرها فى كيفية الصلاة على رسول الله ﷺ اللهم ، صل على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد .

ومما ألهمته أنا من الكيفيات الجامعة للصلاة والاستغفار (اللهم إنى أسألك بك أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى ساير الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين وأن تغفر لى ما مضى وتحفظنى فيما بقى) انتهى فأقولها ألفاً كل صباح أو مساء وقد وجدت بركاتها وأحب للإخوان أن يعملوا بها فأعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على مريدى زمانك تعرف مقامك ، ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة محبتهم لأهل العلم

ولو أنكروا عليهم من حيث انهم حمله شرع رسول الله ﷺ ، وذلك لأن محبة الفقراء لأهل العلم يزدادون بها علماً إلى علمهم وقد خالف فى ذلك بعض المتصوفة فبعدوا عن العلماء ، فازدادوا جهلا إلى جهلهم .

وقد أدركنا بحمد الله تعالى أكثر من ماية شيخ فكانوا يجلون العلماء ويتبركون بهم ، منهم سيدى محمد بن عنان ، وسيدى محمد الشناوى ، وسيدى على المرصفى رضى الله عنهم وأن قدران العلماء أنكروا عليهم شيئاً من أحوالهم فلا يقدح ذلك فى كمالهم ودينهم فقد أنكر موسى على الخضر عليهما الصلاة والسلام وما بلغنا عن أحدهما أنه تكدر من الآخر أبداً [1] . كان سيدى على

= وعن جابر ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ؛ وذلك كل ليلة) رواه مسلم .

وعن ابن مسعود ﷺ قال : ذكر عند رسول الله ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح قال : (ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه أو قال أذنه) : متفق عليه .

(١) يقول الله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب)=

الخواص رحمه الله يقول : لا لوم على الفقيه فى إنكاره على الفقير [١] ، وإنما اللوم على الفقير الذى لم يحفظ ظاهره من مخالفته السنة فى أقواله ، وأفعاله ، وعقايده ولو أنه كان كاملا لم يظهر الناس إلا ما وافق ظاهر الشريعة [٢] كما كان عليه أبو القاسم الجنيد ، واضرابه ولذلك أجمعوا على جلالته لأنه كان يكلم كل جليس بما يناسبه ﷺ انتهى .

وكان ﷺ يقول من سعادة الفقير خلطته بالفقهاء ، فإنهم لا يكادون يقرونه على شئ فيه رائحة بدعة ، بل ينكرونه عليه فهم مـن جملـة جنـود الله لـه ، فيا سعادة من كان ساكنا فى مثل جامع الأزهر ، فإن العلماء الذين هناك يقومون عوجه كلما أعوج ، ويقومون له مقام الشيخ المرشد ، ونعم الصديق الذى يقوم معوج أخيه فلا يتكدر من الإنكار عليه إلا كل غاش لنفسه محب للرياء والنفاق ، ثم أقل ما فى إنكارهم عليك يا أخى من النفع ، انهم يمنعونك عن أن تصير من أئمة الضلال ، لاسيما أن كان لك معتقدون فأنهم يقتدون بك فى كل أمر .

=وفى الحديث : عن أبى مسعود عقبة بـن عمـرو البـدوى الأنصـارى ﷺ قـال : قال رسول الله ﷺ : (يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا فى القراءة سواء ، فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا فى السنة سواء ، فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء ، فأقدمهم سنا ، ولا يؤمن الرجل الرجل فى سلطانه ، ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بأذنه) رواه مسلم .

وفى رواية له : (فأقدمهم سلما بدل سنا – أى إسلاما –.وفى رواية ، يؤم القوم ، أقرؤهم لكتاب الله ، وأعذبهم قراءة ، فإن كانت قراءتهم سواء ، فيؤمهم أقدمهم هجرة فإن كانوا فى الهجرة سواء ، فليؤمهم أكبرهم سنا ؛ والمراد بسلطانه محل ولايته أو الموضع الذى يخص به ، وتكرمته بفتح وكسر الراء وهى ما ينفرد به من فراش وسرير ونحوهما .

وعنه قال : كان رسول الله ﷺ ، يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول : (استووا ولا تختلفوا ، فتختلف قلوبكم ، ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) . رواه مسلم .

(١) لأن الفقيه يتكلم بصوت الشرع وأحكامه .

(٢) لأن مخالفة الشرع لا يجوز عند الصوفية فيجب عليهم مراعاة ذلك فى أحوالهم وظواهرهم.

ولو كان مخالفاً لظاهر الشرع ويقولون : لو لا أن لسيدى الشيخ دليلا فى الأمر الفلانى ما فعله ، وقد ورد الأثر أنه لابد إن يتقدم الدجال الأكبر دجاجلة كثيرة يمهدون له طريق الدجل ، وهو تمويه الباطل بالحق حتى يكاد قليل العقل يجزم بأنه حق ، وقد دخل على شخص من الثقات حال كتابتى لهذا الموضع فأخبرنى أنه فى حصر عظيم من شيخ برز فى حارته .

فقلت له : وما ذاك : فقال أنه يقبل النساء الأجانب بحضرة أصحابه ويقول لهم : وأنا لى حال آخر مع الله تعالى خلاف ما يظهر لكم منى فقلت له : كذب هذا على الله فإن الله تعالى أرسل رسوله بالشرع العام لساير الخلق ، ومن قال أنا لى حال مع الله تعالى خلاف ما ظهر منى ، وكأنه يقول أن الله تعالى سازرنى بشرع آخر بينى وبينه خلاف ما أوحى به إلى رسوله وذلك كفر فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وسمعت سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول : من أعظم فتنة دخلت على المطاوعة معاداتهم للفقهاء فلا معهم علم يمشون فى نوره ولا هم يسمعون لما يقوله لهم العلماء فاستحوذ عليهم الشيطان حتى أن منهم من أمره الشيطان بالوضوء بالبول والسجود للشمس كل يوم وصار يخبره بما يقع من الناس فى بيوتهم فلو لا عناية الله تعالى له باجتماعه على سيدى أبى العباس الغمرى لكان مات على كفره انتهى [1] .

وقد من الله تعالى على بمحبة جميع علماء عصرى ، وكل من أنكر على أكثر أحببته أكثر ، كما سيأتى إيضاحه فى الخاتمة إن شاء الله تعالى ، فأعرض يا أخى ما قررته لك على مريدى عصرك تعرف حالهم ، ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ولعل فقه كبار السادة الصوفية كالسيد البدوى وسيدى إبراهيم الدسوقى وسيدى أبى الحسن الشاذلى والعز بن عبد السلام يكون نبراسا مضيئاً هذا العصر حيث نراهم يتحدثون فى جميع فروع العلوم من تفسير وحديث ولغة وغيرها مما جعلهم دائماً بمنجى عن الانحراف والتحلل من الشريعة .

ومن أخلاقهم التى أجمعوا عليها ونفذت بها وصاياهم إلى ساير أقطار الأرض أنه لا يجوز لأحد التصدر فى طريق القوم لإرشاد المريدين إلا بعد تبحره فى علوم الشريعة المطهرة والحقيقة

من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وأصول ، وبعد اطلاعه على أقوال المجتهدين سلفاً وخلفاً ، وأقوال المحققين من العارفين كذلك ، بحيث يعد لمناظرة العلماء ، ورد المبتدعة فإن لم يصل إلى ما ذكرناه فما يفسده أكثر مما يصلحه ، وقد تقدم فى المقدمة أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة ، وإن لهم فى كل حركة ، وسكون ميزاناً شرعياً فلا يقدم أحد منهم على قول أو فعل حتى يعرف ميزانه من كتاب أو سنة [1] وانهم لا يسامحون نفوسهم فى تركهم إقامة الميزان على أحوالهم كلها فى حال من الأحوال اكتفاء بعمل الناس ، فقد يكون ذلك العمل من جملة البدع التى ابتدعت .

وهم رضى الله عنهم منزهون عن ارتكاب البدع ، أو الأهواء ، وكل من أنكر عليهم ، فإنما هو لجهله بدليلهم ولم يزل أكابر السلف رضى الله عنهم يخافون من التدين بشئ زائد على السنة خوفا من الوقوع فى البدعة ، حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ ربما كان يهم بالأمر يفعله فيقول له شخص أن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك فيرجع عنه لوقته وقد هم ﷺ مرة ، أن ينهى الناس عن لبس ثياب بلغه إنها تصبغ ببول العجايز ، فقال له شخص فى أذنه قد كانت هذه الثياب فى عصر

---

(١) يقول الله تعالى : (وقل رب زدنى علما) .

ويقول تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .

وفى الحديث : عن معاوية ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين) متفق عليه .

وعن أبى هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : (ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة) رواه مسلم .

وعنه أيضا ﷺ : أن رسول الله ﷺ قال : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً) . رواه مسلم .

رسول الله ﷺ وكان يراها على الناس فلا ينكرها ، فاستغفر عمر ﷺ ورجع عن ذلك وقال فى نفسه ، لو كان ترك لبسها من الورع لكان رسول الله ﷺ نهى أصحابه عنها .

وكذلك بلغنا عن الإمام زين العابدين [١] ﷺ ، انه قال يوما لولده : يا ولدى اتخذ لى ثوباً ألبسه عند قضاء الحاجة ، أنزعه وقت الصلاة ، فلا أصلى فيه لأنى رأيت الذباب يجلس على العذرة ثم يقع على ثوبى فى الخلا ، فقال له ولده : إنه لم يكن لرسول الله ﷺ إلا ثوب واحد لخلائه ، ولصلاته فرجع الإمام عما كان عزم على فعله انتهى .

وأما ما بلغنا عن الشيخ أبى يزيد [٢] من أنه كان له ثوب لخلائه ، وثوب

---

(١) هو سيدى على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ ، وهو على الأصغر وأما الأكبر فقتل مع سيدنا الحسين ﷺ .
ومن كلامه : كيف يكون صاحبكم من إذا فتحتم كيسه فأخذتم منه حاجتكم فلم ينشرح لذلك .
وكان يقول : إذا نصح العبد لله تعالى فى سره أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله فتشاغل بذنوبه عن معايب الناس .
وكان إذا توضأ أصفر وجهه ، فيقول له أهله : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء فيقول : أتدرون بين يدى من أريد أن أقوم .
وكان إذا مشى لا تجاوز يده فخذه ولا يخطر بيده .
وكان إذا بلغه عن أحد أنه ينقصه ويقع فيه يذهب إليه فى منزله ويتلطف به ويقول : يا هذا إن كان ما قلته فى حقا فيغفر الله لى وإن كان باطلا فغفر الله لك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .
توفى ﷺ سنة تسع وتسعين وقد بلغ ثمان وخمسين سنة .

(٢) هو أبو يزيد بن طيفور بن عيسى البسطامى ، يقول عنه سيدى محى الدين بن عربى أنه كان القطب الغوث فى زمانه .
ومن كلامه : ليس العالم من يحفظ من كتاب الله فإذا نسى ما حفظ صار جاهلا ، بل من يأخذ علمه من ربه أى وقت شاء بلا تحفظ ودرس ، وهذا هو العلم الربانى .
وقال : أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت .
وسئل أبو زيد : بأى شئ وجدت هذه المعرفة ؟ =

لصلاتـه ، فليس هو لأجل وقوع الذباب المذكور على ثوبه ، وإنمـا ذلك حتـى لا يكون ثوب خلائه ثوب صلاته لأن الخلا بيت الشياطين يقصد بذلك ، تعظيـم حضرة الله الخاصة ، أن يقف فيها بثوب تدنس بحضرة الشياطين من حيث أنها رجس ، وهو نظير ما ورد من النهى عن استقبال القبلة ببول أو غايط بشرطه وقال : شرقوا أو غربوا حتى لا يجعل العبد جهة خلائه جهة صلاته ، وتقدم أوائل المقدمة قول أبى القاسم الجنيد ﷺ طريقنا هذا مشيد بالكتـاب والسنـة قـال الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (١) وكان يقول أيضاً لو رأيتم رجلا متربعا فى الهوى فلا تعتدوا به إلا أن رأيتموه واقفاً عند حدود الله تعالى .

ومما وقع للشيخ أبى عبد الله القرشى أنه قال يوماً : اللهم لا تفضحنى بسريرتى على رءوس الخلايق فقال له شيخه : يا محمد ولأى شئ تجعل لك سريرة تفتضح بها يوم القيامة لم لا تنظف باطنك من الأدناس حتى لا يكون لك سريرة تفتضح بها ، ومما وقع أن معروفاً الكرخى نظر يوما إلى السماء فتكدر قلبه فشكى ذلك للحسن البصرى فقال : لعلك نظرت إلى السماء وأنت عاطل عن الاعتبار وعن الله تعالى فانظر يا أخى هذا الضبط العظيم فإذا كان هذا فى الأمور المباحة فكيف بالأمور المكروهة أو الحرام .

وقد بلغنا أن السرى السقطى رحمه الله رفع طرفه مرة إلـى سـقف بيتـه فعوقب على ذلك بوجع الضرس مدة أيام لكونه لم يحرر له نية صالحة قبل رفع بصره إلى السقف ،ولعل مثل ذلك هو المراد بحديث كانت خطيئة أخى داود النظر، فلم يبلغنا فى حديث صحيح ولا ضعيف إن المراد به النظر إلى ما لا يحل فـإن

=فقال : ببطن جائع ، وبدن عار .

وقال : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء ، فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ، مات سنة : إحدى وستين ومائتين ، وقيل : أربع وثلاثين ومائتين .

(١) سورة الحشر آية : ٧

العصمة تمنع من وقوع ذلك .

وإذا كان آحاد هذه الأمة يعاقب على مثل ما ذكرناه ، لاعتناء الحق تعالى به والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولى وأحق بذلك الاعتناء ، وليست المؤاخذة الواقعة على ذلك بغضاً للمعاقب وإنما هو تكريم له واعتناء به ، كما يربى الوالد الشفيق ولده بالضرب والصفع محبة فيه وإذا رآه واقعاً على شفير بئر لاحضيتر على فمها ، وهو صغير يعرك أذنه ويجذبه جذباً عنيفاً ، ويقضى عقول الناس كلهم ، إن ذلك من شدة محبته خوفاً عليه من الهلاك ، وما ينقل عن الزبور الذى غيرته اليهود من أن داود عليه الصلاة والسلام كانت خطيئة النظر إلى امرأة لما سافر زوجها فى بعض الغزوات من تحريف اليهود وتبديلهم فاستحلوا أعراض الأنبياء ، بمثل ذلك ؛ فعلم من جميع ما قررناه أن التبحر فى الشريعة هو أساس طريق الحقيقة ، وإنهما متلازمان ملازمه الظل للشاخص ، وإن من جلس لإرشاد المريدين من غير تبحر فى الشريعة ، فقد ضل وأضل ؛ وأول من يتبرأ منه أشياخه الذين يزعم أنه من أتباعهم وقد قررنا مراراً أن سيدى إبراهيم الدسوقى كان يقول : من لم يتقيد بالكتاب والسنة فلا يلم بنا ولا يمشى فى ركابنا ، وكل من عمل على وفق الكتاب والسنة فهو ولدى لصلبى ، وإن كان من أقصى البلاد ، ومن خالف السنة فهو عدوى ولو كان ولدى من صلبى ، وقد دخل شخص مرة على الجنيد ﷺ فقال له : قد بلغنا إنك تقول : طريقنا هذه مشيدة بالكتاب والسنة ، فما دليلكم فى قراءة هذه الحكايات التى تتداولونها فى أحوال القوم من القرآن فقال دليلها قوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ (١) ﴾ .

فكما ثبت الله تعالى فؤاد محمد ﷺ بما قص ﷺ من أحوال الأنبياء قبله فكذلك نثبت فؤاد المريدين على الطريق بما نقصه عليهم من حكايات سلفهم .

فقال له : فما الدليل على قولكم إن الله تعالى لا يعذب حبيبه ؟

---

(١) سورة هود آية : ١٢٠ .

فقال : الدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ (١) ﴾ أى لو كنتم أحباؤه ما عذبكم فى النار وقد أخبر تعالى على لسان الصادق المصدوق أنه يعذبكم بالنار أبد الآبدين .

فقام الرجل وقبل رأس الجنيد وقال : أنت أستاذ الناس ، فمن ذلك اليوم لقب الجنيد بين القوم بالأستاذ .

وعلم أيضا مما قررناه أن من جلس بغير إذن من شيخ لإرشاد المريدين مع جهلة بشئ من أحكام الشريعة التى صرح بها الشارع ﷺ فإنـــه مـــدع كـــذاب ، لا ينبغى لأحد الإقتداء به ، لأنه يخطئ فى كل شئ جهله مـــن الشريعـــة فربمـــا صادف الأمر الذى يحكم به على المريد خلاف الشرع ، فزن يا أخى كل من رأيته تصدر لإرشاد المريدين بهذا الميزان فإن رأيته متبحراً فى علم الشريعة فسلم له وإلا فأعرض عنه من غير ازدراء وكل أمره إلى الله تعالى ، كما هو شأن كثير من فقراء هذا الزمان فترى أحدهم يعجز عن تدريس مختصر فى الفقه ، مما يفهمه أضعف الطلبة، وهو مع ذلك يدعى المشيخة والكمال ، وله عمامة صوف ، وعذبة .

وقـــد دخـــل على شخص وأنا أكتب فى هذا المحل فصار يتكلـــم فى الفنـــاء والبقاء، والهجر (٢).

فقلت له : يا أخى هذا الذى تقوله إنما يكون معرفته للإنسان بعد السلوك على وفق الشريعة المطهرة بالأعمال الذكية ، والأخلاق المرضية اللائقة بالسالك فقل لى : ما شروط الوضوء ؟ وما شروط الصلاة ؟ وما شروط الصـــوم ؟ ومـــا واجبات الحج ؟

فتلجلج وما درى ما يقول فقلت له : لم لا تجبنى عما سألتك ؟ فقال : لم أقرأ شيئاً فى علم الفقه ، فقلت له : فإذن أنت من إخوان الشياطين ، ثم إنـــه انقطـــع

---

(١) سورة المائدة آية : ١٨

(٢) أى فى العلوم العالية من التصوف التى لا ينبغى التكلم فيها إلا بعد معرفة الأحكام الشرعية وعلوم القرآن وغيرها حتى لا يناقض حديثه أكام القرآن والسنة .

عنى من ذلك اليوم .

فإن جاءك يا أخى أحد من هؤلاء فلا تسأله عن شئ من أحكام الدين [١] فإنه يخجل ويسكت ، وقد كثر هذا الحال فى المنتسبين إلى الفقر فى هذا الزمان ، وربما يقول أحدهم الفقهاء محجوبون عن الله بعلمهم ، وذلك كفر فإنه جعل الهدى يحجب عن الله ، والضلال يوصل إلى حضرة الله نسأل الله العافية .

وقد درج السلف الصالح من أبى القاسم الجنيد ، إلى أبى القاسم القشيرى ، إلى الشيخ عبد القادر الجيلى ، إلى الشيخ عمر السهروردى ، إلى سيدى أحمد بن الرفاعى ، إلى سيدى أحمد الزاهد ، إلى سيدى محمد الغمرى ، إلى سيدى على المرصفى رضى الله عنهم على تدريسهم فى علوم الكتاب والسنة من فقه ونحو وأصول ، وغير ذلك إلى أن ماتوا ومؤلفاتهم فى الحقيقة والشريعة تدل على ذلك، ولكن لما توعرت طريق العمل بالكتاب والسنة على غالب الناس أشغلهم إبليس بشقشقة اللسان بألفاظ أصطلح القوم عليها لا يفهم هؤلاء معناها ، فظنوا أنهم صاروا بذلك صوفية ، وقال لهم الفقهاء محجوبون عن طريقكم فأضلهم وأعمى أبصارهم .

فأهل الطريق كلهم مجمعون على وجوب الاشتغال بالعلم ، وإن وقع أن أحداً منهم منع مريداً من الاشتغال به ، وأمره بالذكر فليس ذلك راجعاً لذات العلم وإنما هو لأمور عرضت للمشتغل به من رياء ، وعجب ، وكبر وازدراء للعامة لكثافة حجابه فقالوا لـــه : اشتغل بالذكر حتى يرق حجابك ويستنير قلبك وتخرج عن الحجاب ويزول عنك العجب بالعلم والرياء ، ثم بعد ذلك اشتغل بالعلم على وجه الأدب والإخلاص فإن صح عن أحد من أهل الطريق أنه قال العلم حجاب أقلناه على وجه حسن أدباً مع العارفين رضى الله عنهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول كثيراً : إنما قال بعضهم العلم حجاب أى لأن صاحبه لا يكاد يستحضر حال قراءته ، وإقرائه ، ومجادلته أنه بين

---

(١) يقصد فإذا سألته عن شئ من أحكام الدين فإنه يخجل ويسكت .

يدى الله تعالى أبداً إنما ذهنه فيما يقرره فقط ، كما هو حال أكثر المريدين بخلاف العارفين ، فإنهم يحضرون مع الله تعالى فى كل علم قرروه من فقه ونحو ، وأصول، ومعانى وبيان ونحو ذلك لجلاء مرآة قلوبهم من الصدأ والرعونات البشرية ، هذا معنى كلامهم ، وإلا فكيف ينكرون على شئ هو أساس طريقهم ومنشأها .

وقد ذكرنا فى كتاب المنن عدة الكتب التى طالعناها فراجعها [١] وإياك ونسبة القوم إلى ما يخرج ظاهر الشريعة وأعرض يا أخى ذلك على من يدعى الصدق من مريدى عصرك تعرف حالهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم سترهم لزلات من تاب على يديهم تخلقاً بأخلاق الله عز وجل

ولا يعلمون أحداً من جماعتهم بزلاتهم التى تاب منها ، وحكاها لهم ، وهذا أمر يقع من غالب فقراء هذا الزمان فليحذر الفقير من مثل ذلك ، فإنــه خـــلاف ما جبل الله تعالى أولياءه عليه من كثرة سترهم على العباد ، وقد وقع لبعضهم أن شخصاً كان يستحسن على عياله زماناً طويلاً ثم جاء وتاب على يده ، وجلس عنده فى الزاوية فصار كل من سأله الدعا يقول له : اسأل الله تعالى أن يتوب عليك كما تاب على هذا المستحسن فجاء إلى الشيخ وقال له : ما كان لى حاجة بالتوبة على يديك ، فإن لى نحو ثلاثين سنة وأنا مرتكب ذلك الأمر ، والله يسترنى فيه ، وأنت قد هتكتنى فى يوم واحد [٢] انتهى .

---

(١) وكتاب المنن ألفه الإمام الشعرانى ترجمة لسيرته وفيه بيان الكتب التى قرأها الإمام الجليل وعددها ضخم فى جميع فروع العلم ، ويقصد بذكر ذلك بيان أن طريق القوم لا يتنافى مع العلم ولا يبعد عنه بل هو من ألزم الأمور فى الطريق الصوفى .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لا يستر عبد عبداً فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة) رواه مسلم . =

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى لفقير أن يتصدر لأخذ العهد على الناس ، إلا بعد كماله وإذن شيخه له ، وبعد أن يصير أشفق على المريد من نفسه فى كتم سيئاته ، وأشفق عليه من أمه ، فأعرض يا أخى ذلك على مريدى عصرك تعرف حالتهم ولا تنس نفسك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم: أن لا يتولى أحدهم نظراً على مسجد أو يتيم ونحو ذلك مما تشترط فيه العدالة إلا أن يكون عدلا فى الباطن

وذلك ليعينه الله تعالى على المشى بالاستقامة وحماية ذلك المال من الظلمة، وصرفه فى مصارفه الشرعية ، وغير ذلك ، فإن من لبس على الناس وأظهر الصلاح والورع ، وهو فى الباطن على خلاف ذلك فهو عدو الله وعدو الله من لازمه تخلف نصرة الحق عنه ، وإن وقع له نصرة فهى استدراك ومكر به .

وسمعت سيدى الشيخ زكريا رحمه الله يقول : لا ينبغى للناظر على وقف أن يكون له سريرة سيئة ، بحيث لو أطلع الولاة عليها لمنعوه من ذلك النظر ، قال : وهذا أمر يخفى على كثير من النظار فيصير يأخذ معلوم نظره من قبيل الشبهات انتهى[(١)] فاعلم ذلك واعرضه على نفسك وعلى أقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

=وعنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه ، فيقول : يا فلان عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عليه) متفق عليه .

وعنه عن النبى ﷺ قال : (إذا زنت الأمة فتبين زناها فليجلدها الحد ، ولا تثريب عليها ، ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ، ولا تثريب عليها ؛ ثم إن زنت الثالثة فليبعها ولو بحبل من شعر) متفق عليه .

والتثريب : التوبيخ .

(١) ولعل هذا من كمال أخلاق السادة الصوفية فإنهم لا يريدون أن يأكلوا فى بطونهـم نــاراً ولا يصلون سعيراً .

ومن أخلاقهم عدم الاعتناء بنظم الشعر فى رسائلهم وإنما يتمثلون به فقط من كلام غيرهم .

قال الله تعالى فى حق رسوله ﷺ ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ (١) ونهى ﷺ بعض الصحابة عن الشعر وقال : (لأن يملأ أحدهم جوفه قيحاً خير له من أن يملأه شعراً) (٢) وما وقع له ﷺ من تقرير حسان بن ثابت (٣) ، وغيره على هجاء المشركين بالشعر ، فذلك رخصة لكونه اقطع فى المشركين من النثر ، لسهولة حفظ النظم وسهولة التمثل به على النفوس ، وأيضاً فإن الشعر يحتاج عادة إلى إتعاب فكر فيه ، ونظر فى كتب اللغة ، وغير ذلك مما يشغل القلب عن الله حال نظمه عادة ، وربما جازف فى وصف من مدحه أو هجاه ، فوقع فى الذم قال ﷺ : (لا غيبة فى فاسق) قال بعض العارفين أى لا تستغيبوه هذا وإن كان خلاف المفهوم الظاهر فيؤيده ما رواه الحافظ أبو نعيم عن محمد بن سيرين (٤)

يقول الله تعالى : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) .

وقال تعالى : (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا يا رسول الله وماهن؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ؛ وقذف المحصنــات المؤمنــات الغافــلات) . متفق عليــه ، والموبقــات : المهلكات .

(١) سورة يس آية : ٦٩

(٢) وتمام الحديث : (لأن يمتلئ جوف رجل قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ شعراً) رواه الإمام أحمد

(٣) كان من كبار الشعراء فى عصر الرسول ﷺ ونافح عن سيدنا الرسول ﷺ كثيراً بشعره وله أشعار رائعة خرجت جميعاً فى ديوان صدر حديثاً ، وكان ﷺ من خيره صحابة سيدنا رسول الله ﷺ .

(٤) هو محمد بن سيرين ﷺ : كانوا إذا ذكروا أحدا عنده بسوء يذكره هو بالخــير ، وكان ذا سمت وخشوع ، وكان إذا كلم أمه لا يكلمها بلسانه كله إجلالا لها .

أن رجلا وقع فى عرض الحجاج بن يوسف [١] عنده فقال يا أخى اعلم أن الله تعالى حكم (عدل) فكما ينتقم من الحجاج ، كذلك ينتقم للحجاج انتهى .

وأما من شطح فى نظمه من أرباب الأحوال كسيدى عمر بن الفارض وغيره، فلا كلام لنا معه لأنه مغلوب على عقله ، وهو تحت حكم حاله ، وكلامنا إنما هو فى حق أرباب التمكين المتقيدين بالسنة ، فى جميع أحوالهم ، فإنهم يقولون : لو كان الشعر محموداً مطلقاً لكان رسول الله ﷺ أولى به ، وفرق بين كلام الصحاة والسكارى وقد بلغنا أن عصفور راود عصفورة عن نفسها فى قبة سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ، فأبت فقال لها : تأبين على وأنا لو شئت لقلبت القبة على سليمان ، فأرسل وراءه فجاء وهو يرعد فقال : ما حملك على الكذب فى قولك كذا وكذا وأنت عاجز عن مثل ذلك فقال : مهلا يا نبى الله أنا عاشق لها والعشاق إنما يتكلمون غالباً بلسان العشق والسكر لا بلسان العلم والتحقيق فعفى عنه . انتهى .

ففى ذلك عذر لسيدى عمر بن الفارض فى نحو قوله :

فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى — وإيقاد نيران الخليل كلوعتى

إلى آخرها قال فاعلم ذلك وأعرضه على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم ارتباط قلبهم بكل إمام صلوا خلفه

حتى إن أحدهم لو سمع صوت من يشبه إمامه كل الشبه يكبر مثلا لا يطاوعه ، لأن قلبه يعلم أن ذلك ليس بالإمام له ، وهذا أمر قل من يراعيه الآن من الفقراء ، فيصلى خلف كل من رآه يصلى بالناس من غير ارتباط قلبه به ،

ومن كلامه : من الظلم البين لأخيك أن تذكر شر ما فيه وتكتم خير ما فيه عند غضبك .

وكان إذا سئل عن الرؤيا يقول للسائل : اتق الله فى اليقظة فلا يضرك ما رأيت فى النوم .

مات سنة عشر ومائة وهو ابن نيف وثمانين سنة .

(١) هو الحجاج بن يوسف الثقفى : كان من ولاة الخليفة عبد الملك بن مروان واشتهر بالقسوة والظلم والطغيان .

ويكتفى بارتباطه الظاهر ، وهذا نقص فى مقام الفقراء لعدم مطابقتهم بين الظاهر والباطن ، وصاحب هذا المقام لا يحتاج إلا إلى مبلغ يبلغه أفعال إمامه ، ولو كان بينه أكثر من ميل ، وهو فى ظلمة لإدراكه بقلبه حركات قلب إمامه فضلا عن أفعاله وأقواله الظاهرة .

وقد نبه ﷺ على هذا الارتباط تشريعاً لأمته لما صلى بأصحابه ، وقرأ فى صلاته سورة الروم والتبست عليه الآية فلم يعرفها ، فقال : إذا جاء أحدكم إلى الصلاة ليحكم طهارته فإنكم لبستم على قراءتى أو كما قال .

فانظر يا أخى كيف سرى عدم إحكام الطهارة من المأموم إلى الإمام ، فإن من ترك لمعة من أعضائه بغير غسل فصلاته باطلة ، فلما تعلق بالإمام من لبس هو فى صلاة لبس عليه لعدم استحقاق المأمور أسماعه القرآن على وجهه الذى أنزل فعلم أن من ادعى تخلقه بهذا الخلق فى صلاة وسمع تكبير غير إمامه للركوع مثلا ، فتبعه على ذلك فهو لم يتحقق بهذا الخلق ، وقد امتنع بعض العارفين من الصلاة خلف كل من يخطر بباله غير الله فيها لبطلان صلاته عنده فأعلم ذلك ، وأعرضه على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم استنادهم فى ساير أوقاتهم إلى كبير من أهل الحضرة الإلهية ليحميهم من الآفات التى تصيبهم فى الدنيا والآخرة

ولا يكتفون بكثرة الأعمال الصالحة من غير استناد إلى من ذكر .

ويقولون : إن الأعمال الصالحة تنهض بنا كما يقع فيه كثير من المتعبدين ، وغاب عنهم أن العبد يصل بخدمة الأكابر ومحبتهم إلى ما لا يصل إليه بالأعمال.

وتأمل يا أخى إلى غلام الوالى إذا رآه الخفراء سكراناً لا يتعرضون إليه بسوء إكراماً للوالى لشدة لصوقه به بخلاف العابد الزاهد الذى لم يستند إلى الوالى إذا رآه الخفراء على فاحشة يمسكونه ويصفعونه ، ولا يوقرونه لعبادته ، بل يضربونه، ويحبسونه ، ويغرمونه المال ، وفى الحديث ما يؤيد ما أومأنا إليه

فورد : أن عبداً يأتى يوم القيامة فيوقف بين يدى الله عز وجل فيؤمر به إلى النار، فتقول الملائكة : يا ربنا كان من عبادته كذا وكذا ، ويذكرون ما شاء من صيامه وقيامه وصدقته وحجه وعمرته ، فيقول الله عز وجل : بلى ولكنه كان لا يوالى من والانى ولا يعادى من عادانى . انتهى .

فانظر يا أخى إلى هذا العابد كيف لم تنفعه عبادته ، لعدم استناده إلى الله تعالى ولو بواسطة نبى أو ولى ، ولو أنه كان استند إلى نبيه ﷺ أو شيخه استناداً حقيقياً بحيث أنه والى من والاه ، وعادى من عاداه لكان أخذ بيده وشفع له عند الله تعالى (١) ، فافهم .

---

(١) عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : (الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل) رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح وقال الترمذى : حديث حسن .

وعن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : (المرء مع من أحب) متفق عليه وفى رواية قال : قيل للنبى ﷺ : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال (المرء مع من أحب).

وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ متى الساعة ؟ قال رسول الله ﷺ : ما أعددت لها ؟ قال : حب الله ورسوله ، قال : (أنت مع من أحببت) متفق عليه وهذا لفظ مسلم ، وفى رواية لهما : (ما أعددت لها من كثير صوم ولا صلاة ولا صدقة ولكن أحب الله ورسوله) .

وعن أسير بن عمر ويقال : ابن جابر وهو بضم الهمزة وفتح السين المهملة قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم : أفيكم أو يس ابن عامر ؟ حتى أتى على أو يس رضي الله عنه فقال له : أنت أويس بن عامر ؟

قال : نعم ، قال : من مراد ثم من قرن ؟ قال : نعم .

قال : فكأن بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟

قال : نعم ، قال : لك والده ؟ قال : نعم .

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يأتى عليكم أو يس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن ، كأن به برص ، فبرأ منه إلا موضع درهم له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل) فاستغفر لى ، فاستغفر له فقال عمر : أين تريد ؟ قال الكوفة قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ، قال : أكون فى غبراء الناس أحب إلى . =

فعلم أنه لا يكفى العبد فى ادعاء المحبة لله ولرسوله كثرة الأعمال الصالحة مع عدم نصرته لشرع الله وشرع رسوله ﷺ ، وأن المحبة أنجح فى قضاء حوائجه فى الدنيا والآخرة من كثرة العبادات لاسيما أن دخلها العلل كطلب الثواب عليها والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حثهم لأصحابهم على كثرة العبادة من حيث كونها يرجع ثمرتها إلى صحائف رسول الله ﷺ

بالأصالة دون صحيفته هو عملا بحديث (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين [1]) ومن أحب كثرة الأعمال لتزيد فى صحيفته هو غافلا عن كونها ترجع إلى صحيفة رسول الله ﷺ فهو ناقص الإيمان، كما سيأتى بسطه فى هذه الأخلاق إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم زيادة الستر على الأكابر من العلماء والصالحين

لأنهم رءوس الأمة ، وذكر نقايصهم ينفر الناس عن الاقتداء بهم ، وعن الاهتمام بأمرهم ، ونهيهم لهم لتشكل نقائص الداعى لهم إلى خير فى قلوبهم [2].

= فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرفهم فوافق عمر فسأله عن أويس فقال : تركته رث البيت قليل المتاع، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يأتى عليكم أويس ابن عامر مع أمداد من أهل اليمن من مراد ثم من قرن ، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها بر لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل . فأتى أو يسا فقال : استغفر لى ، قال أنت أحدث عهداً بسفر صالح فاستغفر لى ، قال : لقيت عمر ، قال: نعم فاستغفر له ، ففطن له الناس ، فانطلق على وجهه . رواه مسلم .

(١) رواه البخارى

(٢) وفى الحديث : عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : (لا يستر عبد عبداً فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة) رواه مسلم .

وعن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (ليس منا مـــن لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا) حديث صحيح رواه أبو داود والترمذى=

اللهم إلا أن يترتب على كثرة الستر إحداث خرق فى الشريعة فمثل ذلك يجب علينا إظهار الإنكار على فاعله مصلحة لـــه ، وللشريعة خوفا أن يصير ذلك العالم من أئمة الضلال ، لكن لابد لنا مع الستر عن زلات من ذكر إذا رأيناها بعيننا من زجره عنها فيما بيننا وبينه ، قياما بما كلفنا به .

وقد رأيت مرة شخصا من الوعاظ فى عصرنا سعى على وظيفة فقلت له : إن الواعظ من قسم الصالحين فلا يليق به من مزاحمة الفقهـــاء على الوظـــائف فقال: إنى فقير ، فنمت فرأيته تلك الليلة ، وقد تطور تمساحا فى تليس مخيط عليه من جهة رأسه وذنبه فعرفت أنه غير صادق فى الفقر .

فأعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقـــرانك تعـــرف حالهـــم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تعظيمهم للسنة الواردة واعتناؤهم بالعمل بها

اكثر من عملهم بأقوال الأئمة المجتهدين التى أخذوها من الكتاب والسنة من طرق الاستنباط – وإن رجع كل ذلك إلى الشريعة – أدبا مع رسول الله ﷺ، حتى أن بعضهم كره أن يجمع بين رسول الله وبين غيره فى ضمير واحدا تعظيماً [١] .

وكذلك من شأنهم أنهم يأخذون ما صرح به القرآن بمزيد اعتناء أكثر مما سنه ﷺ وإن رجع ما سنه إلى القرآن ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [٢].

وبذلك أخذ الإمام أبو حنيفة قوله بالفرق بين الفرض ، والواجب وأنهما غير مترادفين هروباً من مساواة الخلق للحق فى الاصطلاح ، فجعل الفرض ما جاء فى القرآن والواجب ما جاء فى السنة أدباً مع الله تعالى .

= قـــال الترمذى حديث حسن صحيح .

(١) ربما يقصد تعظيما له .

(٢) سورة النجم الآيات : ٣ ، ٤ .

ونظير ذلك اصطلاح العلماء على تخصيص الصلاة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بلفظ الصلاة دون لفظ الرحمة ، وإن كانت الصلاة من الله هى الرحمة .

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه يقول : مــن أدب العــارف أن يأخــذ ما فرضه الله تعالى ابتداء من غير سؤال من الخلق بشدة اعتناء أكثر مما فرضه الله عن سؤال من الخلق بالحال أو القال كآية الحجاب . انتهى . وهو كلام غوره بعيد فليتأمل .

فعلم من باب أولى أنه ينبغى لقارئ القرآن أن يزيد فى طهارة الباطن والأدب حال تلاوته أكثر مما يكون حال قراءة الحديث ، ويزيد من ذلك إذا قــرأ الحــديث أكثر مما يكون حال قراءة كلام المجتهدين ، وهكذا فيجالس صاحب كل كلام قرأه، بمزيد التعظيم اللائق به ، ومتى غفل عن شهود مجالسته لصاحب ذلك الكلام فقد أخل بتعظيمه وفاته الحظ الأوفر من ذلك الكلام ، وما شرع الله تعالى عبادة من العبادات إلا طلباً لحضور عبيده معه فيها ، وما زاد على ذلك فهو بحكم التبع فعلم أن من لم يحضر مع الله فى عبادته فكأنه لم يفعلها .

وسمعت سيدى محمد المنير رحمه الله يقول : من تأمل بنور البصيرة وجد ما شرعه الشارع ﷺ أكثر نوراً وأنساً مما شرعه المجتهدين ، كما أن ما شرعــه المجتهدون أكثر نوراً مما شرعه من بعدهــم على اختــلاف طبقاتــهم وذلك لأن الشريعة هى النور الأعظم وجميع ما زاد عليها مقتبس من نورها . وكلما قرب المقتبس منها كان نوره أضوأ ، ثم ما زال المقتبسون يبعدون عن ما صرحت به الشريعة حتى خفيت مداركهم وجهلت أقوالهم لبعد زمانهم عن نزول الوحى بل ربما خطئوا أصحاب تلك الأقوال ، ولو اتسع بصر الناس لوجدوا جميع أقوال العلماء ترجع إلى الشريعة المطهرة لكن ثم قول قريب ، وقول أقرب ، فالشريعة كالعين الأولى من شبكة الصياد وأقوال علمائها كالعيون المتفرعة عنها إلى دائرة الشبكة الأسفل فكل عين سلكت منها أوصلتك إلى العين الأولى كما هو معروف بين أهل الكشف ، فعلم أن كل من حجب عن شهود تفاضل نور أقوال العلماء

فلينظر إلى قلبه حال فعله لما شرعه الشارع وحال فعله لما شرعه غيره ، فإنه يجد النور والأنس الذى فى قلبه حال فعله لما شرعه الشارع أكثر بيقين ، وكذلك الحكم فيما شرعه المجتهد بالنسبة لما شرعه من بعده ، وهكذا .

وقد أقيمت صلاة الظهر بعد صلاة الجمعة مرة بحضرة سيدى على الخواص، فقال : أين نور هذا الظهر من نور الجمعة ؟ وأين الأنس الذى يجده الإنسان حال صلاة الجمعة من الوحشة التى يجدها مصلى الظهر بعد الجمعة ؟ مع أن إعادة الظهر من جملة الاحتياط فى الدين ، انتهى .

وأعرضه على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تفقدهم تكرار محفوظاتهم فى العلم خوف النسيان

فإن كتب العلم حاوية لما تعبدنا الله تعالى به من أحكام القرآن ، فمن نسيها فكأنه نسى القرآن ، فعليه من الإثم كمثل إثم من قرأ القرآن ثم نسيه [1] . وهذا الخلق قد أغفل به غالب الفقهاء اليوم فضلا عن الفقراء ، فلا تكاد تجد أحداً منهم يكرر محفوظاته لاشتغاله بمطالعة الشروح ، ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد حفظه لمتن كتاب المنهاج مثلا أنفع له من مطالعته فى كتب العلم طول عمره مع نسيانه متن المنهاج ، فإن من حفظ حجة على من لم يحفظ .

ولو نظر فى نفسه لوجد المسائل التى تعرفها من متن المنهاج يقينا أكثر من المسائل التى استفادها من المطالعة ، ولو سئل من يكثر مطالعة العلم بلا حفظ للمتون عن مسئلة ، هل هى ذات قول أو ذات وجه مثلا ؟ لا يهتدى لذلك .

وقالوا : علم الإنسان هو ما يدخل به الحمام .

---

(١) وفى الحديث : عن أبى موسى ﷺ عن النبى ﷺ قال : (تعاهدوا هذا القرآن فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى شقلها) متفق عليه . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المقفلة ، وإن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت) متفق عليه .

وقالوا : ليس بعلم ما حوى النظر ما العلم إلا ما حواه الصدر .

وذكر الغزالى أنه سافر فى طلب العلم من طوس إلى بغداد ، فكتب علما كثيراً ووضعه فى جراب ، فلما رجع به إلى بلده لقيه اللصوص فأخذوا الجراب ، فصار يقول : ردوا علمى وخذوا ما عداه ، فضحك منه اللص وقال : كيف يكون علمك فى الجراب ؟ إنما علمك ما كان فى صدرك ، قال : فأخذت من ذلك ما اعتبرت به وشرعت بعد ذلك فى حفظ العلم حتى لو عرانى اللصوص لم يفارقنى علمى ، انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : ربما أكثر الفقيه من مطالعة الكتب الواسعة فضعفت قوته الحافظة عن معرفة الجواب عن كل ما يسأل عنه على سبيل الجزم به ، فصار علمه كالمشكوك فيه فقل نفعه ، وفائدته ، ولو فتش نفسه لوجد جميع ما يريد تحصيله بالمطالعة دون المسائل التى فى كتابه الذى نسيه انتهى .

وسمعته مرة أخرى يقول : لو تأمل حافظ المنهاج مثلا لوجد نفسه أعرف بالراجح والمرجوح ممن طول عمره يطالع الشروح من غير حفظه للمتون .

ولو أنه قيل لحافظ المنهاج مصلا وهو فى الحمام عريان : هل هذه المسألة ذات قولين : أو ذات وجهين أو هل فيها نص للإمام الشافعى أم هى من كلام الأصحاب ؟ لأجاب عن ذلك بأحسن جواب فى الحال فيسود ذلك الباب فى ذهنه ، ويخبرك بالمنقول فيها ويعرف موضعها من الكتاب بخلاف من لا يحفظ فإنه يقول لك : حتى أخرج من الحمام وأكشف لك عنها .

وكثيراً ما يذكر العلماء مسائل فى غير أبوابها المعقود لها فيصير الذى لا يحفظ المتون تائهاً لا يعرف موضعها ، وربما صار يفتش عليها نحو الشهر حتى يجدها وقد صنف الزركشى رحمه الله كتاباً فى المسائل المذكورة فى غير أبوابها سماه خبايا الزوايا ، واستحضر أنى لما حفظت الروض أطلعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا على أثنى عشر مسألة كان ذكر فى شرحه أنها من زوايد الروض على الروضة ، والحال أنها مذكورة فى الروضة فى غير أبوابها ، فضرب علـــى

قوله أنها من زيادته على الروضة .

وكذلك لما كنت أقرأ على شيخنا الشيخ نور الدين المحلى رحمه الله وكانت المسألة تأتى إليه فلا يدرى جوابها ولا أين هى فى المنهاج فيقول لى : هذه المسألة فى أى باب من المنهاج ؟ فأقول له : فى الباب الفلانى فيكشف عليها ويفتى السائل ، ولو أنه كان يحفظ متن المنهاج لا ستغنى عن سؤالى .

وقد اشتغلت مرة بمطالعة الكتب عن تكرار محفوظاتى فنظرت فإذا أنا صرت أغلط فيها ، فرأيت شيخ الإسلام زكريا بعد مماته وهو ماسك كتاب المنهاج وهو يقول لى : تعالى أسمع لك الذى نسيته من المنهاج ، ثم قال لى : أما علمت أن من نسى كتابه الذى حفظه فى الفقه أو بعضه فهو كمن نسى القرآن بعد حفظه وإن عليه من الإثم مثل ما على من نسى القرآن أو بعضه ؟ فأصبحت واشتغلت بتكراره حتى صرت أحفظه مثل القرآن ، وأعرف متشابهاته كالقرآن .

وممن أدركته من الأشياخ على هذا القدم سيدى الشيخ عبد الحليم بن مصلح وسيدى أبى الفتح الغمرى الذى قيل أنه قطب قبل موته ن فكانوا لا يغفلون تكرار محفوظاتهم ويقولون قد صار علم كل من لا يحفظ المتون فى لسانه لا فى قلبه .

فلا يقدر على إلقاء درس إلا إن طالعه ولو أن علمه كان فى قلبه لا كتفى بما عنده من النور وقرر كلام ذلك المتن أو ذلك الشرح لأنه بلسان عربى وهو طول عمره يطالع فيه فاعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم التصدق بكل ثوب أو عمامة أو قلنسوة أو سراويل أو رداء عَصَوْا ربهم فيه

حتى أن بعضهم يود أن الله يبدله جسماً غير جسمه الذى عصى به ربه ، وبعضهم كان إذا عصى كان يود لو أن الله تعالى يميته لوقته حتى لا يعصيه مرة ثانية إيثاراً لجناب الحق تعالى .

ويعضهم يحلق رأسه وحواجبه ولحيته لأنه هو الذى يمكنه إزالته من جسده بغير ضرر يمنع أنه مخلوق وهذا وإن كان فيه تعظيم لجناب الله فاتباع السنة

الأولى ، وأما التصدق بثيابه التى عصى فيها فهو لا بأس به لأنـــه كالكفـــارة [١] والله أعلم .

ومن أخلاقهم كثرة أجوبتهم الحسنة عن أكابر الحضرة الإلهية

من رسل ، وأنبياء ، وصحابة ، وتابعين ، وأئمة مجتهدين ، وجميع أتباعهم من المقلدين أدباً مع الله عز وجل ، الذين هم فى حضرته على اختلاف طبقاتهم كل منهم على قدر حظه ونصيبه من القرب من شهود الله عز وجل ، وخوفاً أيضاً على أنفسهم من المقت إذا خاض أحدهم فى حق أكابر الحضرة بغير علم ولا إرث لهم فى المقام كما يقع فى ذلك كثيراً من المجادلين .

فيبادر أحدهم إلى الكلام على معنـــى خطيئـــة آدم أو داود عليهمـــا الصـــلاة والسلام ، ويحمل ذلك على حسب ما يتبادر إليه فهمه ، وأين المقام ؟ وأين الحال من الحال ؟

وقد قال الشيخ محى الدين فى شرح ترجمان الأشواق : ليس لنا ذوق فى مقامات الأنبياء حتى نتكلم على أحوالهم وليس لأحدنا من مقامهم الإرث من مقامهم إلا كما يرى خيال النجوم على وجه الماء ، وقد طلب أبو يزيد من الله تعالى أن يدخله مقام نبى من الأنبياء ، فأعطاه الله منه مقدار الشعرة البيضاء من الثـــور الأســـود ، فكـــاد أن يحتـــرق ، وسأل الله الحجاب عن ذلك المقام ، قال: لا طاقة لأمثالنا بدخول مقام أحد من الأنبياء [٢] انتهى .

---

(١) ويقصد الإمام الشعرانى من ذلك بيان شدة ندمهم على أفعالهم السابقة عند توبتهم مما يدعوهم إلى فعل تلك الأمور فإن من شروط التوبة ضرورة الندم عليها .

(٢) ولعله يقصد بذلك الخوض فى سير الأنبياء بذكر أن لهم خطيئة أو إثباتها وهذا من الغلط المبين فإن عصمة الأنبياء قد استدل عليها العلماء بل إننا نرى فى كتب التفسير كالفخر الرزاى دفاع عن الأنبياء وعصمتهم بالأدلة العقلية والنقلية ما يجعلنا نرد كل ما قيل عن الأنبيـــاء من وقوعهـــم فى الأخطاء مما حكته الإسرائيليات الواردة فى الروايات الضعيفة والموضوعة .

وسمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول : لو أن أحداً من هؤلاء المجادلين رأى شخصاً مقرباً عند سلطان أو أمير لأكرمه لأجلـه رجـاء إحسانه أو خوفاً منه [1] ، فالله أحق بذلك من عبيده .

وسمعته أيضاً يقول : يجب على كل مؤمن أن يجيب عن أولياء الله ويحملهم على أحسن المحامل كما يفعل فى المقربين عند أكابر ملوك الدنيا بل الأولياء أولى بالوجوب .

وسمعته أيضاً يقول : من الواجب على كل مسلم الذَبّ عن أعراض الصحابة فضلا عن الأنبياء ، وعن أعراض التابعين فضلا عن الصحابة ، وهكذا لأن هؤلاء هم حماة الدين والقدح فيهم طعن ، فى جميع ما كانوا واسطة لنا فيه ، من الأحكام ، فكان من نسبهم إلى نقص يريد أن يهدم أركان الدين كلها ، وقد لعن الله تعالى من غير حدود الأرض فكيف بمن يغير حدود الدين ؟ انتهى.

وقد من الله تعالى على بحس الأجوبة عن الأئمة ومقلديهم من الفقهاء والصوفية من حداثة سنى إلى وقتى هذا ، حتى ربما ظن بعضهم من كثرة توجيهى لأفعـالهم وأقـوالهم أننـى لا أتقيـد بمذهـب ، والحال أنى مقلد الإمام الشافعى ﷺ وإنما أجيب عن الأئمة من باب حسن الظن بهم ، وكثرة إطلاعى على أدلتهم ، لا تعصباً لهم بغير علم ، معاذ الله أن أقع فى ذلك ، فلكل فعل أو أقول ورد عن نبى أو ولى أو فقيه عندى محمل صحيح بحمد الله تعالى لا تأباه العقول السليمة ، وأرجو من فضل الله تعالى أن كل من أجبت عنه من الأنبياء والعلماء والصالحين يتبسم فى وجهى يوم القيامة إذا رآنى ويأخذ بيدى بخلاف من كان يرمى الأكابر بما لا ينبغى ، ويحملهم على حال نفسه هو ، فربما عبسوا كلهم فى وجهه يوم القيامة ، أو نظروا إليه شزرا أو لم يتبسموا له كل ذلك التبسم أو تبسم المغضب .

وأيضاً وكما وجب علينا حمل آيات الصفات ، وأخبارها على محامـل تليـق

---

(١) ولربما برر له أخطاؤه .

بالبارى جل وعلا ، فكذلك يجب علينا الذبّ عن رسله عليهم الصلاة والسلام وحمله شريعتهم من الفقهاء والمحدثين وغيرهم ، لأن مقام هؤلاء لا ذوق لأمثالنا فيه لحجاب أحدنا من دائرة شيخه الأدنى فضلا عن الأعلى ، ولأن النبوة يبتدى مقامها من بعد نهاية مقامات الأولياء ، فإذا كان لا ذوق لأعلى الأولياء فى مقامات الأنبياء حتى يتكلم عليها على وجه المطابقة فكيف لأمثالنا ذوق فيها [1].

وكان سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لا يجوز لأحد من الأولياء أن يتكلم على مقام نبى إلا بحسب ما ورث من مقامه فقط فإنه محال لولى أن يرث مقام نبى على الكمال . انتهى .

فإن كنت يا أخى وأرثا لأحد منهم فتكلم فى مقامه بحسب الإرث وإلا وجب عليك السكوت خوفاً من دخولك فى مقت الله تعالى بخوضك فى أعراض أهل حضرته بغير علم . وبالله التوفيق .

إذا علمت ذلك فقد أجيب به عن أبينا السيد آدم عليه الصلاة السلام فى أكله من الشجرة التى جعلها الله تعالى لبنيه من بعده ، كالحبة فى الفخ للطائر هو أن تعلم يا أخى أن المراد بقوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ [2] هم بنوه الذين كانوا فى ظهره [3] عليه الصلاة والسلام وبذلك قال جماعة من العلماء نظير

---

(١) قال الله تعالى : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال : (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى ما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنه) رواه البخارى .

(٢) سورة طه آية : ١٢١ .

(٣) يقصد بذلك عصيان بنيه الذين من صلبه .

قوله تعالى فى حق نبينا [١] محمد ﷺ ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [٢] ونحوها من الآيات .

وقال الشيخ عبد العزيز الديرينى ﷺ : لم تكن معصية أبينا آدم عليه الصلاة والسلام حقيقية : وإنما كانت صورية فكأنه يعلم بنيه بصورة ما وقع على يديه كيف يفعلون إذا وقع أحدهم فى معصية ربه عز وجل من التوبة والاستغفار وعدم الاحتجاج بالقضاء السابق الذى لا مرد له [٣] ، فإن آدم عليه الصلاة والسلام قال بعد ما وقع فى الأكل من الشجرة صورة ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [٤] ﴾ ، مع علمه يقيناً بأن ظاهر ما وقع فيه كان بقضاء وقدر لا مرد له ، وأن الله تعالى قدره عليه قبل أن يخلقه من التراب ، ففتح عليه الصلاة والسلام بذلك لبنيه باب التوبة والاستغفار ، وفتح إبليس لبنيه وجنوده بالاحتجاج بالقضاء والقدر والإباية عن السجود باب الشقا والدمار والاستكبار والافتخار ليقضى الله أمراً كان مفعولا .

ولذلك قال تعالى فى آدم عليه الصلاة والسلام : وعصى آدم ربه فغوى وفى إبليس ﴿ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ . [٥]

وفى ذلك حكمة لا تذكر إلا لأهلها مشافهة لأن الكتاب يقع فى يد أهله وغير أهله فاعلم ذلك .

وسمعت سيدى أفضل الدين رحمه الله يقول : كان فى أكل أبينا آدم من شجرة النهى بيان حكم حضرتى الأمر والنهى ، وأن من كمال العبد المؤمن ذوقه لهما ليعرف مقدار الوصل والهجر ، ومن هنا قالوا : إن بنى آدم أكمل فى المقام من الملائكة لأنهم لا يذوقون للنهى طعماً لعدم وقوعهم فيه وعدم ميلهم إليه ،

---

(١) ربما يقصد لنبينا محمد ﷺ .

(٢) سورة الزمر آية : ٦٥

(٣) يقصد بذلك أنها جاءت تشريعا وتعليما لبنى آدم .

(٤) سورة الأعراف آية : ٢٣ .

(٥) سورة البقرة آية : ٣٤.

ففاتهم الأجر الذى جعله الله لبنى آدم فى نظير اجتنابهم النهى [1] ، وفاتهم مقام محبة الله تعالى لهم فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ . [2]

فعلم أنه لو لا ذوق بنى آدم النهى ما عرفوا قدر ما أنعم الله عليهم فى امتثالهم الأمر ، إذ لا يعرف مقدار شئ إلا بضده .

ولو أن آدم عليه الصلاة والسلام لم يأكل من الشجرة الأكل الضرورى لكانت ذريته المؤمنون ناقصين من الأجر والثواب والشكر لله ، وأما هو عليه الصلاة والسلام فكان كاملا فى كل حال والله تعالى رضى عنه فى حال أكله من الشجرة كحال توبته وندمه على حد سواء لأن تلك المعصية كان المراد بها غيره من ذريته لا هو .

وقد أجمع أهل الكشف قاطبة على أن ترقى الأنبياء فى المقامات دائم فلا ينتقلون من حال إلا لأعلى منه وأكمل ، وأن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض كان هبوط كرامة ، وشرف ، وترق فى مقامه ، لأن الأرض هى محل خلافته التى شرف بها ، ولم يجعل الحق تعالى له فى تلك الجنة التى كان فيها خلافة ولا خروج ذرية من أنبياء ولا غيرهم فكان فيها كالعقيم الذى لا ولد له .

وقد امتن الله تعالى على الرسل عليهم الصلاة والسلام بالذرية بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ [3] وأما وصف الحق تعالى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام بأنه حصور فليس ذلك صفة كمال كما قاله الشيخ محى الدين ﷺ ، وإنما هى حكاية عن الحال التى كان عليها . انتهى .

قلت :ويحتمل أن ذلك صفة كمال ليحيى عليه السلام من باب الخصوصية له.

وسمعت سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : لو لم يكن من فائدة هبـوط

---

(١) فإن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . أما الإنسان فإن فى نفسه دائما التنازع بين الخير والشر وهذا سر عظمته عند الله تعالى إذا اجتنب نواهيه وائتمر بأمره .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٢٢ .

(٣) سورة الرعد آية ٣٨ .

آدم عليه الصلاة والسلام إلا كون حسنات جميع بنيه فى صحيفته لكان فى ذلك كفاية فى شرفه لأنه حسنة الولد من حسنات الوالد وليس على الوالد من وزر بنيه شئ . انتهى .

وسمعت بعض أهل الكشف يقول : جميع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان الحق تعالى قد أعلمه به قبل ذلك ، وقال له أنه قد سبق فى علمى خلقك واخراج ذرية من ظهرك فيهم أنبياء ورسل وأولياء وصالحون ومؤمنون وكافرون ومقرون وجاحدون وأرسل رسولى جبريل إلى الرسل من أولادك بكتب وصحف وأحكام وتكاليف .

وكذلك سبق فى علمى أن أخلق لذريتك وغيرهم من الجن دارين اسم إحداهما الجنة والأخرى جهنم فاجعل الجنة للأنبياء والمرسلين ومن أطاعهم وصدقهم وجهنم لكل من خالف كتبى ورسلى ويكون شرفك بذلك ، وسبق فى علمى أن أوقع على يديك صورة ما يقع من بعض بنيك من المعاصى وأعلمك كيف يتخلصون منها إذا وقعوا فيها ، وإن من تاب منهم واستغفرنى وندم قلبه ولم ينقص ذلك من مقامه عندى ولابد لك من حجة أقيمها عليك فى الظاهر وأنادى عليك بالعصيان تقبيحا فى عين بنيك لئلا يستهينوا بمحارمى فاثبت ولا تضجر فانك عندى مصطفى مختاراً .

واعلم يا صفى بأنى كريم ، ولا ينبغى للكريم أن يخرج عبده من جواره إلا بحجة تقام عليه ، ليتميز سيده بالكمال المطلق ، ويتميز نفسه بالنقص المقيد النسبى انتهى .

فلما اعلمه الحق تعالى بما ذكرناه صار عليه الصلاة والسلام مترقباً لخروجه من تلك الجنة إلى دار خلافته ، وليرتب الله تعالى الأسباب على مسبباتها كما سبق فى علمه ، وأيضاً فإن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [1] قال : علمه كل اسم آلهى وكونى حتى

---

(١) سورة البقرة آية : ٣١ .

القصعة والقسية والمقسية والمحراث والطاحون والفأس والقدرة ونحو ذلك مما لا يحتاج إليه أهل تلك الجنة التى كان فيها .

وكان آدم عليه الصلاة والسلام منتظراً خروجه إلى الأرض ليستعمل تلك الأسماء والمسميات فيها ، ويكون آلة فى تنفيذ قضاء الله وقدره فى عباده .

وكان لسان حال الإرادة الآلهية يقول لآدم عليه الصلاة والسلام لا أخرجك من جوارى إلا بحجة تقام عليك ونهى لك من الأكل من الشجرة هو قرب أوان إخراجك من جوارى إلى محل آخر فى جوارى تكون فيه خلافتك ، وقد قدرت عليك الأكل الصورى من الشجرة دون أن آمرك بالأكل منها ، فإن ذلك تصير القبضتين إلى قبضة واحدة وهو خلاف ما سبق فى علمى من جعلهم قسمين شقى وسعيد فإنى أريد المعاصى من عبادى ولا أمر بها أن الله لا يأمر بالفحشاء . وانتهى.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله تعالى يقول مراراً :

كانت معصية آدم عليه الصلاة والسلام صورية لا حقيقية ، فإن الحق تعالى كان قد ألهم آدم من الوجه الخاص الذى بينه وبينه وقال له : إنى أريد أن أبرز ما كان فى مكنون علمى من ترتيب الأسباب على مسبباتها ، واقدر على يديك صورة ما يقع من بنيك السعداء ، دون الأشقياء ولا أؤاخذك بصورة ما يقع على يديك من صورة ما يقع فيه بنوك ، واجعل صورة ما يقع على يديك صورة تقود الأقدار التى لا انتهاك فيها لمحارمى خلاف ما يقع من بعض بنيك ، فكانت المسئلة بمثابة جماعة قال لهم الملك : إنى أريد أن أحدث فى ملكى أمراً وأرتب عليه أحكاماً وأنهى خليقتى عن شئ فى الظاهر وأريد منهم فى الباطن ، واجعل عدم الأذن له فى المنهى إذناً له باطناً ، وكل من كان حاضراً هذا الاتفاق من المقربين أو اطلع عليه من طريق كشفه لم يسم ذلك معصية حقيقة . ومن كان غائباً عن هذا الاتفاق أو لم يكشف له عنه جزم بأنه معصية ظاهراً وباطناً قال : فما ثم إلا مطيع من وجه واحد أو من وجهين وكل من لم يطع الأمر أطاع الإرادة (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبـداً) حتى أن مـن ادعـى

الألوهية من العبيد ما ادعاها إلا بإرادة الله تعالى لـه أن يدع ذلك .

وإن كان الشرع عن نهى الاحتجاج بالإرادة إذا تجردت عن الأمر فإن أحداً لا يطيع ولا يعصى إلا بالإرادة ، ولكن إذا أرادت القدرة الآلهية للعبد امتثال الأمر امتثله لا محالة ، وسمى ذلك العبد مطيعاً لله تعالى ظاهراً وباطناً من وجهين ، لأنه الأمر وافق الإرادة وإن لم ترد القدرة الآلهية للعبد امتثال الأمر ظاهراً لم يصح منه طاعة وسمى عاصياً للأمر مطيعاً للإرادة باطناً .

فعلم أن نداء الحق تعالى على آدم عليه الصلاة والسلام بالمعصية ، إنما هو لأجل المحجوبين عن الاتفاق المذكور لأنهم هم الذين يتعدون حدود الله تعالى ، ويقعون فيها وأما المقربون فهم يعرفون الأمر على ما هو عليه ، ويعلمون إنما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان مراداً به غيره ، وقد يضرب الملك عبده المقرب عنده تخويفاً لبعض العبيد الخارجين عن طاعة الملك برضى منه مع الملك واتفاق على ذلك ليقول الخارجون عن طاعة الملك :

إذا كان هذا فعله فى عبده المقرب فكيف بالعبد المطرود عن حضرته فيتحرك هؤلاء المارقون عن الطاعة لفعلها ويخافون منه أن تركوها فكان آدم عليه الصلاة والسلام فاتحا لباب أحكام الدنيا وحاملا عن بنيه شده الندم والخوف والبكا.

فقد نقل الكسائى أن آدم عليه الصلاة والسلام بكى حتى صار من دموعه بركة عظيمة ومكثت الوحوش والطيور والبهائم يشرب منها مدة ثمانين سنة فكان من فتوته وعزمه وشفقته على بنيه أن تحمل عنهم هذا البكاء العظيم ولولا ذلك لاشتد البكاء والنحيب والندم والحزن على بنيه أكثر مما يقع لهم الآن ، وربما كانوا يتعطلون عن أمر معاشهم فجزاه الله تعالى عن بنيه خيراً [١] .

---

(١) كل هذا دفاع عن عصمة الأنبياء ومحاولة نفى الخطيئة عن سيدنا آدم عليه السلام وهذا يتفق مع الجو الصوفى فى نفى الخطيئة عن الأنبياء صلوات الله عليهم وإثبات العصمة لهم.
يقول الشيخ أبو العباس المرسى ﷺ ، كنت مع الشيخ فى سفر ونحن قاصدون إلى الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن ﷺ ، فلما أحس بى ، قال : أحمد . =

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : أجمع أهل الكشف على أن نداء الحق تعالى على أبينا آدم عليه الصلاة والسلام بالعصيان والغواية ، كان المراد به غيره نظير قوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . (١)

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ (٢) ونحو ذلك ، انتهى .

وقد مر بعض ذلك فمن رحمه الله تعالى بعباده أن جعل فيهم أنبياء وأعطاهم القوة على تحمل صولة خطابه مما لو يحمله غيرهم لهلك وذاب وأيضاً فلما سبق فى علم الله تعالى إعراض العصاة عن أوامر الله .

كذلك أعرض تعالى عنهم بالخطاب وخاطبهم فى غيرهم بغضاً لهم ومقابلة للإعراض بالأعراض وجميع أهل الكشف من المقربين يعلمون من الله تعالى شدة اعتنائه بأنبيائه عليهم الصلاة والسلام وأنه قد عصمهم من الوقوع فى كل شئ يكرهـــه تعالى وأنهـــم ليســـوا بمحـــل لوقوع المخالفات الحقيقية ومن كان كذلك

= قلت : نعم يا سيدى

قال : (آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه الجنة نصف يوم – خمسمائة عام – ثم نزل به إلى الأرض والله ما نزل الله بآدم إلى الأرض لينقصه ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله : (إنى جاعل فى الأرض خليفة) . وما قال فى الجنة ولا فى السماء ، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة ، فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكـــون خليفـــة ، وأنت أيضاً لك قسط من آدم كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة المعارف ، فأنزلت أرض النفس لتعبده بالتكليف ، فلما توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة .

ومما يوضح فكرة الإمام الشعرانى قولنا فى تحديد معنى النبوة : لفظ النبى مأخوذ من الإنباء، فيتضمن هذا معنى الإعلام والإخبار ، لكنه فى عامه موارد استعماله أخص من مطلق الإخبار فهو يستعمل فى الأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة ، كما قال : (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) . =

(١) سورة الزمر آية : ٦٥

(٢) وتمام الآية (يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين) سورة الأحزاب آية : ١

لا يحتاج فى ترك المخلفات إلى نهى فافهم .

وكذلك أجمع أهل الكشف كلهم على أن مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حضرة الإحسان التى يعبد العبد فيها ربه كأنه يراه ، وتلك حضرة لا يصح للعبد أن يعصى ربه فيها أبداً ، فلابد للعاصى من حجاب حتى يقـع منـه المعصيـة ، ولا يصح لعبد أن يعصى ربه على الكشف والشهود بأن الله تعالى يراه أبداً ، فما وقع أحد فى معصية إلا وهو محجوب عن ربه بسبعين ألف حجاب .

وإذا كان الوالى إذا دخل حضرة الإحسان يحفظ من الوقوع فى المعاصى فكيف بمن هو مقيم فيها من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على الدوام .

وكان الشيخ محى الدين بن العربى ﷺ يقول : من أعظم دليل على عصمة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كون الحق تعالـى جعلهـم مشرعـين لأممهـم بأقوالهم، وأفعالهم كلها ، فلو أنه كان يصح من أحدهم معصيـة حقيقـة لصـدق عليهم تشريع الوقوع فى المعاصى ولا قائل بذلك انتهى .

وكان يقول أيضاً قد أجمع أهل الكشف الصحيح على أن الأسباب المانعة للعبد من الوقوع فى المعاصى ، أربعة لا خامس لها : وهى العصمة أو الحفظ أو الحيا والخوف والرجا وهذه الأربعة مجموعة فى كل نبى لله بلا شك انتهى .

قلت : ومن هنا تعرف معنى حديث نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه أى لو قدر أنه لم يخف الله تعالى لكان معه ثلاثة أسباب مانعة من الوقوع فى المعصية وهى عدم التقدير فى علم الله تعالى والحيا والرجا ، وقس عليه بقية

= وقال : (فلما نبأها به قال من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير) .

وجمع النبى أنبياء ؛ وهو من النبأ ؛ وأصله الهمزة وقد قرئ بها ؛ وهى قراءة نافع ؛ يقرأ النبئ ؛ لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل ذلك فى الذرية وفى البرية .

وقد قيل : هو من النبوة بفتح النون وسكون الباء ، وهى العلو ؛ فمعنى النبى : العلى الرفيع المنزلة ؛ والتحقيق أن هذا المعنى لازم للأول ؛ فمن أنبأه الله وجعله منبئا عنه فلا يكون إلا رفيع القدر عليا ؛ وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة إذ يوصف بهذا من ليس بنبى كما قال تعالى : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون)=

الأربعة كما لو قيل نعم العبد صهيب لو لم يستح من الله أو لـم يـرج ثـواب الله أو لم يقدر الله تعالى عليه معصية لم يعصه .

ومما يؤيد قولنا أن معاصى الأكابر تورثهم الاجتباء والاصطفا من غير أن ينقص مقامهم حال وقوعهم فى مسمى المعصية عند الله تعالى ، قول الشيخ أبى الحسن الشاذلى ﷺ :

لو عرف آدم أنه إذا نزل إلى الأرض يعود إلى الجنة بمائة ألف نبى وأربعة وعشرين ألف نبى منهم محمد رسول ﷺ لأكل الشجرة بكمالها .

وكذلك يؤيد ما ذكرناه ما ذكره الشيخ محى الدين بن العربى ﷺ فى الباب التاسع والثلاثين من الفتوحات المكية : من أن هبوط آدم عليه الصلاة والسلام عقب أكله من الشجرة إلى الأرض هو وحوّى لم يكن عقوبة لهما كما وقع لإبليس لعنه الله وإنما كان هبوط شرف فإنه أهبط بالوعد السابق أن يكون هو وبنوه خليفة فى الأرض أى يخلفون الجن والبن الذين كانوا قبلهم فى الأرض وكانوا ملائكة أرضيين .

ولو أنهم كانوا من ملائكة السماء لما قالوا ذلك لعدم ذوقهم للقتل والفساد فى السموات فافهم .

وسمعـت سيـدى عليـا الخـواص رحمه الله يقول : ما بلغنا قط فى كتاب ولا سنة ، أن أحداً من أهل السماء يفسد فيها أو يسفك دم أخيه من الملائكة أبداً بخلاف الملائكة الأرضية لقربهم من أحكام أهل الأرض قال : ثم بتقدير أن معصية آدم المذكورة لم تكن صورية ، فما أنزل إلى الأرض إلا بعد وقوع توبته المقبولة وندمه وبكائه وتلقيه الكلمات من ربه بقوله ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا

= يقول إبن تيميه : وقراءة الهمز قاطعة بأنه مهموز ، وما روى عن النبى ﷺ أنه قال : (أنا نبى الله ولست نبئ الله) فما رأيت له إسناداً ، لا مسنداً ولا مرسلا ، ولا رأيته فى شئ من كتب الحديث ولا السير المعروفة ومثل هذا لا يعتمد عليه .

ويبين رحمه الله أننا إذا اعتبرنا النبى مهموز الأصل ، فإن الهمزة يمكن أن تلين فذلك جائز، فتصير حرفا معتلا ، فيعبر عنه باللفظين ، فترد إليه القراءتين بخلاف المعتل فإنه لا يجعل=

وَتَرْحَمْنَا ﴾ [1] إلـى آخـره تعليمـا لبنيـه أن يعترفـوا بذنوبهم إذا وقعوا فيها ولا يحتجون بالقضاء والقدر فإنه عليه الصلاة والسلام لم يحتج بالقضـا والقـدر بل قال مع علمه بأن ما وقع على يديه بقضاء وقدر لا مرد له ربنا ظلمنا أنفسنا .

فعلم أولاده أدب العبيد مع سيدهم جل وعلا إذا خالفوا أمره بسبق إرادته.

وكان اعترافه عليه الصلاة والسلام فى مقابلة قول إبليس للحق جل وعلا كيف تؤاخذنى على ذنب قدرته على قبل أن أخلق ؟ فسعد آدم باعترافه وشقى إبليس بجداله بغير حق .

وقد بلغنا أن الحق تعالى أدحض حجته بقوله تعالى له : متى علمت إنى قدرت عليك الإباية عن السجود قبل وقوعك فى الإباية أم بعدها ؟

فقال : بعدها .

فقال له الحق جل وعلا : بذلك أخذتك .

وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمه الله يقول : إنما أخبرنا الحق تعالى باعتراف أبينا عليه الصلاة والسلام بالذنب وأعلمنا تعالى بشدة اعتنائه به ، ووعده على ذلك بالاجتباء لنفعل مثل صورة فعل أبينا عليه الصلاة والسلام إذا وقعنا فى الذنب ، ونعترف بذنوبنا ، كما أنه تعالى مـا عرفنـا بمقالـة إبليـس إلا لنحذر من الوقوع فى مثلها عند وقوعنا فى المخالفة لأمر الله بإرادة الله انتهى.

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : أقبح من كـل قبيـح قـول

= همزته ، فيجب القطع بأن النبى مأخوذ من الإنباء لا من النبوة بفتح النون وسكون الباء.
هذا هو التحديد اللغوى لمعنى النبوة ، قد رجحنا فيه أن لفظ النبى مأخوذ من الأنباء ، ففيه معنـى الإخبـار ، لكنـه فى عامـة استعمالاته خاص بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة : اللفظ من النبوة (بفتح النون وسكون الباء) وهو العلو ، فمعنى النبى عندهم : المعلى الرفيع المنزلة والأصح أن هذا المعنى لازم لمعنى الأنباء والإخبار فإن لفظ العلو ورفعة المنزلة قد يوصف بها من ليس نبياً فلا يدل على خصوص النبوة ولا يدل على خصوص صفه النبى أن من كان نبياً كان رفيع الشأن عالى المنزلة ، كما قدمنا . =

(١) وتمام الآية (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) سورة الأعراف آية : ٢٣.

العاصى لربه كيف تؤاخذنى على أمر قدرته على قبل أن أخلق ؟

فكل من اعترف بذنبه ، ولم يحتج على ربه أنسه تعالى يوم القيامة جزاء على أدبه ، وقال له : يا عبدى لا تخف فى هذا اليوم من ذنبك فما كان ذلك فى دار الدنيا إلا بقضائى وقدرى .

قال : وعند ذلك يكاد العبد يطير من الفرح والسرور حين صار الحق تعالى يعتذر عن عبده ، ويقيم له الحجة ، فانظر يا أخى ما أحسن جزاء أدب العبد مع سيده فى دار الدنيا انتهى .

وسمعته أيضاً يقول : لا يعتذر الحق تعالى يوم القيامة إلا عن عباده الموحدين فإياك والغلط .

وكان ﷺ يقول : من ندم على ذنبه واستغفر ربه منه واعترف به فقد صحت توبته لأن الله تعالى لم يقص علينا فى توبة أبينا آدم عليه الصـــلاة والســـلام إلا الاعتراف والندم فلو كان ثم أمر زائد لقصه علينا .

وقول العلماء أن من شروط التوبة الإقلاع وعزم أن لا يعــود إنمـــا أخــذوه بطريق الاستنباط إذ النادم على شئ من لازمه الإقلاع وعزم أن لا يعود انتهى .

وسمعته ﷺ يقول مراراً من زعم أن هبوط آدم وحوّى [1] عليهما الصلاة والسلام من الجنة كان عقوبة لهما فقد افترى إثما عظيماً ، إنما كان والله هبوطهما لزيادة الكرامة والتقريب وليخرج الله من ظهر آدم عليه الصلاة والسلام، وبطن حوى الذرية التى بها يعمر الدنيا كما سبق فى علم الله تعالى .

= على أنه إذا كان هذا هو التحديد اللفظى واللغوى لمعنى النبوة ، فإن أغلب تحديدات معنى النبوة تدور حول هذا ولا تزيد عنه إلا قليلا .

فإن المشهور فى عرف الشرع – كما يقول الإمام الألوسى : – (أن النبى من أوحى إليه سواء أمر بالتبليغ أم لا)

أما صاحب شرح المقاصد على المواقف فيقول : (إن النبوة هو كون الإنسان مبعوثاً من الحق إلى الخلق) =

(١) يقصد سيدتنا حواء رضى الله عنها .

وليكون ثواب طاعات جميع بنيهما فى صحائفهما من الأنبياء والمرسلين وصالحى المؤمنين من غير أن ينقص من أجورهم شئ وأما أوزار بنيهما فليس عليهما منها شئ كما مر ولا يكون الوزر إلا على من تسبب فيه بالقصد .

وقد كان الشيخ أبو مدين المغربى ﷺ يقول : لو كنت مكان أبينا آدم عليه الصلاة والسلام ، وأطلعنى الله تعالى على ما اطلعه عليه من عدم المؤاخذة بما يقع على يديه من صورة ذنوب بنيه لأكلت الشجرة كلها لما ترتب على أكلها من الخير والبركة فإنه عليه الصلاة والسلام كان فاتحاً للقبضة فى حق أولاده لا فى حقه ولذلك لم يتكرر منه الذنب إنما وقع مرة واحدة انتهى فليتأمل .

وكان يقول أيضاً ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام كان كالحتم الواجب وقوعه ، إذ لابد من فاتح يفتح الباب حتى لو لم يقع ما وقع من آدم عليه الصلاة والسلام لكان وقع من غيره لا محالة .

وكان آدم عليه الصلاة والسلام بما وقع فيه ، كالآلة التى تنفذ فيها أحكام القضاء والقدر من غير أن ينقص له مقام بذلك انتهى .

وكان يقول أيضاً : إنما أهبط آدم من الجنة ليتخلق بالذل والمسكنة والحاجة التى هى أعلى أوصاف العبيد فى دار التكليف ، فإن الجنة التى كان فيها ليست بمحل لذلك وإنما محل ذلك الأرض .

وقد بلغنا أن أبا يزيد ﷺ كان يقول : رأيت ربى عز وجل فى المنام .

فقلت له : يا رب بم يتقرب إليك المتقربون .

فقال : بما ليس من صفتى .

فقلت له : يا رب وما ذلك فقال جل وعلا : الذل والانكسار وسيأتى قريباً أن هذا من أعجب الأمور لأن القرب عادة إنما يكون بالتخلق بصفات المحبوب ومن بعد عنها بعد عنه انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إنما نسب آدم الأمر القبيح إلى نفسه يقول : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ الآية ليعلم بنيه الأدب مع علمهم بماء العلم عليه انتهى .

وكان ﷺ يقول : أيضاً قد يجرب الحق تعالى عبده بوقوعه فى الزلة ليرى العبد صدق دعواه العبودية أو كذبه فيها ليرقيه فى مقامات العبودية والرضى عنه فى قضائه .

كما وقع أن إبراهيم بن أدهم ﷺ نام ليلة عن ورده فأصبح حزيناً على ذلك فعوقب بحرمان القيام سبعة أيام ، حتى كاد قلبه يتفطر من الجفا والبعد عن حضرة الله تعالى ،ثم نودى فى سره يا إبراهيم كن عبداً لنا تسترح فإن انمناك نم، وأن أقمناك قم وليس لك فى الوسط شئ وأنا غنى عن عبادة خلقى انتهى .

قال إبراهيم : فمن تلك الليلة ما حزنت على شئ فاتنى إلا من حيث ما فيه من مشاهدة الحق جل وعلا إذ الحق تعالى لا يجالس عبده قط إلا فيما شرعه وأمره به لا غير انتهى .

وكان سيدى عبد القادر الجيلى ﷺ يقول : من كمال أدب العبد مع الحق تعالى أن يشكره إذا أحجبه عن مشاهدته من باب إحسان الظن بربه ويقول لو لا أن فى ذلك مصلحة لى ما حجبنى عنه .

وكان يقول أيضاً : قد يوقع الله تعالى وليه فى الزلة رحمة به إذا خاف عليه ما هو أقوى وأخفى من تلك الزلة كالعجب بعلمه ، والكبر على الناس ، والادلال بعمله على الله تعالى فيتحصل له بذلك غاية التأديب ويصير يستحى من مجالسة الناس ، ويرى نفسه أحقر عباد الله تعالى انتهى .

= أما الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية فيحددها فى معرض كلامه على النبوة يقول :
(أن النبى هو الذى ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأه الله به) .
أما الإمام محمد عبده فيقول : (النبوة تحدد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات ، وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك ، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقدمات عرفانهم ، لكنها لا تخدم إلا ما فيه الكفاية العامة .
إذا نظرنا إلى هذه التعريفات فإننا نجدها لم تخرج عن نطاق التحديد اللفظى للنبوة إلا قليلا ، ولم يخرج عن هذا النطاق سوى الإمام محمد عبده ، حيث تكلم عن أهدافها دون تحديد تعريف لها .
ولكن كيف يتأتى لنا أن نحدد معنى النبوة ؟ =

قلت ومن هنا قال الشيخ تاج الدين بن عطا الله [١] : معصية أورثت ذلا وانكساراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً ، أى بالنظر للأثر المترتب عليهما فإن الله تعالى ما شرع التكاليف إلا ليذل بها نفوس المتكبرين ويزكى بها نفوس المقربين فمن تكبر بعبادته فقد قلب الموضوع وطلب عكس الحكمة فاستحق الطرد والمقت بما يقرب غيره من النفوس الذكية فلو كان عنصر العبد طيباً لم يزدد بالطاعات إلا تواضعاً فاعلم ذلك .

وكان الشيخ محى الدين ﷺ يقول لو لم يكن فى وقع أهل الله تعالى فى الزلات ألا ترك العجب والكبر اللذين يحصلان للمطيعين عادة لكان فى ذلك غاية التأديب لهم ، والاعتناء بشأنهم فإن العجب والكبر هما الذنبان اللذان أخرج بهما إبليس من الحضرة .

وقال فى الباب التاسع والثلاثين من الفتوحات المكية : اعلـم أن الله تعالـى ما قص علينا ما قص من خطيئة أبينا آدم الصورية وما أتبنى على ذلك من توبة

= إن التعريف الذى يحدد لنا معنى النبوة هو التعريف القرآنى ، وهو الذى يخرجنا من هذه الدائرة الضيقة للتعريفات السابقة .

وتبدو لنا أولى الآيات التى يحدد لنا المعنى المراد فى قوله تعالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً ، وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ويقول : (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) ويقول: (وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى). =

(١) هو العارف بالله أحمد بن عطاء الله السكندرى : يقول عنه الشيخ أحمد زروق : هو الشيخ الإمام العالم العارف بالله المحقق الكامل أبو الفصل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسينى بن عطاء الله ، الحذامى نسبا ، المالكى مذهبا ، والإسكندرى دارا ، القاهرى مزارا . توفى بالقاهرة سنة سبعمائة وتسع فى جمادى الآخرة ، وكان أعجوبة زمانه فى التصوف وغيره كما قيل :

حلف الزمان لياتين بمثله ... حنثت يمينك يا زمان فكفر

ويذكر الشيخ زروق من مؤلفاته :

(التنوير فى إسقاط التدبير) (لطائف المنن) (تاج العروس) (مفتاح الفلاح) (القول المجرد فى الاسم المفرد) .

والاجتباء إلا لنظن بالله خيراً إذا زل أحدنا زلة ، ونزل عن مكانه العلى الذى كان يشهده فى نفسه من استشعار القرب من حضرة الله والأنس بـه وأن تلك الزلـة لا تقضى بشقائنا الأبدى ولابد بل يجب علينا أن نظن بربنا الخير أن هبوطنا عن مقامنا الظاهر بين الناس ، كهبوط أبينا آدم من الجنة على حد سواء من حيث ترقينا بالذل والانكسار فى المقامات العبودية إن شاء الله تعالى فإنه ما ثم قرب إلى حضرة الحق جل وعلا إلا بكثرة الذل ، والافتقار ، والانكسار سواء كان ذلك فى العلويات أو فى السفليات إذ الحق تعالى لا يتحيز والقرب منه قرب بالقلوب لاغير .

قال فى موضع آخر : وهذا من أعجب الأشياء أن يكون القرب من المحبوب بالتخلق بضد صفاته كالذلة والافتقار وبعده عن حضرته بالتخلق بصفاته كالكبرياء والعظمة ، وأطال فى ذلك .

ثم قال : فعين هبوط الولى منا عند الزلة ، وما يقوم به من الذلة ، والحياء والخجل هو عين ترقية إلى أعلى مما كان عليه فيه ، لأنه استفاد من وقوعه فى تلك الزلة علما آخر بالله لم يكن عنده قبل ذلك ، وعرف مقدار الوصل الذى كان فيه ، ومقدار الأنس الذى كان يجده فى قلبه من الطاعات كما قالوا : من سبقت له العناية لم تضره الجناية انتهى .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رحمه الله يقول : ما سلط الله تعالى ابليس على عباده المقربين ، إلا ليردهم إلى حضرته إذا شردت قلوبهم منها فقربهم تعالى إلى حضرته بعين ما طرد به أهل شقوته ، وإذا حقت على عبد كلمة الشقاء فما حسناته إلا ذنوب لحبوطها بالكفر بخلاف من سبقت له السعادة ، فإنه كالزرع

= تدلنا هذه الآيات على أن الله يصطفى الأنبياء ويجتبيهم لنفسه ،ويرسم حياتهم قبل ميلادهم؛ فيختار لهم النسب الشريف الذى يميزهم عن غيرهم ويصنعهم على عينه .

يقول رسول الله ﷺ : (إن الله أصطفى من ولد إبراهيم ، إسماعيل ، وأصطفى من ولد إسماعيل ، من كنانه ؛ وأصطفى من بنى كنانة قريش . واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم)، رواه مسلم . =

الذى يميله الريح يمينا وشمالاً ، وأصله ثابت فى الأرض فلا يخلد فى النار موحد لله تعالى وأطال فى ذلك .

ثم قال : هذا حكم زلات أهل الله الذى سبقت لهم منه السعادة والحسنى .

وأما من فقد الذل والإنكسار والتوبة النصوح على الفور وبقى على الإصرار فليس هو من أهل هذا المقام .

قال ونحن إنما نتكلم على زلات أهل الله تعالى إذا وقعت منهم .

أما زلات غيرهم فهم إخوان الشياطين لا يزدادون بالزلات إلا طرداً وبعداً انتهى .

وقال فى الفتوحات فى موضع آخر ، ربما ظن بعض الأولياء أنه يزل عن مقامه العلى بالزلة التى وقع فيها والحال أنه ترقى بها مقام لم يكن ذاقه ، لأن علو مقام الولى إنما هو بزيادة المعرفة والحال وقد زاد من العلم بالله بالذلة والإنكسار ما لم تكن عنده قبل ذلك .

قال : وإنما اخفى الله تعالى عن بعض الأولياء شهود ترقيه بالذلة والانكسار الحاصلين بالذنب ، لئلا يجترئ أحدهم بعد ذلك على المعاصى ، ولا يصير يندم على فعلها فيهلك مع الهالكين .

لذلك كان الحق تعالى يجلس وليه فى مقام الندم والقطيعة حتى يكاد يــذوب

وليس هناك دليل على ما ذكرناه من قبل أكثر من قول الله سبحانه وتعالى عن سيدنا عيسى عليه السلام قبل أن يولد : (وإذا قالت الملائكة : يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه أسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين).

(ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً).

ولعل مما يشرح الآيات السابقة بتفصيل أوسع ذلك الحديث الذى ذكره الإمام البخارى عن كيفية إستدلال هرقل على صدق رسول الله ﷺ وفيه ركز هرقل قبل البعثة ويرجع إلى الحديث فى أول الباب الأول عند تحدثنا عن النصوص التى توجز صفات الرسول ﷺ.

ثم نأتى للجزء الثانى من المنهج القرآنى لتحديد النبوة وهو حالة تلقى الوحى ، فبعد أن يصطفى الله رسله ويربهم ويعنى بهم العناية الكاملة يفاجئهم بتلقى الوحى .

جسمه وقلبه كما وقع لآدم عليه الصلاة السلام ظاهرا من كثرة بكائه وندمه ، ومن نظائر الخلل والتاج من على رأسه والنداء عليه ، بأنه لا يجاورنى من عصانى.

كل ذلك كان منه عليه الصلاة والسلام صوريا أو حقيقياً وحمل ذلك كله عن بنيه فتوة منه عليهم فكانت تلك الدموع الكثيرة فى صورة دموع جميع بنيه الذى يقعون فى الزلات إلى يوم القيامة ، فكان كثرة تلك الدموع ، وذلك البكاء، وشدة ذلك الندم حكاية صورة حال بنيه إذا وقعوا فى الزلة كما مر تقريره مراراً انتهى .

فإن قيل : قد ورد فى الأثر أن آدم عليه الصلاة والسلام لما أكل من الشجرة أسود جسده كله ولو أن المعصية كانت صورية لم يسود جسده .

فالجواب : أنا نقول : أن أسوداد جسده أيضا كان صوريا أيضا لينزجر بنوه عن الوقوع فى معاصى ربهم ويحتمل أن يكون أسود جسده عليه الصلاة والسلام حقيقيا ويكون علامة على سيادته بأكله من الشجرة إذا رجع إلى الجنة التى خرج منها حيث أنها لم تكن محل خلافته ، كما قالوا فى الحجر الأسود فإنه خرج من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بنى آدم فإن بعض العارفين .

قال : معنى قوله فسودته خطايا بنى آدم أى جعلته سيداً بالتقبيل له .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه (التوحيد الخالص) عن مرحلة بدء الوحى ، وهو فى هذه النقطة يسير معنا فى دائرة الإتجاه القرآنى – يقول : فإذا أصبحت نفوسهم – أى الأنبياء – بتربية الله وعنايته أهلا للتلقى ، فاجأها الوحى وهى سائرة ، فى الوادى المقدس وفى البقعة المباركة .

(وهل أتاك حديث موسى) ؟

(إذ رأى نارا فقال لأهله) :

(امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى يا موسى : إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى ، وأنـــا اخترتـــك فاستمع لما يوحى، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى)

وكان أدل شئ على سيادته إذا رجع إلى الجنة لون السواد فكساه الله اللون الأسود لتعلم أهل الجنة أنه سود بهذا اللون ، وبذلك الخروج فكما زاد مقامه بالسواد عما كان عليه فى الجنة .

فكذلك القول فى سواد جسد آدم عليه الصلاة والسلام .

ثم إن ذلك السواد زال عن آدم عليه الصلاة والسلام بصيام الثلاثة أيام البيض كما ورد كان بمثابة نزع من خلع عليه الملك خلعة السيادة بعد أن طاف على الناس بها حتى علموا كلهم بها .

فعلم من جميع ما قررناه أن هبوط آدم عليه الصلاة السلام كان هبوط خلافة وسيادة وتقريب لا هبوط بعد وقطيعة ، بخلاف إبليس كان هبوطه هبوط طرد ومقت وخذلان واكتساب أوزار ، لأن جميع معاصى الجن وبنى آدم فى صحيفته من شرك وكفر ونفاق وغير ذلك .

ومعلوم أن الجنة التى كان فيها مع آدم ليست بدار شرك وكفر ولم تكن معصيته صورية كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام إنما كانت حقيقة لشدة ظلمة قلبه وغلظ حجابه ولذلك خلد فى النار .

ولو أن قلبه كان مستنيراً لما وقع فى الافتخار والمعصية الحقيقية ، ولكان سعد كما سعد آدم عليه الصلاة والسلام .

وقد اختلف العلماء فى إبليس هل يصح أن يسلم والجمهور على عدم وقوع إسلامه ووافقهم أهل الكشف كلهم على ذلك ، إذ لو صح إسلامه فى دار التكليف لتعطلت قضية أهل الشقاء ولم يبق لهم من يوسوس لهم بالمعاصى إذ لا يعصى أحد إلا بواسطته ، فهو الذى يسن الكفر والشرك فى الأرض .

ولو أنه يصح منه إسلام لما دخل النار أبداً .

= فلما قضى موسى الأجل ، وسار بأهله : آنس من جانب الطور نارا ؛ قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً ، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ، فلما آتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ، أن يا موسى ، إنى أنا الله رب العالمين . =

وقد جاءت النصوص القطعية بدخوله النار ، وأنه يخطب فيها لاتباعه ويتبرأ منهم ويقيم الحجة عليهم ، لكن لا ينفعه ذلك التبرى لأنه لم يكن فى دار التكليف فافهم .

كما لا ينفع قوله للكافر إذا وسوس له بالكفر : إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين لأنه خوف نفاق ، فإنه ما وسوس لأحد بالكفـر أو الشـرك ، حتى يصوره فى نفسه ذوقاً على الصورة التى إذا حصلت فى نفس المشرك مثلا ، زالت عنه صورة التوحيد فإذا تصورها فى نفسه على هذه الصورة ، فقد خرج عن التوحيد ضرورة وحصل له بذلك الشقاء الأبدى وإلا فغاية امتناعه من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، أنه عصى أمر الله تعالى وعصيان الأمر مرة واحدة لا تقتضى الخلود الأبدى فى النار وما خلد فى النار إلا بالشرك .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول لو صح توحيد إبليس بقوله : إنى أخاف الله رب العالمين لذهبت صفة الشرك فى العالم ولما وجد المشرك من يحدثه بذلك فى قلبه لانقطاع من يمد المشرك بصفة الشرك .

فعلم أن إبليس مشرك بلا شك ولا ريب ، وهو أول من أشرك بالله ، وأول من سن الشرك فى الأرض ، وهو أشقى العالمين انتهى .

وسمعته كثيراً يقول لأصحابه إياكم أن تقروا أحداً من أهل الشطح على جوابه عن إبليس نظير ما أجبنا به عن آدم عليه الصلاة والسلام ، لأنه لعنـه الله قد أصر على ذنبه ولم يستغفر منه ، ولم يتب ، ثم لو قدر أنه ندم وبكى لم يقبـل منه ذلك لأنه نفاق كما قررناه مراراً انتهى .

= ويفاجئ الرسول ﷺ الوحى وهو فى الغار . وعندنا فى الإسلام الوثيقة الوحيدة فى العالم كله عن كيفية بدء الوحى ، وهى وثيقة تحمل فى طياتها كثيرا من المعانى الخاصة بالنبوة ، وبصفات الرسول ﷺ ، وهى تشير بصراحة ويسر وسهولة إلى كثير من الآيات الدالة على صدق رسول الله ﷺ وخاتم النبيين :

وهذه الوثيقة رويت بشتى الطرق ومختلف الأسانيد ، والقرآن يشير إلى الحالة التى تذكرها بصراحة لا لبس فيها : يقول سبحانه : وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدرى=

وهذا يقع فيه كثير ممن لم يتقيد بالكتاب والسنة ، ولم يسلك على يد شيخ ، وقد جادلنى مرة شخص فى شأن إبليس ، وأورد على قوله ﷺ ، إذا سجد ابن آدم اعتزل الشيطان يبكى وقال : يا ويلى أمر ابن آدم بالسجود فسجد ؛ فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار انتهى .

وقال قوله : يا ويلى ندم منه والندم توبة كما ورد .

فقلت له : لو صح له الندم حقيقة لصارت قبضة الشقا سعيدة ولم يدخل أحد النار وقد وعد الله تعالى بأنه يملاؤها من الجنة والناس أجمعين ، فسكت ، ولم يدر ما يقول .

وقد ضبط جمهور المحدثين قوله ﷺ ولكن أعاننى الله عليه فأسلم بضم الميم أى سلمنى الله من وسوسته مع بقائه مع الكفر ، وبتقدير أن شيطانه أسلم وتوحد فذلك من خصائصه ﷺ على أن كلامنا فى القرين ليس هو فى حق الشيطان الأكبر صاحب المرتبة بإجماع وقد اجتمع بى شخص آخر من أهل الشطح .

فقال لى أن أقول إبليس : ﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ يقتضى جمعه بين الشرك والتوحيد ، فهو يوسوس بالشرك للناس لتنفيذ قضاء الله تعالى فى عباده ، وهو فى نفسه يعلم ويتحقق أن الله تعالى واحد لا شريك له .

فقلت : فى هذا جمع بين الضدين ، وهو محال ، فإنه إذا وجد الشرك خرج التوحيد وبالعكس ، فلا يجتمع توحيد وشرك فى قلب أبداً ولذلك كان الكفار

=ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين).
والوثيقة التى يحدثنا عنها كتابنا (التوحيد الخالص) وردت فى صحيح البخارى : عن السيدة عائشة رضوان الله عليها أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ ، من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه : وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاء الملك فقال : إقرأ قال : ما أنا بقارئ . =

لا يوزن لهم أعمال يوم القيامة ، ولو قالوا لا إله إلا الله فى دار الدنيا لأنهم لم يقولونها عن إيمان ، ولا قالوها لقول الشارع لهم قولهم : (لا إله إلا الله) .

فعلم أن إبليس لعنه الله مشرك بالله ظاهراً وباطناً انتهى .

وكذلك دخل على مرة شخص من أهل الشطح وله تلامذة ومعتقدون فقال: من أين أخذتم الدليل على شقاء إبليس مع قوله ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)]؟

فقلت له : أخذناه من قال تعالى ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [(٢)] فقال : ليس فى هذا دليل له وإنما ذلك لجنوده فقلت له : لولا رضاه بالكفر ما كانوا جنوده والرضى بالكفر كفر انتهى .

= قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ

قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى ، فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم) .

فرجع بها رسول الله ﷺ ، يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنهما ، فقال : زملونى ، فزملوه، حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسى) .

فقالت خديجة : كلا ، والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق ، فانطلت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى – ابن عم خديجة – وكان امرؤ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية إلى ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبير قد عمى .

فقالت له خديجة : يا ابن عم ؛ اسمع من ابن أخيك :

فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله ﷺ ، خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس ، الذى أنزل على موسى ، يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ؟ قال أو مخرجى هم .

(١) وتمام الآية : (فلما كفر قال إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين) سورة الحشر آية : ١٦ .

(٢) سورة الشعراء آية : ٩٥

وقد بلغنا أن إبليس اجتمع بسهل بن عبد الله التسترى ﷺ وحصل بينهما مناظرة من بعد صلاة الصبح ، إلى أن تعالى النهار ، وكان من آخـر ما قـال : يا سهل الله تعالى يقول : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [١] وأنا شئ بلاشك فبأى دليل يقولون أن رحمته لا تناولنى قال سهل : فغصصت بريقى ولم أرد له جوابا وصرت أردد الآية مراراً وولى عنى بعيدا بظهره ثم أننى رأيت الحق تعالى قد أخرجـه بقوله تعالى : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ [٢] إلـى آخـر النسق فناديته تعال خذ جوابك فالتفت إلى متبسماً وقال : لعلك تقول أنه تعالى قيدها بالكتابة للذين يتقون ويؤتون الزكاة إلى أخرها .

فقلت له : نعم : التقييد صفتك لا صفة الحق جل وعلا فإنه يفعل ما يشاء ثم قال يا سهل ليتك سكت فإنك أظهرت لى جهلك وما كنت أظن أنه يبلغ بك الجهل إلى هذا الحد مع شهرتك العظيمة بالعلم والصلاح ولم أرد له جواباً غير ذلك.

ثم قال لى : يا سهل اللعن فى لسانكم ما معناه .

فقلت له : هو الطرد عن حضرة الله عز وجل .

فقال : من كان لا يتحرك إلا أن حركته القدرة الآلهية فكيف طرده .

قال : فقلت له : أنت مطرود عن حضرة الأمر إلى حضرة الإرادة المجردة عن امتثال الأمر ، وتلك لا تقتضى السعادة وإنما تقتضى الشقاء .

فقال : أما تقرأ القرآن .

فقلت بلى .

---

(١) وتمام الآية : (قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ) سورة الأعراف آية : ١٥٦

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

قال : نعم لم يات رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا ؛ ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى .

هذا هو المنهج القرآنى لتعريف النبوة ولنا أن نوجزه فنقول النبوة سفارة بين الله وخلقه يقصد بها صلاح أمرهم؛ وهبة من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يصطفيهم من عباده بعد=

فقال : أما قال لى تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [(١)] وهذا أمر بيقين وما وسعنى إلا امتثال أمره .

قال : سهل : فقلت له : إنما كان ذلك القول لك من الحق جواباً لإقسامك عليه بعزته تعالى لأغوينهم أجمعين ولم يكن ذلك ابتداء أمر منه سبحانه وتعالى ، فإنه تعالى لا يأمر بالفحشاء ، فكان شقاؤك بطلب الغواية للعباد فرد شؤم ذلك عليك كما هو جزاء كل من يطلب السوء للعباد ، فلا يصلح أن يكون ذلك حجة لك.

ثم قال لى : يا سهل كيف تزعمون أنكم أكثر مراقبة لله تعالى منى وأكثر إخلاصاً ولو أن أهل بلد أحدكم قاموا عليه بالنكير ورموه بالعظايم بين المحبين والمعتقدين لتكدر ولم يكتف بعلم الله فيه وأنا جميع الوجود يلعننى ويخزينى ليلا ونهاراً ولا يتغير منى شعرة اكتفاء بعلم الله تعالى فى .

= أن يربيهم التربية الصحيحة التى بها يكونون مؤهلين لتلقى الوحى من الله سبحانه وتعالى فى أى وقت .

ملامح النبوة فى رأى الإمام الغزالى : يقول : فإن وقع لك شك فى شخص معين : أنه نبى أم لا ؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله :

إما بالمشاهدة ؛ أو بالتواتر ؛ والتسامع .

فإنك إذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم .

(١) سورة الإسراء آية : ٦٤ .

ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون (الشافعى) رحمه الله – فقيها ؛ وكون (جالينوس) طبيباً؛ معرفة بالحقيقة ؛ لا بالتقليد عن الغير ؛ بل بأن تتعلم شيئا من الفقه والطب ؛ وتطالع كتبهما وتصانيفهما ؛ فيحصل لك علم ضرورى بحالهما .

فكذلك إذا فهمت معنى النبوة ؛ فأكثرت النظر فى القرآن ؛ والأخبار ؛ يحصل لك العلم الضرورى ؛ بكونه ﷺ ؛ على أعلى درجات النبوة وأعضد ذلك بتجربة ما قاله فى العبادات وتأثيرها فى تصفية القلوب ؛ وكيف صدق فى قوله .

(من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم) ؟

وكيف صدق فى قوله : (من أعان ظالما سلطه الله عليه) ؟ =

قال سهل فقلت له ليس يكدر أحدنا على رميه بالعظايم لمراعاتنا الخلق دون الحق تعالى من حيث حظوظ نفوسنا وإنما ذلك لأننا دعاة إلى الله تعالى ومن هنا أجابت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن أنفسهم لأن كل رسول يطلب براءة ساحته عند قومه ليقبلوا ما جاء به ، وكذلك الحكم فى كل داع إلى الله تعالى يأمر الناس بالخير محبة فى طاعة الله تعالى وهروباً من معصيته ولو أنه أظهر الرضى بالتجريح أو سكت عليه بحضرة أتباعه لربما ظنوا فيه السوء فعدموا النفع به وعدم النفع بهم بخلافك أنت ، فإنك رأس قبضة الشقاء ليس لك قدم فى محبة الله ولا محبة أهل طاعته فسكت إبليس .

ثم قال : يا سهل كيف تزعمون أنكم أنصار نبيكم وحملة شريعته وأنتم ليلا ونهاراً تسعون فى تكذيبه ؟

فقلت له : كيف سعينا فى تكذيبه ؟

فقال : قد أخبر نبيكم أنه لا تقوم الساعة حتى يكثر الزنا والربا وترك الصلاة ومنع الزكاة ويترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير ذلك فأنا أوسوس لهم بفعلها وأزين لهم الوقوع فيها ليصدق نبيكم فيما أخبركم وجميع علمائكم يقولون للناس كلهم لا تقعوا فى شئ من ذلك ومن لازم ذلك تكذيب نبيكم ولو أنه لم يبق للساعة إلا يوم واحد لمنعتم الناس من الوقوع فيما أخبر نبيكم بوقوعه وإن كان فى ذلك تحقيق ما وعد الحق به .

= وكيف صدق فى قوله : من أصبح وهمومه هم واحد (هو التقوى) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة) .

فإذا جربت ذلك فى ألف ، وألفين ؛ وآلاف – حصل لك علم ضرورى لا تتمارى فيه .

فمن هذا الطريق : أطلب اليقين بالنبوة ؛ لا من قلب العصا ثعبانا ؛ وشق القمر ؛ فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده ؛ ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر – ربما ظننت أنه سحر أو تخبيل ؛ وأنه من الله إضلال ؛ فإنه تعالى : (يضل من يشاء ؛ ويهدى من يشاء) .

وترد عليك اسئلة المعجزات ؛ فإن كان مستندا إيمانك إلى كلام منظوم فى وجه دلالة المعجزة ؛ فينجزم إيمانك بكلام مرتب فى وجوه الأشكال والشبهة عليها . =

قال سهل : فقلت له : قد يتعبدنا الله تعالى بحث الناس على امتثال أمره ولم يتعبدنا بحثهم على وقوع معصيته ، وأن كان فى ذلك تحقيق ما وعد الحق به وكما أن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، فكذلك كل من هو تحت طاعته لا يأمر بالفحشاء من ساير الدعاة ، وما يأمر بها إلا من أشقاه الله من اتباعك فأنت ولو قصدت إيقاع العباد فى المعاصى ، لا يصح لك نصرة محمد ﷺ فأنت شقى ولو لزم من وسوستك لهم بالمعاصى تصديق رسول الله ﷺ والأجر والثواب والرضى من الله تعالى داير مع صحة القصد لا مع اللازم .

فإن لازم المذهب ليس بمذهب عند جمهور العلماء ولذلك لم يقل أحد بإشقاء الدعاه إلى الله تعالى حيث كانوا سببا لعصيان العباد وعقوبتهم فى الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [1] فأخبر أنه لولا إرسال الرسل ما عذب أحداً وكما لا يوأخذ الله تعالى الدعاة إلى شرعه باللازم كذلك ، لا يرضى عنك باللازم .

فقال : قطعتنى بالحجة ثم انصرف انتهى كلام سهل ﷺ .

فإياك يا أخى من أن تصغى إلى وسوسة إبليس فإن كلامه كله غرور ومكر بالعبد واستدراج ، فربما استدرج العبد حتى صار يقيم العذر لإبليس ، ويجيب عنه فيستوجب النار بذلك وقد علمت من جميع ما قررناه أنه لا يمكن رفع المعاصى من الأرض أذ لو رفعت لتعطل كثير من حضرات الأسماء الإلهية ، وذلك لا يصح فإنه تعالى سمى نفسه المعز والمذل ، ولا عز إلا بالطاعة ، ولا ذل إلا بالمعصية،

= فليكن مثل الخوارق ؛ وإحدى الدلائل والقرائن فى مجلة نظرك ؛ حتى يحصل لك علم ضرورى لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذى يخبره جماعة بخبر متواتر : لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين ، بل من حيث لا يدرى . ولا يخرج عن جملة ذلك ، ولا بتعيين الآحاد ، فهذا هو الإيمان القوى العملى .

وأما الذوق ؛ فهو كالشاهدة ، والأخذ باليد ، ولا يوجد إلا فى طريق الصوفية ، فهذا القدر – من حقيقة النبوة – كاف فى الفرض الذى أقصده الآن . =

(١) سورة الإسراء آية : ١٥

وإن زلات غير أهل الله تعالى لا تزيدهم إلا طرداً ومقتا لكونهم يأتونها بحكم الغفلة والطبع والميل والشهوة بخلاف زلات أهل الله تعالى إذا وقعت فربما يكشف لأحدهم عن تقديرها عليه فيذوب عظمه وجسمه من هيبة الله عز وجل هروبا من مواطن سخطه فيصير يسأل الله تعالى فى التخفيف عنه وفى كلامهم ليس من يأتى المعاصى وهو يبكى كمن يأتها وهو يضحك .

وكان على الخواص رحمه الله يقول : لو كشف لولى عن تقديره معصيته على تلميذه ، لا يجوز له أن يقول له افعلها بل يجب عليه الصبر وسؤال الإقالة ومحو تلك المعصية فإن الولى ولو بلغ الغاية فى الولاية لا يعرف ما فى علم الحق تعالى وغاية وصوله إلى اللوح المحفوظ ، وذلك معدود من عالم الشهادة لا مـن علـم الغـيب المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ ﴾ (١) .

قال وقد يكون ذلك اللوح الذى طمح بصر ذلك الولى إليه من تمثيل إبليس له فإن الله تعالى قد جعل له قوة التخييل فيخيل للولى سماء وكرسيا وعرشا وغماً بحسب ما يرى قلب يستمد منه فإن أيد الله تعالى ذلك الولى بالتأييد الآلهى أعطاه التمييز بين السما الحقيقية أو الكرسى الحقيقى مثلا ، وبين السما المتخيلة والكرسى المتخيل فيرجع إبليس خايبا وإلا فتنه وأهلكه فقد يكون ما كشف لذلك الولى فى اللوح المحفوظ من معصية تلميذه متخيلا لا حقيقة له ومن هنا حرمت

= أما ابن خلدون ورأيه فى النبوة : فيقول : إعلم أن الله سبحانه ، اصطفى من البشر أشخاصا فضلهم بخطابه.وفطرهم على معرفته ، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده : يعرفهم بمصالحهم، ويحرضونهم على هدايتهم ، ويأخذون بحجزاتهم عن النار ، ويدلونهم على طريق النجاة .

وكان – فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغيبة عن البشر التى لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بواسطتهم ، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم ... قال ﷺ (ألا وأنى لا أعلم إلا ما علمنى الله) ، واعلم أن خبرهم فى ذلك ، من خاصيته وضرورته الصدق ، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة . =

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩

على الولى المبادرة إلى فعل ما كشف له من المعاصى وكل من أمر تلميذه بفعل ما كشف له فهو (   ) [١] من اتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام لأن الرسل متخلقون بأخلاق الله تعالى فافهم .

وكان الشيخ محى الدين رحمه الله يقول : كما أنه تعالى لم يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها ، فيقال قضاها وقدرها ولا يقال أرادها ، بيان كونه لا يريدها ، أن كونها فاحشة ما هو عينها ، وإنما حكم الله تعالى فيها وحكم الله فى الأشياء غير مخلوق كما هو القول فى القرآن العظيم فتوجه الإرادة لا يكون إلا على غير المعصية لا على وصفها بالتحريم الذى هو حكم الله ، فإن ذلك قديم لم يجر عليه الخلق وما لم يجر عليه الخلق لا يكون مرادا للحق تعالى .

قال : فإن الزمنا بذلك فى جانب الطاعات التزمناه ، وقلنا : الإرادة للطاعة ثبتت سمعاً لا عقلا فائبتوها فى الفحشاء ونحن قبلناها إيماناً كما قبلنا وزن الأعمال مع كونها أعراضاً فلا يقدح ذلك فيما ذهبنا إليه لما اقتضاه الدليل انتهى .

وهو أمر دقيق فليتأمل ، وقد تلخص ما قررناه أنه يجب على العبد ؛

= وعلامة هذا الصنف من البشر : أن توجد لهم – فى حال الوحى – غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشى أو إغماء فى رأى العين ، وليست منهما فى شئ ، وإنما هى – فى الحقيقة – استغراق فى لقاء الملك الوحانى ، بإدراكهم المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم ينزل إلى المدارك البشرية ، إما بسماع دوى من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تنجلى عنه تلك الحال ، وقد وعى ما ألقى عليه .

قال ﷺ ، وقد سئل عن الوحى : (أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل إلى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول) .

ويدركه اثناء ذلك من الشدة والغيظ ما لا يعبر عنه .

ففى الحديث (كان مما يعالج التنزيل شدة) .

وقالت عائشة : (كان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليقصد عرقا وقال تعالى : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلاً) . =

(١) كلمة مطموسة فى الأصل .

ولو شهد أنه لا يتحرك إلا أن حرك ، ولا يفعل إلا قدره الله تعالى عليه قبل أن يخلق أن يتوب من كل مخالفة ويقوم بما كلف ، ولا يحتج بالإرادة المجردة عن امتثال الأمر فإنها حجة إبليس وإن من لم يتب طبع الله على قلبه فلا يزداد بالمعاصى إلا مقتاً ، ويكون تطهيره يوم القيامة أن لم يعف الحق تعالى عنه بالنار، كما أن تطهير التائب فى هذه الدار بالتوبة والاستغفار والحمد لله رب العالمين .

ومما أجيب به عن السيد يوسف عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ [1] أى همت به لتقريره على فعل ما تريده منه ، وهم بها ليقهرها بالدفع عنه بشدة وعنف فكان البرهان له من ربه أن الحق تعالى قال له ، فى سر : ادفعها برفق ولطف فإنها امرأة ضعيفة الحال على كل حال لا تحتمل شدة عزمك ، وقوة بطشك بها فهناك ساسها عليه الصلاة والسلام برفق ولطف وعذرها فى شدة شغفها بذلك الجمال العظيم ، فالهم منها ومنه لفظ مشترك والقصد مختلف ، فعلم أنه لا يجوز أن يقال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير معصومين من الهم بالمعاصى كما وقع فيه بعضهم ، فإنهم معصومون من شهوة الميل فضلا عن وقوع الميل .

وإذا كان سليمان الديثلى الذى هو من آحاد أولياء هذه الأمة يقول لى : منذ خمسين سنة ما خطر لى خاطر مكروه فضلا عن الحرام فكيف يكمل الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وكذلك بلغنا عن الإمام الليث بن سعد ﷺ أنه كان يقول : منذ وعيت على نفسى وأنا دون البلوغ ما خطر فى بالى معصية لله قط انتهى .

وكذلك بلغنا من أبى سليمان الدارانى أنه كان يقول ما أتذكر أننى فعلت شيئاً تستحى منه طول عمرى سوى قربى من أهلى انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومما أجيب به عن داود عليه الصلاة والسلام فى خطيئته المشهورة فى نحو

---

(١) سورة يوسف آية : ٢٤ .

وتمامها (ولقد همت به وهم بها لو لا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

حديث كانت خطيئة أخى داود النظر أن المراد به أنه رفع بصره مرة إلى السماء غافلا عن الاعتبار بغير قصد لأن الأكابر من الأولياء ، إذا كانوا يواخذون بكل حركة أو سكون وقعت مع غفلة عن الله تعالى فكيف يكمل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكان أحمد بن رزين يقول : من رفع بصره إلى شئ بغير نية الاعتبار كتبت عليه خطيئة .

وسمعت سيدى شيخ الإسلام زكريا يقول : رفع عمر بن عبد العزيز ليلة بصره إلى السما فحصل فى قلبه قساوة فشكى ذلك لأمه رضى الله عنها .

فقالت : لعلك يا ولدى نظرت إليها على غير وجه الاعتبار والحضور مع الله تعالى ، فإن الله تعالى إذا اعتنى بعبد أخذه بكل حركة أو سكون لم تقع عن حضور أو اعتبار انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : قد أطلق ﷺ النظر فى الحديث فيحمل على ما يليق بمقام الأنبياء ولا يجوز حمله على ما يليق بمقام غيرهم فلما رأينا الحق تعالى أخذ الأولياء برفع البصر مـــع غفلـــة حملنا خطيئة داود عليه الصلاة والسلام على ذلك .

ولذلك ورد فى الحديث أنه لم يرفع طرفه إلى السماء بعد أن عوتب على ذلك حتى مات حياء من الله تعالى أن يرفع بصره إلى قبلة الدعا وإلا ، فهـــو عليـــه الصلاة والسلام يعلم أن الحق تعالى لا يتحيز لكن غض الطرف مطلوب من العبيد بين يدى ربهم عز وجل ، وقد تبع الشرع العرف فى كثير من الأحكام .

قال : ولم يبلغنا فى حديث صحيح ولا ضعيف إن المـــراد بخطيئـــة النظـــر

= ولأجل هذه الحالة فى تنزل الوحى ، كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون له رئى ، أو تابع من الجن .

وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من مظاهر تلك الأحوال : (من يضلل الله فما له من هاد) .

ومن علاماتهم أيضاً : أنه يوجد لهم – قبل الوحى – خلـــق الخـــير والزكـــاة ، ومجانبـــة المذمومات والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمـــة ، وكأنـــه مفطـــور على التنـــزه عـــن المذمومات والمنافرة لها ، وكأنها منافية لجبلته . =

المذكورة فى الحديث نظره إلى امرأة أوريا حين سافر إلى بعض الغزوات ، لأن الأنبياء معصومون عن النظر إلى ما لا يحل ، وإنما جاء ذلك فى بعض نسخ الزبور التى حرفتها اليهود لعنهم الله تعالى ، قصدوا بذلك استحلال أعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وكانوا قد عادوا داود عليه الصلاة والسلام لما تلى عليهم صفة محمد ﷺ التى أنزلها الله فى الزبور وأن كتاب محمد ينزل ناسخا للكتب التى قبله .

وكان الشيخ محي الدين العربى ﷺ يقول : لا يجوز لواعظ أن يتكلم على رءوس الأشهاد ، بما حرفته اليهود على داود عليه الصلاة والسلام ، فإن ذلك يفتح باب الاستهانة بالأنبياء وتجرئ العامة على الوقوع فى النظر إلى ما لا يحل لهم ويقولون : إذا كان داود وهو نبى ، فأين نحن حتى نقدر على منع نفوسنا من النظر .

قال : ولم يأت لنا تفسير الخطيئة بالنظر إلى ما لا يحل فى كتاب ولا سنة ولا عن أحد من علماء الصحابة والتابعين ، وإنما ذلك من تحريف اليهود كما مر انتهى .

فكان بكاؤه عليه الصلاة والسلام حتى نبت العشب من دموعه إنما هو لكونه رفع بصره إلى السما قبل تحرير نية صالحة ويا ليت شعرى أى فائدة فيمن يخوض فى عرض الأنبياء بغير حق ، ويثبت فى حقهم النقائص وآيش [1]- يضره

= وفى الصحيح : أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها فى إزارة فانكشف فسقط مغشياً عليه حتى استتر بازاره ، ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب فأصابه غشى النوم إلى أن طلعت الشمس ، ولم يحضر شيئاً من شأنهم ، بل نزهة الله عن ذلك كله حتى إنه – بجبلته – يتنزه عن المطعومات المستكرهة ، فقد كان ﷺ لا يقرب البصل والثوم ، فقيل له فى ذلك ، فقال : (إنى أناجى من لا تناجون) .

وانظر لما أخبره النبى ﷺ خديجة رضى الله عنها بحال الوحى أول ما فجأه وأراد اختباره.

فلما فعل ذلك ذهب عنه .

فقالت : اجعلنى بينك وبين ثوبك ؟

فقالت : إنه ملك ، وليس شيطان . =

إذا سد عنهم باب المخالفات جملة أما يخاف مثل هذا أن يغضب الله تعالى عليه ، ويمسخ صورته بقلة أدبه مع أكابر حضرته ، ولكن أهل الأدب مع الله ، ومع أهل حضرته قليل فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومما أجيب به عن أيوب عليه الصلاة والسلام فى قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) ولم لا كان دام على صبره فإنه أعلى كما قيل بل وقع من بعض الأولياء أنه قال : اللهم إن كان فى هذا رضاك فزدنى منه ، فإذا كان هذا يقع من بعض الأولياء فالأنبياء أولى بذلك .

والجواب اللائق بأيوب عليه الصلاة والسلام أن قوله رب إنى مسنى الضر أعلى من دوامه على التجلد والصبر ، لأن العبد كلما ترقى فى مراتب الكمال والقرب ضعفت نفسه حتى ربما صار يتألم من قرصة البرغوت ، ويعجز عن حمل قميصه فكان من جملة اعتناء الحق تعالى بنبيه أيوب عليه الصلاة والسلام أنه حبسه فى مقام التجلد والصبر ، حتى ينيله أجر الصابرين .

= ومعناها : أنه لا يقرب النساء : وكذلك سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها .

فقال : البياض والخضرة .

فقالت : إنه الملك .

يعنى : أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة ، والسواد من ألوان الشر والشياطين، وأمثال ذلك ومن علاماتهم أيضاً : دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة والصدقة والعفاف. وقد استدلت خديجة رضى الله عنها على صدقه ﷺ بذلك ، وكذلك أبو بكر ، ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه .

وفى الصحيح أن هرقل – حين جاءه كتاب النبى ﷺ يدعوه إلى الإسلام – أحضر من وجد ببلده من قريش ، وفيهم أبو سفيان ؛ ليسألهم عن حاله . فكان – فيما سأل أن قال : بم يأمركم ؟ فقال أبو سفيان : بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف ، إلى أخر ما سأل فأجابه فقال: إن يكن ما تقول حقاً فهو نبى ، وسيملك ما تحت قدمى هاتين .

والعفاف الذى أشار إليه أبو سفيان هو العصمة ، فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى =

(١)= يقصد أى شئ .

(١) وتمام الآية : (وأيوب إذ نادى ربى إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمـين) ؛ سـورة الأنبياء آية : ٨٣ .

ثم أنه نقله منه إلى مقام الرضى ، حتى صار يتلذذ بالبلاء لينال بذلك أجر الراضين .

ثم رده بعد ذلك إلى التألم بالمرض لكن مع الصبر من غير مقاومة القهر الآلهى كما كان فى بداية أمره قبل رقة حجابة اللائق به ، فإنهم قالوا : شدة الصبر على البلايا إنما هو من قوة النفس وكبرها وإظهارها القوة ، ومقاومتها للقهر الآلهى .

ثم إذا صفت ورق حجابها مالت إلى الضعف وألقت السلاح .

وقد سئل محمد بن على الحكيم الترمذى (١) ﷺ عن حقيقة هؤلاء الخلق ؟

فقال : ظاهر ودعوى عريضة انتهى .

فعلم أن صبر العبد على البلاء كمال بالنسبة لمقام العامة ، الذين لا صبر عندهم ، نقص بالنسبة لما فوقه من المقام الآخر الذى هو أساسه الأصلى كما أن التألم بالبلاء أعلى من التلذذ به ، لأنه إذا تلذذ به خرج عن كونه بلاء ، وصار من قسم النعم فالواجب على العبد فيه الشكر لا الصبر والله أعلم .

= الدين والعبادة دليلا على صحة نبوته ، ولم يحتج إلى معجزة ، فدل على أن ذلك من علامات النبوة !!

ومن علامتهم أيضاً : أن يكونوا ذوى حسب فى قومهم .

وفى الصحيح : (ما بعث الله نبياً ، إلا فى منعة من قومه) .

وفى رواية أخرى : (فى ثروة من قومه)

استدركه الحاكم على الصحيحين . =

(١) هو أبو عبد الله محمد بن على الترمذى : نسبة إلى ترمذ ، قال الحافظ ابن النجار فى تاريخه : كان إماما من أئمة المسلمين ، له التصانيف الكثيرة فى التصوف وأصول الدين ومعانى الحديث .

وقال الكلاباذى فى (التعرف) هو من أئمة الصوفية ، وقال ابن عطاء الله : كان الشاذلى والمرسى يعظمانه ويقولان : هو أحد الأوتاد الأربعة .

ومن حكمه : إذا سكنت الأرواح بالسر ، نطقت الجوارح بالبر ، وقال : ما صنفت حرفا عن تدبير ، ولا لينسب إلى شئ منه ولكن كان إذا أشتد على وقتى أتسلى به .

ومما أجيب به عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام حين أمطرت السماء الذهب فصار يحثو فى ثوبه منه .

وقال : له الحق تعالى يا أيوب ألم أكن أغنيتك عن مثل هذا ؟

فقال ؟ بلى يا رب ولكن لا غنى بى عن بركتك .

أعلم يا أخى أن كمال العبد إنما هو : بإظهار الحاجة والفاقة لربه عز وجل فأراد أيوب عليه الصلاة والسلام بحثوه الذهب فى ثوبه إظهار كثرة الفاقة إلى فضل ربه عز وجل .

وذلك أكمل ممن قنع ورضى باليسير من الدنيا ، لإظهاره قلة الحاجة إلى ربه، ومارد من رد الدنيا من الأكابر إلا خوفاً على قومه أن يقتدوا به فى ذلك فيهلكوا ولا يعرفون كيف يتخلصون كما رد نبينا ﷺ جبال الذهب والفضة لما عرضها عليه جبريل بإذن الله فاحتاط لأمته ﷺ شفقة عليهم ، وإلا فاعتقادنا أنه ﷺ لا يشغله عن الله شئ من الكونين ، ويصح أن يحمل حثه الذهب فى ثوبه لما نزل من السماء على تبركه به لكونه قريب عهد بتكوين ربه ، كما قالوا فى المطر إذا نزل أول السنة أو غيره .

ولا يجوز حمله عليه الصلاة والسلام على أنه إنما حثى الذهب فى ثوبه محبة فى الدنيا فإن ذلك لا يجوز فى حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأنه إذا كان المريد فى طريق القوم لا يصح له قدم فى طريق أهل الله تعالى حتى لا يصير له ميل إلى شئ من الدنيا وشهواتها ، ويتساوى عنده الذهب والتراب .

فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقد قررنا غير ما مره أن للعبد ثلاثة أحوال :

الأول : أن يحبها بحكم الطبع ويحب جمعها وعدم إنفاقها فى مرضات الله وهذا مذموم شرعاً .

الثانى : أن يخرج حبها من قلبه فلا يصير عنده ميل إليها ويتساوى عنده الذهب والتراب على حد سوا وهذا أكمل بالنسبة للحال الذى قبله .

الثالث : أن يحب الدنيا بتحبيب الله تعالى من مال وولد وجاه وزوجة لا بحكم

الطبع فيجمعها وينفقها فى سبيل الله ، ويعف بها نفسه عما فى أيدى الخلائق، ويتخلق بالأدب مع الله تعالى الذى عظم الذهب فى قلوب عباده مثلا على غيره ، فيعظمه على التراب لئلا يخطى الحكمة الآلهية ، ويفوز أيضاً بلذة خطاب الله عز وجل له ، بقوله : ﴿ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ (١) ، لأنه تعالى لم يخاطب بذلك إلا أهل الجدة وأصحاب الأموال ، دون العباد والزهاد المجردين عن الدنيا ، ففاتهم لذة مجالسة الحق تعالى حال خطابه لهم ، وما ذمت الأمور بالأصالة إلا أن كانت تحجب عن الله تعالى .

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام مقامهم منزه عن تعاطى شئ يحجبهم عن الله تعالى كما سيأتى فى الجواب عن سليمان عليه الصلاة والسلام .

ونظير ماوقع لأيوب عليه الصلاة والسلام ما ورد فى السير أن رسول الله ﷺ قسم مرة ذهباً .

وقال لعمه العباس : يا عم خذلك ما شئت من هذا الذهب فحثى فى بردة شيئاً لا يستطيع أن يحمله فصار يعالج نفسه فى حمله فلا يستطيع .

وصار النبى ﷺ ينظر إليه شزراً فيجب حمل ذلك على أن العباس ، إنما فعل ذلك إظهاراً للفاقة والحاجة ، لأن مثل العباس لا يجوز حمله على محبة الدنيا على الوجه المذموم .

وأما قوله تعالى : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (٢) أى لله فيحب الدنيا لإنفاقها فى مرضات الله ، ويحب الآخرة لكونها داراً يشاهد فيها ربه

= وفى مساءله هرقل لأبى سفيان كما هو فى الصحيح قال : (كيف هو فيكم) ؟ قال أبو سفيان : (هو فينا ذو حسب) .

ومعناه : أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفار ، حتى يبلغ رسالة ربه ، ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته =

(١) وتمام الآية (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسنا يضاعف لهم) سورة الحديد آية ١٨ فقال هرقل : (والرسل تبعث فى أحساب قومها)

(٢) سورة آل عمران آية : ١٥٢ .

عز وجل إذ لذة نعيم الأكل والشرب والجماع وغير ذلك إنما هى بحكم التبع لمشاهدة الله عز وجل لا بحكم القصد الأول عند الأكابر .

وكان نظر النبى ﷺ للعباس شزراً ليقبح الدنيا فى أعين المحجوبين عن مشهده ﷺ ، وإلا فهو محب لفعل العباس راض عنه لصحة مشهده ولو قدر أنه لم يكن هناك إلا من تعرف مشهده من الأكابر كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما لم ينظر إلى عمه شزراً فافهم .

وكذلك يحب استثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قوله تعالى فيما نسخت تلاوته : لو أن لأبن آدم واديين من ذهب لابتغى ثالثاً ، ولو أن له ثالثاً لا بتغى رابعاً ، ولا يملأ عين إبن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب ، فإن الإجماع قد انعقد على زهد الأنبياء فى الدنيا ، فكيف يبتغى أحدهم الزيادة منها وأيضاً فإن الآدم هو ظاهر الجلد فكأنه تعالى يقول لو أن لبنى الدنيا الذين قصروا أعينهم على شهودها ولم يخرق بصرهم إلى الآخرة ونعيمها واديان من ذهب لابتغوا ثالثاً لحجابهم عن الآخرة .

وقد خرج إبراهيم بن أدهم وغيره من الملوك عن الدنيا اختياراً .

فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكلام الله تعالى فى غاية البلاغة والتحقيق ، وما من عام إلا ويقيده التخصيص ، إلا أن أجمع العلماء على عدم تخصيصه وعدم إخراجه عن عمومه فأعلم ذلك فإنه نفيس .

ومما أجيب به عن سليمان عليه الصلاة والسلام فى قوله : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ﴾ [1] هو أنه اطلع من طريق كشفه أن جميع من يأتى بعده من الأنبياء كلهم زهاد لا ينبغى لهم هذا الملك الذى سأله لعلو مقامهم فكأنه فهم إنما طلبه من الملك أمر يفنى فلم يرضه لمن بعده من الأنبياء ، وثم مقام يقتضى سؤال العبد ربه أن يعطيه الدنيا ، كما أنه ثم مقام يقضى طلب العبد رؤية ربه ، كما وقع لموسى .

---

(١) وتمام الآية (قال : رب أغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب) سورة ص آية : ٣٥

وسمعت سيدى عليا الخواص ﷺ يقول مراراً :

سبب سؤال سليمان عليه الصلاة والسلام الملك إنما هو إظهار للفاقة والحاجة ، كأنه عليه الصلاة والسلام يقول : أنا محتاج إليك يا رب بحيث يعم حاجتى ، كلما طلبت ملكه منك يعنى استخلافى فيه ، وكلما عظمت حاجة العبد وفاقته إلى سيده كلما علا مقامه وازداد به تقريباً من ربه عز وجل .

فما ازداد سؤاله الملك إلا فقراً ، وذلك مطلوب للأكابر ، وإلا فمحال أن يسأل نبى ما يحجبه عن ربه وينقص به مقامه (1) فإن ذلك سفه يجب تنزيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عنه .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إنما طلب السيد سليمان الملك، ليعترف لله تعالى بنعمته الكثيرة ويزداد شكراً ، وكأنه يقول لك الفضل يا رب على بعدد ذرات الوجود كلها لأنى محتاج إليها كلها انتهى .

وسمعت أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : كلام السيد سليمان فى غاية الأدب والصدق لأنه نكر قوله ملكا فلم يخص شيأ فى طلبه وقال لا ينبغى لأحد من بعدى أى لأن ما يعطيه الله للعبد من الملك ما هو عين ما يعطيه لعبد آخر لابد فيه من زيادة ونقص فى كبر المنة وصغرها وطول عمر ذلك وقصره ، حتى لو سقطت ورقة من شجرة أو شعرة من رأس مملوك له ، خرج عن كونه مثله لأن المثلية فى الوجود منقولة غير معقولة ، إذ لو كانت معقولة ما يميز شئ فى الوجود عن شئ ، ولكان عين زيد هى عين عمرو فافهم (2).

---

(1) فإن الأنبياء فى رفعة دائمة .

(2) يقول القاضى ناصر الدين البيضاوى فى تفسير آية (قال رب أغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) :

لا يتسهل له ولا يكون ، ليكون معجزة لى مناسبة لحالى ، أو لا ينبغى لأحد أن يسلب بعد منى هذه السلبة ، أو لا يصح لأحد من بعدى لعظمته ، كقولك : لفلان ما ليس لأحد من الفضل والمال على إرادة وصف الملك بالعظم ، لا أن لا يعطى أحد مثله ، فيكون مناسبة تقديم الإستغفار على الاستيهاب لمزيد اهتمامه بأمر الدين ووجوب تقديم ما يجعل الدعاء =

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ما قال سليمان عليه الصلاة والسلام : (هب لى ملكاً) حتى كشف له أن تسخير الريح والشياطين لا يقع لأحد بعده من الأنبياء فما سأل إلا عن أمر محقق يكون له من باب الفضل والمنة ، وإلا فهو يعلم أن أحداً لا يملك مع الله شيئاً فى الدارين انتهى .

فى القرآن العظيم ﴿ كَلا إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (١) فما ذم الحق تعالى الغنا إلا لمن كان يحجب به عن الله عز وجل ويطغى به عن مقام عبوديته .

وأما من يشهد فاقته وحاجته كلما كثرت الدنيا عليه فذلك محمود ، بل كلما ازداد الولى ما لا كلما ازداد فقراً وحاجة فى مشهده ، فاعلم ذلك .

ومما أجيب به عنه أيضاً فى قوله ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ (٢) ﴾ أن مراده عليه الصلاة والسلام أنه أحب الخيل حين عرضت عليه بالعشى لكن ليس ذلك الحب لذاتها وإنما هو لكونها هدية من ربه إليه وقريبة عهد بإرسالها إليه .

كما ورد عنه ﷺ فى المطر حين اغتسل منه وقال : إنه حديث عهد بربه وكانت الخيل مذكرة لسليمان بربه لأنها نعمة منه إليه ولذلك أحب مشاهدتها ولما توارت عنه بالحجاب ، وكان نسى أنه يتبرك بها على عادة الملوك مع سيدهم تعظيماً وإجلالا له ولنعمته فلذلك قال : ردوها على لأشاهدها ثانياً فلما ردوها عليه طفق يمسح أعناقها ويسوقها بيده تبركا بخير ربه ، وليس المراد أن الخيل أشغلته عن صلاة العصر ، حتى توارت عنه الشمس بالحجاب ، وأن الشمس ردت عليه بعد غروبها هكذا ذكره بعض العارفين ، وقال : ليس الضمير فى ردوها على للشمس ولا ثم ما يدل عليه ، قال : إنما قلناه أولى مما قاله غيرنا من أنه

=بصدد الإجابة .

(١) سورة العلق آية : ٦

(٢) وتمام الآيات : (ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ، إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد ، فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب ، ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق ، سورة ص الآيات : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

قطع أعناق الخيل وسوقها بالسيف فإن ذلك سفه ، وإتلاف مال لا يليق بالأنبياء ، أو يحتاج إلى تأويل أنه لما تعارض عنده مصلحة دينه ومصلحة دنياه قدم مصلحة دينه ، وذلك مقام دنى بالنسبة لمقام الأنبياء فإنه إذا كان بعض الأولياء لا يشغله عن الله شئ فى الكونين فكيف أشغلت الخيل نبياً رسولا عن عبادة ربه هذا بعد من العبد [1] .

ومما أجيب به عن نبينا محمد ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [2] مصدرين ذلك بما أجاب به غيرنا ليستفاد فقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة .

أحدها ما قاله بن عباس وغيره : إن الله تعالى غفر لمحمد ﷺ ما تقدم من ذنبه قبل النبوة وما تأخر بعدها .

ثانيها إن معنى الآية : ما وقع ، وما لم يقع على طريق الوعد بأنه مغفور له .

---

(١) لعله يقصد بعد من العبد .

وهناك بعض المفسرين الذين يفسرون هذه الآيات بأنه قطع أعناق الخيل ولكن الصحيح والمعتمد عند الجمهور أنه أخذ يمسح على أعناقها تكريما لها وبراً بها ولعل حديث (الخيل فى ركابها الخير إلى يوم القيامة) يؤيد ذلك .

(٢) وتمام الآية : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما) سورة الفتح آية : ٢

يقول الإمام الألوسى : (ليغفر لك الله) مذهب الأشاعرة القائلين بأن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض أن مثل هذه اللام للعاقبة أو لتشبيه مدخولها بالعلة الغائبة فى ترتبه على متعلقها وترتب المغفرة على الفتح من حيث أن فيه سعيا منه ﷺ فى إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب واقتحام موارد الخطوب ، والسلف كما قال ابن القيم وغيره يقولون بتعليل أفعاله عز وجل وفى شرح المقاصد للعلامة التفتازانى أن من بعض أدلتهم – أى الأشاعرة ومن وافقهم على هذا المطلب يفهم أنهم أرادوا عموم السلب ومن بعضها انهم أرادوا سلب العموم ، ثم قال : الحق أن بعض أفعاله تعالى معلل بالحكم والمصالح وذلك ظاهر النصوص شاهدة به وأما تعميم ذلك بأنه لا يخلو فعل من أفعاله سبحانه من غرض فمحل بحث وذكر الأصفهانى فى شرح الطوالع فى هذه المسألة خلافا للمعتزلة وأكثر الفقهاء . =

ثالثها قول سفيان الثورى : ما تأخر هو ما لم يعلمه .

رابعها : فهو أنه المتقدم والمتأخر معاً ما كان قبل النبوة .

خامسها : هو تأكيد للمبالغة كما تقول أحسن لمن عرفك ولمن لم يعرفك .

سادسها : ما تقدم من ذنبك يعنى ذنب أبيك آدم عليه الصلاة والسلام وما تأخر من ذنوب أمتك .

سابعها : إن المعنى لو كان لك ذنب قديم أو حديث لغفرته لك هذا ما بلغنى عن العلماء من الأجوبة .

وأما جوابى أنا بحسب فهمى وأرثى منه ﷺ ، فهو أن المراد بذنبه ﷺ ما لزم من إرساله من تعذيب من خالفه من الكفار والمسلمين ، فأضيف ذلك إليه من حيث تشريعة ﷺ له ، إذ لولا تشريعه الحرام وبيانه للأمة ما عذب الله تعالى منهم أحداً عليه قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ولما كان من

= وأنا أقول : بما ذهب إليه السلف لوجود التعليل فيما يزيد على عشرة آلاف آية وحديث وإلتزام تأويل جميعها خروج عن الإنصاف وما يذكره الحاضرون من الأدلة يدفع بأدنى تأمل كما لا يخفى على من طالع كتب السلفيين عليهم الرحمة .

وفى الكشاف لم يجعل الفتح علة للمغفرة لكن لإجتماع ما عدد من الأمور الأربعة وهى المغفرة واتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل :

يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك لتجمع لك بين أعز الدارين وأغراض العاجل والآجل وحاصله كما قال العلامة أن الفتح لم يجعل علة لكل المتعاطفات بعد اللام أعنى المغفرة وإتمام النعمة والهداية والنصر بل لاجتماعها ويكفى فى ذلك أن يكون له دخل فى حصول البعض كاتمام النعمة والنصر العزيز وتحقيقه كما قال : إن العطف على المجرور باللام جار ومجرور على جار ومجرور وقد يكون للإشتراك فى معنى اللام كجئتك لتستقر فى مقامك وتفيض على من إنعامك أى لإجتماع الأمرين ويكون من قبيل جاءنى غلام زيد وعمرو أى الغلام لهما .

واستظهر دفعا لتوهم أنه إذا كان المقصود البعض ، فذكر الباقى لغو أن يقال : لا يخلو كل منهما أن يكون مقصوداً بالذات وهو ظاهر أو المقصود البعض ، وحينئذ فذكر غيره إما توقفه عليه أو لشدة ارتباطه أو ترتبه عليه فيذكـر للإشعار بأنهما كشئ واحد كقوله تعالى =

(١) سورة الإسراء آية : ١٥ .

مرتبة الأكابر أنهم يؤاخذون نفوسهم بما كانوا سبباً فيه وإن لم يقصدوه طمن الله قلب نبيه ﷺ وأخبره بأنه تعالى لا يؤاخذه من حيث كونه كان سبباً فى شقاوة من خالفه يلازم رسالته ، فهو مظهر لما سبق فى علم الله من شقـاوة مـن شقـى، وإلا فليس بيد عبد أن يشقى غيره بإجماع فلما تأمل ﷺ فيما لزم من رسالته من تعذيب من حق عليه الشقاء من أمته خاف من المؤاخذة بذلك فأخبره الحق جل وعلا بأنه غفر له ذلك ولا يؤاخذه به .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول مراراً : من مرتبة الأكابر الاستغفار مما لعله يقع فى المستقبل ، فإذا توهم أحدهم ذلك استغفر منه قبل وقوعه ، وقد فسر العلماء الغفر بأحد شيئين : إما المسامحة بالذنب بعد وقوعه ، وإما الحيلولة بين العبد وبين الذنب فلا يقع ، واللايق بالأنبياء الثانى دون الأول لعصمتهم ، وإيضاح ما قلناه من أن المراد من الذنب المغفور ما لزم من رسالته هو أن تعلم يا أخى أن كل داع إلى الله تعالى مأجور بالأصالة سواء أطاعه قومه أو خالفوه وليس قصد أحد من الدعاة إشقاء أحد من قومه ، فهو وإن لزم من رسالته إشقاء من خالفه فهو غير مؤاخذ بذلك ، وأيضاً فإن لازم المذهب ليس بمذهب عند الجمهور ، ولا يؤاخذ العبد إلا بما قصده كما هو مقرر فى الفقه ، فالداعى وإن خالفه قومه فهو مأجور بسبب مخالفتهم ، كأجر من أصيب فى ولده وأصحابه فمعنى الآية :

ليغفر لك الله ما تقدم من مؤاخذة قومك بسبب رسالتك فى حال حياتك ، وبعد وفاتك فطمن قلبك فإنك غير مؤاخذ بما وقع فيه أمتك من مخالفة شرعك ، ولك من حيث نيتك أجر كل من أطاعك ، وكل من عصاك لأنك تود الخير للناس كلهم وليس عليك من أوزارهم شئ ، فعلم أن الداعى إلى الله لا يثاب من حيث من عصى أمره إلا من حيث النية فقط لامتناع وقوع الطاعة من أهل هذا القسم هذا

= (أن تضل إحداهما فتذكـر إحداهمـا الأخـرى) وقولك: أعددت الخشب ليميل الحائط فادعمه ، ولازمت غريمى لأستوفى حقى وأخليه ، وظاهر كلام الزمخشرى أن المقصود فيما نحن فيه تقليل الهيئة الإجتماعية فحسب ، فتأمـل لتعرف أنه من أى الأقسام هو . =

ما ظهر لى فى الجواب عن سيد الخلايق أجمعين ، الذى لولاه ما خلق الله تعالى لا علوا ولا سفلا ولا جنة ولا نارا ، ومقصودنا بالأجوبة عن الأنبياء إزالة ما يتوهمه أصحاب القلوب المحجوبة عن حضرة الله ، ومن أهلها وإلا فطينة الأنبياء لا تقبل أن يصدر عنها شئ يكرهه الله تعالى أبداً ، وإذا تعارض عند المؤمن أمران أحدهما فيه ريبة فمن الواجب عليه أن يذهب إلى ما لا ريبة فيـه نظيـر ما قررناه فى صفات الحق جل وعلا التى توهم التشبه فإن ذلك لا يصـح ، وقـد أجمعوا على أنه لم يأت لنا فى كتاب ولا سنة شئ يكون نصاً فى التشبيه أبـداً ، إنما يحتمل ذلك عدة معان فيضاف إلى كل ذات بما يليق بها ، وحمل ذلك فى جانب الحق تعالى كما هو فى جانب الخلق جور على اللفظ فإذا سمعنا حديث : (قلب المؤمنين بين إصبعين من أصابع الرحمن) حملناه على النعمة ، وتنبيه الإصبـع إشـارة لنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، فلا شئ يحمل الإصبع فى جانب الحق كما هو فى جانب الخلق ، حتى يحتاج إلى التأويل ولم لا حملوه ببادى الرأى على مـا يلـيق بالحق جل وعلا ، فعلم أن الذب عن أكابر حضرة الله تعالى طلباً لرضى الله عز وجل واجب وهذا الذى جنحنا إليه من أن المراد بذنبه ﷺ ما حدث من رسالته بحكم اللازم وجه مضى لا أشكال فيه ، هو نظير ما قاله أبو القاسم الجنيد فى معنى حديث : (إنه ليغان على قلبى فاستغفر الله تعالى فى اليوم والليلـة أكثـر من سبعين مرة) وهو أن المعنى أنه ليغان على قلبى بسبب ما يقع فيه أمتـى من بعدى من الفتن والحروب ومخالفة شريعتى فاستغفر الله تعالى لهم أكثر مـن سبعين مرة بحسب ما يخطر على قلبى ذكرهم .

وليس فى الحديث ما يستدل به على أن الغين الذى يقع لقلبه الشريف من الذنب يقع هو فيه فتأمل والزم الأدب ولا تخض فى حق الأنبياء إلا بخير ، وإذا كان الله تعالى يمقت من وقع فى حق أحد من الأولياء ، فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وفى الحديث : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين) فيشترط فى كمال الإيمان أن يزيد فى محبته على محبة الوالدة لولدها

وما رأينا والدة تكاد تنسب إلى ولدها ذنباً ، وإنما تقول : خزاك الله يا إبليس أوقع ولدى فى الشئ الفلانى .

فإذا كان هذا قول الوالدة فى حق ولدها مع أن حبها لولدها بحكم الطبع لا بحكم الإيمان فكيف بمن صحبه إيمان ، وكيف يدعى مؤمن محبة رسوله ﷺ ، وهو يتوهم فيه العيب وإذا كان من يتشرب قلبه حب إنسان من آحاد الخلق لا يصير يرى فيه عيباً ، بل يراه كله محاسن صرفاً فكيف لسيد الأولين والآخرين، الذى فرض الله تعالى محبته على الخلق أجمعين وأحوجهم كلهم إلى شفاعته .

وقد سألت وأنا صغير شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله عن المراد بمعاصى الأنبياء ؟ فقال : يا ولدى تلك أمور يؤاخذ الله تعالى بها أحبابه لا تتعقلها عقولنا بل ربما تقربنا نحن بها إلى الله تعالى ورأينا لأنفسنا المقام العالى عند الله بها فلا يجوز لأمثالنا الخوض فيها بحسب ما بتعقله عقولنا أبداً ثم أنشدنى كلام سيدى على وفا :

= واعلم أن المشهور كون العلة ما دخلته اللام لا ما تعلقت به كما هو ظاهر عبارة الكشاف؛ لكن حقق أنها إذا دخلت على الغاية صح أن يقال : أن ما بعدها علة ويراد بحسب التعقل وأن يقال : ما تعلقت به علة ويراد بحسب الوجود فلا تغفل .

وقال الصدر : لا يبعد أن يقال : أن التعبير عنه تعالى فى مقام المغفرة بالاسم الجليل المشعر بصفات الجمال والجلال يشعر بسبق مغفرته تعالى على عذابه .

وفى البحر لما كان الغفران وما بعده يشترك فى إطلاقه الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره لقوله تعالى : (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقوله سبحانه : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) وقوله تعالى (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وقوله عز وجل : (يهدى من يشاء) وقوله تبارك وتعالى : (إنهم لهم المنصورون) وكان الفتح مختصا بالرسول ﷺ اسنده الله تعالى إلى نون العظمة تفخيما لشأنه وأسند تلك الأشياء إلى الاسم الظاهر وضميره وهو كما ترى وإن قاله الإمام أيضا .

وأقول : يمكن أن يكون فى إسناد المغفرة إليه تعالى بالاسم الأعظم بعد إسناد الفتح إليه تعالى بنون العظمة إيماء إلى أن المغفرة مما يتولاه سبحانه بذاته وأن الفتح مما يتولاه جل شأنه بالوسائط . =

عبـــادك محفوظـــون حـــفظ الحبـــايب

مـــن الذر لم يظهر بصافى ذواتهم   ســـوى نـــورك الماحـــى لجج الغياهب

مياه صفت ذاتاً ومجرى ومنـــبعـــاً   وصينت عن الأكدار من كل جانب انتهى

فاعلم ذلك واحفظ لسانك فى حق الأكابر والحمد لله رب العالمين .

ومما أجبت به عن الصحابة رضى الله عنهم فى قوله تعالى فى حقهم لنبيـــه ﷺ : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (١) هـــو كفـــرض المحـــال مثـــل قولـــه تعالى : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢) مع أنه تعالى قال : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ (٣) وقال ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ (٤) .

وكما فرض الله تعالى المحال فى قوله : ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ (٥) ، وكذلك القول فى وصف نبيه ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب على المؤمنين ووصفه أصحابه بأنهم لا يحبون مجالسته إلا إن كان حسن الكلام لهم رقيق القلب ، هو

= والمراد بالذنب ما فرط من خلاف الأولى بالنسبة إلى مقامه عليه الصلاة والسلام فهو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقد يقال : المراد ما هو ذنب فى نظره العالى ﷺ وإن لم يكن ذنبا ولا خلاف الأولى عنده تعالى كما يرمز إلى ذلك الإضافة .

وقال الصدر : يمكن أن يكون قوله تعال : (ليغفر) إلخ كناية عن عدم المؤاخذة أو من باب الإستعارة التمثيلية من غير تحقيق معانى المفردات ، وأخرج بن المنذر عن عامر وأبى جعفر أنهما قالا : ما تقدم فى الجاهلية وما تأخر فى الإسلام ، وقيل ما تقدم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد وليس بشئ مع أن العكس أولى لأن حديث امرأة زيد متقدم .

وقد صح أنه ﷺ لما نزلت صام وصلى حتى انتفخت قدماه وتعبد حتى صار كالشن الليالى فقيل له : اتفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أفلا أكون عبد شكوراً . =

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٩ .

(٢) سورة الزمر آية : ٤ .

(٣) سورة المؤمنون آية : ٩١ .

(٤) سورة الإسراء آية : ١١١ .

(٥) سورة الزمر آية : ٤ .

على سبيل الفرض والتقدير أيضاً ، إذ لا يصح وصفه ﷺ بالفظاظة وغلظ القلب حقيقة ، لأن ذلك ضد ما يثبت من صفته ﷺ .

وكذلك لا ينبغى وصفه لأصحابه بأنهم ينفضوا عنه ، إذا لم يرق قلبه لهم فإنه أحب إليهم من أهلهم وولدهم والناس أجمعين .

وقد قالوا فى المثل الساير (المحب لا يصرفه صارف ولا ترده السيوف والمتالف) ، هذا فى حق المريدين مع أشياخهم وكيف بمحبة الصحابة لنبيهم ﷺ.

وقد كان أحدهم ينظر إليهم سائراً نحو رسول الله ﷺ فيتلقاه عنه بصدره ، ويفديه ﷺ بنفسه فعلم أن قوله : ﴿ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ إنما هو بحكم الفرض والتقدير تشريعاً لنبيه ﷺ ليشرعه لأمته والحمد لله رب العالمين .

ومما أجبت به عن الصحابة أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ [1] .

اعلم أنه إذا كان المريد فى بداية أمره يخرج عن حب الدنيا أصلا ورأساً ويرمى ما معه منها فى بحر الإياس حتى يصح له قدم فى طريق القوم فكيف بالصحابة رضى الله عنهم الذين هم فوق مقام ساير أشياخ الطريق بيقين .

وإن كان الزاهد منا فى الدنيا لا يريدها فكيف يريدها أصحاب رسول الله ﷺ، وقول الله تعالى حق وصدق ولكن فيه تقدير وإضمار تقديره ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا للآخِرَةِ﴾ أى ليفعل بها خيراً يثاب عليه فى الآخرة ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ أى يشاهد فيها ربه – فما أحبوا الدنيا لذاتها ولا أحبوا الآخرة لذاتها فثم مقام رفيع ومقام أرفع من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ففى الآية مدح للصحابة كلهم كل على قدر مقامه ونصيبه لاذم لهم كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان ، فإنه ما منهم أحد إلا وهو زاهد فى الدنيا .

وأما قول سفيان الثورى : أن معاوية بن أبى سفيان كان رجلا عالماً ولكنه غلب عليه حب الدنيا ، فالمراد به أنه زاحم على الخلافة ليقوم فيها بالعدل على

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٢ .

حسب اجتهاده فهو مأجور وإن أخطأ لبذله وسعه فى نصرة الشريعة .

وفى حفظ نظام العالم عن الانخرام فسمى سفيان الخلافة بهذا الحكم دينى بالنظر لمن يريد الله عز وجل فما أحب معاوية الدنيا إلا للآخرة ، ولا يجوز حمل حاله على حال غيره من الملوك الذين قاتلوا على الدنيا فإنه أعلى مقاماً بيقين من إبراهيم بن أدهم ، وغيره من الأولياء الذين أجمع الناس على عدم محبتهم للدنيا، فأعلم ذلك واحفظ لسانك فى حق أصحاب رسول الله ﷺ وإذا كانت الوقيعة فى آحاد الأولياء سم قاتل فكيف بالوقيعة فى الصحابة والحمد لله رب العالمين .

ومما أجبت به عن الإمام على ﷺ ، فى قوله (سلونى عن طرق السما فإنى أعرف بها من طرق الأرض) أن مراده بطرق السماء المقامات والأحوال كالتوبة والزهد والخشية وغير ذلك ، فإن السالك لهذه الطريق يصير قلبه سماوياً ، فهى طرق السموات فى الأرض ، وليس مراده أنه صعد بجسمه إلى السماء ، لأنه ليس لغير نبى قدم محسوس فى السما والله أعلم .

ومما أجبت به عن الإمام أبى حنيفة : ﷺ فى نسبته إلى القول بالرأى فى دين الله وغير ذلك وأنه يقدم القياس على النص .

أعلم يا أخى أنه ما ثم أعز من الورع فى المنطق فى كل زمان لاسيما كلام الأسافل فى حق الأكابر وقد أدرك الإمام أبو حنيفة الصحابة ، وأخذ عن خيار التابعين كعطاء ، ومجاهد ، والأسود ، وعلقمة ، ونحو من ثلاثمائة عالم ، ولو لم يكن من مناقبه إلا قول الإمام مالك ، لما سئل عنه ؟

ماذا أقول فى رجل لو ناظرنى فى أن نصف هذه الأسطوانة ذهباً ونصفها فضة لقام بحجته .

وقول الإمام الشافعى ﷺ : الناس كلهم عيال على أبى حنيفة فى الفقه لكان فى ذلك كفاية فى غزارة علمه ودينه .

وقد قال عبد الله بن المبارك :لما دخلت العراق سألت من أعلم الناس عندكم؟ فقالوا أبو حنيفة فقلت : لهم : فمن أورع الناس عندكم وأزهدهم فى الدنيا؟ قالوا: أبو حنيفة فقلت لهم : فمن أعبد النـــاس عندكـــم ؟ قالـــوا : أبـــو حنيفـــة فمـــا

سألتهم عن فضيلة إلا وأضافوها لأبى حنيفة .

ومن ورعه أن الخليفة لما منعه الفتيا سألته ابنته عن الدم الخارج من الأسنان هل ينقض الوضوء ؟

قال لها : سلى عمك حماداً عن ذلك فإن إمامى منعنى الفتيا ولم أكن أخنه بالغيب ومن ورعه أيضاً أنه كان لا يجلس فى ظل جدار غريمه ويقول : كل قرض جر نفعاً فهو رباً .

وأما قولهم أنه يقدم القياس على النص فكلام صدر من متعصب عليه بغير حق وقد اجتمع به ، جعفر الصادق وسفيان الثورى ، وجماعة من العلماء فى جامع الكوفة ، فناظروه فقطعهم بالحجج .

فقالوا له : فما دليلك فى تقديمك القياس على النص ؟

فقال : معاذ الله أن يقع منى ذلك إنما أنظر الحكم فى القرآن ، فإن لم أجده نظرت فى السنة ، فإن لم أجده فيها ، نظرت فى أقضية الصحابة ، فإن لم أجده فيها قست حينئذ مسكوتاً عنه على منطوق به بجامع العلة فقام سفيان وقبل رأسه، فلم يقع منه قياس إلا بعد أن لم يجد ذلك الأمر فى كتاب ، ولا سنة ، ولا فى أقضية الصحابة ، وهذا أمر لا يختص به بلساير العلماء يقيسون كذلك .

وأما ما نقله أبو مطيع البلخى عن الإمام مالك بتقدير صحته أنه سأله من عالم بلادكم اليوم ؟ فقال أبو حنيفة فقال : فإذن لا يحل لعالم سكناها فالمراد مدح الإمام أبى حنيفة بالعلم والزهد والورع ، وأنه يكفى أهل بلاده علماً وعملا ولا يحتاجون معه إلى عالم آخر يسكن بلادهم يساعده فى نشر العلم فيها ، بل كل عالم سكن فى بلده فقد عطل علمه لعدم حاجة الناس إليه مع وجود الإمام أبى حنيفة ، وقد ضعف المحدثون رواية أبى مطيع هذا وأما ما نقل عن سفيان الثورى من قوله : إن أبا حنيفة قد حل عرى الإسلام عروة عروة ، وقول الإمام أحمد لما سئل عن أبى حنيفة ؟ فقال : لا رأى ولا حديث فلم يصح عنهما وحاشا أن يطعنا فى إمام أجمع الناس على جلالته ثم بتقدير أن قياسه خالف النص فى بعض المسائل فهو معذور لعدم وجود جميع الأدلة فى عصره لأنها كانت متفرقة

فى المداين والقرى ، والثغور مع الصحابة والتابعين ، فكان معـذوراً فى قياسه بخلاف ما فى زمن الإمام الشافعى وأحمد ، فإن الناس كانوا سافروا فى طلب الحديث، وجمعوا الأدلة فجاوبت الشريعة بعضها بعضاً ، هذا هو الحق ولا يقول عاقل قط أن الإمام يجد نصاً فى المسألة ويتركه ثم يأخذ بالقياس أبداً واعلم ذلك .

ومما أجبت به عن تجريح الحفاظ للحديث بعض الرواة ، إن ذلك إنما وقع منهم نصرة للشريعة المطهرة ، فكان لهم من الثواب فى ذلك التجريح مثل ثواب من يسبح الله تعالى ويحمده ولا يحوز حمل أحد ممن جرح غيره منهم على حظ النفس حاشاهم من ذلك ، وقد كان الإمام البخارى ﷺ يقول : أرجوا من فضل الله تعالى أنه لا يطالبنى بغيبة أحد من المسلمين يوم القيامة فقيل له : فماذا تصنع فى تجريحك لبعض الرواة ، فقال : ذاك من الدين نثـاب عليـه ثـواب الواجـب وما حرمت الغيبة إلا لغير غرض شرعى ، كالتشفى من الأعداء والحسدة .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول: فى ضمن تضعيف الحفاظ لبعض رواة الحديث رحمه الله منطوية للمسلمين لأنهم لو صححوا جميع الأحاديث ، التى قيل بضعفها لشق على الأمة العمل بها ، ولم يكن لهم عذر فى تركها بخلاف ما ضعف فإن للناس فيه فسحه لكون العمل به راجع إلى اختيارهم .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول أيضاً : قد قيض الله تعالى بعض الناس فعمل بما ضعفه المحدثون حتى لا يفوت الأمة العمل بشئ من السنة فكان ذلك من جملة ما حفظت به الشريعة عن النقص انتهى .

فاعلم ذلك واعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومما أجبت به عن عموم الناس أنه لا يجوز حمل أحد منهم على المحامل السيئة، وكل من رأيناه حمل أحداً على محمل قبيح ، فإنما ذلك صورة نفسه هو فكأنه يقول أنا من أهل ذلك القبيح ، وقد أجمعوا على أنه لا يخرج أحد عن المحامل السيئة فى الناس إلا أن طهر الله باطنه من ساير الرذايل ومتى بقيت فيه رذيلة واحدة فمن لازمه غالباً سوء ظنه بالناس وأنهم لا يسلمون من مثلها قياساً على نفسه هو ، فمن تطهر باطنه من ساير الرذايل فهو الذى يصح منه حسن

الظن بالمسلمين كلهم ، وأما حديث على وعائشة مرفوعا متصلا (من الجزم سوء الظن) وفى رواية أخرى عن أنس مرفوعا (احترسوا من الناس بسوء الظن) فالمراد به كما قاله شيخنا : أن يعامل العبد الناس وهو محترز منهم، ومن شرهم كمعاملة من يسئ الظن بهم من غير أن يسئ الظن بهم .

وذكر الإمام النووى فى مقدمات شرح المهذب : أنه ينبغى للإنسان أن يحمل أفعال شيخه التى ظاهرها الفساد على نحو من سبعين محملا حسناً ، ثم إن لم يقبل قلبه تلك الأجوبة كلها رجع على نفسه باللوم ، وقال : يحتمل فعل أخيك سبعين محملا حسنا ولا تقبل ذلك ، فأنت إذن أسوأ حالا منه ، قال : ولا يعجز عن هذه الأجوبة إلا قليل التوفيق انتهى .

إذا علمت ذلك يا أخى فإياك أن تحمل أحوال الناس على أحـوالك السيئـة ، ما دمت لم تتنظف من الرذائل ، بل يجب عليك أن تنتحل لهم الأجوبة الحسنة ما أمكن فإذا رأيت يا أخى نقصاً فى أحد فارجع إلى نفسك وجاهدها بالرياضة ، حتى لا تصير ترى فى أحد إلا تبعا للشرع ، وكلامنا كله إنما هو فى الأخلاق التى تخفى أما الظاهرة كالمكس وأخذ الرشا والزنا مثلا ، فلا يجوز لنا حمله فيها على المحامل الحسنة ، فإن ذلك مكابرة فى المحسوسات بخلاف ما يحتمل ويحتمل ، ومن هنا قل إنكار طايفة الصوفية على الناس ، وذلك لعدم رؤيتهم منكراً محققاً وربما كان الناس يظنون بهم قلة الدين ، وأنهم يقرون على المنكر ولا يغيرونه .

وقد بلغنا عن سيدى أحمد الزاهد أنه أخرج فقيراً من زاويته ، لما رأى جرة مع غلام تشبه جرار الخمر فضربها بحجر فكسرها فقالوا للشيخ فى ذلك : فقال : إنما أخرجته لكونه ظن بصاحب الجرة سوءاً ، ولأى شئ ما كان يظن أنها خل انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من علامة من صحت رياضـــة نفسه أن يصير يبادر لحسن الظن بالناس عكس من لم يكن عنده رياضة ، فـــإذا رأى شخصاً يكلم امرأة فى طريق مثلا ويغمزها بيده ويضحك معها ، قال : هذه أخته أو محرمه .

وإذا رأى عالما أو صالحاً يحضر مواضع المعاصى أو يصغى لشئ من الملاهى حملناه على أنه حضر العصاة ليحوطهم بأسماء الله خوفا ، أن يقع بهم العذاب ، أو على أنه خالظهم ليعظهم ويخوفهم ونحو ذلك ، وإذا رأى امرأة جميلة تشبه بنات الخطاء داخلة بيت أحد من الأكابر حملها على أنها داخلة لعياله لحاجة دينية أو دنيوية لا لذلك الرجل ليفعل بها ما لا يحل .

وإن كان صاحب ذلك البيت عالما أو صالحا حمله على أنه أرسل وراها ليتوبها عن الفواحش مثلا .

وإذا رأى أحدا من الطوافين يبيع حال صلاة الجمعة حمله على أن له عذراً شرعيا فى عدم حضور الجمعة ، كأن ضيق عليه صاحب الدين أو حلف إن لم يوفه حقه فى هذا اليوم حبسه .

وإذا رأى أحداً من العلماء يمنع من الفتوى على ما يتعلق بأعوان السلطان حمله على عذر شرعى يرخص فى مثل ذلك .

وإذا رأى أحداً من العلماء والصالحين يحج فى محفة حمل على أن له عذراً فى ذلك ، وأن المحارة مثلا لا يكفيه فى مد رجله ولا يجوز حمله ، على أنه فعل ذلك نزفها كما سيأتى إيضاحه عقب هذا المبحث أن شاء الله تعالى .

وإذا رأى شخصاً يقرأ القرآن ، وهو فى السوق فى حانوته أو مـارا راكبـاً أو ماشياً ، فيجب حمله على الإخلاص أو على أنه جهر بالقرآن ليذكـر النـاس بربهم فى مواطن الغفلة .

وإذا رأينا شخصاً يصلى فى آخر صف مثلا ويترك الصفوف أمامه ناقصة حمله على أنه إنما فعل ذلك حياء من الله عز وجل ، ولا يجوز حمله على أنه إنما فعل ذلك تهاوناً بالسنة والثواب ، وهذا الذى ذكرنـاه لا ينـافى حـديث :(خيـر صفوف الرجال أولها [1])

---

(١) أخرجه مسلم والأربعة عن أبى هريرة والطبرانى عن أبى أمامة وعن ابن عباس وبقية الحديث : (وشرها آخرها وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها) .

لأن المراد بالرجال هنا الكمل فى مراتب الإيمان فمن علم من نفسه ذلك فليتقدم .

وقد كان سيدى أحمد الزاهد وسيدى محمد المغربى وسيدى مدين وسيدى أبو العباس الغمرى يصلون دائما فى آخر صف فى مساجدهم ، ويقولون لا يقف بين يدى الملك عادة إلا أكابر حضرته كما أشار إليه قوله ﷺ : (ليلينى منكم أولوا الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم ثم الذى يلونهم [(١)]) ومعلوم أن النهى هـى العقول وفى حديث الترمذى مرفوعاً : (الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له يجمعها من لا عقل له [(٢)]) فجعل من يجمع الدنيا لا عقل له ، وكل إنسان يعرف حاله نفسه هل هو يحب جمع الدنيا أو يكرهه ، فهو أمر راجع إلى قلبه ونيته .

وفى الحديث أيضا : صفوا كما تصف الملائكة عند ربهـا [(٣)] أى فى التقـدم والتأخر ، فكما لا يتقدم آحاد الملائكة التسخير مثلا على أكابرهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائل وإسماعيل ، وكذلك لا ينبغى لمن يعلم من نفسه رقة الدين أن يتقدم على أحد من المسلمين ، وكل أحد يجب عليه أن يرى غيره أفضل منه ليخرج عن الكبر كما درج عليه السلف من الصحابة والتابعين .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إياكم أن تبادروا إلى الإنكار على من رأيتموه لا يصلى فى الصف الأول فربما كان ذلك الشخص ممن يعلم من نفسه أنه يجمع الدنيا ، ويحكم على نفسه بقلة العقل أو يحمله على أنه ، ربما فعل ذلك خجلا واستحياء من رسول الله ﷺ خوفاً أن يخالف قوله (ليلينى منكم أولوا الأحلام والنهى) أى وكذلك كل من صلى إماما بقـوم لا ينبغـى أن يليـه إلا الزهاد فى الدنيا .

---

(١) أخرجه مسلم والأربعة عن ابن مسعود .

(٢) أخرجه الإمام احمد والبيهقى عن عائشة .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر ، وبقية الحديث (يقيمون الصفوف ويجمعون مناكبهم)

وقد قال الإمام الشافعى ﷺ : لو أوصى رجل بمال لأعقل الناس صرفته إلى الزهاد فى الدنيا ، فعلم منه أن من لم يكن زاهداً فى الدنيا فلا حرج عليه فى الوقوف آخر الصفوف .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول أيضاً : حكم كمل العارفين إذا وقف أحدهم بين يدى ربه فى الصلاة حكم من كان فسق فى حريم الوالى ثم أتوا به إليه فهو يخاف من القرب من حضرته حتى يحصل رضى الوالى عنه أو العفو والمسامحة .

قال : وكثيراً ما يذنب العبد الذنب العظيم فيظن بتقادم عهده أن الله تعالى غفره له والحال أنه لم يزل ساخطا عليه إلى ذلك الوقت ، فيصير مثل هذا يزاحم على الوقوف فى الصف الأول لظنه أن الله تعالى قد غفر ذنوبه حتى لا يكاد يستحضر ذنبه أصلا ، وما هكذا درج السلف الصالح رضى الله عنهم ، فإن أحدهم إذا وقع فى ذنب لا يزال خجلا من الله تعالى خائفاً من عقابه حتى يلقاه .

قال : وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام : مالى أراك لا تبكى على ذنبك بكاء الثكلى على ولدها ، أتظن أنى قد غفرت لك حين تقادم عهدك بالذنب ، ولم أعاقبك عليه ؟ ومن أين لك أنى قد غفرت لك ؟ وأى ملك أخبرك بذلك عنى ؟ وعزتى وجلالى لأوقفن العصاة يوم القيامة موقف تذوب فيه أجسامهم وتنقطع فيه مفاصلهم انتهى .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يقول : إياكم أن تسيئوا الظن بمن رأيتموه من الأمراء والمباشرين والتجار يتغالى فى ثمن المماليك والعبيد وتقولوا لولا أنه ممن يقع فى الفاحشة فيهم ما يغالى فى ثمنهم فإن ذلك لا يجوز بإجماع إلا إن حفت بذلك القرائن ، وليس كل من يتغالى فى ثمن العبيد يفعل ذلك للفاحشة ، وإنما الأكابر إذا وسع الله عليهم الدنيا يصير أحدهم يحب الجمال فى ثيابه ومراكبه وداره وغلمانه مشاكلة لحاله ، فلا يكاد أحدهم يحب عجوزاً شوهاء ولا عبداً وجهه غير صبيح عادة ، ولا يحب أن يستخدم من العبيد والمماليك إلا صباح الوجوه ويحصل عنده غم برؤية غيرهم .

وقد بلغنا أن من أدب جماعة السلطان معه أن لا يوقفوا بين يديه أجذم ولا أبرص ، وأن وقع أن أحداً من الوزراء حصل له شئ من ذلك عزلوه أو استنابوا عنه رجلا سالماً من مثل ذلك غيرة على السلطان ، أن يقع بصره على ناقص فالأكابر غائبون عما يظن الفسقة فيهم من السوء قياساً على نفوسهم الغوية .

وقد بلغنا أن القاضى إسماعيل بن إسحاق المالكى الذى أفتى بقتل الحلاج رحمه الله دخل يوماً على أمير المؤمنين المعتضد فرأى على رأسه جماعة من المماليك الصباح الوجوه ، فوقع فى نفس القاضى شئ ، فلما أراد القيام قال له : المعتضد : والله يا قاضى ما خلعت سراويلى قط على فاحشة منذ وعيت على نفسى من الصغر ، فخجل القاضى واستغفر من سوء ظنه .

وكان سيدى على الخواص رحمة الله يقول : عليك يا أخى بحسن الظن بالمسلمين ما استطعت فإن الله تعالى لا يسألك فى الآخرة :

لم حسنت ظنك بعبادى وإنما يسألك عن سوء ظنك بهم .

فإذا أنقطع أخوك عن زيارتك مثلا أو عيادتك ، فلا ينبغى لك أن تتكدر منه . بل الواجب عليك حملة على أنه لم يجد له نية صالحة مثلا يزورك أو يعودك بها ، ولا يجوز لك حمله على أنه فعل ذلك استهانة بحقك ، وإذا دعاك إلى وليمة وأجلسك عند النعال وقدم إليك فضلة الغلمان والخدام ، فمن الواجب عليك حمله على أنه ظن فيك الخير والتواضع ، وزوال الكبر والرعونات النفيسة ولولا أنه ظن بك ذلك لأخذ حذره منك وصدرك فى المجلس خوفاً منك وأكرمك كل الإكرام فى الطعام .

وقد وقع لسيدى عبد الله المنوفى شيخ الشيخ خليل صاحب المختصر أنه دعى إلى وليمة ، فأجلسوه هو وأصحابه عند النعال وقالوا له ولأصحابه اصبروا عن الأكل حتى يفرغ الناس ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، فلما قدموا لهم فضلة العبيد والأطفال صار سيدى عبد الله يلحس الأوانى ويقول : اغتنموا بركة جميع من أكل، ثم يقول لأصحابه : تعلموا حسن الظن بالناس ، فإن هؤلاء لولا أحسنوا بنا الظن

وجعلونا من الصالحين الذين ماتت نفوسهم ما أجلسونا خلف النعال ولا أطعمونا الفضلة .

ووقع أن امرأة سيدى مجاهد النبراوى دعت زوجة سيدى عبد العزيز إلى طهور أولادها ففرشت لها البيت بالبسط والمقاعد لظنها أنها من أهل الدنيا ، فلما دخلت عليها ورأت عليها ثياباً خلقه طوت البسط وأرسلتها إلى المطبـخ ، فلمـا جاء سيدى عبد العزيز ليأخذها شكت إليه شدة ازادرائهم لها فقال لها : سيدى عبد العزيز مبادراً : هذا تعظيم ما فعلوه مع أحد غيركى أجلسوك عند الطبيخ وكلما طبخوا شيئا أطعموك منه بغير تعب . انتهى .

وكان سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول : إذا زار تلميذ أحدكم شخصاً من أقرانكم فلم يبشر فى وجه مريدكم ، ولم يقدم له طعاماً ، فلا يجوز لكم حمله على أنه يكرهكم ، وإنما يجب عليكم حمله على أنه إنما فعل ذلك مع تلميذكم وفاء بحقكم ومصلحة لمريدكم فخاف إذا أكرمه أن يميل بالمحبة فيعدم النفع بكم حين يصير مذبذباً فى أى الشيخين أعلى من الآخر .

وكان سيدى على المرصفى رحمه الله يقول : إذا رأيتم أحداً من العلماء والصالحين يمدح نفسه أو يجيب عنها فاحملوه على المحامل الحسنة ، فربما رأى من طلبته عدم الاعتناء ، يما يقوله لهم من العلوم المحررة ، أو خاف تزلزلهم عنه إذا رماه الناس بالعظائم ، ولم يجب عن نفسه ، فيعدم الناس النفع به . ولو أنه علم من طلبته أنهم يعرفون نفاسة ذلك الكلام ، أولا يتزلزل اعتقادهم فيه إذا لم يجب عن نفسه لكان سكت ولم يمدح نفسه ولا علمه .

وكذلك سمعت سيدى أفضل الدين رحمه الله يقول مراراً : إياكم أن تسيئوا الظن بمن رأيتموه يجيب عن نفسه من العلماء والصالحين ويقولوا : لو أن هذا كان صالحاً لا كتفى بعلم الله تعالى فيه أو لم يلتفت إلى الناس فإن للعلماء والصالحين مشاهد فى ذلك صحيحة ، فمنهم من يكون مشهده أن أفعاله وأقواله التى نقصه الناس لأجلها كلها خلق لله تعالى فيغار لله أن ينتقص أحد خلقه وحكمه وتقديره ، ومنهم من يكون مشهده أن نفسه خلق لله تعالى فيتكدر لمن يقول له

يا أعور مثلا من حيث أنه يعيب خلق الله تعالى ومنهم من يكون مشهده أن بنته أمة لله تعالى ، وأنها وديعة عنده قد أمنه عليها وأمره بكف الأذى عنها ودفع كلما يحصل لها به تكدير وتشويش .

ومنهم من يكون مشهده الشفقة على أعدائه فيخاف أن سكت عما يقولونه فيه ، أن ينقص دينهم فيرد عن نفسه حتى يكذبهم الناس ، فيخف الإثم عنهم .

ومنهم من يكون مشهده أنه عبد لله تعالى ليس له من نفسه شئ وأنه يجب على كل أحد احترام عبد الله تعالى فيغار لنفسه من حيث كونه عبد الله لاحظ نفسه، بل ربما لم يخطر ذلك على باله .

ومنهم من يكون مشهده محبة الخير والنفع لإخوانه على يديه أو يدى غيره، فيخاف أن سكت على تنقيص الأعداء والحاسدين له أن يجعل له استهانة فى نفوس تلامذته فلا يصيرون ينتفعون به .

وهكذا فى جميع الأمور التى تسق إلى الذهن فيها بسوء الظن يجب على العبد أن ينظر فيما يترتب عليها من جواب أو سكوت فلا يقال الجواب أولى مطلقا ولا السكوت أولى مطلقاً ، إنما ذلك داير بحسب ما يترتب عليه من المصالح ، وقد كان أخى أفضل الدين ، إذ بلغه أن أحداً نقصه فى مجلس يذهب إليه ويقبّل رجله ويقول : يا أخى ما يجازيك عنى إلا الله فيما بلغنى عنك ، فإنك نبهتنى على نقائصى لأتوب منها أو آخذ حذرى منها فى المستقبل ، وحميتنى من الوقوع فى العجب بأحوالى ، وربما أن ذلك الشخص المنتقص له لم يخطـر فى بالـه قـط ما حمله سيدى أفضل الدين عليه إنما قصد محض تنقيصه بين الناس بغضاً فيه وحسداً له وعدوانا .

وسمعت سيدى عبد القادر الدشطوطى رحمه الله يقول : لا يسلم من سوء الظن بالناس إلا من طهر الله باطنه من سائر المخالفات ، بحيث يصير لا تخطر الفحشاء على باله ، فإنه حينئذ يصير يعتقد فى الناس كلهم الخير قياساً على نفسه هو .

قال : وتأمل من خلق عنيناً ولم يذق لذة الجماع قط ، لو أنه رأى شاباً يكلـم

أجنبية كيف لا يخطر بباله أنه يريد الفاحشة بها أبداً ، لأنه لم يذق ذلك فى نفسه، بخلاف الشاب الفاسق إذا رأى شيخاً يكلم أجنبية فضلا عن الشاب لا يكاد يسلم من سوء الظن به قياساً على نفسه هو ، فقلت له : فما حكم الشيخ ، إذا اطلع على شئ من نقائص المريدين ، هل ذلك قياساً على ما عنده أم لا ؟ فقـــال ﷺ : للشيخ طريق أخرى يطلع بها على نقائص المريد وهى الإلهام له من الله تعالى . انتهى ...

وسمعت سيدى على الخواص ﷺ يقول : إذا بلغكم عن امرأة قد مات أحد من أهلها ، أو جيرانها ، إن زوجها قوب منها ليلة موت ذلك الميت ، فاحملوها على إظهار الرضى عن الله بذلك ، لا على غلبة الشهوة الطبيعية ، فإن ذلك من سوء الظن بها . انتهى .

وهذا الخلق العظيم لم أر من تخلق به من أقرانى إلا القليل .

وقد سمع أخى أفضل الدين شخصا يحكى أن أشعب الطماع ، كان يفت الخبز على دخان جاره فقال : شئ لله من مدده ، فإنه لولا حسن ظنه بجاره مـــا فـــت خبزه على دخانه ﷺ ، فاعلم ذلك وتأمل فيه فإنه نافع جداً .

والحمـد لله رب العالمـين

البَابُ الثَّانِي

فى جملة أخرى من الأخلاق
فمن أخلاقهم غيرتهم لله تعالى إذا انتهكت محارمه

ولا يخافون فى الله لومــه للائم ولو كان ولــدهم البكرى ، فــإن الله تعالى بالمرصاد على قلوبهم [١] .

وفى الحديث أن شخصاً يؤتى به يوم القيامة ومعه أعمال كأمثال الجبال فيؤمر به إلى النار ، فتقول الملائكة : يا ربنا إنــه كــان مــن أعمالــه كذا وكذا ، فيقول الله تعالى : بلى ولكنه كان لا يغضب إذا انتهكت حرماتى ولا يغضب لغضبى. انتهى.

وذكر وهب بن منبه : أن شخصاً من علماء بنى إسرائيل كان يعظ الرجال والنساء فبينما المجلس غاض بأهله ، والناس يبكون وينتحبون ، إذ غمز ولده امرأة من الأجانب .

فقال له : لا يا ولدى لا تفعل [٢]

فأرسل الله إليه ملكاً فقلب به الكرسى فوقع على وجهه ، فانفلقت رأســـه ، وتقطعت أعضاؤه .

---

(١) وفى الحديث : عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان). رواه مسلم .

(٢) عن ابن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : أن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم . إلى قوله فاسقون ، ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعنكم كما لعنهم) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن .

وأوحى الله تعالى إلى نبى ذلك الزمان : أما كان من غضب فلان لمحارمى وانتصاره لشرعى إلى أن قال : لا يا ولدى . أى فإنها كلمة لا تشعر بتعظيم محارم الله ، ولا بإيثار جناب شرعه على حكم الطبع النفسانى . فأعلم ذلك وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تخفيفهم الصلاة إذا كانوا أئمة الناس

عملا بقوله ﷺ : (مـن أم بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة) [(١)] انتهى .

فلا يقدر على طول الوقوف بين يدى الله عز وجل إلا رسول الله ﷺ وكمل ورثته . ولذلك كان يقول :

(أرحنا بها يا بلال).

ثم إن المصلى لا يخلو إما أن يكون قلبه حاضراً مع الله أو غافلا عنه ، فإن كان حاضرا فقد شق عليه بالتطويل ، لأنه ليس كل الناس يقدرون على طول الوقوف بين يدى الملوك ، بل يصير أحدهم يرعد من هيبته ، وربما أحس أحدهم أن مفاصله تتقطع من شدة الهيبة .

وإن كان ذلك المصلى غافلا بقلبه عن ربه فهذا لا ثمرة له وهو إلى العقوبة أقرب . وربما زهقت نفس المصلى من تلك الحضرة ، فخرجت إلى أهويتها وشهواتها ، ولم يبق واقفاً مع الإمام سوى الجسم من غير روح .

وقد شمل ما قلناه قوله ﷺ : (فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة) فذكر الضعف وسكت عن سببه ، فشمل الضعف العادى من المرض ، وشمل الضعف الذى يطرأ على العبد من هيبة الله تعالى .

فعلم أن التخفيف مطلوب للإمام بكل حال بخلاف ما إذا صلى لنفسه فإن يطول ما شاء كما صرح به الحديث .

---

(١) أخرجه الشيخان عن أبى هريرة ﷺ ، ولفظه عند مسلم : إذا أم أحدكم للناس فليخفف ، فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والمريض ، فإذا صلى وحده فليصلى كيف شاء .

فإن أقدره الله تعالى على طول الوقوف بين يديه وقف وطول وإلا اقتصر .

وقد صليت مرة خلف الشيخ أحمد المنشاوى عندنا بالزاوية فطول فصرت أحس بأن شخصاً يعطنني بحربة فى قلبى وأحشائى فلولا إنى فارقته لهلكت ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه .

فاعرضه وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم سفرهن إلى الحجاز فى محفة إلا لضرورة شرعية

وإن قوى عليهم الشوق العظيم إلى زيارة بيت الله الحرام وإلى زيارة قبر رسول الله ﷺ مع كبر سنهم وضعف أبدانهم ، ووجدوا أجرة ذلك من وجه حلال ، وخلصت النية فى ذلك .

ولا ينبغى لأحد من الفقراء والعلماء أن يحج فى محفة ترفها وتفاخراً . فإن المحرم أشعث أغبر . وكل فقير سافر فى محفة على وجه الترفه والخيلاء فهو خارج عن الطريق [١].

وقد حج رسول الله ﷺ على رحل رث يساوى ثلاثة دراهم . ثم قال : (اللهم أجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة [٢]) . وإنما فعل ذلك ليقتدى الناس به.

وكذلك حج الأنبياء على الحمر والجمال ، بلا مرقد ، ولاهودج ، وخطم دوابهم الليف .

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى بذلك عدم الترف فى الحج وجعله وقتاً للمتعة بل أن الواجب فى نظره التخلص من الشهوات الدنيا والتوجه بكنه الهمة إلى الله تعالى فى موسم الحج لعله يتوب على القادمين عليه ولعله يرضى عنهم ويقصد أيضاً تنزيه الأماكن المقدسة عن أى مطمع دنيوى.

(٢) حديث : (حج رسول الله على رحل رث) أخرجه الترمذى فى الشمائل عن أنس ﷺ .
ولفظه : (حج رسول الله ﷺ على رحل رث ، وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم ، فقال : (اللهم أجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة) .

وأحرموا فى العباه الخشنة الغليظة ، وهم خائفون من عظمة الله عز وجل .

وكل من حق له قدم الولاية فمن لازمه أن يرى نفسه ، كالعبد الآبق ، الذى استحق الخسف به ، ويرى حجه إنما هو كالمصالحة لسيده ليرضى عنه أو يعفو ويصفح . ويقبح على العبد المحرم أن يذهب إلى مصالحة سيده فى محفة ، وعليه ثياب رفيعة مبخرة وهو جالس فى المحفة كالمرأة المخدرة .

فاعلم ذلك والزم الأدب مع ربك إن كنت عبداً له .

وقد حج سفيان الثورى ﷺ من البصرة ماشياً فلما سلم عليه الفضيل ابن عياض بمكة قال له : هل لا صحبت معك ظهراً تركبه ؟ فقال له سفيان : أما يرضى العبد الآبق أن يأتى إلى مصالحة سيده إلا راكبا ؟ والله إنى لفى غاية الخجل مع مشيى فكيف حالى لو أتيت راكباً ؟ انتهى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم شمهم لروائح المعاصى

من أنفسهم ومن غيرهم فى بدنهم وثيابهم ومكانهم مدة طويلة من يوم وجمعة وشهر وأكثر ، بحسب قبح تلك المعصية وخفتها ، فللكبيرة عندهم رائحة ، وللصغيرة رائحة ، وللمكروه رائحة ، ولخلاف الأولى عندهـم رائحـة ، وكلمـا قبحت المخالفة كان ريحها أشد نتناً .

وكذلك يشمون رائحة الطاعات على اختلاف درجاتها فأذكاها رائحة الواجبات إذا حفها الإخلاص ، ثم المندوبات ، ثم ما كان أولى من ساير الآداب الشرعية ، مع تفاوت المراتب فى الكل بحسب الأدلة [1]، وكلما عظمت الشهوة فى المعصية كلما زاد نتنها وكلما عظم الإخلاص فى الطاعات كلما زاد طيب ريحها ، وهذا الخلق قل من يتخلق به من الأخوان وقد تخلقنا به ولله الحمد .

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى بذلك ما يكشفه الله سبحانه وتعالى لأوليائه من المعارف التى بها يستطيعون معرفة الطارق لهم ، فيقدروا له وزنه من حيث درجة تقواه فينصحونه بالنسبة للمعروف ، وينهونه بالنسبة للمنكر ويتولونه بالرعاية التى تجعله يتخلى عن ذنوبه أو يزيد فى تحليه بالفضائل .

لكنى سالت الله تعالى أن يحجب عنى رائحة المعاصى من غيرى لأن الله تعالى لم يتعبدنا بمثل ذلك .

وأيضاً فإن الشارع قد ذم كشف العورات ومن هنا أوجب القوم التوبة من كل كشف اطلع صاحبه على عورات الناس ، وسموه بالكشف الشيطانى [١] .

وقد بلغنا أن هذا الخلق كان للسيد عثمان بن عفان ﷺ ، ثم سأل الله تعالى أن يحجبه عنه فحجبه .

ومما وقع له قبل الحجاب أن شخصاً دخل عليه وقد نظر إلى ما لا يحل.

فقال له عثمان بن عفان ﷺ : يدخل أحدكم علينا وروائح الزنا عليه ؟ فاستغفر الرجل من ذلك وتاب . انتهى .

وقد كان بعض العارفين يقول لأصحابه :- من باب الاتهام لنفسه – لو أنكم تشمون للمعاصى رائحة ما استطاع أحدكم أن يجلس إلى من نتن ريحى . انتهى .

وصاحب هذا المقام لا يقدر على مجالسته إلى من كان تائبا من سائر الذنوب، وقبل الله تعالى توبته .

وأما المتلطخ بالمعاصى فربما حصل له المقت فى الوقت والعياذ بالله ، لأن الولى يغضب لغضب الله .

فربما نظر إلى ذلك المعاصى نظرة غضب من حيث انتهاكه محارم الله فخسر الدنيا والآخرة .

بل بلغنا عن سيدى محمد الشويمى[٢] المدفون تجاه قبر سيدى مدين المدفون بخط المقسم ﷺ أنه كان يشم رائحة الروائح التى تنشأ من الخواطر .

---

(١) لأنه ربما يؤدى إلى استمراء المكاشف لهذا الوضع فيترك كثير من أمور التصوف ويتفرغ لهذا الكشف ، مما يؤدى به بالتالى إلى تتبع عورات المسلمين .

(٢) كان من أصحاب الشيخ مدين بن أحمد الأشمونى ﷺ ، وكان من أرباب الأحوال ، وكان يجلس بعيداً عن سيدى مدين ﷺ ،فكل من مر على خاطره شئ قبيـح يسحـب العصـا ويضربه، غنيا أو فقيرا ، كبيراً أو صغيراً أو أميراً فكان أرباب المعاصى لا يقربون مجلس

وكان يؤدب صاحب الخاطر بالعصى فلا يستطيع أحد يرده عنه .

ودخل مرة أمير على سيدى مدين وسيدى محمد هذا جالس فى المحراب وسيدى مدين فى آخر الزاوية ، فخطر فى نفس الأمير أنه يمسك جارية زوجته فقام ، له سيدى محمد من المحراب وصار يضربه بالعصى والأمير يصدق ويقول : استغفروا (١) الله العظيم .

فإذا كان هذا فى رائحة الخواطر فكيف بالأعمال الظاهرة ؟

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : جميع ما هو عند الناس غيب

أو يرونه فى النوم فهو عند العارفين شهادة ويقظة (٢) .

ووقع لخالد الربعى ﷺ ، أن ناساً اغتابوا شخصاً فى المسجد وهو جالس لم يجب عنه ، فقدم إليه تلك الليلة قطعة من لحم خنزير وقيل له:كلها بما اغتبت (٣) عندك ولم تجب عن أخيك : قال : فأبيت أن آكلها من شدة نتها ، فادخلـوها فى فمى كرهاً ، فاستيقظت ورائحتها فائحة فى غاية التن ، فصرت أشمها أنا والناس مدة أربعين يوماً (٤). انتهى .

=سيدى مدين خوفا منه . وكان ﷺ يقول لأصحابه : عليكم بذكر الله تعالى تقضى لكـم جميع حوائجكم.

(١) ربما يقصد استغفر الله العظيم .

(٢) لأن الحق سبحانه وتعالى يكشفه لهم فلا مجال للشك فيه عندهم إلا إذا كان يتعارض مع الشريعة الإسلامية .

(٣) أى بما وقع من الغيبة فى مجلسك .

(٤) وإذا كان هذا حال من حضر مجلس الغيبة دون الاشتراك فيها فكيف حال من يغتاب نفسه. قال تعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم) .

يقول الإمام النووى : أعلم أنه ينبغى لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام ، إلا كلاما ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه فى المصلحة ، فالسنة الإمساك عنه لأنه قد ينجر الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وذلك كثير فى العادة والسلامة لا يعد لها شئ .

فعلم أن شم الإنسان رائحة المعصية من ثيابه وبدنه ومكانه من جملة نعم الله تعالى ، ليتذكر بتلك الرائحة تلك المعصية ، فيزيد فى الندم . والاستغفار ، ويقع لى أنا أننى إذا ارتكبت مكروهاً أو خلاف الأولى أنى أشم رائحة ثيابى عفنة، فلا أزال أستغفر حتى تزول رائحتها .

وحينئذ أرجو أن يكون الحق تعالى قد سامحنى بذلك ، وأقول فى نفسى : لولا أنه سامحنى بذلك لدام ريحه على ففى أوقات تمكث الرائحة يوماً أو ثلاثة أيام أو أكثر ، وقد اغتبت مرة شخصاً فصرت أشم رائحة النتن من ثيابى نحو سبعة أيام ، مع أنى ما كنت استغبته [1] إلا بعد أن اغتابنى . فإياك يا أخى ثم إياك .

ثم لما حجب الله تعالى عنى رائحة المعاصى من غيرى أبدلنى مكان ذلك شمى لرائحة من عليه فريضه لم يصلها أول وقتها ، فأقول له : يا فلان أصليت صلاة كذا ؟

فيقول : لا . فأقول له : قم فصل .

وأهل الله يعرفون من وقف فى حضرة الله وقت الصلاة برائحته الطيبة ومن لم يقف بعدمها . وهذا أمر غريب قل من يتخلق به من الفقراء .

وكان أخى أفضل الدين رحمه الله يعرف قوام الليل برؤية وجوههم .

ويعرف من قام أول الموكب الآلهى ومن قام فى أثنائه على تفاوت الناس فى الزيادة والنقص ، وربما قال لمن نام عن قيام الليل : ما رأيناك الليلة هناك .

فيعترف له بالنوم إلى الفجر ﷺ . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم الإكثار من حضور الولائم التى لا خلاص فيها لصاحبها شرعاً

كأن يكون فيها طعام فيه شبهة كموالد المشايخ التى يعملها المعتقدون فيهم

(١) يقصد اغتبته .

من الظلمة [١] أو يدخلها التفاخر ويكثر فيها ألوان الطعام .

وما ثم أنفع للفقير ولا للفقيه من ملازمة بيته فى هذه الأيام ، إما لمراقبة الله أو تحرير مسائل العلم التى ينتفع بها الناس .

وأما حضور الموالد فإنما ذلك للمزمزمين والمداحين والبطالين من الاشتغال بالله أو بالعلم . ومن هنا قالوا : كل من رأيتموه من المريدين يحب سماع القصائد والنغمات ، فاعملوا أنه بطال لا يجئ منه شئ فى الطريق .

وربما استدرج إبليس بعض الفقهاء وقال له : ما عبد الله بشئ أفضل من جبر الخواطر ، فيترك مطالعة العلم أو إقراء الناس ويذهب إلى تلك الوليمة أو المشى فى الزفة ، ويعكس درس الطلبة ، ولا يشك أن الفقيه إذا ارتقى إلى مرتبة الفتوى والتدريس يصير وقته أعز من الكبريت الأحمر ، فلا يكون شئ أنفع له من العلم والعمل على وجه الإخلاص لتعدى نفع ذلك إلى الخلق فى أبدانهم ، فينقذهم بذلك من النار ، بخلاف جبر خاطرهم بحضور أكل طعامهم المخلوط بالحرام والشبهات [٢].

وقد فتشنا فى الفقراء وطلبة العلم فما رأينا أحداً منهم أكثر من الأصحاب والمعارف وإجابتهم إلى جميع أغراضهم إلا أنقطع عن الخير وفاته الترقى فى طريق الظاهر والباطن قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَــنْ

---

(١) فإن كثيراً من الظلمة يحاول التقرب إلى المشايخ والأولياء لخدمة أغراض ظلمهم بإظهار التقوى فى هذا الأمر فيكثرون من دعوتهم والظهور إلى جانبهم سترا للظلم وإظهاراً للتدين ، فإذا تابعهم الأولياء فى ذلك فقد أعانوا ظالما على ظلمه .

(٢) يقصد الإمام الشعرانى بذلك عدم الإغراق والإسراف فى هذه الأمور وخاصة بالنسبة للعلماء والمريدين الذين فى أول للطريق بالنسبة للعالم فإن إقامته لدروس العلم ومراجعته للدروس وتبسيطه لأمور الفقه على الناس هو أهم للمجتمع من حضوره للاحتفالات وكذلك بالنسبة للمريد فإن انصرافه عن الذكر والأوراد إلى الاحتفالات يلهيه عن الوصول إلى الله فإن الإغراء الدنيوى له وهو ما زال فى أول الطريق ربما أخذه فى طريقة فلا يعود لعلم ينتفع به ولا ذكر يقربه من الله .

سَبِيلِ اللَّهِ [١] ﴾ .

فكل من أكثر من الأصحاب والمعارف فهو كالفقيه الذى كثرت وظائفه من حضورات ومباشرات وقراءة أطفال ، فإنه يتعطل عن الترقى فى العلم إلى مقام الأكابر ضرورة بخلاف من قلت أصحابه ووظائفه فإنه ربما ترقى إلى الافتى والتدريس ، وشرح كتب العلم كما هو مشاهد فى بعض طلبة العلم الآن .

ومن هنا فاق شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملى[٢] أقرانه لكونه أقبل على العلم ولم يشتغل بالتردد إلى أحد من الأكابر ﷺ فما مات حتى انتهت إليه الرياسة فى مذهب الإمام الشافعى ، وغالب طلبة العلم فى مصر الآن إما طلبته أو طلبة ، طلبته . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حرصهم فى جميع مشاهدهم فى أعمالهم وأحوالهم على أن يكون دائرة مع الحق لا مع حظ النفس

فلا يتحركون ولا يسكنون إلا فيها يعلمون ويشهدون رضى الحق تعالى فيه . فصورتهم صورة من يسعى فى حظ ولكن القصد مختلف .

مثال ذلك : أن يظهروا التشويش ، ممن أخل بواجب حقهم من زيارة أو عيادة أو خدمة أو منعهم مما طلبوه منه ، نحو ذلك ، فيشوشون عليه من حيث تفويته على نفسه ذلك الخير مع قطع نظرهم عن عود مصلحة ذلك الأمر عليهم.

---

(١) سورة المائدة آية : ١١٦ .

(٢) هو العالم الكبير الشيخ شهاب الدين الرملى الشافعى الأنصارى ﷺ . يقول عنه الإمام الشعرانى : كان ﷺ ورعا زاهدا عالما صالحا حسن الإعتقاد للخلق ، لا وسيما طائفة الصوفية ، يجيب عن أقوالهم بأحسن الأجوبة ، انتهت إليه الرياسة فى العلوم الشرعية ، وعاش حتى صار علماء الشافعية بمصر كلهم تلامذته ، فلا يوجد الآن عالم شافعى إلا وهو من طلبته أو من طلبة طلبته ، وأرسلت إليه الأسئلة من الأقطار ، ووقف الناس عند قوله أكثر ممن أدركناهم من أشياخه، وكان يخدم نفسه ،وكان جميع علماء مصر يعظمونه ويجلونه مات ﷺ فى مستهل جمادى الآخر سنة سبع وخمسين وتسعمائة .

ثم إذا بلغ أحدهم مقام الكمال فله إظهار التشويش لحظ نفسه أيضا من حيث كونه أمينا عليها ، ويجب عليه الذب عنها وعن ما يضرها ، فهو يرى نفسه كالأجنبية عنه وهو عنها بمعزل من باب التجريد المذكور فى المعانى والبيان .

ثم إن أصل شهود العبد الإخلال بواجب حقه كونه يعامل الخلق ولو أنه كان عامل الحق جل وعلا فى إحسانه إلى خلقه لم يطلب منهم مكافيا ، ولم يـر أحـد منهم أخل بواجب حقه أبداً .

ثم إذا ارتقى الكامل إلى مقام الكمال الحقيقى ، صار يرى الفضل لله تعالى عليه فى كل عبادة عملها ، لا يطلب منه جزاء عليها فى الدارين فضلا عن أن يطلبه من الخلق ، فهو ولو أعطاه الحق تعالى الثواب يرى ذلك الثواب ملكا لله تعالى لم يخرج عن ملكه بإعطائه لعبده .

ومن هنا خلص الفقراء من رق طلب الأجور على شئ من عباداتهم ، لشهودهم أنه لا يخرج شئ عن ملك الحق تعالى فى الدارين ، فهم يأكلون ويلبسون ويسكنون فى دار سيدهم فى الدنيا والآخرة ، ويرون ذلك كله عارية عندهم .

ولولا أن الله تعالى أوجب عليهم الشكر بنسبة المعطى لهم – اسم مفعول – ما تعقلوا أن ينتقل[1] أن الله تعالى أعطاهم قط شيئاً لأن حقيقة العطا أن ينتقل من ملك المعطى اسم فاعل – إلى ملك المعطى – اسم مفعول – وهذا محال أن يصح لعبده ، فهم يشكرون الله تعالى على نسبة المعطى لهم لاعلى ، أنهم يملكـون ما أعطاه لهم [2] كما سيأتى بسطه فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

فاعرض يأخى ما ذكرته لك فى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقصد بذلك ما تعقلوا أن الله تعالى أعطاهم شيئاً أى لا ينظرون لها على أنها ملك لهم بل هى عارية أو دين مستحق .

(٢) أى نسبة الشئ المعطى لهم إليهم مع أنهم لا يملكون المعطى لهم فهم مستخلفين فيه فقط ، وهذا من القمم فى الزهد عند الصوفية .

ومن أخلاقهم كثرة توبتهم من علومهم وأعمالهم التى دخلها الرياء والنفاق

ويرونها من جملة المعاصى لا الطاعات ، إذ لا يسمى طاعة إلا ما كان صاحبه مخلصاً فيه ، ولذلك وردت الأحاديث بعقوبة من لم يخلص فى علمه وعمله .

وقد كان رسول الله ﷺ يستغفر الله تعالى ثلاثاً كلما سلم من صلاته تشريعاً لأمته ، وتنبيهاً لهم على شهود النقص فيها ، وأنها أن لم يحصل فيها اخلاص وخشوع فهى إلى الأثم أقرب (١) .

وقد أرمى الإمام مالك كتاب الموطأ فى الماء لما أتهم نفسه فى الإخلاص ، وقال : أن ابتل فلا حاجة لنا به فلم يبله الماء فأبقاه .

وكذلك وقع للحكيم الترمذى ﷺ أنه أرمى عدة كتب له فى الماء فلم تبتل فأبقاها .

وأوصى الإمام النووى(٢) بغسل كتاب الروضة وقال : إن فى قلبى منها شئ فلم يفعلوا .

وهذا أمر لا يقدر على التخلق به إلا من خرق ببصره إلى الدار الآخرة وعرف ما يصح قبوله من الأعمال وما لا يصح .

وقد سألت شيخنا شيخ الإسلام ذكريا عن المراد بقول النووى: فى قلبى منها شئ ما هو الشئ ؟ فقال : لعله انفراده فيها بكثرة الترجيحات والاختيارات(٣)

---

(١) عن ثوبان ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا ثلاثا ثم قال : (اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام) رواه مسلم والإمام أحمد وأصحاب السنن الأربعة .

(٢) هو الإمام محى الدين بن شرف النووى : عالم الحديث المشهور وله تآليف كثيرة فى الفقه والحديث والتصوف ومن أشهر كتبه : شرح صحيح مسلم – رياض الصالحين – الأذكار – بستان العارفين .

(٣) أى يرجح قول على قول أو سند على سند ويختار بعضها مما يقوى فى نظره على البعض=

فأحب أن لا ينفرد بحكم عن العلماء فيكون المعول عليه فى الآخرة ، أو قال ذلك : اتهاماً لنفسه فى الإخلاص ، وإلا فاعتقادنا أن مثله لا يخرج عن الإخلاص فى شئ من أعماله . انتهى . فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة زهدهم فى المطاعم والملابس والمناكح والمراكب والمساكن ونحو ذلك مع ملابستهم لها

فيأكلون ويلبسون وينكحون فيركبون الخيول المسومة ويسكنون القاعات المرخمه ، وهم مع ذلك زاهدون فيها خولهم الله فيه من النعم .

فليس الزهد بخلو اليد كما يفهمه بعضهم ، وإنما الزهد بالقلب فافهم ، إذ لو كان المراد بالزهد خلو اليد من الدنيا لنهى الشارع عن التجارة ، وعن عمل الحرف ، ولم يكل بأمر أحداً بها ولا قائل بذلك ، وإنما درج جمهور الصحابة والتابعين على خلو اليد من الدنيا ليقتدى بهم المحجوبون عن مشاهدة الأكابر .

فلذلك أظهروا لهم الزهد فى الدنيا بخلو اليد ونهوهم عن التبسط فى الدنيا خوفاً عليهم أن يدخلوا فى محبتها ، فلا يهتدوا بعد ذلك للخروج عن حبها والمزاحمة عليها ، فإن الكمل لا يشغلهم عن الله تعالى شئ فى الكونين ، بخلاف القاصرين الذين هم أكثر الناس[1] .

وممن أدركناه على قدم الزهد فى الدنيا بالقلب دون اليد شيخنا شيخ الإسلام

= الآخر فأحب ألا ينفرد بأحد هذه الترجيحات والاختيارات دون أخذ من العلماء فيتبعه المسلمون فى ذلك فيكون مسئولا عنه أمام الله .

(١) والإمام أبو الحسن الشاذلى يقول :(اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا) يقصد الدنيا.
وكان يلبس الملابس الغالية فقال له فقير عليه لباس من شعر : ياسيدى ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك .
فأمسك الشيخ ملبسه فوجد خشونة فقال :
ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذى عليك ، لباسى يقول : أناغنى عنكم فلا تعطونى ، ولباسك يقول : أنا فقير إليكم فاعطونى .

زكريا وشيخ الإسلام برهان الدين بن أبى شريف [(١)] ، وشيخ الإسلام نور الدين الطرابلسى[(٢)] والشيخ كمال الدين الطويل ، والشيخ نور الدين المحلى [(٣)] والشيخ برهان الدين القلقشندى [(٤)] والشيخ أبو الشعر بن سيدى مدين ، وسيدى على المرصفى ، والشيخ أبو الحسن البكرى [(٥)] والشيخ أبو الفضل شيخ بنت [(٦)]= بنى الوفا رضى الله عنهم .

---

(١) هو شيخ الإسلام برهان الدين بن أبى شريف الشافعى : كان شيخا عالما ورعا زاهدا متمكنا فى علوم الظاهر والباطن . يقول عنه الإمام الشعرانى : كان من المقبلين على الله عز وجل ليلا ونهارا ، لا تكاد تسمع منه كلمة واحدة يكتبها عليه كاتب الشمال ، وكان لا يتردد إلى أحد من الولاة أبدا . وكان الإنسان إذا عرض عليه بعض محفوظاته يتلجلج من شدة هيبته ، فيباسط الصغير حتى يهدأ روعه . وكانت له صبانة فى القدس يعمل فيها الصابون ، ويتقوت منها ، وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسلام شيئا ، وكان قوالا الحق أمارا بالمعروف ، لا يخاف فى الله لومة لائم . توفى سنة نيف وعشرين وتسعمائة ﷺ .

(٢) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم شيخ المجمع على صلاحه وعلمه وزهده وصيامه وضبط لسانه الشيخ نور الدين الطرابلسى .
وكان ﷺ متواضعا حسن الظن بالمسلمين ، وكان يؤذن فى شباك زاويته عند كل وقت من الخمس بصوت حسن وخشوع وتدبر أيام ولايته إلى أن مات . وكان لا يأكل قط من معلوم محكمته شيئا مع أنه ولى كرها ، وكان كثير الصدقة سرا وجهرا .
ولما عزله بعض قضاة العساكر لم يزل ملازما بيته على النسك والعبادة والإفتاء ، والتدريس إلى أن مات .

(٣) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ العالم العلاقة محقق الديار المصرية الشيخ نور الدين المحلى الشافعى ﷺ ، وكان كالجبل الراسى فى كمال العقل والهيبة والوقار ، غزير الدمعة إذا ذكرت أحوال السلف ، وكان مشهوراً فى مصر بحل مشكلات العبادات فى الأصول والفقه والمعانى والبيان وغير ذلك ، وتفقه عليه خلائق لا يحصون .

(٤) يقول الإمام الشعرانى : ومنهم شيخنا شيخ الإسلام برهان الدين القلقشندى ﷺ ، كان عالما صالحا زاهدا ورعا ، قليل اللهو والمزاح ، مقبلا على أعمال الآخرة ؛ حتى أنه ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل . انتهت الرئاسة إليه فى علوم السنة والكتب السنة والمسانيد والأجزاء .

(٥) يقول عنه الإمام الشعرانى: ومنهم الشيخ الصوفى المحدث ، نادرة الزمان الشيخ أبو الحسن=

ومن أدركناه متجرداً عن الدنيا ظاهراً وباطناً ، فى مأكله وملبسه ومنكحه ومسكنة الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، والشيخ محمد المنيـر ، والشيخ محمـد العدل ، والشيخ محمد بن داود ، والشيخ أبو بكر الحديدى ، والشيـخ محمـد السروى ، والشيخ عبد الحليم ابن مصلح ، والشيخ على النبتيتـى الضريـر ، والشيخ على البحيرى ، والشيخ محمد بن عنان ، والشيخ أبو العباس الغمرى ، والشيخ يوسف الحريثى [1] ، والشيخ أبو الحسن الغمرى[2] والشيخ أمين الدين الإمام بجامعة،وجماعة ذكرناهم فى كتاب الطبقات ، فمنهم جمالى ، ومنهم جلالى.

وقد يتفرع من الولى شخصان إحدهما مخالف لحال شيخه كسيدى أحمد الزاهد ، فإنه خلف بعده سيدى مدين وسيدى محمد الغمرى فجاء الغمرى متجرداً من ملابس الدنيا ومطاعمها ومساكنها كشيخه الزاهد ، وجاء سيدى مدين على صورة الشيخ عبد القادر الجيلى ونحوه كالسادات من بنى الوفا ، والشيخ شمس الدين الحنفى الشاذلى[3]، فسلم يا أخى لكل من تراه متجملا بالثياب مثلا من

= البكرى ، أخذ العلوم عن جماعة من مشايخ الإسلام الإسلام ، والتصوف عن الشيخ رضى الدين الفزى ، وتبحر فى علوم الشريعة من تفسير وحديث وغير ذلك .

وكان إذا تكلم فى علم منها كأنه بحر زاخر ، لا يكاد السامع يتحصل من كلامه على شئ ينقله عنه إلا إن كتبه فى قرطاس ، وأخبرنى بلفظه ونحن بالمطاف أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق ؛ وقال : أنا أكتم ذلك عن الأقران خوفا من الفتنة ، وسبب ذلك ما وقع للجلال السيوطى رحمه الله نعالى ، هذا لفظه .

مات سنة نيف وخمسين وتسعمائة .

(٦) قد تكون شيخ بيت بنى الوفا رضى الله عنهم .

(١) هو الشيخ يوسف الحريثى : كان مجداً فى أتباع السنة وقيام الليل وتلاوة القرآن وكان يخفى هذه العبادات جهده .

توفى سنة أربع وعشرين وتسعمائة .

(٢) هو الشيخ أبو الحسن الغمرى كان على جانب عظيم من الصفاء والصلاح توفى سنة تسع وثلاثين وتسعمائة .

(٣) هو الإمام الكبير شمس الدين الحنفى ، يقول عنه الإمام الشعرانى : كان من أجلاء مشايخ مصر ، وسادات العارفين صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الفاخرة ، والأحوال الخارقة=

الفقراء ، وإلا إن خفت على أتباعه أن يتبعوه مع الجهل بمشهده ، وحينئذ فلك أن تنهاه عن ذلك خوفاً على تلامذته ، أو تأمره أن يقول لهم : لا تقتدوا بى فى حسن الملابس والمناكح والمراكب ، فأنكم لا تبلغون حالى هذا أن وجد ذلك من مال حلال وإلا فالأنكار على ذلك الشيخ واجب .

فاعرض يا أخى ما قررته لك على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد الله رب العالمين[1]

=والمقامات السنية والهمم العلية صاحب الفتح المؤنق والكشف المخرق والتصدر فى مواطن القدس ، والرقى فى معارج المعارف ، والتعالى فى مراقى الحقائق ، كان له الباع الطويل فى التصريف النافذ ، واليد البيضاء فى أحكام الولاية والقدم الراسخ فى درجات النهاية والطود السامى فى الثبات والتمكين .

وهو أحد من ملك أسراره وقهر أحواله وغلب على أمره .

وهو أحد أركان هذه الطريق وصدور أو تادهما وأكابر أئمتها وأعيان علمائها علما وعملا وحالا وقالا وزهدا وتحقيقا ومهابة ، وهو أحد من أظهر الله تعالى إلى الوجود وصرفه فى الكون ومكنه فى الأحوال وأنطقه بالمغيبات ، وخرق له العوائد وقلب له الأعيان وأظهر على يديه العجائب ، وأجرى على لسانه الفوائد ، ونصبه قدوة للطالبين حتى تلمذ له جماعة من أهل الطريق وانتمى إليه خلق من الصلحاء والأولياء واعترفوا بفضله وأقروا بمكانته وقصد بالزيارات من سائر الأقطار .

توفى سنة سبع وأربعين وثمانمائة .

(١) ويوضح حديث الإمام الشعرانى أكثر ما يرويه بن عطاء الله السكندرى فى لطائف المنن يقول : وفى يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسى على الشيخ أبى الحسن ، وفى نفسه أن يأكل الخشن ، وأن يلبس الخشن ، فقال له الشيخ يا أبا العباس : اعرف الله وكن كيف شئت.

ويقول ابن عطاء الله : (وأما اللباس اللين ، وأكل الطعام الشهى ، وشرب الماء البارد : فليس القصد إليه بالذى يوجب العتب من الله ، إذا كان معه الشكر لله) .

ويقول أبو الحسن الشاذلى ﷺ : (يا بنى برد الماء ، فإنك إذ شربت الماء السخن فقلت : الحمد لله ، تقولها بكزازة : وإذا شربت الماء البارد ، فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله) .

ويقول الأستاذ على سالم عمار :(كان الشاذلى يلبس الفاخر من الثياب ، ويركب الفاره من الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد) .

ومن أخلاقهم كثرة دعائهم للسلطان ونوابه

من وزير وقاضى وباشاه وكاشف وشيخ عرب ونحوهـم ، وعـدم سبهـم إلا بطريق شرعى .

إذ الدعاء للسلطان ونوابه إنما هو دعاء فى الحقيقة لعامة المسلمين .

وقد كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : لو أن لى دعوة مجابة لما جعلتها إلا للإمام العادل ، لأنى لو جعلتها لنفسى لكان نفعها لا يتجاوزنى إلى غيرى ، بخلاف السلطان الذى به صلاح العباد والبلاد .

وكان يقول : النظر إلى وجه العالم الإمام العادل عبادة .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول : لولا السلطان ما صلح الناس.

وكان سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ يقول : من أدبنا مع السلطان إذا رأينا ظلماً وقع من جنده مثلا ، أن نحمله على عدم علمه بذلك ولا يكلف الله تعالى عبداً بشئ لم يعلمه .

هذا ما علينا من حقه ، وإن كان يجب عليه هو أن يبحث عن أحوال رعيته ليلاً ونهاراً .

وكان يقول أيضاً : أدبنا مع السلطان إنما هو فى الحقيقة أدب مع الله الذى ولاه .

وروى البخارى مرفوعاً : (السلطان ظل الله ورمحه فى الأرض يأوى إليه الضعيف وبه ينتصر المظلوم [1] انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : أياكم أن تسبوا السلطان وتنسوا اعوجاجكم فى الأعمال ، والأقوال ، من زنا ، ولواط ، وشرب خمر ، وتعاون فى الناس عند الظلمة ، وغيبتكم للعلماء والصالحين وعامة المسلمين فإن ذلك لا يزيدكم إلا ظلماً وجورا عقوبة لكم فاستقيموا فى أعمالكم يستقم لكم عمالكم،

---

(١) حديث السلطان ظل الله .. الخ ، له شواهد عند البيهقى وابن ماجه والبزار والحكيم الترمذى والطبرانى .

ويرفع الله عنكم هذا الذى يسمونه ظلماً .

قال : ولا يحصل لكم الاستقامة إلا إذا تبتم من ساير الأعمال ، التى تغضب الله تعالى ، وتبرز من جوارحكم الظاهرة والباطنة ، وما دام لكم سريرة قبيحة تفتضحون بها لو ظهرت للناس فأنتم مستحقون لجور الحكام عليكم انتهى.

وكان يقول : جوارحكم رعيتكم وقد ظلمتموها بالمعاصى فلم لا تدعون على أنفسكم وتسبونها ، كما تسبون الظلمة ، وكل حديث ورد فى ذم الظلم والجور فالعبد داخل فيه إذا وقع فى ذنب واحد طول عمره ، وفى الحديث الصحيح :(كلكم راع ومسئول عن رعيته [1]) فمن غش جارحة من جوارحه بوقوعها فى معصية لم يرح رائحة الجنة كما لا يجدها من غش رعيته من الملوك .

فاعرض يا أخى ما قررته على نفسك وأقرانك تعرف حالك رحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم العمل على تحصيل المقامات الشريفة

بحيث يصير أحدهم يشرف البقاع التى يدخلها ولا يتشرف هو بالبقاع ، فإن الإنسان الكامل أفضل من بقعة الكعبة فضلا عن غيرها ، ماعدا البقعة التى ضمت جسمه ﷺ فلا يدخل الولى بقعة من مسجد أو بستان مباح أودار إلا وتناديه بقاع ذلك المكان كلها : بالله عليك صل فى ركعتين أو أجلس فى ساعة . وتناديه الأشجار : بالله عليك أكرمنا بالأكل منا ، وهذا أمر مطروق بين الفقراء الصادقين وقد ورد ما يؤيد ذلك فى الأحاديث وهو أن البقاع تفاخر على بعضها بعضاً وتقول: هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل كما مر بى الحديث .

وكان سيد إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول : ما دخلت قـط بستانـاً مباحـاً

---

(١) حديث : (كلكم راع مسئول عن رعيته) أخرجه البخارى ومسلم عن عبد الله ابن عمر ﷺ وتمامه :(الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعيه فى بيت زوجها ومسئوله عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته).

للفقراء ، إلا وتنادينى أشجاره ، وما فيه من الحشيش وتخبرنى ، بما أودع الله تعالى فيها من المنافع والمضار .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : ليس الرجل من يتشرف بطوافه بالكعبة وتقبيلها ، وإنما الرجل من تتشرف به الكعبة .

فقلت له : كيف ذلك ؟

فقال : لأن الله تعالى ما أمر عباده بالطواف بها وتقبيل أحجارها إلا امتحانا لهم لينظر كيف يفعلون هل يقفون مع كمالهم الذى خلقهم الله تعالى عليه من الصورة الآدمية فلا يجيبون الحق تعالى إلى مادعاهم إليه كما وقع لأبليس فى قصة سجوده لآدم أم يمتثلون أمره تعالى ؟ ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب لما قبل الحجر الأسود : أما أنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك . ونظير ذلك أمر الحق جل وتعالى الملائكة بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، ولعنه من لم يسجد وقال : أنا خير منه فإن ذلك إنما كان جبراً لما أحدث الدعوى من كمال الملائكة حين ذكرت نفسها وجرحت صفوة الله من الخلق .

ومن هنا قال الشيخ أبو مدين ﷺ : كان الأمر بسجود الملائكة لآدم عن إغضاب خفى لا يشعر به كل أحد فكان كالكفارة لما وقعوا فيه من تزكية نفوسهم وتجريحهم لآدم .

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : لو أن الملائكة زكت أنفسها فقط ولم تتعرض لتجريح آدم لما عوقبت بالسجود لغير الله بإرادة الله انتهى .

ومن هذا الباب أيضا أمر الحق لنا بالطواف بالكعبة ولم يخص بذلك أحداً دون أحد بل أمر تعالى بذلك نبيه تشريعاً لأمته وأنشدوا فى ذلك :

لقــد طــاف خير الخلق بالكعبة التى ... يقــول دلــيل العقــل فيها بنقصان

وقــبل أحجــاراً لهــا وهــو طائــف ... وأيــن مقــام البيت من قدر انسان

فما قصد ﷺ بالطواف بالكعبة ، إلا طاعة ربه وفتح باب هضم النفس للمتكبرين من أمته فإذا أمرهم السيد أن يقبلوا نعل أحد من خدامهم بادروا إلى امتثال أمره بانشراح صدر .

وعلم مما قررناه : أنه لا ينبغى المبادرة إلى الإنكار على فقير رأيناه يصلى فى النصف الآخر دون الأول ، أو يأكل من شجرة أخرى دون التى قال له صاحب البستان كل من هذه ، فربما كانت تلك البقعة أو الشجرة المباحة أقسمت على ذلك الفقير بأن يصلى فيها أو يجلس أو يأكل منها فلا يسعه إلا أن يبر قسمها [1] .

وقد دخلت مرة مدرسة المزهرية بسويقة اللبن بمصر المحروسة لأصلى بها الظهر فنادتنى بقاعها فى سرى ، كما ينادى الكريم ضيفه ليأكل من طعامه ، وما رأيت أكرم نفساً ، وما أطيب قلباً من البقعة التى على يمين الداخل من الباب الكبير منها وهى السدلة الصغيرة المطلة على الشارع ، فما قدرت أتخلص منها للصف الأول ، ولكن بحمد الله جاء الإمام إليها فصلى بنا فيها ، وترك المحراب

---

(١) ويؤيد ذلك ما ورد فى كتب السيرة من الروايات عن حنين الجذع الذى كان يخطب عليه سيدنا رسول الله ﷺ وأيضاً تسليم الحجر والشجر عليه حتى بالنسبة للنهى عن إتيان أمر معين، وأخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : حدثتنى أم أيمن قالت :

كان بوانة صنما تحضره قريش يوما فى السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه فيأبى . حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب ، وجعلن يقلن : أنا نخاف عليك مما تصنع من إجتناب آلهتنا وجعلن يقلن : يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعا ؟

ولم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا فقلن عماته ما دهاك ؟

قال : إنى أخشى أن يكون بى ألم ؟

فقلن : ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ؟ فما الذى رأيت ؟

قال : إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد لاتمسه ، قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ .

لمكان صدق تلك البقعة فى العزومة فصرت أنا فى الصف الأول ولم يفتنى الوقوف فيه ، وهذه الأمور لا يدركه إلا من كشف الله تعالى حجابه ، ورأى حياة جميع الموجودات وهو مقام يصله السالك أوائل دخوله فى الطريق ، فيصير يعامل الجماد معاملة ذى الروح ، ويسمع أنين الابريق مثلا إذا صدم الحائط .

وذكر الشيخ محى الدين بن العربى ﷺ : أن شخصاً عزم على بعض الفقراء فى ولميه . بمصر العتيق ، فأسقاهم فى أناء من زجاج ثم بعد مدة احتاج إلى البول فيه فناداه الإناء بلسان فصيح : بالله عليك لا تنجسنى بالبول بعد أن أكرمنى الله تعالى بشرب الفقراء منى لما دعوتهم فى وليمتك قال : فاستحى الرجل وترك البول فيه انتهى .

وكذلك بلغنا عن الشيخ أبى العباس الحرار المدفون بقرافة مصر ﷺ أنه كان فى تربة فأخذ حجراً يريد الاستنجاء به فناداه : بالله عليك لاتنجسنى ثم أخذ حجراً آخر فقال له : كذلك ، ثم أخذ الثالث فقال له كذلك ، فتحير فقيل له : أستأذن الشارع واستعمله وقدم أمر ربك على غرض الحجر ، ففعل . فاعمل يا أخى على رقة الحجاب حتى تصل إلى هذا المقام .

واعرض على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم : مراعاة خاطر شيخهم

وايثار مراعاته على أعز أصحابهم ، وذلك ليترقى أحدهم فى المقامات على يد شيخه ، حتى يتأهل لمعاملة ربه عز وجل بلا واسطة ، فإن الشيخ سلم للرقى فمن لم يصح له قدم فى الأدب مع شيخه فلا يصح له ترق إلى الأدب مع الله عز وجل [١] .

وهذا الخلق ربما يدعيه بعض المريدين وهو كاذب فيه ، من حيث لا يشعر ، فليمتحن نفسه بما لو منعه شيخه وظيفة أو خلوة أو مسكناً كان بالأشواق إلى

(١) إقتداءاً فى ذلك بفعل الصحابة مع رسول الله ﷺ وفعل التابعين مع آل البيت رضوان الله عليهم، وعلى كل فليس للمريد سبب إلى الطريق الصوفى إلا بواسطة شيخه .

وصوله إليه ، وأعطاه لشخص من أعداء ذلك المريد ، فإن أنشرح لذلك ورضى به من غير حزازة فى نفسه ، فهو صادق وإلا فهو كاذب ، إذ لو كان صادقاً لقدم مرضاة شيخه ، وترقى من ذلك إلى تقديم مرضاة ربه على مرضاة خلقة .

وكذلك يمتحن نفسه بغضب شيخه على شخص من قرابتـه هـو ، أو مـن أصدقائه ممن ينصره ويخاصم معه الاعداء ، ويجيب عنه إذا تكلم أحد فى عرضه من ورائه ، فإن رأى نفسه صارت تكره ذلك القـريب أو ذلك الصديـق ظاهـراً وباطناً ، لأجل عرض شيخه فهو صادق ، وإلا فهو كاذب وسيأتى أنه ورد فى الحديث : أن شخصاً يؤتى به يوم القيامة ومعه أعمال كالجبال فيؤمر به إلى النار، فتقول الملائكة : يا ربنا قد كان من عمله كذا وكذا من صلاة وصيام وحج وصدقة، وغير ذلك فيقول الله تعالى قد كان من عمله ذلك ، ولكنه كان لا يوالى من والانى، ولا يعادى من عادانى انتهى .

وكذلك سيأتى أن شخصاً من علماء بنى إسرائيل كان يعظ الناس فبينما المجلس غاص بأهله ، إذ غمز ولده امرأة أجنبية فالتفت الواعظ إليه ، وقال : مهلا يا ولدى ما هكذا الأدب ، فأرسل الله تعالى ملكاً فحمل الكراسى بالواعظ وقلبه ، فقطع وجه الواعظ ، وأوحى إلى نبى ذلك الزمان : أما كان من غيرة فلان لى أن يقول : مهلا يا ولدى من غير إظهار غضب عليه انتهى .

أى فلو أن الواعظ كان عنده غيرة للحق لضرب وجه ولده بالفعل حتى قطعة كما فعل الملك حين القاه بالكرسى .

فاعلم ذلك وأعمل به أن أردت الترقى فى المقامات إلى حضرة الله والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة محبتهم للأعمال الصالحة محبتهم لأن يضاف إلى غيرهم عكس المرائيين

فإذا ألف أحدهم كتاباً وفتح الله تعالى عليه فيه بعلوم ومعارف أضافها لغيره

ممن هو أهل لذلك [١] .

وإذ أخذ أحد منهم صدقة ليفرقها على الفقراء والمساكين خلط عليها من ماله ماوجد بحيث لا يشعر به أحد[٢].

وإذا عمر ضريح شخص من الصالحين بعده ونوره ، ومدحه الناس على ذلك ، حتى وصل الأمر إلى الباشاه مثلا ، يود أنه لو كان نسب إلى غيره من أقرانه .

وإذا سمع الناس يقولون عنه : أنه ما عمر هذا الضريح إلا ليقال عنه : أنه من الصالحين ، وأنه من الخرقة ولم يعمره لله تعالى يفرح بذلك .

وقد جاء فقير يعمر سيدى خضر الكردى شيخ الملك الظاهر أبا الفتوحات بعدد ثوره نحو ثلاثين سنة، فاشتهر فى مصر أن فلانا عمر ضريح فلان ، فجاء فقير آخر ليساعد ذلك الفقير فى العمارة ، فبلغ الباشاه أن ما عمر ضريح الشيخ الفلانى إلا ذلك الفقير الثانى فقصد الباشاه زيارة ضريح ذلك الشيخ ، وشكر الفقير الثانى دون الأول ، فلا تسأل يا أخى ما وقع من الفقير الأول فى حق الثانى ، فليحذر الفقير من مثل ذلك ويحرر نيته الصالحة فى كل عمل يمدح عليه وينتشر عنه فى البلد .

وسمعت سيدى علياً الخواص رحمه الله يقول : ما دثر[٣] ضريح ولى قط وخرب وبطل مولده إلا باختياره للخفا على الظهور ، فليتنبه الفقير الذى يعمره

---

(١) وكذلك كان يفعل الإمام أبى العباس المرسى مع شيخه أبى الحسن الشاذلى وكذلك الإمام ابن عطاء الله السكندرى مع أستاذه إبى العباس المرسى وعلى ذلك درج أغلب الأولياء وعلماء الصوفية .

(٢) كانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تطيب الدراهم التى تتصدق بها ثم تبعثها مع خادمها إلى الفقراء ، وعندما يعود الخادم تسأله ماذا قال لك ، فيقول الخادم مثلا إنه دعا بدعوات ، فكانت تدعو هى للفقير حتى لا تكون هذه الدعوات فى مقابل الصدقة ، فإنها ما أرسلت هذه الصدقة إلا لله تعالى دون انتظار مكافأة عليها من الفقير ، وكذلك كان يفعل غيرها من الصحابة وقارن بين ذلك وبين موقف من يتصدق ليرائى .

(٣) يقصد ما أندثر ضريح .

لمثل ذلك ، وينظر من طريق كشفه فإن رأى خاطره يحب الظهور عمره ، وإلا تركه داثراً لا يزوره أحد تقديماً لمرضاة ذلك الشيخ على مرضاته هو .

وربما كانت العمارة من المال حرام ، أو شبهة ، أو من أهويه النفس ، فيؤذى نفسه من وجهين : وجه مخالفة غرض ذلك الولى ووجه مشيه هو فى هوى نفسه .

وقد كان شيخى الشيخ أحمد البهلول [١] يحب الخفا حتى أنه أوصى بأنه لا يجعل على قبره علامة وقال : أدفنونى خارج باب القرافة فى الفسحة التى على يسار الخارج من الرميله لباب القرافة فى حارة عرب اليسار .

فقلت له : أن النبى ﷺ أمر بجعل العلامة على رأس القبر وقال : أتعلم بها قبر أخى (يعنى عثمان بن مظعون) وأدفن إليه من مات من أهلى .

فقال : إنى ما كرهت الظهور إلا من جهه دق الناس تابوت ذلك الفقير الذى يرون عليه ستراً وتحميله حملاتهم .

ولم يكن هذا المعنى فى العصر رسول ﷺ ولا عصر الصحابة لقوة الإيمان فى ذلك الزمان ، وأما الآن فقد أفلس غالبهم من كمال الإيمان ، وكثرت معاصيهم، فألقوا حملاتهم [٢] على كل من ظنوا فيه الصلاح ، فربما دقوا تابوت أحد فى قضاء حاجة فقضيت موافقة قدر أو دقوه على عزل ظالم ، فعزل أو مات .

فصار الناس يقولون : الشيخ الفلانى سره ظاهره ، فيكثروا من دق تابوته ، فلا يتركونه يتهنى فى قبره فاعلم ذلك .

---

(١) كان ﷺ يقول : لا تدفنونى إلا خارج باب القرافة فى الشارع ولا تجعلوا لقبرى شاهدا ودعوا البهائم والبغال تمشى على واحذروا أن تجعلوا على قبرى تابوتاً أو سترا يبقى كل من مر على يدق تابوتى يمنعنى أن أستريح فى القبر ، فقالوا له : قد عملنا لك قبراً فى جامع بطيخة، فقال : إن قدرتم أن تحملونى ففعلوا فعجزوا أن يحركوا النعش إلى ناحية الجامع فلما حملوه جهة القرافة خف عليهم ﷺ .

مات سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ﷺ .

(٢) يقصد بذلك ذهاب الناس إلى الأضرحة وتوسلهم إلى الله بالولى الذى فيه .

وأعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم الثقة بأصدقائهم فى كل زمان

فكيف بمن يصحبهم على نفاق وملق فلا يظهرون سرهم لأحد إلا إن علموا من طريق كشفهم أن ذلك الصديق يكتم ما أودعوه عنده من السر بطريقة الشرعى شفقة عليه أن ينقص دينه بإفشائه .

وقد كان سفيان الثورى ﷺ يقول : والله ما آمن على نفسى فى هذا الزمان إذا خالفت غرض أعز أصدقائى فكيف آمن غير الصديق ؟

وفى رواية أخرى : ما آمن صديقى على نفسى إذا خالفت أغراضه أن يسعى فى سفك دمى عند سلطان جائر فكيف آمن عدوى ؟ انتهى .

وهذا باب أغفله كثير من الناس فأفشوا أسرارهم إلى من ظنوا فيه الصداقة وفى لمح البصر صار عدواً وأذاهم كل الأذى . فيحتاج الفقير فى هذا الزمان إلى صبر شديد على كتمانه أسرار الله تعالى فى العالم كما أشار إليه الإمام زين العابدين بقوله :

يـا رب جوهـر علـم أبـوح لو به   لقـيل لـى أنـت ممـن يعبد الوثنا
ولا ستحل رجـال مسـلمون دمـى   يـرون أقـبح ما يأتونه حسنا (انتهى)

وقد طلب الشيخ شمس الدين الابوصيرى أحد أصحاب سيدى أبو السعود رحمة الله أن يطلعه الشيخ على شئ من أسرار الطريق فقال له الشيخ أبو السعود والله ما آمنك على إخراج ريح بحضرتك فكيف أطلعك على الأسرار الآلهيه[1] انتهى .

---

(١) ولعل كثير من الأنكار الذى يجئ على الصوفية من جهة الفقهاء وغيرهم جاءهم من وضع أسرارهم فى أيدى الجاهلين بقيمتها فيبلغونها ويذيعونها إلى الناس محرفة وبدون أى تفسير لظروفها وزمانها ومكانها .

وكذلك بلغنا أن جماعة طلبوا من سيدى الشيخ أبى عبد الله القرشى أن يطلعهم على شئ من الأسرار فقال لهم : كم أصحابى اليوم ، فقالوا ستمائة رجل فقال : اختاروا منهم مائة فاختاروا .

ثم قال : اختاروا من المائة عشرين فاختاروا .

ثم قال : اختاروا من العشرين أربعة فاختاروا .

فقال : لو تكلمت لكم بشئ من الأسرار لكان أول من يفتى يضرب عنقى هؤلاء الأربعة أى غيرة لظاهر الشريعة فاعلم ذلك يا أخى وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم كثرة امتحانهم لأصحابهم إلا لفرض شرعى

خوفاً أن يفضحوهم وقد قيل لاسكندر رحمه الله : لم لا تمتحن أصحابك فقال : إذن نخرج كلنا نحاساً انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : إياكم وكثرة الامتحان لأصحابكم فإن الله تعالى لم يمتحن من عباده إلا النادر خوفا أن يفضحهم بين يديه بإظهار ما كان كامنا عندهم .

قال : ومن تأمل نفسه بعين الانصاف وجد نفسه كلها عيوب ضم بعضها إلى بعض فصارت صورة تشبه صورة الآدمى ، فالعبد وأن كان خياراً من جهة ، فهو شر من جهات عديدة [١] .

وكان ﷺ يقول لنا كثيراً : إن كان ولا بد لكم من امتحان أصحابكم فامتحنوا نفوسكم فى دعاويها الكاذبة ، فإن لكم فيه لشغلا وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة السلام : يا داود إذا طلعت على عيب أحد من بنى إسرائيل ، فاستح

---

(١) يقصد بذلك عدم الإسراف فى امتحان المريدين وتصعيب الأمور عليهم سواء من ناحية الطريق الصوفى أو من ناحية التكاليف الشرعية أو خدمتهم للإخوان وأيضاً الصبر عليهم وخاصة فى أول طريقهم إلى الله تعالى .

من اطلاعك ، فإنى أستحى من عبدى أن يشهدنى فى حال عصيانه لئلا يخجل منى، فلذلك ضربت الحجاب بينى وبينه حال المعصية ، حتى يفرغ منها انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن خلاقهم عدم ظنهم فى أحد من المسلمين بسوء احق [1]

من قول أحدهم : إنما امتنعت من التقدم لصلاة الجنازة مراعاة لخاطر فلان خوفاً أن يتكدر فى نفسه فإنه جعله ممن يحب الرياسة فليمتنع أحدهم من التقدم أدباً مع أخيه لا لظنه فيه أنه يحب الرياسة .

وقد وقع لى أننى حضرت جنازة الشيخ محب الدين بن الدهانه الحنفى فى جامع الأزهر ، فكان هناك شخص من العلماء ، فوقف عند النعش لظنه أنهم لا يقدمون أحداً عليه .

فقال أولاد الشيخ : إنه أوصى بأنه لا يصلى عليه إلا عبد الوهاب[2]، فكاد ذلك العالم أن يتميز من الغيظ حتى أدرك ذلك منه الحاضرون ، فكذبتهم صيانة للخرقه عن أن يكون أحد بها ، فإياك يا أخى وسوء الظن ، ثم إياك وكذب ظنك السوء فى الناس ما استطعت والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تمكينهم أحداً أن يقوم لهم أو يقبل يدهم فضلا عن رجلهم

وكراهتهم لذلك لأن عيوبهم مشهودة لهم مع تجدد الساعات ، فإذا قبل أحد يدهم يكادون يذوبون من شدة الحياء من الله عز وجل .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يزجر من يريد تقبيل يده أشد الزجر ويقول : إنما يليق ذلك لأرباب المناصب أما الفقير ؛ فاللائق به الذل حتى يجاوز الصراط ، ويدخل الجنة هذا ما عليه جمهور العارفين ، وقد خالف قوم منهم أبو

---

(١) ربما يقصد بسوء ما حق .

(٢) يقصد المؤلف نفسه ، أى عبد الوهاب الشعرانى .

يزيد وكان لا يمنع أحداً منهم من تقبيل يده ولا من التمسح بمرقعته ، ويقول : إنما يعظم هؤلاء خلعة ربى التى خلعها على لا أنا انتهى .

وكان سيدى على بن وفا رحمه الله يقول : من صار فى رتبة الحجر الأسود فى كتمان أسرار العباد ، والصبر على تقبيله ومسحه بغير صدق مع علمه بذلك منهم ، ثم يكتمه عليهم فله أن يمكن الناس من تقبيل يده [١] والا فمنعهم من ذلك واجب لعدم أهليته لذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة تنفيرهم للأخوان عن أن يرسلوا إليهم طعاماً أو هدية إلا بعد استيئذانهم فى ذلك

فإنه ما كل طعام يصلح للفقراء أكله ، لاسيما أواخر أعمارهم ولايقال إن ارسال الناس الطعام من حيث لا يحتسب الإنسان أكله أولى لأن ذلك محله ما إذا كان صاحبه متورعاً عن الحرام والشبهات بقرينه قواعد الشريعة فأفهم ، إياك والمبادرة إلى الأعتراض على من يرد ما جاءه من غير سؤال .

وقد من الله تعالى على بالعمل بهذا الخلق ، حتى أننى أتشوش ممن يرسل إلى هدية بغير أذنى ، ولو لم تستشرف نفسى لذلك ، وأعلمت الأخوان أن فى أكلى من طعامهم عدة مفاسد منها خراب قلبى إذا أكلت طعامهم ، فلا يصح لى بعد ذلك توجه إلى الله تعالى فى قضاء حوايجهم إذ الغالب على كسبهم الغش والخوف والبيع على الظلمة من المكاسين وأكلة الربا[٢] ونحو ذلك ، وإذا أكلت من طعامهم

---

(١) ولا يكون ذلك داخلا فى دائرة الكبر المنهى عنه فأن يكون الرجل بهذه الصفة فإن يستحق ذلك ولعل الإمام الشعرانى يقصد الشخص المنافى لهذه الصفات ويقصد أيضاً تعليم المريدين شدة الحياء فى هذا الأمر وأن يتواضعوا لله عز وجل .

(٢) يقصد أنهم فى تجارتهم أو تعاملهم ، يتعاملون مع أناس كسبهم حرام فى بعض الأحيان وهو لا يدرون فالإمام الشعرانى يتورع عن الأكل من هداياهم أو أخذها إتقاءاً للشبهة وإلا فإنهم لا يزيدون عن كونهم كأغلب تجار اليوم لا يستطيعون معرفة الأشخاص الذين يتعاملون معهم ولا من أى طريق يكسبون.

صرت فى ضعف التوجه إلى الله تعالى كأحدهم ، فطلبت لى أنا الآخر أحداً يتوجه إلى الله فى قضاء حاجتى ، إذ صدق التوجه إلى الله تعالى راجع إلى قوة الحال فى اللقمة والخلقة .

ومنها أن قبولى إحساناً من هداياهم يحدث عند أحدهم إذلالا على بعد ذلك ، فلا يصير يخاف من مخالفتى فيما أنصحه لأجله، فيقل نفع الصحبة بينى وبينه[1] وغير ذلك مما ذكرناه فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة مسامحتهم بحقوقهم إذا أخل بها الناس

وعدم مسامحتهم لأصحابهم ، إذا أخلوا بحقوق الناس الأجانب ، ولكن لا يبالغون فى معاتبتهم لأن كثرة المعاتبة تورث إسقاط حرمة العاتب ونزع وده من القلب ، وإنما كانوا يسامحون الأخوان وغيرهم بالإخلال بحقوقهم لأنهم لا يرون لأنفسهم مقاما يخافون من نقص بين الناس فلو ذمهم الناس إلى الطرف الأقصى ، فذلك عندهم دون ما يعلمونه من نفوسهم .

وقد كان عطاء السلمى يقول إذا خالفه عبده ، ما أشبه حالك معى بحالى مع ربى عز وجل فعلم أن كل فقير تكدر من كلام قيل فيه ، فهو صاحب دعوته ليس له فى مقام الصادقين نصيب إلا أن يكون ذلك لغرض صحيح كما مر والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم اغترارهم بالمرأى الحسنة التى يراها الناس لهم

لأنها توذن بضعف إيمان من رؤيت له ولو أنه كان قوى الإيمان عادة لما احتاج إلى شئ يقويه ، ولذلك كان المريدون يرون لأنفسهم المرائى الحسنة بخلاف العارفين فيما رأى العارف مرائى مهولة تقشعر منها بدنه ، وذلك حتى

(١) ولعل ذلك هو السبب الأساسى لرفض الإمام الشعرانى لقبول الهدايا .

لا يستحسن من أحواله شيئاً فإن كل ما استحسنه العبد من أعماله ، فهو هباء منثور فلا بد من مناقشة فيه يوم القيامة ، لأن استحسان العبد لشئ من أعماله يعميه عن تلك النقائص الكامنة فيها ويمنعه من المزيد ، فعلم ان اعتناء الحق تعالى بالعارفين أكمل من اعتنائه بالمريدين .

فأعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالتهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم إجابتهم لمن دعاهم إلى وليمة بقصد التفاخر

بحضور الناس لا سيما المتمشيخين بأنفسهم فربما عمل أحدهم مولداً ودعا أكابر الأشياخ إليه ليقول الناس : لولا أن هذا شيخ عظيم ما أجابه أشياخ الطريق، ولكل شئ قراين تدل عليه ، ومن قرائن الرياء فى تلك الدعوة أن صاحبها يصير يمزق عرض كل من تخلف ولم يحضر أو يعتب عليه ، فأما الحضور ان كان فيه خير فذلك الممتنع هو الذى فوت نفسه الخير ، وأن لم يكن فى الحضور خير فقد استراح منه ولا ينبغى العتب عليه انتهى .

ومن أخلاقهم شهودهم أن القايمين فى الكسب بالبيع والشراء وعمل الحرفة أفضل منهم

ولو كانت أعمالهم كالجبال لأن من لا حرفه له من الفقراء ربما أكل بدينه ويرجع ثواب تلك الأعمال التى تقوى عليها بطعامهم فى صحايفهم فيخرج من الدينا صفر اليدين من الاعمال الصالحة .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول قد أكرم الله تعالى المحترفة بأمور فضلوا بها على المتعبدين من غير حرفه[1] :

---

(١) ولعل من الأمور التى كثيراً ما تنتقد على الصوفية عدم عمل بعضهم والإمام الشعرانى هنا ينهى المريدين ذلك فقد كان الانبياء يعملون ويأكلون من كسب يدهم ، وكان الصحابة يعملون ويأكلون من كسب يدهم ، وكذلك التابعين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين . =

الأول : أن أعمال أحدهم له لكونه يأكل من كسبه لا من صدقات الناس وأوقافهم .

الثانى : عدم دعواه العلم وتكبره به على الجاهلين فيشهد حقارة نفسه وتعظيم غيره .

الثالث : سلامته من الشبه العقلية فى الله تعالى وفى رسله وأحكامه .

الرابع : أنه إذا وقع فى معصية يصير يشهد قبحها لا يرى أنه عمل شيئاً يكفرها حتى يلقى الله تعالى وغير ذلك مما ذكرناه فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم مقابلة المسئ بالإساءة

لأنهم فى مقام الإحسان يرون أنهم فى حضرة الله تعالى ، ويرون أنه الخالق لأفعال عباده ، فكلما سبهم انسان مثلا يشهدون الخالق لذلك لامن برز ذلك السب على لسانه ، ثم لا ينقضى ذلك الشهود فلا بدلهم من التنزل لشهود نسبة الأفعال إلى الخلق فينكرون عليهم سبهم بغير حق نصحا لهم لا لعلة أخرى لأن من تعدى حدود الله يجب الإنكار عليه ، سواء أكان ذلك التعدى فى حق المنكر أو فى حق غيره، فعلم أنه لولا أن أهل الله تعالى فى حضرة الإحسان لما استطاعوا تحمل السب من غيرهم لأنهم أن شهدوا خالق السب وجب عليهم الرضى أو الصبر جزماً لعجزهم عن شهود من يرسلون غضبهم عليه السب وإن نزلوا عن ذلك المشهد رأوا الخلق عبيد الله تعالى ، فأكرموهم لأجله ،وإن نزلوا عن ذلك رأوهم من أمة محمد ﷺ شفيعهم عند الله تعالى ، فأكرموهم لأجله ، وإن نزلوا عن ذلك رأوهم أخوانهم فى الدين فأكرموهم لأجل الأخوة رضى الله عنهم تعالى أجمعين[1].

= وفى الحديث : عن النبى ﷺ قال : (اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأبدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ومن يستعفف يعفه الله) رواه البخارى .

وقال ﷺ : (كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوت) رواه مسلم .

(١) يقول الله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . =

فأعرض يا خى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف الحال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أقامة العذر لأخوانهم إذا لم يقدروا على الصبر عن مقابلة من آذاهم

لعدم قدرتهم على المكث فى حضرة الإحسان فإن الأحوال قد فسدت ومراسم الأمور قد تغيرت ، وتبدلت ، وأكتفى الناس بالأقوال عن الأفعال ، وعم البلا خواصنا وعوامنا ، وظهر من الناس أخلاق الذياب تارة وأخلاق الثعالب تارة ، وأخلاق السباع تارة ، وأخلاق البهايم تارة ، وأخلاق الجن ، والشياطين تارة حتى لا يكاد الإنسان يرى فى أحدهم أخلاق أحد من كمل المؤمنين إلا فى النادر .

فالعاقل من عذر الناس بما يعذر به نفسه ، ولاينبغى له أن يحرج عليهم فى أحوالهم ، وينسى نفسه ، ولكن ينبغى لأكابر العلماء والصالحين أن يكون لأحدهم، سفيه يسافه عنه فى بعض الأوقات ، التى يحجب فيها عن ربه ، لأن الحيا

=وقال تعالى : (فأصفح الصفح الجميل) .

وقال تعالى : (وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) .

وقال تعالى : (والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها ، أنها قالت للنبى ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيته منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فأنطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى وإذا بسحابه قد أظلتنى فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادانى فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم على ، ثم قال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بأمرك ، فما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين .

فقال النبى ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً . متفق عليه.

الطبيعى ، وإن كان محموداً من أصله ، فقد يحتاج العبد إلى تركه فى بعض الأوقات ، كما هو مشاهد فى مقابلة قليل الحياء بنظير فعله ، لئلا يتسع الخرق فى قلة الحيا بالكلية ، وخرج بالحياء الطبيعى الحياء الشرعى ، فذاك مطلوب لا يحل تركه وهو حياء العبد من ربه أن يراه تاركا لأمره ، أو غير مجتنب لنهيه ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم بذرهم علومهم ومعارفهم فى غير محل قابل[1]

لأن ذلك كالزرع فى أرض السباخ .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : إذا تكرم الحق تعالى عليكم بمدد من علم أو حال ، فتكرموا به على من رأيتموه صادقا فى همته كامل الخلق فى نشأته فإنه أزكى لزرعكم وإياكم أن تتكرموا به على من كان بالضد من ذلك فتكونوا كمن يبذر بذره فى أرض سبخة ، فلا تثمر لكم زرعاً بل لا يطلع أصلاً ،

قال : ومن علامة طيب أرض قلب المريد أن يكون ذليل النفس منكس الرأس يفرح إذا حقره الناس وآذوه ، ومن ذلك فيؤثرهم على نفسه ولا يطلب منهم جزاء فى الدارين ، فمثل هذا ينبغى للشيخ أن لا يدخر عنه شيئاً من المدد لشدة إخلاصة انتهى والحمد الله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن أحدهم يزداد قلبه بالسلب تمكينا ويقيناً

وذلك لأنهم مع الله تعالى ، بما أحب لا مع نفوسهم بما تحب .

وكلما سلبهم الحق تعالى المقامات ، والأحوال كلما تمكنوا فى مقام العبودية، الذى هو محل تقريبات الحق تعالى ، وكلما أضاف إليهم الأمور ، والمقامات كلما

---

(١) وكما قلنا من قبل أن سبب أنكار بعض الناس على بعض الصوفية هو إطلاع جهلاء الناس على بعض العلوم والمعارف عندهم فيحرفونها فتصل إلى الناس كأن فيها محرمات وما شابه ذلك .

بعدوا من حضرة الله تعالى برؤيتهم الشركة لهم مع الله بنسبة الأمــور إليهــم ، فلا يكاد يتبرأ من نسبة الأمور إليه دون الله تعالى ببادى الرأى إلا الكمل من الرجال فالعبد الصادق من لا يرى له ملكا مع الله تعالى فى الدارين ، إنما هو يأكل من مال سيده ويلبس منه ويسكن داره من غير شهود ملك لشئ من ذلك له فلا على صاحب هذا المقام من كون الحق تعالى أعطاه شيئاً فى الكونيين ، أو لم يعطه لأنه تعالى ولو أعطاه شيئاً يجب عليه الخروج منه فوراً إلى الله تعالى فلا يدعه يقيم تحت تصريفه إلا بقدر ما يتحقق بنسبة العطا له فقط ، ليشكر الله تعالى على إذنه له فى التصريف فيه لا غير ثم بعد ذلك يستغفر الله تعالى ويقول فى نفسه : لولا أن الحق تعالى علم منى محبة المشاركة له بدعوى الملك لما أضاف إلى شيئاً من الوجود ، وهذا المشهد قد صار غريباً فى هذا الزمان .

فاعرض يا خى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم العمل برأى النساء فى هذا الزمان

الذى صار رأى غالب على الرجال فيه ناقصاً فكيف برأى النساء .

وإنما كره القوم العمل برأى النساء لعلمهم بأن محبة الرجل للمرأة تكون فى الغالب بحكم الطبع والشهوة ، وما ثَم أميل من النساء للرجال وعكسه لافتقار كل منهما للآخر شهوة وطبعاً وحالاً ، وقد شرع الحق تعالى الاستخارة للعباد ، فأغنتهم عن مشاورة غيرهم إلا إذا استخار أحدهم ولم يظهر له الخيرة فى ذلك الأمر ، فله حينئذ أن يشاور إخوانه الذين جربوا الامور ، وخالطوا أهل الدنيا دون العباد والزهاد المقبلين على العبادة ، فإنهم فى الغالب لا معرفة لهم بأمور الدنيا فتدبيرهم ناقص والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم لتعلمهم علوم الفلاسفة الأول

كعلم الرمل وعلم الحرف وغيرهما لأنها تطلب فى الغالب للتأثير فى العالم ،

ولتحصيل أمور دنيوية قد لا تكون مقسومة لأحدهم وأهل الله تعالى يهربون من مثل ذلك ، ثم إن وقع لأحد من الفقراء أنه تعلمها وعمل بها التأثيرات فى العالم من تولية الحكام أو عزلهم أو قتلهم مثلا ، فليس ذلك من كرامته على الله تعالى ، إنما ذلك من باب الخاصية كالدواء المسهل فإنه يسهل متناوله بالخاصية لا بالمكانة عند الله تعالى ، وقد كان سيدى ابراهيم المتبولى ﷺ يقول : وعزة ربى إن عباد الأوثان أعلا همة ممن يطلب علم الحرف لأغراض دنيوية لأن عباد الأوثان قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، وهؤلاء طلبوا علم الحرف[1] ليقربهم إلى الدنيا ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الوسطى .

فأعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة نصحهم لإخوانهم بحكم العادة

لكن لا يخرجون إلى حد المكاشفة بعيوب الناس ونقايصهم ، التى يفعلونها فى بيوتهم ، وهذا الأمر يقع فيه كثير ممن لم يسلك على يد شيخ ويرون أنهم صاروا على قدم عظيم والحال أنهم إخوان الشياطين ، لأن كل كشف أطلع صاحبه على عيوب الناس فهو كشف شيطانى يجب عليه التوبة منه فوراً ، بخلاف الكشف الذى يطلع به العبد على كمالات الناس ومحاسن اعمالهم ، وقد وقع لى ذلك مرة فسألت الله تعالى الحجاب فحجبنى عنه فله الفضل على كل حال والحمد لله رب العالمين .

---

(١) واغلب الطرق التى نراها الآن تنهى مريديها عن تعلم هذا العلم أو غيره من علوم اليزرجة فإن هذه العلوم كثيرا ما تخدع المريد فيتكل عليها ويترك طريق التصوف المبنى على الحقيقة الآتية من لدن الله سبحانه وتعالى ويتجه إلى تلك العلوم ظانا منه أن ذلك أقصر طريق للوصول إلى الله وربما انحرفت نحو الإتجار بها والمراءاة عند الناس بما يظهر على يديه من الخوارق التى لم يعتادها الناس .

ومن أخلاقهم شهودهم أن جميع ما معهم من العلوم والمعارف وغيرها كله عارية من الله تعالى لهم

ولذلك لو نسبهم أحد إلى الجهل لا يتأثرون منه لأن لسان حال من نسبهم إلى الجهل يقول لهم : هذه العلوم التى معكم ليست لكم فهو صادق فى قوله عندهم فكيف يتأثرون منه .

وفى القرآن العظيم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا [١] ﴾ وهى وإن كانت واردة فى شأن مفتاح الكعبة ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب غالبا .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من أراد أن يعلم جهله ونقص مرتبته فى العلم فليرد كل قول علمه أو فهمه فى ساير الأحكام إلى قائله وينظر بعد ذلك فى نفسه فما بقى معه فهو علمه قال :

وأظنه لا يبقى معه إلا القليل الذى لا يسمى بـه عالمـا [٢] والحمـد لله رب العالمين .

---

(١) النساء آية : ٥٨.

(٢) قال الفضيل بن عياض : من رأى لنفسه قيمة فليس له فى التواضع نصيب .

وسئل الفضيل عن التواضع ، فقال : تخضع للحق ، وتنقاد له وتقبله ممن قاله .

وقال الفضيل : أوحى الله إلى الجبال ، أنى مكلم على واحد منكم نبياً ... فتطاولت الجبال ، وتواضع ((طور سينا)) فكلم الله سبحانه ، عليه موسى عليه السلام لتواضعه .

وسئل الجنيد عن التواضع ؛ فقال :

خفض الجناح للخلق ، ولين الجانب لهم .

وقيل لأبى يزيد : متى يكون الرجل متواضعا ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا ولا يرى أن فى الخلق من هو شر منه .

ومن أخلاقهم : أن لا يجيبوا من طلب منهم مسئلة من العلم مثلا وقلبه غافل

بل يرشدوه إلى تعلم آداب العلم ، ثم يجيبوه بعد ذلك لأن من طلب زيادة العلم ، فقد طلب زيادة التكليف ، فاللايق به البكاء وحضور القلب لا الغفلة والضحك ، وقد قال إبراهيم بن أدهم :

مررت على حجر مكتوب عليه أقلبنى تعتبر .

قال : فقلبته فإذا فيه منقوش : أنت بما تعلم لا تعمل ، فكيف تطلب علم مالا تعلم ، أنتهى .

وقد تقدم بسط ذلك أوائل هذا الكتاب .

وسأل شخص الشعبى رحمه الله تعالى عن مسألة وهو يضحك ، فهجرة ثلاثة أشهر حتى ساق عليه العلماء ، واستغفر فقبل الشعبى توبته ثم قـال لـه : يا ولدى إنما يطلب العلم للعمل ، والأدب مع الله تعالى ، فلا ينبغى لغافل أن يأخذه وهو يضحك وإنما اللايق به أن يأخذه وهو يبكى خوفاً أن لا يوفى بالعمل به فيدخل النار ، انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إذا توقف أحدكم فى فهم آية ، أو حديث أو غيرهما ، فليعلم أن قلبه مظلم من أكل الحرام ، والشبهات وكثرة اللغو والهذيانات ، فليعمل على جلاء مرآة قلبه من الصدأ والغبار ، فيفهم كل كلام سمعه من كلام العرب ، كأنه بلغته ولسانه ، ثم ينبغى للشيخ أن يرشد إلى ذلك جميع طلبته فإن لم يرشدهم إلى جلاء مرآة قلوبهم، فجميع ما يتعلمونه منه لا يقيم عندهم ، حتى يعملوا به أو يعلموه للناس بل يذهب بذهاب أحدهم من الدرس ، وقد أغفل هذا الأمر جماعة من علماء زماننا

فبذروا علمهم لمن لا يصلح لحمله ، واتعبوا نفسهم فى تقريرهم ، ولا يمكث مع أحدهـــم شئ مما يسمعه ، حتى أنه يقال لبعضهم : ماذا استفدت اليوم مـــن درس الشيخ ؟

يقول : كان درساً عظيماً ، وأبدا الشيخ فيه العجايب والغرائب فيقال له : فقل لنا منه مسألة ، فيقول : لا أقدر أتكلم به ، انتهى .

وسمعته مرة أخرى يقول :

إعملوا على جلاء مرآة قلوبكم لتفهموا العلم ، فإن لم تعملوا على الجلاء فلا تطلبوا زيادة العلم ، ويكفيكم العمل بما ثبت عندكم من العلم وفهمتموه ببادئ الرأى ، فإن كل شئ توقفتم فى فهمه دل على أنكم لستم من أهله ، ولو أرادكم تعالى للعمل به لفهمه لكم ، وكان شيخنا الشيخ أمين الدين رحمه الله يقول : والله ما كنا نظن أننا نعيش إلى زمان صار العالم يقول لطلبته إذا جاؤه أذهبوا إلى غد، فإنى ما طالعت لكم شيئاً ، فإن ذلك يدل على أن العلم قد صار فى لسانه دون قلبه فيلقيه على أثر مطالعته ثم ينساه عن قرب ، أنتهى .

وكان رحمة الله تعالى لا يعلم العلم إلا لمن يراه عازماً على العمل به معظماً له خائفاً من عدم العمل به ، فإن لم يره كذلك سكت عنه ولم يجبه إلى مسألة ويقول : هؤلاء يستهزئون بالعلم وقد درج السلف الصالح كلهم على ذلك .

فأعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تعظيمهم لكل من حمل العلم والقرآن العظيم (١)

وإن لم يكن عاملاً بذلك إكراماً لما حمل من الوحى والعلم ، ومن توقف فى تعظيم العلماء على تظاهرهم بالعمل بكل ما علموه فاته تعظيمهم ، فلم يزل العلماء فى كل عصر يزيد علمهم على عملهم ، وذلك لأن العلم مقدمه العمل فهو دائما سابق زايد ، وقد يكون ذلك العالم ممن يخفى أعماله الصالحة لا سيما إن رأى فى بلده من يظهر عمله ، ويقتدى الناس به ، فإن الخفاء بعد ذلك يكون لغيره أولى لأن هذا الذى أظهر العمل قد قام بشعار الدين وصار إماما يقتدى به ولا ينبغى أن يكون للمأمومين فى مكان واحد إلا إمام واحد .

وأنا أدلك يأخى على شئ تعرف به العالم العامل ، وتستغنى به عن رؤية تظاهره بالعمل ، وهو أن تراه خاشعاً لله تعالى خائفاً منه قليل الجـدال فى العلـم إلا بطريقة الشرعى يرى نفسه من أقل الناس لا يكاد يعرف أنه من أهـل العلـم الإ من خالطه يتوقف عن المبادرة إلى ترجيح شئ من الاقوال برأى أو قيــاس ، فكل من رأيناه كذلك فهو دليل واضح على عمله بعلمه باطنــاً ، والحمـد لله رب العالمين .

---

(١) عن سيدنا عثمان بن عفان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) رواه البخارى .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق فه أجران) متفق عليه .

وعن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أن النبى ﷺ قال : (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين) رواه مسلم .

وعن النبى ﷺ قال : (لاحسد إلا فى اثنتين رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ؛ ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار) متفق عليه .

ومن أخلاقهم عدم شكواهم من أذاهم إلى الله تعالى

وعدم دعائهم عليه ، بل عدم شكواهم إلى نفوسهم ، فضلاً عن غيرهم من الخلق اكتفاء بعلم الله عز وجل ، فإنهم فى حضرته على الدوام ويعلمون أن الحق تعالى ناظر إلى جميع ما يفعله عباده مع بعضهم بعضاً ، وهو المؤآخذ والمعاقب لهم حقيقة ومن شكى منهم إلى الله تعالى فى تلك الحضرة ، فقد اساء الأدب لإتهامه للحق تعالى فى أنه لا يأخذ له حقه ، فعلم أنهم لو كانوا لا يتهمونه فى ذلك ما أجابوا عن انفسهم فى حضرته ولا شكوا من أذاهم إليه ، ولا إلى خلقه ، بل كانوا يكرمونه لله تعالى أو لرسوله كما مر تقريره مراراً وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لا ينبغى للفقير أن يبادر إلى الشكوى من الناس إذا آذوه ، فربما كان ذلك الأذى عقوبه له من ذنوبه السالفة .

وسمعت سيدى محمد الشناوى رحمه الله يقول :

الفقير إن انتصر لنفسه تعب ، وإن سلم أمره لمولاه واكتفى بعلمه فيه نصره من غير أهل ولا مال ولا عشيرة انتهى .

وقبيح على الفقير أن يسافه من سافهه أو يشتم من شاتمه لاسيما من كان شيخاً فى زاوية فإن ذلك من أقبح القبيح ، وربما أقتدى به فى ذلك فقراء الزاوية وصار إثم ذلك فى عنقه ، لأنهم كلهم ناظرون إلى أفعاله إليه فى أفعاله ، ثم ينحل الأمر بعد ذلك إلى عدم نصرة الحق تعالى لذلك الشيخ الذى شتم من شتمه وبهدله بين الناس ، وعدم احترامهم له ومن هنا يقول أهل مكة لمن شتم أحداً (حشم نفسك) يعن إنك إن شتمتنا شتمناك ولو من ورائك [1] أنتهى .

---

(١) سئل الجنيد عن الصبر ، فقال : هو تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال ذو النون : الصبر : التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الفن مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال ابن عطاء : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .=

فأعرض يا أخى بالشتم من حيث تقدير ذلك عليك وإن لم ترض فأصبر لاتزل من ذلك فأعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعلم حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عملهم على تحصيل كمال مقام إيمانهم قبل كل مقام

حتى يصير يوم القيامة ، وأهواله ، وما فيه كأنه رأى عين عندهم ، فإن كمال مقام العبد فى الإيمان هو أن يصير الغيب عنده كالشهادة فى عدم دخول الشك فيه حتى يسرى منه الأمان إلى جميع العالم ، فيأمنه الناس على أنفسهم وأموالهم وحريمهم من غير أن يتخللهم تهمة فى ذلك وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه يقول :

الأساس الذى يبنى عليه المؤمن جميع أعماله هو الإيمان فإذا سلم من النقص فذلك هو السعيد ، وكان يقول :

لأن يأتى العبد بقراب الأرض خطابا وإيمانه كامل وظنه فى الله تعالى حسن خير له من أن يأتى بالطاعات وفى إيمانه ثلمة وظنه فى الله تعالى سئ ومن هنا استنبط المريد لو وقع فى حقهم كل الوقوع وهو معتقد فيهم الصلاح لسامحوه عملا بحديث .

(يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم جئتنى لاتشرك بى شيئا لاتيتك بقرابها مغفرة) [1] أو كما قال .

=وقال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : والصبر مطية لا تكبو .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الصبر على ثلاثة أقسام : متصبر ، وصابر ، وصبار .

(١) وتمام الحديث : عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول ﷺ يقول : قال الله تعالى : (يا أبن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك . =

فلا يضر المريد إلا شركة غير شيخة كشيخة فى المحبة لا يضره ترك خدمة ولا ترك بر ولا إحسان فعلم أن لهم هجر المريد إذا أشرك بهم أحداً فى المحبة المعروفة عندهم وعدم المسامحة له فى ذلك ، لأن القوم على الأخلاق الألهية وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [1]﴾ فأفهم .

وإياك والمبادرة إلى الإنكار على من تغير على مريده لما اعتقد غيره وحمله على الغيرة ، فإن ذلك سوء ظن بالقوم ، فإنهم إنماهم فى ذلك على هدى وحق خوفاً على المريد أن يتزلزل اعتقاده فى أى الشيخين أكمل فلا يحصل له نفع من أحد منهما ، فهو مثل من يشك فى أن الله تعالى واحد وإثنان لا يصح توحيده والحمد لله رب العالمين .

= يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة) . رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

ويقول الإمام النووى فى ذلك : إعلم أن المختار للعبد فى حال صحته أن يكون خائفاً راجياً ويكون خوفه ورجاؤه سواء وفى حال المرض بمحض الرجاء وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك .

قال الله تعالى : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

وقال تعالى : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

وقال تعالى : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) .

وقال تعالى : (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم)

وقال تعالى : (إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم)

وقال تعالى : (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية)

والآيات فى هذا المعنى كثيرة فيجتمع الخوف والرجاء فى آيتين مقترنتين أو آيات أو آية .

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد) . رواه مسلم .

(١) سورة النساء آية : ٤٨ .

ومن أخلاقهم قصدهم ابتغاء مرضات الله تعالى فى كل قول أو فعل

دون قصد ما لنفوسهم فى ذلك من الراحة والثواب ، فيزهدون فى الدنيا مثلا من حيث ما بلغهم أنها مبغوضة لله تعالى ، وأنه تعالى منذ خلقها لم ينظر إليها ، فلذلك لم يحبوها خوفاً أن يحشروا معها يوم القيامة ، لأن المرء مع من أحب [١]، فلذلك كانوا لا يحبون شيئاً أخبرا الحق تعالى أنه يبغضه ، وكرهوا أن يحشروا مع مبغوض لم ينظر الله تعالى إليه منذ خلقه اى - نظر رضى عنه ورحمه لا نظر تدبير فأفهم .

فعلم أن القوم لم يكرهوا الدنيا ولم يزهدوا فيها لراحة البدن بالأصالة ، فإن ذلك حاصل لهم بحكم التبعية ، لزهدهم فيها ابتغاء رضوان الله تعالى .

وقد قررنا مراراً أن الزاهدين ما زهدوا حقيقة إلا فيما لم يقسم لهم وأما ما قسم لهم فلا يصح لأحد الزهد فيه بأن يتركه ، وإنما الزهد فيه يكون بترك الميل إليه عادة بحيث يبخل به عن مستحقه ويشتغل به عن ربه ، وإلا فمن كمال الولى إمساكه الدنيا ، ثم يتصرف فيها تصرف حكيم عليم ، فينفق منها على نفسه، وعياله ، وإخوانه ، وغيرهم ممن ندبه الشرع إلى الإحسان إليه ، ولو كان الزهد فيها عدم إمساكها لفسد نظام العالم ، ولم يجز لأحد إمساك شئ من المال فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

---

(١) عبارة من حديث هو : عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول : كيف تقول فى رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ، فقال رسول الله ﷺ : (المرء مع من أحب) متفق عليه.

وفى الحديث : عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال : الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) رواه أبو داود والترمذى بإسناد صحيح وقال الترمذى : حديث حسن .

ومن أخلاقهم لا يتجردون عن لباس الثياب الفاخرة مثلا

ولا يلبسون الخرقة التى تستر عورتهم فقط إلا إن كان باطنهم متجردا عن حب الدنيا كذلك ، خوفا أن يكتبوا فى جريدة المنافقين وما دام باطنهم لم يتجرد عن محبة الدنيا فهم يلبسون الثياب الفاخرة من الجوخ والأصواف والمضربات ، خوفا أن يخالف باطنهم ، فإن مبنى أمرهم كله على الصدق (١)

---

(١) يقول الهجويرى فى كشف المحجوب : إعلم أن ليس المرقعة شعار المتصوف . وليس المرقعات سنة ، ومن قال الرسول عليه السلام : (عليكم بلباس الصوف تجدون حلاوة الإيمان فى قلوبكم) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى أمامة .

ويقول أيضا واحد من الصحابة رضى الله عنهم : كان النبى ﷺ يلبس الصوف ويركب الحمار .

وقال الرسول ﷺ أيضا لعائشة رضى الله عنها : (لا تضيعى الثوب حتى ترقعيه) وقال : عليكم بلباس الصوف لتدركوا حلاوة الإيمان .

وروى عن عمر ﷺ أنه كانت له مرقعة عليها ثلاثون رقعة ويرد عنه أنه قال أيضا : خير الثياب أقلها مؤنة . ويرد عن أمير المؤمنين على ﷺ أنه كان له قميص لا يصل كماه إلى أصابعه ، وكان إذا وجد لديه قميص أطول من هذا يقص طرف كميه .

وأمر الله عز وجل الرسول ﷺ بتقصير الثياب فى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) أى : فقصر .

ويقول الحسن البصرى رحمه الله : رأيت سبعين بدريا يلبسون جميعاً ثيابا من الصوف والصديق الأكبر ﷺ لبس الصوف فى حال التجريد .

ويقول الحسن البصرى رحمه الله : رأيت سلمان وقد لبس كليما ذا رقع كثيرة .

ويروى أن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهما ، وهرم بن حيان ﷺ رأوا أويسا القرنى وكان يلبس ثوبا من الصوف عليه رقع كثيرة .

وكان الحسن البصرى ومالك بن دينار وسفيان الثورى رحمه الله عليهم ، أصحاب مرقعات صوفية . ويروى عن الإمام الأعظم أبى حنيفة – وهذا مكتوب فى كتاب تاريخ المشايخ الذى ألفه محمد بن على الترمذى – أنه كان أولا يلبس الصوف ويقصد العزلة إلى أن رأى الرسول عليه السلام فى النوم يقول له : ينبغى لك أن تكون بين الخلق لأنك سبب إحياء=

سنتى . وعندئذ كف عن العزلة . ولم يكن يلبس ابدا ثوبا غاليا ، وأمر داود الطائى رحمه الله بلبس الصوف ، وكان من الصوفية المحققين .

وجاء إبراهيم بن آدهم أبا حنيفة رحمه الله وعليه مرقعة من الصوف فنظر إليه أصحاب – أبى حنيفة – بعين الإحتقار .

فقال أبو حنيفة : جاء سيدنا إبراهيم بن أدهم ؟ فقال له : أصحابه : لا يجرى الهزل على لسان إمام المسلمين ، فبم وجد هذه السيادة ؟ قال : بالمداومة على الخدمة ، فقد أنشغل بخدمة الله وانشغلنا بخدمة أنفسنا حتى صار سيدنا .

وإذا كان مراد بعض أهل هذا الزمان من لبس المرقعات والخرق طلب الجاه والجمال بين الخلق ، أو أنهم بقلوبهم غير موافقين لظواهرهم ، فمن الجائز أن يكون فى الجيش مبارز واحد ، والمحققون فى كل الطوائف قليل ، ولكن الجميع ينسبون إليهم حينما يشبهونهم فى شئ من الأحكام ، لقوله عليه السلام : (من تشبه بقوم فهم منهم) أى : كل من يتولى قوما يفعل ذلك بعمل أو باعتقاد ، ولكن فريقا نظر إلى رسم الصوفية وظاهر معاملاتهم ، ونظر فريق إلى سرهم وصفاء باطنهم . وفى الجملة ، كل من يقصد صحبة المتصوفة لا يخرج عن أربعة معان :

فريق يطلعه صفاء باطنة وجلاء ظاهره ولطف طبعه واعتدال مزاجة على صحة أسرارهم ، فيرون قرب المحققين – من الصوفية – ورفعة كبرائهم ، وتتمكن منهم الرغبة فى هذه الدرجة ، فيتعلقون بهم عن بصيرة . وتكون بداية حال – هؤلاء – على كشف الأحوال والتجرد عن الهوى ، والإعراض عن النفس .

وفريق – ثان – يطلعه صلاح جسده وعفة قلبه وسكن وسلمة صدره على أظهارهم فيرون ممارستهم للشريعة وحفظهم لآداب الإسلام وحسن معاملاتهم فيقصدون صحبتهم ويختارون ممارسة الصلاح . وتكون بداية حال هؤلاء على المجاهدة وحسن المعاملة .

وفريق – ثالث – تهدية مروءة إنسانية وظرف مجالسته وحسن سيرته ، فيرون حياتهم الظاهرة مذدانه بالظرف والمروءة : من الحرمة مع الكبار ، والفتوة مع الصغار ، وحسن المعاشرة مع الأقران ، فيقصدون صحبتهم مستريحين من طلب الزيادة ، وراضين بالقناعة ، ويسهلون على أنفسهم طريق الجهد والمشقة فى طلب الدنيا ، ويجعلون أنفسهم بالفراغ من المشاغل من جملة الأخيار .

وفريق – رابع – يقوده إلى أفعالهم كسل طبعه ورعوتة نفسه وطلبه الريا بلا آلة ، وإرادته التصدر بلا فضل ، وبحثه عن التخصيص بلا علم ، ويظن أنه ليس هنالك من أمورهم غير هذا الأمر الظاهر ، فيقصد صحبتهم . وهو يلاينونه بالخلق والكرم ويعيشون معه بحكم=

=المسامحة ، لأنه ليس فى قلوبهم شئ من حديث الحق ، ولا على أجسادهم شئ من المجاهدة فى طلب الطريقة ، ويريدون أن يرعى الخلق حرمتهم كالمحققين ، ويجلوهم كما يجلون خواص الله عز وجل ، ويبغون من صحبتهم لهم والتعلق بهم أن يخفوا آفتهم فى صلاحهم ، ويلبسون ثيابهم وهى بدون المعاملة تصرخ بكذبهم ، كقوله تعالى : (كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله).

وهذا الفريق هم الاغلب فى هذه الأيام . فليكن لزاما عليك إذن أن لا تقصد ما ليس لك ، لأنك لو قلت ألف سنة بقبول الطريقة لا يكون ذلك كأن تقبلك الطريقة لحظة واحدة ، لأن هذا الأمر لا يكن بالحرقة ، بل باكرقة وحين يكون الرجل عارفا بالطريقة يستوى لديه القباء والعباء ، وحين يكون غريباً عنها تكون مرقعته رقعة الأدبار ومنشور الشقاء يوم النشور كما قيل لذلك الشيخ الكبير : (لم لا تلبس مرقعة ؟ فقال : من النفاق أن تلبس لباس الفتيان ولا تدخل فى حمل أثقال الفتوة)

فإذا كنت تلبس هذا اللباس ليعرف الله أنك من خواصه فهو يعرفك بغير لباس ، وإذا كنت تلبسه لتظهر للخلق أنك لله ، فإن تكن كذلك فهو رياء ، وإن لم تكن فهو نفاق .

وهذا طريق صعب ملئ بالخطر ، وأهل الحق أجل من أن يعرفوا بالثياب ، فالصفاء من الله إنعام وإكرام ، والصوف من لباس الأنعام فا الحيلة حيلة ، وفريق يجعلون الحيلة قربة ، فهم يعملون ما عليهم ويحلون ظاهرهم وأملهم أن يكونوا منهم .

وقد أمر مشايخ هذه الطريقة المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها ، وفعلوا هم أيضا ذلك ، لتكون لهم علامة بين الخلق ، ويكون الخلق رقباء عليهم ، فإذا خطوا خطوة على خلاف ، يطلقون فيهم لسان الملامة وإذا أرادوا إتيان المعصية فى تلك الثياب ، فإنهم لا يستطيعون خجلاً من الخلق .

وفى الجملة : المرقعة زينة لأولياء الله عز وجل ، يعز بها العوام ويذل بها الخواص ، وعز العوام هو أنهم حين يرتدونها يحترمهم الخلق ، وذل الخواص هو أنهم حين يرتدونها ينظر إليهم الخلق بعين العلوم ويلومونهم بذلك ، فهى (لباس النعم للعوام ، وجوش البلاء للخواص) لأن أكثر العوام يكونون فيها مضطرين حين تقصر أيديهم عن عمل آخر ، ولا تكون لهم آلة أخرى لطلب الجاه ، فيطلبون بها الرياسة ، ويجعلونها سببا لجمع النعم . ثم إن الخواص يقولون بترك الرياسة ويؤثرون الذل على العز ، فتكون لهؤلاء بلاء ، ولأولئك نعماء : (المرقعة قميص الوفاء لأهل الصفاء ، وسربال السرور لأهل الغرور) ، ليتجرد أهل الصفاء بلبسها من الكونيين ، وينقطعوا بها عن المألوفات ، ويحجب بها أهل الغرور عن الحق ، وينقطعوا بها عن الصلاح . =

وكذلك من أخلاقهم أنهم لا يلبسون النقى البياض من الثياب إلا إن علموا نقاء باطنهم من كل شئ يكرهه الله تعالى ، وما دام فى باطنهم شهوة يكرهها الله تعالى فهم لا يلبسون نقى البياض إلا بأمر شرعى كلبس البياض يوم الجمعة ، فللعبد أن يلبس البياض فيه بل يستحب ، ولو كان باطنه غير نقى من الأدناس ، وهو من قاعدة أن الميسور لا يسقط بالمعسور .

فعلم أن اللائق بأمثالنا الثياب السود والزرق على الدوام لأنه لم يصح لنا نقاء الباطن من كل دنس ، وأما غيرنا ، فإذا رأيناه يلبس الثياب النقية وجب علينا حسن الظن به ، وأنه ما لبس ذلك إلا بعد نقاء باطنه ، ولا يجوز لنا قياس حاله على حالنا فافهم .

وأعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف مقامك ومقامهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم شهود الضعف فى نفوسهم دائما

حتى أن بعضهم يعجز عن حمل ثوبه ، فلا يستطيع أن يلبس ثوبا مطلقاً ، ولولا أن ستر العورة واجب على أحدهم لما لبس الازار ، وهذا أمر لا يعرفه إلا من ذاقه ، فأياك والمبادرة إلى الإنكار على من رأيته عريانا أصلا إلا بطريق شرعى وقد صرح سيدى ابراهيم الدسوقى وسيدى على بن وفا بذلك فى رسائلهما

= وجملة القول : المرقعة سمة الصلاح وسبب الفلاح للجميع . والمراد من كل هذا هو أنها تكون الصلاح لواحد والعطاء لآخر ، والغطاء لواحد والوطاء لآخر ، وأرجوا أن يفلحوا جميعاً بحسن صحبتهم ومحبتهم لبعضهم البعض ، فقد قال الرسول ﷺ : (من أحب قوماً فهو معهم) ولكن ينبغى أن تطلب لباطنك التحقيق ، وأن تعرض عن الرسوم ، لأن كل من يكتفى بظواهر الأشياء لا يصل إلى التحقيق أبداً .

وأعلم أن وجود الآدمية حجاب الربوبية ، ولا يفى الحجاب إلا بدور الأحوال والتربية فى المقامات . والصفاء اسم ذلك الفناء ، واختيار اللباس لفانى الصفة محال ، وتزيين النفس أن سمى بالصوفى أو باسم آخر . (كشف المحجوب للهجويرى ، دراسة وترجمة وتعليق : دكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل) .

وقال سيدى على : بلغت من شهود الضغف فى نفسى حال صحتـى إلـى أنـى لو أردت حمل ليمونة لما قدرت ، وهذا الأمر يحصل لهم فى أوقات لا مطلقاً حتى لا يستطيع أحدهم القيام ، فيصلى قاعدا فيظن من لا معرفة له بأحوال القوم أنهم يصلون النوافل جلوساً ، مع القدرة عملا برخصة الشريعة ، لكونهم لم يتقدم لهم مرض بل عهدهم بهم فى عافية ، ولا علم لهم بالوارد الذى ورد على أحدهم فهد أركانه فأعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم التساهل بأخذهم أموال الناس بالباطل

أو يأخذونها بحق ويتساهلون فى وفائها ، حتى أن بعضهم رجع من سفر فرأى فى أمتعته قلما استعاره من البلد الذى خرج منه ، فسافر مسيرة شهر فى رده ، وبعضهم سافر مسيرة عشرة أيام فى رد ابرة فقيل له : أرسل له أضعاف ثمنها فقال : قد لا يرضيه ذلك يوم القيامة ويطلب عين إبرته .

ووقع للشبلى ﷺ أنه أخذ درهماً من بايع الباقلاء أيام ولايته ، فلما دخل طريق القوم تصدق عن صاحبه بألوف بعد أن فتش عليه ، فلم يجد فكان يقول بعد ذلك :

قد تصدقت عن صاحبه بألوف وما على قلبى أثقل منه انتهى .

فعلم أن من أدعى أنه من أهل الطريق وتساهل فى حقوق الناس وأحوج صاحب الحق الوقوف على حاكم فهو كاذب لم يشم من طريق القوم رايحة كما هو شأن أولاد المشايخ القانعين بالحدود وشأن من أدعى الطريق بغير شيخ ، فيقول: وهل لأحد مع الله تعالى ملك ويزعم أنه صار موحداً لله تعالى ، فيقال له : يا هذا أن الذى قلت أنه هو المالك الحقيقى هو الذى نهاك عن أخذ ما فى يد عباده بغير طريق شرعى وهناك تندحض حجته ، وقد أجمع القوم على أن نور المعرفة لا يطفئ نور الورع و بالجملة فلا يقع فى مثل ذلك الا من لا يؤمن بيوم الحســاب

والحمد لله رب العالمين [١].

ومن أخلاقهم كراهتهم لوقوع يدهم على فرجهم من غير حاجة

إكراماً للقرآن وكتب العلم والسبحة التى يسبحون عليها ، ويذكرون اسم الله عليها ، بل وقع لبعضهم ان رجله صدمت مسبحته فغشى عليه ، ومن هنا أدمن الفقراء الصادقون لبس السراويل ، حتى لا تقع يدهم على فرجهم .

وقد بلغنا أن مريداً من جماعة الشيخ نجم الدين الكبرى [٢] وقعت يده على فرجه فى الخلوة فتوقف عليه الفتح مدة طويلة ، وهو يستحي أن يذكر ذلك للشيخ، فلما خرج من الخلوة بعد الفتح قال له : الشيخ قد علمت بوقوع يدك على

---

(١) يقول إبراهيم بن أدهم ﷺ : الورع ترك كل شبهة ، وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات .

وقال سفيان الثورى : ما رأيت أسهل من الورع : ما حاك فى نفسك تركته .

وقال يونس بن عبيد : الورع : الخروج عن كل شبهة ، ومحاسبة النفس فى كل طرفة .

وقيل : جاءت أخت بشر الحافى إلى أحمد بن حنبل وقالت : إنا نغزل على سطوحنا ، فتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا ، أفيجوز لنا الغزل فى شعاعها ؟

فقال أحمد : من أنت ؟ عافاك الله تعالى .

فقالت : أخت بشر الحافى .

فبكى أحمد وقال : من بينكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلى فى شعاعها .

وقال سهل : الحلال الصافى : الذى لا ينسى الله تعالى فيه .

ودخل الحسن البصرى مكة ، فرأى غلاما من أولاد على بن أبى طالب ﷺ قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه الحسن وقال له : ما ملاك الدين ؟

فقال الورع : . فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال : الطمع !! فتعجب الحسن منه .

وقال الحسن : مثقال ذرة من الورع السالم (أى الخالص من الرياء والكبر) خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة وقال سهل بن عبد الله : من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع .

وقال أبو هريرة : جلساء الله تعالى غداً : أهل الورع والزهد .

(٢) أحد أئمة الصوفية وأكابر الأولياء. =

فرجك ولكن لما علمت شدة خجلك من ذلك لم أعلمك باطلاعي على ذلك .

وكل شيخ لم يعطه الحق تعالى الاطلاع على حركات مريده وسكناته ، فليس له أن يخلى أحداً لأنه محجوب ، ثم قال : كيف يجلس العبد بين يدى الله تعالى ويضع يده على فرجه ، أما علمت أن من كان فى الخلوة ، فهو فى حضرة الله تعالى ، ولذلك يعملون له طعاماً ، لما يخرج من الخلوة إكراماً له لكونه ، ورد من حضرة الله تعالى عليهم انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبة المصافحة عقب مجلس الذكر

لجميع إخوانهم رجاء المغفرة لهم دون تمكينهم من تقبيل اليد ، ثم يمسحون باليد التى صافحت إخوانهم على وجوههم رجاء البركة .

فعلم أن أحداً من القوم لا يصح له أن يرى نفسه على أحد من مريديه ، فهو يسلكهم ، ويربيهم ، ويعلمهم الآداب حال شهوده أنهم أحسن منه حالا عند الله تعالى فلا تظن يأخى أن أحداً من القوم يرى نفسه على أحد من مريديه أبداً ولذلك يكاد أحدهم يذوب إذا قبل أحد يده ، فالناس يقبلون يدهم إكراماً لهم وهم يكرهون ذلك منهم نظير القيام لهم على حد سواء والحمد لله رب العالمين .

= يقول عنه الأمام الشعرانى فى الأجوبة المرضية : جاء الشيخ فخر الدين الرازى يطلب الطريق على يد الشيخ نجم الدين الكبرى فى ألف طالب يمشون وراءه من بلاد الرى فبلغ ذلك الشيخ نجم الدين فقال : أنه لا يطيق الطريق ، فلما وصل إلى رباط الشيخ بطلبته وسلم عليه قال : يا أخى ما أقدمك إلى بلادنا ؟ فقال جئت أطلب الطريق إلى الله تعالى فقال له الشيخ لا تطيق ذلك ، فقال : بلى أطيق إن شاء الله تعالى ، فراجعه مرات والشيخ فخر الدين يأبى إلا أن يتتلمذ له ثم أدخله الشيخ نجم الدين الخلوة وسلبه جميع ما كان معه من العلوم فلما شعر بذلك صاح : لا أطيق ، لا أطيق فأخرجه الشيخ وقال له : يا فخر الدين أعجبنى صدقك وقال له : يا فخر الدين كيف تطلب الطريق إلى الله مع حبك للرياسة على الأقران وتكبرك عليهم ؟ وماذا عليك أن تكون عند الله عز وجل لاركون لك إلى غيره ، ولا دعوى عندك لملك شئ فى الوجود ، فبكى الشيخ فخر الدين وقال خسرنا وفاز غيرنا ، فقال الشيخ: قد صرت من معارفنا وكنا نود أن تكون من أصحابنا فلم يقدر ذلك أذهب إلى بلادك بسلام.

ومن أخلاقهم إيثارهم جناب الحق تعالى على جنابهم

حتى أنهم يكرهون للمريد أن يشركهم فى المحبة مع الحق تعالى فى المحبة إيثاراً لجناب الحق تعالى ، ولولا أن لمحبة الشيخ أثراً فى تقريب الفتح على المريد ، لما مكنوه من محبته لهم أصلا ، فعلى المريد أن يحبهم وعليهم الكراهة لذلك .

وقد بلغنا عن الشيخ القطب أبى مدين التلمسانى رضى الله تعالى عنه أنه رأى الفتح بعيداً على مريد مع شدة اجتهاده فى المحبة للعبادة فنظر فى سبب ذلك، فإذا هو محبة الشيخ فقال له الشيخ :

أترك محبتى يفتح عليك ففعل ففتح عليه تلك الليلة ، فرضى الله تعالى عن الصادقين .

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تقريرهم فقراء الأحمدية والبرهانية والرفاعية على اكتفايهم بمشايخهم الذين ماتوا

فانهم صاروا فى البرزخ لا التفات لهم إلى إرشاد أحد من الخلق وأن وقع أنهم أرشدوا أحداً وهم فى قبورهم ، فذلك من باب الكرامة كما وقع لسيدى أحمد البدوى ، وسيدى إبراهيم الدسوقى فإنهما ربيا خلقا كثيرا فى قبرهما .

وقد درج القوم كلهم على اتخاذهم الأشياخ بعد موت أشياخهم ، ولم يكتفوا بتوجههم إليهم فى قبورهم ، ولما مات سيدى الشيخ محمد السروى [1] شيخ

---

(١) هو الشيخ محمد السروى ﷺ : من أجلاء مشايخ مصر : كما يقول : ما رأينا قط أحد وصل إلى الله بمجرد قراءة الأحزاب والأوراد .

وكان يقول : نحن ما نعرف لا إله إلا الله بعزم وهمة .

مات رحمة الله سنة اثنين وثلاثين وتسعمائة .

شيخنا الشيخ محمد الشناوى اجتمع سيدى محمد الشناوى بسيدى على المرصفى رضى الله عنهم وأخذ عنه الطريق وقال :

كرهت أن أمكث ساعة بلا أستاذ .

مع أنه كان مأذوناً له فى تربية المريدين من أستاذه ولقن المريدين ورباهم سنين فى حياة شيخه وهذا الأمر لا يقع إلا من الصادقين أما أصحاب الرعونات فلا يقدورن على نفوسهم تنكبس للأخذ عن أحد بعد الإذن من أستاذهم فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم مبادرتهم إلى الإنكار على من أمر أحدا من تلامذته بحلق لحيته مثلا

فربما كان ذلك منهم امتحانا له لينظروا اذعانه وامتثاله لما يأمرونه به لا وقوع ذلك الفعل حقيقة ، كما أمر الله تعالى ابانا السيد ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بذبح ولده وكان المراد منه امتثال الأمر لا الذبح إذا لو أراد الله تعالى ذبحه لم يفده بالكبش .

فيجب على الشخص أن يتربص فى انكاره ولا ينكر إلا بعد علم محقق ، ولكن قل من يصبر من المتشرعين على ذلك .

وقد كنا مرة فى دعوة وفيها الشيخ بهاء الدين المجذوب [1] فرمانا بقلة فيها ماء ، فصعدت إلى السقف ، ثم هبطت ، فقال فقيه كسر القلة ، فقال له الشيخ تكذب يا فقيه فوقعت على الأرض جالسة صحيحة لم ينقص من مائها شئ .

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصى أن بعض الأولياء كان جالساً يعظ الناس ، فنزل من الكرسى وضرب شخصاً على رأسه من السامعين ، ثم رجع إلى الكرسى

---

(١) هو الشيخ بهاء الدين المجذوب : كان ﷺ من أكابر العارفين وكان كشفه لا يخطئ وكان ﷺ خطيبا فى جامع الميدان ، وكان أحد شهود القاضى .
مات رحمة الله سنة نيف وعشرين وتسعمائة .

فقيه[1] : هذا حرام عليك أيش عمل هذا حتى تضربه ؟ فقال المضروب : أنا أستحق ذلك لأنى أغتبت فى نفسى وليا من الاولياء المدفونين فضربنى تعزيراً ، فخجل ذلك الفقيه من الشيخ ، ثم أنه نزل وضرب شخصا آخر فسألوه عن ذلك ، فقال : إنه خطر فى نفسه أنه أفضل من العلماء الحاضرين ، وقال له : كيف تفضل نفسك أما علمت أن ذلك ذنب أبليس الذىأخرج به من الجنة ، فقال الشخص : استغفر الله تعالى وتاب عن ذلك .وكذلك لا ينبغى لأحد أن يبادر إلى الأنكار على من أمره شيخه بحلق لحيته وحلقها فربما كان ذلك من شيخه ليدفع به عنه الكبر والفخر ، فقصد به هضم نفسه من باب ارتكاب أخف المفسدتين ، فإن الكبر من الكبائر وغاية حلق اللحية أنه صغير عند بعضهم ، فأعلم ذلك وأعرضه وما قبله على نفسك وإخوانك تعرف مقامك ومقامهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم التزاور لبعضهم بعضا كلما اشتاقوا لبعضهم

ووجدوانية صالحة ، وأن وقع أن أحدهم لم يزر أخاه وبخ نفسه على ذلك .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول :

الزيارة للإخوان تزيد فى دين الإنسان وتركها ينقص دينه ، لأنها كتلقيح النخل [2] انتهى .

وقد كان الإمام الشافعى يزور الإمام أحمد رضى الله تعالى عنهما كثيراً ويزوره الآخر كذلك وأنشد الإمام الشافعى فى ذلك :

قالـــوا يـــزورك أحمـــد فتـــزوره ... قلـت الفضائـل لا تفـارق منزلـه

أن زارنـــى فبفضله أو زرته فبفضله ... فالفضـل فـــى الحاليـــن لـــه

---

(١) ربما يقصد (فقال فقيه) .

(٢) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من عاد مريضاً أو زار أخا له فى الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً) رواه الترمذى وقال حديث صحيح .

فأنشد الإمام أحمد ﷺ :

ان زرتـــنا فبفضـــل مـــنك تمنحـــنا   أو نحـــن زرنـــا فللفضـــل الذى فيكا
فـــلا عدمـــنا كـــلا الحالين منـــك ولا   نـــال الـــذى يتمنـــى فيك شانيكـــا

ثم لما مات الإمام الشافعى رثاه الإمام أحمد بقوله

يـــا جوهر الجوهر المكنون من مضر   ومـــن قـــريش ومن ساداتها الغرر
لمـــا توليت ولى العلـــــــــم مكتيباً   وضـــر مـــوتك أهل البدو والحضر

وهذا الخلق قد صار غريبا فى هذا الزمان فلا تكاد ترى فقيرا يزور أخاه إلا قليلاً ، فكثرت الضغائن بينهم وما هكذا أدركنا المشايخ رضى الله عنهم ، فحرر يا أخى نيتك وزر اخوانك وإن لم يزوروك واسقط عنهم المكافأة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تعليم أصحابهم العفة عن مال الوقف

الذى يتكلمون عليه والتقلل من الأكل إذا دعاهم أحد إلى طعامه ما أمكن ، وهذا باب قد أغفله غالب الناس اليوم ، وقد ظفرت طول عمرى بسبعة أنفس من الأمناء أحدهم الشيخ ابراهيم السند بصطى رحمه الله الذى كانت عمارة زاويتنا وجميع مساكنها على يديه ، فتعاطى جباية مال وقف الزواية نحو اثنتى عشر سنة، فلم أعلم أنه أختلس من مالها درهما واحدا مدة جبايته وعمارته وأصل ذلك اتحاده بى وسماعه لاشارتى ، وكان إذا أتى بهدية للفقراء لا يلحس منها لحسة من ورائهم ، ولما حضرته الوفاة أوصى ولده بوصايا منها أن جميع ثيابى لعبد الوهاب ، وإن كفننى فذلك من فضله ، ثم وليت بعده شخصا أخر فتشرب قلبه حب الدنيا ، وخالفنى وأظهر لى العفة والزهد فلما مات وجدوا بعده فى مدة يسيرة نحو خمسماية دينار ذهباً ، ومات وهو يقول : يا مالى ، فاسأل الله أن يتجاوز عنه بفضله آمين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يستجلبوا أحدا من أبناء الدنيا لصحبتهم

وكالدفتردار وشيخ العرب والكاشف وأعوانهم ، إلا إن علموا من طريق كشفهم أن له نصيبا عندهم من التربية وتعليم الادب ، وقبول الشفاعة ، ونحو ذلك وإذا لم يكشف لهم ، فمن الأدب عدم استجلابه ولكن أن جاءهم هو من ذات نفسه قبلوه ، وسارقوه فى تعليم الأدب ، وتخفيف المظالم ما أمكن .

وقد برز فى هذا الزمان جماعة يستجلبون صحبة مشايخ العرب والكشاف لغير غرض صحيح ظاهر ، فأساء الولاة ظنهم بأمثالهم من الصادقين وبهدلوا الطريق ، فالله تعالى يلطف بنا وبهم .

وقد رأيت شخصا من تلامذة شيخ بدعى القطبية فى حياة شيخه يسأل الولاة ان يعطوه الارز ، والبسلة ، والعسل ، والقمح ، والعدس ، وما هكذا درج الأشياخ الذى أدركناهم .

فإياك يا أخى أن تستجلب أحدا من الولاة لصحبتك إلا بطريق شرعى .

فأعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك ، وعلى أقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين [1].

ومن أخلاقهم كثرة سؤالهم الله تعالى أن يسلب عنهم الحال الذى يؤذى من أذاهم

فإن ذلك خروج عن طريق العارفين فلو ان الوجود كله قام عليهم بالاذى ما تغير منهم شعره ؛ ثم أنهم لا يرون ذلك مقاما عظيماً، لأنه مقام أبليس ، فإنه اجتمع بسهل بن عبد الله التسترى وقال له :

---

(١) يقول الإمام القشيرى : ومن شأن المريد : التباعد عن أبناء الدنيا ، فإن صحبتهم سم مجرب !! لأنهم ينتقصون به وهو ينتقص بهم ، قال الله تعالى : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) وأن الزهاد يخرجون المال عن الكيس تقربا إلى الله تعالى ؛ وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب تحققا بالله تعالى .

يا سهل أنا أعلى مقاماً فى الرضى بعلم الله تعالى منكم .

فقال : كيف ؟

فقال : لأن الواحد منكم إذا قام عليه أهل بلده بالتنقيص يتغير منه كل شعره ولا يقنع بعلم الله تعالى فيه ، والوجود كله يلعننى ، فلم تتغير منى شعرة اكتفاءاً بعلم الله تعالى فى .

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى رحمه الله يقول :

بلغنى أن النار الكبرى يوم القيامة تنزوى من المؤمن صاحب الحال وتقول جز يا مؤمن فقد أطفئ نورك لهبى ويمر عليها الولى الكبير فتصيب جوانبه النار انتهى

وأيضاح ذلك ان العارف قد سلم امره لمولاه ، وصار كالميت بين يدى غاسله ورأى جسمه ملكا للحق تعالى لا لنفسه ، فسقطت مدافعته عنه اللهم إلا أن يكون مشهده ان الله تعالى أمنه على جسمه ونهاه على أن يلقى بنفسه إلى التهلكة ، فهذا لا يضره دفع النار عن جسمه يوم القيامة كما هو حاله فى الحياة الدنيا ، وقد سرقوا مرة ستر سيدى أحمد الزاهد ؛ فلم يعرف سارقه فقال بعض الناس : لو كان لهذا الشيخ سر لقيد السارق حتى مسكوه ، فقلت لهم : حكم الستر حكم القميص ، ولو أن السارق سرق قميص الشيخ فى حال حياته ما تأثر منه بل كان يبرى ذمته فى الدنيا والآخرة ، فإن حالة فى البرزخ لا يخالف حاله فى حياته انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن اخلاقهم تربيتهم لأصحابهم بالنظر

فيقوم نظرهم إليهم مقام اللفظ لكن ذلك خاص بمـن رق حجابـه منهـم ، أما صاحب الحجاب الكثيف ، فقد يربونه بالقول والفعل والهجر والزجر وهيهات أن يفلح .

وكـان علـى هذا القدم سيدى الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، وسيـدى علـى الخـواص ، فكان سيدى أبو الحسن يقول :

إذا كانت السلحفاة تربى أولادها بالنظر ، فكيف بالفقير منا .

وكان سيدى على الخواص يربى بالنظر تارة ، ويأمره المريد أن يشرب من أبريقه تارة ، فيقوم ذلك مقام التلقين ، وأخذ العهد فى حصول المدد ، وقد من الله على بذلك فربيت جماعة من أصحابى بالنظر نحو ثلاثين نفسا كما أوضحت ذلك فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تقريب الطريق على المريد ما أمكن

وذلك باشغاله لهم بالتوحيد ، فلا يزال يشتغل به حتى ينكشف حجابه ، فإذا انكشف حجابه عرف الأمور على ماهى عليه ، واستغنى عن مطالعة رسائل القوم وصار يتكلم كما تكلموا .

وإن ذكر عن أحد منهم كلاما فإنما ذلك استشهادا لموافقة كلامة للقوم لاغير وقد كان سيدى الشيخ أبو العباس المرسى ﷺ يقول :

إنما ننظر فى كلام القوم لننظر ما أنعم الله به علينا دونهم لا لنستفيد منه ما لم يكن عندنا انتهى .

ثم لابد للمريد مع اشتغاله بالتوحيد من الجوع ، والعزلة ، وقلة النوم ، وقلة اللغو ، والا فكل شئ حصل له من نور التوحيد بظلمه الأكل واللغو كما هو مقرر فى أركان الطريق ؟

وقد عجز الأشياخ أن يوصلوا مريدا إلى شئ من مقامات الطريق مع إخلاله بالأركان فلم يقدروا فعلم ان غير التوحيد من صلاة النافلة ، وقراءة القرآن ، وأن كان طاعة فالوصول به بعيدا جدا لأن ذلك إنما هو من أوراد الكمل بعد أن عرفوا الله تعالى وزال عنهم حجابهم .

وأما المريد فليس المطلوب منه إلا العمل على جلاء قلبه بما يأمره به شيخه الصادق فى الطريق والحمد لله رب العالمين [١]

---

(١) وإذا أحكم المريد بينه وبين الله عقده ، فيجب أن يحصل من علم الشريعة ، إما بالتحقيق ، =

= وإما بالسؤال عن الأئمة ما يؤدى به فرضه ، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط، ويقصد الخروج من الخلاف ، فإن الرخص فى الشريعة للمستضعفين وأصحاب الحوائج والأشغال .

وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل : إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عقده مع الله ، ونقض عهده فيما بينه وبين الله تعالى :

ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً .

هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان .

وسمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولكن لا تثمر؛

كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً ، نفسها فهو عابد هواه ، لا يجد نفاذاً.

ثم إذا أراد السلوك فبعد هذه الجملة يجب أن يثوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل زلة فيدع جميع الزلات : سرها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويجتهد فى إرضاء الخصوم أولا ومن لم يرض خصومه لا يفتح له من هذه الطريقة بشئ .

وعلى هذا النحو جروا ، ثم بعد هذا يعمل فى حذف العلائق والشواغل ، فإن بناء هذا الطريق على فراغ القلب .

وكان الشبلى يقول للحصرى فى ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية التى تأتينى فيها غير الله تعالى فحرام عليك أن تحضرنى .

وإذا أراد الخروج عن العلائق فأولها : الخروج عن المال ؟ فإن ذلك الذى يميل به عن الحق، ولم يوجد مريد دخل فى هذا الأمر ومعه علاقة من الدنيا إلا جرته تلك العلاقة عن قريب إلى ما منه خرج ، فإذا خرج عن المال ، فالواجب عليه الخروج عن الجاه ، فإن ملاحظة حب الجاه مقطعة عظيمة .

وما لم يستو عند المريد قبول الخلق وردهم لا يجئ منه شئ ، بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس أياه بعين الإثبات والتبرك به لإفلاس الناس عن هذا الحديث ، وهو بعد لم يصحح الإرادة ، فكيف يصح أن يتبرك به ؟

فخروجهم من الجاه واجب عليهم ، لأن ذلك سم قاتل لهم ، فإذا خرج عن ماله وجاهه فيجب أن يصحح عقده بينه وبين الله تعالى ، وأن لا يخالف شيخه فى كل ما يشير عليه ، لأن الخلاف للمريد فى ابتداء أمره عظيم الضرر ؟ لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره . =

= ومن شرطه : أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه ، فإذا خطر ببال المريد أن له فى الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة أو على بسيط الأرض أحد دونه لم يصح له فى الإرادة قدم لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه لا ليحصل لنفسه قدراً .

وفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسه ، إما فى عاجله وإما فى آجله ، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ، ولو كتم نفساً من أنفاسه عن شيخه فقد خانه فى حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه فيجب أن يقر بذلك بين يديه فى الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه به عقوبة له على جنايته ومخالفته إما بسفر يكلفه أو أمر يراه .

ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى ، وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئا من الأذكار ، بل يجب أن يقدم التجربة له ؛ فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله فى هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء فيأخذ عليه العهد بأن لا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضرر والذل ، والفقر والأسقام والآلام ، وأن لا يجنح بقلبه إلى السهولة ولا يترخص عند هجوم الفاقات وحصول الضرورات ولا يؤثر البدعة ، ولا يستشعر الكسل فإن وقفة المريد شر من فترته .

والفرق بين الفترة والوقفة أن الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل .

وكل مريد وقف فى ابتداء إرادته لا يجئ منه شئ . فإذا جربه شيخه فيجب عليه أن يلقنه ذكراً من الأذكار على ما يراه شيخه فيأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه ، ثم يأمره أن يستوى قلبه مع لسانه فيقول له : أثبت على استدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبداً بقلبك ولا يجرى على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك ثم يأمره أن يكون أبداً فى الظاهر على الطهارة ، وأن لا يكون نومه إلا غلبة ، وأن يقلل من غذائه بالتدريج شيئاً بعد شئ حتى يقوى على ذلك ؛ ولا يأمره أن يترك عادته بمرة فإن فى الخبر : (أن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى) ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزله ؛ ويجعل اجتهاده فى هذه الحالة لا محالة حتى نفى الخواطر الدنية والهواجس الشاغلة للقلب .

وأعلم أن فى هذه الحالة قلما يخلو المريد فى أوان خلوته فى ابتداء إرادته من الوساوس فى الاعتقاد ؛ لا سيما إذا كان فى المريد كياسة قلب ؛ وقل مريد لا تستقبله هذه الحالة فى ابتداء إرادته .

وهذه من الامتحانات التى تستقبل المريدين ؛ فالواجب على شيخه إن رأى فيه كياســـة أن =

ومن أخلاقهم أن لا يرجعوا فى ما خرجوا عنه فى سرهم لاحد

ولو عمامتهم أو جوختهم أو مضربتهم ، وربما طرقهم ذلك الخاطر ، وهم فى بيت الخلاء فينزعونه فيه لمن خرجوا له عنه ، وقد قررنا مراراً أن الخاطر الأول لا يدخله علة بل هو من الله تعالى ، بخلاف الخاطر الثانى ، وما بعده .

فعلم أن من خرج عن شئ فى سره ، ورجع فيه استحق التأديب عندهم ، وربما عاقبة الله تعالى بسرقة ذلك الشئ منه أو حرقه ، كما وقع لسيدى حسن الاخنى ، وذلك أنه رأى شخصا بردانا ، فخطر فى باله أنه يعطيه المضربة التى

= يحيله على الحجج العقلية فإن بالعلم يتخلص لا محالة المتعرف مما يعتريه من الوساوس.
وأن يغرس شيخه فيه القوة والثبات فى الطريقة وأمره بالصبر واستدامة الذكر حتى تسطع فى قلبه أنوار القبول ؛ وتطلع فى سره شموس الوصول وعن قريب يكون ذلك .
ولكن لا يكون هذا إلا لأفراد المريدين . فأما الغالب فأن تكون معالجتهم بالرد إلى النظر وتأمل الآيات بشرط تحصيل علم الأصول على قدر الحاجة الداعية للمريد .
وأعلم أنه يكون للمريدين على الخصوص بلايا من هذا الباب وذلك أنهم إذا خلوا فى مواضع ذكرهم؛ أو كانوا فى مجالس سماع أو غيره ذلك فيهجس فى نفسه ويخطر ببالهم أشياء منكرة يتحققون أن الله سبحانه منزه عن ذلك ؛ وليس تعتريهم شبهة فى أن ذلك باطل ولكن يدوم ذلك فيشتد تأذبهم به حتى يبلغ ذلك حداً يكون أصعب شتم وأقبح قول وأشنع خاطر بحيث لا يمكن للمريد إجراء ذلك على اللسان وإبداؤه لأحد وهذا أشد شئ يقع لهم .
فالواجب عند هذا ترك مبالاتهم بتلك الخواطر واستدامة الذكر والابتهال إلى الله باستدفاع ذلك .
وتلك الخواطر ليست من وساوس الشيطان وإنما هى من هواجس النفس فإذا قابلها العبد بترك المبالاة بها ينقطع ذلك عنه .
ومن آداب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته وأن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق وقبل الوصول بالقلب إلى الرب ، فأن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل ، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له إذا سافر فى غير وقته .
وإذا أراد الله بمريد خيراً ثبته فى أول إرادته ، وإذا أراد الله لمريد شراً رده إلى ما خرج عنه من حرفته أو حالته ، وإذا أراد الله بمريد محنة شرده فى مطارح غربته ، انتهى .
الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم القشيرى

عليه ، ثم نام ، ولم يعطه شيئاً فاستيقظ ، فلم يجد المضربة عليه ، فسأل عنها فكاشفة البردان ، وقال :

إنك لما رجعت عنها فى سرك ونمت أعدمها الله تعالى لالى ولا لك ، فإياك والرجوع عن شئ تخرج عنه فى سرك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا طال مكث الضيف عندهم أشهراً

وهو يطبخون له ، ويقومون بواجبه ، ثم وقع له نزغه شيطانية ، فأنكر فضلهم وصار يحط فيهم أن لا يمنوا عليه ، ولا يقولوا : هذا جزا الخير الذى عملناه مع فلان ، فمن قال مثل ذلك ، فهو دليل على أنه أضافه لغير وجه الله عز وجل ، فأن من أطعم لوجه الله عز وجل لا يريد من الضيف جزاء ، ولا شكورا ، فليطعم الفقير ضيفه لله تعالى ، ويفرح كلما كفر الضيف نعمته لأن بذلك يتوفر له الأجر إن كان من عبيد الأجر أو يصير له المقام العظيم عند الله تعالى أن كان أطعمه لله تعالى .

فيحتاج من يتصدر للقاء الضيوف أن يكون صاحب بصيرة ، حتى لا يرى له فضلاً على أحد من خلق الله تعالى ، إنما هو وكيل يطعم عباد الله من مال الله تبارك وتعالى ، وهناك يتخلص من ورطة الرياء ويصير يشكر الله تعالى الذى استعمله فى خدمة عباده .

فأعرض يا خى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقر انك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة أدبهم مع كل من تـزيا بزى الفقرا

وإن لم يطلب منهم هو ذلك اكراما للخرقة ؛ وقد حكى لى شيخنا الشيخ محمد الشناوى رحمه الله تعالى .

أن كلباً مر على سيدى عبد الرحيم القنائى بصعيد مصر الأعلا فقام الشيخ له فقيل له :

اتقوم لكلب فقال :

انظروا لما فى عنقه إنما قمت لأثر الفقراء الذى فى عنقه .

وكان سيدى إبراهيم الدسوقى ﷺ يقول :

إذا ضحك الفقير فى وجه أحدكم ، فاحذروه ولا تخالطوه إلا بالأدب ، فإن الفقراء ربما مزحوا كما يمزح الناس ، وهم فى ذلك مع الله تعالى لا مع الناس وربما فعلوا شيئاً تخريبياً لظاهرهم ، وتستيرا لحالهم ، حتى لا يعتقد أحد فيهم فيشغلهم عن ربهم عز وجل من باب دفع الأشد بالأخف .

وقد مر إنسان طائر فى الهوى على رأس سيدى عبد الله البلتاجى ، ولم يتواطأ له ، فسلب حاله فى الوقت ونزل إلى الأرض فما كان إلا تقطع لإسآته الأدب مع سيدى عبد الله ، ثم صار بعد ذلك شرطياً عند كاشف المحلة إلى أن مات .

فألزم حتما يا أخى الأدب تأمن العطب ، فربما كان الولى يتعاطى الحكايات المضحكات ، ويصفعه الناس فى الأسواق ، وهو فى ذلك حاضر بقلبه مع الله تعالى ، وأنت فى حال صلاتك ربما تكون غافلا عن الله تعالى .

وقد حكى لى السيد الشريف العالم الصالح بزاوية الحطاب بمصر :

أن شخصاً كان يدخل سوق الوراقين كل يوم اثنين وخميس ، فيقف على الإنسان يطلب جديداً ، فإذا أخذه لا يفارق صاحب الحانوت إلا ان صكه عشر صكات ، فوقف يوماً على شيخ الوراقين ، فأعطاه عادته .

فقال : صكنى .

فقال له : يا أخى ما أنا منشرح لمثل ذلك .

فقال : لا بد من ذلك .

فأجتمع عليه الناس وضيقوا على المارين لأنه سوق ضيق ، وقالوا له : صكه فقام وصكه عشر صكات بغين فطأطأ له وقال له فى أذنه : حاجتك مقضية ولكن إيت التربة التى بجوار جامع محمود الليلة بعد الفجر ، وصحبتك أربعون رغيفاً فى كل رغيف نصف رطل من الجبن المقلى ، وابريق كبير فيه ماء حلو ،

ففعل فلما جاء التربة بعد الفجر ، وقف على الباب ، ونظر من خلل الباب ، فإذا جماعة بيض الثياب جالسون عند المحراب وعليهم قنديل يضئ وإذا ذلك الرجل الذى صفعه فى السوق هو شيخ الجماعة .

فقال لواحد : قم خذ الذى مع هذا الواقف على الباب ، واقض حاجته ، ففعل ثم رفع ذيل شيخ السوق ومسح بريقه على بطنه ووركه ، وكان به برص فزال البرص فى الحال .

وكان أصل تكدره ذلك اليوم الذى صك ذلك الشيخ فيه أن أبنة عمه نظرت إلى البرص الذى طلع فى بطنه ، فنفرت نفسها منه وخافت أن تعتدى منه ، فخرجت إلى بيت والدها فساق عليها الناس ، فلم ترض وطلبت الطلاق ، فلما قضيت حاجته من زوال البرص رجع فوجد ابنة عمه فى داره وأخبروه بأنها قالت لأهلها: إن لم تخلونى أذهب إلى زوجى قتلت نفسى . وما عرفوا سبب ذلك .

فلما كان يوم الخميس دخل الشيخ على عادته يأخذ جديداً ، ويصفعه الناس إلى أن وقف على شيخ الوراقين . فقال له خذ هذه الفكة كلها ، فأبى إلا أن يأخذ الجديد فقط فلما أعطاه الجديد قال له : كمل عادتى بالصك فتشفع عنده بالنبى ﷺ فترك صكه .

وقال : بشرط أن تكتم ذلك على حتى أموت . فلما جاء يوم الاثنين دخل السوق وهو يعرض لذلك الرجل ويقول :

ما يضر الإنسان إلا لسانه . فكل من سكت نجا وكل من تكلم رجع كل شئ إلى ما كان ، ثم وقف على شيخ الوراقين ، فأخذ منه الجديد .

وقال له : صكنى واحدة صغيرة فتشفع عنده بالأولياء ، فقبل شفاعته هذه حكاية السيد لى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم وقوع الخوارق على يديهم فى هذه الدار

لأن محل ذلك إنما هو الدار الآخرة حين يعطى أهل الجنة أن أحدهـم يقـول

للشئ كن فيكون .

فمن أختار وقوع الخوارق على يديه ، فقد اختار العرض الفانى على الجوهر الباقى على أنه ما تم خرق عادة إنما هى كوائن يخلقها الله تعالى ، لا يشهدون لهم فيها فعلاً ، وغاية أمرهم أنهم محل لبروزها فقط ، والفعل فيها لله تعالى وحده .

فلا فرق عندهم بين الكرامة وبين سائر الأفعال الواقعة فى الوجود وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فراجعه والحمد لله رب العالمين .

من أخلاقهم شدة محبتهم لآل سيدهم ومولاهم رسول الله ﷺ وأصحابه

ولا يفاضلون بينهم إلا بنص أو إجماع ، ويهربون من التعصب لأولاده ﷺ على أصحابه وعكسه .

وسمعت سيدى عليا الخواص ﷺ قال :

لا يكفى فى محبة الشرفاء وأولاد الصحابة المحبة العادية ، وإنما يكفى العبد المحبة الحقيقة ، وهو أن يتحمل التعذيب بالنار ، والضرب ، وأخذ المال والإخراج من الأوطان . ولا يرجع عن إظهار محبتهم . ونشر محاسنهم ؛ كما وقع لبلال وعمار وصهيب ولم يرجعوا عن دين الإسلام .

فإن محبة أولاده ﷺ والصحابة من الدين بيقين .

ونظير ذلك ما وقع للإمام أحمد بن حنبل ﷺ فى مسألة القول بخلق القرآن . فاحتمل الضرب الشديد والحبس ، ولم يوافقهم على القول بخلق القرآن ولو بقصد التأويل .

فحقق يا أخى المحبة فى أولاد رسول الله ﷺ وأصحابه ، فربما تكون محبتك عادية .

وإياك والتفاضل بينهم بالهوى فإن ذلك من قسم الغيبة للمفضول .

وقد قال سفيان الثورى فى طبيبين دخلا عليه :

لولا أخشى أن تكون غيبة لقلت :

أن أحدهما أعرف بالطب من الآخر ، انتهى .

فلا ينبغى لأحد أن يقول : فلان أعلم من فلان إلا بطريق شرعى .

فأعرض يا أخى هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالكما ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تفتيشهم لأعضائهم الظاهرة والباطنة

صباحاً ومساء هل حفظت حدود الله تعالى التى حدها ، أو تعدت حدوده ؟ وهل قامت بما أمرت به من غض البصر وحفظ اللسان والأذن والقلب وغير ذلك على وجه الإخلاص أو لم تقم ؟

وذلك ليحمدوا الله تعالى إن رأوا جوارحهم محفوظة ، ويستغفروا الله تعالى إذا رأوها وقعت فى محظور أو مكروه .

وكان هذا من خلق سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ ، ولم أر له فاعلا بعد سيدى على الخواص وأخى الشيخ أفضل الدين إلى وقتى هذا .

وبه يعرف العبد مقدار ما أنعم الله تعالى به عليه عادة من استعماله فى الحسنات ، وحفظه من الوقوع فى الزلات .

فإن رأى جارحة من جوارحه أطاعت شكر الله تعالى ولم ير نفسه أهلا لها وإن رآها تلطخت بمعصية من معاصى الله تعالى ، يستغفر الله تعالى منها ، ويشكره إذا لم يقدر عليه أكثر من تلك المعصية .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى إذا دخل مصر بدأ بالبيمارستان ، فيطوف على المرضى واحداً ، واحداً . فلا يخرج من عند المرضى إلا وهو يرى نعم الله تعالى قد غمرته ، فيشكر الله تعالى الذى لم يبتل جوارحه التى عصت بالأمراض والجراحات ، والدمامل والقروح ، فإن كل عضو عصى أستحق نزول سائر البلايا

بـــه [١] .

وكان سيدى على الخواص إذا وجد فى قلبه قساوة يدخل على المرضى بالبيمارستان . ثم يدخل بيت الوالى فيجلس فيه وينظر ما يقع فيه من العقوبات على أصحاب الجرائم والتهم ، ثم يخرج إلى حبس الديلم والمقشرة فينظر إلى المفيدين فيه والموعودين بالقتل وغيره . فلا يخرج إلا وهو رقيق القلب يبكى ، ويشكر الله تعالى الذى لم يؤاخذه على ما وقع فيه .

فإن العبد ربما يستحق أن يفعل به جميع مارآه فى البيمارستان ، وبيت الوالى ، وحبس المجرمين .

فكم عصى العبد بفرجه ولسانه وسمعه وبصره ويده ورجله وفمه وقلبه ، فاستحق العمى وطلوع القروح فى عينيه ، وتربية الدود فى قبة أجفانه من داخل، حتى يصير لايتهنا بأكل ولا نوم ، واستحق طلوع القروح والخراريج فى باطن أذنه حتى أنه يحس بأن خازوقاً من حديد تدق فى أذنه ليلا ونهاراً ، ومنهم من تدود أذنه ويصير فيها دود كاذناب المغازل . ومنهم من يطلع فى لسانه الذى أغتاب به الناس طلوعات فذاب لسانه وشفتاه وتقرح فمه ونتن . حتى صار طاقة وأسنانه بارزة وأنفه أكل حتى صارت زوجته لا تقدر على القرب منه من القيح والنتان . ومنهم من طلع فى محاشمه الأكلة حتى رمت ذكره وأنثييه وصار موضعه كالطاق والدود يغلى فيه كالقدر . ومنهم من طلع فى دبره أكلة فأكلت المحيط به وصار روثه دائماً نازلاً لو لم يشده بخرقة ومشاق . ومنهم من طلع به بواسير ونواصير داخلة وخارجة وشقاق فصار يحس بأن دبره يشرح بكسين كآلة ليلا ونهاراً لايتهنا بنوم ، ومنهم من ضربه البرص والجذام حتى تقطعت أعضاؤه وقذرته زوجته التى يحبها وأصحابه .

ومنهم من طلع عيه الحب الفرنجى وصار عظمه يضرب عليه ليلاً ونهـــاراً

---

(١) عن أبى يعلى بن شداد ﷺ عن النبى ﷺ قال :
(الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) رواه الترمذى .

يتمنى الموت فلا يجاب وينام الجن والأنس وهو لا ينام ، ومنهم من أبتلى باسر البول والحصاد وجرد الكلا حتى صارت كلاه تقع قطعاً قطعاً من دبره .

ومنهم من تورم قلبه كما بسطنا الكلام عليه فى كتاب العهود المحمدية .

فاعمل ياخى بهذا الخلق صباحاً ومساء ليحميك الله تعالى من هذه الأمراض إن شاء الله تعالى وأكثر من الشكر والاستغفار ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الاستغفار ليلا ونهاراً

سواء تذكروا ذنوباً معينة أم لم يتذكروا لا سيما أول النهار وآخره ، وأول الليل وآخره فينام أحدهم على الاستغفار ويصبح على الاستغفار . وبذلك يأمن العبد من نزول البلاء عليه قال الله تعالى .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١) ﴾

والحمد لله رب العالمين (٢)

ومن أخلاقهم : خدمة زوجتهم وأمتهم إذا مرضت

ولا يأنفون من شيل القذر من تحتها ، فإنه لو مرض لفعلت معه ذلك ، إذا عجز عن الذهاب إلى بيت الخلاء ، وإذا طال مرض زوجة أحدهم السنة ، وأكثر صبر على العزوبة وفاء بحقها .

ولا يتزوج ولا يتسرى إلى لغرض شرعى ظاهر .

---

(١) سورة الأنفال آية : ٢٢ .

(٢) سئل الحجنيد عن التوبة فقال : أن تنس ذنبك .

وقال سهل بن عبد الله : التوبة : ترك التسويف .

وقال الجنيد : التوبة على ثلاث معان : أولها الندم ، والثانى العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عنه .

والثالث السعى فى أداء المظلم .

وقال ذو النون : الاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين .

وإن احتاج إلى الجماع تعاطى أسباب تخميد الشهوة بقلة الأكل والاشتغال بالعبادة ونحو ذلك .

فعلم أن من لم يخدم زوجته أو جاريته أو غلامه إذا مرض ، فهو لم يشم من أخلاق الصالحين رائحة ، فإن من أخلاقهم الخدمة لمن ليس له خدمة ، ولا فضل عليهم ولا يرون بعد ذلك لهم عليه فضلا ، فكيف بمن خدمهم الدهر ؟ وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين [1].

ومن أخلاقهم شدة كراهتهم للخلوة بالأجنبية

ولو غلب على ظنهم السلامة من الوقوع فى فاحشة احتياطا لأنفسهم .

وإذا كان النظر حراماً إلى الأجانب فكيف بالخلوة بهن ؟

فإن الخلوة أقرب إلى الفتنة من النظر ، وفى الحديث :

ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما [2].

ومن كان الشيطان حاضراً عنده فلا يأمن وقوعه فى كل فاحشه .

فقد عمل الشيطان على أعظم منا من العباد والزهاد .

ثم أقل ما يحصل من الخلوة بالأجنبية سر العبد وحرمانه لذة العبادة كما جرب .

وأقبح من ذلك التعرض للفتنة .

واستبعاد العبد أن مثله لا يخاف من مثل ذلك ، فإنه غرور من إبليس وحبل يستدرجه به .

---

(١) عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ .

أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم رواه الترمذى .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة .

(٢) رواه الطبرانى عن أبى أمامه بنحوه ولفظه :

(إياكم والخلوة بالنساء ، والذى نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما).

وقد سئل الشيخ أبو القاسم النصر اباذى [1] شيخ خراسان فى عصره عن شخص يقول : ما على لوم فى مجالستى للنساء لعدم ميلى إليهن .

فقال الشيخ : ما دامت الأشباح باقية فإن الأمر والنهى باق فى حق كل مكلف، ولا يجترئ على الشبهات إلا من هو معرض المخالفات ، انتهى .

وقد خالف قوم ، فاغتروا بدينهم فوقعوا فى المخالفات ، كما هو مشهور عن بنى إسرائيل وفى هذه الأمة .

وإذا كان الحق تعالى يقول لخيار الناس من الصحابة فى حق خيار الناس من زوجات النبى ﷺ :

﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [2].

فكيف يدعى أحمق وحمقى أن مثلهم لا يخاف على نفسه ؟ فالصادق من نفرت نفسه من خلطة الأجانب وقامت كل شعرة منه عند رؤيتها ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم مطالبة نفوسهم بحقوق الناس وعدم مطالبتهم الناس بحقوقهم

فإذا عملوا عرساً أو مات لهم ميت ولم يحضر أحد من إخوانهم حملوه على

---

(١) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر اباذى : شيخ خراسان فى وقته .
والنصراباذى نسبة إلى نصر اباذى محلة من محال ينسابور ومن كلامه : أنت بين نسبتين : نسبة إلى الحق ،ونسبة إلى آدم ، فإذا انتسبت إلى الحق دخلت فى مقامات الكشف والبراهين والعظمة ؛ وهى نسبة تحقق العبودية قال الله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) وقال : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .
وإذا انتسبت إلى آدم دخلت فى مقامات الظلم والجهل ، قال الله تعالى : (وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) ومن كلامه أيضاً (الأشياء أدلة منه ؛ ولا دليل عليه سواه) .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٥٣ .

أحسن المحامل ، ولم يعاتبوه .

وإذا عمل أحد من إخوانهم مهما ولم يحضروا ولم يساعدوه يوبخون نفوسهم على ذلك .

ويراعون إزالة ضرورات الناس ويرون تقديمها على ضروراتهم .

ثم إن وقع أن أحداً أعلم إخوانه بالصلاة على ميته مثلا فلا يعلمهم إلا بعد إنتهاء تجهيز الميت ليخفف عليهم الأمر ، فإن من دعا إخوانه من بكرة النهار مثلا والجنازة لا تخرج إلا بعد الظهر عادة فقد غير نيتهم من كثرة تقلقهم ، فلا يصير لهم كمال توجه إلى الدعاء لذلك الميت بالقلب ، فيريد أحدهم أن يدعوا للميت بتوجه تام فلا يصح له ذلك لتشتت قلبه فى أودية حوائجه لاسيما إن كان أحدهم معيلا ، وذلك اليوم يوم سوق أو طالب علم ممحون بدرسه ، ونحو ذلك فإنه يصير حاضراً بجسمه وقلبه غائب ؛ فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين (١).

ومن أخلاقهم مساعدة إخوانهم الذين تصدروا لحملات الناس سترة لإخوانهم بين الناس

فلا ينام أحدهم ، ولا يجامع ، ولا يلبس ثوبا نظيفاً ولا يبنى داراً ، ولا يضحك ، ولا يضع جنبه الأرض ، ولا يتفرج فى بستان ، ولا غير ذلك ، حتى تنقضى تلك الحملة . لاسيما حملات الولاة وأعوانهم من الظلمة ، إذا عزل أحدهم من ولايته ، أو وظيفته ، ولم تأخذ العقوبة حدها فيهم ، فإن الفقير يكاد أن يهلك.

وهذا الخلق قل من يفعله الآن فى حق أخيه .

بل ربما شمت أحد بأخيه إذا أنتكب صاحبه من الأمراء والأكابر ، وصار

---

(١) وفى الحديث : (أحسن الناس أعذرهم للناس) وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال : سمعت عمر بن الخطاب ﷺ يقول : إن ناسا كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله ﷺ وإن الوحى قد انقع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ؛ فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شئ الله يحاسبه فى سريرته ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال : إن سريرته حسنه . رواه البخارى.

يضحك ، ويود بخس أخيه ، وفضيحته عند ذلك الأمير الذى حمله الحملة . كما وقع لى ذلك معهم ، هذا فى حق أمير لايحسن إليهم ولا يعرفهم ، وإنما هو من أصحاب صاحبهم ، فكيف بهم لو كان لذلك الأمير فضل وإحسان إليهم ؟

وكل هذا من تعظيمهم الخرقة فيحبون أن لا يخذل أحد ممن أنتسب إلى أهلها.

فعلم أن من لم يساعد أخاه فى حملته فهو مدع كذاب فى الطريق ، وإن كان له شعرة ، وعذبة وعمامة ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم قبولهم هدية ممن حملوا عنه حملة

كان دفعها عنه معلقا على توجه الفقراء إلى الله تعالى ، وإلا فالأمور المبرمة لا يصح لأحد ردها عن نفسه فضلا عن أن يردها عن غيره .

ثم إن ذلك لا ينافى التسليم كما توهمه بعضهم ، فالعبد يحمل هم إخوانه من حيث كسبهم الذنوب التى استحقوا بها ذلك البلاء النازل عليهم ، ويسلم لله تعالى من حيث التقدير الإلهى الذى سبق به العلم ، إذ لا يمكن رد ذلك ، فافهم .

فإنه قد غلط فى ذلك جماعة من أهل عصرنا فلا يحملون هم أحد من المسلمين زاعمين أنهم مسلمون لله تعالى ، ويخرجون على من يرونه يحمل هموم إخوانه ، ويقولون : ما لفلان ومعارضة الأقدار ، ويتوهمون أن ما هم عليه أكمل وهو جهل .

فقد كان عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وسفيان الثورى وغيرهم إذا نزل بالمسلمين بلاء لا يتهنأ أحدهم بنوم ولا بأكل ولا بشرب حتى يرتفع ذلك البلاء فهل كان أولئك الذين ذكرناهم

ناقصين وأنت يا مرعى كامل[1] ؟ .

---

(١) قال الله تعالى : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون)

وعن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال :(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا=

وقد دخلت مرة فى حملة رزق الفقراء والمساجد لما وقع فيها التفتيش فى سنة ثمان وخمسين وتسع مائة ، فما كنت إلا هلكت ، ولم يساعدنى فيها أحد من الفقراء الظاهرين فى مصر إلا ثلاثة فقراء ، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً .

وقد تقدم فى هذه الأخلاق أن مقام تحمل هموم المسلمين ليس هو لكل أحد ، إنما هو لأفراد من الفقراء وغالبهم يقول إذا شكى أحد له بلاء نزل به : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم يغفل عنه ويأكل وينام ويجامع كما هو مشاهد ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم للوحدة أواخر أعمارهم

وكراهتهم لتردد الناس إليهم فضيق عمرهم عن إعطاء الورادين حقوقهم من أبناء الدنيا وغيرهم .

فإن غالب المترددين لا يكادون أمر آخرتهم ، وإنما حديثهم فى أمور الدنيا ، والفقير الصادق قد التهى عن مثل ذلك بالتأهب للقاء الله تعالى ، وتمهيد فراشه فى قبره ، وما يقاسيه بعده من الأهوال إلى أن يجاوز الصراط .

وقد من الله تعالى على بذلك من سنين ، فكل يوم لا يزورنى فيه أحد من أبناء الدنيا أشكر الله تعالى عليه ، ولما بلغ الإمام الشافعى ﷺ أربعين سنة صـــار

= يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ومن فرج على مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة) .

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون اخيه ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)) رواه مسلم .

وعن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال كان النبى ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: (إشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب) متفق عليه .

كأنه غريب بين الناس وأنشد :

صديق ليس ينفع يوم بأس قريب من عدو فى القياس
وما يبغى الصديق بكل عصر ولا الإخوان إلا للتآسى
خبرت الدهر ملتمسا بجهدى أخا ثقة فاكواه التماسى
تنكرت البلاد على حتى كان أناسها ليسوا بناسى

ولما طلع الشيب فى لحيته أدمن إمساك العصا فقيل له فى ذلك فقال : لأذكر أنى مسافر من هذه الدار ، ثم أنشد قوله :

خبت نار نفسى باشتعال مفارقى وأظلم ليلى إذا أضاء شهابها
أيا بومة قد عششت فوق هامتى على الرغم منى حين طار غرابها
رأيت خراب العمر منى فزرتنى ومأواك من كل الديار خرابها
أأنعم عيشاً بعد ما حل عارضى طلائع شيب ليس يغنى خضابها
وعزة عمر المرء قبل مشيبه وقد فنيت نفس تولى شبابها
إذا أصفر لون المرء وابيض شعره تنغص من أيامه مستطابها
فدع عنك سوءات الأمور فإنها حرام على نفس التقى ارتكابها
ولا تمشين فى منكب الأرض فاخرا فعما قليل يحتويك ترابها
ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها وسبق إليا(١) عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا كما لاح فى ظهر الفلاة سرابها
وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أو طنت قعر دارها مغلقة الأبواب مرخى حجابها

فعلم أن كل فقير تأثر من إدبار الناس عنه أواخره ، فهو مدع كذاب لمخالفته أخلاق العارفين أواخر أعمارهم .

---

(١) لعله يقصد وسيق إلى عذبها وعذابها .

وقد بلغنا أن سيدى أحمد بن الرفاعى ﷺ لما حضرته الوفاة قال ليعقوب الخادم :

يا ولدى والله ما كان لى خيرة إلا فى الوحدة ، فياليت حميدا لم يعرف أحداً ولم يعرفه أحد . فقال له يعقوب فى ذلك فقال :

يا ولدى أن ، فضيحة الآخرة عظيمة ، فإذا كان من يعرف الفقير فى الآخرة قليلاً كان ذلك أستر له . ثم صار يبكى ويقول :

وافضيحتاه مما فرطت فى جنب الله .

ولما حضرت الوفاة الإمام عمر بن الخطاب ﷺ قالوا له :

استخلف ولدك عبد الله فقال :

يكفى واحد من آل الخطاب يأتى يوم القيامة ويداه مغلولتان إلى عنقه .

وكان ﷺ يقول :

لو أنى خيرت قبل أن أدخل الدنيا بين أن أخلق وأقاسى أهوال يوم القيامة ، وبين أن لا أخلق لأخترت أن لا أخلق .

وكان أبو بكر الصديق ﷺ يقول :

لقد وددت أنى بتنة ملقاة تحت النعال .

وكان إذا تنفس يشم من جوفه رائحة الكبد المشوى .

وكان سيد المرسلين ﷺ يسمع من صدره ازيز كأزيز الرحى (١) وغليان كغليان القدر على النار من شدة الخوف من سطوات الحق جل وعلا .

وهكذا كل من كان من أتباعه ﷺ والحمد لله رب العالمين .

---

(١) حديث : كان يسمع من صدره أزيز إلخ رواه الترمذى فى الشمائل والحافظ ابن حبان الأصبهانى فى أخلاق النبى ﷺ عن عبد الله بن الشخير .

ولفظه : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء .

وفى رواية للاصبهانى : صليت خلف رسول الله ﷺ فسمعت لصدره أزيز كأزيز المرجل .

ورواه أبو داود بلفظ : رأيت رسول الله ﷺ صلى ولصدره أزيز كأزيز الرحى فى البكاء ورواه بنحوه النسائى وابن خزيمة .

ومن أخلاقهم شهودهم قبيح زلاتهم

وخوفهم أن الله تعالى يخسف بهم الأرض ، أو يمسخ صورهم صورة كلب أو خنزير على الدوام .

ولو أنه تعالى خسف بهم الأرض لرأوا ذلك من بعض ما يستحقونه [(١)].

وممن أدركته على هذا القدم سيدى على الخواص ، وأخى الشيخ أفضل الدين، وسيدى على النبتيتى الضرير ، سيدى على البحيرى ، وسيدى محمد المنير ، وسيدى محمد الشناوى ، والشيخ عبد الحليم بن مصلح ، والشيخ محمد ابن داود والشيخ بن عنان ، وشيخ الإسلام زكريا ، والشيخ شمس الدين

---

(١) قال الله تعالى : (يدعون ربهم خوفا وطمعا) .

وعن أنس قال رسول الله ﷺ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً)

يقول الإمام القشيرى : قلت : الخوف : معنى متعلقة فى المستقبل ؛ لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه ، أو يفوته محبوب : ولا يكون هذا إلا لشئ يحصل فى المستقبل .

فأما ما يكون فى الحال موجودا ، فالخوف لا يتعلق به .

والخوف من الله تعالى ، هو أن يخاف أن يعاقبه الله تعالى إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة .

وقد فرض الله ، سبحانه ، على العباد أن يخافوه ، فقال تعالى :(وخافون إن كنتم مؤمنين)

وقال : (فإياى فارهبون) ومدح المؤمنين بالخوف ، فقال :(يخافون ربهم من فوقهم).

ويقول الأستاذ أبو على الدقاق: الخوف على مراتب : الخوف ، والخشية ، والهيبة .

فالخوف من شرط الإيمان وقضيته ، وقال الله تعالى : (وخافون إن كنتم مؤمنين) .

والخشية من شرط العلم ، قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

والهيبة من شرط المعرفة ؛ قال الله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) .

وقال يحى بن معاذ : مسكين بن آدم ، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة .

وقال شاه الكرمانى : علامة الخوف : الحزن الدائم .

وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف من شئ هرب منه ، ومن خاف من الله عز وجل هرب إليه .

وقال بشر الحافى : الخوف من الله ملك لا يسكن إلا فى قلب متق .

السمانودى ، والشيخ نور الدين الطرابلسى الحنفى ، وجماعة ذكرناهم فى كتاب الطبقات . وسيأتى بسط ذلك آخر الكتاب إن شاء الله تعالى .

فاعرض هذا الخلق وما قبله على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله الذى من علينا بذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبة إخوانهم المسلمين محبة أخوة وإسلام وإيمان ولا محبة طبع وإحسان

وقد قال الله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة [١]﴾ فآخى بين المؤمنين ، فالمؤمن الكامل لا يحتاج فى محبة أخيه إلى إحسان بعد أن آخى الله تعالى بينه وبينه[٢]

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٠ .

(٢) يقول الإمام القشيرى : والصحبة على ثلاثة أقسام : صحبة مع من فوقك : وهى فى الحقيقة خدمة ، وصحبة مع من دونك : وهى تقضى على المتبوع بالشفقة والرحمة ، وعلى التابع بالوفاق والحرمة .

وصحبة الأكفاء والنظراء : وهى مبينة على الإيثار والفتوة ، فمن صحب شيخا فوقه فى الرتبة ، فإدبة ترك الأعتراض ، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل ، وتلقى أحواله بالإيمان به .

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه أحد شارطه على ثلاثة أشياء :

أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيدهم .

فقال له يوما رجل من أصحابة : أنا لا أقدر على هذا ؟

فقال أعجبنى صدقك .

وقال يوسف بن الحسين : قلت لذى النون : مع من أصحب ؟

فقال : مع من لا تكتمه شيئا يعلمه الله تعالى منك .

وقال سهل بن عبد الله لرجل : إن كنت ممن يخاف السباع فلا تصحبنى .

وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة . =

ومن أحتاج من محبة أخيه إلى إحسان أو موافقة أغراض ، فما أحبه إمتثالاً لأمر الله عز وجل .

وهذا الخلق غريب فى هذا الزمان ولم أر له فاعلاً إلى وقتى هذا كما بسطت الكلام على ذلك فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يفيدوا كل من جلس إليهم من الفقهاء والفقراء والعوام شيئا من الفوائد

فلا يفارقهم جليسهم إلا بفائدة .

وممن أدركته على هذا القدم سيدى أفضل الدين تلميذ سيدى على الخواص .

ويحتاج من يعمل إلى علم وافر ، ونفوذ بصر إلى قلوب الجالسين عنده ، فيفيد كل إنسان ما يراه عاريا عن علمه ومعرفته ، وما يراه يعلمه لا يتعب نفسه فى تعليمه إياه .

ومن لم يكون كذلك فهو يبدر الكلام سواء احتاج جليسه إليه أم لم يحتج .

وقد كان أخى الشيخ أفضل الدين رحمة لله تعالى له علم بسائر الحرف ، فكان إن جلس إليه خياط استفاد منه ، أو فيخرانى استفاد منه ، أو مسلك استفاد منه ، أو طباخ استفاد منه ، أو فقيه استفاد منه ، وهكذا فى سائر الحرف . رضى الله عنهم .فاعلم ذلك وأعمل على تحصيله ثم أعمل به ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم التعشق إلى معرفة الأمور المستقبلية

فلا يطلبون شيئا من ذلك بخلاف أرباب الأحوال .

ولذلك كان الكمل يعطون أرباب الأحوال كلما يسألونهم فيه .

إذ الكاملون لا كشف لهم رحمة من الله بهم ، لا سيما اطلاعهم علـــى زلات

=وقال رجل لذى النون : مع من أصحب ؟ فقال : مع من إذا مرضت عادك وإذا أذنبت تاب عليك .

الناس وقد كان الشيخ محيى الدين بن العربى رحمه الله يقول :

من الأولياء من يكشف له عن ملكوت السموات والأرض على التفصيل ، ومع ذلك لا يدرى ما فى جيبه ، لأنه مع الله تعالى بحسب ما يطلعه عليه ، لا تعشق له إلى حال ولا مقام . أنتهى .

وربما ظن بعض الناس أن صاحب الكشف من أرباب الأحوال أعلى مقاما من ذلك العارف الذى لا كشف له ، وليس كذلك ، لأن علو المقام إنما هو يحفظ الأنفاس مع الله تعالى ، والاستقامة على الشريعة المطهرة .

وأما الكشف والطيران فى الهواء والمشى على الماء ، فليس فى ذلك أجر ، فإنه لم يرد لنا قط حديث : أن من كشف له عن كذا كتبت له حسنة .

وقد حكى لى الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمرى :

أن مجذوبا طلب من سيدى أبى العباس الغمرى نطعا جديداً فأعطاه له فقال :

هات آخر فأعطاه له فقال له :

هات آخر .

فقال له : أنت طماع ولم يعطه النطع الثالث فبعد مدة جاء الخبر أن مراكب الخواجا ابن عليبة الثلاثة ببحر الهند غرقت ، ولكن جاءهم طائر كبير ، ومعه نطعان ، فسد كل مركب بنطع ، فسلما وغرقت الثالثة .

وكان قد حمل سيدى أبو العباس الغمرى حمله المراكب لكونه من أصحابه ، فندم سيدى أبو العباس الذى لم يكن أعطاه النطع الثالث . فأنظر يا أخى اطلاع ذلك المجذوب دون سيدى أبى العباس وأعط أرباب الأحوال كلما طلبوه منك ، ولو كنت شيخاً من مشايخ الطريق فربما رأوا بلاءاً نازلا عليك ، فطلبوا دفعه عنك بالتصدق بما يأخذونه منك ، فإن من عادتهم إبهام الأمور على الإنسان ، ولو أنهم قالوا له : أعطنا كذا لندفع عنك كذا لكان يعطيهم من غير توقف ، ولكنهم يغلب عليهم الامتحان للناس .

وأخبرنى الشيخ جمال الدين ولد شيخنا شيخ الإسلام زكريا :

أن الشيخ فرج المجذوب طلب منه ، وهو خارج إلى الحمام نصفا فأعطاه له،

ثم آخر بعد آخر ، حتى بلغ تسعة وثلاثين نصفا فقال :

أعطنى نصفا آخر . فقال :

يا شيخ فرج هذا على اسم الحمام . وأبى أن يعطيه له . فقال :

خذلك من شموال اليهودى على تسعة وثلاثين ديناراً .

فلما خرج من الحمام وجلس فى خلوة والده بالمدرسة السابقة ، دق عليه داق الباب فإذا هو يهودى .

فقال له ما حاجتك ؟

فقال : كنت أقترض من والدك أربعين ديناراً ، وليس بينى وبينه شاهد إلا الله تعالى ، وقد عجزت عن دينار منها وأعطاه التسعة وثلاثين ديناراً . فندم سيدى جمال الدين الذى لم يكن أعطاه النصف الذى مسكه على اسم الحمام انتهى.

فاعلم ذلك واعمل به . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إطعام الفقير ما يطلبه منهم بالشرط

فقد يكون ذلك امتحانا من الله تعالى لهم وربما دخل عليهم فقير بعد العشاء الآخرة ، وبعد أن تعبوا فى عشاء ضيوفهم .

وقال : أنا ما آكل إلا خبزاً سخنا وطعاما جديداً ، ورد عليهم الخبز اليابس البارد والطعام الذى فضل من الضيوف امتحانا لهم ، فيكون ذلك سبب زوال النعمة عنهم ، كما وقع فى بنى إسرائيل فى قصة الأقرع والأبرص والأعمى المشهورة [1] .

فليحذر من صار موردا للناس فى هذا الزمان من التقلق من الفقير إذا تشرط عليه وعدم إجابته إلى ما سأل . فربما تحولت النعمة عنه فلا ترجع ، وصار يسأل على الأبواب ، كما وقع لابن الزرازيرى وغيره كما بسطنا الكلام على ذلك

(١) حديث قصة الأقرع والأبرص والأعمى حديث طويل رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما .

فى كتاب المنن .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم .

والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الدعاء لسيدنا ومولانا أبى العباس الخضر

فما واظب أحد على الدعاء له إلا واجتمع به قبل موته وأفاده فوائد لم تكن عنده .

فإنه عليه الصلاة والسلام لا يجتمع بأحد إلا ويعلمه من العلم ما لم يكن عنده، وهو غنى عن علم العلماء بما علمه الله تعالى له .

وما من ولى حق له قدم الولاية إلا ويحصل له به اجتماع . لكن يأتى للعارفين فى اليقظة وللمريدين فى المنام ، لأنهم لا يطيقون صحبته فى اليقظة .

ويحتاج من يريد لقائه مع كثرة الدعاء له إلى ثلاثة أمور إن لم تكن فيه لا يصح إجتماعه به يقظة ولو كان على عبادة الثقلين :

الأول : أن يكون الإنسان على سنة لا يتدين برأى .

الثانى : أن لا يكون له حرص على الدنيا حتى أنه لو خبأ درهما إلى غد لا يجتمع به .

الثالث : أن يكون سليم الصدر لأهل الإسلام ، فلا يكون عنده شحناء ولا بغض لأحد من المسلمين إلا بطريق شرعى خال من حظ النفس . فهذه شروط رؤيته فى اليقظة والاجتماع به .

وقد كان سيدى محمد القرشى يطبخ شوربة القمح كثيراً ، فقيل له فى ذلك فقال : إن الخضر عليه السلام بات عندى ليلة ، فاشتهى على شوربة قمح ، فلم أزل أحبها لمحبة السيد الخضر لها .

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى يقول : أجتمعت بالخضر عليه الصلاة والسلام وأفادنى عدة مسائل فلو جادلنى ألف فقيه الآن على أنه مات لم ألتفت إليهم .

وكان الشيخ أبو العباس المرسى رحمه الله تعالى يقول : خصلتان أكرههما من الفقيه : قوله بموت السيد الخضر عليه السلام . وقوله بكفر الحلاج [1]. انتهى . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج : يقول عنه الهجويرى : كان من سكارى هذه الطريقة ومستاقيها وذا حال قوى وهمة عالية .

أما رأيت أن الشبلى قال : (أنا والحلاج شئ واحد فخلفنى جنونى وأهلكه عقله) ؟ فلو كان مطعونا فى دينه لما قال الشبلى أنا والحلاج شئ واحد ، وقال محمد بن خفيف : (هو عالم ربانى) ومثل هذا.

وله تصانيف زاهرة ورموز كلام مهذب فى الأصول والفروع . وأنا على بن عثمان الجلابى رأيت له خمسين تصنيفا فى بغداد ونواحيها ، وبعضها فى خوزستان وفارس وخراسان ، ووجدتها جميعا – كما هو الحال فى بداية أمر المريدين – أقوالا : بعضها أقوى وبعضها أضعف ، وبعضها أسهل ، وبعضها أشنع وحين يكون لإنسان دليل وبرهان من الحق وتواتيه العبارة بقوة الحال ، ويعينه الفضل ، يصير الكلام معلقا ، خاصة وأن المعبر يغرب فى عبارته ، وعندئذ تزداد نفرة الأوهام من سماعه ، وتعجز العقول عن إداراكه ، ومن ثم يقولون أن هذا الكلام عال ، فينكره فريق عن جهل ، ويقره فريق بالجهل ، ويكون إنكارهم كإقرارهم .

ولكن حين يراه المحققون وأهل البصيرة لا يتعلقون بالعبارة ، ولا ينشغلون بالغرابة . ويفرغون من ذمه ومدحه ، ويستريحون من إنكاره إقراره .

كشف المحجوب للهجويرى . دراسة وترجمة وتعليق دكتورة إسعاد عبد الهادى قنديل .

البَابُ الثَّالِث

الباب الثالث

فى جملة أخرى من الأخلاق

فمن أخلاقهم : عدم إنكارهم على أرباب الأحوال فى أكلهم من أطعمة الظلمة لأنهم من أقسام المجاذيب فى عدم التكاليف

وربما يكون الحق تعالى يستخلص لهم الحلال من الحرام ، كما يستخلص لنا اللبن من بين فرث ودم .

وقد أدركت من أرباب الأحوال جماعة كانوا على هذا القدم ، منهم الشيخ أفضل الدين ، فصنعت له يوماً فطيرة وقدمتها بين يديه ، فصار يفتت منها ، ويرمى للكلاب والقطط يميناً وشمالاً ، ويضع بين يديه شيئاً اجتمع منها نحو الربع فى حجره ، فأكل منه فقلت له فى ذلك ، فقال :

كان فيها قمح مخلوط من حرام وحلال ، فسألت الله تعالى فميز لى الحلال من الحرام ، فقلت :

وهو دقيق ؟ فقال :

وهو دقيق ، إن شاء الله على كل شئ قدير ، انتهى .

فانظر يا أخى هذا الأمر العجيب ؛ ومثل هؤلاء الأولى بنا التسليم لهم لأن الإنكار لا يتأكد إلا على من يتبع على أفعاله والمتشرع لا يتبع هؤلاء فى مثل ذلك أبداً ، فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم إنكارهم على من يقول اجتمعت بملك الموت فى اليقظة

وقال لى : كذا ، وقلت له كذا ، أو على من يقول : اجتمعت بالسيد المسيح عليه الصلاة والسلام فى اليقظة ، فإن ذلك ممكن على وجه الكرامة .

وقد كان الشيخ محمد الشربينى[1] رحمه الله يجتمع بملك الموت كثيراً ، ويسأله عن أعمار الناس وما بقى منها فيخبره كما أخبرنى بذلك أصحابه .

وفى بعض الأوقات يقول لملك الموت إذا جاء يقبض روح أحد من أهله : ارجع إلى ربك فإن الأمر الذى أنزلت به نسخ ، وبقى من أجله كذا ، وكذا يوم أو جمعة أو شهر أو سنة .

وأخبرنى ولده سيدى أحمد أنه مرض حتى أشرف على الموت ، فنزل ملك الموت وجلس عند رأسه ، قال : فجاء والدى وقال له وأنا أراه :

بقى من أجل ولدى ثلاثون سنة ، فرجع عزرائيل وطبت من ذلك المرض ، ولى بعد ذلك عشرون سنة ، وبقى عشرة ، فكان الأمر كما قال .

وكذلك كان أخى الشيخ أفضل الدين يرى ملك الموت ويحادثه كثيراً ، وكذلك أخبرنى أنه اجتمع بالمسيح عليه الصلاة السلام فى سوق الوارقين بمصر المحروسة يقظة سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة . وسأل الشيخ أفضل الدين عن بعض علامات الساعة التى وقعت فسر بذلك ، ولم يزل الناس يخبطون عشوى فى مثل ذلك من غير دليل ، فبعضهم يجوز ذلك ، وبعضهم يمنعه .

وقد ذكرابن سيد الناس فى سيرته فى قصة سلمان الفارسى من رواية الطبرى وغيره : أن المسيح عليه السلام نزل بعد ما رفع ، فوجد أمه وامرأة أخرى عند الجذع الذى فيه المصلوب يبكيان عليه، فكلمهما وأخبرهما انه لم يقتل، وإنما الله تعالى رفعه إلى السماء ثم أرسل الحواريين ووجههم إلى البلاد .

قال الطبرى والسهيلى : وإذا جاز أن ينزل بعد الرفع مرة ، جاز أن ينزل مراراً ، ولكن لا يعلم المحجوبون أنه هو حى ينزل النزول الظاهر والموعود به ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير كما جاء فى الأحاديث الصحيحة ، قال الطبرى :

ويروى أنه إذا نزل يتزوج امرأة من جذام ، ويدفن إذا مات فى روضة سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، انتهى .

---

(١) هو الشيخ محمد الشربينى ﷺ : شيخ طائفة للفقراء بالشرقية كان من أرباب الأحوال والمكاشفات : وكان ﷺ يتكلم على سائر الأقطار فى الأرض كأنه تربى فيها .

وكذلك ذكر الشيخ محى الدين بن العربى إنه اجتمع بالمسيح عليه الصلاة والسلام يقظة ، وتاب على يديه وأمره بالسياحة والزهد فى الدنيا ، قال : فهو أول أشياخى عليه الصلاة والسلام . انتهى .

ونقل الشيخ عبد الغفار القوصى فى كتابه المسمى بالوحيد : أن الشيخ تاج الدين بن شعبان كان إذا سأله إنسان فى حاجة يقول له : أصبر حتى يجئ جبريل.

قال الشيخ عبد الغفار القوصى : ولا ينبغى الأنكار على مثل ذلك ، لأنه ليس بمستحيل ، لأن قلوب الأولياء جوالة بالملكوت ، ولها مخاطبات لملائكته ، ومحادثة جبريل ليست بنبوة ولا وحى ولا إرسال . انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فى الباب الثالث عشر فراجعه وسلم للأولياء ما يخبرون به من جميع الممكنات . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تعظيمهم للفقير ببادى الرأى بمجرد رؤيتهم لمرقعته مثلا

ولا يتوقفون على معرفة مقامه فى الطريق .

كما أن أبناء الدنيا يعظمون من رأوه لابساً ملبس جند السلطان بمجرد رؤيته ولا يتوقفون على معرفة وظيفته هل هى كبيرة أو صغيرة .

فعظم يا أخى الفقراء ولا تتوقف على معرفة مقامهم ، فإنهم كالسهم القاتل .

وربما كان أحدهم ممن يغضب الحق تعالى لغضبه ويرضى لرضاه .

وربما وقع منك يا أخى إزدراء له فدعا عليك فاستجاب الله دعاءه ولو مزحا، كما وقع لبعضهم أنه أراد القرب من زوجته فصاح واحد من أولاده وكانوا سبعة فقال : أسكت أماتكم الله تعالى ، فمات السبعة لوقتهم فبلغ ذلك سيدى إبراهيم المتبولى ، فأرسل وراء الفقير ، وقال له : أماتك الله تعالى فمات الفقير

لوقته ، فقال سيدى إبراهيم لو بقى لأمات خلقاً كثيراً (١). انتهى

وفى الحديث :(إن الله تعالى أخفى أولياءه فى عباده) ، فقد يكون ذلك الجندى أو القاضى أو التاجر أو المحترف مثلا من أولياء الله تعالى الذين أخبر أنه تعالى يحارب من حاربهم ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : نداؤهم لأصحابهم بالقلب

فيأتون أو يمتنعون من المجئ إليهم ، إما عقوبة لهم على ذنوبهم أو إراحة لهم من تعب المجئ مثلا ، فليحذر الإنسان من وقوعه من عدم التردد إليهم فربما عاقبوه بذلك على ذنوب سلفت منه أو لعدم انتفاعه بهم كما هو الغالب فى المترددين للفقراء فى هذا الزمان .

---

(١) وفى الحديث : عن حارثة بن وهب ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره .

ألا أخبركم بأهل النار ؟:

(كل عتل جواظ مستكبر) متفق عليه .

وعن أبى العباس بن سهل ابن سعد الساعدى ﷺ قال : مر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس . ما رأيك فى هذا ؟

فقال رجل من أشراف الناس :

هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وأن شفع أن يشفع . فكست رسول الله ﷺ ، ثم مر رجل فقال له رسول الله ﷺ : ما رأيك فى هذا ؟

فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله .

فقال رسول الله ﷺ :

هذا خير من ملأ الأرض مثل هذا) . متفق عليه .

وعن أبى هريرة ﷺ عن رسوله الله ﷺ قال :

(إنه ليأتى الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة) متفق عليه .

وأعرف جماعة لا يقدر أحد منهم يحضر معنا الورد يوماً واحد . وربما يتوقف أحدهم عن المجئ إلى حتى يغلب على ظنه أن الورد فرغ . ومثل هؤلاء لا فائدة فى ترددهم لعدم شربهم من مسقاتنا بل الذى ينبغى لنا أن نسأل الله تعالى أن يعوقهم عنا مادمنا فى قيد الحياة . كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن الكبرى .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يجددوا معالم الطريق كلما خلقت

كما فعلت أنا فى هذا الكتاب (١) فأننى بحمد تعالى جددت به غالب ما خلق واندرس من اخلاق الصالحين الذى أدركناهم فى أول النصف الأول من القرن العاشر ، وما بقى إلأ العمل بها .

وأظن أن غالب فقراء هذا الزمان كان لا يعرف شيئاً من هذه الأخلاق قبل ذكرى لها كما يعرف ذلك كل منصف خال عن العصبية والدعوى .

وكذلك القول فى علماء الشريعة لم يزالوا يجددون الشريعة وأقوال علمائها كما اندرست إما بالتأليف وإما بالتدريس وإما بترجيح ما خفى دليله على المتقدمين ونحو ذلك .

ومن علمته يجدد الشريعة فى هذا الزمان بأفعاله وأقواله سيدى محمد البكرى(٢).

---

(١) وكما فعل الإمام القشيرى فى الرسالة القشيرية والهجويرى فى كشف المحجوب والسهروردى فى عوارف المعارف والمحاسبى فى الرعاية لحقوق الله والطوسى فى اللمع والواقع أن الإمام الشعرانى له هذا الفضل الذى يذكره عن نفسه وزيادة فإن كتب الإمام الشعرانى ومدرسته هم السبب فى إحياء الطريق الصوفى فى مصر .

(٢) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ الإمام العالم الراسخ فى العلوم اللدنية ، والمنح المحمدية الكامل ابن الكامل سيدى محمد البكرى .
أجتمعت به مرات فما رأيت أوسع منه خلقاً ، ولا أكرم نفسا ، ولا أجمل معاشرة . =

وسيدى محمد الرملى (١) والشيخ شمس الدين الخطيب (٢) والشيخ نور الدين الطندتاوى(٣)

= درس وأفتى فى علم الظاهر والباطن ، وأجمع أهل الأمصار على جلالته ، ونشأ ﷺ كنشأة والده على التقوى والورع والزهد وعزة النفس حتى أتته الدنيا وهى راغمة ، فالناس أجمعوا على أنه ليس على وجه الأرض أكثر علماً منه ولا فى غير مصر مثله ، وقد أعطاه الله تعالى التكلم على أحوال السموات والأرض نقلا وكشفا ويقينا لا ظنا وتخمينا .

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق صاحب العلوم المحررة والأخلاق الحسنة ،والأعمال المرضية، سيدى محمد،ولد شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملى أخذ ﷺ العلم من والده فاغناه عن كثر التردد والتطفل على غيره وبث فيه ما كان عنده من الفقة والحديث والتفسير والأصول والنحو والمعانى والبيان وغير ذلك .
وهو الأن مرجع أهل مصر فى تحرير الفتاوى . وأجمعوا على دينه وصلاحه وورعه وحسن خلقه وكرم نفسه ولم يزل بحمد الله فى زيادة من ذلك .
توفى فى الثالث عشر من جمادى الأولى سنة أربعة بعد الألف .

(٢) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الأخ الصالح العامل المقبل على عبادة ربه ليلا ونهارا الشيخ شمس الدين الخطيب . أخذ الشيخ شمس الدين العلم عن جماعة من علماء مصر ، كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ جمال الدين الصافى والشيخ ناصر الدين الطبلاوى ، والشيخ شهاب الدين الرملى وتبحر فى العلوم على أيديهم ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى فى حياة أشياخه وانتفع به خلائق لا يحصون . أجمع أهل مصر على دينه وصلاحه ووصفوه بالعلم والعمل والزهد ، وكثرة النسك والعبادة .وشرح كتاب منهاج الفقه ، وكتاب التنبيه شرحين عظيمين ، جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد الشيخ زكريا ، وأقبل الخلائق على كتابتهما وقراءتهما عليه ، وما رأيته قط يسعى على شئ من أمور الدنيا ، ولا على شئ فيه رئاسة ، ولا يزاحم أحدا على صحبه أحد من الولاة والقضاء ، بل ربما لا يعرف أحد منهم .

(٣) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الأخ الصالح العالم الزاهد الكامل الراسخ المحقق الشيخ نور الدين الطندتاوى ﷺ ، عاش على التقوى والصلاح والورع واشتفاع بالعلم والعمل ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لا يداهن أحد .
وأخذ الطريق عن سيدى على المرصفى ، والشيخ محمد الشناوى وأخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ ناصر الدين اللقانى ، والشيخ شهاب الدين الرملى ، حتى تبحر فى=

والشيخ شمس الدين البرهمتوشى [١] والشيخ سراج الدين الحانوتى [٢] والشيخ بدر الدين الشهاوى [٣] ، ونحوهم ممن ذكرناه فى كتاب الطبقات ، فكل واحد منهم لو انفرد فى أمة من الأمم لهداهم بإذن الله إلى الصراط المستقيم .

=علوم الشريعة ، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ، فدرس وأفتى فى جامع الأزهر فى حياة أشياخه وكانوا يرسلون إليه الأسئلة فيجيب عنها بأحسن جواب.

وكان الشيخ شهاب الدين الرملى يقول : تحقيق المسائل الواقعة فى الدرس للشيخ نور الدين الطندتاوى ، وجميع اشتات المسائل للشيخ شمس الدين الخطيب الشربينى .

(١) يقول الإمام الشعرانى : هو الشيخ الإمام العلامة المقبل على عبادة ربه ليلا ونهارا ، المعتزل عن الناس فى بيته عملاً بالسنة المحمدية الشيخ شمس الدين البرهمتوشى . أخذ العلم عن جماعة ، منهم شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسى ، والشيخ العلامة المحقق العالم العامل المجمع على جلالته الشيخ محمد نعوش المغربى المالكى حيث قدم إلى مصر من الروم ، وقرأ عليه آجلاء علماء مصر ، وانتفعوا به ، ولم يزل ﷺ يقرأ على العلماء والأشياخ حتى تبحر فى علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول ومعان وبيان وغير ذلك . وأجازة أشياخه بالإفتاء والتدريس ، فدرس العلم وأفتى مرة ، ثم امتنع عن الفتيا تورعا منه ﷺ ، مات سنة اثنيتن وسبعين وتسعمائة .

(٢) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ المجمع على جلالته وعلمه وورعه وحفظ جوارحه الشيخ سراج الدين الحانوتى ﷺ .

وكان مجلسه مجلس علم وأدب وخشية وخوف من الله عز وجل ، فقد طبعه الله على الأخلاق المحمدية ، والشيم المرضية ، والأحوال السنية ، لا يكاد يطلع عليها إلا الله عز وجل من تهجد وقراءة أوراد ومراقبة . مات سنة سبعين وتسعمائة ﷺ .

(٣) يقول عنه الإمام الشعرانى : ومنهم الشيخ الأخ الصالح العالم العلامة الورع الزاهد الشيخ بدر الدين الشهاوى ﷺ ، صحبته نحو ثلاثين سنة فما زاغ عن الشريعة فى شئ من أفعاله وأقواله وعقائده . أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام ، كالشيخ نور الدين الطرابلسى شيخ الإسلام ، والشيخ شهاب الدين الحلبى ، فلم يزل يقرأ عليه حتى تبحر فى علوم الشريعة والافتاء ، فدرس وأفتى فى حياة أشياخه بإذنهم .

وأخذ طريق التصوف عن سيدى أبى السعود الجارحى ﷺ فكمل بذلك حاله ، لأن الفقية إذا لم يكن له علم بطريق القوم فهو ناقص فى المقام.

فأسأل الله تعالى أن يفسح فى أجلهم وأجل تلامذتهم ليحيوا الذين بعدهم آمين . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة الجد والاجتهاد فى العبادة ، ليجددوا الطريق بعد موت أشياخهم الذين كانوا يجددون آداب الطريق

فإنه لا بد من حصول الفترة بين كل جماعة وجماعة من الأولياء ، كما كان يقع بين الرسل ، فإنهم على أقدامهم ، والأجتهاد وإن كان فى زمن أشياخ الإنسان فرض كفاية فهو فى حقه بعد موت اشياخه فرض عين .

وقد كان للطريق حرمة وهيبة فى زمن الأشياخ الذين ادركناهم فى مصر وقراها . كسيدى على المرصفى والشيخ أبى السعود الجارحى والشيخ تاج الدين الذاكر والشيخ محمد الشناوى والشيخ محمد بن داود والشيخ محمد العدل والشيخ أبى بكر الحديدى ، والشيخ عبد الحليم والشيخ محمد المنير والشيخ عبد القادر الدشطوطى وسيدى على الخواص ، ونحوهم رضى الله عنهم أجمعين ، فلما درج هؤلاء إلى رحمة الله تعالى خلت الديار المصرية وقراها ممن يحيى الطريق عدة سنين حتى أظهر الله تعالى بعدهم الجماعة الموجودين فى مصر الآن، فأسال الله تعالى أن يفسح فى أجلهم وأجل تلامذتهم .

فإن الدين لا يقوم إلا بدولة العلماء والصوفية فبهم يكمل الدين فى دولة الظاهر والباطن وتكون عبادة الإنسان سالمة من النفاق فإن خشع ظاهرا طولب بالخشوع فى طريق الحقيقة باطناً أيضاً ، فتكمل عبادته بذلك فى طريق الحقيقة باطناً أيضاً فتكمل عبادته بذلك فى طريق الحقيقة والشريعة ، وكذا القول فى سائر مقامات الطريق فلو أن الفقيه راعى الباطن كما راعى الظاهر وطابق بينها كان هو الصوفى حقاً ، ولكنه ترخص ولم يناقش نفسه فى الباطن ؛ ففرق الناس بينهما وصاروا يقولون :

هذا حقيقة وهذا شريعة فهو العالم العامل الصوفى حقا ، والحمد لله رب العالمين [١] .

ومن أخلاقهم : شد الخط والزجر والتوبيخ والهجر لمن يقول : ما ثم إلا الله تعالى

فإن إطلاق هذا اللفظ يبنى عليه هدم الشريعة كلها .

---

(١) هل للتصوف صلة بالدين ؟
الواقع : أنه لا يوجد صوفى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلك لأن التصوف لا يخلو من الغاية ، وغايته دائما روحية : رضاء الملأ الأعلى ، حب الله ، الإتصال به ، الفناء فيه ليصبح عارفا به سبحانه ، تلك هى الأغراض التى يسعى إليها ، أو إلى بعضها الصوفى .
لذلك لا يتأتى لشخص مؤمن أن لا يسعى إليها ، ذلك أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بكمالة ، والسعى وراء هذا الكمال .
وإذن : مجاهدة ضد النفس والأهواء والشهوات حتى يصل الإنسان إلى الغايات الى وضحناها سابقا ، وهذه الغايات تقوده نحو الكمال ، أو نحو المثل العليا ، ولكن التخلق بأخلاق الله لا يتأتى إلا عن طريق الوحى للمعصوم فلا بد أذن من اتباع تعاليم الرسول ﷺ اتباعا سليما.
وبالتالى فإنه لا يتأتى أن يوجد تصوف قط ما لم يكن أتباع كامل لشريعة صادقة ، وإن التصوف الإسلامى لم يوجد إلا باقتداء الصوفية إقتداء تاما برسول الله ﷺ ، لقد أحبوه واتبعوه وحققوا بذلك قول الله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا)
لقد تناقش الناس كثيراً فى كون سيدنا محمد ﷺ هو القدوة الصوفية الإسلامية ، بل سخر بعضهم حينما كانوا يسمعون أن محمد ﷺ ، أول صورة حملت بالصوفية على اقتفاء آثارهم.
والواقع : أن التصوف لا يعدو أن يكون جهادا عنيفا ضد الرغبات ، ليصل الإنسان إلى السمو ، أو إلى الكمال الروحى : ليكون عارفا بالله .
وليس من عناصره فكرة الإتحاد أو الوحدة ، أو الحلول ، بل إن فكرة الإتحاد والوحدة والحلول يتبرأ منها الصوفية ، وهو بعيدون عنا كل البعد ، على الرغم مما يقذف به أعداؤهم، وما اتهامات أعدائهم إلا اتهامات أعداء .

وقد كان الشيخ أبو القاسم الجنيد ﷺ يقول : ما ثم إلا الله ، أو ما ثم فاعل إلا الله لأن صاحب هذا القول إن اعتقد صحة إطلاقه ، ولم ينسب إلى الخلق وجوداً ولا فعلاً ، فقد رد التكاليف الشرعية كلها ، وبتقدير وقوعه فى المعاصى فلا يصح له توبه منها ويقول : كيف أتوب من فعل ليس هو لى ؟ فيهلك مع الهالكين ، انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

لما كانت الأصنام تعبد بين فترات الرسل فكذلك لابد أن يعبد الهوى بين فترات الأولياء ، بل ربما وقعت بين فترات الأولياء أمور هى أقبح من كل قبيح ، وهو نفى الإله جملة أو نفى المألوه جملة كما وقع فيه بعض الطرائف ، فقالوا : ما ثم إلا فروج تدفع وأرض تبلع . وقال بعضهم ماثم موجود إلا الله تعالى، وما ترونه عالماً فهو الله حتى الأشياء التى لا تقال . فهؤلاء أبخس الطوائف . كما بسطنا الكلام على ذلك فى الباب الثالث عشر من كتاب المنن الكبرى .

فأعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم ، والحمد لله رب العالمين (١) .

ومن أخلاقهم : عدم الجزم بترجيح أحد من العلماء أو الفقراء على غيره أدبا مع الله تعالى ، فإنه يمحو ما يشاء ويثبت .

وقد قالوا : من شأن الفقير أن لا يرجح ولا يجرح ، أى لكثرة أقباله على الله تعالى فلا يصير له كثير معرفة بأحوال الناس . وإن وقع أنه رأى فى أحد عيباً يقول : أنما ذلك العيب لى .

لأن المسلم مرآة المسلم ، ولا يرى الإنسان فى المرآة إلا صورة نفسه هو ولو جهد كل الجهد أنه يرى جرم المرآة من تحت صورته التى ارتسمت فيها لايقدر . فلذلك كان لا يجرح أحد .

---

(١) نفهم من حديث الإمام الشعرانى النهى عن التحدث فى القدر ويؤيد ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ : (إذا ذكر القدر فامسكوا) .

وإن وقع أنه زكى أحداً فإنما ذلك صورة نفسه كذلك . فلا يحصل بها الغرض عند الحكام لأنه لم ير فيه إلا صورة نفسه ؛ وهو عدل ثقة ليس مرتكباً كبيرة ولا مصراً على صغيرة .

فعلم أنه لا يليق بفقير أن يتصدى لتزكية ولا تجريح . وأن اضطر إلى تزكية فليزك بطريقة الشرعى كما قدمنا ذلك مبسوطاً فى هذا الكتاب بالنظر لتزكية الحكام فى المحاضر[1]. والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : الستر على من يدعى الطريق بغير حتى إلا إن ترتب على الستر محظور

ثم وجوب النصح له فيما بينهم وبينه .

ولهم فى قلوبهم علامات يعرفون بها المحق والبطل . فلا يكاد يخفى عليهم الصادق من غيره ، فإن بواطن الخلق مكشوفة لهم حتى أنهم يعرفون الخواطر التى تخطر للناس فى قعور بيوتهم ، ولكن يكتمون ذلك تخلقاً بأخلاق الله تعالى فإنه يرى العيب ويستره والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة شفقتهم

على الأيتام والمساكين والعميان وأصحاب العاهات كالمجذومين ومن بهم برص ؛ فيأكلون مع الأجذم ويفلون له رأسه ولحيته وثيابه ، ويأكلون معه المائعات ويشربون فضلته ثقه بالله وتوكلا عليه ، ويحبون المجاورة لهؤلاء عندهم فى زاويتهم ، ويعدون اليوم الذى يأتيهم فيه أعمى أو مبتلى يجاور عندهم كأنه يوم عيد .

وقد من الله تعالى على بذلك ، فأود أن لو كان المجاورون عندى كلهم عميان وعرجان ومجذومين ، ولا استثقل منهم إذا كثروا عندى فى الزاوية ، ولو

---

(١) سبق للإمام الشعرانى أن تحدث فى هذا الموضوع بالنسبة لتولية القضاة وأصحاب المهام الكبرى فى الدولة .

صاروا ألف نفس بل أتكدر كلما ينقصون بموت أو سفر لعلمى بأن الرحمة لا تفارقهم من كثرة قراءتهم وذكرهم وكسر خواطرهم . وإنما كنت لا أستثقل بهم كغيرى لعلمى بأن رزقهم على الله تعالى لا على[1] . فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة تعظيمهم العلماء

فلا يمرون عليهم وهو راكبون إلا لعذر بل ينزلون ويسلمون عليهم ويقبلون أيديهم ، بخلاف ما عليه جماعة من فقراء هذا الزمان ، فربما رأى بعضهم نفسه أعلى من العلماء .

وقال : هؤلاء محجوبون عن الله عز وجل .

وذلك سوء أدب وهو نوع من الكبر الذى هو حرام بإجماع المسلمين . وغاب عنهم أنه ما ثم أحد إلا وهو محجوب عن الله تعالى بحسب مقامة[2].

فعظم يأخى حملة العلم والقرآن فإن عليهم مدار الدين ، ولا يستخف بهم إلا كل جاهل ، وربما كان طلبة العلم أعلم منهم بالشريعة ، بل ذلك واقع . فلو قلت لأحدهم : مقصودى أقرأ عليك مختصرا فى الفقه لا يقدر على تفهيمه لذلك

---

(١) ولعل هذا الخلق يدخل فى مقام التوكل عند الصوفية .

يقول الإمام القشيرى – من أئمة الصوفية – يقول :

واعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تفسر شئ فبتقديره ، وإن أتفق شئ فبتيسيره .

ويقول الإمام سهل بن عبد الله : التوكل حال النبى ﷺ ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته . ويقول :

من طعن فى الحركة فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان ما كيف عرف سهل نفسه التوكل ؟ فإنه قال : التوكل : الإسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

(٢) يقول الله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الالباب).

وعن أبى موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : (إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه وإكرام ذى السلطان المقسط) حديث حسن رواه أبو داود .

القارئ.

فأعلم ذلك وأعرض هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم .

والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتهم للقرب من الملوك والأمراء إلا إن أعطاهم الله تعالى الكشف الصحيح

فإنه لا يطيب لهم عيش مع الأمراء إلا إن كانوا يكاشفونهم بالأمور المستقبلية مما يفرحهم أو يحزنهم . وإذا لم يكن لهم كشف فحالهم معهم ناقص . وربما كانوا يحسنون إلى أحدهم بالفلوس والطعام فيسألونه عن شئ يقع لهم فى المستقبل فلا يدرى ، فيقطعون إحسانهم عنه ويردون شفاعاته التى هى المقصود الأعظم من صحبتهم .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يكره القرب من الأمراء من حيث عدم قيامه بواجب حقهم فى الأدب معهم ، ويقول : أنا لا أعرف ما يستحقه آحاد الناس من الأدب فكيف أعرف آداب الملوك والأمرا وأكابر الناس ؟

وكان يقول : من إجلال الأمير عدم الأكل معه على سفرة واحدة ؛ أو كثرة مجالسته بلا ضرورة [1].

وقد وقع أن الشيخ أبا العباس المرسى لما اجتمع بسلطان تلمسان ذكر بعض الناس من العامة للسلطان كراماته فقال :

لابد من امتحانه ، فذبح له دجاجاً ودس فيه واحدة مخنوقة ، فلما قدمت للشيخ أبى العباس قال :

أطعموا هذه للكلاب وميزها من بين الدجاج ، فاعتقده السلطان اعتقادا تاما.

---

(١) ويختلف الصوفية فى هذا الخلق : فبعضهم يرى جوازه بالشروط التى ذكرها الإمام الشعرانى .

والبعض الآخر لا يرى جواز مجالسة الأمراء والسلاطين إلا للنصيحة لهم .

والبعض الآخر يرى تجنب ذلك على الإطلاق .

فلولا هذا الكشف لما كان اعتقده ولا عظمه .

فأعلم ذلك يا أخى ولا تصحب أحد من الأمراء إلا إن كنت صاحب كشف تام إذا أخبرتهم بشئ وقع لا محالة . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم طلبهم كثرة الأتباع

إظهار للعجز عن القيام بحقوقهم من أكل وشرب وكسوة ونصح وتأديب.

وكأن لسان القدرة الإلهية يقول : من طلب كثرة الأتباع ، فليستعد للبلاء .

وربما كثرت أتباع الفقير وعظموه فكاتبوا السلطان فيه بأنه يخاف على المملكة منه ، فأرسل بقتله أو نفيه من بلده ، كما وقع ذلك للشيخ على الكازوانى وللشيخ أو يس بالشام .

فعلم أن من عقل الفقير إذا رأى أتباعه تكثر . وخاف من جهتهم على نفسه ينفرهم بالقلب والقالب ، ويمنعهم من الاجتماع به رحمه بهم .

وربما رمى الشيخ بعمل الزغل مثلا فمسكوا جماعته فغطوا أيديهم كما وقع للشيخ صنطباى ، ثم نفوه إلى القدس حتى مات .

وبالجملة فمن لم يكن له حال يحميه من تصريف الولاة فيه ، فليس له التظاهر بالمشيخة فى هذا الزمان ، ولا إخبار الناس بمن يعزل أو يتولى من الولاة .

والله إنى لأكتم كثيرا مما أطلعت عليه فى المستقبل ، وأسأل عنه ، فلا أجيب، ومع ذلك فقد كاتب الحسدة من مصر فى إلى باب السلطان وذكروا أن اتباعى فى مصر نحو ثلاثين ألفا ، وأنى أدعيت الاجتهاد المطلق ، وأنه يخاف على المملكة منى.

فلولا أن ولد شيخى الشيخ أو اللطف كان هناك وكذب المنهى فى ذلك لحصل لى غاية التكدر ، وبينما يجئ الدرياق من العراق مات الملسوع [١].

---

(١) وبالفعل كان للإمام الشعرانى بعض التجارب مع السلاطين فى هذا الموضوع ويبــدو أن =

فاعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم مبادرتهم للإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاة من كمل العارفين إلا بطريق شرعى

بل يتربصون فى ذلك فربما كان يفرق ذلك على محاويج المسلمين ممن يحل له مثل ذلك . كالذى ارتكبته الديون وهو ذو عيال وطلع عليه مع ذلك الحب الفرنجى ، وكالعميان والأيتام الذى لا مال لهم ، ونحو ذلك .

وإذا رأيناه يأكل مما يأخذ من الظلمة حملناه على الضرورة الشرعية ، وإن كانت القرائن تعطى غير ذلك ، طلبا للسلامة مع حصول الإثم بسوء الظن فتحقق ياأخى المنكر ثم أنكر .

وقد بلغنا أن الشيخ أبا عبد الله القرشى رضي الله عنه ، وكان من أصحاب الخضر عليه الصلاة والسلام ، وكان ينام عنده كثيراً ، أنه مر بأصحابه على صبى يقرط الفريك .

فقال : خطية عليك يا ولدى تقرط من قمح الناس . فقال له : بل خطية عليك يا عم فى إساءتك الظن بى . إنه والله زرعنا من غير شريك ، وقد أرسلنى والدى أقرط منه شيئا نعمله فطيراً لضيف فكلح الشيخ وتأدب من المبادرة إلى الإنكار من ذلك اليوم .

وتقدم تقديرنا : أن الشخص لا يسلم من المبادرة إلى الإنكار ، ويصير يحمل الناس على المحامل الحسنة إلا بعد أن يطهر باطنه من سائر المخالفات ، وإلا فمن لازمه غالبا الإنكار ، حملا للناس على المحامل السيئة ، قياساً على ما عنده هو (١) .

مسألة رميه بالاجتهاد المطلق كان لها تأثير كبير حيث جعلته موضع إتهام من عدد من العلماء فى عصره .

(١) يقول الله تعالى : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) . =

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وعلى اخوانك . تعرف حالك وحالهم – والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لصاحبهم

إذا صحب أحدا من الظلمة وصار يأكل من طعامه خوفاً أن يهجر أصحابه إذا عارضوه فى صحبة ذلك الظالم ، حتى تشربت محبته قلبه .

وكذلك من أخلاقهم حسن سياستهم لذلك الظالم فيكتبون لصاحبهم : قد بلغنا يا أخى أن صرت تأكل من مال الظلمة والمسول من فضل الأخ إن لا يأكل إلا من الطعام الذى يأكل منه الأمير ، فقد بلغنا أنه يتورع فى مأكله ولا يجعل فيه شيئا من البلص والجرايم ، وذلك هو الظن به فإنه رجل عاق ، والعاقل لا يأكل حراماً ، ويعرض نفسه ، لدخول النار ونحو ذلك من الألفاظ ، فيستفيد صاحبنا ، ومن هو فى خدمته من هذا الكلام النصح من غير أن يجزم فى حقه بأنه يأكل حراماً ، فإنه ربما تنفر نفسه من ذلك الكلام ويقول ما يأكل حراماً إلا هذا النصاب الشيطان ، ونحو ذلك ، ويصير يعارضنا فى شفاعاتنا عنده فى المظلومين ، فالحمد لله رب العالمين (١) .

ومن أخلاقهم : عدم معاداتهم لأحد ممن يحضر المواكب الإلهية

كالمؤذن والمتهجد فى الاسحار والذاكر لله تعالى ، فربما حفت هؤلاء العناية الربانية فغفر الله تعالى لهم جميع ذنوبهم وصاروا محبوبين لله عز وجل من جملة أوليائه ، وقد قال الله تعالى :

=وقال تعالى : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبيناً)

(١) يقصد الإمام الشعرانى هنا أن ينبه على ضرورة الموعظة الحسنة لأن إيتاء بعض الناس بالقول الشديد يدفعهم إلى المعاندة والتطرف فى هذا العند .

يقول الله تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) .

من آذى لى ولياً فقد أذنته بالمحاربة [١] ، ومن حاربه الله تعالى هلك مع الهالكين فى الدنيا والآخرة ، ولم يأخذ بيده فى شدة فقد ثبتت عداوته لله ورسوله، فكيف يعادى العبد من يحبه الله تعالى ورسوله ﷺ .

وأيضا فقد قال الله تعالى : (أنا جليس من ذكرنى) [٢] .

فكيف يعادى الإنسان جليس ربه تعالى ؟ أو لم يكرمه لأجله .

وربما جعل الحق تعالى دعاء ذلك المؤذن مثلا لا يرد فى حق كل من أذاه وربما كان ذلك الذى أذاه نايما فى الأسحار على جنابة والمؤذن يمجد الله تعالى ويثنى عليه ، وهو على طهارة ؛ فليحذر الفقير من مثل ذلك وهذا الخلق لم أجد له فاعلا فى أقرانى غيرى فالحمد لله رب العالمين .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : لا ينبغى لعاقل أن يعادى أحداً من خدام المساجد وعمارها لحظ نفس من أمام وخطيب ووقاد وفراش وبواب ، وغيرهم إكراماً لصاحب البيت جل وعلا ، وأقل ما يكون من إكرامهم أن يكرمهم كما يكرم بواب السلطان وفراشه وإمامه وخطيبه ، ولله المثل الأعلى .

فعلم أن كل من أدعى أنه من أهل الطريق وأذى أحداً من خدام المساجد ؛ ولو بسوء الظن فهو كذاب لم يشم للطريق رايحه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : المبالغة فى الأدب مع ولاتهم

فلا يطعنون عليه إذا ولوا أحداً أمور المسلمين إلا بطريق شرعى لأن الولاة

---

(١) والحديث بطوله : (عن أبى هريرة ﷺ) قال :
من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب لى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه) رواه البخارى .

(٢) الحاكم بمعناه ، بسند صحيح وروى أحمد وأبن ماجه بسند صحيح (أنا مع عبدى ما ذكرنى ..الخ) .

أتم نظراً من أحاد الناس ؛ وقد وعظ الأصمعى هارون الرشيد بملأ من الناس ؛ فقال له هارون :

يا أبا عبد الله إن كنت أعلم منا فنحن أعقل منك ؛ واتم نظرا فلا تنصحنا فى ملأ ولا تغشنا فى خلاء .

وهذا الأدب من محاسن أخلاقهم ، فإن من طعن على إمامه . فقد خانه بالغيب وذلك مذموم ؛ بل يكون مع إمامه بالتعظيم والبتجيل على حد سواء فى الغيبة والحضور .

وقد بلغنا أن الخليفة لما منع الإمام أبا حنيفه من الفتوى سألته أبنته فى الليل عن الدم الخارج من بين الأسنان هل ينقض الطهارة ؟

فقال لها : سلى عن ذلك عمك حماداً فإن الخليفة قد منعنى أن أفتى ولم أكن ممن يخون إمامه بالغيب . انتهى .

وهذا الخلق خلق غريب لم أجد له فاعلا من أقرانى إلا النادر . وأكثر الناس يطعن على السلطان فى ولايته قضاة العساكر وعلى الباشاه فى توليته أرباب المناصب ويخوضون فى ذلك بغير علم ، وذلك لا ثمره فيه أو الباشاة مثلا تحت طاعة ذلك الطاعن فالعاقل من عرف زمانه [1] ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أدبهم مع طلبة شيخ إمامهم

كما كان إمامهم يتأدب مع شيخه .

فيتأدب من قلد الإمام الشافعى مع طلبة مذهب الإمام مالك ؛ ويتأدب الحنابلة مع طلبة الإمام الشافعى ، وهكذا إلى مشايخنا الذى قرأنا عليهم العلم من أهل عصرنا لأن حرمة الوالد وإن علا مطلوبه شرعاً ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ يَا بَنِي

---

(١) وفى الحديث : عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى وأنه لا نبى بعدى وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون . قالوا : يارسول الله فما تأمرنا ؟ قال : أوفوا ببيعة الأول فالأول ثم أعطوهم حقهم وأسألوا الله الذى لكم فإن الله سائلهم عما استرعاهم) متفق عليه .

آدَمَ ﴾ فنسبهم إلى جدهم الأصلى لينبههم على كثرة الصلاة والدعاء له كلما قرأوا ودعوا قياما بواجب بره ﷺ

ولم أجد لهذا الخلق فاعلا غيرى إلا القليل .

فأعرض هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حمايتهم من الأكل من طعام المتهورين فى مكاسبهم

كما تقدم بسطة مراراً كالذى يبيع على الظلمة أو يقبل هداياهم .

ومن أكبر علامة للمتهورين أن يطبخ أحدهم اللونين والثلاثة فى بيته ، فإنه لو تورع لم يجد لونا واحداً إلا بعسر ، ومتى دعى الفقير فى هذا الزمان إلى طعام، ورأى هناك أكثر من لون ، فمن الأدب عدم الأكل ، وكل فقير ترخص فى ذلك فهو نصاب هالك وربما قال أن الإمام أبا حنيفه يقول : الحرام لا يتعدى ذمتين وأنا أكل على مذهب هذا الإمام الأعظم .

فنقول له : قد سألنا المحققين من أهل مذهبه فقالوا لنا : هذا نقل باطل عن إمامنا أو هو محمول عن من لم يعلم بذلك وإنما شك فيه فقط أما من رأى الظالم يأخذ من أحد طعاماً غصباً ، ثم قدمه لنا ، فلا يجوز لنا أكله بالإجماع .

وقد بلغنا أن الحسن البصرى زار الإمام عمر بن عبد العزيز فقدم له عمر كسرة يابسه ونصف خيارة ، وقال : كل يا حسن فإن هذا زمان لا يحتمل فيه الحلال السرف ، انتهى .

فعلم أن هؤلاء الذى يأكلون فى بيوت الظلمة كاذبون فى دعواهم إنهم من أهل الطريق لا ينبغى لهم التصدر فى مقام المشيخة ولا أن يأخذوا العهود حتى يتوبوا توبة نصوحاً والحمد لله رب العالمين (١) .

---

(١) وهذا من أحسن تنبيهات الإمام الشعرانى : فإن الذى تكون مهمته الدعوة إلى الله ثم يزور =

ومن أخلاقهم : عدم أكلهم من طعام من يعتقد فيهم الصلاح

فإنه لولا اعتقاده الصلاح فيهم ما كان أطعمهم شيئا فلا يأكلون إلا من طعام المحب لهم فقط ، والفرق أن المحب تكون محبته كمحبة الوالدة لا يتوقف محبتها لولدها على كونه صالحا بل تحبه على أى حال كان ، وإن رأت منه أفعالاً ناقصة قالت : خزاك الله يا إبليس ولا تكاد تضيف إلى ولدها شيئا من النقائص ، ثم إن الفقير لا يخلو حاله من أمرين لأن إن كان صالحا فى نفس الأمر كما يظنه المعتقد، فقد أكل بصلاحه طعاماً ، وإن كان غير صالح فقد أكل حراماً بنص الشريعة ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : مسالمة الظلمة وعدم الركون إليهم

إذا قالوا للفقير نحن والله محبون فأنهم كاذبون ، وذلك لأن أفعال الظلمة بالضد من أفعال الفقراء فأين الصدق فى المحبة وأين علاقتها .

فإن الفقير الصادق لا يحب الدنيا ، ولو أعطاها الظالم له ما قبلها منه .

فليكن الفقير الساذج على حذر من الركون إلى إظهار الظالم المحبه له ، وقد رأيت شخصاً من مشايخ العرب إذا دخل بيته فقير يقول له : نحن أحق بالسعى ، ولكن كما وثقنا بعمارة بيتنا الذى دخله سيدى الشيخ ويصير يقبل رجله ، ثم إذا أراد الشيخ الإنصراف يعطيه شيئاً من الذهب ويكتب له وصولات بعسل وسمن وقمح وبسلة ودجاج وأوز ويقول للشيخ : يا سيدى أجبروا بخاطرى لله تعالى ، وأقبلوا ذلك من عبدكم فتدخل رأس سيدى الشيخ الساذج الجراب ويصير يقول فى نفسه وللناس والله :

=الظلمة ويأكل عندهم مع معرفته أن هذا الأكل نتيجة الظلم يصدق عليه قول الله تعالى : (أتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وأنت تتلون الكتاب أفلا تعقلون).

وقال تعالى : (يا أيها الذى آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)

وما كنت أظن أن هذا يحبنا هذه المحبة العظيمة فيفارقه الشيخ وهو يحب ذلك الظالم أشد المحبة ، ويركن إليه أشد الركون ، ويصير يجيب عنه كل من وصفه بالظلم ، ويقول : أنه مسكين أيش يعمل الأحزان الولاة يطلبون منه شيئا لا يفرغ، فلا يكاد يجعل له عذراً فى ظلمة أبداً والحال إن ذلك الظالم أول ما يخرج الفقير يقول : أسأل الله تعالى أن لا ينفعنى ببركة أحد منكم أين صلاحكم وأين حياؤكم وأنتم لا تشبعون من السؤال بالحال والقال .

ورأيته فى مولد سيدى أحمد البدوى نزل له شيخ من مشايخ مصر فى حجة حضور المولد يشحت منه فقام له وبجله وأكرمه وكتب له وصولات بعسل وسمن وقمح ودجاج ، فلما خرج من عنده قال : قطعكم الله عن بكرة أبيكم تأتونا لماذا ما أنا عالم فتأخذون منى علمى ، ولا أنا صالح فتأخذوا دعاى ، ولا عندى مال حال فتأكلون منه هذا شئ سمعته بأذنى فأخذت لنفسى منه عبره .

وسمعته مرة أخرى يقول : ليس أحد فى هذا الزمان يصلح أعتقادنا فيه ولولا قبولنا شفاعاتهم ما جعلهم الناس مشايخ ولا اعتقدوهم ، فنحن الأشياخ على الحقيقة ، وهو من تحت أمرنا لأنهم يحتاجون إلينا ونحن لا نحتاج إليهم .

وقد دخلت عليه مرة فأكرمنى وقبل نعلى فلما وليت وخرجت من عنده استحى أن يواجهنى بهدية فعوق النقيب وأعطاه لى شيئا يساوى أكثر من أربعة آلاف نصف ، فرددتها عليه ، فأرسلها ورائى إلى المولد ، فرددتها .

فقال : ما غلبنى فى الفقراء إلا فلان وقضى للناس على أسمى عدة شفاعات.

فأعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الأكل من طعام من يأكل بدينه من الفقراء

الذين لا كسب لهم وإنما يكرمهم الناس لأجل صلاحهم ودينهم لا سيما أن عمل ذلك الفقير مولدا أو طهوراً أو عرساً ، فإن ذلك الطعام لا يخلو من الشبهات قطعاً، اللهم إلا أن يكون من كمل الأولياء أصحاب التصرف ، فهـذا لا اعتـراض

عليه لحفظه بفضل الله تعالى .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول : لأن أكل الدنيا بالطبل والمزمار أحب إلى من أن أكلها بدينى .

ومن شك من هؤلاء الفقراء فى أنه يأكل بدينه ، فليقدر نفسه متجردة من جميع صفات الصالحين متخلفة بصافت الفاسقين ، وينظر فإن أطعمه الناس وعملوا له وليمة من مالهم فهم محبون قد اطعموه لله تعالى ، وإن تركوا إطعامه فليعلم أنه يأكل بدينه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لا ينبغى لفقير أن يأكل من طعام أحد إلا أن كان بحيث لو أخبره بجميع زلاته السابقة التى عملها بينه وبين الله تعالى لم يتغير اعتقاده عليه ولا حرم عليه الأكل [1] ، أنتهى .

فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم أكلهم من طعام النذور أو الأعراس الواسعة أو طعام العزا والجمع فى المقابر وتمام الشهر ونحو ذلك

لغلبة الكلفة فى مثل ذلك ، وقلة الإخلاص فيه عادة لا سيما أن كان طعام النذر عملته امرأة من غزلها وخياطتها فإن فى ذلك دناءة همة لا تليق بالرجال .

وقد نفذت وصايا جميع الأشياخ إلى مريديهم فىساير الأقطار أن لا يأكلوا من طعام النساء ولا يقبلون لهم رفقاً اللهم إلا أن يطلع الله تعالى أحداً من الأشياخ على حل ذلك الطعام وإصلاح نية فاعله ، فلا حرج فى أكل ذلك .

وقد كان ﷺ يذهب هو أصحابه إلى دار عجوز كـل جمعـة ، فتضـع لـه طعاما فيأكلون منه حتى قال أبو هريرة : كنا نفرح ليـوم الجمعـة لأجـل طعـام

---

(١) يحاول الإمام الشعرانى دائما ابعاد الصوفية عن كل ما يثير حولهم الشبهات نظراً لأن كثيرا من المشعوذين استخدموا الطريق الصوفى للحصول على مآرب لهم فهو هنا ينفى هذا عن رجال التصوف ويربأ بهم عنه .

تلك العجوز انتهى.

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لا ينبغى لفقير ولا فقيه أن يجلس يأكل من طعام العزا وأم الميت وأخوه وأبنته مثلا كأنهم غمسوا فى نار من فرقهم إلى قدمهم فإن ذلك فى غاية القبح ، بل الذى ينبغى له تعزية أهل الميت ، وتسليتهم ، ووعدهم بالأجر على ذلك ، ويقول لهم كلنا راحلون عن قريب ، وأقبح من الأكل تخاصم الفقهاء على فلوس القراءة ، وأهل الميت يسمعون كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم الأكل من طعام الصنايعى الذى يعمل القوت

لاسيما أن كان قد طعن فى السن إلا أن كافئوه عليه إما بأعطائهم ثمنه ، أو بتوجههم إلى الله تعالى أن ينزل له البركة فى رزقه ، ويرزقه العافية فى بدنه، ويستره بين العباد إلى آخر دقيقه .

وربما كان ذلك الطعام ممن كلفته زوجته بعمله ، لما ولدت أو شفيت من مرضها ، ووصلت معه فيه إلى الطلاق ، حتى عمله .

وقد حمانى الله تعالى من أكل مثل ذلك إلى وقتى هذا ولم أجد له فاعلا من أقرانى إلا القليل ، فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم أكلهم من طعام من علموا أن عليه دينا

سواء أكان قادرا على وفائه أو عاجزا لأن فى الأكل من ذلك مساعدة له على عدم أعطائه الحق الذى عليه .

إذ الواجب على المديون صرف كل ما زاد على ضروراته فى الدين فمن أكل من ذلك الطعام ، فقد أكل شبهه لكون الحق فى ذلك لغيرنا من حيث الأمر بتقديمه علينا ، ولو أن المديون دعانا إلى ذلك بطبيه نفس ، فلا نجيبه لأنه جاهل بما قررناه ، فهو كالطفل فى حجر وليه لايجاب إلى كل ما يطلب.

ولم أجد لهذا الخلق فاعلاً فى مصر غيرى إلا قليلاً ، وغالب الناس يأكلون ما قدم لهم ، ولا يكادون يسألون هل على صاحبه دين أم لا ، بل لا يهتدون لكون الدين مانعاً للمتورعين من الأكل أم لا .

فأعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف الحال والحمد لله رب العالمين[1].

ومن أخلاقهم عدم المبادرة إلى الإنكار على من يروه يسعى على وظايف الناس من طلبة العلم

لأن الساعى ربما كان أهلا لذلك ، وصاحب تلك الوظيفة عامى مات أبوه الفقيه فلم يزل واضعا يده عليها بحكم الأرث له فى ذلك لاسيما أن كانت عمامته كعمامة الفقيه ، بل الذى ينبغى للعبد أن يتربص فى مثل ذلك ، حتى يظهر له أن من فى يده تلك الوظيفة ليس بأهل لها ، أو هو أهل لها ، ثم بعد ذلك ينكر على المبطل منهما ، كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم مزاحمتهم على شئ من مناصب الدينا

كتدريس علم أو وعظ ، أو تسليك للمريدين ، أو مشيخة حضور ونحو ذلك إلا بطريق شرعى .

فلا يكون له علاقة دنيوية تعوقهم عن دخول حضرة الله تعالى أبداً إلا عدم القسمة لا غير ، وبذلك تميزوا عن غيرهم .

فمن كانت له علاقة من الدنيا تقطعه عن الله عز وجل ، فليس هو من أهل الطريق ، ولو لبس الصوف والمرقعات .

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى بنهية عن الأكل من طعام النساء والصناع ومن عليه دين أن هؤلاء هم عادة الطوائف الفقيرة المحتاجة فى أى قطر فتكلفتهم بتجهيز أى نوع من الطعام أو الأكل عندهم فيه تضييق عليهم فى معيشتهم فهو يربأ برجال التصوف أن يكونوا سبباً فى التضييق على الناس وإتعابهم فى أرزاقهم بل يكون الصوفية هم أصحاب اليد العليا عند هؤلاء الناس.

ثم من علامة العلاقة أن يحتاج إلى وقوف عند حاكم لأجل مزاحمة أحد له فى تلك العلاقة لأن الصادق يعطى كل مدع عليه ما طلبه منه ، ولو بغير حق هروبا مما يشغله عن الله تعالى ، ثم أنه يبرئ ذمة من أخذه منه فى الدنيا والآخرة ، ولو رزقته أو بيته أو زاويته لأنه يعول على فضل الله تعالى فى أمر رزقة ، وجميع حاجاته لا على شئ من الكون ، ومقصوده الأعظم أن يرى نفسه بين يدى ربه ليلا ، ونهارا لا غير ، وهذا لا مزاحم له عليه .

فليفتش الفقير هل زاحم أحدا ولو بقلبه على شئ مما ذكرناه وهل هو صادق فى قطع العلايق أو كاذب [1] والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : شدة حيائهم من الله تعالى أو من جميع الكون

أن يقعوا فى معصية من المعاصى وهو يراهم ، حتى أنهم يستحيون من جوارحهم ، ومن الحائط ، والأرض ، كما يستحيون أن يعصـوا ربهـم بحضـرة

---

(١) قال الأستاذ الإمام أبو القاسم رحمه الله : أختلف الناس فى الزهد ؛ فمنهم من قال : الزهد فى: فى الحرام ؛ لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى ؛ فإذا أنعم الله على عبده بمال من حلال، وتعبده بالشكر عليه ؛ فتركه له باختياره : لا يقدم على إمساكه له بحق إذنه .

ومنهم من قال : الزهد فى الحرام واجب وفى الحلال فضيلة ؟ فإن إقلال المال – والعبد صابر فى حاله ؛ راض بما قسم الله تعالى له ، قانع بما يعطيه – أتم من توسعه وتبسطه فى الدنيا ، فإن الله تعالى زهد الخلق فى الدنيا بقوله : (قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن أتقى) ، وغير ذلك من الآيات الواردة فى ذم الدنيا والتزهيد فيها .

ومنهم من قال : إذا أنفق العبد ماله فى الطاعة ، وعلم من حالة الصبر ، وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه فى حال العسر ، فحينئذ يكون زهده فى المال الحلال أتم .

ومنهم من قال : ينبغى للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفة ، ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ويراعى القسمة : فإن رزقه الله ، سبحانه وتعالى ، مالا من حلال شكره ، وإن وقفه الله تعالى ، على حد الكفاف لم يتكلف فى طلب ما هو فضول المال ؛ فالصبر أحسن بصاحب الفقر ، والشكر أليق بصاحب المال الحلال . أ .هـ . الرسالة القشيرية . للإمام أبى القاسم القشيرى .

جماعة من الصالحين .

وقد روى بن عدى عن أبى أمامة مرفوعا : (استح من الله تعالى استحياك من رجلين من صالحى عشيرتك) [١] انتهى .

فكل فقير ادعى الحياء من الله تعالى أو من خلقه فمن علامة صدقه عدم وقوعه فى المعاصى جملة .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يقول : من علامة كمال الفقير توالى مراقبته لله تعالى وكثرة الحضور بين يديه ليلا ونهارا قال : وقد سمعت سيدى إبراهيم المتبولى يقول كثيرا .

لى ثلاثون سنة وأنا مقيم فى حضرة الله تعالى لم أخرج ، وجميع ما أتكلم به إنما اكلم به الحق سبحانه .

فقيل له : فمن غرس لكم النخل الذى فى بركة الحاج ؟

فقال : إن الله تعالى أرسل ملكا على صورتى ، فغرس ذلك حين خطر ذلك ببالى ، وأنا فى حضرته .

قلت : يحتمل أنه غرس ذلك وهو حاضر مع الله تعالى ، لأنه أمر مندوب إليه، والله أعلم .

وبالجملة ، فأقرب شاهد على العبد من الخلق جوارحه فلا يصح له أن يخفى عنها شيئا من معاصيه ومن عمل على تحصيل مقام المراقبة لأعضائه لم يصح منه الوقوع فى معصية ابداً والحمد لله رب العالمين [٢] .

---

(١) ونص الحديث : (استحى من الله استحياءك من رجلين من صالحى عشيرتك) . رواه ابن عدى فى الكامل .

(٢) سئل ابن عطاء : ما أفضل الطاعات ؟

فقال : مراقبة الحق على دوام الأوقات .

وقال إبراهيم الخواص : المراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى .

ومن أخلاقهم عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه من مقامات الكمال

لأن فى طى دعاويها غوائل قل من يسلم منها ، ولذلك طالت الطريق على بعض المتعبدين ، وأفنوا عمرهم فى العبادة ولم يحصلوا على شئ من مقامات الرجال كما أشار إلى ذلك سيدى عمر بن الفارض ﷺ ونفعنا به بقوله .

تعـرض قـوم للغـرام فاعرضـوا ... بجانبهم عـن صـحتى فـيه واعتلوا
رضـوا بالأمانـى وابتلوا بحظوظهم ... وخاضـوا بحـار الحب دعوى فما ابتلو
فهـم فى السرى لم يبرحوا عن مكانهم ... ومـا ظعنوا فى السير عنـه وقد كلوا

وأشار إلى ذلك أيضاً سيدى على بين وفا ﷺ بقوله :

تمشـيخوا مـن قـبل أن يـوجدا ... فعمـرهم ضـاع ولـم يـولدوا
رضـوا بـأن يعـتقدوا سـادة ... وهـم لأدنـى وهمهـم أعـبد
مشـوا مكبـين علـى وجـوهم ... عمـياً مـن العلـياء لا يهـتدوا
قـد حسـبو الأرض سـماء لهـم ... فاسـتقربوا مـا هـو مسـتبعد
وكلمـا مالـوا باهـوائهم ... قالـوا صـعدنا وهـم أخلـد
فأعجـب لمـن شاخوا على صغرهم ... فـى أرذل العـيش نشـوا يجهـدوا
فـلا تحـاول طـبهم إنهـم ... لكـل مـن خـالطهم يفسـدوا

إلى آخر ما قال وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب العهود وغيره .

فأعرض يا أخى هذه الأخلاق الشريفة على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين (١)

وقال الواسطى : أفضل الطاعات حفظ الأوقات . وهو : أن لا يطالع العبد غير حده ، ولا يراقب غير ربه ، ولا يقارن غير وقته .

(١) يقول الإمام القشيرى : فإن قيل :

فما معنى الوالى ؟ =

ومن أخلاقهم حسن ظنهم بربهم إذا سلط عليهم الخلق بالأذى

وأطلق ألسنتهم فيهم بالذم ، ويقولون : لولا أنه تعالى يريد تقريبنا إلى حضرته
ما فعل معنا ذلك ، لأنه لا يصطفى عبدا إلا بعد أن ينفر من أبناء الدنيا كلهم ، ويقبل على مولاه ولا يصح له ذلك إلا بعد أن يبالغوا فى إيذائه فهناك ينكشف له أنه لا نافع ولا ضار إلا الله تعالى وحده ، فيراعيه وحده ويدوم على مراقبته ليلا ونهارا فيصطفيه الله تعالى حينئذ وينصره على كل ما عاداه (١) .

ولو أنه تعالى أطلق ألسنة عبادة بالثناء والتعظيم لذلك العبد لركن إلى الخلق ضرورة ففاته الاصطفاء كما سيأتى بسطه فى خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم فى كثرة التلامذة ليعلموهم الأدب مع الله تعالى

محبة من الله عز وجل ، فيفيدون الحق تعالى بأنفسهم ويقولون للتلامذة : إنما نحن لكم كمرتبة الإدمان فنجربكم بها معنا فى تصاريف الأمور المخالفة لأهوائكم ونأمركم بالرضى عنها بها والصبر عليها لتترقوا بذلك إلى صحة

= قيل يحتمل أمرين أحدهما أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل ؛ كالعليم ، والقدير وغيره ، فيكون معناه : من تواليت طاعاته من غير تخلل معصية .

ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، كقتيل بمعنى مقتول ، وجريح بمنى مجروح ، وهو الذى يتولى الحـــق ، سبحانه ، حفظه وحراسته على الإدامة والتوالى ، فلا يخلق له الخذلان الذى هو قدره العصيان ، وإنما يديم توفيقه الذى هو قدرة الطاعة ، قال الله تعالى : (وهو يتولى الصالحين).

(١) ولعل قراءة متأنية لكتب الطبقات وتواريخ الرجال تبين لنا قيمة هذا الخلق فإننا نجد فى تاريخ رجال التصوف ألوانا من الأذى لا قوها خصوصا فى أوائل حياتهم فصبروا عليها فكان لهم النصر من الله ولأعدائهم الخذلان والضياع .

معاملتكم مع الله تعالى ، فإن كل من لم يحكم الأدب مع شيخه لا يشم من الأدب مع الله تعالى رايحة ، فما ثم داع إلى الله تعالى من القوم يدعوا إلى حظ نفسه أبداً حاشاهم من ذلك .

وكان سيدى يوسف العجمى يقول لتلاميذته .

تعالوا حتى أعلمكم الأدب مع الله تعالى ثم يتنكر عليهم ، ويخالف جميع أهويتهم حتى أنه يطلق امرأة هذا فيعطيها لهذا ويخرج أحدهم من خلوته ويعطيها للآخر ويعزله من الإمامة ويعطيها للآخر ، ويقول : كل من رضى بحكمى فيه ترقى إلى الرضى التام بحكم الله تعالى فيه ، ومن لم يرض بحكمى فيه فمن لازمه السخط على مقدور الله تعالى وعدم الرضى بأقداره ، وذلك كفر بالله تعالى ، فأن الحق تعالى تصرفه مطلق ، فيفعل ما يشاء لكن لابد للعبد من الاستغفار من كل معصية قدرها الله تعالى عليه من حيث كسبه ليقوم باداب الشريعة [١] والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة تفويضهم إلى الله تعالى في كل أمر طلبوه منه ما لم يشرع

فلا يطلبون منه شيئا إلا مع درهم العلم فيه إلـى الله تعـالى عمـلا بقولـه

---

(١) يقول الإمام القشيرى فى شروط المريد :

ومن شروطه : أن لا يكون له بقلبه اعتراض على شيخه ، فإذا خطر ببال المريد أن له فى الدنيا والآخرة قدرا أو قيمة ، أو على بسيط الأرض أحد دونه لم يصح له فى الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه ، لا ليحصل لنفسه قدرا.

وفرق بين من يريد الله تعالى وبين من يريد جاه نفسه ، إما فى عاجلة وإما فى آجله ، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره إلا عن شيخه ، ولو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانة فى حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار عليه شيخه ، فيجب أن يقر بذلك بين يديه فى الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته ، إما بسفر يكلفه أو أمر ما يراه .

تعالى : ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٢) ﴾

فلذلك كانوا يقولون نحن لا نعرف ما نطلبه أن كان قسم لنا أم لا ، ثم بتقدير قسمته ، فهم يقولون : اللهم اعطنا كذا أو اصرف عنا كذا أن كان لنا فيه خيرة ، فإنك ولينا ونحن كالأطفال فى حجر تدبيرك ، فإن أعطاهم ما طلبوا كان خيراً ، وان منعهم ذلك كان خيرا.

وقد خالف قوم هذا الأدب فوقعوا فى أمور تكدر عليهم أمر معاشهم ، وصاروا يسلون الإقالة مما كانوا سألوا الله تعالى فى إعطائه لهم فلا يجابوا ولو أنهم كانوا سألوا بالتفويض لحفظهم الله تعالى من كل سوء .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من سوء الأدب أن يسأل العبد ربه ، ويقسم عليه بأنبيائه ورسله أن يعطيه كذا وكذا ، ثم إذا أعطاه له يتبرم منه ويسأل ربه التحويل ، وما هكذا يكون أهل الأدب مع الله تعالى .

فيلحذر العبد من ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم مداومتهم فى نهايتهم على الأعمال الصالحة

التى كانوا يعملونها فى بدايتهم ولا يتركونها استغناء عنها بما أعطاهم الله تعالى من دوام الشهود القلبى الذى هو أغلب أعمال العارفين ، فإن الأعمال الظاهرة ، إنما هى وسيلة إلى حصول مثل ذلك الشهود ولا سيما إن كان لأحدهم اتباع فإنهم لا يهتدون للأعمال القلبية حتى يقتدوا به فيها وقد قيل للجنيد

---

(٢) سورة البقرة آية : ٢١٦ . =

= قال سهل بن عبد الله : علامة المتوكل ثلاث : لا يسأل ، ولا يرد ، ولا يحبس .

وقال : أول مقام فى التوكل : أن يكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .

يقول الإمام القشيرى : وأعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافى التوكل بالقلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى ، فإن تفسر شئ فبتقديره ، وإن إتفق فبتيسيره .

رضى الله عنهم نراك تدمن إمساك المسبحه ومثلك لا يحتاج إلى مذكر يذكره بالله تعالى ؟ فقال شئ وصلت به إلى حضرة ربى تعالى لا اتركه انتهى .

فأعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إنهم كلما ترقوا ازدادوا معرفة بعيوبهم ونقايصهم

فلا يزالون كلما ترقوا إلى مقام ظهرت لهم عيوبهم ، حتى يرى أحدهم أنه قد استحق الخسف به لولا عفو الله تعالى كما سيأتى بسطه آخر الكتاب .

وإذا جلس أحدهم إلى أحد من المسلمين يرى نفسه كالفاسق الذى يجلس عند شيخ الإسلام .

ولذلك كان معروف الكرخى رضى الله تعالى عنه يقول : كثيرا اشتهى أن أموت ببلد غير بغداد فقيل له فى ذلك فقال : أخاف أن لا يقبلنى قبرى فأفتضح انتهى .

وهذا أمر قد أغفله غالب الفقراء فى هذا الزمان ، فيصحب أحدهم شيخه نحو الثلاثين سنة ، ولا يتبعه فى خلق من أخلاق الرجال ، وربما يقول أحدهم : الحمد لله الذى جمعنا على شيخنا فلان ، فأنا كنا قبل اجتماعنا عليه من أشر الناس يعنى ونحن الآن من خيار الناس ، وإنما الأدب أن يقول أحدهم : قد حصل لنا البركة باجتماعنا على سيدى الشيخ فأنه عرفنا بعيوبنا ونقايصنا وكنا قبله نظن فى أنفسنا أننا من الصالحين (١) . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) قال ذو النون المصرى : مفتاح العبادة : الفكرة ، وعلامة الإصابة : مخالفة النفس والهوى، ومخالفتهما ترك شهواتهما .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريك معها فى فسادها . =

ومن أخلاقهم كثرة الرحمة على خلق الله تعالى

وإذا دخلوا سوقا ، ورأوا أهل السوق غافلين عن الله تعالى يذكرون الله تعالى ، ويجعلون ثواب ذلك فى صحائف كل غافل فى ذلك السوق .

وبعضهم يشفع فى جميع أهل ذلك السوق عند الله تعالى ، ولا يخرج حتى يرى أمارات قبول شفاعته فيهم كما هو معروف عندهم ، وهذا أمر قد أغفله فقراء هذا الزمان ، بل ربما أن أحدهم يدخل السوق وهو غافل عن ما ذكرناه ، بل عن الله تعالى لم يخطر له الحق سبحانه على بال .

وقد كان سيدى عبد القادر الجيلى ﷺ كلما دخل السوق تتغرغر عيناه بالدموع أسفا على الغافلين ، ثم يدعوا لهم وينصرف والحمد لله رب العالمين

ومن أخلاقهم إذا اطلعوا على عيب جليسهم وسريرته الخبيثة أن لا يفضحوه بين الناس

حكايتهم ذلك للناس ولو تعريضا فضلا عن التصريح ، بل يكتمون ذلك ولا يطلعون عليها إلا صاحب الواقعة فقط ، فيقولون له قد بلغنا عنك كيت وكيت وكذبنا الناقل ، وفى ذلك تذكره للأخ ليأخذ حذره من الوقوع فى ذلك فى المستقبل، ويأخذ فى الالتجاء إلى الله تعالى أن يحميه من ذلك لنفسه ضرورة ويتوب وهذا من أحسن السياسات .

وقد قالوا آفة الكشف التحدث به .

وقالوا من أدب العبد إذا أطلعه الله على أسرار العباد أن يسترها عليهم ، ومن أفشاها فربما طرد ومقت ، فإن من أخلاق الحق تعالى أن يرى العيب ويستره ، فليحذر الفقير من مثل ذلك [1] والحمد لله رب العالمين .

=وقال أبو بكر الطمستانى : النعمة العظمى : الخروج من النفس ؛ لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل .

وقال سهل بن عبد الله : ما عبد الله بشئ مثل مخالفة النفس والهوى .

وقال الفضيل بين عياض : من رأى لنفسه قيمه فليس له فى التواضع نصيب .

(١) قال الله سبحانه وتعالى : (ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكـل لحـم أخيه =

ومن أخلاقهم طلبهم لكل حاجة طلبوها من حوايج الدنيا والآخرة من باب الله تعالى وما ثم إلا بابه

لكن تارة يكون هناك واسطة من الخلق ، وتارة لا يكون ، فيعلق أحدهم أمله بالله تعالى دون خلقه ، وهو تعالى يسخر له الوسائط فيكون الواسطة كالقناة التى يجرى لنا منها الماء ، فالحقيق بالشكر من أجرى القناة وأنبع الماء لا القناة .

وإنما أمرنا الله تعالى بشكر الوسايط من باب ربط الأسباب بمسبباتها من غير وقوف معها تنفيراً وهروباً من ألوهية الأسباب علينا من دون الله تعالى فافهم .

وفى كلام سيدى عبد القادر الجيلى ﷺ : إذا طابت حاجة فتعام على الجهات كلها حال طلبك من ربك ، ولا تنص على جهة معينة منها ، بغير علم فإن ربك غيور ، فلا يفتح لك باب فضله وأنت محجوب عنه ناظراً إلـى جهـة أحـد من عبيده ، انتهى .

فسد يا أخى الجهات كلها بتوحيدك فإذا فعلت ذلك فحينئذ يفتح لك بابه الحقيقى فلا يصير عندك وقوف مع شئ من الأسباب [1].

= ميتا ... الآية .

قال عوف : دخلت على ابن سيرين ، فتناولت الحجاج ، فقال ابن سيرين : إن الله تعالى ، حكم عدل ؛ فكما يأخذ من الحجاج يأخذ للحجاج ، وإنك إذا لقيت الله عز وجل غدا كان أصغر ذنب أصبته أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحجاج .

(١) قال أبو تراب النخشبى حين سئل عن التوكل ؟ :

التوكل : طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية ، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر راضيا موافقا للقدر .

وسئل ذو النون عن التوكل ؟ فقال : التوكل ترك تدبير النفس والأنخلاع من الحول والقوة .

وأما توكل أهل الخصوص : كما قال أبو العباس بن عطاء : من توكل على الله لغير الله لم يتوكل على الله فى توكله حتى يتوكل على الله بالله لله ، ويكون متوكلا على الله توكله لا لسبب آخر .

وسئل الجنيد على التوكل ؟ فقال : اعتماد القلب على الله تعالى .

فأعرض يا أخى هذه الأخـــلاق على نفسك وأقرانك تعرف حـــالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم استبعادهم على أنفسهم وقوعهم فى أكبر الكباير ولو بلغوا فى المقامات ما بلغوا

فإن أحدا لا يتحاشى عن جريان المقادير فيه ولكن يحفظ الله تعالى من يشاء.

وقد قيل لأبى يزيد ﷺ : أيزنى العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدرا مقدوراً . فلم يقل لا يزنى ولا قال يزنى أدبا مع الله تعالى .

وقد حكى عن الشبلى أنه دخل خرابة ، فرأى فيها جارية فصاح بأعلى صوته: يا مسلمين أدركونى فجاء أهل الحارة كلهم فقالوا له : ما الخبر فقال : خفت على نفسى من هذه الجارية حين لم يكن عندها محرم ، انتهى .

قلت : وفى هذه الحكاية تأديب لأهل حارته ، واتهام لنفسه رضى الله تعالى عنه.

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : كل ما وقع فيه الناس فالعبد معرض للوقوع فيه قال : ومن أراد أن ينكشف له الأمر ، فليجلس فى بيت الوالى فكل مجرم أتوا به إليه بتهمة أوامر محقق ، فهو جايز فى حق أكبر الأولياء [1].

فليكن سيدى الشيخ على حذر من وقوعه فيما يغضب الله تعالى عليه ، فإنه فى النصف الثانى من القرن العاشر أبى العجايب والغرايب وعلامات الساعة على كاهله ، والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : ولا ينبغى للمريد أن يعتقد فى المشايخ العصمة ، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم ، فيحسن بهم الظن ويراعى مع الله تعالى حده فيما يتوجه عليه من الأمر . والعلم كافية فى التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول.

ومن أخلاقهم العمل على تطهير الباطن من المعاصى والرذايـل

وعدم غفلتهم عن ذلك ، فإن الفقرا إذا ترقوا فى المقامات كان وقوعهم فى المعاصى الظاهرة قليلاً أو معدوماً ، فيقنع أحدهم بذلك ، وينسى تفتيش باطنه .

وقد أجمع الأشياخ على أنه لا يصح لأحد من الأكابر دخول الحضرة الإلهية ، وهو متلطخ بشئ من القاذورات المكروهة فضلا علة الحرام لأن لله تعالى ملائكة على أبواب الحضرة يشمون رائحة القلوب ، فكل قلب رأوه متلطخا بفعل حرام أو شهوة حرام منعوه من الدخول ، ثم إنه لو قدرانه دخل فى غفلة الملايكة عنه فى غمار الناس أخرجوه ، وإن لم يخرج فهو محجوب عن ربه تعالى بسبعين ألف حجاب ، فليفتش من يدعى الصلاح نفسه حتى لا يكون فى سريرته شئ يقبح بين الناس ظهوره .

ولما أجتمع الإمام عمر بن عبد العزيز ﷺ بالسيد الخضر عليه الصلاة والسلام فى المدينة المشرفة قال له : عمر أوصنى فقال : أحذر يا عمر أن تكون وليا لله تعالى فى العلانية وعدوا له فى السر .انتهى .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : قد جعل الله تعالى إبليس واقفا على باب الحضرة لا يقدر على دخولها ووكله بكل من غفل عن الله تعالى : وعن شهوده أن يركبه كما يركب أحدنا الحمارة ، ويصرفها كيف شاء فإن استشعر العبد أنه بين يدى الله تعالى كأنه يراه وأنه هو تعالى يراه نزل عنه إبليس من لمح البصر .

فعلم أن المسلم بالذكر يدخل الحضرة وبالغفلة يخرج ، وليس عند أهل الحضرة غفلة أبدا وأعلم أن كل من أدعى الصلاح وركبه إبليس فهو كاذب لقوله تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) والحمد لله رب العالمين [١].

---

(١) سأل جعفر بين نصير على المراقبة ، فقال : مراعاة السر ، لملاحظة نظر الحق سبحانه مع كل خطرة .

ومن أخلاقهم قلة تناولهم الشهوات وقلة سماعهم للآلات

فكل من أدعى الصلاح وأكل الشهوات ، ولبس الثياب المحررات ، وترك الصلاة فى الجماعات ، ونام على الفراش الوطيات ، وأكل اللحم الضانى ، والمحمرات ، وركب الخيول المسومات ، فقد خالف جمهور العلماء والصالحين ، وأهلك من تبعه من المريدين ، وإن كانت دعواه صحيحة فى نفس الأمر إذا النية الصالحة فى مثل ذلك أعز من الكبريت الأحمر ، وغالب من يأتى هذه الشهوات يأتيها بحكم اللذة والشهوة الطبيعية ، مع الغفلة .

وكان الشيخ محيى الدين رحمه الله تعالى يقول : حكم الولى إذا تناول شهوة مع الغفلة حكم القمر إذا كيف .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من أدعى انه يأكل الشهوات ويتلذذ بالطيبات وينكح النساء المنعمات ، مع حضور قلبه مع الله تعالى من حيث انه أباحه ، فأغضبوه ، فأن ملك نفسه عن الغضب ، فهو يملك نفسه عند الشهوة وقد حدث أناس يدعون الصلاح ويسمعون العود والطنبور وآلات اللهو ، وذلك خروج عن الطريق الأقوم ، وقل اعتقاد الناس فيهم ، فعدموا النفع بهم (١) فالحذر الحذر من مثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الاستعاذة بالله تعالي من شر الحسدة

كلما أقبلت الخلايق عليهم بالاعتقاد ،وقبول الشفاعات خوفا أن يعمل الحسدة لهم المكايد ، فيؤذوهم ويشغلوهم عن عبادة ربهم بذلك ، ولو لحظة .

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :قال رسول الله ﷺ : (كن ورعا تكن أعبد الناس وكن قنعا تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا) ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلما ، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) . ولعل مراجعة متأنية لخلق رسول الله ﷺ فى حياته الخاصة فى أول الكتاب توفى موضع هذا البحث حقه .

ومن تأمل من الفقراء الآن وجد نفسه كالبهلوان الذى يمشى على الحبل بقبقاب ، وجميع أهل مصر مثلا واقفون ينتظرون له زلقة من فوق الحبل لا سيما أقرانه الذى فضل عليهم ، فأنهم يودون هلاكه فى طرفه عين ، وهو من أغرب الغريب كيف يدعى أحدهم الصلاح ويحسد المسلمين، وكان الأولى بالفقراء إذا تورع أحد من إخوانهم أن يزيدوا فى محبته وتعظيمه ومدحه ، ويقولون : هذا هو الذى مشى على قواعد الشرع ، وأما نحن فقد خرجنا عن سياج الفقراء وقواعد الشرع ، فعلم أن كل شيخ ظهر به الحسد لأحد من أقرانه ، فهو جاهل أو معاند كاذب فى دعواه الصلاح لأنه لو كان صالحاً لرأى وجه الحكمة الإلهية فى ذلك ، فترك الاعتراض على حكم ربه فإن الحاسد معترض على حكم ربه بلا شك وما رأينا وليا لله تعالى يعترض حكم ربه أبداً .

ثم لأى شئ لا يحسد أخاه على مجالسته لربه فى أوراده صباحاً ومساء مثلا، فإن ذلك أولى بالحسد من إقبال أمير أو جندى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً فضلا عن غيره .

وبالجملة : فقد خرج غالب المدعين عن طريق وعدموا التوفيق[1].

فاعرض هذه الأخلاق على نفسك وإخوانك تعرف الحال وتتمنى الموت فى هذا الزمان . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة تعظيمهم لولاة زمانهم من أمير وقاض

ظاهرا وباطنا أدبا مع ولاة السلطان الذى ولاهم ، فإنه أتم نظراً من جميع رعيته ، وقد طعن بعضهم فى بعض قضاة العسكر ، فحصل له ما لا خير فيه ،

(١) قال عمر بن عبد العزيز ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد ، غم دائم ونفس متتابع .
وقال ابن المبارك : الحمد لله الذى لم يجعل فى قلب أميرى ما جعله فى قلب حاسدى .
وقال الأصمعى : رأيت أعرابيا أتى عليه مائة وعشرون سنة فقلت له : ما أطول عمرك !! فقال : تركت الحسد فبقيت .

وحبسوه فى حبس الديلم المتعلق بأرباب التهم والدم ، وبعضهم نفى إلى الواح ، وبعضهم ضرب ضرباً مبرحا .

وقد قال القوم لا ينبغى لأحد أن يعترض على أحد من الولاة إلا إن أعطاه الله تعالى التصريف فيه بالولاية والعزل ، وأما من يتكلم ، فهو فى حقهم فيصبح فى جنزير وحبس ، فما هو من رجالهم انتهى .

ولا يخفى أن أولياء الله تعالى من أصحاب التصريف موجودون لكنهم ساكتون لعلمهم بأن الأمور التى تقع من الولاة وسكتوا عليها قد حق بها التقدير الإلهى المبرم ، ولا يمكنهم أن يسلوا الله تعالى فى رد ذلك ، فلا ينكرون إلا ما لم يحق به القضاء المبرم ، كما هو مشهور فى الأمور المعلقة على لأسباب .

فإياك والمبادرة إلى الإنكار ، وتقول : ما بقى فى البلد أحد ينكر هذا المنكر ، أولا أحد يقوم بفرض الكفاية ، فربما كان ذلك قد حق به القضاء المبرم ، وأنت لا تشعر .

فعلم أن الأدب مع ولاتنا ، وترك المبادرة إلى الإنكار عليهم أولى إلا بطريق شرعى واضح كالشمس مع توطين نفوسنا على وقوع العقوبة بالضرب أو الحبس فى ارتكابنا المعاصى ، وان قال المنكر : أن هؤلاء الولاة ظالمون قلنا له . وأنت الآخر كذلك ظالم لنفسك ، وكما تقيم العذر لنفسك ، فكذلك ينبغى لك أن تقيم العذر للولاة وقد بسطنا الكلام على ذلك فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا زارهم أمير أن يقوموا له ويقبلوا يده

كما يفعل هو معهم ، وكذلك يستتبعونه إلى باب الدار ، ولا يتركون ذلك ، فيكونوا أعظم كبرا فى أنفسهم من الأمير .

وما نهى الشرع عن التواضع للأغنياء إلا بقصد أن ينال المتواضع لهم من دنياهم شيئا أما من لا يقبل منهم شيئا ، ولو أعطوه له من غير سؤال فلا حرج عليه فى التواضع لهم لأنه لغرض شرعى .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يقوم للأمير ، ويقبل رجله ويمشى معه إلى خارج باب داره إذا زاره ، وإذا أعطاه شيئاً من الدنيا لا يقبله منه ، وكان يقول : إنما أفعل ذلك مكافأة على بعض فضله ، فإنه قد خلع كبرياه وعظمته لأجلى ، ولو أنه وقف مع رؤية نفسه على ما دخل دارى ولا زارنى .

وكان يقول : ما زار أمير فقيرا إلا بعد أن رأى نفسه دون الفقير ، فما لقى الأمير الفقير إلا وهو فقير حقير قال : وهذه دقيقة تخفى على غالب الفقراء فيأتيهم الباشاة أو الدفتر دار أو قاضى العسكر ، فلا يقومون له ، وذلك فى غاية الجهل وسوء الأدب مع الله تعالى الذى خلع عليهم تلك الولاية .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يتأدب مع الأمرا كثيرا ، ثم يقول : هذا أدبنا مع ولاتنا فى دار الدنيا ، وسوف يعلمنا الله تعالى إذا انتقلنا إلى الدار الآخرة أدبا آخر يناسب أهل تلك الدار[١].

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول : من خفة عقل الفقير أن يتكبر على الأمير ، وهو يقبل هديته وبره وإحسانه من قمح وعسل وأرز وبسلة وغير ذلك انتهى.

فاعلم ذلك وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم لتردد أحد من الأكابر إليهم

من شدة هضمهم نفوسهم ، فلا يرون نفوسهم أهلا لأن يمشى أحد إليهم فهم يتوشوشون من مشى أحد من الأكابر إلى زيارتهم تعظيما ، للأكابـر لاسيمـا إن

---

(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما : أن رسول ﷺ قال (ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصم الله) رواه البخارى .

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت : قال رسول الله ﷺ : (إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق إن نسى ذكره ، وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره وإن ذكر لم يعنه) رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم .

أتاهم أحد من العلماء ماشيا ، فأنهم يكادون أن يذوبوا من الحياء والخجل .

ثم إذا كافؤا إلا كابر بالزيارة لا يرون أنهم كافؤهم على مرة واحدة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

لولا ظن الأمر فى الفقير الصلاح ما زاروه فيا فضيحة غالب الفقرا يوم القيمة ، حين تبدوا فضائحهم انتهى .

وقد زرت مرة سيدى الشيخ على البحيرى فتكدر وتشوش من مشى مثلى إليه وصار يقول لنفسه : يا فضيحتك يا على يوم القيامة ممن زارك حين تبدوا له فضايحك ، ولم يزل يحكى ذلك للناس ، ويقول : مثلى لا يستحق أن أحدا يمشى إليه انتهى .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأهل عصرك تعرف حالك وحالهم[١] والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لايعتبوا قط على من انقطع عن التردد إليهم

بل كل يوم لا يزورهم فيه أحد يعدونه يوم عيد ، وهكذا درج جمهور المشايخ رضى الله عنهم فليمتحن الصادق نفسه ، فإن رأها تنشرح إذا تحول المتعقدون فيه إلى أحـد من أقـــرانه ، فهو صادق فى دعواه محبة العـــزلة والانقطـاع لمحبة [٢] الله عز وجل وإلا فهو كاذب .

وإنما كانوا يكرهون تردد الناس إليهم خوفا على أنفسهم ، وعلى إخوانهم من الوقوع فى التزين وتزكية النفس منهم أو ممن رأوهم كما هو الغالب ، فــإن

---

(١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال : (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر) فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة . قال : (إن الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس) راوه مسلم .

(بطر الحق) دفعه ورده على قائله و (غمط الناس) احتقارهم.

(٢) ربما يقصد لعبادة الله عز وجل .

كان فقيها أبدى المسائل الغربية ، وأن كان فقيرا أبدى المقامات الرفيعة[١] .

وقد رأيت شخصاً كلف نفسه عدم الخروج من زاويته مدة ثم عجز عن انقطاعه عن الناس ، وانقطاع الناس عنه ، فصار يرسل لأهل مصر السلام ، ويقول : والله أنى مشتاق إليكم ولو كان معى أذن لزرتكم فقلت له : كيف تدعى الانقطاع وتستجلب الناس هذا فعل مخالف لدعواك محبة العزلة ، ثم أنه صار يخرج فى الليل ويدور فى أسواق مصر ويحضر مواضع التنزهات ، وينزل فى مركب أيام النيل ثم يصبح جالساً فى زاويته بعذبة وأطراق ، وهذا كل خداع ونصب فليحذر الفقير من مثل ذلك والحمد الله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا عمل أحدهم واعظاً أو مسلكا أن لا يغفل عن تفتيش نفسه

فربما كان ذلك رياء وسمعة ، فليمتحن الواعظ نفسه بما لو عزله ولى الأمر عن مجلس وعظه مثلا إلى ذلك الواعظ الجديد ، فإن رأى نفسه منشرحة فرحانة لذلك ، فليعلم أنه مخلص فى وعظه ، فليشكر الله عز وجل على ذلك ، وإلا فليعلم أنه مرائى خالص ، وأن وعظه يكون زاده إلى النار ، فالناس ينتفعون بعمله وهو يشقى به كالشمعة التى تحرق نفسها لتضئ على غيرها .

فعلم أن كل شيخ أو واعظ غفل عن تفتيش نفسه فهو مغرور والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا كشف لأحد من الواح المحو والإثبات أنه يقع فى معصية

أن لا يغفل عن سؤال الله تعالى أن يحول ذلك عنه أدبا مع الله تعالى وخوفا

---

(١) يقول الله تعالى : (ففروا إلى الله أنى لكم منه نذير مبين) .

وعن سعد بن أبى وقاص ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يحب العبد النقى الغنى الخفى) رواه مسلم . والمراد (بالغنى) غنى النفس .

من غضبه تعالى عليه ، فقد يكون تحويلها عنه معلقاً على السؤال .

وأما إذا كشف لأحدهم عن وقوعه فى معصية من اللوح المحفوظ يعنى عن المحو فمن الأدب كذلك أن لا يغفل عن سؤال ربه أن يستره فيها بين العباد ، ولا يؤاخذه بها فى الدنيا والآخرة ، ويقول :

يا رب أنت تعلم أنى عاجز عن رد اقدارك النافذة فى فأسترنى فيها ولا تواخذنى من حيث كسبى ومجاوزتى حدودك .

فإن الله تعالى إن شاء الله يفعل له ما طلب .

ثم إذا قرب من وقوع المعصية فمن الأدب الرعدة والخوف من الله تعالى أن يخسف به الأرض ، فإن من يأتى المعاصى باكيا أخف ممن يأتيها ضاحكا .

ثم إذا وقع بحكم القضا والقدر ، فمن الأدب أن لا يزال حزينا باكياً ولا يرى أن تلك المعصية محيت بطاعة من الطاعات إلى أن يموت .

وقد ورد فى الأثار أن بعض الأكابر يبعث يوم القيامة وخطيته مكتوبة فى كفه مع ما جرى له فى دار الدنيا من البكاء والحزن .

ثم أن هذا الكشف المذكور لا يكون إلا للكمل ، فيمتحنهم الله تعالى باطلاعه لهم على تصاريف الأقدار الجارية فيهم والمخالفة لأغراضهم ، ليريهم فى نفوسهم هل هم متأدبون معه أم ساخطون على أقداره ؟

ولما كشف لسيدى مدين من ألواح المحو عن اسم شيخه سيدى أحمد الزاهد أنه من أهل النار جاء إلى شيخه مرعوبا ، وقال : يا سيدى رأيت اسمكم فى أهل النار فقال : يا مدين لى ثلاثون سنة وأنا أرى ذلك وأنا صابر فلما كان بعد مدة قال سيدى أحمد للشيخ مدين : انظر اسمى فنظر ، فإذا هو فى السعدا فحمد الله تعالى على ذلك [1] فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول الإمام القشيرى : (وأما حقيقة المحو والإثبات فصادران عن القدرة ، فالمحو : ما ستره الحق ونفاه والإثبات ما أظهره الحق وأبداه .

والمحو والإثبات مقصوران على المشيئة ، قال الله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت) .=

ومن أخلاقهم أن يؤدوا ما عليهم من الحقوق لأربابها

ولا يحوجوهم إلى وقوف إلى حاكم ولا إرسال قاصد بمرسوم ولا غيره ، ومتى أحوج أحدهم صاحب الحق إلى شئ من ذلك ، فقد خرج عن الطريق .

ولذلك لم نر أحداً من أولياء الله تعالى قط عند حاكم يدعى عليه بحق زوجة أو جار أو فلاح أبداً (١) .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وعلى إخوانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم ردهم كل شئ يأتيهم من الولاة الذين لا يتورعون فى أموالهم وهذا ما درج عليه جمهورهم

وقد كان مالك بن دينار يأكل الكسر اليابسة بملح أو بقل ، ويقول : من رضى من الدنيا بمثل هذا لم يحتج إلى مال الولاة .

ولم أر أحداً من اقرانى الآن يرد ما يأتيه من الولاة إلا نادراً ، وقد رأيت بعضهم يرد ما يأتيه من الولاة فتفرست فيه أنه غير مخلص فى ذلك فقال لى : يا أخى أخلص فى ردك ورد خوفا من الله تعالى لا ليشكرك الناس على ذلك فقال لى:

= قيل : يمحو عن قلوب العارفين ذكر غير الله تعالى ، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله ، ومحو الحق لكل أحد وإثباته بما يليق بحاله .

ومن محاه الحق سبحانه عن مشاهدة ، أثبته بحق حقه .

ومن محاه الحق عن إثباته به رده إلى شهود الأغيار ؛ وأثبته فى أودية التفرق .

والمحق فوق المحو ؛ لأن المحو يبقى أثراً ، والمحق لا يبقى أثراً .

وغاية همة القوم أن يمحقهم الحق عن شاهدهم ، ثم لا يردهم إليهم بعد ما محقهم عنهم .

(١) عن أبى حبيب عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما قال : لما وقف الزبير يوم الجمل دعانى فقمت إلى جنبه فقال : يا بنى إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم وإنى لا أرانى إلا سأقتل اليوم مظلوما وأن من أكبر همى لدين أفترى ديننا يبقى من مالنا شيئا ثم قال : يابنى بع ما لنا وأقض دينى رواه البخارى .

أنا بحمد الله كذلك ، ولم يصغ لقولى ، فبلغ ذلك الدفتر دار محمد ، فأرسل له ألف نصف ، فأعطاها الرسول له بحضرة جماعة ، فردها فلما أخبره القاصد بذلك قال الدفتر دار الذى عندى : أن هذا مرائى نصاب ، ثم صر له صرة تراب وشقف وزبل ، وقطها له ، وقال : ادخل عليه بين المغرب والعشاء وقل له : قد حصل لمملوككم الدفتر دار كسر خاطر بردكم الفيتح والمقصود أن تجبروا بخاطره وتأخذوه فمد يده إليه وقال : جزاه الله خيراً عن الفقراء فأنى والله ادعوا له فى سجودى ، فلما رجع الرسول ، وأخبر بذلك الدفتر دار صار يضحك هو وأصحابه زمانا طويلا وقال : كيف يرد الذهب بالنهار ويقبل الزبل بالليل [1] .

فإياك يا أخى من مثل ذلك ثم إياك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم التواضع مع أولاد أشياخهم

ولا يمكنون أحداً من أولاد أشياخهم ، وأن سفلوا من القيام لهم ولا من تقبيل يدهم ، ولا من الجلوس بين يديهم ، كأحاد التلامذة .

وأن كان تحتهم فرش وطى اجلسوا ولد شيخهم عليه وجلسوا تحته .

وأن استقضاهم فى حاجة بذلوا فيها ما لهم وروحهم ، ثم لا يرون بعد ذلك أنهم قاموا بواجب حقهم [2] والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تقديم العمل على تحصيل جلاء باطنهم منساير المعاصى الباطنة

وذلك حتى لا يقع منهم سوء ظن بأحد من المسلمين إذ الإنسان لا يسئ بأحد الظن إلا قياساً على حاله هو ، فإذا انجلى باطنه ولم يبق فيه سيئة واحدة ، فهناك

---

(١) قال محى بن معاذ : من لم ينظر فى الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء .
وقال ابن الجلاء : من لم يصحبه التقى فى فقره أكل الحرام النص.
وقال بشر بن الحارث : أشد الأعمال ثلاثة :
الجود فى القلة ، والورع فى الخلوة ، وكلمة الحق عند من يخاف منه ويرجى .

(٢) وكل ذلك المقصود منه إحترام المشايخ أنفسهم .

لا يسئ الظن بأحد من المسلمين ، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾ (١) فإنه لولا كسبه للخطية أو الإثم وذوقه ذلك فى نفسه ما صح رميه به للبرئ .

فإن قيل : هل للشيخ الكامل طريق يعرف منها نقائض المريد من غير أن يكون فى الشيخ نظيرها ؟ قلنا : نعم له طريق إلى ذلك من باب الإلهام لا من باب القياس على نفسه هو فيلهم الله تعالى الشيخ بنقائص مريده ليسعى فى تخليصه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم وقوعهم فى المعاصى لأنهم داعون إلى الله تعالى

والمريدون ناظرون إلى جميع ما يبرزمنهم ، فيقتدون بهم فيه كل ذلك بحكم الإرث لسيدنا رسول الله ﷺ ، فإنه مشرع لنا فى حركاته وسكناته ، فكما لا يجوز فى حقه وقوع المعاصى ، فكذلك أتباعه العارفون لا ينبغى فى حقهم وقوعهم فى المعاصى ، وكما أن رسول الله ﷺ لو صح منه وقوع معصية لصدق عليه تشريع المعاصى ولا قائل بذلك ، فكذلك اتباعه إذا وقعوا فى مصعية ، فقد فتحوا لا تباعهم باب وقوع المعاصى فافهم .

فأننا مأمورون بالناس بسيدنا رسول الله ﷺ فى كل أمر فعله أو قاله إلا أن يكون ذلك خاصا به ، ولم يأذن لنا فيه (٢) .

---

(١) سورة النساء آية : ١١٢ .

(٢) قال النصر اباذى : التقوى : أن يتقى العبد ما سوى الله عز وجل .

وقال سهل : من أراد أن تصح له التقوى فليترك الذنوب كلها .

وقال ذو النون

ولا عـيش إلا مـع رجـال قلـوبه ... تحـن إلـى الـتقوى وتـرتاح للذكـر

سـكون إلـى روح اليقـين وطيـبه ... كمـا سـكن الطفـل الرضـيع إلى الحجر

واعلم ياخى أن الغفر على نوعين ستر العبد عن الوقوع فى المعصية حتى لا تعرف المعصية طريقة ولا يعرف طريقها وستر بين العبد ، وبين وقوع العقوبة به إذا وقع ، فالستر الأول : هو اللايق بالأنبياء والثانى : هو اللايق بغيرهم هذا اعتقادنا فى أنبيائنا ، وبتقدير أن لهم ذنوباً حقيقة ، فهى فى أمور فوق عقولنا لا تهتدى لكونها ذنبا عندنا ، ولا يجوز لنا حمل ذنوبهم على ذنوبنا ، لأننا فى دائرة تبتدئ من بعد انتهاء دايرتنا لا نجتمع معها فى جزء منها فافهم فعلم أنه لا ينبغى لشيخ أن يتصدر فى الطريق إلا أن كان محفوظاً من المعاصى .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم خوفهم من الظلمة ولو توعدوهم بكل سوء

لأنهم مع الله تعالى الذى هو المقدر لا مع عبيده ، فهم يرونه أقرب إليهم من عبيده كما قال فى المختصر ، ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ[1] ﴾.

ومن عقل كل عاقل أنه لا تنزل الأمور إلا بالله تعالى ، فهم وإن خافوا من الخلق لا يشهدون ما يخوفهم به الخلق إلا من الحق تعالى ، فهم مع المسبب لا مع الأسباب ، ولهذا فضلوا على غيرهم .

ثم لا يخفى عليك يا أخى أن الله تعالى لا يسلط أحداً من الظلمة على أحد إلا أن كان معه الدنيا ، والفقراء الصادقون قد خرجوا فى بدايتهم عنها ، فمن زهد فى الدنيا خافت منه الملوك ، ومن رغب فيها خاف هو من الملوك .

ثم إن وقع أحد من الأكابر تسليط ؛ فليس ذلك من حيث كونهم يحبون الدنيا، وإنما ذلك اختبارا لهم أو ليتأسى بهم أتباعهم لكونهم قدوة لهم ، كما فى قول السيد موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ [2] ﴾ فإن معناه لما

---

(١) سورة الواقعة آية : ٨٥ .

(٢) وتمام الآية : (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما) سورة الشعراء .

خفت أن الله تعالى يسلطكم على ، إذ الأكابر لا تخاف إلا من الله تعالى أما خوف إجلال وتعظيم ، وإما خوف تألم على جسدهم الذى أمنهم الله تعالى عليه من حيث كونه لله تعالى لا لهم من باب التجريد فى علم المعانى والبيان وقد بسطنا الكلام على هذا الخلق فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حسن الظن بالعلماء والفقراء الذين يدخلون على الأمراء والظلمة

ولا ينكرون عليهم وحملهم على أنهم لم يروا حال دخولهم عليهم منكرا أو رأوه وعجزوا عن إزالته بالقول أو بالفعل ، ويجوز المبادرة بالإنكار على العلماء والفقراء المذكورين وحملهم على انهم قدروا على إزالة منكر ولم يزلوه إنما اللائق حملهم على المحامل الحسنة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول : أن لله تعالى أولياء يدخلون على الظلمة فيحولوا قلوبهم حتى لا يظلمون أحدا فى ذلك الوقت ، فقد يكون من تنكرون عليه منهم هذا ما درج عليه جمهور العلماء المتورعين .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى ﷺ يقول لأصحابه :

من أدرك منكم النصف الثانى من القرن العاشر ، فلا يشدد فى إزالة منكرات الولاة إلا إن كان له نصير من الخلق يشد عضده ، أو يكون له حال يحمى به نفسه من أصحاب المنكر ، فإن من لم يكن كذلك يكفيه الإنكار بقلبه أو بلطافة وحسن سياسة ، وقد قتل خلق كثير ونفوا من بلادهم بإنكارهم على الولاة بغير سياسة أو حال يحميهم منهم وندموا على أمرهم لهم بالمعروف ، وصاروا يقولون نحن الظالمون الذى نصحناهم فيجعل أحدهم الواجب فى معتقده ، ظلما كل ذلك لقلة سياسته .

فأعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم خوفهم من العقارب والسباع الضوراى واللصوص إذا سافروا البلاد

وإن وقع أنهم خافوا على أنفسهم من ذلك ، فهو بحضور مع الله تعالى لا مع الغفلة عنه ، ثم إن أصل الخوف على أنفسهم الواقع من الخلق كون العبد خرج من ضيق العدم إلى فضاء الوجود ، فكل شئ رآه يلحقه بالعدم نفر منه ضرورة بحكم الطبع ، وأصحاب التمكين يرون أنه لا فعل لجميع المؤذيات إلا بإرادة الله تعالى ، فرجع خوفهم من المؤذيات إلى الخوف من الله تعالى كما مر فى الخلق قبله.

وقد تطور إبليس مرة لسيدى عبد القادر الجيلى ﷺ فى صورة حية سوداء فى غلظ رجل الآدمى ، ودخلت فى كمه وخرجت من طوقه فلم تتغير منه شعرة ، ثم بعد أيام تراءى له إبليس وقال : فتنت خلقا كثيرا حين تطورت لهم حية ودخلت من طوقهم .انتهى .

فعلم إن كل من ادعى الكمال وخاف من حية أو عقرب أو تمساح أو سبع بحكم الطبع ، فهو غير صادق فى دعوى الكمال بخلاف ما لو خاف من ذلك حفظاً لجسمه من الهلاك من حيث كونه رعيته فإن ذلك لا ينافى الكمال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة رؤيتهم المنامات الرديئة دون الحسنة

وذلك ليجدوا فى العبادة ولا يقنعوا بما عندهم فكلما استحسنوا شيئا من أحوالهم أراهم الله تعالى فى منامهم مما يجب علمه فى رؤيا السالكين الذى وصلوا إلى رتبة الكمال ضد ذلك [1] .

بخلاف المريدين الضعفاء ، فإن الله تعالى يريهم المنامات الحسنة ليشد

---

(١) يقصد بذلك السالكين الذى وصلوا إلى رتبة الكمال .

عضدهم بذلك لأنهم يعملون لله تعالى على طلب الجزاء ولا يكادون يجدون لإخلاص العارفين طعماً ، فلذلك كان المريد يرى أنه فى مكة وأنه فى السماء ، وأنه فى بحر من نور ونحو ذلك .

وأما الكامل ، فيرى نفسه فى ظلمة وأرض وعرة وأمور تنفر منها الطباع وقد قال رجل لمالك بن دينار : أنى رايتك البارحة وأنت تتبختر فى الجنة فقال له مالك: أما وجد إبليس أحدا يسخر به غيرى وغيرك .

وكان معروف الكرخى ﷺ يقول : أما وجد إبليس لى منذ ثلاثين سنة ، وأنا أرى أن الحق تعالى ينظر إلى نظر الغضب.

وحج سفيان الثورى ماشيا من البصرة ، فقال له الفضيل بن عياض : أما وجدت لك دابة تركبها ، فقال له سفيان : أما يرضى المجرم إذا أراد مجالسة سيده أن يأتى إليه إلا راكبا ، والله لو أنى آتى ماشياً حافيا مكشوف الرأس ، لكان ذلك قليلاً ، انتهى .

والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إرخاء الطيلسان على عيونهم حياء من الله تعالى ومن الخلق

وكفا للبصر عن فضول النظر فلا ينظر أحدهم إلا بقدر مواقع قدمه فقط .

وقد ثبت تقنعه ﷺ بردائه تارة فى الصيف ، وتارة فى الشتاء ، وما بين لنا علته ، فكل مؤمن يفهم ما يليق برتبته ، ومن لم يعرف العلة فى ذلك كفاه التأسى بصورة ظاهر الفعل .

فإياك يا أخى أن تظن بأحد عمل له طيلسانا أنه فعل ذلك بقصد التمشيخ أو لغير غرض شرعى ، فتسئ فى حقه الظن وذلك حرام .

فإن قلت :كيف يلبس الطيلسان حياء من الله تعالى والله تعالى لا يحجبه شئ.

قلنا : إن الشرع تبع العرف كثير من الأحكام ، وأمرنا أن نستر عورتنـــا فى

صلاتنا فى الظلام حياء من الله تعالى ، وهذا من ذلك ولا اعتراض إلا على من خالف السنة .

وقد صحح الجلال السيوطى أحاديث استحباب الطيلسان ، وقال من أنكر سنيته كفر .

فاعرض يا أخى هذه الأخلاق السابقة على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم جهرهم بالذكر محبة فى الله عز وجل وطلبا لأحد يسمعهم

فيذكر الله تعالى بذكرهم لا سيما إن كانت زاويتهم على الشارع .

فإياك أن تحمل أحداً منهم على الرياء إذا قال لمريده : قم فاذكر الله تعالى فى ذلك الشباك الذى على الطريق ليسمعك المارون ، فإن قصده صحيح فى ذلك لا سيما فى حال نهايتهم ، ويا طول ما كتموا أعمالهم فى بدايتهم ، وخافوا على ظهورها حين كانوا يعتمدون عليها ، فلما اعتمدوا على ربهم ، ورأوا أنه خالق لأعمالهم كشفا ويقينا لم يبق عندهم خوف من إظهار أعمالهم (١) كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن والأخلاق والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم فى التقلل من مجالسة الأمراء والعلماء

خوفاً من الإخلال بواجب حقهم إذا أكثروا مجالستهم لا لعلة أخرى نفسانية وذلك لأن كل شئ تكررت رؤيته هان فى العيون ، ولذلك قالوا : من أقل الناس نفعا بالشيخ زوجته ، وولده ، ونقيبه لكثرة مجالستهم له ، ورؤيتهم له بخلاف من يزور الأشياخ الشيخ فى بعض الأحيان ، أو يجالس العلماء للتعلم (٢).

---

(١) وبالجملة : إذا صدقت النية فى ذلك فان الجهر بالذكر يكون مفضلا عند الصوفية تشجيعاً للناس على إتيان مجالس الذكر وخاصة إذا كان له نغمة مستحبة يقال بها .

(٢) وفى الحديث : (زرغباً تزدد حباً) .

وقد كان الإمام عمر بن عبد العزيز ﷺ يقول : إياك والدخول على الأمراء ولو أمرتهم ونهيتهم ، وتأمل ياخى أهل مكة لما كثرت مشاهدتهم ، للكعبة كيف تراهم لا يعظمونها كل التعظيم الذى يقع من الأفاقى[1] . عند رؤيتها ، ولا يبكون كما يبكى ولعل ذلك أيضا هو السبب الذى جعلوا لأجله خلوة الخطابة ، فيجلس فيها الخطيب مراقبا لله عز وجل، حتى يخرج للخطبة بخلعه الهيبة من الله تعالى ؛ لأجل المراقبة التى كان فيها ، فيكون وعظه أوقع فى القلوب من وعظه إذا جلس بلغو أو بضحك عند المنبر مع الناس ، فإنه إذا طلع المنبر لا يجدون لوعظه تأثيراً لزوال هيبته بالضحك واللغوا واستصحاب الناس ذلك فى حال وعظه لهم فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة تعظيمهم للشرفاء

وإن طعن بعض الناس فى صحة نسبهم .

وكذلك تعظيم أولاد العلماء والصلحاء وإكرامهم وإجلالهم ، ولو كانوا على غير قدم الاستقامة بطريقة الشرعى إكراما لسلفهم الطاهر الصالح ثم إن رؤيتهم أن ذلك من بعض ما يستحقونه عليهم ، وهذا الخلق لم أجد له فاعلا من اقرانى إلا القليل .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول : من أقل ما يعامل به الشريف فى التعظيم أن يعظم الناس نائب مصر أو قاضى العسكر أو الدفتردار .

وسمعته يقول أيضا : من أدبنا مع الشريف أن لا نفتتح مجلس الذكر بحضرته ولا نجلس على مكان أو فرس أعلا منه ، ولا نتزوج له مطلقة ولا بنتا إلا أن عددنا أنفسنا عبيدا لها ، ولا نمنعها شيئا طلبته منا مما لنا قدرة عليه من ساير الشهوات المباحة ، ولا نتزوج عليها ولا نتسرى ، ونقدم لها نعلها ، ونقوم لها إذا وردت علينا وإذا كنا نبيع على النساء لا ننظر إلى وجهها ، ولا لشئ من

---

(١) القادم من بلاد بعيدة فلا يتاح له كثرة رؤية الكعبة .

يديها بل ولا ننظر فى الإزار خوفا أن يبدوا شيئا من بدنها ، وإن كان أحدنا كثير الأدب أعطاها ما طلبت شراه منه هبة أو هدية لا بيعا حتى لا يحتاج إلى الأشهاد عليها[١] .

وقد بسطنا الكلام على الأدب مع الشرفاء فى كتاب العهود وفى كتاب المنن الكبرى فراجعها . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم للأكل من صدقات الناس الخاصة المقيدة بشروط عزيزة .

كأن يكون موقوفاً على الصوفية أو المشايخ أو العلماء العاملين ؛ لأنهم لا يعدون نفوسهم من الصوفية المنصرف إليهم الاسم فى طريقهم ، ولا من المشايخ.

وهذا بخلاف الصدقات العامة كالموقوف على الفقراء والمساكين ، فلا يكرهون الأكل منها إذا كان أصلها حلالا لا استبدال ، ولا تدليس فى طريق ، واقفها كما يقع فيه من لا يتورع من الأمراء وأعوانهم.

وقد سمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول ينهى شخصا وقف عليه أبوه شيئا من الأكل منه وقال له :

كل من كسبك إن كنت رجلا ، وهذا خلق غريب قل فاعله فى هذا الزمان ، بل رأيت كثيرا من الفقراء يزاحم على الأكل من الصدقات مع كونه عنده ما يكفيه وهذا خروج عن طريق القوم فالحمد لله رب العالمين .

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن أبى بكر الصديق ﷺ موقوفا عليه أنـه قـال : ارقبـوا محمد ﷺ فى أهل بيته) رواه البخارى .

يقول الإمام النووى : معنى ارقبوه راعوه واحترموه وأكرموه .

ومن أخلاقهم : استيذانهم لربهم تبارك وتعالى إذا كانوا يقرؤون كلامه العزيز

وطلبوا أحد من الناس أو طلبوا منهم حاجة فلا يكلمونه إلا بعد قولهم بقلوبهم دستوريا الله أكلم عبدك هذا فى حاجته .

وكذلك يستأذنون رسول الله ﷺ إذا كان يقرؤون حديثه.

وكذلك يستأذنون الأئمة المجتهدين ومقلديهم إذا كانوا يقرؤون فى كلامهم ويقررونه . فيقولون : دستور يا رسول الله أو دستور يا إمامى يا محمد بن إدريس أن أكلم هذا فى حاجته ، ونحو ذلك ، ولهذا الأدب حلاوة عظيمة يجدها الإنسان فى باطنه ولا يقدر قدرها .

ولم أجد لهذا الخلق فاعلا فى عصرى إلا قليلا ، فأعرض يا أخى هذه الأخلاق على نفسك وأقرانك تعرف حالك وحالهم والحمد رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهيتهم لمد رجلهم فى ساعة من ليل أو نهار

إلا بعد قولهم : دستور يارب أمد رجلى لأريحها من وجع القرفصة ، ثم يمدونها بعد ذلك .

وكذلك القول نحو المدينة المشرفة أو نحو ولى من أولياء الله تعالى فى سائر أقطار الأرض سواء الأحياء والأموات كل ذلك لشهودهم أنهم بين يدى الله تعالى أو بين يدى أهل الحضرة على الدوام من نبى وولى ، فإن لم يكن ذلك لهم كشفا كان لهم إيمانا.

ولهذا الأدب حلاوة عظيمة يجدها العبد فى باطنه ، وكلامنا فى مد الرجل لحاجة إما عبثا فهو أشد فى قلة الأدب ، وقدم مد سيدى إبراهيم بن ادهم رجله مرة فى الليل ، فسمع قائلا يقول :

ما هكذا ينبغى مجالسة الملوك فلم يمد سيدى إبراهيم رجله حتى مات بعد عشرين سنة وهذا الأمر وإن كان مباحا فى الشرع ففعله أدبا أولى ولكل مقام

رجال وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم للنوم على حدث اصغر فضلا عن الاكبر

سواء أكان الحدث ظاهرا وهو معلوم ، أو باطنا كالحقد والمكر والخبث والكبر والرياء وتنقيص المسلمين وغيبتهم وكل شئ يضره أو يضر غيره فى الدنيا والآخرة بطريقة الشرعى كل ذلك مراعاة للأدب مع الحضرة التى تنتقل إليها فى النوم أرواحهم ، فإن الأرواح إذا نام صاحبها ارتفعت إلى العلى فلا يؤذن لها فى السجود بين يدى الله تعالى إلا إن فارقت جسمها على طهارة ظاهرة وباطنة ، فإن لم تكن كذلك وقفت ناحية عن الحضرة لا يصح منها سجود لو سجدت لكونها محدثة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

إياك يا ولدى أن تنام على محبة الدنيا فربما أخذ الله روحك تلك الليلة ، فتحشر مع مبغوض لم ينظر الله إليه منذ خلقه .

قال : ولعلك يا ولدى لا تعد محبة الدنيا خطيئة وتنسى قول السيد عيسى عليه الصلاة والسلام حب الدنيا رأس كل خطية إنتهى .

وفى العمل بهذا الخلق أدب مع الملائكة الكرام الكاتبين وفتح باب الرحمة بدخولهم بيته ، فإنهم لا يدخلون بيتا فيه جنب فينبغى للفقير إذا جامع ولم تغتسل زوجته أن يخرج من ذلك البيت الذى هى فيه إلى موضع آخر قياما بحق الملائكة وطلبا لحصول الرحمة بحضورهم ، حتى أنهم لا ينامون فى موضع فيه حائض أو نفساء بل ولا يمكثون فيه لحظة [1] لإطلاق لفظ الجنب فى الحديث والحمد لله رب العالمين .

---

(١) ويقصد بالإمام الشعرانى بذكر ذلك إيضاح تمام الأدب عند السادة الصوفية وإلا فإن ذلك ليس من المحرمات على الإطلاق فإن (المؤمن لا ينجس) كما ورد فى الحديث عن رسول الله ﷺ.

ومن أخلاقهم كثرة الاجتهاد فى العبادة ولا يملون منها ليلا ولا نهارا

ولا يكتفون بدعائهم فى قراءة الأحزاب ثم ينامون فى الليل ، فإن هذا غرور.

وقد رأيت سيدى الشيخ أبا الحمايل السروى رحمه الله تعالى أقام جماعة من الفقراء من قراءة حزب شيخهم حين سمعهم يقولون .

اجعلنا عندك من المقربين وأجلسنا بين يديك مع الأنبياء والمرسلين .

وقال : قوموا واشتغلوا بالتوحيد أو بالقيام فى الأسباب حتى يبدأكم الحق تعالى بالتقريب ، فإن حكم مثلكم حكم زبال دخل فى غمار الناس إلى السلطان وقال : زوجنى ابنتك أو اجعلنى وزيرا لك ، فرما طرد ومقت بمثل ذلك القول وما هكذا درج الصادقون من أهل الله عز وجل (١) .انتهى فالحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم : أن لا يصغوا قط لمن يمدحهم

لأن المادح إن كان صادقا فيما مدحهم به ، فقد تعجلوا أجرهم ، وإن كان كاذبا فهو سخريا بهم .

وقد وقف شخص على دكان فى العنبرانيين ، وأشار إلى ، وقال : هذا الرجل الصالح هذا حامى مصر ، فكدت أن أذوب من الخجل والحياء من الله تعالى ، ثم من أصحاب النوبة الذين هم حماة البلد حقيقة .

وهضم النفس هو ما درج عليه السلف الصالح .

وأما قول بعضهم : أنه ينبغى للعبد إذا مدحه أحد أن يأخذ ذلك على لسان الحق تعالى ، ويشكره على ذلك ، فهو خاص ببعض الأولياء مع أنه لا ينافى كونه من الله تعالى ، فإن الكامل يكنى أبا العيون ومعلوم أن الاقتداء بما عليه جمهـور

---

(١) يقصد بذلك عدم التواكل بل يجب الاجتهاد فى العبادة والتفكير والتدبر والتأمل وإقامة أحكام الشرع فى جميع أمور الحياة لا مجرد قراءة بعض كلمات بنغمة رتيبة ثم العودة إلى شهوات الدنيا ينتهل منها .

أهل الطريق أولى [1] والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كراهتهم للنوم فى النصف الثانى من الليل

وكذلك يكرهون النوم ليلة الجمعة ، وليلتى العيدين ، وليلة النصف من شعبان ، وليالى القدر .

وان غلب أحدهم النوم نام جالساً ، وذلك أن من بركة المواهب الآلهية المغفرة لجميع من حضرها ، والعافية من جمع الأمراض ، والتوبة من جميع الأثام ، ويحتاج استثناء المشرك والمشاحن والعشار وغير ذلك مما ورد لأن كلامنا فيمن حضر الموكب الألهى الذى هو حضرة الله تعالى الخاصة ، ودخولها محرم على من تلطخ بذنب ، ولم يتب فافهم .

واعتبر يا أخى من يعكس فى حضوره مواكب السلطان وتأمل كيف يقطعون جامكيته بخلاف من يواظب على حضورها قبل الناس ، فأنهم يزيـدوا جامكيتـه

---

(١) عن أبى موسى ﷺ قال : سمع النبى ﷺ رجلا يثنى على رجل ويطريه فى المدح فقال : (أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل) متفق عليه .

وعن أبى بكر ﷺ أن رجلا ذكر عند النبى ﷺ فاثنى عليه رجل خيرا فقال النبى ﷺ : (ويحك قطعت عنق صاحبك يقوله مراراً إن كان أحدكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله ولا يزكى على الله أحداً) متفق عليه .

يقول الإمام النووى : فهذه أحاديث فى النهى وجاء فى الإباحة أحاديث كثيرة وصحيحة قال العلماء : وطريق الجمع بين الأحاديث أن يقال :

إن كان الممدوح عنده كمال إيمان ويقين ورياضة نفس ومعرفة تامة بحيث لا يفتتن ولا يفتر بذلك ولا تلعب به نفسه فليس بحرام ولا مكروه وإن خيف عليه شئ من هذه الأمور كره مدحه فى وجهه كراهة شديدة وعلى هذا التفصيل تنزل الأحاديث المختلفة فى ذلك ومما جاء فى الإباحة قول ﷺ لأبى بكر ﷺ : (أرجو أن تكون منهم) أى من الذين يدعون من جميع أبواب الجنة لدخولها.

وفى الحديث الآخر (لست منهم) أى لست من الذين يسبلون أزرهم خيلاء وقال ﷺ لعمر ﷺ : (ما رآك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك) الأحاديث فى الإباحة كثيرة .

تبصرة ، وذكرى الأولى الألباب .

فعلم أن من واظب على النوم فى الأسحار ، فليس له فى طريق الصالحين نصيب .

وفى الحديث أن أم السيد داود عليه الصلاة والسلام قالت له : يابنى لا تترك قيام الليل ، فإن ترك قيام الليل يدع الرجل فقيرا يوم القيامة .

وورد أن الله تعالى أوحى إلى السيد داود عليه الصلاة والسلام (يا داود كذب من ادعى محبتى فإذا جنه الليل نام عنى) .

وفى بعض الكتب المنزلة يقول الله عز وجل :

يا عبدى جعلت النهار لمعاشك ، وجعلت الليل للسمر معى وقد اشتغلت فى النهار بمعاشك ، ونمت عنى فى الليل ، فخسرت عمرك كله (١) والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة مجالستهم للحق جل وعلا طلبا لزوال الغم والهم الواقع للناس فى هذه الدار

فإن الهم والغم فيها إنما هو بقدر الغفلة عن الله تعالى ، فمن أراد دوام السرور ، فليداوم على الحضور ، فليختر العبد لنفسه ما شاء ، فلا يلومن إلا نفسه إذا ترادفت عليه الغموم والهموم ، فإن ذلك إنما هو جزاء بقدر إعراضه عن ربه تعالى (٢) ، فأعلم ذلك فأنه نفيس والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول أبو سليمان الدارانى: أهل الليل فى ليلهم أشد لذة من أهل اللهو .

ويقول السهروردى فى عوارف المعارف . فالصادق المريد إذ خلا فى ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره ، ويصير نهاره فى حماية ليله ، وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار ، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل ويصير قالبه فى قبة من قباب الحق مسددا حركاته ، موفرة سكناته .

(٢) قال الله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

وقال تعالى (ويحذركم الله نفسه) . =

ومن أخلاقهم كثرة رضاهم عن ربهم إذا قتر عليهم الرزق أكثر من رضاهم عنه إذا وسع عليهم الرزق (١)

لأنه إذا قتر عليهم الرزق فقد سلك بهم طريق الصالحين ، وإذا وسعه عليهم، فقد سلك بهم طريق الغافلين عنه .

ثم أنهم إذا تمكنوا فى هذا المقام ترقوا إلى فناء اختيارهم مع الله تعالى فيرون أنه تعالى أعلم بمصالحهم من أنفسهم ، فلا يبقى عندهم ترجيح لشئ .

ثم إذا ازدادوا تمكينا رجعوا إلى صورة المقام الأول ، ولكن القصد مختلف ، فإن كل من تمكن فى مقامه يزداد بالسلب تمكينا وبالعطاء حجابا من حيث إضافة الأمور إليه .

فكلما ترقوا من مقام إلى مقام فلهم مشهد خلاف المشهد الماضى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى المنن الكبرى وعلى رضى الله العبد بتقدير الله تعالى عليه من حيث كونه تعالى خالقا وعدم رضاه من جهة كون العبد كاسبا فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة استغفارهم لرؤيتهم النقص فى عباداتهم

فلا يرون لهم قط عبادة كاملة ، ومن كان هذا مشهده فهو غائب عن طلب الأجر والثواب على عبادته .

وقد كان الفضيل بن عياض يقول :

أنى لأنصرف من صلاتى وأنا مستحى من الله تعالى أكثر من استحيـائى إذا

=وقال تعالى(إن بطش ربك لشديد) .

وقال تعالى (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

(١) سئلت السيدة رابعة العدوية : متى يكون العبد راضيا : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة .

وقال الأستاذ أبا على الدقاق : الإنسان خزف وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الحق تعالى.

شربت خمرا [1] انتهى .

وذلك لأن الخمر ينادى على صاحبه بأنه عاص لله تعالى ولرسوله ﷺ بخلاف الذنوب فى الطاعات ، فإنها تخفى على غالب الناس ، وأيضا فإن الغافل فى صلاته قد اشتغل بغير الله تعالى فى حضرته وشارب الخمر عصى فى حجاب .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

والله أن أحدنا ليستحق الخسف به لولا عفو الله تعالى .

وكان يقول :

من تأمل نفسه بعين البصيرة من حيث كسبه وجد سداه ولحمته ذنوبا وعيوبا ضم بعضها إلى بعض ، فصار صورة إنسان .

وفى كلام الشيخ شرف الدين بن المقرى رحمه الله تعالى :

ذنوبك فى الطاعات وهى كثيرة ... إذا عددت تكيفك عن كل زلة

تصلى بلا قلب صلاة بمثلها ... يكون الفتى مستوجبا للعقوبة

صلاة أقيمت يعلم الله أنها ... بفعلك هذا طاعة كالخطيئة

إلى آخر ما قال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حسن سياستهم للمقاريض الذين يقرضون فى أعراض الناس

فيقدمون لهم طعام ، ويبشون فى وجوههم ويظهرون لهم المحبة ، فإذا

(١) عن ابن مسعود ﷺ ، أن نبى الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه . (استحيوا من الله حق الحياء) قالوا : إنا نستحى يا نبى الله ، والحمد لله .
قال : ليس ذلك ؛ ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء) حديث صحيح أخرجه أحمد فى فى مسنده والترمذى فى سننه والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب .

مالوا إليهم ، فهناك يعظوهم بسياسة ، ويقولون لأحدهم :

قد مال قلبنا إليك كثيرا ومقصودنا الأخوة على وجه الشرع بأن تمسك على الكلام فى أعراض الناس كلما تسمعنى اغتبت أحدا ولا تسامحنى فى كلمة واحدة ، فيأخذه له من ذلك معنى .

ثم انهم يصيرون يمدحون فى المجالس ، ويقولون قد حصل لنا خير بصحبتنا لفلان كان لساننا منطلقا فى أعراض الناس ، فمن حين صحبناه ، ومسك علينا الكلام فى الناس قلت غيبتنا لهم ، فهناك يصير يستحي من أن يقع فى أعراض الناس خوفا أن يخالف ما وصفوه به من ضبط اللسان .

ولو أنهم قالوا له : ابتداء تب إلى الله تعالى عن الكلام فى أعراض الناس وإلا مقتك الله تعالى لربما وقع فيهم ، وازداد غيبة فى من نبهه على ذلك[1] فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم رؤيتهم فى نفوسهم أنهم من جملة العلماء العاملين أو عباد الله الصالحين

فيصيرون يعلمون الجاهل ، وهم يرون أنه أحسن حالا منهم ولو أن السلطان مثلا رسم لأهل العلم أو الصلاح بمال جزيل لا تطمح نفوسهم قط لأن يعطوا شيئاً منه كمالا تطمح نفس العامى أو الفسقة إلى ذلك .

وهذا الخلق قل من يتنبه له من الأقران بل بعضهم يغضب إذا نقصوه فى العطاء عن أحد من أقرانه ، ويصير يقيم الأدلة على أنه أعلم ، وأولى بأن يزاد .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من نظر إلى علوم السلف الصالح رأى نفسه جاهلا .

وقد نقل ابن السبكى فى طبقاته أن الحافظ بن شاهين فسر القرآن فى ألـــف

---

(١) يقصد الإمام الشعرانى بذلك : أن الدعوة إلى الله تكون بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالعنف واتهام الناس بكل منكر كما يفعل ذلك الدعاة المعاصرين بل تكون بالفعل والذكاء والتروى والأهم من ذلك كله الأسوة الحسنة .

مجلدة ضخمة ، وصنف المسند فى ألف وستمائة مجلدة ، وذكروا أنه حاسب الحبار [١] فبلغ استجراره الحبر للكتابة ألف رطل وثمانماية رطل .

وصنف الشيخ عبد الغفار القوصى كتاباً فى مذهب الشافعى فى ألف مجلدة .

وكان محمد بن جرير الطبرى يحفظ وقر ثمانين بعيراً .

وحرقت خزانة الكتب ببغداد فى المدرسة النظامية فحزن لذلك نظام الملك فقالوا له : لا تحزن فإن ابن الصباغ يملى من حفظه جميع ما حرق فأملا جميع ما حرق من كتب التفاسير والحديث واللغة والأصول وغيرها فى مدة ثلاث سنين.

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن فانظر ياخى نسبة علمك إلى هؤلاء تجده لا يجئ عشر عشر علم أحد وإياك والدعوى والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم : موافقتهم فى مدح عدوهم إذا رأوا أحداً يمدحه بنظم أو نثر

وإظهار البشاشة وطلاقة الوجه وكتمان عداوتهم لعدوهم حتى لا يكاد أحد يلحق بهم .

وفى ذلك من حسن السياسة مالا يخفى ، وفيه سد باب الغيبة والنميمة وتخفيف عداوة عدوهم إذا بلغه فرحهم بمن مدحه ، وإكرامه بالبشاشة والنقوط فى ذلك المجلس ، وحكم العكس بالعكس كما جرب .

وهذا خلق غريب قل أن يوجد فى أحد من العلماء والفقراء الآن بل رأيت عالمين دخل أحدهما وليمة فرأى عدوه هناك ، فرجع فقاموا له ليدخلوه فعجزوا فى دخوله وقال : لا أدخل مكاناً فيه فلان ، فقام عدوه الآخر ، وخرج وحصل مالا خير فيه ، فيحتاج من يخالط الناس فى هذا الزمان إلى عقل وافر والحمد لله رب العالمين .

---

(١) بائعى الحبر .

ومن أخلاقهم عدم قبولهم هدية علموا بالقرائن إن لها قدراً عند مهديها

كأن أرسلها مع غلامه ، وقال : لا تعطها إلا للشيخ فى يده مثلا ، أو كانوا يعلمون منه أنه يصير يتذكرها كل قليل لكونها فوق مرتبته مثلا ، فإن ذلك من علامة كونه بخيلا أو ممن يتبع نفسه هديته .

وكذلك لا يأكلون شيئا أكد على أحدهم صاحب السماط أن يأكله كأن مسك وركا وصار يقول له : أجبر بخاطرى ، وكل هذا ، فإنهم يزدادون بذلك نفره من أكله لأنه إمارة على بخله إذ الكريم لا يبالى بأى من أكل طعامه كائنا من كان .

وهذا خلق لم أر له ذائقاً بل ربما يفرح أحدهم إذا أكدوا عليه فى العزومة ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتهم للأكل وحدهم

لحديث : شر الناس من أكل وحده وجلد عبده ومنع رفده .

كما كرهت الصلاة فرداً ، فكذلك يكره الأكل فرداً لجامع أن كلا منهما مشروع، وفى الأكل مع الجماعة فوائد منها محبة الناس له ، ومساعدتهم له على نصرة الدين إذا رأوه قايما فى إزالة منكر ، ومنها كثرة الرزق والمدد لحديث أن المعونة تأتى من الله تعالى على قدر المؤنة ، ومنها امتثال أمر الشارع ، فعلم أن حكم أكلهم وحدهم بالعكس من ذلك فينحل أمر البخيل إلى كراهة كل من لم يطعمه له ، وعدم نصرة الدين نكاية فيه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : مباسطتهم للخادم وتواضعهم معه

حتى يصير يجلس يأكل مع سيده ولا يتعلل بالحياء ولا بالخوف من زجره إذا أكل معه من غير عزومة عليه كما كان عليه الجلال المحلى شارح المنهاج .

ومتى كان الخادم يستحى أن يأكل مع سيده أو يخاف منه ، فسيده معدود من المتكبرين .

وقد دعى الإمام عمر بن عبد العزيز مرة خادمه أن يأكل معه ، فأبى ، فبكى وقال فى نفسه :

لولا علم منك سوء الخلق والفظاظة ما أبى وجلس يأكل معك كما كان خدم رسول الله ﷺ يأكلون معه فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم ردهم المسائل

ولو بلقمة أو زبيبة أو عمامة أو جوخة عملا بقوله ﷺ :

للسائل حق وإن جاء على فرس .

ولكونهم من شأنهم عدم الشح وعدم تمييزهم نفوسهم على إخوانهم .

وكل فقير منع سائله لغير غرض شرعى فهو لم يشم من طريق الفقر رائحة، فإن الفقراء على الأخلاق الإلهية بنوا طريقهم ، فلا يمنعون إلا لحكمة كأن لم يجدوا إخلاصاً فى ذلك الوقت ، أو علموا أن ذلك السائل يعصى الله تعالى بما يأخذه منهم أو كان سؤاله تعنتاً لا لحاجة بل امتحاناً .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : فى حال كمالهم النسبى أن يقدموا نفوسهم على غيرهم فى المطاعم والملابس وغيرها

عملا بحديث (أبدأ بنفسك) .

وبحديث (الأقربون أولى بالمعروف) ولا أقرب إلى الإنسان من نفسه عكس ما كانوا عليه فى حال بدايتهم من إيثار على نفوسهم ومدحهم على ذلك[1] .

---

(١) قال الله تعالى : (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) .

وقال تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها).

قال سيدى على الخواص رحمه الله تعالى :

وإنما كانوا يمدحون على الإيثار حال بدايتهم فى الطريق لأنهم كانوا فى مقام المجاهدة والعمل على الخروج من ورطة الشح الذى فتحوا عيونهم عليه فى الدنيا بخلاف حالهم فى زمن كمالهم ، فإنهم مأمورن بأن يعطوا كل ذى حق حقه بحكم العدل وفى هذا الذى قلناه جمع بين الآيات والآيات الواردة فى الإيثار وعدمه ، فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة تسليمهم وترك تكذيبهم لكل من أدعى ممكناً فى العادة من سائر المقامات حتى القطبية

لأن الولاية أمر باطنى لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، ثم صاحبه .

وقد لا يطلع الله عليها صاحبها أيضا ، فيكون فى نفسه أذل الناس وأحقر الناس لا يرى له شفوف على أحد من المسلمين ، فيسلمون له ضرورة لأن أحدهم يرى نفسه فى الأرض ، ويرى المدعى للقطبية كأنه فى السماء ، وأهل الأرض لا يعرفون ما أهل السماء فيه .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول ، لأصحابه :

سلموا لكل مدع دعواه ما لم يدع باطلا كالنبوة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كمال التنزيه لله تعالى

فلا يقولون قط بالجهة كما يقع فيه أهل الجهل بالله عز وجل آخذاً بظاهر الأحاديث التى يعطى ظاهرها رايحة التشبيه بأحوال الخلق وتعالى الحق فى علا ذاته عن أن يلحقه تشبيه بخلقه (١).

= وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : دينار انفقته فى سبيل الله ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك) ، رواه مسلم .

(١) وعلى هذا مذهب أهل السنة وهو التفويض المطلق فى المتشابه وكان ذلك مذهب الصحابة=

وقد أجمع أهل الحق كلهم على أن الحق تعالى لا يتحد مع خلقه فى مرتبة من المراتب وكيف يلحق المخلوق خالقه كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب اليواقيت والجواهر وفى كتاب المنن الكبرى ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه حال المرض

من عجزها عن القيام فى الفريضة مثلا إلا بعد امتحانها مرات بـأن تقـوم ، فلا تقدر تقف لا بنفسها ولا باعتماد على شئ ، وهناك يصلون جالسين .

وهذا الخلق قل من يتنبه له فى المرض بل يبادر أحدهم إلى الصلاة جالساً وبعضهم يترك الصلاة بالكلية ، وذلك خروج عن الدين .

وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام زكريا شارح الروض يصلى النوافل قائما وهو يتمايل لا يكاد يقدر على الوقوف فقلت له يوماً :

مثلكم لا يكلفه الله تعالى بالقيام فى مثل ذلك .

فقال : يا ولدى كل صلاة يحتمل أن تكون آخر أعمالى فى الدنيا فأخاف أن أختم عملى الكسل ، انتهى .

وفى كلام سيدى أحمد الرفاعى : كل فقير لا يحاسب نفسه فى كل حركة وسكون ويتهمها جميع ما تدعيه لا يكتب فى ديوان الرجال ، فالحمد لله رب العالمين .

= والتابعين ، ولم يقل أحد فى الصدر الأول من الإسلام بالجهة ولا بالتشبيه أو التجسيم .

البَابُ الرَّابِعُ

فى جملـة أخـرى مـن الأخـلاق

فمن أخلاقهم : عدم أكلهم من طعام من شفعوا فيه شفاعة وقبلت فضلا عن كونها لم تقبل .

أو قبولهم هدية أرسلها لهم الشخص للشفوع فيه قبل الشفاعة أو بعدها .

وهذا الخلق قل من تنبه له من الفقراء بل بعضهم يتطلب حصول ذلك بقلبه أو بنفسه ، وهو من أكبر الذنوب مع أنه يخرب ما بين الفقير وبين ربه لأن الشفاعة تكون واجبه فى واجب ومستحبة فى مستحب وأخذ العوض الدنيوى على ذلك بيع للدين بالدنيا وإن كان مال المشفوع فيه غير حلال ضر نفسه بذلك وأوقف قضاء حاجته لأنه يتلف قلب الفقير ، والذى يشفع فلا يصير له كمال توجه فى قضاء حاجته ولا قضاء حاجة أحد من المكروبين .

فإذا ترك الأكل وقبول الهدية مصلحة للشافع والمشفوع له والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم قبول هدايا الظلمة وأعوانهم وكراهة قبولها علـى أسمهـم أو علـى اسـم جماعتهـم ، ولو سفـوا الـتراب

وإنما هان عليهم عدم قبول هدايا الظلمة لأنهم لا يصحبونهم قط لعلة دنيوية، وإنما يصحبونهم للأجر والثواب ، ومعلوم أن هدايا الظلمة إنما هى أوزار فإن غالبها بلص وجور على رعيتهم وأخذ جرائم ممكن يتحاكم عندهم .

وقد بلغنى أن شخصا سرقوا له جماعة فاشتكى إلى شيخ العرب فقال : أتهم لك واحد فقال : لا أتهم أحدا فقال له : حاشيته انظر لك أحدا فى بلدك له بهائم كثيرة فأتهمه فقال : لا أتهم أحداً فقال شيخ العرب : أنا أتهم لك .

فأرسل جماعته فوسموا جميع بهايم رجل فى البلد شهد الناس فيه كلهم له بالخير ثم أن شيخ العرب أرسل تلك البهائم ففرقها ضحايا على زوايا مصر ، فصار كل من حصل له بقرة أو جاموسة يشكر شيخ العرب ، ويقول جزاه الله عنا خيرا ، وكذلك القول فى ضحايا الغنم يأخذها شيخ العرب أو الكاشف غصبا من

البلاد ثم يفرقها ضحايا على العلماء والصالحين لكن بحمد الله عن قريب يصير الكاشف أو شيخ العرب يعجز عن خراج السلطان من ضيق الحال ، ولا يجد شيئا يفرقه .

فإياك يا أخى أن تقبل شيئاً من ذلك وأن شككت فى قولى فأرسل استخبر من الفلاحين تعرف صدقى .

ثم لا يخفى أن الفقراء الصادقين سهامهم موتورة على الذين يظلمون الناس، ومعلوم أن قبولهم هداياهم يبطل عمل تلك السهام ، مع ما فى ذلك من كثرة التبعات ، وعدم قبول الشفاعات .

فعلم أن كل من أدعى الصلاح وأكل من هدايا العمال وليس من ثيابهم ، فهو نصاب كذاب كما أوضحنا ذلك فى كتاب المنن .

وسيأتى فى الباب السادس فى الوسط منه ما قاسيته من العقوبة لما أكلت حبات من عنب عيسى سيخ العرب مع شهرته بالدين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة التزاور لبعضهم بعضاً

وفاء بحقوق بعضهم ولو فى الشهر مرة ، ولا يتركون الزيارة اكتفاء باتحاد قلوبهم فإن الأجسام تطلب حظها من الزيارة مثل الأرواح .

وقد درج على ذلك جمهور الفقراء [١] ، وقد حدث جماعة يدعون الفقر ، ويهجرون أخاهم السنة والسنتين ، وأكثر ولا يزورونه ، فيحصل بينهما الجفـاء ويظن الناس أن بينهما عداوه فيمشون بينهما بالنميمة ، فيتولد من ذلك مفاسد .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : [أن رجلا زار أخاً له فى قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال :

أين تريد ؟

قال : أريد أخاً لى فى هذه القرية .

قال : هل لك عليه من نعمة تربها عليه ؟

قال : لا غير أنى أحببته فى الله تعالى . =

وقد قلت مرة لشخص من أصحاب شيخ من مشايخ العصر : أن شيخك أوحشنا كثيرا فحكى ذلك لشيخه فقال له : أما تعلم أن الدفتادار يزورنا ، وإذا بلغه أننا نزور فلانا يزدرينا فى عينه ، وينقطع عن زيارتنا فقلت له : تبا لكم فقراء كيف يصح من فقير أنه يتلفظ بمثل هذا العذر البارد ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يصحبوا أميرا إلا أن وطنوا نفوسهم على القيام بشروط صحبته بحيث لا يخلوا منها بشرط واحد

فمن شروط صحبة الفقير للأمير .

أن لا يقبل منه هدية ولا يعتب عليه فى عدم تردده إليه ، فأن صحبه بقصد إحسانه أو ليتردد إليه قياما بجاهه بين الفقراء فقد أخطأ الطريق .

ومنها أن يتحمل عن ذلك الأمير أوزاره من مظالم العباد وغيرها ، حتى يأتى ذلك الأمير يوم القيامة ، وليس عليه ذنب يوقف لأجله فى الحساب .

ومنها أن لا يدخل فى صحبته إلا أن كان بيده ولايته ، وعزله ، وحماية نفسه من تصرف ذلك الأمير فيه بحبس أو ضرب ، لأنه إن لم يحم نفسه سقط من عينه.

وإنما شرطنا ذلك ليخاف من الفقير إذا هدده ، وطلب كفه عن المظالم .

ومنها أن يكون مانعا بتوجهه إلى الله تعالى من أن يزيد عليه أحد فى بلاد ذلك الأمير مالا للسلطان ظلما أو يطلب عزله من ولايته .

ومنها أن يفرح بعدم زيارة الأمير له لأن الأمير لا يزور الفقير إلا إذا كان فى كرب وشدة ، وما دام بخير فلا يأتى إلى الفقير .

وقد كان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

الفقراء كبيت الخلاء لا يأتيهم إلا مخروق انتهى .

= قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه] رواه مسلم .

فإياك يا أخى أن تخل بمثل ذلك إذا صحبك أمير وأن لم تقدر على ذلك فأتـرك صحبته فإنها لحظ نفس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم مزاحمتهم على صحبة أحد من الولاة وأبناء الدنيا

قال سيدى على الخواص رحمه الله تعالى :

وينبغى للفقير أن يكثر النفرة من صحبة الأمراء ، وأن تقدم لهم بأحد منهم صحبة ، وطرأ عليهم فقير يريد أن يصحبهم كذلك حسنوا اعتقادهمْ فيه ، وصاروا يتزورون ذلك الفقير ، حتى يظن ذلك الأمير أن الفقير الأول لا يصلح تلميذا لذلك الفقير الثانى ، ثم يفسح لذلك الفقير عن صحبة ذلك الأمير بسياسة ، بحيث لا يشعر أحد بقصده .

وهذا الخلق ما رأيت له فاعلا فى أقرانى إلا القليل ، وهو من أعظم أخلاق الفقراء الصادقين ، وربما ادعاه بعضهم وهو غير صادق فيه ؛ فليمتحن نفسه ، بما لو دخل شخص من أعدائه على ذلك الأمير ، وصار يقطع فى عرضه وينقصه، حتى غير اعتقاد ذلك الأمير فيه ، ولا بقى يقدر ينظر له صورة ، فإن انشرح لذلك، فهو صادق فى المقام ، وأن تكدرت منه شعره فهو مرآى منافق فى حكم أهل الطريق .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

كل فقير يعتقد فيه ظالم ويهدى إليه شيئا إلا ويصير يركن إليه بالقلب ، ويخالف قول الله تعالى : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ [1].

وأن حصل لذلك الأمير عزل من وظيفته أو حبس على مال السلطان يمسكون ذلك الفقير ويقولون : أين ودايعه ؟ أين ماله ؟

فليوطن من يقبل هدايا الظلمة نفسه على خزى الدنيا وعذاب الآخرة والحمد لله رب العالمين .

---

[1] سورة هود آية : ١١٣ .

ومن أخلاقهم أنهم لا يقدمون على صحبة أحد من الولاة إلا إذا رأواصحبته ترجح على عدم صحبته يقينا من غير تلبيس من النفس

ثم إذا رأوه كثير الظلم ، والبلص للناس مع صحة اعتقاده فيهم تسببوا فى تجريحهم عنده بإرسال أحد من الزوالق له يقطع فى عرضهم عنده ، حتى يتحول اعتقاده فيهم .

وهذا خلق غريب قل من يفعله بل رأيت بعضهم يفسد من رآه من الأمراء يعتقد فى أخيه ، ويرسل له من يقول له : أن هذا الرجل الذى تعتقده لا يصلح خادما للشيخ الفلانى .

كما وقع لبعضهم لما صحبنى محمد الدفترادار ومحمد بن بغداد ومحمد بن عمر ، وكل ذلك لشدة محبتهم فى الدنيا التى هى رأس كل خطيئة .

فالحمد لله الذى عافانا من مثل ذلك .

وإياك أن تظن بفقير جرحه الناس عند أمير ، وتكدر أن ذلك لحظ نفس ، وإنما يجب عليك حمله على أنه تكدر غيرة على الخرقة والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : حسن سياستهم لمن يشفعون عنده من الأمراء

وإذا رأوه فى شدة غضب لا يفتحون له الباب بل يتمهلون اليوم ، واليومين ، وأكثر ، فإذا خمد غضبه شفعوا إذ ذاك .

ولما طلعت للوزير على باشاه شافعا فى محمد العبادى حين نقم عليه من كلام الأعداء فيه قال لى : ما حاجتكم ؟

فقلت له : جيت أشفع فى محمد العبادى إن كان التأديب فيه بلغ حده واستحق الشفاعة فيه ، وإن لم يكن التأديب بلغ حده فيه فنحن معكم عليه حتى يتأدب .

فقال لى : إن شاء الله تعالى ننظر فى أمره بخير .

وكان قد عزم على قتله بعد أن شفع فيه جماعة من العلماء وردهم ولو أننى قلت له : جيت أشفع فى فلان المظلوم الذى ظلمتوه بغير حـق ، لربمـا انتصـر لنفسه ولم يرجع لقولى .

فتعلم يا أخى طريق السياسة ثم اشفع [١] والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أن لا يأكلوا من ضحايا مشايخ الزوايا وغيرهم

إلا إن علموا منهم الورع ، فربما كانت ضحيتهم أرسلها لهم أحد الولاة من الذين لا يتورعون .

واعلم يا أخى أن التضحية ما شرعت إلا لدفع البلاء عن أهل البيت فى تلك السنة ، كما أن العقيقة تميط الأذى عن المولود طول عمره .

ومعلوم أن البلاء والأذى لا يندفع إلا بذبح شئ حلال أما مثل هدايا العمال فإنها غلول يزيد البلاء على أهل الدار وعلى المولود .

وهذا الخلق قد صار غريبا فقل من يتخلق به بل بعضهم يضحى بالغنم ، التى أرسلها له الكاشف أو شيخ العرب ، ويعزم على جماعته وأصحابه ، فيأكلون من ذلك ، وربما يقول بعضهم على وجه المدح لنفسه : لم آكل من طعام أحد فى هذه السنة إلا من طعام سيدى الشيخ ، كأنه يعتقد أنه أحل من طعام التجار ، ونحوهم.

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم قبولهم المساعدة فى الحج من الظلمة

فلا يقبلون شيئا فيه شبهة من جمال أو زاد أو نفقة أو غير ذلك [٢].

---

(١) تلاحظ كثرة تنبيه الإمام الشعرانى على كيفية معاملة أصحاب السلطة والأمراء ولعل ذلك راجع إلى أن رجال التصوف يهتمون دائما بأمور المسلمين وحوائجهم وقضاء مصالحهم فأراد الإمام الشعرانى بترداد تنبيهاته وضع أسس هده المعاملة .

(٢) ومن شروط الحج الاستطاعة فكيف إذا لم يستطع الإنسان الحج واستعان بأموال الظلمة على حجه ؟

وقد صار هذا عزيزا فى هذا الزمان بل رأيت من يرسل قصاده إلى الكشاف ومشايخ العرب فيسئلوا منهم المساعدة لسيدى الشيـخ فـى حجـه ويظهـرون أن سيدى الشيخ مسكين .

وبعضهم سافر بنفسه وسأل تعريضا وتصريحا ، وما هكذا أدركنا المريدين من أهل الطريق فضلا عن الأشياخ اللهم .

إلا أن يكون قصد سيدى الشيخ الإنفاق من ذلك على المضطرين فى طريق الحاج كمن مات جمله وليس معه شئ يكرى به من يحمله وزاده ونحو ذلك فهذا لا بأس به وكان عليه الشيخ محمد المنير والشيخ أبو بكر الحديدى رحمهما الله تعالى فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهة المجاورة بمكة المشرفة خوفا من إخلالهم بأدب تلك الحضرة الشريفة

وسبقهم إلى ذلك عبد الله بن عباس [١] رضى الله عنهما فسكن الطائف إلى أن مات وكذلك مالك والشعبى ومن تبعهما وكانوا يقولون ما لنا ولبلد تضاعف فيه السيئات ويؤآخذ بالخواطر فيها .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله ينهى عن المجاورة بمكة ويقول : لا ينبغى أن يجاور بها إلا من يقوم بشروطها .

فقال شخص : وما شروطها ؟

فقال : شروطها عند القوم إلا تخطر المعصية على قلب من يقيـم بهـا ، وأن لا يسئ ظنه بمسلم فيها فى وقت من الأوقات ، وإن لا يرى نفسه خيرا من أحـد من المسلمين فى سائر الأفاق ، وإن لا يبيت على دينار ، ولا درهم ، ولا طعام ، ولا ثياب ، وهو يعلم أن فى مكة أحداً محتاجاً إلى ذلك ، وأن لا يسله أحد

---

(١) هو الصحابى الجليل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما كان يسمى حبر الأمة لشدة تمكنه فى العلم ، وقد سكن الطائف ولم يسكن مكة لأن البلد الحرام تضاعف فيه السيئات ، (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم).

شيئا ويرده ولو عمامته وجوخته لا سيما أن قال له : برب هذا البيت أعطنى كذا ، وإن لا يحن قط إلى بلاده ، ووطنه ، فيصير جسده بمكة ، وقلبه فى غيرها، ومعلوم أن الحق تعالى لا ينظر من العبد إلا قلبه وإن يقلل الأكل جهده ، ولا يأكل قط ، وعين تنظر إليه إلا إن أشركها معه ، وأن يلبس هناك الهديمات والعباه دون الثياب النفيسة والمحررات لا سيما أن زاد على ذلك من البخور والروايح الطيبة ، فإن صرف ثمن ذلك فى طعام المحتاجين أولى بلا شك .

وقد بسطنا الكلام على شروط المجاورة بمكة فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : التعفف عن الأكل من صدقات الناس وأوساخهم

عملا بما اختاره رسول الله ﷺ لأهل بيته ، فإنه ما نهاهم عن ذلك إلا لمحبته فيهم وشئ أختاره رسول الله ﷺ لأهل بيته لا ينبغى مخالفته .

وقد كان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى لا يأكل من صدقات الناس ويقول : أنها أوساخ ومن أكل منها فكأنه يقول للناس : بولوا على وعلى ثيابى وتغوطوا أو ابصقوا على وجهى و تنخموا ، فإن الوسخ يشمل ذلك كله لغة وتفاوت القذارة يكون بحسب ما فى ذلك المال من كثرة المخبث وقلته[1].

وسمعته مرة أخرى يقول :

صدقة الفرض تذهب الوسخ من المال والروح ، صدقة التطوع تذهب الوسخ من البدن ، فكأن من يأكل من صدقة الفرض يلطخ روحه بالقذر ومن يأكل من التطوع يعرض بدنه للاوجاع والأورام والخراريج انتهى .

فليحذر الفقراء من قبول الصدقات ما دام أحدهم يجد الكسرة والخلقة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) وفى الحديث : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه) . متفق عليه .

ومن أخلاقهم : أن لا يطلبوا من الله تعالى أن يوسع عليهم فى الدنيا إلا إن وطنوا نفوسهم على كثرة العبادة ليلاً ونهاراً

فإن من طلب من الله تعالى الزيادة فى الرزق طالبه الله بالكثير من العمل ، ومن رضى باليسير من الرزق رضى الحق تعالى منه باليسير من العمل .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

لا يكفى الفقير الناصح لنفسه فى هذا الزمان الشكر لله تعالى بالقول باللسان فقط إلا إن كان ليس عليه خطية أما كثير المعاصى كأمثالنا ، فلا يكفيه إلا الشكر بالعمل ، فيصوم ، حتى يصير كالشن البالى ، ويقوم حتى تتورم منه الأقدام قال الله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ﴾ [1] ما قال قولوا شكرا وهذه الأمة المحمدية أولى بأن يشكروا بالعمل .

وهيهات أن يتحصل لهم من كثرة الأعمال شئ يصلح لأن يكون شكرا لكثرة العلل القادحة فى الإخلاص ، ولا يقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما كان خالصاً ، وأبتغى به وجه الله تعالى .

فأرض يا خى بالقليل من الرزق فإنه أولى لك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : صحبة مشايخهم على الصدق والوفاق دون الكذب والاختلاق والنفاق

ومن لم يكن كذلك لا ينتفع بشيخه ولو صحبة طول عمره بل ربما مقت واستحكم المقت فيه فتلف بالكلية وتعطل من أعمال الدنيا والآخرة .

وسمعت سيدى عليا الخواص رحمه الله يقول :

من علامة الصادق أن لا يحوج شيخه إلى تقوية قلبة بالحضور فى مجلس الذكر مثلا بل يداوم على ما أقامه شيخه فيه ، ومتى وجد فى نفسه كسلا أن لم يحضر معه شيخه ، فهو كاذب لا يصح لشيخه أن يمنحه أدبا من آداب الطريق

(١) سورة سبأ آية : ١٥.

لأن وعاء المنافق المخالف يمج كل خير أدخل فيه لعدم قبول محله له ومثاله مثال الصخرة التى ألقيت فى الماء ، فربما تمكث ألف سنة ولا تلين ، ولا يدخلها ماء ، فهذا المريد كالصخرة وزاوية شيخه كالبحر ، فكما لا يدخل جوف الصخرة شئ من الماء كذلك لا يدخل جوف هذا المريد شئ من خير شيخه ، ومدده الذى فى الزاوية ، ولو أن المريد المنافق مع شيخه أظهر نفاقه لشيخه ، وقال : لا حاجة لى بطريقك لكان صدق وخف مقته لكنه كابر وأدعى الصدق ، فأزداد مقتا بتعب شيخه فى نصحه ، فكلما نصحه فى شئ ، وخالف مقت ومعلوم أن حضرة الله تعالى ما كل أحد يصلح لدخولها ، ولذلك جعل الله تعالى فى طريقها الموانع والمهالك كما وضع أهل المطالب من الكفار الموانع ، والمهالك فى طريقها .

فإذا كان هذا وضعوه فى طريق شئ يجب الزهد فيه . فكيف بشئ يجب قطعا الرغبة فيه ؟ وأتى قدر للدنيا بحذافيرها إذا تركت فى طريق طلب حصول مجالسه الله عز وجل ولو لحظة من العمر ؟

ومن شك من المريدين فى أنه منافق مع شيخه ، فليعرض على نفسه ما لو قال له شيخه إرم ما معك من الدنيا أو طلق زوجتك أو أخرج من خلوتك مثلا لأدخلك حضرة الله عز وجل ، فإن فعل ذلك بإنشراح ، فهو صادق وإلا فليعلم أنه منافق ، فلا يتكدر إذا قال له شيخه : أنت منافق معى .

وفى كلام الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه : إذا كان من يعمل على الوفاق لا يسلم من النفاق فكيف . بمن يعمل على الخلاف ؟ أنتهى .

وأكثر المريدين الآن يعلمون على الخلاف ولا يوافقون شيخهم سوى باللفظ فقط .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

لا يبعد شئ من المقامات على مريد له شيخ أبدا إذا أطاع شيخه لأنه يعرف كل طريق توصل إلى أى مقام يطلبه المريد ولكن المانع خلاف المريد أو عدم القسمة . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إذا ربوا يتيما أو يتيمة وأنفقوا عليهما حتى تـزوجا مثلا أن لا يروا لهم على اليتيم فضلا

أدبا مع الله تعالى الذى هو فى كفالته .

وأيضا ، فإنهم متى رأوا لهم فضلا فقد حبط عملهم ، وذلك لأنه منّ والمنّ يحبط الأجر .

فليحذر الفقير الساذج من مثل ذلك .

وقد كان الإمام مالك رحمه الله يقول :

أهل الفضل هم أهل الفضل ما لم يروا فضلهم .

أى فإن رأوا فضلهم فقد خرجوا عن كونهم أهل فضل .

فرب يا أخى اليتيم امتثالا لأمر الله تعالى أو طلبا للأجر من الله تعالى[1]، فإذا فعلت ذلك رأيت لليتيم الفضل عليك لأن به حصل لك الأجر والثواب .

وهذا لا يصح إلا لمن كمل إيمانه بما وعد الله تعالى ، حتى صار الجزاء عنده كأنه رأى عين ، وهناك يصح له معاملة الله عز وجل فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تعظيم الأماكن التى ورد أن الله تعالى عند أهلها حاضر

كالمنكسرة قلوبهم والمرضى ومجالس الذكر ونحو ذلك .

قال الله تعالى فى بعض الأحاديث : (أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى)

وقال فى حديث : (جعت فلم يطعمنى ومرضت فلم يعدنى أما أنك لو عدته لوجدنى عنده) [2]

قال تعالى : (أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه)

---

(١) وفى الحديث : عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أن وكافل اليتم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما) ، رواه البخارى .

(٢) سبق ذكر هذا الحديث بكامله فى المقدمة .

ومن هنا كان سيدى على الخواص رحمه الله إذا عاد مريضا أو حضر مجلس ذكر ، أو دخل مسجداً يدخل بانكسار وذلة وخشية ، ويلبس الثوب المرقع ويقول : نذل بين يديه تعالى فى الأماكن التى أخبر أنه حاضر فيها لعله يرحمنا ، وإن كان هو تعالى حاضرا فى كل مكان ولكن هكذا تأدب الأكابر معه .

وفى الحديث : أنه ﷺ كان يخرج يعود المرضى فى أقصا المدينة حافيا راجلا بلا قلنسوة ولا عمامة أدبا مع الله تعالى من حيث كونه أخبر أنه عند المريض ، ومشاكلة للفقراء الذين عادهم وتشريعا لأمته الذين يفهمون الأسرار .

فأعلم ذلك وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : تعاطيهم الأسباب التى تميز صديقهم من عدوهم

ليعرفوا ما يستحقه كل واحد من اطلاعه على أسرارهم أو كتمانها عنه .

وأنا أعلمك ميزانا تعرف به محبك الصادق من غيره ، وذلك أن تمدح نفسك المدح المفرط بحضرته ، فإن انشرح وصدق بباطنه فهو محب ، وإن انقبض حاضره ، ووقف شعره منك ، فأحفظ نفسك منه ، فإنه عدو وفى صورة صديق ، ومثل هذا فليس فى صحبته إلا أنه يحصى عليك نقائصك ليهجوك بها أيام سخطه عليك ، فأحذر من هذا كل الحذر ولا يغرك مدحه لك بين الناس وجوابه عنك فى بعض الأوقات والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : أفتخارهم بزيارة الفقراء لهم

فإذا زراهم فقير لا يؤبه له يكون ذلك اليوم عندهم عيد ، لأنهم لا يرون نفوسهم أهلا لأن يزروهم أحد من الصالحين خوفا أن يقال : لولا أن فلانا من الصالحين ما زاره الشيخ فلان .

ولما كان سيدى محمد بن عنان يزور أحداً من فقراء مصر يكبر ذلك الفقير فى أعين الأمراء والمباشرين ، ويقولون : لولا أنه أمر عظيم ما زاره الشيخ محمد بن عنان لأن الشيخ محمد كان لا يعجبه كل أحد أدعى الطريق لكون

أمره ﷺ كان مبنيا على الصدق مع الله تعالى فكان إن لم يعرف لفقير مقاما عند الله تعالى لا يزوره ولو انقلب إليه جميع أهل مصر من العامة بالاعتقاد ، لأنهم كلهم محجوبون عن حضرة الله تعالى لا يعرفون من هو المقدم فيها من غيره .

وكان سيدى محمد بن عنان رحمه الله يقول :

أقل مراتب الفقير عند من يعرف مقامات الفقراء أن يعظمه كما يعظم أعظم ملوك الدنيا ، وذلك لأنه لا أعظم ممن يجالس الحق جل وعلا ليلا ونهارا ، فكل من رأوه عاكفا بقلبه على حضرة ربه أجلوه أكثر من إجلالهم للسلطان لأن السلطان ، وإن كان الحق تعالى ألبسه خلعة الملك والتصريف ، فقد يكون أكثر أوقاته غير مجالس للحق تعالى إنما هو مجالس لما هو مشغول به من جمع مال ومحاربة أعداء ، وتلذذ بمأكل ومشرب ومنكح وغير ذلك ، وهذا فإن كان مقاما رفيعاً لجمع الحق تعالى به شتات العالم ، فثم ما هو أرفع منه وهو الاشتغال بالله وحده فأفهم .

فعلم مما قررناه عدم افتخار الفقراء الصادقين بتردد أحد من الولاة إليهم من باشاة ودفتردار وقاضى عسكر وشيخ عرب ونحوهم خلاف ما عليه بعض المشايخ الذى ظهروا وفى النصف الثانى من القرن العاشر ، فربما زارهم أحد من الولاة فيصير كالشاعر لكل من دخل عليه ممن لا يعلم بزيادة ذلك الأمير ، فيقول أمس كان الدفتردار أو قاضى العسكر عندنا ، ويصير يفتخر بذلك ، كأنه اجتمع بالإمام الشافعى أو بسيدى أحمد البدوى رضى الله عنهما ، وهذا كله من علامات الإفلاس فى الطريق ولو أنه عرف طريق الفقراء ما افتخر بأحد من أبناء الدنيا المحجوبين عن الله عز وجل .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

سمعت سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

كل فقير افتخر بزيارة أحد من الأمراء له فهو نصاب مرائى لم يشم من طريق الفقراء رائحة .

قال سيدى على الخواص :

وقد كان السلطان قايتباى وأمير كبير وغيرهما يزور سيدى إبراهيم المتبولى فى بركة الحاج ، وما سمعناه قط يذكرهم بعد أن يخرجوا من عنده ولا يمدح ولا يذم انتهى .

وكان سيدى محمد العدل رحمه الله يقول :

من كان مفتخرا بالزائرين فليفتخر بزيارة الفقراء الذى لا يؤبه لهم فإنهم هم الذين ينبغى الافتخار بمحبتهم لمدح الله تعالى لهم ، أما الملوك والأمراء فصحبتهم عار يوم القيامة ، وكل فقير رأيتموه يفتخر بتردد أبناء الدنيا له ، فأعلموا أنه لم يدخل حضرة الله تعالى أبدا لو كان له شعرة وعمامة صوف وعذبة .

وقد سمع سيدى محمد بن عنان شخصا من جماعته يحكى لبعض الناس ، ويقول له : ما دريت أن السلطان طومان باى زار سيدى الشيخ البارحة ، فزجره سيدى محمد ، ومقته وقال :

إن كنت يا فلان لا ترى تعظيم شيخك إلا بزيادة أحد من الأمراء له فأنت لم يحصل لك شئ من الطريق انتهى .

وقد رأيت الباشاه ملك الأمراء زار شيخا فى مصر ؛ فصار كل باشاة أتى بعده يزور ذلك الشيخ إلى أن جاء الباشاة على ، فزار ذلك الشيخ وقال : قلبى يحدثنى أن هذا الشيخ دنياوى لم يشم من طريق الفقراء رائحة فقيل له : بما تعرفون ذلك فقال : نعرف ذلك بالأنس الذى يحصل فى قلوبنا إذا رأيناه أو جلسنا عنده فقال له شخص : فلم تزوروه بعد ذلك فقال : هذا من حكم القانون أن كل أمير جاء فمن العقل أن يزور من كان يزوره من قبله ولو لم نعتقده سترة لذلك الشيخ لا اعتقادا فى صلاحه انتهى .

وأعرف شخصا زاره الباشاة محمد مرة ثم انقطع عنه ، فصار كل من دخل عليه من الفقراء والمباشرين وغيرهم يقول له : زارنى الباشاة وقلت له : كذا وقال لى: كذا واستأذننى فى التردد إلى فلم آذن له ، وذلك كله كذب وزور ، ثم بعد ذلك صار كل شيخ عرب اجتمع به أو محتسب يقول له : أمس كان عندنا الباشاة وأجرينا له ذكركم ومدحناكم عنده فيفارقه ذلك الشيخ عرب أو المحتسب ،

ويرسل له الأصواف الرفيعة والقمح والسمن والعسل والأرز وغير ذلك كأن ذلك النصاب يقول لشيخ العرب أو المحتسب : أن لم تحسن إلى تكلمت فى حقك للباشاة كلمة فأخربت ديارك ، ومثل هذا الشيخ معدود من جملة الظلمة الذى يأكلون أموال الناس بغير حق فموته رحمه به وبالإسلام فأعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة رحمتهم لمن قدر الله تعالى عليه شيئا من المنكرات التى هى من علامات الساعة بالنص أو الكشف أكثر من رحمتهم لغيره

لكن تكون الرحمة له باطنا ، ثم لابد من الإنكار ظاهرا قياماً بواجب الشريعة ولأن لا يفتح باب الاحتجاج من الناس لأفعالهم المخالفة للشريعة ويقول : أيش كنت أنا هذا أمر أخبرنا الشارع أنه من علامات الساعة ؟

فيقل الندم والحزن من الناس على العاصى فتنتهك الشريعة .

على أنه ما كل علامات الساعة مذمومة بل فيها ما هو مذموم ، ومنها ما ليس بمذموم .

فمن المذموم :

استغناء الرجال بالرجال والنساء بالنساء .

وانتساب الناس إلى غير مناسبهم وانتماؤهم إلى غير مواليهم .

وعدم توقير الصغير للكبير وعدم رحمة الكبير للصغير .

وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وتعلم الناس العلم ليجلبوا به الدراهم والدنانير أو ليجادلوا به العلماء ويماروا به السفهاء ويصرفوا به وجوه الناس إليهم .

وبيع الدين بالدنيا .

وقطيعة الرحم .

وبيع الحكم .

وأكل الربا .

وتطويل المنارات .

وتفضيض المصاحف .

وزخرفة المساجد .

وتشييد البناء .

واتباع اللهو وإن يطيع الرجل زوجته ويعق أمة .

ومن العلامات التى ليست توصف بذم .

أن يكون المطر قيظاً .

والولد غيظاً .

والغنى غرا.

ويسود القبيلة فاسقها .

ويركب النساء السروج .

ويخرج الرجل من بيته فيقوم إليه من هو خير منه فتسلم عليه (١) .

---

(١) يقول ابن ماجة فى سنته : حدثنا محمود بن خالد الدمشقى حدثنا سليمان بن عبد الرحمن ، أبو أيوب ، عن أبن أبى مالك ، عن أبيه عن عطاء بن أبى رباح ، عن عبد الله بن عمر ، قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : يا معشر المهاجرين ، [خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لن تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذى مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله ، وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويجهروا بما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم .

وروى الترمذى : حدثنا صالح بن عبد الله ، حدثنا الفرج بن فضالة السامى أبو فضالة عن يحى بن سعد عن محمد بن عمر بن على ، عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ: إذا فعلت أمتى خمس عشرة خصلة حل فيها البلاء ، قيل ما هى يا رسول الله ؟ قال : إذا كان المغنم دولا والأمانة مغنما ، والزكاة مغرماً ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر=

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمة الله يقول لأصحابه :

من أدرك منكم النصف الثانى من القرن العاشر فلا يتصدر لإزالة المنكرات إلا إن أعطاه الله تعالى الكشف الصحيح ، فيعرف المنكرات التى هى من علامات الساعة والمنكرات المعلقة على إنكار من يريد إزالتها من العلماء والأكابر ، فإن رآها من علامات الساعة ، فليعلم أنه مغلوب ولا يقدر على ردها ، فليخفف فى التعب فى طلبه إزالتها وإنما طلب إزالتها ظاهرا نصرة لجانب الشرع وأن رآها ليست من علامات الساعة ، فليشدد فى إزالتها جهده بخلاف ما رآه من علامات الساعة ، فإن المعارضة فى ذلك كالسعى فى خلف ما وعد به الصادق المصدق انتهى .

فعلم أن الأمر بالمعروف والنهى المنكر واجب على الدوام إلى قيام الساعة بحسب القدرة عليه ، وإنما الكلام فى التشديد وعدمه .

وقد غلب أهل الباطل الآن على أهل الحق فى أكثر الأحكام وصارت المحرمات بالإجماع بين أظهرنا لا يستطيع أحد إزالتها بل لو قدر أن أحدا قام فى إزالتها خرج الناس عليه ، حتى كأنه أتى منكرا لقلة من يرونه ينكر ذلك فى زمانهم وصدق رسول الله ﷺ فى قول : (لا تقوم الساعة حتى تصير السنة بدعة) يعنى عند غالب الناس .

فإياك يأخى أن تبادر إلى تجريحك لعلماء عصرك فى عدم إنكارهم المنكر وتقول: ما بقى أحد يغار على دين الله تعالى بل يجب حملهم على العذر الصحيح ، وإن شككت فى قولى هذا فاجمع لك جماعة ، واذهب بهم إلى مواضع المكوس ، وأمنع المكاسين أن يقبضوا المكس ، وتنظر ما يقع لك أن المكس محرم بإجماع

=صديقه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، وشربت الخمر ، ولبس الحرير ، واتخذت الفيتات والمعازف ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليرقبوا عند ذلك ريحا حمراء أو خسفا ، أو مسخاً .

وقد أفاض الإمام أبن كثير فى ذكر أشراط الساعة وغيرها من أمور يوم القيامة فى كتابة النهاية ، فليرجع إليه من أراد التوسع فى ذلك الموضوع .

المسلمين ، وإن قال لك شخص : لإطاعة المخلوق فى معصية الله تعالى إذا أمر بها فقل له : السلطان أتم نظرا منى ومنك فربما أخذ ذلك بوجه شرعى لا تطلع نحن عليه يرجع نفعه على المسلمين عامة ، ومعلوم أن مثلك لا يكون ناصحا لمثل مولانا السلطان إلا بعد تقديم مقدمات .

وما كل ما يعلم من منكرات الشريعة يقدر الناس على إزالته إلا بتأييد من الله عز وجل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : زيادة المحبة والتعظيم لكل من ينصحهم فى دينهم وزيادة البشاشة له دون العبوسة لألا يقطع عنهم النصح .

وقد نصحنى مرة شخص فأعطته جوختى وأظهرت له البشاشة ، فصار من أصحابى إلى الآن وقد كان متين بما ينصحنى فجزاه الله عنى خيرا ، فإن الناصح قد صار فى هذا الزمان أعز من الكبريت الأحمر .

وقد أقسمت بالله تعالى على جماعة كثيرة من أصحابى أن ينصحونى فلم يفعلوا وصاروا يجيبون عنى ويغشونى ، وهم يحسبون صنعا ، فالله تعالى يغفر لهم ويكشف عنهم حجاب الطبع حتى يشهدوا أن نصحهم خير لى [1] ، فيرضوا الحق تعالى عنهم ويرضونى عنهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) يقول السهر وردى فى عوارف المعارف : سئل أبو حفص عن أدب الفقراء فى الصحبة ، فقال : حفظ حرمات المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر وترك صحبة من ليس فى طبقتهم ، وملازمه الإيثار ، ومجانبة الادخار ، والمعاونة فى أمر الدين والدنيا .

فمن أدبهم التغافل عن زلل الإخوان ، والنصح فيما يجب فيه النصيحة وكتم عيب صاحبة وإطلاعه على عيب يعلم منه .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله أمرءاً أهدى إلى عيوبى .

وهذا فيه مصلحة كلية تكون للشخص ممن ينبهه على عيوبه .

قال جعفر بن برقان : قال لي ميمون بن مهران : قل لى فى وجهى ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه ما يكرهه فإن الصادق يحب من يصدقه ، والكاذب=

ومن أخلاقهم : قيامهم بواجب حق والديهم

فلا يرفعون صوتهم عليهما ، ولا يبخلون عليهما بشئ يطلباه منهم .

وقد جاء الأمر ببر الوالدين والنهى عن عقوقهما ، ولم يخص الشارع ﷺ شيئا معينا من البر بل أوجب برهما مطلقا ، وحرم عقوقهما مطلقا [١] .

وتأمل يأخى فى السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام كيف نادى أباه بالأبوة بقوله ﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ [٢] دون أن يناديه باسمه إجلالا له مع

=لا يحب الناصح ، قال الله تعالى . (ولكن لا تحبون الناصحين) ، والنصيحة ما كانت فى السر .

(١) قال الله تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم) .

وقال تعالى : (ووصينا الإنسان بوالديه حسناً) .

وقال تعالى : [وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلا هما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب أرحمهما كما ربيانى صغيراً] .

وقال تعالى : [ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك] .

وفي الحديث : عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت النبى ﷺ : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟

قال : الصلاة على وقتها .

قلت : ثم أى ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أى ؟

قال : الجهاد فى سبيل الله) متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله ﷺ : (لا يجزى ولد والداً إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه) رواه مسلم

(٢) سورة مريم آيه : ٤٤ .

أنه كان غير مؤمن ، فإذا كان من دعى أباه يكون عاقا فكيف بمن جفاه وبخل عليه بالنفقة وغيرها وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من أدب الولد مع والديه أن يرفع صوته فوق صوتهما ، ولا يأكل معهما فى إناء إلا على وجه الإيثار لهما على نفسه لأنهما أصل له وهو فرع منهما .

وقد كان عمر بن عبد العزيز لا يأكل مع والدته ، ويقول : أخاف أن تسبق عينها إلى رطبة أو عنبة ، فآكلها ولا أشعر انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم :عدم سؤالهم ربهم أن يعطيهم المنازل الرفيعة فى الجنة إلا بعد توطينهم نفوسهم على كثرة الصبر على البلايا والمحن فى هذه الدار

فإن حصول المنازل العالية لكل مؤمن مقرون بذلك .

ومن هنا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعلا الناس درجة فى الجنة لكونهم أشد الناس بلاء كما ورد .

فوطن نفسك ياخى على كثرة البلاء فى جسمك ومالك وولدك وعرضك ، ثم أطلب القرب من حضرة ربك [1].

---

(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) متفق عليه .

وسئل الجنيد عن الصبر ؟

فقال هو تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال ذو النون : الصبر : التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال ابن عطاء : الصبر : الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقيل : هو الفناء فى البلوى بلا ظهور وشكوى .

قد ورد أن الله تعالى أوحى إلى السيد موسى عليه الصلاة والسلام لما دخل على مبتلى ، وقال : يا ربه عافه من هذا البلاء يا موسى تسلنى له العافية ، وقد سبق فى علمى أنه من أهل الجنة ، والجنة لا تنال إلا بالبلاء .

وقد بلغنا أن الله تعالى لما ابتلى عبده زكريا عليه الصلاة والسلام بالنشر أنَّ تحت المنشار لما وصل إلى دماغه وقال : آه ، فأوحى الله إليه .

أما تقدم منك طلب القرب منى ؟

أما علمت أن أهل حضرتى أكثر الناس بلاء ؟

أما علمت : أن من أسمائى الصبور ؟ لئن قلت آه مرة ثانية لأمحون اسمك من ديوان النبوة .

قلت : لا يصح سلب نبى من نبوته فى الشريعة لعصمته ، فإن صح ذلك عن الله تعالى فى حق نبى ، فهو من حضرة الإطلاق التى يفعل الله تعالى منها ما يشاء والله سبحانه أعلم .

فأنظر يا أخى كيف كلف تعالى نبيه بالصبر تحت المنشار ، وأوجب ذلك عليه لكون منزلته عنده عالية .

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام اصبر على جفا خلقى كما صبرت أنا على من يأكل رزق ويعبد غيرى ولم أعاجله بالعقوبة انتهى . فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : إكرام الخبز

ولا ينتظرون الادم بعد ما حضر الرغيف إلا لعذر ، ولذلك من إكرامه تقبيله ، ووضعه على العين ، ووضع السفرة تحته ، وعدم التساهل فى وضعه على الأرض أو رميه بفناء جدران البيت فى الغبار .

وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ دخل بيت عائشة رضى الله عنها فرأى كسرة يابسة ملقاة فى جانب الحائط ، وقد علاها الغبار ، فتقدم ﷺ إليها ، ونفخها من الغبار ، ثم وضعها على عينيه وقال : (يا عائشة أحسنى مجاورة نعم الله تعالـــى

فإن النعمة قل ما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليها) انتهى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى .

ما ورد من النهى عن الأكل على الخوان كما تصنع الأعاجم محله ما إذا كان ذلك على وجه الكبر ، أما الأكل على خوان تعظيما لنعمة الله تعالى ، فذلك مطلوب ، فإن تعظيم نعمة الله تعالى من تعظيم أمر الله ، وما غلت المحبة ، وغيرها قط إلا باستهانة الناس بها على جارى عوايد الله تعالى فى تأديب عباده إذا خرجوا عن الأدب .

قال الله تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

فمن لم يرجع إلى الله تعالى بإحسانه رجع إليه بعقوبته وقد بسطنا الكلام على ذلك أواخر الباب الثانى عشر من المنن الكبرى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كراهتهم الاجتماع بالمريد الذى أخذ عن أحد من أقرانهم إلا لضرورة شرعية

خوفا عليه أن يتزلزل عن محبة شيخه بإحسانه إليه أو يحتقرهم ، ويعظم شيخه فيمقت لاحتقاره لهم أو يعظمهم على شيخه فيخون عهده .

وما للمريد فى زيارة غير شيخه فائدة ما دام متقيدا على شيخه ، فإن خرج من تحت طاعته لعذر شرعى ، فلا بأس باجتماعه على غيره بل قد يحب ذلك ليربيه ، ومعلوم أن التربية من الأغراض الصحيحة كما بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب قواعد الصوفيه والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٦٨ .

ومن أخلاقهم : أن أحدهم لا يقول لأخيه أنى أحبك إلا بعد أن تسمح نفسه بمقاسمته فى ماله وحسناته لأن لا يكذب

وقد سار هذا الخلق اليوم نادرا فى فقرا العصر ، ولا أعلم الآن من تحقق به فى مصر من أقرانى إلا سبعة أنفس وقد امتحنتهم ، فوجدتهم محبين لى بحيث لو طلبت منهم مالهم كله لأعطوه لى بطيبة نفس ، فرضى الله عنهم .

وقد امتحنت شخصا أدعى محبتى وله نحو سبعين نصفا كل يوم .

وقلت له : رتب لى كل يوم نصفا منها .

فقال : لا تطيب نفسى بذلك ، فأصبر حتى أجد نية صالحة ، فله الآن نحو عشرين سنة ما وجد نية صالحة ، فالله تعالى يغفر لنا وله آمين .

فاصحب يا أخى الناس فى هذا الزمان ولا تطالبهم بالحقائق إلا إن كنت متخلقا بما تدعوهم إليه فتعطيهم أنت الآخر ما معك إذا احتاجوا ، إليه ، وإن كان ذلك نازلا عن أخلاق القوم من حيث أنه متاجرة لأجل أعمالك الصالحة فى الدارين.

وإن كنت متجردا عن المال فامتحن نفسك بإعطائهم دارك أو خولتك أو وظيفتك أو جوختك أو عمامتك إذا كانوا أحوج إليها منك أو نحو ذلك من أسبابك [١] والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : محبتهم لنسائهم محبة أخوة فى الإسلام

كغيرهن لا محبة طبع ، فكلما ازدادت زوجتهم من الأعمال الصالحـة كلمـا

---

(١) يقول الإمام السهروردى فى عوارف المعارف : ومن أدبهم أن لا يرون لنفسهم ملكا يختصون به .

قال إبراهيم بن شيبان : كنا لا نصحب من يقول نعلى .

وكان من أخلاق السلف : أن كل من احتاج إلى شئ من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة.

قال الله تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) أى مشاع هم فيه سواء .

زادوا فى محبتها ، وكما نقصت من الأعمال الصالحة كرهاه ، وأن كانت مطاوعة لهم فى جميع ما يأمرونها به من أمر الفراش ، والرضى بالقليل فى المطعم والملبس كل ذلك إيثارا لجناب الحق على جناب حظوظهم .

وقد كانت رابعة العدوية تقول لزوجها :

لا تظن أنى أحبك محبة الأزواج إنما أحبك محبة الأخوة فى الإسلام رضى الله عنها .

فعلم أن المرأة التاركة للصلاة يجب بغضها فى الله عز وجل لأنها تركت عماد الدين كله ، وهذا قل من يتخلق به الآن من الأقران بل بعضهم لم يزل يتزوج ويطلق كلما قالوا له : أن فلانة امرأة جميلة سمينة لها مال وجهاز مع أنه يدعى الصلاح .

وسيأتى فى هذا الكتاب عن سيدى عبد الله المنوفى شيخ الشيخ خليل صاحب المختصر فى مذهب المالكية رضى الله عنهما أنه كان متزوجاً جارية نوبية كبيرة الأنف والشفتين والقورة والأسنان سائلة المخاط ، وكان يقدم لها نعلها ، ويقول لها : اجعلينى فى حل فإنى ما كنت أصلح لمثلك ، حتى قال بعض الطلبة يوما : والله أن نفوسنا تتكلف لرؤيتها فكيف تقيم أنت معها وتضاجعها ؟ فقال : والله يا أولادى أن أهوال يوم القيامة ما تركت فى بقية لشئ من شهوات الدنيا انتهى . هكذا درج الأشياخ رضى الله عنهم .

وكان سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول :

المرأة الحسناء تصيبك فى باطنك والشوهاء تصيبك فى ظاهرك ، وما يصيبك فى ظاهرك أهون مما يصيبك فى باطنك الذى هو محل نظر الحق تعالى إليك انتهى.

فعليك يأخى بالمجاهدة والرياضة لنفسك إن طلبت أن تحب زوجتك لأجل دينها لأجل الاستمتاع بها ، وإلا فأنت بعيد عن هذا المقام ، وبالجملة فإذا كان بعض الفقراء فى هذا الزمان قد غرقوا فى شهوات بطونهم وفروجهم فما بالك بغيرهم ، فالله يلطف بنا وبكل غافل عن أخرته وربه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم لصحبة أحد إلا بعد امتحانه فى أمور دينه لأن من لا ينفع نفسه لا ينفع غيره

اللهم إلا أن يريد أن يتتلمذ لهم ليربوه فلا بأس بذلك من غير امتحان فكلامنا إنما هو فى أصحاب الأنفس الردية الذين لا يعجبهم أحد من الفقراء فى بلدهم .

وفى كلام الشيخ تاج الدين بن عطا الله : لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه .

وقد خالف هذا الخلق أقوام وبادروا إلى صحبة الناس من غير تجربة ثم تقاطعوا بعد ذلك وصار كل واحد منهم يحكى عن صاحبه ما هو أهله .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تقول :

من صحب الأخرق فلا يلومن إلا نفسه فربما أراد نفع صاحبه فضره أو قتله كما حكى أن شخصا نحالا صحب أخرق ، فكان الذباب يعف على وجه النحال فرآه يوما ، وقد نام وعف الذباب على وجهه ، فقال الأخرق : أن نشيته عنه عاد إليه ثانياً ، ولكن اقتل الذباب خير له من نشى له ، فحل حجرا عظيما وألقاه على وجه النحال ليقتل الذباب ، فرضح رأسه فمات ، وطار الذباب يمينا وشمالا لم يصب الحجر منه شيئا فالعاقل من أعتبر والحمد لله رب العالمين .

من أخلاقهم إدمان إمساك السبحة للتسبيح عليها

وإن كانت قلوبهم صارت ذاكرة لا تغفل عن الله تعالى كما مر اقتداء بالسلف الصالح فى ذلك .

وقد أنكر شخص على بعض الفقراء تسبيحه على المسبحة ، وقال : هذا بدعة فصنف الجلال السيوطى فى ذلك مؤلفا ذكر فيه أن أول من أحدث المسبحة التى هى الخرز الحسن البصرى ، ثم تداولها أشياخ الطريق من بعده إلى عصرنا هذا من غير نكير فيما بينهم ، وأنها نظير ما ورد فى التسبيح على الحصا وعقد الأصابع .

وكان حسن البصرى ، والجنيد ، وغيرهما إذا قيل لهم : مثلكم لا يحتاج إلى سبحة يقولون : شئ استعملناه فى بداية أمرنا لا نتركه فى نهاية أمرنا ، وفى رواية عن الجنيد : شئ دخلت به إلى حضرة ربى لا أتركه .

وكان يقول : أحب أن أذكر الله تعالى بقلبى ويدى وسبحتى ولسانى انتهى .

وبالجملة فالإنكار على مثل من يسبح على سبحة كالتنطع فى الدين ، ولا ينبغى التشديد فى الإنكار إلا على شئ يهدم أركان الشريعة ، وكل مريد طالب شيخه بالدليل على كل شئ أمره به شيخه أو على كل شئ رآه ، يفعله فأنه خير كثير فأعلم ذلك . والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الدعاء لأنفسهم

ولو شهدوا فى نفوسهم أنهم أفسق الناس لأنهم عبيد ، والعبد لا براح له عن باب سيده ، ولا غنى له عنه فى وقت من الأوقات فى الدنيا والآخرة ، وهو تعالى يحب من عبيده إظهار الفاقة والحاجة له (١).

وإنما كان بعض العارفين يتوقف عن الدعاء للناس ، حتى يتوب من كل ذنب

---

(١) يقول الله تعالى : (أدعوا ربكم تضرعا وخفية) .

وقال عز وجل (وقال ربكم أدعونى استجب لكم) .

فى الحديث : عن أنس بن مالك ﷺ ، أن رسول الله ﷺ قال : (الدعاء مخ العبادة) .

يقول الإمام القشيرى : والدعاء مفتاح الحاجة ، وهو متروح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرين ، ومتنفس ذوى المآرب ، وقد ذم الله سبحانه وتعالى قوما تركوا الدعاء فقال : (ويقبضون أيديهم) قيل ، لا يمدونها إلينا فى السؤال .

وقال سهل بن عبد الله : خلق الله تعالى الخلق وقال : ناجونى ، فإن لم تفعلوا فانظروا إلى ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا منى ، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابى ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بى .

وقال الأستاذ أبا على الدقاق : قال سهل بن عبد الله : أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال ودعاء الحال : أن يكون صاحبه مضطراً لا بد له مما يدعو لأجله .

فعله ، ثم بعد ذلك يدعوا احتياطاً للسائل الذى سأله أن يدعوا له ، حتى يجاب دعاؤه بسرعة ، وإلا فالدعاء مطلوب منا فى كل وقت وحال .

وبلغنا عن سفيان بن عيينه أن كان يقول :

لا يمنع أحدكم من الدعـــاء ما يعلمه من نفسه ، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين ، وقد أجاب سؤال شر الخلق أجمعين ، وهو إبليس فأنظره إلى يوم الدين أجابه لسؤاله مع أنه أبغض الخلق إليه تعالى : وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة محبتهم وإجلالهم العلماء

وإن لم يعملوا بما علموا من حيث كونهم حملة شريعة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ وأمناؤه على شرعه كما مر وقد أمرنا بمحبتهم ، ونهينا عن بغضهم إلا بطريق شرعى .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من أبغض عالما فقد أبغض من يحبه رسول الله ﷺ ، ومن أشد مكايد الشيطان بالعامة أن يبغضهم فى علمائهم ، فلا يصير أحدهم يسمع شيئاً مما معهم من العلم ، حتى يضلوا ، ومن هنا حط الصوفية على فقرا المطاوعة أشد الحط لكونهم يبغضون العلماء وليس مع أحد منهم كتاب ولا سنة يستضيئ به فى ظلمات الجهل وصنفوا فيهم مصنفات ، وأقاموا على إبطال طريقهم البراهين نصيحة لهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة استغفارهم كلما اعتقد الناس فيهم الخير

وهم فى الباطن على خلاف ذلك ، وما دام لهم سريرة يفتضحون بها فى الدنيا والآخرة لو انكشفت فاللائق بهم كثرة الاستغفار ، والخوف لتلبيسهم على الناس ، فإذا تخلقوا بما ظنه الناس فيهم كان لهم حكم آخر .

فإن من شرط الكامل أن يشهد كما له ونقصه معاً ليعطى كلا منهما حقه من الشكر والاستغفار ، وما دام ناقصاً ، فهو تحت حكم ما شهده من نقص أو كمال فى حالتين مختلفتين لأنه صاحب عين واحدة بخلاف الكامل فإنه صاحب عينيـن أو أعين لا تراحم عين صاحبتها وقد كان عتبة بن غزوان الصحابى ﷺ يقول : أعوذ بالله تعالى أن أكون فى نفسى عظيما وعند الله تعالى صغيراً انتهى .

ثم إن هذا الخلق قليل من يتحقق به والغالب فى الناس محبتهم لكثرة اعتقاد الناس فيهم فوق ما يستحقونه ، ولا يكاد أحدهم يستغفر من ذلك فليتنبه الصادق لما قلناه من التفصيل والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم أكلهم من المال المشترك إذ أتاهم به أحد الشريكين قبل القسمة وقبل القرعة

سواء كان ذلك فى البقول أو الثمار كالكراث والجزر والقمح والفول الأخضر مثلا ، والقصب الذى يعصر منه العسل ولا يكفى المتورع أن يأكل مما أتى به الشريك إليه وقال : كل على ذمتى ، فأنى جعلت له نظيره ، فإن ذلك لا ينضبط بالحرص والتقدير عادة وقد أرسل لى صاحبنا سيدى محمد بن الموفق قصبا نحو مائة وخمسين عودا وقال : مصوا هذا فأنى عددت لشريكى مثلها ، فلم أمص منه شيئاً لأن الأعواد لا تنضبط بالعدد لاختلافها فى الطول والغلظ والحلاوة وغير ذلك، فلو أنه قسمه بالقرعة الصحيحة لربما كنت أكلت منه .

فإياك يا أخى والأكل من الأمور المشتركة كالفول الأخضر والفريك ونحو ذلك إلا بإذن الشريكين ، فإنها من قسم الشبهات والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم وقوعهم فى خديعة أو غدر لأحد إلا بطريق شرعى

فإن ذلك معدود من البغى ، وهو يعود على صاحبه ، ويتوارثه ذريته من بعده ويعاقبون عليه إلى سابع ولد كما جرب ذلك .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

من غدر صاحبه كان الكلب أشرف همة منه لأنه لا يغدر صاحبه ، ولا من أحسن إليه يوما من الدهر ، فإياكم والغدر فإنه يتفرع منه المكر والبغى والخديعة ويحرم صاحبه فوايد الدنيا والآخرة إذا عرف بذلك بين الناس والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يبادروا إلى الإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاة ويفرقها على الناس إلا أن علموا أنه لا كشف عنده

يعرف به من له رزق فى تلك الدراهم أو ذلك الطعام ، فإن علموا أنه من أهل ذلك الكشف ، فليس لهم الاعتراض عليه لأنه إنما يأخذ ذلك المال ليوصله إلى أربابه الذين ظلمهم ذلك الظالم ، فهو كالذى يسعى على الأرامل والأيتام ، وينفق عليهم من كسبه على حد سواء وإن تفاوت التعب ، فأعلم ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن لا يتخذوا من النقباء إلا من يكون أمينا عفيفا لا يسرق ولا يخون ولا يفضل نفسه على إخوانه ولو سراً

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

الخيانة والسرقة أمران مهلكان .

قال : والفرق بينهما أن السارق هو من يسرق ما لم يؤتمن عليه والخائن من سرق ما أئتمن عليه ، وقد جعل رسول الله ﷺ الخيانة من علامة النفاق ، والمنافق لا يفلح يقيناً .

قال : وقد أوحى الله تعالى إلى السيد موسى عليه الصلاة السلام أحذر من الأمين ولا تأمن الخائن فإن القلوب بيد غيرك انتهى .

وكان سيدى إبراهيم المتبولى رحمه الله يقول :

الخيانة تذهب بالبركة كما يذهب الحرام كثيرا من الحـلال ، ومـن خـان فى

درهم أو لقمة جره ذلك إلى الخيانة فى ألف ، وكذلك القول فى السرقة ، وما وجدنا قط سارقا ولا خائنا إلا وهو قصير الذيل والبركة ممحوقة من يده ودينه وماله انتهى.

وقد أقمت أنا نقيبا فى الزاوية على الفقرا ، فأحتاج إلى شئ من العسل ، فقلت له : خذ حاجتك ، فأخذ بقدر نصيب عشرة أنفس من الفقرا ، فعلمت أنه قليل الدين ، فمن ذلك اليوم عزلته ولم استأمنه ؛ وعلمت أن النقيب الأمين قل وجوده، وما بقى إلا النقباء المتفاوتون فى الخيانة ، فالشيخ يستعمل أقلهم خيانة عند الحاجة إليه والفقرا وليهم الله تعالى وكل من خانهم محق الله تعالى البركة من دينه وعمره وساير ما يتقلب فيه وقد كان الأشياخ المتقدمون لا يجعلون نقيبا إلا من علموا أنه يخشى الله تعالى بالغيب بأن يكون ثانى مرتبة للشيخ فى العلم والأدب ، وهذا أمر قد تورع منه ما بقيت الدنيا بل ربما كان الشيخ الآخر ممن يخون الفقرا ، ويأخذ لنفسه ما جاء على اسمهم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن أخلاقهم شدة تفتيشهم على كل لقمة تدخل جوفهم

لاسيما فى رمضان، فلا يأكلون إلا الحلال وإن لم يجدوه طووا ، حتى يحصل لهم الاضطرار قبل أكلها كما تقدم بسطه فى الكتاب مراراً ، وتقدم أن أوائله بأن تصير الأمعاء تلذغ بعضها بعضاً .

وهذا الخلق قل من يعمل به فى هذا الزمان ولذلك كان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى لا يأكل قط من طعام مشايخ الزوايا ويقول :

إنه أخبث الطعام لكونهم يقبلون هدايا من الظلمة والعمال ومن لا يتورع من المباشرين والتجار .

ويقول : إذا كان الفضيل بن عياض يقول :

أن من يأكل الحلال بدينه أقبح ممن يأكل الحرام بالطبل والمزمار .

فكيف بمن ليس له كثير من العبادة والنسك لينصب به على الناس بـل قنـع

بلبس الزى وصار كالتمساح نسأل الله العافية .

وقد أوحى الله تعالى إلى السيد موسى عليه الصلاة والسلام يا موسى : إن أردت أن تجاب دعوتك فصن بطنك عن الحرام وجوارحك عن الأثام .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يأمر امرأة بالغسل من بول صبى الذى لم يأكل غير اللبن ويقول :

إن غالب طعام أمة حرام لأن زوجها مكاس .

فقلت له : إن الشارع أطلق الرش من بوله .

فقال : صحيح ولكن هذا من الورع .

وسمعته مرة أخرى يقول :

من أكل الحرام ، وأطال فى العبادة ، وقيام الليل ، فهو كالحمام الذى رقد على بيض فاسد ، فهو يتعب نفسه فى طول المقام عليه ثم لا يفرخ شيئا بل يخرج كله مذراً .

وكان الإمام سفيان الثورى رحمه الله يقول : كنت وأنا آكل الحلال أقرأ الآية من القرآن العظيم فيفتح على منها سبعون باباً من العلم ، فلما أكلت من طعام من لا يتورع صرت أكرر الآية زماناً ، فلا يفتح لى منها باب واحد من العلم انتهى .

فإياك يا أخى والأكل من الشبهات ثم إياك[1]

---

(١) وفى الحديث : عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) متفق عليه .

وعن أنس ﷺ : أن النبى ﷺ وجد تمرة فى الطريق فقال : (لولا أنى أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها) متفق عليه .

ومن أخلاقهم إذا صار أحدهم موردا للأمراء والأكابر أن لا يمدح أحدا منهم بحضرة عدوه

وإنما اللائق أن يذكر عنه أنه يحبه بقصد التأليف بينهما حسب الطاقة .

وقد أخل بهذا الخلق جماعة من الساذجين ، فمدحوا العدو عنه عدوه ، ونقلوا ما قبله هذا فى حق هذا فارموا بينهم ، فاشتدت العداوة أكثر مما كان يفعله الفسقة بينهم ، وذلك لأن كل واحد منهم يقول : سيدى الشيخ لا يكذب ، وحاشاه أن ينقل باطلا وما دروا أن الشيخ صار فاسقا بذلك ، فلا يقبل قوله ، فليتنبه الفقير لمثل ذلك فى هذا الزمان وليعفف عما بأيدى الولاة جهده ، فإنه لا يوقعه فى ذم أحد أو مدحه إلا الطمع والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إقامة العذر باطنا للأمير الذى يتولى ولاية كان عاهدهم أنه يعدل فيها إذا وليها

ولا يطالبونه بالوفا بما كان قد عاهدهم عليه إلا أن وجدوا له قدرة شرعية على ذلك ، فإن المعزول إنما يتكلم بلسان عزله ، وانكساره ، فإذا تولى تكلم بلسان العز والاستكبار ، ومن هنا قال الإمام الشافعى ﷺ : إذا ولى أخوك ولاية فارض منه بعشر الود الذى كان يودك به قبل ولايته .

وقد تقدم أن مقام ألوفا بالعهد إنما يكون للأنبياء وكمل ورثتهم ، وأما غيرهم فقد يعاهد ربه عز وجل على شئ ولا يوفى به فضلاً عن عباده .

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [1] إلى آخر النسق .

وقد قالوا : بين التحقيق والفرض والتقدير كما بين السماء والأرض .

---

[1] سورة التوبة آية : ٧٥ .

فأعذر يا أخى كل من تولى ولاية فى هذا الزمان من أصحابك فى عدم إقامة العدل والمعروف فيها بطريقة الشرعى ، ولا تطلب منه الاستقامة بالكلية فإن ذلك لا يتيسر لأكابر الناس فضلاً عن غيرهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم أن يعظوا كل أمير دخلوا عليه لحاجة

بقصد نفعه بذلك لكن بشرط أن يغلب على ظنهم عمله بما وعظوه به ، فإن لم يغلب على ظنهم ذلك قضوا حاجتهم منه سرعة ، وخرجوا منكرين عليه بقلوبهم.

وقد كان السلف الصالح يغتنمون النصيحة لكل أمير دخلوا عليه لينفعوه وينتفعوا ، وهذا أمر قد صار كالمحال وقوعه من فقرا هذا الزمان لأمور يطول شرحها أقلها محبة الدنيا ، فقل فقير يدخل على أمير فيه الصدقة والخير إلا ويخطر فى باله أن ذلك الأمير يرتب له شيئا من الجوالى أو الهدايا مثل ما رتب لغيره من الأقران ، ومن يطلب مثل ذلك ، فليس له قوة يعظ بها ذلك الأمير لأن من طمع فى تحصيل شئ ذل ومن ذل لا يقدر على التغليظ على من يريد تحصيل ذلك الشئ منه .

وقد بلغنا أن عبد الملك بن مروان خطب يوما بالكوفة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس اسمعوا ما أعظكم به ، فقام إليه رجل ، فقال : والله لا نسمع لك حتى تقضى لهذا الرجل بالحق فإن الناس قالوا له : ما يخلص لك ظلامتك إلا فلان فجيت به إليك لأنظر عدلك الذى كنت تعدنا به قبل ولايتك هذا الخبيثة ، فطال بينه وبينه الكلام ، ثم قال الرجل .

يا أمير المؤمنين أنكم تأمرون ولا تأتمرون ، وتنهون ولا تنتهون ، وتعظون ولا تتعظون ، أفنقتدى بسيرتكم فى أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ، فإن قلتم أطيعوا أمرنا واقبلوا نصحنا فكيف ينصح غيره من غش نفسه وإن قلتم خذوا الحكمة واقبلوا العظة ، ولا تلتفتوا لحالنا ، فعلام قلدناكم أزمة أمورنا ، وحكمناكم

فى دمائنا وأموالنا ، فإن كانت الإمامة قد عجزت عن إقامة العدل فيها ، فخلوا سبيلها وإلا فإن بقيت فى يدكم عاما لخربت البلاد ، واضمحلت الحقوق .

فنزل عبد الملك من على المنبر وقال :

أن مثلى لا يصلح خطيبا لكم ، وصار يبكى حتى كاد وقت الجمعة أن يخرج ، ثم صعد المنبر ، فخطب .

فإن وجدت يا أخى أميرا يسمع من وعظك ، فعظه وإلا فلا حرج عليك فى السكوت ، وقد وجدت العلامات التى وقت الشارع ﷺ الأمر بالمعروف إليها بقوله لحذيفة ﷺ (مر بالمعروف وانه عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخويصة نفسك ودع عنك أمر العامة) .

وقد وجدت جميع هذه العلامات كما هو مشاهد .

فإن رأيت يا أخى أحدا من العلماء يدخل على الأمراء ولا يعظهم ، فاحمله على العجز إذ ظنه أن الوعظ لا يؤثر فيه وإن كان ذلك خلاف ما عليه الجمهور والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة تبجيلهم وتعظيمهم لمن لاث الناس بعرضه من فقرا العصر

إذا كان على قدم الاستقامة فى العلم والعمل ، ويجعلون تلك الإشاعة عنه لا حقيقة لها ، وإنما أشاعها عنه الأعداء والحاسدون لا سيما إن رأيناه صابراً على تحمل الأذى ، ولا يقابل أحدا بسوء ، فإنه يتعين علينا إجلاله وتعظيمه لأنه على قدم العلماء العاملين فى تحمل الأذى .

وهذا الخلق قد عز وجوده فى غالب الفقرا اليوم وصاروا يقبلون الإشاعة بالنقص على الإنسان بمجرد الإشاعة من غير تثبت حتى قل انتفاعهم بأهل عصرهم ، فإنه ما من أحد إلا وله محب ومبغض .

فعلم أن من دين الإنسان إذا سمع الإشاعة عن أحد بسوء العقيدة أو غير ذلك

من النقائص أن يجتمع به ، وينظر حاله ، فإن رآه كما أشيع عنه نصحه وأن رآه بضد ذلك اتخذه صاحباً وأحبه ، وقد أطلق ﷺ الحديث فى قوله : (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) ولم يفصل ، فشمل بلاء الأبدان وبلاء الأعــراض إذا صبر العبد على ذلك .

فإياك يا أخى ثم إياك أن تسمع كلمة عن فقير من بعض أعدائه فتشيعها عنه، فتقع فى الغيبة والنميمة والكذب [1] .

فى التوراة ما نصح عالم أهله وجيرانه وبالغ فى نصحهم إلا رموه بالعظايم انتهى .

عليه يحمل حديث : (أشد الناس عداوة للعالم أهله وجيرانه) لكن يستثنى من ذلك من كان كامل السياسة للخلق من الأولياء فإنه يبالغ فى نصح أهله وجيرانه ومع ذلك فهم يحبونه ، فأفهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم العمل بأحاديث الفضائل على وجه الإيمان والتصديق

ولا يستبعدون حصول الثواب الجزيل فى العمل القليل فى التعب لأن مقادير الثواب لا تدرك بالقياس .

وقد قدمنا فى هذا الكتاب أن من عقل العاقل إذا ضاق عمره أو وقته فى قيام الليل مثلا أن يقرأ بالآيات والسور التى ورد التفضيل فيها على غيرها ولا يقول أن القرآن كلام الله تعالى فلا يصح التفاضل فيه لرجوعه إلى ذات واحدة فإن ذلك يرد الأحاديث .

---

(١) وفى الحديث : عن أبى هريرة ﷺ أن رجلا قام وهو مع رسول الله ﷺ : قبل ذلك ، جالس، فقال بعض القوم : ما أعجز فلان ! !

فقال ﷺ : أكلتم أخاكم واغتبتموه .

وفى الرسالة القشيرية : أوحى الله إلى موسى عليه السلام : (من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار) .

وقد كان سيدى على الخواص إذا ضاق وقت التهجد عليه وخاف من طلوع الفجر يصير يقرأ الفاتحة وأية الكرسي فى كل ركعة ، وتارة يقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات ، وتارة يقرأ أواخر سورة الحشر لما ورد أنها تعـدل ألـف آية ، وكذلك آية الكرسى وأما سورة الإخلاص فورد أنها تعدل ثلث القرآن .

قال بعض العارفين : أى تعدل ثلثه أى لو فرق أثلاثا ، وكذلك الحكم فى ما ورد أنه يعدل ربع القرآن أو نصفه أى لو قسم أرباعاً أو إنصافا فأعلم ذلك وأعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم ظنهم أن أعمالهم ولو كثرت تحمى أحدهم من وقوع العذاب به فى ساعة من ليل أو نهار

كما كانت أعمال الناس فى الزمن الماضى ، فإن العزم قد ضعف عما كان عليه الناس فى الزمن الماضى ، وصارت أعمال الناس كالجبال فى الصورة ، وفى المعنى كالهباء لقلة الإخلاص فيها .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمة الله يقول :

من كشف حجابه فى هذا الزمان رأى نفسه تستحق الخسف بها حال طاعاته لما يخطر على قلبه من الفواحش بين يدى الله عز وجل ، ولولا رحمه الله تعالى بالعبد لأهلكه لقلة أدبه فى طاعاته فضلاً عن معاصيه .

قال : وقد كنت و أنا صغير إذا عملت طاعة أحس بالحماية لى من الآفات من الجمعة إلى الجمعة ، فصرت اليوم أخاف من وقوع العذاب على حال فعلى للطاعة

وقد كان سيدى عبد العزيز الديرينى ﷺ يقول :

الناس ينتظرون بطاعاتهم المغفرة ورفع الدرجات فى الجنة وأنا انتظر أن تمطر السماء على حجارة من قلة أدبى فى تلك الطاعة .

فأعلم ذلك وأكثر من الطاعات ولا ترى أنها أهل لأن تقبل منك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ

حتى لا يكاد أحدهم يمل من ذلك فى ليل أو نهار[1] لأنه ﷺ هو المشرع لهم كل خير عملوه ، فله ﷺ عين أجر جميع أعمال أمته ومن شح منهم بعين أجر عمله على نبيه كان لنبيه مثل أجره لا عينه ، وذلك معدود من سوء الأدب عن

---

(١) يقول الله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين ءامنوا صلوا عليه وسلموا تسليما).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من صلى على صلاة ، صلى الله عليه بها عشرا) .

وعن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة).

وعن على ﷺ قال ، قال رسول الله ﷺ ، (البخيل من ذكرت عنده فلم يصلى على) .

وعن أبى بن كعب ﷺ قال ، كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال ، يا أيها الناس ، اذكروا الله ، اذكروا الله جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه) .

قال أبى بن كعب .

فقلت : يا رسول الله : إنى أكثر الصلاة فكم أجعل لك فى صلاتى ؟

قال : ما شئت

قال : قلت : الربع ؟

قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك .

قال : فقلت الثلث ؟

قال : ما شئت فإن زدت فهو خير لك .

قال : قلت النصف ؟

قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك .

قال : قلت : أجعل لك صلاتى كلها ؟

قال ، إذا يكفى همك ، ويغفر لك ذنبك . =

أهل الأدب .

وقد قدمنا أن من أدب الفقير أن يجعل ثواب جميع أعماله لنبيه ﷺ بانشراح صدر وينوى بذلك القربة من الله تعالى وأن من أدبه أن يفتتح العمل على اسم سيدنا رسول الله ﷺ من حيث الأجر الحاصل من تلك العبادة لا على اسم نفسه هو عملا بحديث (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين) .

ولولا أنه ﷺ دلنا على الأعمال الصالحة ما أهتدى أحد منا لفعلها بل ولا عرف أنه تعالى أمره بها فضلاً عن معرفة كيفيتها ، فجعل أحدنا ثواب أعماله لنبيه ﷺ بالإجابة من بعض حقه الواجب علينا ، ولا يجوز لأحد منا أن يرى فضلا بذلك على نبيه ﷺ فأفهم فإن هذا يقع فيه خلق كثير ، فيصيرون يرون لهم اليد عند سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ بذلك ، وإن دفعوه عنهم عند خطورة .

وقد روى الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال :

أريت حمزة وجعفرا وكان بين أيديهما طبقا كله نبق كالزبرجد يأكلان منه .

فقلت لهما : ما وجدتما أفضل الأعمال والأقوال .

فقالا : لا إله إلا الله .

قلت : ثم ماذا ؟

قالا : الصلاة عليك يا رسول الله .

قلت : ثم ماذا ؟

قالا : حب أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما . ذكره ابن فرحون المالكى

وقد من الله تعالى بذلك على من صغرى إلى الآن فليس عمل أحب إلى قلبى من ذكر الله تعالى والصلاة على سيدى رسول الله ﷺ ، وحب الإمامين أبى بكر وعمر والصحابة أجمعين ، فنسأل الله تعالى الدوام على ذلك إلى الممات .

= أما الصيغة التى كان يرددها سيدى إبراهيم المتبولى فهى : (اللهم إنى أسألك بك أن تصلى وتسلم على سيدنا محمد وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين ، وأن تغفر لى ما مضى وتحفظنى فيما بقى).

وقد كان سيدى أحمد بن الرفاعى ﷺ يكثر الصلاة على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، ويحث أصحابه على الإكثار منها ، ويقول :

بلغنا أنها تجيز صاحبها على الصراط بسرعة .

وقد حدث قوم فى هذا الزمان يدعون طريق الفقر ويثقل عليه الصلاة على رسول الله ﷺ وربما حضر أحدهم مجلسنا فيصير ساكنا ، ويقول : هذه ليست من طريق شيخنا ، وفى ذلك توبيخ لشيخه وشهادة عليه بأنه كان لا يكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ، وذلك من علامة النفاق كما ورد فكأنه يقول إن شيخى كان منافقاً .

فليحذر الفقير من مثل ذلك وليصل على سيد الخلق على الإطلاق ﷺ قايما وقاعداً ومضطجعا . وإن لم يكن ذلك من طريقة شيخه .

وقد سمعت سيدى محمد السروى رحمه الله يقول :

ثم فى الفقرا من هو أكثر أعمالاً من الشيخ نور الدين الشونى ولكنه فاق أقرانه باستناده إلى سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ فأكرم كما يكرم الناس غلام الأمير تبعا للأمير انتهى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم محبتهم لتحصيل مطابقة ما يرونه فى النوم لما أخبر به رسول الله ﷺ من المغيبات

كعذاب القبر ، وأهوال يوم القيامة ، بحيث يصير ذلك عندهم كأنه رأى عين وذلك لأن الإيمان الذوقى لا ينحجب عن صاحبه ، وإذا أنحجب عن الإنسان إيمانه، فربما وقع فى الذنوب العظام .

وفى الصحيح : (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً [(١)]) الحديث فذكر الرضا الذى هو من أعمال القلوب دون القول فأفهم .

وفى القرآن العظيم: ﴿ فَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [(٢)].

(١) وتمام الحديث (ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً) رواه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه كلهم عن العباس بن عبد المطلب .

وهذا الخلق قد صار عزيزاً فى هذا الزمان وما كان غالب الناس إلا حوسبوا، وفرغوا من الحساب لكون إيمانهم غير ذوقى فالحمد لله الذى من علينا بالإيمان الذوقى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم مجاهدة نفوسهم بالجوع والسهر المفرطين

وأتعابها فى الأعمال الشاقة فى بداية أمرهم بطريقه الشرعى ، ثم إذا بلغوا النهاية المعروفة بين القوم ، فمن الأدب مع الله تعالى الشفقة عليها ، والرحمة لها ، وإطعامها الطعام اللذيذ ، وتنويمها على الفرش ، وعدم تعاطى الأعمال الشاقة إكراماً لها من حيث أنها بنية الله تعالى وأمته وعبده وكأنه جردها عنه ، وجعلها كالجار له ، وهو غيرها كما هو مقرر فى علم المعانى والبيان ، وإلا فهو واحد فى نفس الأمر كما يقول الإنسان قالت لى نفسى : كذا فقلت لها : لا وهى القائلة أفعل أو لا تفعل لا غيرها .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إنما سومح المريد بمجاهدة نفسه لكونه يرى نفسه لنفسه ، ثم إذا بلغ مقام الكمال شهد نفسه ملكا لربه ، وقد وصاه الله تعالى عليها بقوله تعالى : ﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ونهاه على ظلم نفسه ، وعن تحملها فوق الطاقة عادة .

فعلم أن ظلم النفس فى مرضات الله تعالى بتحميلها من العبادة فوق طاقتها محمود فى البداية مذموم فى النهاية إذ الكامل يجب عليه أن يعطى كل ذى حق حقه ، وهو يعلم أن فى مجموع ذاته من يطلب الله تعالى ، ومن يطلب الآخرة ، ومن يطلب الدنيا ومن يحب الراحة ومن يحب النوم وهكذا فيعطى كل ذى حق حقه .

وقد بلغنا أن معروف الكرخى بردت له زوجته كوز ماء فى الصيف ، فنام

---

(٢)- سورة هود آية : ٢٨ .

فرأى جارية من الحور العين .

فقال لها : لمن أنت فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرد فى الكيزان .

فلما استيقظ تناول الكوز وضرب الأرض ، فكسره قال السرى السقطى : فلقد رايته فى الأرض حتى عفى على خزفه التراب لم يرفع من الأرض ، فلما عرضوا هذه الواقعة على الشيخ محيى الدين قال : كان حاله فى تبريد الماء أكمل من حاله حين شرب الماء الذى لم يبرد لإعطائه نفسه حقها الذى أمره الله تعالى به فى نهايته ، ولكنه فعل ذلك لأجل تلامذته لترقى همتهم بعدم تبريدهم الماء انتهى.

ثم على ما قررناه من أن ظلم النفس فى مرضات الله تعالى محمود يفهم معنى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [1] أى بالتعب فى مرضاتنا ، وإلا فالظالم لنفسه بالمعاصى لا يكون مصطفى لله تعالى فأفهم .

وقد بلغنا أن حورية جاءت إلى سيدى عبد العزيز الديرينى يقظة وقالت له : قد اشتقت لك أما شبعت من الإقامة فى هذه الدار .

فقال : بلى ولكن حتى ينتهى الأجل .

ثم قال لها : أرجعى إلى دارك انتظرينى هناك ، فقد قرب الانتقال ، فمات بعد سبعة أيام ، وهذه من جملة كراماته ﷺ والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة التسليم لولاة الأمور وحملهم على المحامل الحسنة بطريقه الشرعى

ومن حيث كونهم أتم نظرا من أمثالنا ، فإذا ركبوا يهوديا أو نصرانيا مثلا فرسا لا نبادر لإنزالهم ، ولا نقول : الله أكبر يا كلاب ، فربما كان الحكام إنما أركبوهم الفرس لمصلحة تعود على المسلمين لا نعرفها نحن ، فليفتش من يريد إنزال الكافر عن الفرس عن سبب ذلك ، فإن رآه بأمر الحكام أو تقريرهم سكت ،

---

(١) سورة سبأ آية : ٣٢ .

وإن رآه بغير أمرهم وتقريرهم أنزلهم ، فقد يكونون علموا بذلك وأقروه لمصلحة تعود على المسلمين .

وقد رأى فقير فرنجيا راكبا فرسا فأنزله وكبر عليه ، فرفعوه إلى نائب مصر فضرب الفقير ضربا مبرحاً ، وقال له : أيش أدخلك فى أمر لا تدرى عاقبته فأرسلت أنا إلى شخص من خواص أصحاب الباشاه ، وسألته عن سبب إكرام هذا الفرنجى فقال : لأنه من خواص ملك الفرنسية ، وإن عندهم من المسلمين نحو عشرة آلاف أسير ، وقد أوصاه الملك وقال له : إن أكرمك نائب مصر ، فأرسل أعلمنا نكرم الأسرى الذين فى بلادنا ، وإن لم يكرمك أهناهم واستعملناهم فى الأعمال الشاقة وعذبناهم انتهى .

فالزم يا أخى الأدب مع الحكام ، فإن لهم فى أفعالهم حكما لا يطلعونك ، وأمثالك عليه كهذه القضية والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم التعصب فى هدم الكنايس والبيع

إلا بعد مشاروة ولاة الأمور فى ذلك خوفا من إثارة فتنة أعظم من بقاء تلك الكنيسة أو البيعة ، وقد خالف بعض العلماء ما قلناه ، وأراد هدم بيعة لليهود بمصر ، فمنعوه الإفتاء والتدريس والوعظ ، وأرادوا نفيه من مصر ، فحصلت فيه شفاعة ، فتركوه وأفتى العلماء بأن فى مثل ذلك افتياتا على الإمام الأعظم ونوابه.

فليشاور من يريد هدم كنيسة ولاة الأمور فى ذلك ، فإذا سمحوا له بالهدم ؛ فهناك يشرع فى الهدم بتأييد الولاة له ، فإن ولاة الأمور إذا كانوا مضادين لأعظم الأولياء اتعبوا سره ، وغلبوه لأن الله تعالى جعل بيدهم الحل والربط والولاية والعزل فى هذا الوجود .

وقد قال لى أمير مرة : لا يكمل تصريف الولى فى هذه الدار إلا بموافقتنا له اللهم إلا أن يكون له حال يحميه من تأثيرنا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مساعدتنا له وإيضاح ذلك أننا إذا كنا عليه أتعبنا سره فى التوجه إلى الله تعالى فى إهلاكنـــا ، وربما لم يجبه الحق تعالى إلى ما سأل فيدوم عليه الأذى انتهى .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إذا قربت الساعة أمسك الله تعالى التصريف عن أهل الحق حتى تقع الأمور التى وعد الله تعالى بوقوعها بين يدى الساعة ، فيصير الولى يتوجه إليه فى عزل ذلك الظالم ، فلا يجاب ، فعلم أنه يشترط الإذن من الله تعالى للمتوجه والاستحقاق لمن يريد يدفع عنه ، وذلك بأن يكون الشيخ عارفا بالمقادير المعلقة تائبا هو والمشفوع فيه من جميع الذنوب آكلا من الحلال دون الشبهات ، وإن لم يحصل هذه الشروط فهما مغلوبان .

وسمعت أخى الشيخ أفضل الدين رحمة الله يقول :

يشترط فى من يقوم فى نصرة الدين أن يكون مخلصاً فى ذلك لا يدخله هوى نفس فى ذلك يأكل من الحلال ، وإلا فمن يأكل الشبهات لا يصح له تأييد من الحق عز وجل ، فيخذل ضرورة ، وقد كان شخص يقوم فى إزالة المنكرات فى بلاد الهند ولا يقوى أحد على معارضته ، فعملوا عليه الحيلة ، وأطعموه من الشبهات، فبطل عمله ، وذلك أنه لما عارض السلطان أمر كل واحد من الرعية أن يأتى ببيضه ، حتى ذلك القايم فى إزالة المنكر ، فلما أتوه بالبيض خلطه ، ثم فرقه على الناس ، فأكل بعضهم بيضه أخيه ، فبطل عملهم ودعاؤهم عليه ، ثم شرع فى ظلمهم ، وصاروا يدعون عليه فلم يجابوا ، فعلم أن من أكل من الحرام أو الشبهات ، أو دخله هوى نفس خذل لأنه حينئذ إنما هو ساع فى نصرة نفسه وهواة لا فى نصرة الدين ، وما وعد الله تعالى بالنصر إلا من نصر دينه خالصا مخلصا أنتهى .

فحرر يا أخى نيتك فى نصرة الدين بهدم الكنيسة مثلا ، ثم إهدم بأمر ولى الأمر وإلا عرضت نفسك للخذلان والنفى والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إفتاؤهم بالتشديد لمن استفتاهم من المتورعين وبالتسهيل لمن استفتاهم من العوام كالفلاحين

كما درج عليه الأئمة المجتهدون وكمل اتباعهم كسيدى عبد العزيز الديرينـــى

والشيخ بدر الدين بن جماعة والشيخ شهاب الدين بن الأقطع البرلسى [١] والشيخ على النبتيتى الضرير وإضرابهم رضى الله تعالى عنهم .

وقد روى الإمام القشيرى بسنده إلى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه قال : دخلت أخت بشر الحافى على الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنهما .

فقالت له . أنا نغزل فى سطوحنا فى القمر فيمر علينا مشاعل الولاة ، فتزداد ضوءاً على ضوء القمر ، فنلبس ذلك الثوب الذى غزل منه خيط على تلك المشاعل .

فقال لها : من أنت عافاك الله تعالى ؟ قالت : أخت بشر الحافى .

فقال الإمام أحمد لها : من بينكم يخرج الورع الصادق لا تلبسى ذلك الثوب .

وقد سئل الحسن البصرى ﷺ عن شخص يأكل من جوائز السلطان هل يخرج بذلك من الورع ؟

فقال : إن كان ممن يقتدى به خرج عن الورع .

وسأله جماعة من المتعبدين الذين يأكلون من عمل يدهم وقالوا : قد غبنا فى الحصاد بالأجرة يوما ؛ وكان لنا فرن تهدم بابه فى خرابه ننام فيها ، ثم جئنا فوجدنا شخصاً لا نعرفه أصلح لنا باب الفرن أفنخبز فيه بعد ذلك ؟ فقال : لا .

وسأله شخص يأكل من صيده للسمك

---

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى ، ومنهم الإمام العلامة المحقق الشيخ شهاب الدين البرلسى الملقب بعميرة الشافعى ، ﷺ صحبته نحو عشرين سنة .

وكان عالما زاهد حسن الأخلاق والشيم ، له سمت حسن ، وانتهت إليه الرياسة فى تحقيق المذهب ، ولم يزل يدرس ويفتى الناس حتى مرض الموت وكان مرضه بالفالج ، فأقام به نحو سنة ثم مات .

أخذ العلم عن جماعة منهم شيخ الإسلام الشيخ عبد الحق السنباطى ، ومنهم شيخ الإسلام برهان الدين بن ابى الشريف ، ومنهم الشيخ نور الدين المحلى ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين وكتب على مؤلفاتى أحسن كتابة ﷺ .

فقال : أنى كثيرا اصطاد سمكا فى الدجلة فنفض فيها جندى سفرته أفآكل من ثمن السمك الذى اصطاده بعد ذلك ؟

فقال : لا تأكل من ذلك .

وسأله شخص آخر مرة وقال : إن لى مزرعة ورثتها من أباى الورعين ولى فيها بئر وبقرة آكل من لبنها وثوران أحرث عليهما ، فاشتغلت فى صلاتى يوما عن حفظ البقرة ، فخرجت من مزرعتى ، ومشت فى طين جارى فى وحل ، ورجعت وقوائمها متلطخة بطين أرض جارى ، فاختلط بطين أرضى فأكل من زرعى فيها بعد ذلك ؟

فقال : لا .

ولو أن غير المتورع سأله عن مثل هذه الأمور لأفتاه فيها بالترخيص .

قلت ومما يقرب من هذه المسألة إخراج الكتب الموقوفة فى مكان وشرط واقفها أن لا تخرج منه إلا لترميم ونحوه من مصالحها ، فمن تورع طالع فيها فى مكانها ، ومن ترخص أخرجها وحفظها من الضياع .

وقد استفتى الشيخ جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى عن جواز نقل الكتب من المدارس التى شرط واقفها أنها لا تخرج منها ؟.

فقال : الذى أقول به الجواز ، وقد رأيت شيخنا شيخ الإسلام البلقينى [1] وشيخ الإسلام يحيى المناوى يستعيران الكتب من الخوانة المحمودية ويمكث الكتاب عندهم سنين عديدة ، وهما الإمامان المقتدى بهما ، فأنهما كانا من الفقه

---

(١) يقول عنه الإمام الشعرانى ، ومنهم الشيخ الصالح المجمع على حالته الشيخ شهاب الدين البلقينى ﷺ ، كان ﷺ غريبا فى أقرانه ، لكثرة زهده وورعه ، وحسن خلقه وحلاوة لسانه وضبطه .

أخذ العلم عن عدة من العلماء الأعلام ، ومن أجلهم العلامة الشيخ شهاب الدين الرملى الأنصارى ﷺ ولازمه ملازمة شديدة فى إجازة بالإفتاء والتدريس فدرس وأفتى فى حياته ، وانتفع به خلائق حتى كانت حلقته أوسع من حلقة شيخه . =

بالمحل الأعلى ، حتى بلغا رتبة الاجتهاد فى المذهب ، وكان المناوى صوفيا له أحوال وكرامات ، فلولا رأيا ذلك جائزا ما فعلاه .

وفى قواعد الشريعة أنه يجوز أن يستنبط من النص معنى يخصصه ، فإذا كان هذا فى نص الشارع ففى نص الواقف أولى ، فيقال هنا : أن مقصود الواقف بشرطه إنما هو تمام النفع ، وتمام الحفظ ، فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بكتاب منها حال تصنيفه لكتب العلم ، ولا يمكنه الانقطاع لأجل ذلك فى مكان الوقف ووثقنا بدوام حفظه ، وصونه جاز الإخراج له ، وكان ذلك مستثنى من المنع تخصيصاً لعموم لفظ المواقف بهذا المعنى المستنبط كما تخصص قوله تعالى : ﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (١) استثنى منه المحارم بالمعنى المستنبط ، وهو الشهوة ولا دليل لاستثناء المحارم من آية أو حديث سوى هذا الاستنباط ، فكذلك هذا قال .

وقد ذكر الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه : أن علماء بغداد منعوا الفقهاء فى بعض السنين من قراة الأطفال فى المساجد إلا شخصاً واحدا كان

= وأخذ طريق القوم عن سيدى على المرصفى ، ثم عن تلميذه الشيخ نور الدين الشونى شيخ مجلس الصلاة على النبى ﷺ فى جامع الأزهر ، وأحبه غاية المحبة واستخلفه فى مجلسه فى حياته وبعد مماته ، وقدمه على جميع أصحابه وقال ، ما قدمته فى المجلس إلا بعد مشارة النبى ﷺ ، واعتقد علمه وصلاحه الخاص والعام ، واشتهر فى مصر وقراها والشام ، والحجاز ، والروم .

وصحبته رحمه الله تعالى نحو أربعين سنة ، فما رأيت عليه شيئا يشينه فى دينه ، وما ذكره أحد بسوء إلا ورآه تلك الليلة وعليه ثياب خضر وبيض نقية الخضرة والبياض ، فأعرف بذلك كذب الحاسد وصدق الشيخ شهاب الدين وشدة إخلاصه .

وما رأيته قط التفت إلى وظائف الفقهاء ، بل تربى على الفقه والورع والزهد فى الدنيا حتى أتته وهى راغمه .

مات ﷺ فى ثانى صفر سنة ستين وتسعمائة ، ودفن بالقرب من تربة الجامع الأزهر رحمه الله تعالى .

(١) سورة المائدة آية : ٦ .

موصوفاً بالصلاح والخير ، فاستثنوه من المنع ، وأنهم استفتوا الماوردى من أئمتنا والقدورى من أئمة الحنفية ، وغيرهما ، فأفتوا باستثنائه ، واستدلوا بأنه ﷺ : أمر بسد كل خوخه فى المسجد إلا خوخة الإمام أبى بكر الصديق ﷺ ، فقاسوا استثناء هذا الرجل على استثناء خوخة الإمام أبى بكر .

قال : وهو استنباط دقيق لا يدركه إلا الأئمة .

قال : وقد استندت إلى قولهم حين استفتيت قديما على أبنية القرافة ، فأفتيت بهدمها كلها كما هو المنقول إلا مشاهد الصالحين قياسا على ما فتى به الماوردى والقدورى .

لكن فى المسألة أمران ينبغى التفطن لهما .

أحدهما : أنه لا يستعار من هذه الخزانة إلا ما لا يتيسر وجوده فى غيرها مما ليس فيه شرط يمنع الخروج .

الثانى : أن لا يمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر الحاجة فقط ، ومدرك هذين الأمرين أن ما جاز للضرورة يتقدر بقدرها انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى كتاب المنن الكبرى فى الباب الرابع عشر منها فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تقلقهم من مونة من أقام عندهم من المجاورين

ولو بلغوا عند أحدهم ألف نفس ، وأكثر لا يستثقل منهم لأنه يشهدان رزقهم على الله تعالى لا عليه هو[1] ، وغاية أمره أن الله تعالى جعله كالوكيل الذى يفرق

---

(١) بكى سيدنا على بن أبى طالب يوما فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتى ضيف منذ سبعة أيام، وأخاف أن يكون الله تعالى قد أهاننى .

وروى عن أنس بن مالك ﷺ أنه قال : زكاة الدار أن يتخذ فيها بيت للضيافة .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا وأشتاتا): أنهم كانوا يتحرجون فى أن يأكل أحدهم وحده ، فرخص لهم فى ذلك .

على العبيد ما حده له سيدهم ، فلا يصح أن يعطيهم من رزقه ذرة واحدة وإنما الحق سبحانه وتعالى يجعل ما يشاء من الجود فى قلب من يشاء من عبادة بقدر حظه ونصيبه ، وكثرة الواردين عليه ، والقاطنين عنده يعمر على معرفة قدر مرتبته فى الجود قلة وكثرة .

فلا تظن يا أخى أن الفقرا كغيرهم يتبرمون من إقامة الضيف عندهم طويلا قياسا على غيرهم .

وإن حصل من فقير صادق ثقل من إقامة أحد عنده ، فإنما ذلك لقلة استحقاق الفقرا القاطنين عنده أو الواردين عليه لعدم إقبالهم على العبادة أو خروجهم من الاستقامة لا غير ، فيدبرون عن الله تعالى ، ويطالبون الشيخ بالقيام بهم على جارى العادة السابقة أيام استقامتهم ، فلا يقدر الشيخ على ذلك لأن الحق تعالى إنما يسخر لعبده الرزق ويسهله عليه إذا كان مقبلا عليه كما أشار إليه حديث (فكم ممن لا مطعم له ولا مؤوى) ، مع أنه تعالى يرزق الكافر ، وإنما المراد لا كافى له بسهولة ولا مؤوى له كذلك فأفهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم حسن سياستهم لقاصد الأمير إذا أتاهم بشئ من الدنيا يفرقونه على الفقرا أو لأنفسهم

فلا يقولون له فلوس أستاذك حرام ، فلا نقبلها ، لأن فى ذلك تنفيرا للأمير عن الاعتقاد فى طائفة الفقرا وربما كذب الفقير فى قوله إن ذلك حرام لأنه ليس كل شئ يدخل يد الفقير يكون حراما ، وإنما السياسة أن يقولوا للقاصد سلم لنا على أستاذك ، وقل له الفقرا لا يصحبون أهل الخير مثلك لشئ يأخذونه منهم ، وإنما يصحبونهم لله تعالى لأجل شفاعة فى مظلوم أو ليساعدهم فى إزالة منكر حدث فى بلدهم ، ونحو ذلك .

وقد أرسل لى مرة عامر بن بغداد مائة دينار هدية ، فرددتها عليه وقلت له : هديتى عندك قبول شفاعتى فى المكروبين ، فإن ذلك هو الذى ينفعنى وينفعك،

وينفع المكروب[1] .

فأبى أن يأخذها .

فقلت : له قبول هديتك يضرنى ، ويضرك ويوقف دعائى لك عن القبول إذا حصلت لك شدة .

فرضى عنى بذلك رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

ثم وإن قال القاصد إنما أرسل لكم أستاذى ذلك لأجل كونه مريضا مثلا ، لتدعوا له قالوا له :

الدعاء بلا عوض أرجا للإجابة وكل فقير ينبغى له الدعاء لولاة الأمور سواء أعلم بذلك الأمير أم لا .

وقد أرسل لى الباشاه محمد دراهم حين مرض ولده بالطاعون ، وحين مرض هو فى المحرم سنة اثنين وستين وتسعمائة ، فرددت ذلك ، فأبى قاصده أن يرد إليه بذلك .

فقلت له :

لا يخلوا إما أن يكون أجل المريض حضر فلا أقدر على زيادته أو لم يحضر أجله ، فما عملت له شيئا استحق به الدارهم وأن كان سبق فى علم الله تعالى أن خلاصه فى ذلك المرض يكون معلقا على الدعاء ، فقد اخترت أن يكون أجرى على الله تعالى .

فقال : تذبح للفقرا قربانا .

فقلت له : ليس لنا حاجة بذلك اللحم فإن اللحم عندنا كثير .

فقال : يرسل الباشاه يعمل عندكم مولدا .

فقلت له : إذا خلص من مرضه أنا أعمل له مولدا من عندى محبة فيه وفرحا بسلامته فولى وهو راض عنى أنتهى فتعلم .

---

(١) قال الله تعالى : (من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) .

وعن أبى موسى الأشعرى ﷺ قال :كان النبى ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: (اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما أحب) .

يا أخى مثل هذه السياسة ، وأعمل بها ، وإياك أن تعترض على من يرد مال الولاة ، وتحمله على محامل سيئة ، فتخطى طريق جمهور السلف ، والخلف من الصالحين ، وإذا كنت أعوج ، فلا تطلب من المستقيم أن يعوج معك بل تأس أنت بالمستقيم ، واتبعه أن أردت أن تمشى على آثار الصالحين .

وقد بلغنى أن جماعة ممن أخذوا من ذلك المال اعترضوا على ردى المال من حيث أنهم تميزت عنهم فى مصر ، وكان الأولى لهم مدحى على ذلك ، وذم أنفسهم ، فإن مال الولاة فى هذا الزمان لا يخفى على عاقل حاله ، فلا هؤلاء تورعوا ولا هم سكتوا عن تجريح من تورع ، وأنا أعلم منهم أنى لو أخذت من ذلك لأنكروا أيضا على ، وصاروا يقولون : ما بقى أحد يتورع ، وينسون نفوسهم فهم يعترضون بكل حال ، فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا وعليهم من كل ذنب والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إذا دخلوا على أمير يشفعون عنده فى إنسان استحق التعزير مثلا بضرب أو حبس وأخذ مال أن يجعلوا اللوم على ذلك المذنب ويصوبوا رأى الأمير فى حبسه أو ضربه أو تجريسه

ويقولون إنه يستحق أكثر من ذلك ، ثم إذا سكنت نفس الأمير من الغضب على ذلك المذنب ساقوه بالحلم شيئا فشيئا لا سيما أن كان المشفوع فيه من ذوى الهيئات .

ويقولون له :

مثلكم من يتخلق بأخلاق سيدنا رسول الله ﷺ فى إقالة العثرات وقد قال ﷺ (أقيلوا لذوى الهيئات عثراتهم).

ثم إن رأوا الأمير مصمما على عدم العفو عن ذلك الشخص .

قالوا له : يا أمير أعطنا منديل الأمان ، فإذا أعطاه لهم .

قالوا له فى أذنه بلطافة وتبسم : يا أمير لا بد أن يكون لك ذنوب وقعت فيهـــا

فأجعل العفو عن هذا الشخص ذنبا من ذنوبك ، واستغفر الله تعالى منه يغفر لك .

فلعله يرق له ، ويعفوا عنه .

وإياك يا أخى أن تدخل على أمير دهقان تشفع عنده إلا وأنت عفيف عن مال ذلك الأمير إذا كان دهقانا يبادر الفقير الشافع عنده بالتعظيم ، والهدية ، فيبرد قلبه من الشفاعة ، وربما انقلب ذلك الشافع على المشفوع له كما وقع ذلك من محمد بن بغداد ومن أخيه عامر مع فقيرين دخلا يشفعان عندهما ، فأخذ أحدهما وصولا بقمح وعسل ودجاج ، وغير ذلك وأخذ الأخر بغلة وعدتها ، فركبها فى حوشه ، وخرج بها يحط على المشفوع فيه ، فليحذر الفقير الشافع من قبول شئ ، فيبيع دينه بدنياه الحرام .

وقد صار هذا الأمر متعارفا بين غالب الولاة ، فإذا دخل عليهم عالم أو صالح ، وأغلظ عليهم من القول بقول أحدهم ، لجماعته : هذا الوقت ألقى عليه إلا كسير فينقلب معى على المشفوع فيه ، فيصيرون يضحكون على ذلك الشافع زمانا ، ويهون فى أعينهم كما وقع لقاصدى مع ابن بغداد ، فأنى أرسلته مع مظلوم ، فلما وصل إليه كتب له وصولا بعسل وقمح ، ثم وضع ذلك المظلوم فى الجنزير بحضرته ، وهو ساكت لأجل قبوله هديته ، فخطف بذلك لسانه انتهى.

ولو أن قاصدى كان تعفف ، فربما لم يضع ذلك المظلوم فى الجنزير ، ولكن من أهانه الله تعالى بمحبته للدنيا ، فماله من مكرم .

وقد ظفرت طول عمرى بنقيب صادق اسمه إبراهيم الصنديصطى رحمه الله تعالى ، فمكث طول عمره لم يأكل للولاة مالا ، ولم يشرب لهم ماء ، ولم يقبل لهم هدية ، وكان يخلص منهم المظلومين إلى أن مات .

فإياك يا أخى من مثل ذلك ثم إياك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة صبرهم على مجالسة الثقلاء

وأظهارهم أنهم خفاف على قلوبهم لأن لا يلحقهم خجل ثم إذا قام الثقيل من عند أحدهم لا يمكنون أحدا يذكره بسوء ولا أن يقول : إنه ثقيل فضـلا عـن أن

ينطق هو بذلك .

وكان أخى الشيخ أفضل الدين رحمه الله تعالى يقول للثقيل :

حصل لنا بركتكم وفوائدكم فلا تقطعونا من المجالسة .

فقالوا له فى ذلك فقال :

أتحمل عن أخوانى ثقل مجالسته لأن غيرى ربما كان لا يقدر على احتمال كلامه .

وروى الجلال السيوطى رحمه الله تعالى : أن أبا هريرة ﷺ كان يقول إذا جلس إليه ثقيل :

اللهم اغفر لنا وله وارحنا منه .

وكان حماد بن سليمان يقول : كل من رأى نفسه ثقيلا كان خفيفا وبالعكس .

وكان حماد بن سلمة إذا رأى ثقيلا قال : ربنا أكشف عنا العذاب إنا مؤمنون.

وكان ابن شهاب الزهرى يقول : إذا طال جلوس الثقيل عندكم فاصبروا فإنها رباط فى سبيل الله .

وكان بعضهم يكرم الثقيل ، ويقول الاجتماع مقدر لا يدفعه تعبيسى فى وجهه ولا زجرى له عن العود إلى .

ومزح الإمام أبو حنيفة مع الأعمش يوما ، وقال له : مم عمشت عيناك .

فقال له : من النظر إلى الثقلاء مثلك ، وكان له إدلال عليه ، فضحك أبو حنيفة رضى الله عنهما .

وكان الأصمعى يقول : جلس عندى ثقيل ، وأطال الجلوس ، ثم قال لعلى قد أضجرتكم و أثقلتكم .

فقلت له : أجل ثقلا فوق ثقل .

فقال : إنى راحل فقلت له : العجل ثم العجل يا جبلا من جبل فى جبل فوق جبل .

وكان شيخنا الشيخ أمين الدين إذا كان جالسا ، ورأى ثقيلا يقصد الجلوس عنده يغلق باب خلوته عليه أو يطلع البيت ، ويقول : أنا رجـل حديـد المـرارة

لا أطيق أسمع كلام ثقيل انتهى .

فقد حكيت لك يا أخى أحوال القوم مع الثقلاء وإن من الناس من يصبر على مجالسة الثقلاء ومنهم من لم يصبر فكن يا أخى مع الصابرين فإن الله تعالى معهم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة الشفقة على الدابة التى ركبوها باجارة او عارية [1]

زيادة على شفقتهم على الدابة التى هى فى ملك أحدهم عادة .

فلا ينبغى لأحدهم أن يضربها بسوط إلا بقدر تأديبها ، ولا ينخسها بحديدة ، حتى يخرج دمها ، ولا يحملها فوق طاقتها ، ولو أذن صاحبها فى ذلك ، فإنه قليل الدين .

ولا يجوز له أن يستأجرها ليركبها وحده منفردا ، ثم يحمل معه خرجا أو يردف معه صاحبه من غير علم صاحبها .

وكان أخى الشيخ افضل الدين رحمه الله إذا استعار دابة ليركبها يوما لا يأكل ولا يشرب بعد استعارتها ، ويقول :

إن صاحبها أذن لى فى ركوبها ، وبطنى جايع ، والأكل والشرب يزيدنى ثقلا أستأذنه فيه ، فلا يزال جيعانا عطشانا ، حتى يرجع آخر النهار .

ورأيته مرة يأكل وهو راكب فنبهته على ذلك فقال : إنى دخلت بيت الخلاء بعد ان استعرتها ولم يغب عن ذهنى ما نبهتنى عليه ، ولكنى آكل دون ما نزل منى فى الخلاء انتهى .

وكان سيدى عبد العزيز الديرينى رحمه الله تعالى لا يحمل معه سوطا إذا ركب حمارة نفسه ، وإنما يردها بكمه ويقول : هيهات أن عبد العزيز يحمل من يضربه بكمه ، فإن من يضرب بهيمة بشئ ضرب فى قبره بمثله[1] .

---

(١) ويمكن تطبيق ذلك على جميع الأمور والأشياء التى تستعار فإن بعض الناس لا يهتمون بما يستعيرون قدر اهتمامهم بحاجاتهم .

وقد أوضحنا الكلام على ذلك أول الباب الخامس عشر من المنن الكبرى فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم مواظبتهم على الوضوء ليلا ونهارا كلما أحدثوا

وكثير ما يتوضؤن على طهر ليزدادوا به نورا على نور كما جرب وقيل إنه حديث وقد بلغ سيدى تاج الدين الذاكر رحمه الله تعالى فى تقليل الأكل إلى أن صار يتوضأ كل أسبوع مرة ، وكان آخر مرة يتوضأ كل أسبوعين مرة .

والعمل بهذا الخلق متعذر جدا على من يأكل كثيرا من الفقرا ، وذلك مؤذن بقلة مجالستهم لله تعالى لأن من يجالس الله تعالى يترك استعمال كل ما يفرقه عنه أو يحجبه عنه ، والحدث من جملة ما يحجب عن الله تعالى بدليل عدم صحة الصلاة معه .

وكذلك من شأنهم أنهم لا يقرؤون القرآن أو الحديث أو العلم أو يذكرون الله تعالى أو يدخلون المسجد إلى على طهارة رضى الله عنهم أجمعين(٢).

ومن خالف ما ذكرناه ، وترخص فى قراءة القرآن وما بعده من الحديث فهو خارج عن طريق القوم والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم صحبة الحشاشين وإلانة القول لهم

وأطعامهم الحلاوة الكنافة المبسوسة بالقطر ، وإظهار المحبة لهـــم ، وعـــدم

---

(١) وفى الحديث : عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا . متفق عليه .

(٢) وفى الحديث : عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من توضأ فاحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره) رواه مسلم . وعنه قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ مثل وضوئى هذا ثم قال : من توضأ هكذا غفر له ما تقدم من ذنبه وكانت صلاته ومشيه إلى المسجد نافلة) رواه مسلم

العبوس فى وجههم ، ثم إذا مال أحدهم إليهم بالمحبة يصير أحدهم يسارقه فى تبغيضه فى تلك الكتبة شيئا فشيئا إلى أن يقع بعضها فى قلبه إن شاء الله تعالى .

وقد قدمنا فى أوائل هذا الكتاب إن أصحاب الكتب ضالة كل داع إلى الله تعالى، فهم لا ينفرون من أعوج ، ولا من مستقيم رضى الله عنهم أجمعين والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم كثرة تواضعهم لبعضهم بعضا

ورؤيتهم نفوسهم أقل من تلامذة أقرانهم وأنقص فى المقام .

وقد كان الشيخ عبد القادر الجيلى رحمه الله تعالى :

من طابت نفسه أن يقرأ على أحد من أقرانه أو يتلمذ له ، فقد خرج من رعونات نفسه فإن ذلك من أعلا رياضة تكون للنفس ، وهو أعلا من الجوع والعرى والسهر والعزلة ، ونحو ذلك .

وهذا الخلق قد صار من أغرب الغريب ، حتى أن بعضهم ربما ترك زيارة أخيه خوفا أن يقول الناس أن المزور أعلا من الزائر وهذا أمر خارج عن سياج أهل الطريق فقد زار ﷺ وأكابر الصحابة الفقراء والمساكين مع علو مقام الزائر على مقام أعظم ملوك الدنيا بما لا يتقارب ، ولم يعتذروا بعذر .

فزر يا أخى إخوانك وأقرأ عليهم رسائلهم التى القوها فإن كلامها محررا ، فذاك ، وإلا فنبههم على ما فيها بلطف وحسن سياسة ، وإن كتبتها عندك ، وأوهمت الناس حاجتك لمثلها ، فقد بلغت الغاية فى رياضة النفس .

فأعرض يا أخى هذا الأمر على نفسك قبل أن تتصدر للمشيخة ، فإن رأيت نفسك منشرحة لتلمذها لأحد من أقرانها ، فأجلس ، وإن انقبضت نفسك من ذلك ، فأتخذ لك شيخا يربيك ، ويزيل منك الرعونات وإلا ضللت وأضللت ، الله الله فى ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم زيادة التعظيم لكل من اختفى من أقرانهم ونفرت عنه تلامذته

لأنه قد مشى على قواعد أهل الكمال لأن الكامل الصادق لابد أن يختفى بعد الشهرة ، ويذل بعد العز .

وإيضاح ذلك أن الفقير ما دام ناقصا ، فهو يطلب الظهور ، والشهرة ، فإذا حصل له ذلك حصل له العز والجاه بين الناس ، فإذا أخذ فى الكمال رأى أن الكمال له فى هذه الدار إنما هو بالذل والانكسار ، والخفاء ، فصار يكره الشهرة والعز بالطبع [1].

وقد كان الشيخ أبو المواهب الشاذلى رحمه الله تعالى يقول : إذا بلغ الفقير مقام الكمال فى العرفان صار غريبا فى الأكوان لا يعرفه إلا من أشرف على مقامة لأنه يصير أعماله كلها قلبيه لا يكاد يظهر شيئا من أعماله إلا فى حال يقتدى به فيه لا غير ، وربما ظن بعض من لا علم عنده له بأحوال القوم أن ذلك الفقير الذى اختفى بعد ظهور كراماته ومكاشفاته قد سلب حاله ، فيحتقره ويخرجه عن دايرة القوم والحال أنه فى أعلا مقامات الكمال .

وقد أخبرنى سيدى على المرصفى أن شيخه سيدى محمد ابن اخت سيدى مدين ملك اثنى عشر نفسا ، فلما انتهى سلوكهم قال لهم : إبعدوا عنى ، وخلونى أتزود لمعادى ، وأتهيأ للموت ، فتفرقوا كلهم عنه كلهم ، حتى كأنهم لم يعرفوه ، وصار يخرج إلى السوق ويشترى حاجته ، ويحمل طبق الخبز والحطب على رأسه ، ونزع ثياب الفقراء ، ولبس ثياب التجار إلى أن مات .

فإن قال قائل : أن تسليك الناس وإرشادهم إلى طريق الأدب مع الله تعالى خير ، فكيف يكون تركه أكمل قلنا له : كلاهما خير ، ولكنه ، ثم مقام كامل ،

---

(١) يقول بان الجلاء : لولا شرف التواضع لله لكان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر .

ومقام أكمل ، وإرشاد الخلق ، والاشتغال بهدايتهم ، وإن كان كاملا ، فالإقبال على الله وحده أكمل كما قال ﷺ (لى وقت لا يسعنى فيه غير ربى) ومن عرف تفسير إذا جاء نصر الله والفتح عرف ما أشرنا إليه على أنه ﷺ قد كان انتهى تبليغه وهدايته للخلق بحسب القسمة الإلهية ، فلم يبق من آثار رسالته ما يفاضل بينه وبين الإقبال على الله وحده ، وكذا القول فى ورثته فليفهم فأعلموا ذلك أيها الإخوان واعتقدوا الكمال فيمن تفرق عنه تلامذته ، واختفى وإياكم أن تقولوا فلان سلب فتقعوا فى الغيبة له والكذب عليه وتتعرضوا للمقت والحمد لله رب العالمين.

ومن أخلاقهم أن يحفظوا حرمة إخوانهم فى غيبتهم فلا يتكلمون من ورائهم بشئ يستحيون أن يواجهوهم به إذا لقوهم

وهذا الخلق قد صار غريبا فى هذا الزمان ، فترى أحدهم يذكر أخاه بالسوء ويبين للناس فيه العجز والبجر ، ثم إذا جاء ذلك الأخ يزوره مثلا يقوم له ويبجله ويمشى معه إلى باب الزاوية ، ثم يقول بعد ذلك : أيش أعمل هؤلاء لا يرضيهم منا إلا ذلك يعنى أنهم لا يستحقون أن يفعل معهم ذلك ، فيزكى أحدهم نفسه ، ويجرح أخاه ، ولايخفى ما فى ذلك من النفاق المنافى لطريق أهل الله عز وجل .

وقد وقع لى مع شخص مثل ذلك ، فدخلت عليه على غفلة ، فسمعته يذكر فىّ العجر والبجر ، فلما قدمت عليه قام لى وأجلسنى على فراشه فقلت له : تب من مثل ما كنت فيه قبل دخولى ، فكلح ، وخجل ، وأفتضح بين الناس الذين كان يكلمهم ، وإنما كلمته بمثل ذلك فى الملأ توبيخا له لينزجر عن مثل ذلك ، ولو علمت منه أنه كان ينزجر باسرارى له بذلك لأسررت له بذلك .

وقد سمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول كثيرا :

افضحوا إخوانكم فى وجوههم حسب الاستطاعة بحسن سياسة ، وناقشوهم كل المناقشة ، وإذا غابوهم فاحملوهم على المحامل الحسنة عند من رأيتموه

يذكرهم بسوء ، فإذا سمعتم أحد يقول : كيف يدعى هؤلاء ترك الدنيا وأحدهم يسافر من مصر إلى الروم فى طلب جوالى أو مسموح مثلا ؟ فقولوا له : قد يكون هذا يقصد بذلك الخفاء بين الناس ، حتى لا يتميز عن أبناء جنسه الذين يسافرون فى طلب أرزاقهم ، أو قد يكون قد أطلع من طريق كشفه أن له رزقا فى الروم لا يمكن أن يصل إليه إلا بسفرة إليه ، فسافر فى طلب رزقه انتهى .

وقد رأيت أنا شخصا فى بيلاق قال لى : كشف لى عن لقمة فى دمياط لا بد لى من أكلها ، فسافرت إليها ، فلما أقبلت على البر رأيت شخصا يأكل لحما فزور بلحمه ، فألقاها فأخذتها وبلعتها ، فلما بلعتها تحركت نفسى للرجوع إلى بيلاق ، فرجعت من ساعتى ، وعلمت أن من الرزق ما يأتى إلى صاحبه ومنه ما يأتى صاحبه إليه لابد له من ذلك انتهى .

فأعمل على ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تحمل الأذى عن كل من قال لا اله إلا الله محمد رسول الله بطريقه الشرعى

فلا يوذونه بظاهرهم ولا باطنهم ، فالظاهر كايذائه بالجوارح الظاهرة والباطن كسوء الظن ، وتمنى السوء له وقد عد العلماء بالله تعالى الأذى للناس من السموم القاتلة ، ولكن لا يكاد يشعر به كل أحد لا سيما سوء الظن بالأولياء والعلماء والعاملين وحملة القرآن الكريم .

وسمعت سيدى على الخواص رحمه الله يقول :

إياك أن تنقص مقام أحد إلا أن أطلعك الله تعالى من طريق الكشف على سوء خاتمته التى يبعث عليها من الكفر ، فهناك لا يكون قولك فيه أنه كافر غيبة ، وإما ما عدا ذلك ، فهو من جملة الغيبة المحرمة بشروطها المقررة فى كتب الفقة،

فالكامل هو من ينظر فى نقائص نفسه ، ليتطهر منها قبل موته قال الله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ [1] انتهى .

ويؤيد قول الشيخ محيى الدين فى الفتوحات المكية إياك يا أخى ومعاداة أهل لا إله إلا الله فإن لهم من الله تعالى الولاية العامة وهو أولياء الله وإن جاءوا بقراب الأرض خطايا لا يشركون بالله شيئا إن الله تعالى يلقاهم بمثلها مغفرة ومن ثبتت ولايته حرمت محاربته فلا تعاد إلا من تحققت أنه عدو الله تعالى وليس ذلك إلا الكافر فهناك تتبرأ منه كما تبرأ السيد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ فالحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم إرسالهم عيالهم فى فرح من عرس وختان إلا أن وثقوا بديتهم من عدم ميلهن إلى الدنيا وزينتها

فرب نظرت عيالهم إلى ما على النساء فى الفرح من الزينة فازدرت ما عليها من الثياب ، وطلبت من زوجها إنه يكسوها الحرير ويلبسها الحلى ، فتكلف زوجها الفقير ما ليس فى قدرته أو تكلفة أن يتوجه إلى الله تعالى فى أن يحجب عين عياله عن رؤية زينة الناس ، أو فى أن يقلب له مرقعة زوجته او جيتها الصوف فى أعين الناس حريرا وجواهر كما وقع لسيدى أبى العباس البصير رضى الله عنه ، حين أرسل زوجته إلى عرس لامرأة أمير كبير بعد سياقهم على الشيخ السياقات ، فقال لزوجته حين كرهت الذهاب إلى العرس بثيابها الرثة : ألبسى هذه المرقعة وسوف يقلبها الله تعالى فى عيون النساء الحاضرات فى

---

(١) سئل سفيان الثورى عن قوله ﷺ : (إن الله يبغض أهل البيت اللحميين) فقال : هم الذين يغتابون الناس ، يأكلون لحومهم .

وذكرت الغيبة عند عبد الله بن المبارك ، فقال :

لو كنت مغتابا أحدا لا غتبت والدى ؛ لأنهما أحق بحسناتى .

العرس كاملية منسوجة بالذهب والفصوص والمعادن ، فكان الأمر كذلك فصارت نساء الأكابر كلهن يشهدن تلك المرقعة كاملية منسوجة بالذهب ، والفصوص والجواهر ، حتى انبهرت عقول النساء ، وقالت امرأة الأمير لزوجها : ما ملك إلا الشيخ ، فأنى رأيت على زوجته حليا مرصعا بالفصوص والمعادن ، فصارت ثيابا عندها كثياب جوارى المطبخ ، فأرسل أمير كبير يبذل للشيخ فى تلك المرقعة الأموال ، والشيخ يقول له : والله أنها مرقعتى ولكن الله تعالى قلبها فى أعين الناس كما أخبروكم سترة للفقرا بين الأكابر .

وكذلك وقع لسيدى الشيخ عبد العزيز الديرينى أن امرأة سيدى مجاهد النيراوى عزمت على زوجة سيدى عبد العزيز ، فدعتها إلى عرس ولدها ، وفرشت لها البسط والمقاعد المطرزة ، لظنها أنها مثلها فى الزينة والفخامة ، فلما دخلت زوجة سيدى عبد العزيز ﷺ ونفعنا به عليها وجدت عليها ثوبا خلقا ، ومرقعة ، فطوت البسط والمقاعد وأرسلتها تجلس عند النساء فى المطبخ ، فلما جاء سيدى عبد العزيز يطلب زوجته سألها عن حالها ؟ فأخبرته بالخبر ، وأنها طوت بسطها لما رأت ثيابها الخلقة ووضعتها عند جوار المطبخ ، فقال لها سيدى عبد العزيز ﷺ : هذا غاية الإكرام والإحسان التى جعلتك عند الطبيخ فكل شئ استوى يطعمونك منه ، ثم أخرجها وسافر معها إلى ديرين فقوى عليهما الحر فى الطريق ، فجلس الشيخ وقال لها : أقلعى من هذا القلقيل شيئا نبنى لنا حائطا منه ونجعل عليه الردآ ، حتى يميل الظل فقالت زوجته : نم أنت فى الشمس وسخطت على ثيابها ومعيشتها فنام فقامت وقلعت من القلقيل ونظرت إليه ، فإذا هو كله ذهبا ، فاستيقظ الشيخ فوجد عقلها قد انبهر من ذلك ، فقال لها : أن شئت فاحملى لك قلقيلة واصنعى لك حليا وزينة ، ولكن لا يصير لك نصيب فى الآخرة وإن شئت صبرت إلى الجنة فقالت : اصبر إلى الجنة انتهى فلولا أن الشيخ بين لها هذه الكرامة لفسد حالها ثم بعد أن عرفت يا أخى ذلك فأرسل عيالك للأفـــراح

أو اترك ولا أرى عدم إرسالهم إلا خيرا لك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم : كثرة رحمتهم للسكران وجميع العصاة

وإذا طلع زاويتهم السكران لا يضربونه، ولا يخرجونه إلى جماعة الوالى إلا بطريق شرعى ، وإنما يجلسونه فى رحبة المسجد أو الميضاة ، حتى يصحوا فيغسلون له ثيابه أن تنجست ، ويطعمونه الطعام اللذيذ والحلوى ،ثم يعظونه ويخوفونه من الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، ثم يقولون له :

نحن أحببناك لله تعالى وما بقى يهون علينا مفارقتك ، وذلك لينسوه صحبة من كان صحبهم من الفسقة لما يرى من كثرة شفقتهم عليه .

وهذا هو اللايق بالفقار ، وأما الضرب ، فلا يجوز .

وهذا الخلق قل من يتخلق به من الفقرا وطلبة العلم ، إنما يخرجون السكران، ويغلقوا دونه باب المسجد ، حتى يمر عليه والى الطوف فيأخذه ويضربه ويغرمه الدراهم ، وقد قال ﷺ لهزال لما وجد رجلا مع امرأته (هلا سترته بثوبك) انتهى.

وفى الحديث أيضاً أنهم أتوا النبى ﷺ بشارب خمر ، فشتموه، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال : (لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم) انتهى .

فارحم يا أخى أهل المعاصى ماداموا يخفونها ، وتخولهم بالموعظة الحسنة .

وقد روى البيهقى أن شخصاً جاء إلى عبد الله بن عمر فقال : إن لى جيراناً يشربون الخمر فى بيوتهم ، وقد نصحتهم فلم يسمعوا وأنا داع الشرط إليهم ليأخذوهم ، فقال له عبد الله : لا تفعل ودم على نصحك لهم انتهى ، والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم اهتمامهم بإكرام الضيف وتهيئة ما يأكل وما يشرب بسرعة وطيبة نفس

فإن البطوء عليه بالأكل يضجره ويذهب حلاوة الضيافة ، كما أن العبوسة فى وجهه لوحشه ، وربما ندم الذى نام عند من عبس فى وجهه .

وكذلك من آدابهم إعلام الضيف بجهة القبلة وببيت الخلا حتى لا يحوجوه إلى السؤال عن ذلك ، وقد غلب الحياء الطبيعى مرة على بعض أصحابنا ، فتغوط وبال فى قلنسوة ولد صاحب البيت حين إتحزق ، فأخذها من على رأس الطفل وهو نائم ، ثم هرب من الفجر ، وكذلك من آدابهم تهيئة الوطا والغطا وتهيئة ماء الوضوء لقيام الليل .

وكان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى إذا هيأ ماء الوضوء للضيف ، فنام الضيف ولم يقيم الليل ، يقول له :

أذهب بسلام ولا تقم عندنا ، وكذلك كان لا يعطى الضيف الغطا إذا علم منه الكسل ، ويقول :

إنه إذا دفئ نام عن قيام الليل ، ففاتته تلك المواقف الربانية ، وما فيها من الخير والهدايا والتحف ، وكان تبعه ذلك على لأنه لو برد فى الليل لربما قلق فذكر الله تعالى ونام جالساً ، انتهى .

وهذا الطريق غير مسلوك الآن ولكل مقام رجال والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم خدمة الضيف بأنفسهم أو غلامهم

وتزويده إذا رحل عنهم بالطعام وعليق الدواب ، والدراهم والدنانير بحسب قدرتهم ، وقد ذكر الإمام الشافعى ﷺ فى رحلته إلى الإمام مالك ﷺ أنه لما زراه عزم عليه أن ينام عنده وتلقاه بالترحيب ، وقال له : إن للقــادم دهشــة فتلقــوه

بالترحيب قال الإمام الشافعى .

ثم إنه أدخلنى مكانا فى قعر بيته ثم أرسل لى غلاما يقول لى : القبلة ها هنا، وهذا إناء فيه ماء ، وهذا بيت الخلاء وأشار إليه ، ثم غن مالكا دخل على ومعه غلام حامل طبقاً ، فوضعه من يده وسلم على وقال للعبد : أغسل علينا ، فوثب الغلام إلى الإناء ، وأراد أن يصب على أولا ، فصاح به مالك الغسل فى أول الطعام يكون لرب المنزل لأنه يدعوا الناس إلى كرمه ، فحكمه أن يبتدئ بالغسل ، وفى آخر الطعام للضيف لأن صاحب الطعام ينتظر من يدخل ليأكل طعامه .

قال الإمام الشافعى ، فاستحسنت ذلك من مالك ، ثم أكلت أنا وإياه ، فأتينا على جميع الطعام ، وعلم مالك إنى لم أجد من طعامه كفاية ، فقال : يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معذر ، فقلت : لا عذر على من أحسن ، إنما العذر على من أسى ، فلما صلينا العشاء فى مسجد سيدى رسول الله ﷺ سألنى عن بعض أحوال مكة ؟ ثم قال : من حكم المسافر أن يحل تعبه بالاضطجاع ، ثم فارقنى ، فلما كان الثلث الأخير من الليل قرع على مالك الباب وقال الصلاة يرحمك الله ، فانتبهت ، فإذا هو حامل إناء فيه ماء ، فشق ذلك على ، فقال : لا يروعك ما رأيت منى ، فإن خدمة الضيف عندنا فرض انتهى .

فأعلم ذلك وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم إقامة العذر للعلماء إذا لبسوا الملابس الفاخرة وركبوا الخيول المسومة

ويرون أن فعل ذلك من جملة إعزاز الدين ، ولا يطلبون منهم التقشف كالفقراء لأن الفقراء لا يحتاج الناس إليهم كحاجتهم إلى العلماء ، ولا يكاد أحد يعرف لهم مقاما حتى يخرج عليهم فى أحوالهم ، وأيضا فإن المطلوب من الفقرا عكس المطلوب من العلماء لأن كلا منهما تابع لسلطان ما هو حامل له ، فسلطان

الشريعة هو الظاهر فى هذه الدار ، وسلطان الحقيقة هو الظاهر فى تلك الدار .

وقد تقدم فى هذا الكتاب أن حقيقة الصوفى هو عالم عمل بعلمه على وجه الإخلاص لا غير لكن ما عز وجود ذلك فى الناس ظنوا التباين بينهما ، فصاروا يقولون : فلان من أهل الشريعة ، فلان من أهل الحقيقة إذا علمت ذلك فلأهل الله تعالى الظهور بالملابس الحسنة تارة وبالثياب الخلقة تارة ، ولهم الاقتصار على واحدة منهما طول عمرهم لأنهم حملة الشريعة والحقيقة .

ولما دخل الإمام الشافعى على محمد بن الحسن رحمهما الله تعالى رأى فى بيته دراة ملابس ومراكب وغلماناً ، وخداما وسقفا مموهة بالذهب ، فبهت الشافعى من ذلك .

فقال له محمد بن الحسن :

يا أبا عبد الله هذا مما يسر به الصديق ويكمد به العدو .

وأما تقشف العلماء الماضيين كالقاضى بكار ، والشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فذلك لشدة أشتهارهم بالصلاح ، فاستغنى أحدهم عن عزة بالملابس الفاخرة لصلاحه ، فكان للقاضى بكار ﷺ رداء على بدنه ولبدة على رأسه ، وكان للشيخ عز الدين ﷺ فروة يلبسها شتاء وصيفاً ، ولما غضب من السلطان حمل جميع أمتعته على الحمارة ، وركبت زوجته فوق ذلك ، وكذلك بلغنا عن الشيخ أبى اسحق الشيرازى . انتهى .

وقد بسطنا الكلام على ذلك فى الباب الخامس عشر من المنن الكبرى وذكرنا عدة جماعة من علماء عصرنا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم رؤيتهم لمحاسن أعمال الناس لاسيما العلماء والصالحين

ولا يتعرض أحدهم للحكم على بواطنهم بشئ من الأمراض الباطنة ، فيقول عن عالم أو صالح بعيد عن مثل هذا أن يسلم من الرياء أو النفاق أو الحقد أو الحسد أو الكبر أو الشك أو محبة الدنيا ، ونحو ذلك ، فإن الله تعالى لم يكلف

داعيا إلى الله تعالى أن يشق قلوب الناس وينظر ما فيها لأن ذلك من خصائص الحق جل وعلا ، فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

فلا تظن يا أخى أن أحداً من العارفين يحكم على باطن أحد بشئ إذا رأيته يحط على أهل عصره إنما ذلك على سبيل الفرض والتقدير كما كان ﷺ يعرض فى وعظه ولا ينص على أحد معين بل يقول : (ما بال أقوام يفعلون كذا أو يقولون كذا) .

فكل من كان من أهل ذلك الأمر يثبته لنفسه من ذات نفسه ، ويتوب إلى الله تعالى من الاستهانة بأمره أو اجتناب نهيه من غير تقريع ولا توبيخ مع كونه قد حصل به الغرض من النصح ، وقد قدمنا فى هذا الكتاب أن كل من حكم على باطن أحد بشئ فإنما ذلك قياس على حالة هو من خير أو شر ، وأن باطن العبد إذا انجلى من السوء صار الناس كلهم عنده أولياء سالمين من الدسايس والنقايص لا يظن غير ذلك قياسا على نفسه هو وإن من كان بالعكس ، فهو بالعكس .

فأعلم ذلك وتنبه يا أخى لنفسك وكل ما تظن فى أحد سوء فأعلم أن ذلك كله إنما هو صورة نفسك ففتش نفسك وتب واستغفر .

ومما يبادر بعض المتورعين إلى إنكاره على الفقهاء وعدهم لشخص بأن يقرأوا عنده ليلة الجمعة أو ليلة النصف من شعبان مثلا بثلاثة أنصاف ، فيعطيهم شخص أربعة أنصاف ، فيفسخون على الأول ، فينبغى حملهم على أنهم ما فسخوا إلا لظهور تعظيم الثانى للقرآن الكريم بإكرام أهله أكثر فقدموا القراءة عنده والأكل من طعامه لأنه أكرم وأعظم مروة نظير من جعل للمصحف ثوب حرير تعظيما له مع فقد صيغة الإجارة فى مثل ذلك غالبا فما صحت الإجارة .

وقد بسطنا الكلام على حمل الناس على المحامل الحسنة فى الباب الخامس عشر من كتاب المنن الكبرى فراجعه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم مؤاخذة نفوسهم بما يخطر فى بواطنهم من السوء لاحتمال أن الله تعالى يؤاخذهم به كما يؤاخذ الخواص

وذلك كالرياء والحسد ومحبة الدنيا ورؤية نفوسهم على غيرهم لا على وجه الشكر لله تعالى ونحو ذلك فلا يصرون على ما يخطر فى بالهم من السوء بل يتوبون منه كما يتوبون من المعاصى الظاهرة على حد سواء فإنها ظاهرة لله عز وجل لا سيما توبتهم من ذلك كلما يقومون للصلاة فإن من وقف بين يدى الله تعالى وهو متلطخ بمثل هذه الصفات فهو كمن لطخ ثوبه وبدنه بدم وفرث وقيح وطلب أن يجالس السلطان ولله المثل الأعلى فهو إلى العقوبة أقرب لازدرائه بالحضرة فإياك يا أخى وعدم التوبة مما يخطر على بالك ثم إياك وفى القرآن العظيم ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ [1] الآية . فهددهم بالخسف بالمكر وهو من أفعال القلوب [2] والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عملهم بما ورد أنه يكون سببا لموتهم على الإيمان من الأمور المقربة إلى الله تعالى

ولا يقول أحدهم أن كان سبق فى علم الله تعالى إننى أموت علـى الإيمـان ،

---

(١) سورة النحل آية : ٤٥ .

(٢) قـال الله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ؛ فان الجنة هى المأوى).

يقول الإمام القشيرى : ثم أعلم : أن مخالفة النفس رأس العبادة . وقد سئل المشايخ عن الإسلام ، فقالوا : ذبح النفس بسيوف المخالفة . وقال ذو النون المصرى : مفتاح العبادة : الفكرة ، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ، ومخالفتهما ترك شهواتهما .

وقال السرى السقطى : سمعت جدى يقول : آفة العبد : رضاه من نفسه بما هو فيه . وقال الشاعر :

نون الهوان من الهوى مسروقة ... وصريع كل هوى صريع هوان

فهو واقع لا محالة ، وإن سبق فى علم الله تعالى موتى على غير الإيمان فلا يفيد شيئا كما يقع فيه من يسلك الطريق بغير شيخ ، فإن ذلك من الجهل المبين ، فإن الله تعالى رتب الأسباب على مسبباتها .

وقد أجتمع بعض أشياخنا بالسيد الخضر عليه الصلاة والسلام ، فحادثه ، فقال له الخضر : أنى كنت أحضر أبى إدريس الخولانى كلما يقص على الناس ، فقال لى أبو إدريس يوما : يا نبى الله أى عمل إذا عمله العبد أماته الله تعالى على الإيمان ، فقلت له : أدركت مائة ألف نبى ، وسألتهم عن ذلك ؟ فلم يجيبونى، حتى أدركت محمداً ﷺ فسألته عن ذلك ؟ فأجابنى وقال : من صلى صلاة الفجر وقرأ آية الكرسى وآمن الرسول إلى آخر السورة وشهد الله إلى قوله وترزق من تشاء بغير حساب ، فمن واظب على ذلك مات على الإيمان ، وذكر نحوه الإمام أبو الحسن بن فرحون فى كتابه الزاهر انتهى ، وفى هذه القصة صحة اجتماع الخضر بالنبى ﷺ خلاف ما عليه ابن تيمية وأتباعه .

وذكر صاحب كتـــاب بستان العارفين[١] عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قلت : يا رسول الله علمنى شيئا يحفظ على الإيمان حتى القى به ربى عز وجل ، فقال : صلى كل ليلة ركعتين بعد المغرب تقرأ فى كل ركعة منهما بعد الفاتحة سورة القدر مرة ، وسورة الإخلاص ست مرات ، والمعوذتين كل واحدة مرة ، فإن الله تعالى يحفظ عليك الإيمان ، حتى توافى به يوم القيامة ، وفى رواية فإذا فرغ من الركعتين سبح الله تعالى خمس عشر مرة .

فأعلم ذلك وأعمل به والحمد لله رب العالمين .

---

(١) هو الإمام النووى ﷺ صاحب كتاب رياض الصالحين وقد ألف كتاب بستان العارفين دفاعا عن التصوف وتوضيحا لفكرته وقد طبعه حديثا مجمع البحوث الإسلامية فليرجع إليه .

ومن أخلاقهم إذا عملوا مولدا كبيرا بطباخين ومنشدين ونحو ذلك أن يتوجهوا إلى الله تعالى فى حفظ الطباخين وخدام الطعام والحاضرين عن إخراج الصلاة عن وقتها

وقل من الفقراء من يهتدى للتوجه إلى الله تعالى فى مثل ذلك بل ربما أخرج الشيخ أو النقيب تلك الليلة الصلاة عن وقتها اشتغالا بذلك الطعام ، فلو وضع خير ذلك المولد بطعامه ومنشديه فى كفه ، ووضع أثم ترك الصلاة فى وقتها فى كفه لرجح ترك الصلاة على ذلك المسمى خيرا .

فعلم أنه لا يليق بفقير أن يعمل مولدا إلا أن كان يقدر على حفظ الحاضرين من الآفات ، كالغيبة فيه من حيث نظامه ، ومن حيث مساعدة الظلمة له فى ذلك الطعام ، ومن حيث تقبيل الناس رجله أو يده ونحو ذلك .

وقد حضرت مولدا مرة ، فبات غالب من حضره يستغيب صاحب المولد ، فمن ذلك اليوم ما حضرت مولدا إلى وقتى هذا والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم ظنهم بأنفسهم النجاة بأعمالهم

ولو عبدوا الله تعالى عبادة الثقلين بعد أن سمعوا قول البارى تعالى ﴿ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ (١) فكل الناس جاهلون بما يؤول أمرهم إليه من السعادة ، والشقاوة إلا الأنبياء ومن يشاء الله تعالى من الأولياء ومن هنا بكى الأولياء الدم بعد الدموع خوفاً من حسرة ترك مجالسته تعالى فى الآخرة ، فإن أهل النار عن ربهم محجوبون ، وهو أشد العذاب عندهم ، فخف يا أخى من النقص فى طاعاتك كما تخاف من المعاصى الظاهرة والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة الزمر آية : ٤٧ .

ومن أخلاقهم عدم حزنهم النفسانى على أحد صحبهم ثم فارقهم

بل يقولون : قد أصاب فلان فى مفارقة مثلنا خوفا أن يسرق طبعه من صفاتنا الخبيثة ، فيهلك ، فهم ينظرون للذى عليهم أولاً ، ولا ينظرون للذى لهم إلا بعد ذلك عكس ما عليه غيرهم .

وهذا خلق غريب فى هذا الزمان بل بعضهم يقول عن من فارقه : أن فلانا مُقت ، ويقيم الأدلة على مقته ، وذلك من علامة أنه ممن زين له سوء علمه فرآه حسنا ولو كان كاملا لرأى حسناته ذنوبا بالنظر لما يستحقه جلال الله تعالى.

ومن هنا كان سيدى على الخواص رحمه الله تعالى يزجر من يقبل يده ويقول : تقبيل اليد لا يكون إلا لمن ثبت على قدم الاستقامة إلى الممات ، ونحن أصحاب ذنوب ، فالهرب من التعظيم أولى بكل عاقل ، وربما ألفت النفس ذلك ، فصارت تستنكر ذلك إذا ترك الناس تقبيل يدها أو رجلها ، وذلك من علامات كبرها التى تستوجب به دخول النار ، فلينتبه الفقير الساذج لمثل ذلك والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم هروبهم من فعل كل شئ يقيم لهم ناموسا من بين أقرانهم ويميزهم عنهم إلا بعذر شرعى

فلا يطالب أحدهم إخوانه بالتردد إلى موضعه مع عدم أن يتردد إلى مواضعهم أو يطالبهم بتقبيل يده ، ولا يقبل هو يد أحد منهم ، أو يطلب منهم أن يخدموه ، ولا يخدم هو أحدا منهم .

وهذا خلق غريب فى غالب فقرا الزمان ، فيريد أحدهم التخصيص بالحرمة عن أصحابه ، وقد رأيت شخصا خرج من بيته ، فركب حمارة ، وصار جماعته يأمرون الناس بالقيام له من حوانيتهم الحوانيت : وينزلون من يرونه راكبا على

دابته كما يصنعون بأهل الذمة فى بعض الأوقات ، ويقولون انزلوا للشيخ والشيخ راكب ساكت إما غارق فى حب الله تعالى ، أو فى حب نفسه وشهواتها لا يخلوا من واحدة منهما ، فالله تعالى يغفر له أن كان مع نفسه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم تكبيرهم بإخوانهم بحسب مقامهم فى التواضع

فكلما تواضع أخوهم كلما عظموه أكثر مسارعة لإظهار ما وعد الله تعالى به على لسان نبيه ﷺ فى قوله من تواضع لله رفعه الله .

وكان الشيخ محيى الدين العربى ﷺ يقول :

تعرف منازل الناس عند الله تعالى بطريقتين لا ثالث لهما .

أحدهما بالكشف .

والثانية بكثرة الطاعات .

وكان سيدى ياقوت العرشى رحمه الله تعالى يقول :

ينبغى للفقير أن يعظم الناس بحسب دينهم لا بحسب ثيابهم (١) .

وكان سيدى أبو العباس المرسى ﷺ يقوم لبعض العصاة فى بعض الأوقات ، ولا يقوم لبعض المطيعين فقيل له فى ذلك فقال :

أنى ألمح من بعض المطيعين الكبر ومن بعض العاصيين ذل النفس ، فأعامل كل واحد منهم بحسب ما فى نفسه انتهى .

وكان سيدى على الخواص يعظم الفقير الخامل الذكر بين الناس أكثر من

---

(١) قال ابن عطاء : التواضع : قبول الحق ممن كان .

وقال عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب ﷺ ، وعلى عاتقه قربة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا ينبغى لك هذا !!

فقال : لما آتأنى الوفود سامعين مطيعين ، دخلت فى نفسى نخوة فأحببت أن أكسرها ... ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها فى إنهائها .

الفقير المشهور بالكرامات ، ويقول :

أن هذه الدار ليست بمحل لظهور الكرامات ؛ وإنما هى دار تكليف ، فكل كامل مشغول بما كلف به فيها .

وتقدم فى هذا الكتاب أن شريفا دخل على سيدى ياقوت العرشى ، فرأى الناس يقبلون رجله ولا يلتفتون إليه هو ، فأخذ فى نفسه من ذلك ، فقال له سيدى ياقوت فى أذنه سراً :

يا سيد إنما عظمونى لأنى تبعت طريق سلفك الطاهر ، فاكتسبت منهم الشرف، وأنت لما خالفت سلفك فى أخلاقهم وتخلقت بالرذائل أهنت ، فسكت الشريف ولم يمر جواباً فأعلم ذلك واعمل عليه والحمد لله رب العالمين .

ومن أخلاقهم عدم تكديرهم بحظ نفس ممن أمروه بأمر ولم يمتثل أمرهم

لأنهم نواب رسول الله ﷺ ، وقد قال تعالى:﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ [1]﴾ فالداعى إلى خير إنما هو مبلغ شرع ربه لعباده لا غير والحق تعالى يفعل بعد ذلك ما يشاء فمن تكدر ممن خالفه بحظ نفسه فهو مع نفسه إلا أن يظهر التكدر للعاصى رحمه به رجاء أن يراعى خاطره ؛ ويطيع أمره ، فيحصل له الخير .

فعامل يا أخى الخلق معاملة الحق تعالى لك ، وأحذر أن تقطع عنهم برك وإحسانك إذا خالفوا أمرك ، فإن الله تعالى يرزقك ليلا ونهارا ، وأنت مصر على معاصية وانصح إخوانك مع رحمتك بهم والحمد لله رب العالمين .

---

(١) سورة المائدة آية : ٩٩ .

محتويـات الكتـــاب

الموضـــوع	الصفحة
* **مقدمة** .... للدكتور منيع عبد الحليم .	٣
* مدخل إلى الأخلاق الإسلامية .	٤
* فى صفات عباد الرحمن .	٣٦
* ترجمة العارف بالله الإمام عبد الوهاب الشعرانى .	٦٨
* مدخل الكتاب للمؤلف .	٧٥
* مقدمة المؤلف فى بيان عدة أمور يتعين على مطلع الكتاب الوقوف عليها قبل الخوض فيه بغير فهم ليعرف اصطلاح القوم.	٩٧
* بيان نفاسة طريق سيدى الشيخ إبراهيم المتبولى التى بنينا عليها أخلاق الكتاب ﷺ وبيان عقوبة من أنكر على أهل الطريق وبيان أن كل من لم يخالط القوم بعد عن معرفة اصطلاحهم فأخطأ طريق الصواب .	١٠٢
* بيان نبذة صالحة من مصطلح القوم من حيث أخذهم بالعزائم دون الرخص ذكرناه هنا ليطلع عليه من يطالع هذا الكتاب قبل الخوض فيه بغير علم ، فربما بادر من لا يعرف مصطلحهم إلى الإنكار عليهم بغير علم .	١٥٦
الباب الأول	
* فى ذكر جملة من الأخلاق	١٧٤
* من أخلاق سيدى إبراهيم المتبولى وأخلاق أصحابه رضى الله عنهم أجمعين .	٢٠٠

الموضـــــــــوع	الصفحة
* ومن أخلاقهم ان يشهدوا نفوسهم وتلامذتهم حال تربيتهم لهم أنهم كلهم من جملة تلامذة رسول الله ﷺ وهو الشيخ الحقيقى لهم .	٢٠٣
* ومن أخلاقهم رميهم الدنيا وشهواتها من يدهم ومن قلبهم أول دخولهم فى الطريق .	٢٠٥
* ومن أخلاقهم أن لا يصدوا لأخذ العهد ولا لإلباس الخرقة ولا لتلقيه الذكر إلا بعد اجتماع شروط هذه المراتب .	٢٠٦
* ومن أخلاقهم كراهتهم لتقبيل أحد يدهم فضلا عن رجلهم .	٢٠٩
* ومن أخلاقهم كثرة تفتيشهم نفوسهم كل ساعة من ليل أو نهار ليعلموا هل الحق تعالى راض عنهم أو ساخط عليهم .	٢١١
* ومن أخلاقهم كثرة شفقتهم ورحمتهم على جميع عصاة هذه الأمة المحمدية من شربة الخمر والمكاسين وسائر من عليه تبعة للخلق .	٢١٤
* ومن أخلاقهم عدم مساعدة أحد من إخوانهم على تولية شئ من الوظائف التى لا خلاص لهم فيها بميزان الشرع الشريف الآن كالحسبة والقضاء .	٢١٦
* ومن أخلاقهم المواظبة على قيام الليل ولا يتركون ذلك إلا لعذر شرعى دون الكسل .	٢٢١
* ومن أخلاقهم أن لا يقرأوا قرآناً ولا حديثاً ولا يسبحون الله تعالى ولا يفعلون شيئاً من الأذكار إلا جالسين ما داموا قادرين على ذلك .	٢٢٥
* ومن أخلاقهم إذا نام أحدهم عن قيام الليل وفاته الوقوف فى تلك المواكب الشريفة والحضرات المنيفة أن يندم ويستغفر .	٢٢٥

الموضـوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم إذا سافروا إلى بلاد الريف وخافوا أن يتبعهم الناس أن يسافروا ليلا تخفيفاً على أهل البلاد .	٢٢٥
❋ ومن أخلاقهم إذا قصر أملهم أو ضاق الوقت عن تأدية تلك العبادة عادة أن يبدأو بقراءة جوامع الكلم الواردة فى السنة أو بقراءة تلك الآيات والسور التى ورد تفضيلها على غيرها.	٢٢٧
❋ ومن أخلاقهم كثرة محبتهم لأهل العلم .	٢٢٩
❋ ومن أخلاقهم التى أجمعوا عليها ونفذت بها وصاياهم إلى ساير أقطار الأرض أنه لا يجوز لأحد التصدر فى طريق القوم لا رشاد المريدين إلا بعد تبحره فى علوم الشريعة المطهرة والحقيقة .	٢٣٢
❋ ومن أخلاقهم سترهم لزلات من تاب على يديهم تخلقا بأخلاق الله عز وجل .	٢٣٨
❋ ومن أخلاقهم أن لا يتولى أحدهم نظرا على مسجد أو يتيم ونحو ذلك مما تشترط فيه العدالة إلا أن يكون عدلا فى الباطن .	٢٣٩
❋ ومن أخلاقهم عدم الاعتناء بنظم الشعر فى رسائلهم وإنما يتمثلون به فقط من كلام غيرهم .	٢٤٠
❋ ومن أخلاقهم ارتباط قلبهم بكل إمام صلوا خلفه .	٢٤١
❋ ومن أخلاقهم استنادهم فى سائر أوقاتهم إلى كبير من أهل الحضرة الإلآهية ليحميهم من الآفات التى تصيبهم فى الدنيا والآخرة .	٢٤٢

الموضوع | الصفحة

* ومن أخلاقهم حثهم لأصحابهم على كثرة العبادة من حيث كونها يرجع ثمرتها إلى صحائف رسول الله ﷺ . ٢٤٤
* ومن أخلاقهم زيادة الستر على الأكابر من العلماء والصالحين . ٢٤٤
* ومن أخلاقهم تعظيمهم للسنة الواردة واعتناؤهم بالعمل بها . ٢٤٥
* ومن أخلاقهم تفقدهم تكرار محفوظاتهم فى العلم خوف النسيان. ٢٤٧
* ومن أخلاقهم التصدق بكل ثوب أو عمامة أو قلنسوة أو سراويل أو رداء عصوا ربهم فيه . ٢٤٩
* ومن أخلاقهم كثرة أجوبتهم الحسنة عن أكابر الحضرة الإلاهية. ٢٥٠

الباب الثاني

الباب الثانى : فى جملة أخرى من الأخلاق . ٣٠٩
* فمن أخلاقهم غيرتهم لله تعالى إذا انتهكت محارمه . ٣٠٩
* ومن أخلاقهم تخفيفها الصلاة إذا كانوا أئمة للناس . ٣١٠
* ومن أخلاقهم عدم سفرهم إلى الحجاز فى محفة إلا لضرورة شرعية . ٣١١
* ومن أخلاقهم شمهم لروائح المعاصى . ٣١٢
* ومن أخلاقهم عدم الإكثار من حضور الولائم التى لا خلاص فيها لصاحبها شرعا . ٣١٥
* ومن أخلاقهم حرصهم فى جميع مشاهدهم فى أعمالهم وأحوالهم على أن تكون دائرة مع الحق لامع حظ نفس . ٣١٧
* ومن أخلاقهم كثرة توبتهم من علومهم وأعمالهم التى دخلها الرياء والنفاق . ٣١٩
* ومن أخلاقهم كثرة زهدهم فى المطاعم والملابس والمناكح والمراكب والمساكن ونحو ذلك مع ملابستهم لها . ٣٢٠

الموضوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم كثرة دعائهم للسلطان ونوابه .	٣٢٤
❋ ومن أخلاقهم العمل على تحصيل المقامات الشريفة .	٣٢٥
❋ ومن أخلاقهم مراعاة خاطر شيخهم .	٣٢٨
❋ ومن أخلاقهم كثرة محبتهم للأعمال الصالحة ومحبتهم لأن تضاف إلى غيرهم عكس المرائين .	٣٢٩
❋ ومن أخلاقهم عدم الثقة بأصدقائهم فى كل زمان .	٣٣٢
❋ ومن أخلاقهم عدم كثرة امتحانهم لأصحابهم إلا لغرض شرعى .	٣٣٣
❋ ومن أخلاقهم عدم ظنهم فى أحد من المسلمين بسوء ما حق .	٣٣٤
❋ ومن أخلاقهم عدم تمكينهم أحداً أن يقوم لهم أو يقبل يدهم فضلا عن رجلهم .	٣٣٤
❋ ومن أخلاقهم كثرة تنفيرهم للإخوان عن أن يرسلوا إليهم طعاماً أو هدية إلا بعد استئذانهم فى ذلك .	٣٣٥
❋ ومن أخلاقهم كثرة مسامحتهم بحقوقهم إذا أخل بها الناس .	٣٣٦
❋ ومن أخلاقهم عدم اغترارهم بالمرائى الحسنة التى يراها الناس لهم .	٣٣٦
❋ ومن أخلاقهم عدم إجابتهم لمن دعاهم إلى وليمة بقصد التفاخر.	٣٣٧
❋ ومن أخلاقهم شهودهم أن القائمين فى الكسب بالبيع والشراء وعمل الحرفة أفضل منهم .	٣٣٧
❋ ومن أخلاقهم عدم مقابلة المسئ بالإساءة .	٣٣٨
❋ ومن أخلاقهم إقامة العذر لإخوانهم إذا لم يقدروا على الصبر عن مقابلة من آذاهم .	٣٣٩
❋ ومن أخلاقهم عدم بذرهم علومهم ومعارفهم فى غير محل قابل.	٣٤٠
❋ ومن أخلاقهم أن أحدهم يزداد قلبه بالسلب تمكيناً ويقيناً .	٣٤٠

الموضـــــــوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم عدم العمل برأى النساء فى هذا الزمان .	٣٤١
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم لتعلمهم علوم الفلاسفة الأول .	٣٤١
❋ ومن أخلاقهم كثرة نصحهم لإخوانهم بحكم العادة .	٣٤٢
❋ ومن أخلاقهم شهودهم أن جميع ما معهم من العلوم والمعارف وغيرها كله عارية من الله تعالى لهم .	٣٤٣
❋ ومن أخلاقهم : أن لا يجيبوا من طلب منهم مسألة من العلم مثلا وقلبه غافل .	٣٤٤
❋ ومن أخلاقهم تعظيمهم لكل من حمل العلم والقرآن العظيم .	٣٤٦
❋ ومن أخلاقهم عدم شكواهم من أذاهم إلى الله تعالى .	٣٤٧
❋ ومن أخلاقهم عملهم على تحصيل كمال مقام إيمانهم قبل كل مقام .	٣٤٨
❋ ومن أخلاقهم قصدهم ابتغاء مرضاه الله تعالى فى كل قول أو فعل .	٣٥٠
❋ ومن أخلاقهم أنهم لا يتجردون عن لباس الثياب الفاخرة مثلا .	٣٥١
❋ ومن أخلاقهم شهود الضعف فى نفوسهم دائما .	٣٥٤
❋ ومن أخلاقهم عدم التساهل بأخذهم أموال الناس بالباطل .	٣٥٥
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم لوقوع يدهم على فرجهم من غير حاجة.	٣٥٦
❋ ومن أخلاقهم محبة المصافحة عقب مجلس الذكر .	٣٥٧
❋ ومن أخلاقهم إيثارهم جناب الحق تعالى على جنابهم .	٣٥٨
❋ ومن أخلاقهم : عدم تقريرهم فقراء الأحمدية والبرهانية والرفاعية على اكتفائهم بمشايخهم الذين ماتوا .	٣٥٨
❋ ومن أخلاقهم عدم مبادرتهم إلى الإنكار على من أمر أحداً من تلامذته بحلق لحيته مثلا .	٣٥٩

الموضوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم التزاور لبعضهم بعضاً كلما اشتاقوا لبعضهم .	٣٦٠
❋ ومن أخلاقهم تعليم أصحابهم العفة عن مال الوقف .	٣٦١
❋ ومن أخلاقهم أن لا يستجلبوا أحداً من أبناء الدنيا لصحبتهم .	٣٦٢
❋ ومن أخلاقهم كثرة سؤالهم الله تعالى أن يسلب عنهم الحال الذى يؤذى من أذاهم .	٣٦٢
❋ ومن أخلاقهم تربيتهم لأصحابهم بالنظر .	٣٦٣
❋ ومن أخلاقهم : تقريب الطريق على المريد ما أمكن .	٣٦٤
❋ ومن أخلاقهم أن لا يرجعوا فى ما خرجوا عنه فى سرهم لأحد .	٣٦٧
❋ ومن أخلاقهم إذا طال مكث الضيف عندهم أشهراً .	٣٦٨
❋ ومن أخلاقهم كثرة أدبهم مع كل من تزيا بزى الفقراء .	٣٦٨
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم وقوع الخوارق على يديهم فى هذه الدار.	٣٧٠
❋ ومن أخلاقهم شدة محبتهم لآل سيدهم ومولاهم رسول الله ﷺ وأصحابه .	٣٧١
❋ ومن أخلاقهم تفتيشهم لأعضائهم الظاهرة والباطنة .	٣٧٢
❋ ومن أخلاقهم كثرة الاستغفار ليلا ونهاراً .	٣٧٤
❋ ومن أخلاقهم خدمة زوجتهم وأمتهم إذا مرضت .	٣٧٤
❋ ومن أخلاقهم شدة كراهتهم للخلوة بالأجنبية .	٣٧٥
❋ ومن أخلاقهم مطالبة نفوسهم بحقوق الناس وعدم مطالبتهم الناس بحقوقهم .	٣٧٦
❋ ومن أخلاقهم مساعدة إخوانهم الذين تصدوا لحملات الناس سترة لإخوانهم بين الناس .	٣٧٧
❋ ومن أخلاقهم عدم قبولهم هدية ممن حملوا عنه حمله .	٣٧٨
❋ ومن أخلاقهم محبتهم للوحدة أواخر أعمرهم .	٣٧٩
❋ ومن أخلاقهم شهودهم قبيح زلاتهم .	٣٨٢

الموضوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم محبة إخواتهم المسلمين محبة أخوة وإسلام وإيمان لا محبة طبع وإحسان .	٣٨٣
❋ ومن أخلاقهم أن يفيدوا كل من جلس إليهم من الفقهاء والفقراء والعوام شيئاً من الفوائد .	٣٨٤
❋ ومن أخلاقهم عدم التعشق إلى معرفة الأمور المستقبلة .	٣٨٤
❋ ومن أخلاقهم إطعام الفقير ما يطلبه منهم بالشرط .	٣٨٦
❋ ومن أخلاقهم كثرة لدعاء لسيدنا ومولانا أبى العباس الخضر .	٣٨٧

الباب الثالث

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث : فى جملة أخرى من الأخلاق .	٣٩١
❋ ومن أخلاقهم : عدم إنكارهم على أرباب الأحوال فى أكلهم من أطعمة الظلمة لأنهم من أقسام المجاذيب فى عدم التكليف .	٣٩١
❋ ومن أخلاقهم عدم إنكارهم على من يقول : اجتمعت بملك الموت فى اليقظة .	٣٩١
❋ ومن أخلاقهم تعظيمهم للفقير ببادى الرأى بمجرد رؤيتهم لمرقعته مثلا .	٣٩٣
❋ ومن أخلاقهم ندائهم لأصحابهم بالقلب .	٣٩٤
❋ ومن أخلاقهم أن يجددوا معالم الطريق كلما خلقت .	٣٩٥
❋ ومن أخلاقهم كثرة الجد والاجتهاد فى العبادة ، ليجددوا الطريق بعد موت أشياخهم الذين كانوا يجددون آداب الطريق .	٣٩٨
❋ ومن أخلاقهم شدة الحط والزجر والتوبيخ والهجر لمن يقول : ما ثم إلا الله تعالى .	٣٩٩
❋ ومن أخلاقهم عدم الجزم بترجيح أحد من العلماء أو الفقراء على غيره أدبا مع الله تعالى ، فإنه يمحو ما يشاء ويثبت .	٤٠٠

الموضوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم : الستر على من يدعى الطريق بغير حق إلا إن ترتب على الستر محظور .	٤٠١
❋ ومن أخلاقهم كثرة شفقتهم .	٤٠١
❋ ومن أخلاقهم كثرة تعظيمهم للعلماء .	٤٠٢
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم للقرب من الملوك والأمراء إلا إن أعطاهم الله تعالى الكشف الصحيح .	٤٠٣
❋ ومن أخلاقهم عدم طلبهم كثرة الاتباع .	٤٠٤
❋ ومن أخلاقهم عدم مبادرتهم للإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاة من كمل العارفين إلا بطريق شرعى .	٤٠٥
❋ ومن أخلاقهم حسن سياستهم لصاحبهم .	٤٠٦
❋ ومن أخلاقهم عدم معاداتهم لأحد ممن يحضر المواكب الإلهية .	٤٠٦
❋ ومن أخلاقهم المبالغة فى الأدب مع ولاتهم .	٤٠٧
❋ ومن أخلاقهم أدبهم مع طلبة شيخ إمامهم .	٤٠٨
❋ ومن أخلاقهم حمايتهم من الأكل من طعام المتهورين فى مكاسبهم .	٤٠٩
❋ ومن أخلاقهم أكلهم من طعام من يعتقد فيهم الصلاح .	٤١٠
❋ ومن أخلاقهم مسالمة الظلمة وعدم الركون إليهم .	٤١٠
❋ ومن أخلاقهم عدم الأكل من طعام من يأكل بدينه من الفقراء .	٤١١
❋ ومن أخلاقهم عدم أكلهم من طعام النذور أو الأعراس الواسعة أو طعام العزا والجمع فى المقابر وتمام الشعر ونحو ذلك .	٤١٢
❋ ومن أخلاقهم عدم الأكل من طعام الصنايعى الذى يعمل بالقوت .	٤١٣
❋ ومن أخلاقهم عدم أكلهم من طعام من علموا أن عليه ديناً .	٤١٣

الموضـــــــــوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم عدم المبادرة إلى الإنكار على من يروه يسعى على وظايف الناس من طلبة العلم .	٤١٤
❋ ومن أخلاقهم عدم مزاحمتهم على شئ من مناصب الدنيا .	٤١٤
❋ ومن أخلاقهم شدة حيائهم من الله تعالى أو من جميع الكون .	٤١٥
❋ ومن أخلاقهم عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه من مقامات الكمال.	٤١٧
❋ ومن أخلاقهم حسن ظنهم بربهم إذا سلط عليهم الخلق بالأذى .	٤١٨
❋ ومن أخلاقهم محبتهم فى كثرة التلامذة ليعلموهم الأدب مع الله تعالى .	٤١٨
❋ ومن أخلاقهم كثرة تفويضهم إلى الله تعالى فى كل أمر طلبوه منه ما لم يشرع	٤١٩
❋ ومن أخلاقهم مداومتهم فى نهايتهم على الأعمال الصالحة .	٤٢٠
❋ ومن أخلاقهم أنهم كلما فرقوا فى المقامات ازدادوا معرفة بعيوبهم ونقايصهم .	٤٢١
❋ ومن أخلاقهم كثرة الرحمة على خلق الله تعالى .	٤٢٢
❋ ومن أخلاقهم إذا اطلعوا على عيب جليسهم وسريرته الخبيثة أن لا يفضحوه بين الناس .	٤٢٢
❋ ومن أخلاقهم طلبهم لكل حاجة طلبوها من حوايج الدنيا والآخرة من باب الله تعالى وما ثم إلا بابه .	٤٢٣
❋ ومن أخلاقهم عدم استبعادهم على أنفسهم وقوعهم فى أكبر الكباير ولو بلغوا فى المقامات ما بلغوا .	٤٢٤
❋ ومن أخلاقهم العمل على تطهير الباطن من المعاصى والرذائل .	٤٢٥
❋ ومن أخلاقهم قلة تناولهم الشهوات وقلة سماعهم للآلات .	٤٢٦
❋ ومن أخلاقهم كثرة الاستعاذة بالله تعالى من شر الحسدة .	٤٢٦
❋ ومن أخلاقهم كثرة تعظيمهم لولاة زمانهم من أمير وقاض .	٤٢٧

الموضوع	الصفحة
* ومن أخلاقهم إذا زارهم أمير أن يقوموا له ويقبلوا يده .	٤٢٨
* ومن أخلاقهم كراهتهم لتردد أحد من الأكابر إليهم .	٤٢٩
* ومن أخلاقهم أن لا يعتبوا قط على من انقطع عن التردد إليهم .	٤٣٠
* ومن أخلاقهم إذا عمل أحدهم واعظاً أو مسلكا أن لا يغفل عن تفتيش نفسه .	٤٣١
* ومن أخلاقهم إذا كشف لأحد من ألواح المحو والإثبات أنه يقع فى معصية .	٤٣١
* ومن أخلاقهم أن يؤدوا ما عليهم من الحقوق لأربابها .	٤٣٣
* ومن أخلاقهم ردهم كل شئ يأتيهم من الولاة الذين لا يتورعون فى أموالهم .	٤٣٣
* ومن أخلاقهم التواضع مع أولاد أشياخهم .	٤٣٤
* ومن أخلاقهم تقديم العمل على تحصيل باطنهم من سائر المعاصى الباطنة .	٤٣٤
* ومن أخلاقهم عدم وقوعهم فى المعاصى لأنهم داعون إلى الله تعالى .	٤٣٥
* ومن أخلاقهم عدم خوفهم من الظلمة ولو توعدوهم بكل سوء .	٤٣٦
* ومن أخلاقهم حسن الظن بالعلماء والفقراء الذين يدخلون على الأمراء والظلمة .	٤٣٧
* ومن أخلاقهم عدم خوفهم من العقارب والسباع الضوارى واللصوص إذا سافروا البلاد .	٤٣٨
* ومن أخلاقهم كثرة رؤيتهم المنامات الردية دون الحسنة .	٤٣٨
* ومن أخلاقهم أرخاه الطيلسان على عيونهم حياء من الله تعالى ومن الخلق .	٤٣٩

الموضـــــــوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم جهرهم بالذكر محبة فى الله عز وجل وطلبا لأحد يسمعهم .	٤٤٠
❋ ومن أخلاقهم محبتهم فى التقلل من مجالسة الأمراء والعلماء .	٤٤٠
❋ ومن أخلاقهم كثرة تعظيمهم للشرفاء .	٤٤١
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم للأكل من صدقات الناس الخاصة المقيدة بشروط عزيزة .	٤٤٢
❋ ومن أخلاقهم استيذانهم لربهم تبارك وتعالى إذا كانوا يقرون كلامه العزيز .	٤٤٣
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم لمدرجلهم فى ساعة من ليل أو نهار .	٤٤٣
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم للنوم على حدث أصغر فضلا عن الأكبر .	٤٤٤
❋ ومن أخلاقهم كثرة الاجتهاد فى العبادة ولا يملون منها ليلا ولا نهاراً .	٤٤٥
❋ ومن أخلاقهم أن لا يصغوا قط لمن يمدحهم .	٤٤٥
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم للنوم فى النصف الثانى من الليل	٤٤٦
❋ ومن أخلاقهم : كثرة مجالستهم للحق جل وعلا طلبا لزوال الغم والهم الواقع للناس فى هذه الدار .	٤٤٧
❋ ومن أخلاقهم كثرة رضاهم عن ربهم إذا قتر عليهم الرزق أكثر من رضاهم عنه إذا وسع عليهم الرزق .	٤٤٨
❋ ومن أخلاقهم كثرة استغفارهم لرؤيتهم النقص فى عباداتهم .	٤٤٨
❋ ومن أخلاقهم حسن سياستهم للمقاريض الذين يقرضون فى أعراض الناس .	٤٤٩
❋ ومن أخلاقهم عدم رؤيتهم فى نفوسهم أنهم من جملة العلماء العاملين أو عباد الله الصالحين .	٤٥٠

الموضـــــوع	الصفحة

❋ ومن أخلاقهم موافقتهم فى مدح عدوهم إذا رأوا أحدا يمدحه بنظم أو نثر. ٤٥١

❋ ومن أخلاقهم عدم قبولهم هدية علموا بالقرائن أن لها قدرا عند مهديها . ٤٥٢

❋ ومن أخلاقهم كراهتهم للأكل وحدهم . ٤٥٢

❋ ومن أخلاقهم مباسطتهم للخادم وتواضعهم معه . ٤٥٢

❋ ومن أخلاقهم عدم ردهم السائل . ٤٥٣

❋ ومن أخلاقهم فى حال كمالهم النسبى أن يقدموا نفوسهم على غيرهم فى المطاعم والملابس وغيرها . ٤٥٣

❋ ومن أخلاقهم كثرة تسليمهم وترك تكذيبهم لكل من ادعى ممكنا فى العادة من سائر المقامات حتى القطبية . ٤٥٤

❋ ومن أخلاقهم كمال التنزيه لله تعالى . ٤٥٤

❋ ومن أخلاقهم عدم تسليمهم للنفس ما تدعيه حال المرض . ٤٥٥

الباب الرابع

❋ فى جملة أخرى من الأخلاق . ٤٥٦

❋ فمن أخلاقهم عدم أكلهم من طعام من شفعوا فيه شفاعة . ٤٥٨

❋ ومن أخلاقهم عدم قبول هدايا الظلمة وأعوانهم . ٤٥٨

❋ ومن أخلاقهم كثرة التزاور لبعضهم بعضاً . ٤٥٩

❋ ومن أخلاقهم أن لا يصحبوا أميرا إلا أن وطنوا نفوسهم على القيام بشرط صحبته بحيث لا يخلوا منها بشرط واحد . ٤٦٠

❋ ومن أخلاقهم عدم مزاحمتهم على صحبة أحد من الولاة وأبناء الدنيا . ٤٦١

الموضـــــوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم أنهم لا يقدمون على صحبة أحد من الولاة إلا إذا رأوا صحبة ترجح على عدم صحبته يقينا من غير تلبيس فى النفس .	٤٦٢
❋ ومن أخلاقهم حسن سياستهم لمن يشفعون عنده من الأمراء .	٤٦٢
❋ ومن أخلاقهم أن لا يأكلوا من ضحايا مشايخ الزوايا وغيرهم .	٤٦٣
❋ ومن أخلاقهم عدم قبولهم المساعدة فى الحج من الظلمة .	٤٦٣
❋ ومن أخلاقهم كراهة المجاورة بمكة المشرفة خوفاً من إخلالهم بأدب تلك الحضرة الشريفة .	٤٦٤
❋ ومن أخلاقهم التعفف عن الأكل من صدقات الناس وأوساخهم .	٤٦٥
❋ ومن أخلاقهم أن لا يطلبوا من الله تعالى أن يوسع عليهم فى الدنيا إلا إن وطنوا نفوسهم على كثرة العبادة ليلا ونهاراً .	٤٦٦
❋ ومن أخلاقهم صحبة مشايخهم على الصدق والوفاق دون الكذب والاختلاف والنفاق .	٤٦٦
❋ ومن أخلاقهم إذا ربوا يتيماً أو يتيمة وأنفقوا عليهما حتى تزوجا مثلا أن لا يروا لهم على ذلك اليتيم فضلا .	٤٦٨
❋ ومن أخلاقهم تعظيم الأماكن التى ورد أن الله تعالى عند أهلها حاضر .	٤٦٨
❋ ومن أخلاقهم تعاطيهم الأسباب التى تميز صديقهم من عدوهم .	٤٦٩
❋ ومن أخلاقهم افتخارهم بزيادة الفقراء لهم .	٤٦٩
❋ ومن أخلاقهم كثرة رحمتهم لمن قدر الله تعالى عليه شيئاً من المنكرات .	٤٧٢
❋ ومن أخلاقهم زيادة المحبة والتعظيم لكل من ينصحهم فى دينهم.	٤٧٥
❋ ومن أخلاقهم قيامهم بواجب حق والديهم .	٤٧٦

الموضـــــــــوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم عدم سؤالهم ربهم أن يعطيهم المنازل الرفيعة فى الجنة إلا بعد توطينهم نفوسهم على كثرة الصبر على البلايا والمحن فى هذه الدار.	٤٧٧
❋ ومن أخلاقهم إكرام الخبز .	٤٧٨
❋ ومن أخلاقهم كراهتهم للاجتماع بالمريد الذى أخذ عن أحد من أقرانهم إلا لضرورة شرعية .	٤٧٩
❋ ومن أخلاقهم أن أحدهم لا يقول لأخيه أنى أحبك إلا بعد أن تسمح نفسه بمقاسمته فى ماله وحسناته لأن لا يكذب .	٤٨٠
❋ ومن أخلاقهم محبتهم لنسائهم محبة أخوة فى الإسلام .	٤٨٠
❋ ومن أخلاقهم : عدم مبادرتهم لصحبة أحد إلا بعد امتحانه فى أمور دينه لأن من لا ينفع نفسه لا ينفع غيره .	٤٨٢
❋ ومن أخلاقهم إدمان إمساك السبحة للتسبيح عليها .	٤٨٢
❋ ومن أخلاقهم كثرة الدعاء لأنفسهم .	٤٨٣
❋ ومن أخلاقهم كثرة محبتهم وإجلالهم للعلماء .	٤٨٤
❋ ومن أخلاقهم كثرة استغفارهم كلما اعتقد الناس فيهم الخير .	٤٨٤
❋ ومن أخلاقهم عدم أكلهم من المال المشترك إذا أتاهم به أحد الشريكين قبل القسمة وقبل القرعة .	٤٨٥
❋ ومن أخلاقهم عدم وقوعهم فى خديعة أو غدر لأحد إلا بطريق شرعى .	٤٨٥
❋ ومن أخلاقهم أن لا يبادروا إلى الإنكار على من رأوه يأخذ مال الولاة ويفرقها على الناس إلا إن علموا أنه لا كشف عنده .	٤٨٦
❋ ومن أخلاقهم أن لا يتخذوا من النقباء إلا من يكون أمينا عفيفاً لا يسرق ولا يخون ولا يفضل نفسه على إخوانه ولو سراً .	٤٨٦

الموضــــــــوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم شدة تفتيشهم على كل لقمة تدخل جوفهم .	٤٨٧
❋ ومن أخلاقهم إذا صار أحدهم موردا للأمراء والأكابر أن لا يمدح أحداً منهم بحضرة عدوه .	٤٨٩
❋ ومن أخلاقهم إقامة العذر باطنا للأمير الذى يتولى ولاية كان عاهدهم أنه يعدل فيها إذا وليها .	٤٨٩
❋ ومن أخلاقهم أن يعظوا كل أمير دخلوا عليه لحاجة .	٤٩٠
❋ ومن أخلاقهم كثرة تبجيلهم وتعظيمهم لمن لاث الناس بعرضه من فقرا العصر .	٤٩١
❋ ومن أخلاقهم العمل بأحاديث الفضايل على وجه الإيمان والتصديق.	٤٩٢
❋ ومن أخلاقهم عدم ظنهم أن أعمالهم ولو كثرت تحمى أحدهم من وقوع العذاب به فى ساعة من ليل أو نهار .	٤٩٣
❋ ومن أخلاقهم كثرة الصلاة والتسليم على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ .	٤٩٤
❋ ومن أخلاقهم محبتهم لتحصيل مطابقة ما يرونه فى النوم لما أخبر به رسول الله ﷺ من المغيبات .	٤٩٦
❋ ومن أخلاقهم مجاهدة نفوسهم بالجوع والسهر المفرطين .	٤٩٧
❋ ومن أخلاقهم كثرة التسليم لولاة الأمور وحملهم على المحامل الحسنة بطريقة الشرعى .	٤٩٨
❋ ومن أخلاقهم عدم التعصب فى هدم الكنائس والبيع .	٤٩٩
❋ ومن أخلاقهم افتاؤهم بالتشديد لمن استفتاهم من المتورعين .	٥٠٠
❋ ومن أخلاقهم عدم قلقهم من مؤنة من أقام عندهم من المجاورين .	٥٠٤

الموضـــــوع	الصفحة
❋ ومن أخلاقهم حسن سياستهم لقاصد الأمير إذا أتاهم بشئ من الدنيا يفرقونه على الفقرا أو لأنفسهم .	٥٠٥
❋ ومن إخلاقهم إذا دخلوا على أمير يشفعون عنده فى إنسان استحق التعزير .	٥٠٧
❋ ومن أخلاقهم كثرة صبرهم على مجالسة الثقلاء .	٥٠٨
❋ ومن أخلاقهم كثرة الشفقة على الدابة التى ركبوها بإجارة أو عارية .	٥١٠
❋ ومن أخلاقهم مواظبتهم على الوضوء ليلا ونهاراً كلما أحدثوا .	٥١١
❋ ومن أخلاقهم صحبة الحشاشين وإلانة القول لهم .	٥١١
❋ ومن أخلاقهم كثرة تواضعهم لبعضهم بعضا .	٥١٢
❋ ومن أخلاقهم زيادة التعظيم لكل من اختفى من أقرانهم ونفرت عنه تلامذته .	٥١٣
❋ ومن أخلاقهم أن يحفظوا حرمة إخوانهم فى غيبتهم .	٥١٤
❋ ومن أخلاقهم تحمل الأذى عن كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله بطريقه الشرعى .	٥١٥
❋ ومن أخلاقهم عدم إرسالهم عيالهم فى فرح من عرس وختان .	٥١٦
❋ ومن أخلاقهم كثرة رحمتهم للسكران وجميع العصاة .	٥١٨
❋ ومن أخلاقهم اهتمامهم بإكرام الضيف وتهيئة ما يأكل .	٥١٩
❋ ومن أخلاقهم خدمة الضيف بأنفسهم أو غلامهم .	٥١٩
❋ ومن أخلاقهم إقامة العذر للعلماء إذا لبسوا الملابس الفاخرة .	٥٢٠
❋ ومن أخلاقهم رؤيتهم لمحاسن أعمال الناس .	٥٢١
❋ ومن أخلاقهم مؤاخذة نفوسهم بما يخطر فى بواطنهم من السوء.	٥٢٣
❋ ومن أخلاقهم عملهم بما ورد أنه يكون سببا لموتهم على الإيمان من الأمور المقربة إلى الله تعالى .	٥٢٣

الموضـــــــوع — الصفحة

* ومن أخلاقهم إذا عملو مولدا كبير بطباخين ومنشدين ونحو ذلك ٥٢٥
* ومن أخلاقهم عدم ظنهم بأنفسهم النجاة بأعمالهم . ٥٢٥
* ومن أخلاقهم عدم حزنهم النفسانى على أحد صحبهم ثم فارقهم. ٥٢٦
* ومن أخلاقهم هروبهم من فعل كل شئ يقيم لهم ناموسا بين أقرانهم ويميزهم عنهم إلا بعذر شرعى . ٥٢٦
* ومن أخلاقهم تكبيرهم بإخوانهم بحسب مقامهم فى التواضع . ٥٢٧
* ومن أخلاقهم عدم تكديرهم بحظ نفس ممن أمروه بأمر لم يمتثل أمرهم . ٥٢٨

تم الجزء الأول
ويليه بعون الله الجزء الثانى
وأدلة الباب الخامس فى جملة من الأخلاق